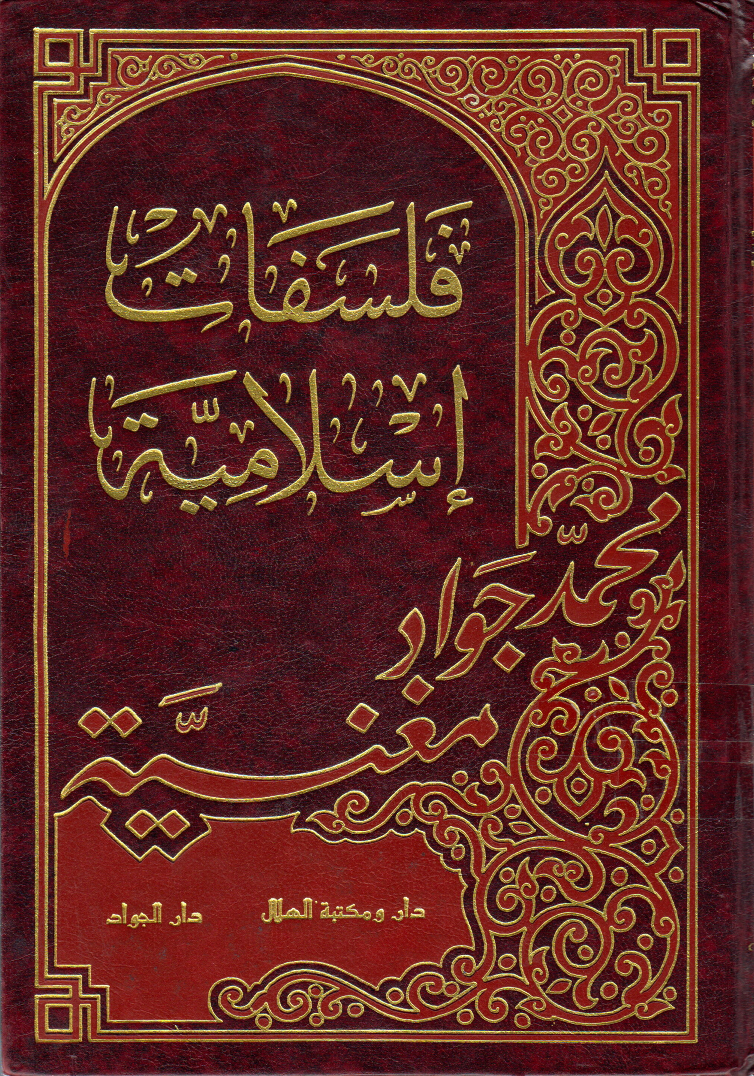

فلسفات إسلامية
محمد جواد مغنية
دار ومكتبة الهلال
دار الجواد

محمد جواد مغنية

فلسفات إسلامية



دار ومكتبة الهلال
بيروت - لبنان
ص . ب ١٥/٥٠٠٣

دار الجواد
بيروت - لبنان
ص . ب ١٤/٥٨١٣

الطبعة السادسة
١٩٩٣م .

مقدمة

والحمدلله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين العودة الى نقاش الجاحدين

وبعد :

فان هذا الكتاب واحد من تجاربي التي مررت بها ، أو مرت بي . . . وبه تبلغ مؤلفاتي الاربعين ، طبع منها ونشر أكثر من خمسة وثلاثين . . وكنت قد تصورت نفسي انها طلقت التأليف ثلاثاً ، وانها لن ترجع اليه ابداً بعد « التفسير الكاشف » وما خطر بالبال وطاف بالخيال ان اعود الى نقاش الجاحدين بالتوحيد، والنبوة ، والولاية ، واليوم الآخر ، كيف وقد سبق ان كتبت واذعت في هذا الموضوع مرات ومرات ؟ . . وهو ـ أي النقاش في الاصول الاربعة ـ موضوع كتابي هذا الذي شاء سبحانه ان يكون ، فهيأ أسبابه . . .

استفت قلبك

اجمع النجاة ومعهم علماء المعاني والبيان ان كل خبر مكتوباً أو منطوقاً فهو

يحتمل الصدق والكذب ، وبخاصة اذا كان المخبر يتحدث عن نفسه ، وبصورة اخص اذا كان شغوفاً ومولعاً بالكلام عن عبقريته ، حيث يكون الحديث عندئذ مجرد ادعاء يحتاج الى اثبات .

وقد أكون انا هذا الشغوف المولع دون ان أحس واشعر . . . ومع هذا لا يحق لاحد ايا كان ان يطالبني بالبينة ، لسبب بسيط ، وهو أني لا اطلب من القارىء ان يقتنع على كل حال ، بل أدعه وما يحس من قلبه ، ويكتشف بنفسه من خلال السطور والكلمات . . . ولا يهمني أبداً ان يشك ويرتاب ما دمت على يقين مما أقول .

انا والقارىء

كنت ، وانا اكتب التفسير الكاشف كلاعب الكرة ، يركض وراءها أنى تتجه ، ولا يقف لحظة واحدة ليلتقط نفساً من انفاسه . . . آية لا تتجاوز كلماتها عدد الاصابع ابحث وانقب في العديد من المصادر لا فهم المراد ، ومتى وثقت باني صرت من أهل الفهم والعلم بما تعنيه الآية حاولت جهدي ان اعبر عنه باسلوب واضح ، لا تصنيع فيه، ولا تطويل كي يستسيغه القارىء ، ولا يمله .

وانا احب قارئي كثيراً حتى ولو انتقدني واعرض عن افكاري . . . لاني لولاه ما فكرت ولا كتبت . . . ومن اجل هذا احرص على متابعته لي حتى النهاية، وأتملق اليه ـ ما أمكن ـ خوفاً أن يتركني الى غير رجعة ، ولا سلطان لي على قلبه وعقله الا بما ينسجم مع ذوقه وطبعه . . وأية جدوى من كتاب لا يقرأ، ومن قول لا يسمع .

وخير وسيلة لاغراء القارىء ان يخاطبه الكاتب بالحقيقة ، ويصوغها بشكل طبيعي ، ولا يتظاهر امامه بغير ما يؤمن ويدين ، وأعني بالحقيقة كل ما يتصل بحياة الناس ، وينبع من حاجاتهم . . وأية فكرة تتجاهل هذه الحقيقة فما هي من الدين والعلم في شيء . أما الشكل الطبيعي فالمراد به ان يجري الكاتب على فطرته وسجيته ولا يتعمد الصنعة وزخرفة الكلام ، ومتى استمر على ذلك نما أسلوبه شيئاً فشيئاً ، واصلح نفسه بنفسه .

نجاحي كمؤلف

قد يظن القارىء وغير القارىء ان نجاحي ككاتب أو كمؤلف اسلامي يعود فقط الى ما أشرت . . أما أنا فاظن ان الكاتب الاسلامي لا ينجح ، ويستحيل ان ينجح الا مع هذه الشروط بالاضافة الى ما تقدم :

الاول : ان يكون على علم أو المام بالتيارات والمذاهب الفكرية الحديثة ، ومدى سلطانها وتأثيرها في هذا العصر .

الثاني : ان يفهم الاسلام على حقيقته ، وانه سهل يسير ومفهوم لكافة الناس ، وان تعاليمه من الالف الى الياء اساسها الاخلاص ، والعمل الصالح ، ثم يعرضها بايجاز ووضوح ، ويدفع عنها ما أثير أو يثار حولها من شكوك وشبهات .

الثالث : ان يكون عالماً بعيوب المجتمع الاسلامي وأوضاعه ، كالتعصب الاعمى ، والتمسك بالقشور ، والايمان بالبدع ، واللامبالاة بالصالح العام ،

وغير ذلك مما يبرأ منه الـدين والعلم ، ويأبـاه العقل والضمير ، وأن ينقد هـذه العيوب والاوضاع بجرأة وأخلاص ، ويذكر ما يراه كفيلاً بازالتها (١) .

نفثه مصدور

خاطبت القارىء بما اعتقد ، وظهرت له على حقيقتي لفظاً ومعنى في كل ما كتبت ونشرت ، فتقبلني على علاتي ، وأقبل الشباب والشيوخ على مؤلفاتي ، واهتمت بها أكبر دار للنشر في الشرق العـربي ، وكنت ومـا زلت أقبض منهـا في كل سنة بالآلاف لا بالمئات ، فغبطني البعض ، وحسدني آخرون .

واقسم لاولئك وهـؤلاء اني ارثي لحالي ، واحـزن على نفسي ، واود من اعماقي لو كنت راعياً أو حطاباً . . وانتهيت الى هذه الامنية بعد العمر الطويل، والتجـارب القـاسية ، وفي كثير مـن الاحيان كـان يخيل الي أن حيـاتي هبـاء وان نشاطي في التأليف وهم، واني تماماً كالآلة الصماء ، اتحرك من غير شعور . . من اين جاء هذا الخيال وكتبي تعود علي بكل خير ! .

الله اعلم . . ومعذرة من هذه الثرثرة . . . انها نفثة مصدور .

---

(١) دارت في رأيي فكـرة قبل سنوات ، وتعـاودني من حين لآخر ، وهي ان اصـدر مجلة باسـم « هدم وبناء » وابوابها الـرئيسية ثلاثة ، وما عداهـا ثانوي جانبي : الباب الاول الدفـاع عن الاسلام . الثاني تبسيط وتوضيح مبادئه وتعـاليمه . الثالث نقد العيـوب ، وهو المراد بالهدم وبيان مـا يجب اتباعه على شرط الاسلام وهو البناء واذا حالت الظروف بيني وبين هذه الفكرة أو الامنية فعسى ان يتاح لها من هو كفؤ واهل .

الفرار

واخيراً ، وبعد اربع سنوات امضيتها مع التفسير الكاشف ثم بعون الله وتوفيقه . . . فسجدت له شكراً ، واهتز قلبي فرحاً ، وكنت في أسعد لحظة من حياتي وقلت : لا تأليف ولا عمل بعد اليوم . . أبداً لا شيء الا الراحة والسياحة ، فلقد علت بي السن ، وكفاني ما لاقيت . . ولا بد من جو جديد ، لا عواصف فيه ، ولا قذائف . . وصممت ان اموت بلا متاعب وهموم — ان امكن — وقال لي اخ يعلم حالي : يستحيل ان تدع التأليف ، وستعود اليه من حيث لا تريد . . والمسألة قضية وقت ، كيف وقد اصبح التأليف لك طبعاً ، ومن وجودك جزءاً ، وسترى . . فرددت الصدر على العجز ، وقلت له : انت الذي سيرى .

ولكن من اين ابدأ الترحال ؟ وما لبثت حتى سافرت الى مدينة أسوان ، وأمضيت فيها وفي القاهرة حوالي شهر ، وفكرت أن أبقى في مصر حتى النهاية ، ولكن أوضاع الحرب بينها وبين اسرائيل منعتني من التنفيذ . . والانسان تصوغه احداث البيئة التي يعيشها ، ولن يتحرر منها بحال ، وان حاول .

الى قم

عدت الى بيتي ومكتبتي لاتساءل من جديد : اين القي بمتاعبي وهمومي وهل يتاح لي ان اتمتع بالبقية الباقية من ايامي التي تقصر وتذهب مع الثواني والانفاس ! . وتردد هذا التساؤل في نفسي اياماً ، وبقي قائماً من غير جواب الى ان تلقيت دعوة من المرجع الديني آية الله شر يعتمداري ، يرغب الي فيها أن

ادرس في دار التبليغ ، فوقفت منها حائراً : هل أقبل ، أو أرفض ! وبقي هذا التساؤل أكثر من شهر . . ثم أوكلت الامر اليه تعالى وسألته باخلاص ان يختار لي ما فيه الخير والصلاح دنيا وآخرة ، واستفتحت بكتابة المجيد ، فواجهتني هذه الآية : ﴿ وقال أني ذاهب الى ربي سيهدين ﴾ ٩٩ الصفات .

وفسرتها بما ينسجم مع امنيتي ، وهي الهداية الى سبيل الصفو والهدوء والراحة والتحرر من الهموم والمتاعب ، وما خطر في بالي كتاب فلسفة التوحيد والولاية ، وانه قد ينتفع بي طلاب دار التبليغ وغيرهم من الذين يوجهون الاسئلة الي ، ويثقون باجوبتي ومعرفتي . . وعلى أية حال فقد أجبت الدعوة على شرط ان أسافر الى قم على حسابي ، وبصفتي زائراً لا مقيماً ، وادرس الاوضاع فيها عن كثب ، وعلى ضوئها اقرر الايجاب أو النفي ، ولما قبل الشرط عزمت وتوكلت ، وقد استهواني بقم اكثر من اي شيء الحركة العلمية ، فمن حلقات الدروس الخارج الى اخرى لدراسة السطوح ، وثالثه لتفسير القرآن ، ورابعة لنهج البلاغة ، ومن المحاضرات الاسبوعية هنا وهناك الى النشرات الدينية لتربية الجيل أو ليظل ارتباطهم بدينهم حياً وقوياً .

أما دار التبليغ فرأيتها تعج بالاساتذة والتلاميذ ، هذا يلقي الدرس على طلابه ، وذاك يسأل ويذاكر ، وثالث مكب على القراءة والمطالعة ، ورابع يترجم من لغة الى لغة ، وخامس يضرب على الآلة الكاتبة ، وسادس يراقب الاعمال ، ويهتم بشؤون الطلاب وحل مشاكلهم ، فعزمت أن أخلص لهذه الدار ، وأن أضاعف العناية بطلابها جهد ما أستطيع ما دمت في ايران ، وان لا اقيم اية علاقة مع انسان الا على أساس العلم ، وان لا استمع لاحاديث السياسة والتحزبات ، أو ادخل فيها . . ومضيت على هذا العزم والتصميم وسأبقى معه

مـا دمت بعيـداً عن وطني . . وليقل صراصير الـد من مـا شـاء لهم اللـؤم والضغن . . فلقد الفت الشائعات المغرضة حتـى اصبحت عندي كلاماً فارغاً لا تعني شيئاً ، أو انها تعني غيري .

ومهما يكن فقـد تقـرر ان ادرس فلسفـة العقيـدة ، والفقـه المقـارن على المذاهب الخمسة : وقلت لآية الله شر يعتمداري : كيف ادرس باللغة العربية ، والطلاب لا يفهمونها . قال : يفهمون ، وان صعب عليهم الكلام والتحدث . قلت : قد يفهمـون ما يقـرأون ، ولكن هل يفهمون مـا يسمعون ؟ فأعـاد كلمة يفهمون وأكدها .

وفي ذات يـوم قلت للطـلاب ، وانـا القي الـدرس : اتمنى لـو عـرفت الفارسية لادرسكم بها . . قالوا : نحن لا نرضى ، لان استماعنا الى اللغة العربية يساعـدنا على التحدث بها ، ويصحح الكثير مـن تعابيرنا العـربية . . ودرسك يجمع بين هذه الفائدة وبين ما تهدف اليه . . ثم أتضحت الحقيقة عند الامتحان في نهاية السنة الـدراسية ، حيث نجح من تلاميـذي الذين كتبوا باللغـة العربية بنسبـة ٩٨ ٪ . وتبين لي ان العديـد منهم يجيدون هـذه اللغـة كتابـة كأبنائهـا ، وعنـدئذ تنبهت الى أن الانسـان يستمع بـوصفه متكلماً ، لا بصفـة ان لـه أذنين وكفى ، وأنه اذا استمع الى غير لغة الام ركز أهتمامه على فهمها من حيث يريد ، أو لا يريد .

وبعـد أن رسمت هذه الصـورة للمجتمع العلمي القمي على ما هـو . . بعيـداً عن الميول والتحيـز ـ أبـدي هذه الملاحظـة بقصد التنبيـه فقط ، وهي أن

المجتمع الديني بقم ـ على وجه العموم ـ كغيره من المجتمعات الدينية الاسلامية يعيش في عزلة عن الاحداث والتيارات العالمية نتيجة التركيز على القديم شكلاً ومحتوى . . ولو كان مع تلك الجهود القيمة توجيه صحيح لطرأت تغيرات كثيرة ونافعة دنيا وآخرة . . وعسى ان يتاح لهذا المجتمع من يوقظه من غفوته ، ويوجهه الى الطريق القويم .

والذي تجدر الاشارة اليه ، بل وتجب ان الجهات الاستعمارية والالحادية تهتم كثيرا بمعرفة الاوساط الدينية في كل مكان اسلامية كانت أم غير اسلامية ، وتجري عنها وعن سائر عادات الشعوب وتقاليدها دراسات واسعة ودقيقة باسم الابحاث الاجتماعية والانسانية ، وتنفق في هذه السبيل الاموال الطائلة ، وتعرف عن النجف وقم أكثر مني ومن حجج الاسلام وآيات الله الملك لعلام . . وتهدف هذه الدراسات الى مقاصد معينة لا صلة لها بالعلم والانسانية من قريب أو بعيد ، وكل همها واهتمامها ان تعرف تأثير الدين وعلمائه في البلاد التي تطمع بخيراتها واخضاعها لسياستها كي تتفادى كل ما من شأنه ان يحول بينها وبين مصالحها وارباحها .

اعادة النظر بروية

قد يحاول المرء ان يبتكر ويتعمق فيما يعرضه على القارىء أو السامع من عصارة افكاره ، فينتهي الى السخف والتعقيد ، وكثيراً ما يحدث هذا للذين يتطلعون الى الشهرة بالعلم ، والى منصب المرجعية قبل الاوان . . وما أكثر هؤلاء

بيننا نحن المعممين و « المعبئين »[1] وخير وسيلة لتنمية العقل الناقذ ـ التكرار واعادة النظر بصبر وروية ، وبقصد التفهم ومعرفة الحقيقة ، لا بقصد ابراز الشخصية والعبقرية .

وكنت قد كتبت في العقيدة وفلسفتها اكثر من مرة ، واعدت النظر مرات ، ولكن في الاسلوب والتعبير بقصد التوضيح والايجاز ـ ما امكن وكنت اسرع الى المطبعة بمجرد ان اهتدي الى قصدي هذا ؟ وبالخصوص ان دار العلم ومطابعها كانت تستعجلني وتلح علي . . هذا ، الى متاعبي الخاصة التي كانت تملأ قلبي وانا بلبنان وقد تحررت منها أو من أكثرها ، وانا في قم ، ولله الحمد ، وصفي لي جو التأليف والتفكير ، وانعكست آثاره في هذه الصفحات التي ادرسها في دار التبليغ واحسب انها تفترق سعة ودقة عما سبق لي من المؤلفات في العقيدة الاسلامية وفلسفتها . . والله سبحانه المسؤول ان يتقبل ويثبت والصلاة على محمد وآله الأطهار .

تنبيه

اهتم علماء الامامية اي أهتمام بنصوص الولاية كتاباً وسنة ، وبذلوا كل جهد بحثاً عنها في كل مكان وبخاصة في كتب المنكرين ومصادرهم ، ووضعوا فيها عشرات المجلدات قديماً وطبعت مرات ، وانتشرت أي انتشار حتى اصبحت في متناول كل يد ، وما زال الخطباء والقراء يكررونها على المنابر ، ويرددها العلماء في المجالس وحلقات الدرس حتى حفظها الالوف عن ظهر

(١) من لبس العباءة على غير قياس .

قلب تماماً كالفاتحة . . ومن اجل هذا أوجزت الكلام عنها ـ ما امكن ـ واقتصرت على ما رأيته ضروريـاً ، وأشرت الى مصادرها السنية والشيعيـة . وأية جدوى من النقل المبذول الذي لا يكلف جهداً ، ولا يضيف جديداً ! وهو سبحانه الهادي الى طاعته . والصلاة على محمد وعترته .

فلسفة التوحيد

والنبوة

دار الجواد
بيروت - لبنان
ص . ب ١٤/٥٨١٣

دار ومكتبة الهلال
بيروت - لبنان
ص . ب ١٥/٥٠٠٢

الطبعة السادسة
١٩٩٣م .

اثبات الخالق

بمنطق الحس والعقل

الدين والشباب

في كل العصور وجد الايمان والمؤمنون بالله ، والالحاد والملحدون به ، وما خلا يوم واحد من اولئك وهؤلاء ، ولكن لماذا اعرض الشباب عن الدين في هذا العصر اكثر من أي وقت مضى ؟ : هل اكتشف فيه هذا الجيل عيوبا واخطاء خفيت على من عاش قبلهم في عصر الظلمات ، وهم يعيشون في عصر النور والتقدم . والمكتشفات والمخترعات ، او ان قادة الدين خانوه ، وانحرفوا عنه ، فزعزت الثقة به وبهم ؟ .

ولا يلجأ في التعليل الى الشطر الاخير الا حاقد او جاهل .

لان الكلام والسؤال عن الدين لا عن رجاله .. والمنحرفون من كل نوع ، لا من رجال الدين فقط موجودون في كل زمان ومكان .

واجاب البعض من رجال الدين عن هذا السؤال من خلال مشكلاته الجزئية ، ومصالحه الشخصية .. وليس في ذلك اية غرابة ، بل هو على الاصول والقواعد ، بالاضافة الى عجزه عن تمحيص الادواء الاجتماعية، وتحليلها بطريقة موضوعية .

وقال آخرون : يرجع السبب في ذلك الى تيارات ومذاهب فلسفية

زائفة في تفسير الكون بخاصة المذهب القائل بان المادة هي الموجود الوحيد . وان الحياة نشأت منها على غير قصد .. ولنا مع الماديين مواقف في كتاب فلسفة المبدأ والمعاد .. وسنقف معهم ايضا بعد لحظات .. ومن تلك التيارات والمذاهب نظرية التطور ؛ فقد ظن البعض خطأ بأنها تتعارض مع الدين ونصوصه ... ولكن عددا غير قليل من القائلين بهذه النظرية ، ومنهم دارون نفسه يؤمنون بالله أيمانهم بانفسهم بعد ايمانهم بانه لا تفسير لتطور المادة يركن اليه العقل والقلب الا بوجود قادر عليهم وراء الطبيعة والمادة ، ويأتي البيان في فقرة الانسان والقرد .. وقد اجاب **شباب الهيبيز** عن هذه التيارات ونحوها باللامعقول في المظاهر والافعال ، وفي المخاريق والمخدرات .

ونحن لا نشك ابدا في ان بعض المدارس والمذاهب سبب من اسباب الالحاد ، واعراض الشباب عن الدين ، وان الكثير منهم انخدع باسماء تشير الى تيارات مغرضة ، واسماء لامعة ، تكلم اصحابها عن الكون وتفسيره ، وهم في عمى عن اصله وسره ، نحن لا نشك في ذلك ، ونعطف عليه سببا آخر نعرضه على الشكل التالي :

تنقسم العلوم الى انسانية ، وطبيعية ، وتهدف الاولى الى دراسة الانسان وحياته ومشاعره وتاريخه ، وتهتم بالقيم والمثل العليا ، ويندرج فيها علم الدين والفلسفة والاخلاق ، والادب والفنون ، والتاريخ والسياسة والاقتصاد ، وما اشبه ، وقد تسهل العلوم الانسانية وسائل العيش لصاحبها ، ولكن هذه الوسائل غير مقصودة بالذات .

اما العلوم الطبيعية فتهدف الى معرفة الطبيعة واشيائها بصرف النظر عن حقيقة الانسان وتاريخه مع العلم بانه كائن طبيعي ، ولا مفر من اعتباره جزءا من الطبيعة ، وان تميز عن غيره بالعقل والوعي ، والمقصود الاول من معرفة الطبيعة تسخيرها في وسائل العيش ، ومطالب الحياة ، ومن اجل

هذا تندرج فيها الصناعة بشتى انواعها •• وقد تبوأت العلوم الانسانية في القديم ، وحيث لم تتقدم الصناعة بعد هذا التقدم الهائل ، وتجرد الانسان عن انسانيته ، تبوأت الانسانيات مكانا عليا ، وبخاصة الدين حيث كان تأثيره بالغا في تفكير الناس ، وسلطانه قويا على حياتهم في شتى جهاتها •

وفجأة وبسرعة مدهشة خرجت الآلة كالعفريت ـ كما شبهها البعض ـ وتطورت الصناعة من الاعتماد على اليد والدولاب الى البخار ، ثم الكهرباء فالذرة ، ووقع الانقلاب العميق والخطير في الحياة ، وتراكمت الثروات ، وامتلأت الجيوب بالنقود ، وتأسست الشركات ، واقيمت المصارف ، وارتفعت البنايات الى قمم الجبال • فتأثر الشباب اي تأثير ، وتمرد الابناء على الآباء ، وأصابهم ما يشبه المس والحمى ، وأبوا الا أن يتجهوا الى المادة وعلومها ليحققوا ارفع مستوى ممكن من الحياة ولو على حساب الدين والضمير والقيم والمبادىء وعلم الدين لا يوصلهم الى هذه الغاية ••• كيف ؟ وهل للدين مصانع ومعامل تدر الاموال ؟ • فانصرفوا عنه الى العلوم العصرية وكل ما يحقق الاماني ويشبع الرغبات، وبالتالي تمردوا على العقائد والاخلاق والتقاليد •• وبهذا كان يعتذر الى عهد قريب المتشائمون من العلوم العصرية •• وكنا نسخر منهم انذاك ، انا وبعض الرفاق يوم كنت طالبا في النجف الاشرف •

والاسلام يعترف باهمية العلوم الطبيعية ويعتبرها من ضرورات الحياة وقد حث عليها كما حث على العلوم الانسانية واعتبرها فريضة على كل مسلم ومسلمة شريطة ان توجه الى خير الانسانية وصالحها واي شيء يجلب الشرور والآلام فهو حرام ومن اكبر الكبائر في نظر الاسلام سواء اسميناه علما انسانيا ، ام علما طبيعيا ، فالآلة التي تصنع او تحمل للمستهلكين الطعام واللباس والدواء فهي عندالله خير ، اما اذا صنعت او حملت الاسلحة الفتاكة ، واجهزة التجسس فهي شرووبال •

والخلاصة ان الموجب لاعراض من اعرض عن الدين من الشباب هو المذاهب المادية الالحادية وحب التباهي والمضاهاة هي المظاهر ومتاع الحياة ... وايا كان السبب فانا نعرض في هذا الفصل الدليل على وجود الخالق من الحس والعقل من غير تحيز او تقليد ، وبصرف النظر عن ايمان من آمن والحاد من ألحد ، ونبدأ قبل كل شيء في انه : هل يجب على البالغ العاقل البحث والنظر لمعرفة الخالق ، او هو في حل من ذلك ؟.

وجوب البحث والنظر

من توضيح الواضحات ان نقول : العلم بالشيء اي شيء ، خير من الجهل به ، فكيف العلم بانه : هل لهذا الكون خالق ومبدع ؟. وهل للانسان مبدىء ومعيد ؟ : وهل هو مسؤول امام خالقه ؟.. وايضا من نافلة الكلام ان نقول : ان الجيل في هذا العصر قد اقبل على العلم ومدارسه اكثر من اي وقت مضى .. ولكن تتساءل : هل الباعث للجيل على طلب العلم هو حب الاطلاع ، ومعرفة الحقيقة ، ام شيء آخر ؟

واشرنا قبل لحظة ان الغالبية الكبرى من ابناء هذا الجيل يطلبون العلم كوسيلة للمال والعيش ، وانهم يقيسون الشهادة بما تدر عليهم من متاع الحياة ، تماما كالبقرة يقاس ثمنها بقدر ما تحلب .. ولو كانوا من طلاب العلم واقعا ، واهل الرغبة في التمييز بين الحق والباطل ، والخير والشر لاتجهوا ، ولو قليلا الى دراسة هذا الوجود :

« وهو كتاب الفه الله ، فاحكم تأليفه بان جعل كل عنصر من عناصر الوجود حرفا من حروفه ، وكل ذرة من ذرات الكائنات كلمة من كلماته وكل عنصر يقوم به كائن هو جملة مقروءة ، واذن فللوجود لغة فصيحة سوية النظام ، وكل مركب من مركباته الطبيعية وراءه معنى كالكلمة تماما ووراء هذا المعنى حقيقة خفية ، تبعث على التفكير يفهمها كل لقن ذكي

يدرك تعبير الحقيقة المطلقة خلال صحائف هذا الوجود •• بيد ان تلك الحقيقة مجردة ، لا تتفتح اصدافها عن معانيها تماما الا لكل ذي قلب ذكي ، ومنطق سليم ونظرة خالصة الى الوجود لا تشوبها نزوة من جمود، لان المخاطب بتلك اللغة انما هي السرائر الانسانية ، والضمائر الحية الكامنة في نفس البشر ، وما تكنه من مدارك ووجدانيات » [1] •

هذا ، الى انا نعلم علم اليقين بان ملايين العقلاء قد آمنوا – على مر العصور – بان للكون خالقا حكيما ، وانه ما ترك الانسان سدى ، بل امره ونهاه ، وانه يعيده بعد الموت للحساب والجزاء •• أليس هذا بكاف لوجوب البحث عن الدلائل ، والنظر في الكون وفي انفسنا لنعلم : هل ايمان الملايين من العلماء والعقلاء صواب ، او خطأ ؟ أليس معنى هذا ان البحث والنظر لمعرفة الله سبحانه هو في جوهره بحث عن الانسان بالذات، وعن مبدئه ومصيره ، وتقييم حياته ، وعن مسؤوليته اتجاه نفسه وغيره ؟•• ان العلم بالله وكتبه ورسله يفتح للانسان ابوابا الى معرفة الكثير من الحقائق والاسرار التي لا يهتدي اليها علم من العلوم : او عقل من العقول بالغا ما بلغ الا بنور من دين الله وشريعته ، وقديما قال العارفون بالمعنى الدقيق للعلم والمعرفة ، قالوا : ان العقل كالبصر، والشرع الالهي نور يهديه الى الصراط القويم ، ومن لا عقل له فهو اعمى ، ومن جهل شريعة الله تخبط في الظلمات •

وبعد ، فما من عاقل الا ويدرك بانه موجود ، وانه حي ، وله احساس وادراك وانه ذرة في هذه الارض ، وهي ذرة من الكون العجيب ••• الا يوحي ذلك كله بان على الانسان ان ينشد الحقيقة ويفكر في سبب وجوده ومصيره ، فان بحث جاهدا واطمأن عقله الى السبب فذاك،

---

(١) من مقال نشرته جريدة الجمهورية المصرية ، عدد ٢٤ اغسطس ١٩٦٧ بقلم محمود ابي الفيض المنوفي .

وان عجز توقف الى ان يزداد فهما وعلما . وترك ما لا يستطيع الى ما يستطيع ولا يسرع الى النفي ويقول : كل ما في الكون صدفة واتفاق . وعبث في عبث ، وتجدر الاشارة الى ان ما ذكرناه في هذه الفقرة هو شرح وتفسير لقول علماء الكلام : « ان النظر في معرفة الله واجب باتفاق المسلمين » .

دلالة الكون على علته :

قال المثاليون : لا وجود لشيء الا اذا ادركه عقل من العقول ، وما لا يدركه عقل ما يستحيل ان يوجد .

ويتلخص الرد عليهم بكلمات ثلاث : الاولى انهم يصادمون البديهة والعيان ، لان العالم الخارجي مستقل بوجوده عن الانسان وادراكه . الثانية انهم اقاموا ادراك الاشياء مقام خالقها وموجدها ، الثالثة يلزم على قولهم هذا ان يكون كل فرد دنيا بنفسه ، وان العالم الذي يعيش فيه زيد غير العالم الذي يعيش فيه بكر ، والنتيجة الحتمية لذلك انه لا معرفة عامة على الاطلاق ، اذ يستحيل الاتفاق على شيء ، وهذا ما دعا « برتراند راسل ان يقول عن « بركلي » زعيم هذا المذهب : « ان مثالية بركلي تصور لنا شكلا من الجنون الذاتي الذي يطبع معظم الفلسفة العصرية » .

ومن البداهة بمكان ان العالم الخارجي مستقل بوجوده وقوانينه عن الانسان ، وعن ادراكه ، وانتفاعه به ، لان الطبيعة اسبق في وجودها من وجود الانسان ، وايضا من البداهة ان ما من شيء له نصيب من الوجود الا ويمكن العلم به . وبعلة وجوده بعد البحث والنظر . سواء أكان ماديا ، ام غير مادي ، وهذا واضح لا ريب فيه .. ولكن هل في الكون دلائل تكشف لنا عن وجود علته ؟. وما هي هذه الدلائل على فرض وجودها ؟.

وأجاب سبحانه عن هذا السؤال بلسان رسله وانبيائه : انه ، جلت عظمته ، هو خالق كل شيء ، وقد نبه العقول الى الادلة والامثال الظاهرة القاطعة على ذلك : « وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ــ ٢١ الحشر » . والادلة التي ذكرها سبحانه على وجوده كثيرة ومتنوعة ، ويجمعها او يجمع اكثرها الانتقال والسير من المعلول الماثل امام العيان الى علته ، وتتم عملية الانتقال من المعلول الى علته في ضوء الحس والعقل معا ، وتسمى هذه العملية عند اهل المنطق بالبرهان الآني ، واليه اشار سبحانه بقوله : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ــ ٥٣ فصلت » .

وقوله تعالى : « سنريهم ... حتى يتبين » يدل بوضوح على ان دين الله والايمان به يعتمد على منطق الحس والعقل ، اي على التفكير في الطبيعة بمعونة الحواس بحيث يكون الايمان بالله نتيجة للبحث والنظر في الشيء المحسوس ، لا نتيجة الوهم والخيال ، والتقليد والتلقين ــ كما يظن الجاهلون ــ ونعطف على منطق الحس والعقل منطق القلب ، فما من انسان حتى الجاحد [1] الا وتمر بقلبه لمعة ، او تظهر على لسانه كلمة ــ من حيث لا يريد ــ تنبىء عن وجود المبدع لهذا الكون العظيم ، فهو يجحد بشيء يؤمن به في قرارة نفسه دون ان يلتفت الى ايمانه هذا .. ولا تفسير لذلك الا ان الواقع يفرض نفسه حتى على اعدائه ومعانديه . وتسأل : نحن نؤمن بفكرة واجب الوجود ايماننا بانفسنا ، لانه اذا لم نفترض وجود هذا الواجب لاستحال ان يوجد شيء على الاطلاق .. ولكن لماذا نلف وندور في البحث عن علة واجبة الوجود لنفسر بها وجود

---

(١) اجتمع تشرشل وستالين اثناء الحرب العامة الثانية وبعد الاجتماع نقل الى مراسلي الصحف ان ستالين كان مكررا اسم الله في حديثه ويقسم به مؤكدا اقواله ونشرت الصحف ما نقله تشرشل رئيس الوزارة الانكليزية عن امام الشيوعيين ورئيس الدولة الروسية .

الطبيعة ما دمنا في غنى عنها بوصف الطبيعة نفسها بواجبة الوجود ؟ وانها لا تحتاج الى علة توجدها تماما كما يقول المؤمنون عن الاله الكائن وراء الطبيعة ، وبكلام آخر ان الماديين يسلمون مع المؤمنين بان واجب الوجود ضروري حتمي ، ولكنهم يقولون : هو الطبيعة . ويقول المؤمنون : بل هو الله الموجود وراء الطبيعة ولماذا الذهاب الى الوراء ، والبحث عن الغائب ما دام الحاضر كافيا وافيا ؟. ومهما يكن ، فان الاختلاف بين المؤمن والجاحد انما هو في التطبيق لا في المفهوم ، وفي الصغرى لا في الكبرى .

الجواب :

اولا : لقد كشف العلم الحديث « ان المادة عبارة عن مجرد حوادث ظاهرة متتابعة لعوامل خفية تكونها ، ثم تتحول المادة الى طاقة . والطاقة الى مادة اخرى ، وبكيفية اخرى .. حتى الكائنات التي لا تبدو لاعيننا ثابتة هي في واقعها سريعة الحركة ، والتطور والتغيير » . ومن البداهة بمكان ان ما كان على هذا الوصف والوضع من التحول والتغيير ـ يستحيل ان يكون واجب الوجود ، وعلة اولية لنفسه ولغيره .

ثانيا : ان المادة الجامدة العمياء لا تكون ولن تكون سببا للحياة والادراك ، ولا للنظام والانسجام ، لان فاقد الشيء لا يعطيه .. واي عاقل يقول : ان العقل في الانسان ، والنظام في الكون ، وما اليهما من حكمة وتدبير ، كل ذلك قد وجد من طبيعة جامدة ، او بنحو الصدفة التي رفضها العلم والفلسفة ، والعقل والوجدان .

اما القول بانه لا فرق بين من آمن وجحد الا في التطبيق والتسمية فقد صدقه بعض السذج ، وهو جهل فاحش ، وخطأ كبير ، لان إله

المؤمنين عالم مريد ، يبدأ الخلق ، ثم يعيده للحساب والجزاء ، ويرسل الانبياء مبشرين ومنذرين ؛ واين منه المادة الجامدة العمياء ؟.

نحن والتجريبيون

التجريبيون هم الذين قالوا : ان مصدر المعارف كلها هو التجربة والخبرة الحسية ، وان وسيلتها الوحيدة هي الحواس الظاهرة : السمع والبصر والشم والذوق واللمس .. واية فكرة رأيا كانت او عقيدة لا تستند الى حاسة من هذه الحواس مباشرة وبلا واسطة فهي سخف وهراء وكلام فارغ .. وهذه عبارتهم بالحرف : « لو اقفل باب الحواس لامتنعت المعرفة كلها » . فصحة الفكرة عندهم تقاس باعتمادها مباشرة على الحس وحده ، اما اذا اعتمدت على الحس وبديهة العقل معا تكون الفكرة مجرد وهم وخيال ، وبالأولى اذا اعتمدت على العقل فقط .

مثلا نحن نتصور وجود الكون ، ونؤمن به ، فهذه الصورة صحيحة وهذا الايمان سليم حيث اعتمد كل منهما على الحس بلا واسطة اما اذا تصورنا وجود خالق الكون ، وآمنا به فيكون التصور والايمان من وهم الخيال ، لانهما لم يعتمدا على شهادة الحواس وحدها ، بل عليها وعلى النظر العقلي ، وهو مبدأ العلية الذي لا يبتني على الحس ، وانما العقل حين رأى الترابط والتلازم وجودا وعدما بين حادثين استخلص من ذلك ان احدهما علة للآخر ، او انهما معلولان لعلة واحدة مع انه لا ضرورة لهذه العلية على الاطلاق حتى ولو اطرد التلازم بين الحادثين آلاف المرات، لانه ــ على حد تعبيرهم ــ ما رأينا لهذه الضرورة حجما او لونا ، ولا سمعنا لها صوتا او حركة ، ولا ذقنا لها طعما ، او شممنا لها ريحا ، فكيف نحكم بوجودها ؟. (انظر كتاب نظرية المعرفة للدكتور زكي نجيب محمود ص ٥٢ وما بعدها ط ١٩٥٦) .

وتجدر الاشارة الى ان التجريبيين لا يطلقون كلمة العلم الا على

الخبرة الحسية التي جاءت نتيجة للتجربة ، ويسمون سائر المعارف بالنظريات الغيبية والميتافيزيقية والمثالية والذاتية ، ويسخرون منها حتى ولو اعتمد الغيب فيما اعتمد على الواقع المفعلي التجريبي .

الجواب :

١ ــ نحن نسلم بالتجربة ، ونصدق شهادة الحواس ، بل ونعتبرها حجة ودليلا على الحق ، ولا نسأل ونبحث عن سبب حجيتها ودليل اعتبارها ، لان علة التصديق بها موجودة فيها بالذات حيث لا شيء وراء الحس والعيان ... نحن نؤمن بذلك ، وفي الوقت نفسه نؤمن ببداهة العقل وشهادتها ، تماما كما نؤمن بشهادة الحواس ، لان الانسان بعقله وحواسه ، ولا غنى له باحدهما عن الآخر ، فالحواس تهدي العقل الى الطريق ، وتفتح له باب المعرفة ، والعقل يختبر ما تراه الحواس وينظر : هل هو في حقيقته وواقعه على ما بدا للحواس ، او على غير ما رأت وشاهدت ؟.

ونعني ببداهة العقل : الخبرة الفطرية التي يشترك فيها العالم والجاهل ، ولا تتأثر وتختلف باختلاف الامزجة والطبايع ، والبيئة والتربية ، كالعلم بان المتساويين لثالث متساويان ، وان المثلث غير المربع ، والكل اعظم من الجزء ، وان الشخص لا يوجد في مكانين بآن واحد ، وان الشيء لا يصدق عليه النفي والاثبات من جهة واحدة ، بل اذا صدق احدهما كذب الآخر . وبالعكس ، ومن انكر هذه البداهة وصحتها فهو تماما كمن انكر شهادة الحواس وسلامتها .. وما لنا ولعقول الناس ومعرفتهم ، فلندعها ونعرض على الواقع : هل يقبل ان يكون الشيء واحدا وكثيرا ، وموجودا وغير موجود في آن واحد ؟.

وهذه الشهادة الحسية والبداهة العقلية هما الطريقان الاوليان

والاساسيان لمعرفة الحقيقة وقياسها بشتى انواعها ، وعليهما تمضي حركة الفكر الانساني ، وهما مصدر افعاله وآثاره ، وعلومه وتقدمه ، وبدونهما لا يمكن بحال الحديث عن الصواب والخطأ . ولا عن العلم والجهل ... ولكن ليس معنى هذا ان المعرفة او الفكرة لا تكون صحيحة الا اذا استندت الى احد هذين الاصلين مباشرة ، بل يكفي ان تنتهي اليه بواسطة او اكثر ، فاية نظرية او عقيدة تقوم على اساس من شهادة الحس او بديهة العقل ولو بالواسطة فهي حق وصدق ، وعلم وصواب حتى ولو كانت غيبية ، والا فهي جهل وضلال .

واذن **فالعبرة** بدليل النظرية والعقيدة لا بنوعها وغيبيتها او حسيتها .. ابدا لا فرق ولا تفاوت عند العلماء حقا وواقعا حتى في مقدار الوضوح والظهور — بين الايمان بعالم الغيب والايمان بعالم الشهادة ما دام الشاهد منطق الحس وبديهة العقل ، وبهذا يتبين الجهل والخطأ في تقسيم النظرية الى غيبية وغير غيبية ، والحكم ببطلان الاولى على كل حال حيث يفرض علينا منطق العلم والحق ان نقيس النظرية بدليلها ومصدرها . لا بنوعها وبما هي في ذاتها .

والايمان بالله ايمان بالغيب ، لانه تعالى لا يقع تحت الحواس ، ولا تصل اليه التجربة الآلية ، ولكن هذا الايمان حق وصدق ، لانه يقوم على اساس من شهادة الحس ، وبديهة العقل ، فالعين ترى الكون وما فيه من نظام وقوانين ، ومن تغير وتطور ، ثم تعرض ما رأت على العقل ، وهو ينظر ويفكر في ان هذا الكون المتغير بل والمستمر التغير ، والذي لا يحس ويشعر يستحيل ان يكون علة لذاته ولنظامه وتغيره ، ولسيره في اتجاه معين ، بل لا بد له من علة ثابتة اولية قد تفردت بالعلم والقدرة والارادة ، وهي التي تحدد اتجاهه ، وتنسق حركاته ، وتنظم قوانينه ، وتدفع به الى الغاية المقصودة من وجوده .. ان العلة الاولية للكون خفية وغيبية ، هذا

صحيح ، ولكن الايمان بها يبتدىء من الاعتماد على المعرفة الصحيحة وطريقها السليم ، اي من الايمان بمنطق الحس والعقل ، وليس كما قيل جهلا او عنادا : « ان الايمان بالله يبتدىء حيث تنتهي المعرفة » .

وبكلام آخر اقرب الى فهم التجريبيين : ان البحث والنظر لمعرفة الله سبحانه بحث ذاتي تأملي ، وفلسفي عقلي ، ما في ذلك ريب ، ولكنه في الوقت نفسه بحث عن العلة الاولية للطبيعة ، والسبب الموجب لوجودها ، وعليه يكون البحث لمعرفته تعالى بحثا لفلسفة الطبيعة نفسها. واقامة نظرة عامة عنها تشمل كلياتها وجزئياتها ، وظواهرها وحقائقها . فاذا اعتمد الايمان بالله ــ مع ذلك ــ على شواهد من الطبيعة تكون مقدمات هذا الايمان بما فيها التفكير النظري المعتمد على الواقع ، تكون مقدمات الايمان بالله في مجموعها طبيعية او شبه طبيعية ، ويكون الايمان بوجوده سبحانه تماما كالايمان بوجود الطبيعة ، وانكار وجوده كانكار وجودها .

وقد اطلقوا اسم علم الربوبية الطبيعي على البحث لمعرفته تعالى بالنظر الى اعتماده على منطق الحس وشهادته بوجود الطبيعة وروعتها ، وايضا اطلقوا عليه اسم علم الربوبية الفلسفي بلحاظ حكم العقل بمبدأ العلية واستحالة تسلسل العلل ، ولك ان تقول : هو بحث علمي فلسفي باعتبار الامرين معا .

٢ ــ من اوجه الرد على التجريبيين الذين حصروا طريق المعرفة بالتجربة والخبرة الحسية : ان هذا الحصر لا دليل عليه من التجربة والخبرة الحسية .. فأية حاسة من الحواس الخمس شهدت وادركت هذا « الحصر » ؟.. ابدا ولا واحدة .. نقول هذا ردا عليهم بمنطقهم ، حيث نفوا مبدأ العلية لانهم ما رأوه بالعين ولا لمسوه باليد ، وفي الوقت نفسه يردون بالوهم على من يستدل ببداهة العقل !.

٣ ــ لو نفينا مبدأ العلية ــ كما زعم التجريبيون ــ لانهارت قواعد العلم بشتى انواعه ، وما امكن اليقين بشيء اسمه حق وصواب ، وسيطر مبدأ الصدفة والاتفاق على كل شيء .. ومن هنا قال فيلسوف كبير : ان هذه النظرية اعظم فتنة ابتدعها الشيطان ، وتشبث بها المرضون عن الحق .. وقال الفيلسوف الالماني ليبنتز : « لا واقع يمكن ان يكون حقا او موجودا . ولا حكم يمكن ان يكون حقا الا وتكون هناك علة كافية لكونه كذلك ، وان كانت العلل في الغالب لا يمكن ان تكون معروفة لنا » .

٤ ــ ان الحواس تختلف باختلاف الافراد ، بل ان حواس الفرد الواحد تختلف بحسب ظروفه واحواله ، فاذا حصرنا المعرفة بشهادة الحواس كان معنى ذلك ان المعرفة خاصة وفردية ، وانه لا قواعد كلية ، وقوانين عامة تضم الوقائع وتنظمها ، وبالتالي انكار العلوم من الاساس .

٥ ــ ان كثيرا من الكائنات الطبيعية تبدو لاعيننا ثابتة ، وهي في واقعها سريعة الحركة ... كما ان كثيرا منها لا يمكن ان تراه العين بحال كالطاقة تتحول الى مادة ، او تتحول المادة اليها ، قال علماء الطبيعة : ان اشياء الكون في حقيقتها ليست طبق ما نراه من مظاهرها المجسمة وانما هي في الواقع مجرد مظاهر وحوادث سريعة التتابع ، كما جاء في نظرية النسبية لانيشتين .

وقال الدكتور فؤاد صروف في مقال نشرته مجلة عالم الفكر الكويتية في العدد الثاني من المجلد الثاني : « ان علماء الطبيعة في هذا العصر رأوا بعقولهم ما لا يمكن ان يروه بعيونهم ، او بصوراتهم الضوئية ، وقد انالهم ذلك فهما جديدا لامور كانت غامضة عليهم من قبل » .

آمن علماء الطبيعة باسرار لا يمكن ان تراها العيون ، ولا ان يتبينها

المجهر المألوف « ولا المجهر الكهربي . ولا مرقب هيل . وهو اكبر مرقب في العالم كله ، ولا تكشف عنها الاشعة السينية » ــ كما جاء في المقال المشار اليه ــ آمن علماء الطبيعة بهذه الاسرار التي يستحيل ان ترى بحال من الاحوال ، آمنوا بعالم الغيب ، لانهم رأوه بعقولهم فقط لا غير، واخذ التجريبيون والماديون والواقعيون والشيوعيون كلهم اخذوا بقول علماء الطبيعة ، وايمانهم بالغيب الذي لا يمكن ان تراه العيون ولا المصورات الضوئية .. ولكنهم في الوقت نفسه كذبوا المؤمنين بالله ، لا لشيء الا لان الايمان بالله ايمان بالغيب الذي لا يمكن ان تراه العيون ولا المصورات الضوئية ... فانكروا على المؤمنين ما اعترفوا به لعلماء الطبيعة، ونقضوا هناك ما ابرموه هنا .. فان كان نظر العقل حقا وصوابا فهو لا يقبل التخصيص بفرد او بفئة ، وان كان خطأ وضلالا فكذلك .

وان قال قائل : ان لدى علماء الطبيعة مختبرات فنية تشهد للعقول بالغيب الذي لا يرى بحال ، وليس لدى المؤمنين مختبرات او مصانع ــ **قلنا في جوابه** : ان الكون العجيب المتقن هو المصنع والمختبر الاعظم الذي يشهد لكل ذي لب بوجود صانع الكون العليم الحكيم .. ومن البداهة بمكان ان مختبر العلماء لا يرشدهم الى عالم الغيب الا اذا تدبروه وانتبهوا اليه ، وامعنوا فيه وفي ادواته ، وهكذا لا يرشد الكون الى خالقه الا اذا نظر الانسان فيه بقلبه وعقله ، لا بغروره وجهله : « كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ــ ٣٨ ــ الروم » .

نحن والبرجماتيون :

البرجماتية مذهب جديد ، ولها في هذا العصر اتباع وانصار لا يحصون عددا ، وزعيمهم « وليم جميس » وتتلخص هذه الفلسفة بان المعرفة في حقيقتها ليست مجرد العلم بالواقع ــ كما هو ــ بل هي اداة للسلوك العملي الذي يدر النفع على صاحبه ايا كان نوع هذا السلوك

ومهما تكن الوسائل المؤدية الى بلوغ الهدف المطلوب •• فما من شيء حسن في ذاته ، او قبيح في ذاته ، وانما يقاس الحسن بالمنافع ، فسياسة الصناعة الحربية والتفرقة العنصرية ، والحروب العدوانية ، كل هذه وما اليها من احسن الحسن اذا درت الارباح ، وكدست الثروات •

نقد فاقت البرجماتية كل التيارات والفلسفات •• قال التجريبيون : اذا لم تعتمد الفكرة على التجربة فما هي بشيء ، والبرجماتيون يؤمنون بالتجربة ، ولكن على شرط المنفعة ، ويقولون : ان التجربة او الفكرة التي لا تجر نفعا ليست بشيء « وانما هي وهم في رأس صاحبها » حتى ولو كان مصدرها التجربة • (انظر كتاب نظرية المعرفة لزكي نجيب ص ٢٩) •

ومعنى هذا ان فكرة الاله والايمان بوجوده وهم في الرؤوس،وجهل في العقول ، وعمي في القلوب ، لان هذا الايمان لا ينشىء مصنعا ، ولا يفتح مصرفا ، ولا يحتكر سوقا ، او يستعمر شعبا •• وايضا معنى هذا انه لا فلسفة واخلاق ، ولا فنون وآداب ، ولا علم نفس وسياسةواجتماع، ولا مبادىء وقوانين ، او حرام وحلال ، ولا بطولات واعمال خالدات •• ابدا لا شيء الا المصانع والمعامل ، وما اليها مما يدر الارباح ، ويؤدي الى التوسع والسيطرة وتكديس الثروات ، ولو على حساب المستضعفين والمستضعفات •

ونشأت البرجماتية ، وترعرعت في احضان « العالم الحر » وجند لها الاذاعة والصحافة والسينما والتلفزيون ومكاتب الاذاعة وادمغة الفلاسفة واقلام الادباء ، وهدفه الاول ان يضفي طابع العلم والتقدم على نظامه الرأسمالي ، وسياسته العدوانية في الشرق والغرب • وان ينفي الحق والعلم عن كل ما يمت الى الانسانية بسبب ولكن ما من انسان في آسيا وافريقيا واوربا مستعد لأن يموت من اجل الرأسمالية، كماقال الفيلسوف الفرنسي « جاك ماريتان » • يريد ان هذه الرأسمالية لن تعيش الا على

حساب الشعوب ومقدراتها ولكن الشعوب لن تخضع وتستسلم ، بل تقاوم وتثور دفاعا عن حياتها واقواتها •

وبعد ، فلا فرق ابدا بين العالم الشيوعي والعالم الحر ، ذاك يقول: لا نؤمن بالله ، لانه ايمان بالغيب ، وهذا يقول : لا نؤمن الا بحقول البترول واحتكار الاسواق والسلع ، والا بقنابل النابلم واجهزة التجسس •• والنتيجة واحدة من حيث الكفر والالحاد ، واذا الح العالم الحر على اسم الاله وذكره فانما يعني ، الاله المخلص للرأسمالية، والمحامي عنه وعنها ، ولا يعني إله الضعفاء والمشردين من ابناء فيتنام وفلسطين •

العلم يدعو الى الايمان بالله :

آمن كثير من علماء الطبيعة وغيرهم في هذا العصر بعد ان كانوا به من الجاحدين ، ورووا قصة هذا الايمان واسبابه ، وهي عين بحوثهم وتجاربهم لطبيعة الاشياء المادية ووظيفتها •• وقد جمع البعض طائفة من اقوالهم في كتاب باسم « الله يتجلى في عصر العلم » وترجم هذا الكتاب الى العديد من اللغات ومنها اللغة العربية في ١٧٠ صفحة ، وتحدثت عنه ، ونقلت منه في فصل خاص بكتاب « فلسفة المبدأ والمعاد » •

ووضع العقاد كتابا مستقلا في « عقائد المفكرين » • وهذا هو اسمه الكامل ، وفيهم رجال من علماء الطبيعة ، وفلاسفة وادباء واطباء ومهندسون وغيرهم •• وايضا تحدثت عن هذا الكتاب ، ونقلت منه في كتاب « الله والعقل » •

واخيرا قرأت مقالا مطولا وبالغ الاهمية للدكتور محمد عبد الهادي ابي ريدة بعنوان « الايمان بالله في عصر العلم » نشرته مجلة عالم الفكر الكويتية في العدد الاول من المجلد الاول ، وهو يغني ــ كما اعتقد ــ عن

كل ما كتب في اثبات الخالق حتى الآن ، فلقد عرض فيه نوع الادلة على وجود الله من عهد افلاطون الى اليوم ، واحسن العرض واوضح ، واجاد في التلخيص وجمع .. وفيما يلي نشير الى بعض ما جاء في هذا المقال وفي غيره مما قرأناه في الكتب الحديثة والصحف .

الفلسفة والتأمل العقلي :

تعتمد الفلسفة على التفكير والتأمل العقلي ، ومثال ذلك ان تقول : هذا الكون الذي نراه بالحس غير ثابت على حال حيث نشاهد فيه حدوثا وتغييرا وزوالا ، واذن لا بد له من علة ثابتة مستقرة والا لزم التسلسل الى ما لا نهاية ... وهذا الدليل يستند الى مبدأ العلية ، ومبدأ استحالة التسلسل في العلل ، وضرورة الانتهاء الى علة اولية لا تحول ولا تزول ، وهذان المبدآن عقليان .

مثال ثان للتأمل الفلسفي : للطبيعة نظام متقن ومحكم ، وهي تسير عليه منذ ملايين السنين ، ولا تحيد عنه بحال ، ومن اجل هذا امكن ضبطها وقياسها والاستفادة منها . وهذا يحتم وجود قوة عليا وراء الطبيعة مريدة قادرة ، وحكيمة عالمة ، وهي التي اتقنت واحكمت ، والا فكيف يجوز وجود فعل متقن محكم من غير عليم حكيم ؟.. ويعتمد هذا الدليل على مبدأ العلة الكافية لكل ما يحدث في العالم ، وان الصدفة باطلة لا يصح ان يفسر بها شيء كما هو الحق ، لان الصدفة لا تتكرر ، وتنفي الترابط بين الاشياء على وجه الاطلاق .

العلم والتجربة :

ويعتمد العلم بمعناه الحديث على الخبرة الحسية والعمل التجريبي الذي يرى بالعين ، ويلمس باليد ، ولا يتجاوزه الى العقل الا ضمن نطاق محدد ، وهو استكمال ما رأته الحواس ومعطياتها فقط لا غير ، ومثال

ذلك ان يكتشف علماء الطبيعة العناصر التي يقوم عليها الكيان الطبيعي ، وتتكون منها الكتلة المادية بشتى انواعها من الذرة الكيمائية التي لا يقع عليها الحس الى اكبر جرم ، وان يكتشفوا ايضا ان هذه العناصر ليست ازلية ولن تكون ابدية بل لها عمر محدد ، ومتى تم هذا الكشف جزموا تلقائيا بان الطبيعة حادثة .

العلماء المفكرون :

وقد استدل العلماء المفكرون في هذا العصر على وجود الله بالدليل التالي :

نحن ندرك وجود الكون ، ولكن كيف نفسر وجوده ونشأته ؟. هناك اربعة احتمالات عن هذا السؤال :

الاحتمال الاول : ان هذا الكون غير موجود في الواقع ، وان تصورنا لوجوده مجرد وهم وخيال !. وليس من شك ان هذا يخالف الواقع ، لان الوجود مستقل ومنفصل عن الذات التي تدركه .

الاحتمال الثاني : ان ينشأ هذا الكون من العدم وبلا سبب !.. وهذا مستحيل ، لان الصدفة لا تفسر لنا وجود العالم بما فيه من مادة وطاقة ، فكيف بالنظام الماثل والتنسيق الهائل في كل شيء ؟.. ان هذا يحتاج الى ادراك وقدرة ، وعلم وحكمة ، والمادة لا تنشىء شيئا من ذلك ، ولو تولدت الحياة من المادة نفسها لم يكن هناك تفرقة بين مادة ومادة ، وان تظهر الحياة في هذه دون تلك .. اجل ، قال العلماء :

« اذا بلغت المادة مبلغا معلوما من الاستعداد صلحت لحلول الحياة فيها ، وتهيأت لخدمتها ، مثلها في ذلك مثل الجهاز الذي يصلح بالتركيب، لقبول الكهرباء ، فان اجزاء الجهاز لا تتحرك الا اذا اجتمعت على النحو

الصالح لاستقبال التيار وتلبية حركاته ؛ وكذلك الاعضاء الجسدية لا تخلق الحياة ، وانما هي ظرف صالح لاستقبالها وتلبية حركلتها اذا تم تركيبها على النحو المعروف » • ومن هنا كان التفسير الآلي الميكانيكي لحركة المادة باطلا •

الاحتمال الثالث : ان الكون ازلي لا بداية له •• وهذا باطل حيث اكتشف العلم الحديث حتى الآن عناصر يبلغ عددها ١٠٢ ، وكل مادة عرفها الانسان تتكون من واحد او اكثر من هذه ال ١٠٢ [١] وبعد دراستها بدقة تبين لعلماء الطبيعة ان جميع هذه العناصر في سبيل الزوال ، ولكن بعضها يسير اليه بسرعة ؛ وبعضها ببطء ؛ وفي ضوء هذه الحقيقة قرروا ان العالم له بداية ونهاية ، وانه لا بد ان يزول بعد ان تتحقق الغاية من وجوده ؛ وقدروا عمر العالم ــ على التقريب ــ بحوالي خمسة بلايين من السنين •

واذا بطلت الاحتمالات الثلاثة تعين الرابع ، وهو ما نقله ابو ريدة عن « مونسما » في مقاله الذي اشرنا اليه وهو « لا بد لاصل الكون من خالق ازلي ليس له بداية ، عليم محيط بكل شيء قوي ليس لقدرته حدود، ولا بد ان يكون هذا الكون من صنع يديه » • وايضا نقل عنه ما نصه بالحرف :

« اذا كان هذا العالم المادي عاجزا عن ان يخلق نفسه ؛ او يحدد القوانين التي يخضع لها فلا بد ان يكون الخلق قد تم بقدرة كائن غير مادي، وتدل كل الشواهد على ان الخالق متصف بالعقل والحكمة والارادة •• واذن فالنتيجة المنطقية الحتمية التي يفرضها علينا العقل ليست مقصورة على ان لهذا الكون خالقا فحسب ، بل لا بد ان يكون هذا الخالق حكيما عليما قادرا على كل شيء كي يستطيع ان يخلق هذا الكون وينظمه

(١) ذكر احمد امين العراقي في آخر الجزء الثالث من كتاب التكامل في الاسلام ــ جدولا باسماء هذه العناصر .

ويدبره ، ولا بد ان يكون هذا الخالق دائم الوجـود تتجلى آياته في كل مكان » ٠

ان ايمان من آمن بالله عن طريق النظر في الكـون وفي الانسان ـ يكشف لنا بوضوح عن السر في قولـه تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » ان رجال العلم الطبيعي كغيرهم من العلماء وارباب المهن يهتمون فقط بما يتصل بوظيفتهم واختصاصهم ، ولا يفكرون في غيره الا عرضا وعند الضرورة ، ولكن علماء الطبيعة التقـوا على غير ميعاد مع الطريق المؤدية الى معرفة الله تعالى والايمان به ، ذلك بان الآفاق اي اقطار السموات والارض هي الموضوع الاساسي لبحوثهم، والميدان الفسيح لتجاربهم ، وهي في الوقت نفسه نقطة البداية والانطلاق الى العلم بوجود الله ، فانتهى بهم هذا اللقاء الى معرفته تعالى والايمـان به من حيث لا يريدون ٠٠ وصدق من قال : العلم يدعو الى الايمان ٠ ومن اصدق من الله حديثا : « انما يخشى الله من عباده العلماء ـ ٢٨ فاطر » ٠

وفيما يلي نذكر فقرتين : احداهما لمثال من الآفاق التي اشارت اليها الآية ، وهو القمر ، والثانية للانسان وما يتصل به ٠

القمـر

في صيف سنة ١٩٦٩ هبط على سطح القمر رائدا الفضاء الامركيان: « ونج » و « اودين » وتعقبت ما كتب علماء الطبيعة حول رحلتهمـا ٠٠ واشير هنا الى ما قرأته في جريدة الاخبار المصرية عدد ٦ ـ ٢ ـ ١٩٧٠ ، فقد ترجمت هذه الجريدة في العـدد المذكور مقالا عن جريدة برافـدا السوفيتية لعالمين شيوعيين بارزين في العلوم الطبيعية ، وهما « م فاسين » و « واشرباكوف » السوفيتيان ٠٠ لقد اطلع هذان العالمان على النتـائج التي اعلنها العلماء الامركيون لدراسة تربة القمر والصورة التي اخذت له عن كثب . وقالا فيما قالا :

« ان الدراسة العلمية الحديثة ترفض كل النظريات الشائعة عن اصل القمر ، ولا تقبل الا تفسيرا واحدا ، وهو ان القمر مصنوع صنعا دقيقا ومحكما ، وان الذي صنعته قوة مذهلة تملك من الطاقات ما لا يملكه اي كائن من الكائنات .. ان الدراسة العلمية تبدأ بفكرة جديدة ، وتقول هذه الفكرة الجديدة : ان في القمر ظواهر يستحيل ان توجد بالصدفة .. كلا ، انها تمت بيد عالمة قادرة قد احكمت صنع القمر احكاما مذهلا » .

آمن الشيوعيون وغيرهم من الماديين آمنوا بالمادة ، وقالوا : هي الموجود الوحيد ، ولا إله الا هي ، وان الحياة والسمع والبصر والعقل وسائر الغرائز الانسانية والحيوانية ، وان نظام الكون ، وما فيه من ابداع واسرار ، كل ذلك وما اليه من الموجودات لا اساس له الا المادة ، ولا حول ولا قوة الا لها وحدها ، فهي الظاهر والباطن ، والاول والآخر، وفلسفوا هذا الألحاد بكل ما يملكون من منطق، ورفضوا القيم والاديان بشتى انواعها ، وزعموا ان العلم عدو الايمان بالله واليوم الآخر .. ولما تقدموا بعض الشيء في العلم الذي جعلوا منه عدوا لله ورسله ـ قادهم ، او قاد الكبار من علمائهم في الطبيعة والمادة قادهم « هذا العدو » مرغمين الى الايمان ، بمصدر هذا الكون وخالقه « العالم المريد » الذي يملك من الطاقات ما لا يملكه اي كائن من الكائنات » حتى المادة إله الشيوعيين والماديين ، وفوق ذلك اعلنوا الدليل المادي المحسوس على اثبات الخالق ليكون حجة بالغة قاطعة على جميع الميادين .. هذا ، وهم لا يعتبرون ان من عملهم اثبات الخالق الكائن وراء الطبيعة وفوق المادة ، بل العكس هو الصحيح .. فاين هي فلسفة ماركس ولينين ، وانجلز وستالين ؟ اين هي ؟ لقد ذهبت مع الهباء بنظرة صحيحة واحدة من العلم الى الآفاق .

ومهما شككت فاني لا اشك ابدا في ان هذين العالمين السوفيتيين : فاسين وباكوف، هما من اظهر المصاديق والافراد الذين عناهم الله بقوله :

« سنريهم آياتنا في الآفاق الخ .. » لقد فسرت هذه الآيـة الكريمة في التفسير الكاشف ، واطلت الكلام حولها بعض الشيء ، والآن ، وانا ارسم هذه الاحرف خطر لي ان اعطف على ما اسلفت هذا المعنى ، وهو ان الله سبحانه قد تحدى بهذه الآية ــ فيمن تحدى ــ العلماء الماديين الذين علم الله انهم سيوجدون بعد اكثر من الف سنة ، بل والوف السنين من نزول كتابه الكريم ، وبعد ان يزدادوا علما بالكون ، تحداهم بما يريهم من آياته في الآفاق .. وقد اراهم .. فما استطاعوا الا الاذعان لها والتسليم بهـا .. ونحن على علم اليقين ان المستقبل لعقيدة التوحيد لان سبيلها سبيـل العلم ، والامل به هو الامل بها بالذات .

تذكرت ــ وانا اقرأ ما قاله العالمان السوفيتيان ــ كلمة لابن عربـي في الفتوحات المكية ، وهي : انك لا تقدر ان تنكر ما ترى ، كما انـك لا تقدر ان تجهل ما تعلم ، وانت ترى الوجود ، وتعلم به علم اليقين ، وهـو حروف وكلمات وسور وآيات تنطق بوجود كاتبهـا ، وهو الله وان لم تره ، فالوجود قرآن الله الكبير الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه .

شيء آخر تجدر الاشارة اليه ، وهو : هل الذي تحدى علماء الطبيعة وغيرهم منذ نزول القرآن الى آخر يوم ، وقال : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » هل الذي قال هذا بعزم وحزم هو الله خالق الكون والآفاق ، او محمد الذي لا يقرأ ولا يكتب ؟.

وكيف يجرأ محمد على هذا القول ! ومن اين اخذ علمه بالشمس والقمر وغيرهما من الكواكب ؟. هل اخذه من الصحراء ، ام من ابـي جهل وبحيرة الراهب ، ام من التـوراة والانجيل ، ام صعـد الى القمر والمريخ ؟ ابدا . لا تفسير الا الوحي من القادر العليم ، والا الاعجاز على يد النبي العظيم .

الانسان :

اشرنا في الفقرة السابقة الى مثال من الآفاق ، وهو القمر ، ونشير في هذه الفقرة الى الانسان ، قال تعالى : « يخلقكم في بطون امهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ٦ ــ الزمر » • وقال : « لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم ٤ ــ التين » •

وقال : « وفي انفسكم افلا تبصرون ٢١ ــ الذاريات » • يقول سبحانه في هذه الآيات وغيرها ، يقول للجاحد : الم تنظر الى نفسك ، وتفكر في مبدئك وتقلبك خلقا بعد خلق ، ومن طور الى طور ، وتنظر الى اعضائك وجوارحك وسمعك وبصرك وعقلك وبيانك وفطنتك وقدرتك ••• الى غير ذلك من صفاتك الروحية والجسدية ، ثم تسأل عقلك وبصيرتك : هل اوجدت انت ذلك بنفسك ، او وجد صدفة ومن غير علة، او ان وراءه خالقا قديرا وعظيما ؟ ولو لم يكن في الكون الا انت وحدك فقط لا غير لوجدت من نفسك الف دليل ودليل على من انشأك وابدعك•

ان في الانسان آيات واسرارا لا يبلغها الاحصاء ، وكلما اكتشف العلم منها سرا خفيت عليه مئات والوف تماما كالكون •• ومن هنا قال له من قال :

« وفيك انطوى العالم الاكبر » • وكما اكتشف العلم الحديث بعض اسرار القمر وغيره من الآفاق فقد اكتشف ايضا بعض ما في الانسان من سر ، وآخر ما قرأت في هذا الباب مقالا نشرته مجلة روز اليوسف المصرية عدد ٧ ــ ٤ ــ ١٩٦٩ ، جاء فيه :

لقد اكتشف العلماء في هذا العصر ان في جسم الانسان بلايين الملايين من الخلايا •• وتبين لهم ان هذه الخلايا مجتمع من المخلوقات

المختلفة ، لا ترى الواحدة منها لشدة صغرها الا بالميكرسكوب ، ويبلغ عدد هذه الخلايا عشرة اضعاف عدد البشر ، وكلها تعيش في دم الانسان مدة اربعة اشهر فقط ، ويحل غيرها محلها وبمقدارها بحيث يكون عدد الجيل اللاحق كعدد الجيل السابق لا يزيد ولا ينقص ، وبعض هذه الخلايا على هيئة ثعلب ، وبعضها على شكل فيل ، وبعضها تماما كالتمساح الخ .. وهنا العجب ، العجب من هذا التنوع .. ومن كثرة العدد .. والاتفاق فيه دون زيادة او نقصان .. هل كل ذلك من صنع المادة العمياء او من باب الصدفة ، او من صنيع القدير العليم ؟. فتعالى الله الملك الحق لا إله الا هو رب العرش الكريم .

وصدق الفيلسوف الانكليزي جون لوك حيث يقول : صحيح ان الله لم يخلق الايمان فينا خلقا : ولم يطبع في عقولنا حروفا نستطيع ان نقرأ وجوده بها ، ولكن لم يجعل وجوده بلا دليل يشهد له ... فلقد اودع فينا ملكات وقوى تدل عليه دلالة كافية وافية ، ونحن لا نحتاج الى برهان يدل على وجوده اوضح من ذلك .

ولا نستطيع ان نشكو من جهلنا به ما دمنا نحمل ذواتنا معنا ، فانه قد هيأ لنا بذلك كل ما يلزم لمعرفته وزيادة .. وهذا شيء واضح كاليقين الرياضي .. ولا يحتاج ابدا الى اكثر من التفكير والانتباه الى وجوده اليقين ، فنبرهن به على وجود الله باصدق برهان واوضحه ، تماما كما تتنبه ونفكر ونستدل على مسائل نحتاج اليها في حياتنا اليومية ، لانها قابلة في ذاتها للبرهنة الواضحة .

الانسان والقرد :

وتسأل : ان دارون واتباعه يقولون : أن الانسان وجد اول ما وجد على غير صورته التي هو عليها الآن ، ثم انتقل منها الى نوع آخر حتى انتهى الى القرد ، ومنه الى صورته الحالية ؟.

الجواب : قد نعرف بالتحليل في المختبر ما في الانسان من مواد كيماوية ، اما كيف وجد ؟ وعلى اية هيئة كان ؟ فلا تجيب المختبرات عن هذا السؤال ، اما المشاهدة فاي مخلوق رأى وشاهد بداية خلق ابيه ؟.. ولا شيء في الحفريات يدل دلالة واضحة ومقنعة على اصل الانسان ، فلم يبق الا نظرية التطور ، وهي من غير شك جديرة بالعناية ، ولكنها لم تفسر نشأة الحياة تفسيرا علميا ... على انها لا تتصادم مع وجود خالق لهذا الكون .

الى هنا ، وندع الكلام عن نظرية دارون الى شاب له شهرته الادبية والثقافية ، ومؤلفاته الكثيرة منتشرة بين ابناء الجيل ذكورا واناثا وهو الدكتور مصطفى محمود المصري المحرر بمجلة صباح الخير الآن ، وقبلها بمجلة روز اليوسف ، وقد مر هذا الشاب بدور الشك والالحاد ، والف كتابا اسماه الله والانسان أنكر فيه وجود الخالق ... ونقضته بكتاب « الله والعقل » ثم آمن مصطفى محمود عن اقتناع ببينات نشرها ، بل وكرر نشرها في الصحف وفي اكثر من كتاب ، من ذلك كتابه « القرآن محاولة لفهم عصري » . ويتلخص ما قاله في هذا الكتاب عن نظرية دارون ، بما يلي :

ان هذه النظرية ترتكز على امرين : **الاول** : ان الحيوانات انحدرت بكاملها من اصل واحد .. ثم اختلفت نتيجة لاختلاف الظروف والبيئات، فالانسان ـ مثلا ـ في المناطق الباردة مكتنز اللحم بينما هو في المناطق الحارة نحيل هزيل ... وكذلك سائر الحيوانات تتكيف ببيئتها وظروفها .

الثاني : ان كل حيوان تطور من نوع الى نوع نتيجة لبواعث وعوامل من داخله ، ومن خارجه .

وقال مصطفى محمود في الرد على ذلك بان العلماء امضوا بعد داروين سنين وسنين يمحصون ويعيدون النظر في قوله ، فكانت نتيجة بحثهم وتمحيصهم ان التطور في عالم النبات وعالم الحيوان معلول لعلة خارجة عن جنس النبات والحيوان ، ومخالفة لما فيهما .. وقد لمسنا آثار هذه العلة الخارجة في ورق الشجر ، والوان الزهر ، واجنحة الفراش ، وريش الطاووس ، واعظم من هذا كله ان بعض الاشجار الصحراوية تحمل ثمرا يطير بأجنحته محلقا في الهواء .. كل هذا ، وغير هذا لا يفسره الا القادر الذي لا تدركه الابصار ، وهو يدرك الابصار ، وهو اللطيف الخبير .

ثم قال مصطفى محمود : ان داروين في نظريته اشبه بقاصر النظر الذي رأى سيارة تسير دون ان يرى السائق ، فظن انها تنطلق بفعل الآلات المادية التي في داخلها فقط دون اي اثر للسائق .

وبعد ، فلا ادري : كيف رضي داروين واتباع داروين ان يضعوا الانسان بين القردة والحيوان ، وهو سيد الخلائق بما يتمتع به من ادراك وملكات ، وينفرد به من نسق في القيم الخلقية والجمالية !.. قال الله ، جلت حكمته : « ولقد كرمنا بني آدم ــ ٧٠ الاسراء » وقال داروين : كلا ، انهم قرود ابناء قرود !

على ان داروين كان يؤمن بوجود الله فقد اشتهر عنه انه قال : « يبدو لي استحالة القول بان هذا الكون العجيب العظيم وما انطوى عليه من شعورنا الواعي ــ انما كان وليد الصدفة ، ان هذا الكون هو اكبر سند للقول بوجود الله » . انظر كتاب الانسان في القرآن للعقاد .

والخلاصة : ان الايمان بالله ليس ثمرة للوهم والتقليد ، ولا لتفسير ما نجهل تفسيره من ظواهر الطبيعة ، ولا لخوف به المردة الطغاة ، ولا

لنخدر به المستضعفين من الشعوب ، ولا فرارا من حيرة العقل ، ولا ارضاء لحاجة روحية وتعليلا لامنية نفسية ، وانما هو ثمرة حتمية ، لمنطق الحس والعقل ، وشهادة البصر والبصيرة ، ولا شيء اصدق في الدلالة على هذه الحقيقة من نهيه تعالى في العديد من آياته عن اتباع الحدس والظن،وامره بالاعتماد على البصر والبصيرة كطريق الى معرفته والايمان بعظمته ، كما اوضحنا ذلك ، واثبتناه بالارقام •• ومن جحد وكفر فقد خالف الحق عنادا له ؛ او جهلا به لتقصيره في البحث والنظر ، او لقصوره في العقل والفكر •

صفاته تعالى

التوحيد ان لا تتوهمه

تكلم الفلاسفة وعلماء الكلام عن صفاته تعالى ، واطالوا ، ولخصنا اقوالهم في كتاب معالم الفلسفة الاسلامية ، وكتاب فلسفة المبدأ والمعاد ، ونقتصر هنا على ما جاء في القرآن الكريم ، ومن تتبع آياته يجد الكثير منها يشير الى الادلة على وجود الله سبحانه ، ولا يجد آية واحدة تشير من قريب او بعيد الى تحديد ذاته القدسية وبيان كنهها وحقيقتها ، وقد سأل فرعون عن ذلك ، فاجابه موسى بالآثار والافعال ، كما في الآية ٢٣ من الشعراء : « قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات والارض ».

وفي الآية ٤٩ من طه : « قال فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى » . وهذا امر بديهي وطبيعي ، لان العقل الحادث المحدود يستحيل في حقه ان يحيط بالازلي الابدي الذي لا اول لاوله ، ولا آخر لآخره ، ومن هنا قال امير المؤمنين (ع) : فكروا في خلق الله ، ولا تفكروا في ذات الله . وقال : التوحيد ان لا تتوهمه . اي لا تتصوره بوهمك لان كل موهوم محدود . والله لا يحده شيء .

دليل الوصف :

وايضا من تتبع القرآن لا يجد فيه اثرا صريحا للاستدلال على ثبوت

صفة من صفاته تعالى غير التوحيد ، ونفي الشريك ، اما سائر الصفات كالعلم والقدرة والحياة ، وكثير غيرها فانه يذكرها ، ويخاطب الناس بها كشيء مسلم به ، ومفروغ منه ، والسر انه بعد ان قام الدليل القطعي على وجود واجب الوجود بالذات ينتج حتما انه جامع لصفات الجلال والكمال ، وانها في حقيقتها فوق صفات الممكن الحادث بالغا ما بلغ من العظمة ، لان صفات كل شيء بحسبه .

وبكلمة ان هذا الكون العجيب بابداعه ونظامه يحمل الدلائل القطعية على قدرة المبدع وعلمه ، وارادته وحكمته ، تماما كما يحمل الدلائل على اصل وجوده ..

وعليه فاي داع لاطالة الكلام عن صفاته تعالى وتقسيمها الى اقسام ، والاستدلال عليها بالقياسات والاستنتاجات ، وما الى ذلك مما هو مدون في كتب الفلسفة وعلم الكلام .

العلة اكمل من المعلول

وتسأل : ان الفعل يدل على وجود الفاعل ، وايضا يدل على صفاته التي تتجلى في الفعل ، ويظهر اثرها للعيان ، اما الصفات الاخرى فلا يدل عليها الفعل ــ مثلا ــ حسن الخط او جودة البناء يدل على ان الكاتب يتقن فن الكتابة ، ولكنه لا يدل بحال على ان الكاتب او الباني كريم وشجاع ، او جميل وبليغ ، وهذا هو مراد من قال : العلة اكمل من المعلول. واذن فلا بد ان نلتمس المعرفة بسائر صفاته ، نلتمسها من طريق آخر غير النظر في الكون وفي انفسنا ، ولا طريق سوى العقل واستنتاجه .

الجواب : اما الصفات التي تضاف الى الذات القدسية ، ولا تتحد معها كالخالق والرازق والرحمن والرحيم والمحيي والمميت ــ فانها تعرف

من الفعل . وكذا بعض الصفات الذاتية كالحياة والعلم والقدرة . يظهر اثرها في خلقه تعالى وافعاله ، وما عدا ذلك فان ثبت ببديهة العقل ، او بآية منزلة او رواية متواترة آمنا به ايماننا بالله ، والا وجب السكوت عما سكت الله عنه .. اجل : يجب الاعتقاد اجمالا بان الله متصف بجميع ما يليق بقدسيته وعظمته ، اما التفصيل فنحن غير مسؤولين عنه ، ولا محاسبين عليه .. حتى العلم بالحكمة من وجود العالم ، وخلق الانسان .. بل والعلم بان الانسان مسير ، او مخير .

ابدا .. لا يجب البحث والنظر الا من اجل الايمان بالله ، واليوم الآخر وبالنبي والولاية له ، ولمن له العصمة من أهل بيته ، والا العلم اجتهادا ، او تقليدا بما يجب فعله او تركه على اساس الوحي والنص من كتاب الله وسنة نبيه .. وبكلمة واحدة ان الذي تجب معرفته عقلا هو طريق النجاة من الهلكة فقط لا غير .

نفي الصفات :

لا يختلف اثنان من المسلمين في ان الله سبحانه يوصف بكل ما وصف به نفسه في كتابه العزيز ، وان عظمته في الكمال والجلال كما هي لا يحدها وصف ، ولا يدركها عقل ، وانها ازلية ابدية تماما كذاته القدسية ..

وانما الكلام والخلاف في ان الصفات العليا بأي معنى تنسب اليه تعالى ، وتطلق عليه : هل تنسب اليه ، جلت عظمته على انها شيء غير الذات ، وزائدة عليها وعلى كنهها تماما كما هي الحال في وصف الانسان بالعلم ، فان حقيقة الانسان حيوان ناطق ، وحقيقة العلم : الكشف عن الواقع ، فاذا وصفنا الانسان بالعلم فقد وصفناه بما هو زائد وخارج عن ذاته وطبيعته والا كان الانسان بما هو عالما من غير كسب واستفادة وبحث

ودرس ، وهذا خلاف الحس والوجدان هل وصف الله بالعلم وغيره كذلك وعلى هذه الحال ، او ان الله يوصف بالعلم والقدرة بمقتضى ذاته وحقيقته ، لا بشيء زائد عنها تماما كوصف الانسان بالانسانية ، والشجر بالشجرية ـ مثلا ـ قال الاشاعرة كل صفاته تعالى غير ذاته وزائدة عليها: ومعنى هذا ان ذاته بما هي لا تقتضي العلم والقدرة ونحوهما من الكمال تماما كما ان ذات الانسان لا تقتضي العلم .. وقد تخطوا بذلك حدود التوحيد حيث يلزمهم القول بتعدد القديم ، كما تخطوا حدود العدل في قولهم بالجبر .. وما لنا ولهم وندعهم وشأنهم .

وذهب اهل العدل والتوحيد الى انه لا صفات لذات الله تزيد على ذاته ، وان وصفه بالعلم والقدرة كوصف الانسان بالانسانية ، والشجر بالشجرية ، لان ذاته تعالى بما هي وبطبعها تقتضي العلم والقدرة ، بل هي عين العلم والقدرة ، كما ان الانسانية عين الانسان ، لان كماله تعالى ذاتي لاكسبي ، ومطلق غير مقيد بشيء دون شيء ، وجهة دون جهة ، وانه بموجب هذا الكمال الذاتي المطلق غني عن كل شيء يزيد عن ذاته وحقيقته . ولماذا الزيادة وما هو الداعي اليها ما دامت الذات القدسية كاملة بنفسها غنية من كل وجه وهل نحتاج الى الزائد لنكمل به الكامل ونتمم التام ؟

وعلى هذا اذا اطلقت صفات الكمال عليه تعالى كالعالم والقادر فيجب ان يراد بها نفس الذات القدسية التي تقدر على كل شيء وتعلم كل شيء تماما كما يراد من كلمة « الله » وكل وصف جاء في القرآن ، وعلى ألسنة الراسخين في العلم فان المراد منه هذا المعنى بالخصوص .. اما الصفات المنفية عن ذاته تعالى في كلام امير المؤمنين وغيره من الائمة الاطهار (ع) فهي الاحوال الخارجة عن الذات ، والزائدة عليها، وتعرض لها بسبب من الاسباب ، تنفى هذه عنه ، لانها من صفات المخلوقين دون الخالق .

وتسال : كيف تتصور وحدة الذات مع تعدد الصفات ؟ وهل هـذا الا كقول من قال : الاب والابن وروح القدس إله واحد .

واجاب البعض بان الصفات بالنسبة اليـه تعالى متعددة مفهوما متحدة مصداقا .

وهذا الجواب ــ كما نرى ــ لا يحل الاشكال ، لان صدق المفاهيم العديدة على شيء واحد يستدعي ان تكون به حيثيات عديدة ، فيقـال : هو عالم ، لصدق مفهوم العلم عليه ، وقادر لصدق مفهوم القدرة .. والله تعالى واحد من كل وجه ، لا حيثيات له وجهات .. اجل ، يقال : هو علم لان العلم ذاتي له ، وهو عالم ، لانه يعلم كل شيء ، ولكن الجهـة هنـا واحدة ، وهي العلم .. والاولى في الجواب : انه لا مصداق ولا مفاهيم ، ولا حيثيات وجهات .. لا شيء على الاطلاق الا واجب الوجود الكـامل المطلق من كل وجه ، وان التعدد انما هو في انواع الكمال واقسامه ، لا في ذات الكامل المطلق الذي هو المبدأ الاول لكل كمال .. وبتعبير ثـان كما ان تعدد المخلوقات لا يتنافى مع وحدة الخالق كذلك تعدد الكمالات لا يتنافى مع وحدة مبدئها ومصدرها .

انما هو إله واحد :

الطبيعة واحدة لوجود الترابط والأئتلاف بين اجزائها ، والترتيب الدقيق المحكم ، قال الملا صدرا في الاسفار : « ان مجموع العالـم من حيث هو مجموع شخص واحد ، له وحدة طبيعية ، وليست وحدته كوحدة اشياء متغايرة اتفـق ان صار بالاجتماع والانضمام كشيء واحد مثـل اجتماع البيت من اللبنات والعسكر من افراد ، وذلك بان اجزاء العـالم بينها علاقة ذاتية لانها حاصلـة على الترتيب العلي والمعلولي » ومثالـه الارض فان ثبوتها في مكانها معلول عن ثبوت الشمس في مقرها، وثبوت

الشمس في مقرها معلول عن ثبوت غيرها من الكواكب في اماكنها ومن اجل هذا كانت القوانين التي تحكم اي جزء من اجزاء الطبيعة هي بذاتها تحكم الاجزاء الاخرى ، وان دل هذا التدبير الواحد على شيء فانما يدل على ان المدبر واحد ، ولو كان اكثر لتعدد التدبير وتباين ..

وهذا هو المراد بقوله تعالى : « وما كان معه من إله اذن لذهب كل إله بما خلق ٩١ ـ المؤمنون » . ومثله او قريب منه قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ٢٢ ـ الأنبياء » اي لو تعددت الآلهة في الارض والسماء لما انتظم امر من امور الكون . لانصراف الآلهة عن تدبيره الى الصراع على السلطة والحدود .

وبتعبير واضح ، ومنطق اوضح : لو وجد إلهان فلا يخلو : اما ان يكون احدهما قادرا على تدبير العالم ، واما ان لا يكون . فان كان قادرا كان وجود الثاني عبثا ولزوم ما لا يلزم ، وان لم يكن قادرا فلا يصلح للالوهية لعجزه من جهة ، وعبث وجوده من جهة ثانية .. ومن هنا عندما سئل الامام الصادق (ع)عن الدليل على ان الله واحد قال : ما بالخلق من حاجة الى اكثر . وقال الفيلسوف الالماني « كنت » : ان الطبيعة واحدة. واجزاؤها مترابطة ، واذا كان لكل كوكب وجرم قانون خاص فان هناك قانونا يشمل الجميع ، وهذه الوحدة في القانون والترابط تدل على تنظيم واحد ، ومنظم واحد .

حسبي الله :

وهذا الذي اقتصرنا عليه في الدلالة على التوحيد وغيره من صفات الجلال كاف للعلم بها ، ومؤد للغرض المطلوب شرعا وعقلا . وما زاد فتكثير الفاظ ومضيعة للوقت .. وهناك امر هام وعظيم جدا يتصل مباشرة بكلمة التوحيد وعقباته ، ولا ينبغي اهماله بحال .. ولكن ،

وللاسف ، اهمله علماء الكلام والفلاسفة الموحدون فيما اطلعت عليه من كلامهم مع انهم سودوا الصفحات الطوال في « ان قلت قلت » وما اشبه!.. ويا ليتهم اقتصروا في اثبات التوحيد على الدليل الذي استدل به سبحانه على نفي الشريك له ، وفي غيره من الصفات على ما ثبت ببديهة العقل وتواتر به النقل .. ولكن ارادوا ان يفلسفوا العقيدة على اساس التصورات والتخيلات .

ومهما يكن ، فان الامر الهام الذي اشرنا اليه هو المعاني الجليلة السامية التي تنطوي عليها ، وتوحي بها كلمة التوحيد ، واليك بعضها :

لقد اختص الاسلام عن سائر الاديان باسم دين التوحيد : وافترق عنها بالتشدد في انكار الشرك ، والتنزيه عن كل شائبة من شوائبه .. وتميز المسلم عن غيره بكلمة « لا إله الا الله » كما تميز النصراني بجعل الصليب او عمل اشارته بيده على صدره مع الفارق العظيم في ان الصليب والتصليب في النصرانية شعار وكفى ، اما كلمة التوحيد في الاسلام فهي منهج عملي ، وشريعة للحياة ، كما هي عقيدة بأدق ما فيها من معنى .

ان كلمة لا إله الا الله مبدأ إلهي انساني يهدف الى نجاة الانسان في حياته الفانية والباقية ، ويحفظ له كرامته واستقلاله في شخصيته ، ولا يجعل لاحد عليه سلطانا الا للحق وحده الذي يتساوى فيه الجميع ، فالجاه والمال واشياء الدنيا كلها ليست بآلهة تعبد ، ولا بشيء يذكر الا اذا كانت خالصة لوجه الله ، وكل من ترجوه وما ترجوه ، وتتوكل عليه فهو هباء الا الله فهو كافيك ومغنيك : « رب المشرق والمغرب لا إله الا هو فاتخذه وكيلا ــ ٩ المزمل » . اي توكل على الله وحده لانه لا معين سواه .. وخير ما قرأت في تحديد المتوكل انه الذي لا يعتد بنفسه اطلاقا ، بل يعمل بنشاط ، فاذا نجح ارجع نجاحه الى الله ، لا الى ثمرة يده ، وسمى نجاحه توفيقا من الله وبحوله وقوته ، لا بذكائه هو وقدرته .

ويستحيل عقلا وواقعا ان يخلص الدين او الضمير ، ويصفو من الاكدار والاقذار الا مع عقيدة التوحيد ، والايمان بانه لا احد يملك مع الله شيئا الا ما ملكه ، ومتى صدق هذا الايمان ، واستقام في قلب اي انسان احب وتسامح ، واخلص وتواضع ، وضحى وتعاون ، وتنزه عن رذيلة الحقد والحسد والخيانة ، والكبرياء والغرور ، وبذل قصارى الجهد لمرضاة الله والحق ، ومن اجل هذا سميت كلمة لا إله الا الله كلمة التوحيد ، وكلمة الاخلاص ، وكلمة التقوى ، ولنا ان نسميها ايضا كلمة التحرير وفي الحديث الشريف : « خير ما جئت به انا والنبيون من قبلي هي كلمة « لا إله الا الله » .

وفي عقيدتي وعقيدة كل واع ان الناس لو آمنوا بكلمة التوحيد ، واتخذوها منهجا في سلوكهم لما عرفوا الازمات والمشكلات الخاصة والعامة ولا الحرب الباردة والساخنة ولا انصرفت العقول والاموال والاعمال الى الخراب والدمار والضياع ، بل تعاون كل انسان مع اخيه الانسان ليعيشوا جميعا في هناء وامان .

قال عبد الرحمن عزام في الرسالة الخالدة : « المؤمن الموحد يجد حسابه مع الله مباشرة ، فيرفعه اليه وحده ، فهو لا يكون ظالما ، لانه يعارض بالظلم صفة من صفات الله ، وهي العدل ، وهو لا يكون غليظا قاسيا لانه يعلم ان سيده رحمن رحيم ، ولا يكون كاذبا ولا منافقا ولا مخادعا لان حسابه مع الله الخبير العليم ، ولا يكون ذليلا او جبانا ، لانه يعلم ان الامر بيد الله وحده ، وهكذا اذا استرسلنا في تعداد النقائص نجد انه قد حيل بينها وبين المؤمن الموحد بحجاب من التوحيد » .

الخير والشر

هذه المسالة :

مسألة الخير والشر التي تتكلم عنها هنا هي غير مسألة : هل الانسان مسير او مخير ، ويأتي الكلام عنهـا .. لان موضوع الاولى يتنـاول الظواهر الطبيعية ، وغيرها مما لا يتصل بارادة الانسان واختياره مـن قريب او بعيد ، اما موضوع المسألة الثانية فهو خاص بافعـال الانسان الاختيارية .

ما قيل حول الخير والشر :

للفلاسفة وغيرهم اقوال متضاربة حول الخير والشر ، فمنهم مـن قال : لا وجود لهما بالذات . بل هما من الامور النسبية ، فرب شيء يكون خيرا عند انسان وشرا عند آخر .. كل بحسب شعوره وظروفه وتقديره، وعلى ذلك الكثير من اهل هذا العصر .

ويلاحظ بان هذا القول ان صدق في شيء فانه لا يصدق في كـل شيء .. فالصحة ــ مثلا ــ خير عنـد جميع الناس بـل يطلقون عليهـا بالخصوص كلمة خير بلا قرينة معينة ، وذلك حين يقول احدهم للآخر : كيف انت ؟ ويجيب المخاطب : بخير . فيفهم السامع اول ما يفهم الصحـة والسلامة من كلمة خير ولو كانت الصحة خيرا عند انسان دون آخر لمـا فهم السامع هذا المعنى من كلمة خير الا مع القرينة .

وقال ثان : الخير بذاته موجـود ، وهو كل ما فيه نفـع وصلاح ، والشر بذاته موجود ايضا ، وهو كل ما فيه ضرر وفساد .

ويلاحظ بان هذا اشبه بتفسير الماء بالماء لان النفع والصلاح يحتاج الى تفسير وتحديد ، وكذلك الضر والنفع ..اذ رب صلاح عنـدك هو فساد عند غيرك .

ثم جاء من يقول : علينا ان نتخلص من جميع الاقوال والآراء فـي الخير والشر ، وغيرهما من القيم ، وان نعالج كـل شيء ، وبالخصوص العلوم الانسانية معالجة صحيحة ، وندرسه دراسة موضوعية علمية ، ثم نسجل خصائصه وصفاته بصدق وامانة دون ان ننقده ونبدي رأينا فيه ، ونحكم عليه بخير او بشر ، وحسن او قبح ، لان الاحكام ـ في الغالب ـ تكون مغرضة وموجهة بدوافع شخصية .

ويلاحظ بان هذه السلبية وهذا التهرب من مواجهة الحقيقةوالواقع يتنافى مع الدراسة الموضوعية العلمية ، لان الغرض من هذه الدراسة هو ان نقطف ثمرها ونعلن للناس قيمة الشيء الذي درسناه دراسة علميـة . وهل هي خير ام شر ، وحق ام باطل ؟. والا كانت الدراسة عقيمـة وبلا جدوى... وهل يكفي ان نعلم ونتكلم بان القنبلة الذرية او الهيدروجينية اذا القيت على مدينة فيها الملايين من الرجال والنساء والاطفال افنتهم عن آخرهم ، ثم نحتاط ونتورع عن الحكم بان هذا العمل شر وقبيـح واثم وجريمة ؟.

معيار الخير والشر :

ليس من شك ان الشيء الذي يكون خيرا عند شخص دون آخر ، ويشبع رغباته دون سواه ـ لا ضابط له ولا مقياس .. ومن يقـدر ان يضبط ويحدد الميول الشخصية ؟. وبالخصوص الطائشة والجائرة ...

ومثل ذلك في امتناع الضبط والتحديد ، الشيء الذي يرضي فئة دون فئة لوحدة في المشاعر ، ولكن هذا افضل من النوع الاول الذي يرضي الفرد فقط ، وكلما ازداد عدد الفئة والجماعة كان الخير النسبي افضل، وكذلك الشر .. وعلى اية حال فان الخير والشر النسبي خارج عن محل الكلام وموضوع البحث .

ان موضوع البحث هنا هو الخير والشر بذاته ، ولا شك في وجوده، والدليل عليه بديهة العقل ، فلقد اتفق الناس جميعا على ان الصحة خير ، والمرض شر ، والشجاعة فضيلة ، والجبن رذيلة ، والذكاء والفصاحة من المحسنات ، والبلادة والفهاهة على العكس ، وان الارض الطيبة اغلى واثمن من الارض الخبيثة ، الى غير ذلك مما لا يختلف فيه اثنان مهما تغيرت الظروف والاحوال ... ولو لم يكن للخير والشر وجود في ذاته لما وجدت الشرائع والقوانين ، ولا امكن التحاكم الى شيء ... هذا ، الى ان اهل الجاهلية حتى الهمج الرعاع يحرمون بفطرتهم نكاح الامهات والبنات ، والامم المتحضرة الملحدة منها وغير الملحدة تحرم السرقة والقتل ، وتوجب رد الامانة ، ووفاء الدين ، واي شيء ادل من هذا على وجود الخير والشر بذاته ؟.

اما معيار الخير والشر ، وتحديده ، تحديدا جامعا مانعا يرضي جميع الناس على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم ، ويرفع ما بينهم من خلاف ، اما هذا التحديد فصعب وعسير ، لان الخير والشر على انواع ، منه طبيعي كالخصب والجدب ، ومنه عاطفي كالحقد واللؤم ، والحب والاخلاص ، ومنه اجتماعي كالتعاون او التناحر ، ومنه نظري فكري كالقوانين الانسانية التي تلائم الانسان من حيث هو انسان ، مثل كل انسان بريء حتى تثبت اداته ، وكل مجرم يؤخذ بجرمه وجريرته .

ومن اجل هذا لا ينحصر طريق المعرفة بالخير والشر ، لا ينحصر هذا

الطريق بالبديهة كالامثلة المتقدمة ، بل هناك طرق اخرى ، منها ما اشار اليه الفيلسوف الالماني « كانت » بقولـه : « اذا اردت ان تعرف حسن الصفة من قبحها فانظر بعقلك ما ينجم عنها اذا هي عمت وانتشرت ؟ فاذا تمخضت عن خلل في الوجود والعلاقات الانسانية كالسرقة والقتل ــ مثلا فاعلم ان القبيح شيمتها » .

ومن هذه الطرق القلب السليم .. ، ولكن تحديد هذا القلب بدقـة وصيغة واضحة تزيح عنه اللبس والغموض ــ صعب جدا ، وعليـه فانا نشير الى هذا القلب ، وندل عليه بضرب بعض الامثال من افراده كقلـب غاندي الـذي تمرد على عادات قومـه وبيئته في عبـادة البقرة ونجاسة المنبوذين ، وقلب الحنفاء الذين آمنوا بالله واليوم الآخر بفطرتهم الصافية في عصر الجاهلية الجهلاء ، ومنهم ورقة بن نوفل ، وعبدالله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو ، وقس بن ساعدة الايادي ، وذكر اهل التاريخ ان صفوان بن امية ومقيس السهمي حرما الخمر على نفسيهما بدافع الفطرة والغريزة .

ومن هولاء ونظائرهم يمكن ان نستخلص تحديدا لصاحب القلب السليم بانه الذي يملك شخصية قوية مستقلة لا يؤثر فيه اي شيء الا مـا انبثق من اعماقه ، واستوحاه من قلبه الصافي كما اودعه الله دون ان تلوثه التربية والتقاليد ، ومن خلال هذا القلب وحده ينظر الى الاشياء ويقارن بينها ، وعلى اساسه يرفض ما يرفض ، ويقبل ما يقبل ، واصحاب هـذا القلب موجودون وان كانوا اقل من القليل ، وهـم الذين عناهم اللـه بقوله : « الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه ــ ١٨ الزمر » .

والخلاصة ان الخير والشر موجودان ، وهما يوجهان الانسان فـي سلوكه حسبما يعتقده بمفهوم الخير والشر ، وهو مصيب في معتقـده ان اتفق معه جميع الناس، او استوحاه من قلبه كان له قلب سليم، والا فهو

مخطىء ان تمخض عن خلل في الوجود والعلائق الانسانية على حد تعبير « كانت » .

الاسلام وتحديد الخير والشر :

وتسال : لماذا لا نجد في كتاب الله وسنة نبيه تحديدا واضحا عن الحق والخير ، وعن الباطل والشر ، والذي نجده هو الامر والترغيب بذاك ، والنهي والبعد عن هذا كقوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ؟

واجاب الاستاذ عبد الكريم الخطيب عن هذا السؤال في كتاب القضاء والقدر ـ بما يتلخص ان الاسلام لا يحفل بالنظر الفلسفي والجدل اللفظي حول حقائق الاشياء وماهيتها ، وغايته اولا وآخرا هي تقويم الاخلاق وتربيتها ، واثارة مشاعر السمو النفسي في الانسان ، وربطه بالمجتمع برابط الحب والتعاون ... ومن اجل هذا كان حديث الاسلام عن الاخلاق عاما ومجملا لا يلتفت فيه الى ذاتيات الاخلاق ، بل الى آثارها في الحياة ومن هذا الباب « ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي ـ ٨٤ الاسراء » وقوله : « يسألونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس والحج ـ ١٨٨ البقرة » حيث صرف سبحانه السائلين الى ما هو اوفق وانفع ولفتهم لفتة زاجرة الى الآثار والمنافع .

ثم قال : هناك امور واضحة وصريحة في باب الخير والشر ، فالسارق يدرك ان عمله شر ، والكذاب يعرف انه منحرف عن الحق ومع هذه الصراحة والوضوح فانه لا يستطيع ان يضع معادلة جبرية للخير والشر ، ويحللهما تحليلا كيماويا كما يريد الفلاسفة والحكماء .

شبهة الشر :

تبين مما تقدم ان الشر موجود ، وعليه يتجه هذا السؤال : كيف

يمكن الجمع والتوفيق بين الايمان بوجود الشر . والايمان برحمة الله وقدرته على كل شيء ؟ ولماذا لم يخلق الله عالما لا شر فيه ؟.

ولقد طرح هذا السؤال منذ آلاف السنين ، واجاب عنه «زرادشت» بوجود إلهين : إله للخير ، وهو « موزد » أو « يزدان » وإله للشر ، وهو « اهريمان » او « اهرمن » .

وقال آخر : ان الله خلق الكون ، ثم اعتزل ، لا يعنيه من امر الخلق قسوة ولا رحمة ، وكل ما في الكون من مظاهر هو من عمل الكون بما فيه من قوى وحركة .

وقال عابد زاهد : ان الشر في الدنيا لعقوبة العصاة والمذنبين ... الى غير ذلك من الاقوال التي لا تستند الى دليل .

وارجح ما قرأت في الجواب عن السؤال المتقدم ــ يتلخص بان العالم المادي من حيث هو وبموجب طبعه وذاته ، له آفات وسيئات كالاغراق والاحراق . والوباء والادواء والزوابع والعواصف ، وما الى ذلك من اسباب النقص والشقاء ، وله ايضا حسنات وخيرات ، كالغذاء والجمال والرفاهية ، ونحو ذلك من النعم واسباب الحياة . ويستحيل ان توجد الطبيعة لمجرد المنافع واشباع الرغبات من دون الزوابع والعواصف وغيرها من الآلام ، كأن يوجد البحر ــ مثلا ــ للصيد والنزهة والسفر فقط دون ان يغرق فيه احد مهما كانت الاسباب ، وان تنظر العين الجمال دون القبح ، وتسمع الاذن ما تشتهي دون ما تكره ، وان يذوق الفم الحلو دون المر . ويكتب القلم كلمة الحق دون الباطل ، وان يقبل الجسم الحساس الصحة دون السقم ، والراحة دون التعب ، والمعدة الشبع دون الجوع ، وان ينطق اللسان صدقا وصوابا دون الكذب والخطأ ... الى ما لا نهاية من الامثلة .

وعلى هذا يكون الشر من فعل الطبيعة المخلوقة مباشرة لا من فعل الله الخالق .

قال صاحب الاسفار : « فاذا قلت : لماذا لم يخلق الله طبيعة بلا شر فكأنك قلت : لماذا لم يجعل الله النار غير النار .. وبهذا تعلم فساد من ظن من العوام واهل الكلام الذين لا يعرفون كيفية العجز في المادة ، فيقولون : ان الله عجز عن كثير من الاشياء ، منها ان يخرج ابليس من ملكه ، وجهلوا ان العجز في عدم وجود الملك لغير الله ، لا في الله ، ومنها ان يدخل السموات في خرم الابرة ، وذهلوا ان العجز في الابرة وخرمها ، ومنها ان يجمع بين النقيضين : والعجز فيهما لا فيه » .

وتسأل : ما هو وجه الجمع والتوفيق بين القول : ان الشر من لوازم الطبيعة الضرورية وبين ما جاء في بعض الروايات من ان الخير والشر من الله ، جلت عظمته ؟.

الجواب اولا : جاء في اصول الكافي عن الامام الصادق (ع) : ان الله سبحانه قال : يا ابن آدم انا اولى بحسناتك منك ، وانت اولى بسيئاتك مني **ثانيا** : ان الامر في ذلك سهل جدا ، فلقد جاء في العديد من الآيات ان ظواهر الطبيعة كلها من الله كالرياح والامطار ، وانبات النبات .. حتى الظل نسبه سبحانه الى نفسه : « ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ــ ٤٥ ــ الفرقان » : بل في بعض الآيات ان الله خلق آدم والانعام بيده : « ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدي ــ ٧٥ ــ ص » : «او لم يروا انا خلقنا لهم مما عملت ايدينا انعاما ــ ٧١ ــ يس » مع ان هذا وما اليه يستند مباشرة الى الطبيعة .. ولكن بما ان الله هو الذي اوجد الطبيعة بكل ما فيها من قوى وعناصر ، وان هذه العناصر تتفاعل وتأخذ مجراها الطبيعي ــ صح نسبتها اليه تعالى تبعا وبالواسطة .

اجل . الخير من ظواهر الطبيعة ولكن تصح نسبته مباشرة الى الله، وان كان السبب القريب هو الطبيعة ، لان الغرض من وجود الطبيعة هو الخير ، والخير محبوب ومراد لله سبحانه ، اما الشر فليس بمحبوب ، ولا هو مراد بالاصل بل تبعا ... وبتعبير ابن سينا « الخير مقتض بالذات ، والشر مقتض بالعرض » . وقال الامام الصادق (ع) : ان ترك الخير الكثير لشر قليل فيه شر كثير .

وقال الملاصدرا : الشر موجود في الطبيعة وكثير ، ولكن خيرالطبيعة اكثر من شرها ، ونفعها اكثر من ضرها .. ان الذي احترق ثوبه بالنار قد تضرر بسببها ، ولكن اذا قسنا هذا الضرر البسيط الى منافعه بالنار طوال حياته ــ لم نجده شيئا مذكورا .. هذا في الشخص الواحد ، فكيف النوع ؟ . ان الاشخاص الاصحاء من افراد الانسان والحيوان اكثر بكثير من ذوي الآفات والعاهات » .

الخلاصة :

والخلاصة ان الله قادر على كل شيء وعالم بكل شيء ، ويستحيل في حقه ان يوجد شيئا الا على اكمل ما يمكن ان يوجد عليه ذلك الشيء ، بل يستحيل ان يوجد ما هو احسن منه ، وقد استنتج الفلاسفة من هذه الحقيقة قاعدة اسموها قاعدة الاشرف ، ويريدون بها ان الله لا يوجد الادنى مع امكان وجود الاعلى ... وايضا يستحيل ان يوجد الشيء الا من اجل الخير فقط ... حتى جهنم وعذابها خير بالنسبة الى تحقق الغرض المقصود منها .

وقد يستتبع الخير المراد لله قليلا من الشر ، فيغتفر في جانب الخير الكثير ، ولذا يضحي التاجر و *الزارع والصانع* ، بل وطالب العلم بالكثير

رغبة فيما هو اكثر ربحا ، واعود نفعا .. وختاما هل من الخير ان يحبس الله عن عباده المطر لانه يبلل ثوب زيد او عمرو ، ويحرمهم من الشمس ومنافعها لانها تضرب طفلا بحرارتها ؟. وهل علينا ان نحجم عن استعمال الكهرباء لان البعض قد يتضرر من وجودها ، ولا نركب السيارة والطائرة، لانه بالامس سقطت طائرة ، واليوم اصطدمت سيارة .

فلسفة الاختيار

مواضيع ثلاثة

تتحدث في هذا الفصل عن مواضيع ثلاثة ، لانها متشابكة متشابهة .. الموضوع الاول : القضاء والقدر، الثاني : هل الانسان مسير او مخير. الثالث : ما هو المراد بنسبة الهدى والضلال الى الله تعالى ، مثل قوله تعالى : « فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ــ ٨ فاطر » .

معنى القضاء والقدر

ما هو معنى القضاء والقدر ؟. وهل يجب الرضا والايمان به ؟ وبالتالي هل هذا الايمان يبعث على الكسل والتواكل كما يقول اعداء الله والاسلام ؟.

اما القضاء فله معان : منها الامر ، كقوله تعالى : « وقضى ربك ان لا تعبدوا الا إياه وبالوالدين احسانا ــ ٢٣ الاسراء» ومنها الحكم والفصل كقوله سبحانه : « فاقض ما انت قاض ــ ٧٢ طه » . ومنها الفراغ والتمام : « قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ــ ٣١ يوسف » . ومنها الارادة التكوينية : « واذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون ــ ٤٧ آل عمران » .

ومنها العهد : « وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا الى موسى الامر ــ ٤٤ القصص » • ومنها الموت والقتل : « فوكزه موسى فقضى عليه ــ ١٥ القصص » • ومنها الخلق : « فقضاهن سبع سموات ــ ١٢ فصلت »• الى غير ذلك من المعاني التي انهاها بعضهم الى احد عشر معنى •

ويستعمل القدر في التضييق ، ومنه قوله تعالى : « واما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن ــ ١٦ الفجر » • ويستعمل في التعظيم : « وما قدروا الله حق قدره ــ ١٩ الانعام » • وفي مبلغ الشيء ومقداره : « قد جعل الله لكل شيء قدرا ــ ٣ الطلاق » •• « انا كل شيء خلقناه بقدر ــ ٤٩ القمر » • وقيل : المراد هنا ان كل شيء ثابت في علم الله كما هو في طبيعته وخصائصه ، ويستعمل القدر ايضا في القضاء الحتم : وكان امر الله قدرا مقدورا ــ ٣٨ الاحزاب » •

واوضح معاني القضاء البت والامضاء الذي لا معقب ولا مرد له ، واوضح معاني القدر التقدير ، قال الامام الكاظم نجل الامام الصادق (ع): القدر هو تقدير الشيء من طوله وعرضه ، والقضاء هو الامضاء الذي لا مرد له ، وقال الرضا حفيد الامام الصادق (ع) : القدر هندسة ، والقضاء ابرام •

ويمكن ان يكون من هذا الباب ما روي ان عليا امير المؤمنين (ع) عدل من حائط مائل الى آخر مستقيم ، فقيل له : اتفر يا امير المؤمنين من قضاء الله ؟• قال : افر من قضاء الله الى قدر الله عز وجل • اي من قضاء الله بسقوط الحائط الى ما بقي من عمري الذي قدره الله ، وكتبه لي •

وكثيرا ما يستعمل القضاء والقدر في معنى واحد ، وهو الحتم الذي لا معقب له ولا مرد •

موضوع القضاء والقدر :

وموضوع القضاء والقدر هو ما يحدث في الطبيعة من ظواهر ، ويصدر عن الانسان من اعمال ، وليس من شك ان لهذه الحوادث والاعمال موجبات واسبابا .. فما هي هذه الموجبات والاسباب ؟. هل هي الطبيعة وسننها فقط لا غير ، كما يزعم الماديون ، او هي قوة قاهرة تكمن وراء الطبيعة ، وتتصرف كما تشاء مباشرة وبلا توسط علة ونظام كما يظن المؤمن الغبي ، او هي تلك القوة القاهرة العالمة ، ولكن بتوسط ربط المسببات باسبابها ، والنتائج بمقدماتها ، كما يقول اهل الدين والعلم .

قال الامام جعفر الصادق (ع) : « ابى الله الا ان يجري الاشياء باسباب ، فجعل لكل شيء سببا ، وجعل لكل سبب شرحا ــ اي علامة تدل عليه وتميزه عن غيره ــ وجعل لكل شرح علما ــ اي ان تلك العلامة تفيد القطع واليقين ــ وجعل لكل علم بابا ناطقا عرفه من عرفه ، وجهله من جهله » . اي ان باب العلم لا يخفى على اهله ، وهو العقل والوجدان ، والنبي والقرآن .

وقال الفارابي : ان الله هو علة وجود الاشياء ــ يريد الاسباب ــ اما الاشياء ذاتها فانما يؤثر بعضها ببعض وفقا لقوانين نعرفها بالتجربة .

وقال الملا صدرا في شرحه لاصول الكافي : القضاء والقدر انما يوجبان ما يوجبان بتوسط اسباب وعلل مترتبة منتظمة ، بعضها مؤثرات ، واخرى متأثرات ، ومتى اجتمعت الاسباب وارتفعت الموانع وجد الشيء المقضي المقدر .

وفي قول الله سبحانه غنى عن كل قول ، وهو واضح وصريح في انه جلت حكمته ، يجري الامور وفقا لقوانين ثابتة تضبط سير الحوادث

والاعمال ، وتطرد على نسق واحد عبر القرون والاجيال . وقد عبر سبحانه عن هذه القوانين بسنة الله التي لا تقبل التبديل والتحويل لانه هو خالقها والمسيطر عليها، قال عز من قائل: «سنة من قد ارسلنا قبلك ولن تجد لسنة الله تحويلا ـ ٧٧ الاسراء» • وقال : «سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ـ ٦٢ الاحزاب » • وقال : «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ـ ١١ الرعد» • الى آخر الآيات التي دلت بصراحة ووضوح على ان قانون الاسباب والمسببات ، وربط النتائج بالمقدمات هو قانون كوني إلهي يطرد في كل شيء ولا يخرج عنه شيء الا اذا خرج عن صنع الله •• ان وجد شيء ليس لله فيه صنع •

الايمان بالقدر ايمان بالعلم والعمل :

وعلى هذا يكون الايمان بالقضاء والقدر هو عين الايمان بالعلم والعمل ، والجد والاجتهاد من اجل الحياة ، بل هو عين الايمان بان الله مع العاملين والمجاهدين ، وانه سبحانه ضد الكسالى والمخنثين : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ـ ١٠٥ التوبة •• وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ـ ١١١ النحل » • ان الله سبحانه لا يفعل جزافا . ولا يترك اعتباطا ، بل يعطي ويمنع حيث يوجد سبب العطاء او المنع : « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ـ ١٩١ آل عمران » •

اما الرضا بالقضاء والقدر [١] فهو الرضا بكد اليمين وعرق الجبين . والثقة بالله وبالنفس ، هو النهوض بالعبء عن طيب خاطر ، وتحمل المسؤولية من غير تأفف وتبرم • ونفض اليدين من الغرور مع النجاح، على

(١) الرضا بالقضاء والقدر عند حلول المصيبة لا يجب لذاته وبما هو • وانما الواجب ان لا يتفوه الانسان بمحرم ، اما الايمان بالقضاء والقدر بالمعنى الذي ذكرناه فهو من لوازم العلم بالله وصفاته .

حد تعبير بعض الادباء وترك الآهات والحسرات مع الفشل ، وبكلمة هو ان يكون الانسان عاقلا متزنا في جميع حالاته ، لا تبطره نعمة ، ولا تذله مصيبة : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ــ ٢٣ الحديد » .

أبعد هذا يقال بان الايمان بالقضاء والقدر يجعل المسلم كسولا متواكلا يدع اموره الى خالقه يعملها عنه وينجزها له ؟.. اذن لماذا الحث على الجهاد وآياته ، وعلى الصبر والتضحية من اجل العمل المثمر ؟. واذا كان الايمان وحده كافيا وافيا فلماذا قرنه الله بالعمل في العديد من الآيات ، ثم اجملها بقوله : « وان ليس للانسان الا ما سعى ــ ٣٩ النجم » ؟.

ان السبب الاول والاخير الذي اوجب الايمان بالقضاء والقدر هو بديهة العقل التي ادركت بمعونة الحس والعيان ــ كما قدمنا في فصل اثبات الخالق ــ انه لا وجود لشيء على الاطلاق الا ولله فيه تأثير وتقدير بنحو او بآخر . حتى نظرات العين ، ونبضات العرق ، وخطرات القلب : « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ــ ١٦ ق » . لقد خلق سبحانه الاسباب وسلطها على المسببات ، وهو عالم بالاثنين معا ، وعلمه تماما كارادته لا يتخلف عن المعلوم ، ولو شاء لذهب بكل من السبب والمسبب والفاعل وفعله .. ما شاء الله كان ، وان لم يشأ لم يكن .

واذا كان الايمان بقضاء الله وقدره هو عين الايمان بالله ونظامه ، وقدرته وسننه التي هي سنن الطبيعة بالذات ــ اذن اين مكان الصراع والعناد بين الايمان بالقضاء والقدر ، وبين الايمان بالعلم والعمل ؟. واين مكان التواكل والكسل بل ما هو الفارق ووجه الخلاف بين المؤمنين والماديين من حيث العلم والايمان بان الاشياء تجري على اسبابها ؟.. ابدا لا خلاف بين من آمن ومن جحد من هذه الحيثية والجهة ، والفرق انما هو من جهة ثانية .. ذلك بان الماديين قالوا : لا شيء وراء الاسباب

الكونية يدبرها ويقوم عليها : بل هي عنصر مستقل برأسه يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ... وقال المؤمنون العارفون : ان الاسباب والعلل بشتى انواعها تنتهي بكاملها الى المبدأ الاول وسبب الاسباب ، ويفتقر اليه في اصل وجودها واستمرارها وانه تعالى شأنه لو تخلى عنها طرفة عين فما دونها لم تكن شيئا مذكورا .

وقد اثبتت التجارب العلمية ان بعض الآثار المترتبة بظاهرها على المادة يستحيل ان تأتي من ذات المادة وخصائصها ، وانما هي بتوسط قوة خارجة عن المادة ـ كما نقل عن علماء الطبيعة ـ ومما قرأته في هذا الباب ما نقله العقاد عن اهل الاختصاص في كتاب الفلسفة القرآنية ص ١٤٦ طبعة ١٩٦٩ ، وهو « ان الكشوف تعاقبت في ميادين العلوم الطبيعية ، وكل منها يرجع الى قانون يزعم اصحابه انه صالح لتفسير كل ظاهرة من الظواهر الطبيعية بغير حاجة الى مدبر من وراء الطبيعة .. ثم تقدمت الكشوف الذرية ، وابطلت هذه النظرية » ثم ذكر العقاد الكاتب الاسلامي الشهير اسماء علماء الطبيعة الذين آمنوا بهذه الحقيقة واعلنوها على الملأ .

والخلاصة ان الايمان بالله يلازم الايمان بالقضاء والقدر بالمعنى الذي ذكرناه ، وهو ان الله سبحانه وتعالى قد جعل لكل شيء سببا ، وان سلطانه فوق سلطان الاسباب وغيرها .

هل الانسان مسير أو مخير ؟

ان افعال الانسان كغيرها من الحوادث لا بد لها من سبب موجب ، والا امتنع وجود شيء منها على الاطلاق ، لان الحكمة الالهية قضت ان يجري كل شيء بسبب ونظام ، وهذا السبب الموجب عبارة عن خط طويل يتألف من حلقات هي علل متتابعة يتولد بعضها من بعض تبتدي من واجب الوجود العلة الاولى ، وتنتهي بالعلة المباشرة لوجود الفعل بلا واسطة ،

وليست هذه العلل بكاملها في تصرف الانسان ، وتحت قدرته ، يقبل منها ما يشاء ويرفض ما يريد .. هذا مستحيل ، والا كان الانسان مخيرا ، في كل شيء حتى في خلقه واصل وجوده ، واي كائن طبيعي لا يخضع لقوانين الطبيعة ؟. اللهم الا اذا امكن ان ينفصل الشيء عن نفسه .

ولكن ليس من الضروري ان تكون العلل في الخط السببي كلها حتمية ابدا ودائما وفي كل الاحوال ، بحيث لا يستطيع الانسان ان يختار اي شيء من الاشياء ، او يحدد لنفسه مسلكا من المسالك .. ولو صح هذا لم يكن للانسانية عين ولا اثر ، اذ لا انسانية بلا حرية ، وما فضل الله الانسان على كثير من خلقه الا بعد ان منحه القدرة التي بها يفعل والعقل الذي به يميز والارادة التي بها يختار .

واذن ، فالخط السببي قد يكون حتميا بجميع اجزائه وعلله الاولية والثانوية ، وعندئذ يكون الانسان مسيرا ، لا مخيرا بالاتفاق .. ويستحيل ان يكون الخط السببي بكامله اختياريا .. ايضا بالاتفاق .. وقد تكون بعض علل الفعل وموجباته حتمية لا صلة لها بقدرة الانسان وارادته ، والبعض الآخر عين قدرته وارادته ، وهنا محل البحث والكلام في ان الانسان هل هو مخير او مسير في هذه الحال ؟.

ولا اشك في اني مخير في كثير من الافعال ، فها انا الآن ادخن واكتب بملء ارادتي واختياري ، وبالامس عرض علي بائع البطيخ ان اشتري منه فاشتريت ، ودفعت الثمن عن طيب نفس ، وسأتغدى بعد ثوان من اللحم المشوي مع « الزلاطة » . وصممت ان اصطاف بلبنان في العام المقبل ، ان كنت مع الاحياء كل ذلك كان مني لا من سواي ، وانا بالذات اخترته لنفسي ، وهكذا غيري .

هذا ما احسه من اعماقي ، ولا استطيع ان انكر احساسي ، وما من

احد يستطيع اقناعي بأني في ذلك مسير لا مخير الا بدليل اقوى من الحس والوجدان .. فاين هو ؟. وهل بعد الحس من دليل ؟. وكلما تفاقم الخلاف في حرية الانسان ازددت ايمانا ويقينا بحريته .. ذلك بان الخلاف في حرية الانسان هو في ذاته اجماع على وجودها ، واعتراف صريح بها من الذين انكروها على المستوى النظري ، لانهم في انكارهم لحرية الانسان اما مسيرون ، واما مخيرون ، ولا ثالث ، وعلى الاول فانكارهم ليس بشيء لان انكار المسير تماما كانكار المجنون واقراره ، وعلى الثاني يكون انكارهم في ذاته اعترافا عمليا بحرية الانسان ، واذن فالاجماع قائم ومنعقد من الجميع على ان الانسان مخير لا مسير .

وتسال : اذا كانت حرية الانسان في هذا المكان من البداهة فكيف وقع فيها الخلاف بين ارباب العقول ــ ولو على المستوى النظري . ــ

الجواب :

ان ارباب العقول الذين اشرت اليهم يعترفون بان في الانسان قدرة وارادة ، ولكنهم يزعمون ان الله يخلق الفعل في الانسان بمجرد ان يهم به ، ويتجه اليه ، وان الاثر كل الاثر في وجود الفعل الانساني هو لله وحده ، ولا شيء فيه للانسان ومن الانسان .. كلا ، انه مجرد ظرف واداة للفعل .. حتى « البانزين » في السيارة افضل الف مرة من الارادةوالقدرة في الانسان ، لان « للبانزين » تأثيره البالغ في حركة السيارة وسيرها، اما القدرة والارادة في الانسان فليس لهما ادنى تأثير في نشاطه وعمله .. ويأتي البيان .

وبعد : فان مقياس الفعل الاختياري هو ان يكون مرادا ومقدورا فعلا وتركا لفاعله ايا كان مصدر الارادة ومنشأها ، وعلى هذا الاساس قامت الاديان والاخلاق والآداب ، وشرعت الشرائع والقوانين ، وعامل

الناس بعضهم بعضا تهمة وثقة ، وكرموا الابطال والهداة ، ولعنوا الخونة والطغاة ، ولو كان الانسان مسيرا لا مخيرا لكانت جميع افراده بمرتبة سواء لا فضل لتقي على شقي ، ولا لعالم على جاهل ، لان العلم والتقوى من الله لا من الانسان •

وصدق من قال : ان الانسان حر لمجرد كونه انسانا •• اجل ، قد تتولد ارادة الانسان من الاضطرار ، كمن يقطع عضوه السقيم لسلامة بقية الاعضاء ، وايضا قد تتولد ارادته من البيئة او العادة او الوراثة ، ولكن لا شيء من ذلك يخرج بالانسان عن حريته ما دام هو الذي يحدد المصلحة لنفسه ، ويرجح اهون الشرين على اخطرهما ، ويقدم على الفعل باختياره وارادته •

ومن اجل هذا اهملت الشرائع والاديان البيئة والعادة والوراثة ، ولم تدخل شيئا منها في حسابها من حيث المؤاخذة ، بل اخذت الفاعل بفعله ، وان ورثه عن ابيه وامه ، او من بيئته ، او من طبيعته الثانية مكتفية بقدر معين من الحرية •• اجل ، لقد اسقط الشارع المؤاخذة عن المريد المضطر ، كالجائع يأكل من الميتة ؟ او يسرق الرغيف ليقيم به الاولاد حيث لا وسيلة الا السرقة والميتة •• ولكن الشارع صحح معاملة المريد المضطر، وعمل بارادته التي انشأها بالعقد ، وصرف ــ اي الشارع ــ النظر عن البواعث الخارجية ، والدوافع القهرية ، كمن باع ثوبه او داره من اجل التطبيب ، وفي الوقت نفسه ابطل الشارع معاملة المكره ــ بالفتح ــ ومعنى هذا ان مجرد الارادة كافية لان تجعل الانسان مخيرا لا مسيرا ايا كان نوعها وقدرها ومنشأها ومصدرها ، وما احاط بها من حدود ومقاومات •

الارادة والاختيار والرضى :

وبهذه المناسبة نشير الى الفرق بين الارادة والاختيار والرضى ••

لا شك ان للانسان حالات تختلف بحسب ظروفه ، فقد يريد شيئا ويتمناه مع العجز عنه ، وقد يريده مع القدرة عليه بلا علل وشوائب ، فيختاره ويرضى به ، وهو مرتاح النفس والضمير ، وقد يقدر على الشيء ولكن مع العلل والمنغصات ، فاذا اضطر اليه اختاره ــ لارضى به ــ بل ترجيحا لاهون الشرين .. وعلى هذا تكون الارادة اعم من الاختيار والرضى ، لانها تكون مع القدرة وعدمها ، ولا يكون الاختيار الا مع القدرة ، اما الرضى فهو اخص من الارادة والاختيار ، اذ قد يختار الانسان فعلا دون ان يرضى به ، وترتاح اليه نفسه .. وقديما قيل : اذا لم يكن ما تريد فارد ما يكون .

الجبر والتفويض وما بينهما :

قدمنا انه يكفي للحكم بان الانسان مخير لا مسير ان يكون له قدر من الحرية ، وان الحرية الكاملة والمطلقة من كل جهاتها ليست بشرط ، ودعمنا رأينا هذا بمنطق الحس وبديهة العقل ، وبهما نحتج على من خالف وانكر .

وقد اختلف الناس او المسلمون في مسألة الجبر والاختيار،وافترقوا على ثلاث فرق ، اشار اليها الامام الصادق (ع) مع بيان الفرقة المحقة ــ باخصر عبارة وابلغها ، وذلك حيث قال : « لا جبر ولا تفويض ، بل امر بين امرين » . « لا جبر » اشارة الى قول الجبرية . ولا « تفويض » الى رأي المفوضية ، ويطلق عليهم ايضا القدرية . و « امر بين امرين » الى ما عليه الامامية . والتفصيل فيما يلي :

الجبرية

قال الشريف المرتضى في كتاب انقاذ البشر : اول من ابتدع الجبر في الاسلام جهم بن صفوان . وكان في صدر الدولة الاموية ، وتبعه في هذا القول ابو الحسن الاشعري امام السنة في العقائد ، وكان في القرن

الثالث الهجري ، ويتلخص قول الجبرية بانه لا سبب حقيقي في الوجود على الاطلاق ، ولا شيء يؤثر في شيء من قريب او بعيد ، سواء أكان من نوع المادة ، ام من غيرها ، فلا علاقة للرجل بالمشي ، وللعين بالرؤية ولا للاذن بالسمع ، وللسان بالكلام ، ولا صلة للعقل بالعلم ، والمعدة بالهضم، ولا للماء بالحياة .

ابدا لا سبب ولا تأثير الا لله ، فهو وحده يباشر كل شيء حتى النفس هو الذي يخرجه من الانف .. وحتى الثمرة هو الذي يقطفها من الشجرة ، ويرمي بها على الارض مباشرة وبلا واسطة ، اما جاذبية الارض وغيرها فكلام فارغ .

واما قدرة الانسان وارادته وعقله فنسبتها الى افعاله واقواله تماما كنسبة الحجر الى الانسان ، لان الله هو الذي يخلق الفعل والقول في الانسان، وما الانسان الا اداة او ظرف ككأس الشراب وإناء الطعام. هذا هو المراد بالجبر الذي نفاه الامام الصادق (ع) بقوله : « لا جبر ولا تفويض ، بل امر بين امرين » .

وزعم الجبرية ان قولهم ضروري لكمال التوحيد الخالص من كل شائبة ، لانه لو كان لغير الله ادنى تأثير لكان شريكا له في خلقه ، ولم يكن الله هو الواحد الاحد ، والفرد الصمد .

وقد غاب عن عقولهم ان مبدأ العلية مبدأ الهي وطبيعي في آن واحد وان الله سبحانه هو الذي خلق الكون بارضه وسمائه ، وجعل كل شيء فيه يجري بسبب ونظام لا يتخلف عنه . ولا يتجاوزه الا ان يشاء الله ، وعلى هذا تكون الاسباب ومسبباتها ، والنتائج ومقدماتها ، ومنها افعال الانسان الخاضعة لقدرته وارادته ، كل ذلك وما اليه في ملك الله وسلطانه .. **وباسلوب آخر** : خلق الله الكون على نظام يربط المسببات بالاسباب، وهو سبحانه بالذات اودع في كل سبب قوة التأثير والتيسير ، وجعل فيما

جعل قدرة الانسان وارادته من المقدمات والاسباب لانجاز اي فعل من افعاله الاختيارية •

لقد ذهل الجبرية عن هذه الحقيقة • وايضا ذهلوا انهم ارادوا ان ينفوا الشريك لله ، فنسبوه الى الظلم •• حتى الجاهل يتساءل بفطرته ويقول : اذا كان الله هو الذي قدر على كل شيء وهو الذي فعل وترك وحده لا شريك له ، فلماذا يكلفني ويحاسبني ويعاقبني ؟ • وكيف جاز ذلك في عدله ؟• وعن اي شيء اتوب واطلب العفو ؟• هل اتوب من فعل الله ، لا من فعلي ، واطلب العفو عما كان من مشيئته ، لا من مشيئتي ؟•

لقد تجاوز الجبرية كل حد ، ولا شيء يساوي قولهم هذا في اي دين • قال النصارى : ان الله اقدر عباده على صلبه ، فصلبوه ، وتقبل هو الصلب لا لشيء الا ليكفر عن خطيئة المذنبين ••• وقال الجبرية : كلا: ان الله صلب الابرياء لا لشيء الا ليكفر هو عن فعله وعمله •• تعالى الله عن ذا وذاك علوا كبيرا •

المفوضة :

وقف المفوضة ، ويقال لهم القدرية ايضا ، وقفوا في الخط المقابل للجبرية ، وقالوا : ان الله خلق العباد ، ومنحهم القدرة على الفعل والترك ، وامرهم بالطاعة ، ونهاهم عن المعصية ، ثم فوض اليهم ان يفعلوا بهذه القدرة ما يشاءون ، أي انه تعالى بعد ان خلق القدرة ، واعطاها لهم انتقلت منه اليهم ، وصارت ملكا طلقا لهم ، وانقطعت الاسباب والصلات بينها وبين خالقها في كل ما يفعلون ويتركون بسبب هذه القدرة تماما كالمبيع ينتقل من البائع الى المشتري بعد ان يتم عقد البيع ويلزم ، والفرق ان الله يسأل عباده يوم القيامة عن هذه القدرة ، ويحاسبهم من اجلها ، فيعاقب من اساء التصرف بها • ويجزي من احسن بالحسنى ، اما البائع فلا شأن

له مع المشتري ، اساء التصرف في المبيع ، ام احسن ... هذا هو المراد من التفويض الذي نفاه الامام الصادق (ع) بقوله : « لا جبر ولا تفويض ، بل امر بين امرين » . وقل العارفون بمعنى التفويض حتى ان بعضهم فسره بالتفويض في تشريع الاحكام .. وعلى هذا يكون كل انسان مشرعا ومصدرا لدين الله وحلاله وحرامه .. واشكل منه تفسير الامر بين الامرين حيث حصل فيه خبط وخلط كثير ، ويأتي البيان ، وتقدم تفسير الجبر في الفقرة السابقة .

والذي حمل المفوضة على هذا القول انهم ارادوا ان ينزهوا الله عن الظلم والجور الذي نسبه الجبرية اليه تعالى ــ فعزلوه عن ملكه ، وجعلوا له شريكا في خلقه .. حاولوا الفرار من القبيح ، فوقعوا فيما هو اسوأ واقبح . قال الملا صدرا : كل من الجبرية والمفوضة اعور دجال .

ولو صح هذا التفويض لجاز للانسان اذا فعل شيئا ان يقول : فعلت هذا بحولي وقوتي لا بحول الله وقوته .. نستعيذ بالله ونستغفره .. واذا كان اللازم على قول الجبرية ان يسد الله تعالى باب التوبة والعفو والرحمة ــ فان المفوضة يلزمهم القول بان يسد سبحانه باب التوكل عليه، والثقة به ، والابتهال اليه ، وطلب التوفيق منه والهداية .. سبحانه وتعالى عما يشركون ..

ان الذي يؤمن بالله وحده لا بد ان يؤمن ايضا بان قدرته كأي حادث وكائن هي من الله ، وفي يد الله ، وانه تعالى هو الذي اراد لها ان تفعل وتؤثر كما اراد ذلك لغيرها من الاسباب ، وانها مسخرة لامره حدوثا واستمرارا ، ينتزعها سبحانه من عباده ساعة يشاء .. حتى وهم يباشرون افعالهم واعمالهم ، ولا يستطيعون لها ردا .. وشاهدنا ذلك مرات : « الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله ــ ٤٣ الاعراف » .

امر بين امرين :

المراد بامر بين امرين منزلة بين الجبر والتفويض ، فقد سئل الامام جعفر الصادق (ع) : هل بين الجبر والقدر ـ اي التفويض ـ منزلة ثالثة ؟.

قال : نعم ، اوسع ما بين السماء والارض . وفي رواية ثانية : « لا جبر ولا تفويض ، بل امر بين امرين » . وفي ثالثة : « لا جبر ولا قدر ، ولكن منزلة بينهما فيها الحق الذي بينهما ولا يعلمها الا العالم او من علمها اياه العالم » وقال الملاصدرا : « ان تحقيق امر بين امرين مما يعجز عن ادراكه عقول كثير من العلماء والحكماء فضلا عن العوام » .

وكنت قد قرأت لهذا الامر او هذه المنزلة العديد من التفاسير ، واخترت بعضها ، ثم استبان لي الخطأ فيما اخترت ، ولذا عدلت عنه الى الرأي التالي وعسى ان اكون فيه على بينة من ربي ، لا من فهمي الذي يخطىء ، وقد يصيب .

بعد ان اتضح ظلم الجبر وجوره ، لان الله اكرم وارحم من ان يكلف عباده ما لا يطيقون ، ويعذبهم على ما فعل بهم هو وصنع .

وايضا اتضح فساد التفويض وبطلانه ، لان الله اعز واجل من ان يخرج شيء عن حكمه وسلطانه . كيف وهل يضاد الله في ملكه ، او بلغ به التناقض الى ان ينهى ويفوض ، ويقدر ويجبر في آن واحد ؟. بعد ان اتضح فساد الامرين معا وجب البحث عن امر ثالث ، ولكن اين يوجد هذا الامر ؟ وهل من ثالث للجبر والتفويض ؟. اجل ، هناك ثالث : وهذا بيانه :

من البداهة والخبرة بمكان ان الله قد اوجب على العبد ما اوجب ،

وحرم عليه ما حرم ، ومن اجل هذا ارسل الانبياء وانزل الكتب ، وشرع الشرائع .. وايضا من البداهة والخبرة ان العبد قادر على ان يفعل ما امر الله به ، ويترك ما نهى الله عنه ، وليس وراء الحس والبداهة من دليل ، واذن للعبد قدرة على الفعل والترك ، وبها يكون حرا ومكلفا ومسؤولا .

وايضا لا عاقل منصفا يشك في ان الله على صلة دائمة بجميع خلقه من اصغر ذرة الى اعظم المجرات ، وان ما من شيء في الارض ولا في السماء الا وهو مسخر لامره تعالى ، وفي قبضته مباشرة ، او بسبب من اسبابه كخصائص الكائنات ولوازمها التي لا تنفك عن ذاتها وطبيعتها .. وقدرة للعبد بالفعل ، والتي عليها مدار حريته وتكليفه ومسؤوليته هي بالذات شاء حتى حين يهم بالفعل او هو يباشره ، ومعنى هذا ان القدرة الثابتة للعبد بالفعل ، والتي عليها مدار حريته وتكلفه ومسؤوليته هي بالذات مملوكة لله يتصرف فيها كيف يشاء ، وان العبد مسير في اصل ثبوتها له ، وفي بقائها واستمرارها لا يستطيع بحال ان يرفضها : ولا ان يحتفظ بها .. وبهذا يكون العبد مسيرا في قدرته حدوثا وبقاء ، وهو في نفس الوقت مخير فعلا وتركا لما وجب عليه ، او حرم ، وعليه يكون تكليف الله لعباده حقا وعدلا ، لانه اقدرهم ومكنهم من الفعل والترك ، وجعل لهم الخيار في ان يفعلوا ، او يتركوا دفعا لشبهة القهر والالجاء الذي التزم به الجبرية .. وايضا يكون سبحانه ــ في تسخيره القدرة لامره وابقائها في قبضته ــ متفردا في خلقه ولا شريك له في ملكه الذي يلزم وجوده على القول بالتفويض .

وهذا المعنى هو المراد من امر بين امرين في قول الامام الصادق (ع) وقد استوحيناه من كلام قاله ذو العقل الكبير الملا صدرا، وهو يفسر الامر بين الامرين في شرحه لاصول الكافي ، ونذكره عبارته بالحرف الواحد :

« لم يرد الامام (ع) بقوله : لا جبر ولا قدر ـ اي تفويض ان العبد خال من الجبر والاختيار ، ولا بقوله : ولكن منزلة بينهما ـ اي امر بين امرين ـ ان فيه شيئا ضعيفا من الجبر ، وشيئا ضعيفا من الاختيار ، ولا ايضا ان فيه تركيبا بينهما كالمركب من الحلاوة والحموضة .. بل المراد ان العبد مجبور في قدرته قادر في جبره ، مضطر في عين اختياره ، مختار في عين اضطراره ، والفعل ثابت له من حيث هو ثابت لله ، وصادر منه من حيث هو صادر من الله » .

ونفسر هذه العبارة تيسيرا على الافهام بعد ان فسرنا قول الامام بوحي منها .. يريد ذو العقل الكبير ان العبد مجبر في الزامه بالقدرة لعجزه عن رفضها وعن الاحتفاظ بها ايضا ، وهو برغم هذا العجز قادر على ان يفعل ويترك لان الله قد مكنه من احدهما على سبيل التخيير . ولا مهرب له من ذلك ، أي ان العبد مخير ضمن الاطار الذي يضم الفعل والترك معا تماما كفردي الواجب التخييري فاذا اختار العبد الفعل اسند اليه حيث آثره على الترك وايضا يسند الى الله ، لانه هو الذي اقدره عليه ، ومكنه منه ، وهكذا يقال لو ترك ، واذن فلا يقال : ان العبد مخير مطلقا ومن كل الجهات ، ولا هو مسير كذلك بل مخير من جهة ومسير من جهة وهذا كاف واف في حريته التي تبرر تكليفه ومسؤوليته .

الله ومعصية العبد :

وتسأل : اذا كانت قدرة العباد مسخرة لله وفي قبضته ، وانه بهذا الاعتبار تنسب افعالهم الى الله واليهم معا اذا كان الامر على هذا فمعناه ان العبد اذا عصى وفعل الشر جاز ان ننسب شره ومعصيته الى الله كما ننسبها الى العبد . وعليه يكون الله شريكا لعبده في المعصية وفعل الشر ومن البداهة بمكان انه لا يجوز في منطق الحق والعدل ان يعاقب اقوى الشريكين شريكه الضعيف على شيء هو سواء فيه ؟

الجواب :

ليس من شك ان العبد اذا اطاع وفعل الخير ينسب اليه حيث كان في مقدوره ان يتركه ، وينصرف الى الشر ، ومع هذا لم يفعل ، وايضا تنسب هذه الطاعة وهذا الخير الى الله بقول مطلق ، لانه تعالى هو الذي اقدر العبد عليه ، وامره به ، فاستجاب واستحق الثواب ، اما اذا عصى العبد وفعل الشر فانه يسند اليه حيث فعله وهو قادر على تركه ، ولذا يستحق العقاب ، وايضا يسند هذا الشر الى الله ، ولكن لا بقول مطلق ، بل بقيد واعتبار ان القدرة التي عصى العبد ربه بواسطتها هي من الله سبحانه .

وانه قادر على سلبها منه بمجرد ان يهم بالمعصية ، ولكن الله تعالى لم يفعل لحكمة نشير اليها في سياق هذا الكلام .

ولله جلت عدالته ، ان يحاسب العاصي ، ويعاقبه على المعصية حيث نهاه عنها ، وحذره منها بعد ان اقدره منها ، ولكنه عاند وتمرد ، قال الامام الصادق (ع) : قال رسول الله (ص) : من زعم ان الله يأمر بالسوء والفحشاء فقد كذب على الله ومن زعم ان الخير والشر بغير مشيئة الله فقد اخرج الله من سلطانه ، ومن زعم ان المعاصي بغير قوة الله فقد كذب على الله ، ومن كذب على الله ادخله النار » .

يريد الامام (ع) بمشيئة الله للشر انه تعالى منح عباده القدرة على الشر تماما كقوله تعالى : « وما تشاؤن الا ان يشاء الله ــ ٣٠ ــ الانسان » أي لا تقدرون على شيء الا بقدرة من الله .. ان الله سبحانه نهى عن المعاصي ، وتوعد العبد عليها ، ولكن العبد ارادها لنفسه ، وفعلها بسوء اختياره مستعينا بقدرة هي منحة من الله لعبده ، فتركه سبحانه وشأنه ، ولم يردعه عن المعصية بالقهر والالجاء حرصا على انسانيته ، اذ لا انسانية بلا حرية ، وايضا لبفصح عن نفسه ويظهر للملأ على حقيقته ،

ويتميز عن الطبيين باختياره وارادته وبالتالي لتكون الحجة لله عليه اعظم والزم حيث عصاه مختارا بقدرة هي نعمة عليه من الله .

وبعد : فان كثيرا من العلماء تعرضوا في مؤلفاتهم لمشكلة الجبر والاختيار ، وايضا وضعوا فيها كتبا مستقلة قرأت اكثرها ، او الكثير من طوالها وقصارها ، وبعضهم شوه الحقيقة ، وشوش العقول والافكار ، وزاد المشكلة غموضا وتعقيدا .. وفي استطاعتي ــ لو شئت ــ ان اسود عشرات الصفحات ، فالخص من الكتب واوضح ، واقلم واطعم .. ولكني لم افعل حرصا على عقل قارئي ورفقا به ، ولا اقول : ان كلمتي هذه حاوية واعية ، أو فيها بلغة الكفاف ، لان الكاتب يجب ان يتوارى خلف ما يكتب ، ويدع الحكم له او عليه للذي يتقن فن القراءة ، ويجيد التفكير فيما يقرأ ، وانا اعرف هذا من نكهة حديثة ، وفي عقيدتي ان من قرأ ولم يفكر فقد تنكر للعلم الصحيح ، ولنعمة الله وفضله . قال كونفوشيوس : « العلم بلا تفكير اخطر من التفكير بلا علم » ومهما يكن فنصيحتي ان يقيس الانسان القراءة على الطعام ، فلا يقبل عليها الا اذا كان مستعدا ، والا فقد ظلم نفسه ، والكاتب الذي يقرأ له .



اشكال وحل :

وهنا اشكال معروف ، وايضا جوابه معروف ، ويتلخص الاشكال بان الله سبحانه يعلم مقدما بان الانسان المجرم سيرتكب الشر ويفعله ، وليس من شك ان علمه تعالى لا يتخلف عن المعلوم تماما كارادته التي لا تتخلف عن المراد وعليه تكون ارادة الانسان مغلوبة لعلم الله ، وبالتالي يكون الانسان مسيرا لا مخيرا ، وبتعبير الفلاسفة او المتفلسفين ان كل ما علم الله صدوره عن العبد فهو واجب الصدور ، والا لزم انقلاب علمه سبحانه جهلا .. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

الجواب : فرق كبير وبعيد جدا بين سابق علمه تعالى بسوء اختيار العبد لفعل الشر ، وبين سابق علمه سبحانه بفعل الشر من حيث هو ، وبصرف النظر عن ارادة فاعله واختياره له .. فان العلم الاول مجرد كشف عن وجود المعلوم في الحال او الاستقبال تماما كعلم الاستاذ بان لهذا التلميذ النجيب مستقبلا زاهرا ، وكعلمك بان فلانا الذي تعرفه جيدا سيرفض لا محالة لونا معينا من الطعام متى قدم له .

واما العلم الثاني فليس كشفا عن وجود الفعل بل علة لوجوده .. وبكلام آخر : فرق بين قولك : علمت بان زيدا سيسافر غدا ، وبين قولك: لما علمت بانه سيسافر سافر ... وعلمه تعالى بصدور الفعل من العبد من النوع الاول .

الشقي والسعيد :

وبهذا نجد تفسير الحديث المشهور : « الشقي من شقي في بطن امه، والسعيد من سعد في بطن امه » اي ان الله يعلم قبل ان يخرج هذا من بطن امه انه سوف يعمل عمل السعداء ، وايضا يعلم قبل ان يخرج ذاك من بطن امه انه سوف يعمل عمل الاشقياء . وقد سئل الامام الكاظم (ع) عن معنى هذا الحديث ، فقال : « الشقي من علم الله ، وهو في بطن امه ، انه سيعمل عمل الاشقياء والسعيد من علم الله ، وهو في بطن امه ، انه سيعمل اعمال السعداء » قال السائل : فما معنى قول الرسول الاعظم(ص): اعملوا فكل ميسر لما خلق له ؟. فقال الامام (ع) : « ان الله جل وعز خلق الجن والانس ليعبدوه ، ولم يخلقهم ليعصوه فيسر كلا لما خلق له، فالويل لمن استحب العمى على الهدى » .

أي ان كل انسان يجد الطريق امامه موسعا وميسرا لما يختاره لنفسه من طاعة او معصية ، فان اختار الطاعة يسرها الله له ، وان اراد المعصية

ايضا يسرها له ، بل وارادها ايضا عقوبة له على ما اراد .. وهذا ما قصده الامام بقوله : « الويل لمن استحب العمى على الهدى » اي ان الذي آثر العمى ألزمه الله بما الزم به نفسه ، وعامله بما اراده لها .

وعلى هذا يكون لله سبحانه ارادتان : ارادة مستقلة كارادته لخلق الكائنات وارادة تابعة لارادة العبد بما يختاره لنفسه ، ولكن بعد ان يلقي عليه الحجة ، ولا يبقى له من سبيل للاعتذار .

والخلاصة : ان الله جلت عظمته وحكمته خلق الانسان على وضع يستطيع به ان يختار بين الهدى والضلال ، وهذا ثابت بالحس والبديهة. ومن يختار الهداية يجد اسبابها ، ومن يختار الضلالة فكذلك : « فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ــ ١٠ الليل » .

ليبلوكم ايكم احسن عملا :

وتسأل : ان قوله تعالى : « ليبلوكم ايكم احسن عملا ــ ٧ هود » يتنافى بظاهره مع القول بأن الله سبحانه يعلم الشقي والسعيد قبل ان يخرجا الى هذه الحياة ؟ حيث دلت الآية بظاهرها على ان الله يبتلي عباده بالتكليف ليميز الخبيث من الطيب ، ومعنى هذا انه تعالى لا يميز الا بعد الابتلاء ، وما دام العبد في بطن امه فلا ابتلاء .

الجواب : ان الله سبحانه لا يختبر عبده ليعلم منه ما لم يكن يعلم .. كلا ، فانه اعلم به من نفسه ، وانما يمتحنه لامور :

« ومنها » : ان يترجم ما هو كامن في نفسه الى عمل ملموس ، حيث اقتضت حكمته تعالى ان لا يحاسب الناس على ما يعلمه منهم ، ولا على ما هو كامن في نفوسهم ، بل يحاسبهم على الاعمال ، قال الامام علي(ع): يقول الله :

« واعلموا انما اموالكم واولادكم فتنة » ومعنى ذلك انه يختبرهم بالاموال والاولاد ليتبين الساخط لرزقه والراضي بقسمته ، وان كان سبحانه اعلم بهم من انفسهم . ولكن لتظهر الافعال التي بها يستحق الثواب والعقاب .

و « منها » : ان يتميز الخبيث من الطيب ، وتظهر حقيقته امام الناس ، فيعاملونه بما يستحق .

و « منها » ان بعض الناس ، او اكثرهم يجهلون حقيقة انفسهم ، ويقولون : « لو سمحت لنا الظروف لكنا كذا وكيت » فمينحهم الله الاستطاعة ليلقي الحجة عليهم . ويعرفهم بحقيقتهم وواقعهم .

الهدى والضلال :

وتسأل : لقد ورد في كتاب الله آيات تدل بظاهرها ان الله سبحانه يخلق في العبد الهدى والضلال ، تماما كما يخلق العبد بجسمه وروحه ، ومنها قوله تعالى : « فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ـ ٨ فاطر » .

وقوله : « من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ـ ٣٩ الانعام » . وعليه يكون العبد مسيرا ، لا مخيرا ؟.

الجواب : ان الله سبحانه وهب الانسان القدرة والعقل والارادة ، وبالقدرة يفعل ، وبالعقل يميز ، وبالارادة يختار ، ثم ارشده الى طريق الخير وطريق الشر ، وحذره من هذا ، وامره بذاك ، وهو سبحانه ـ ، بموجب عدله يعامل كل واحد من عباده بما يختاره لنفسه ، فمن اساء الاختيار ، وسلك سبيل الضلال اصبح ضالا ، لا محالة ، وصحت نسبة الضلال اليه ، لانه هو الذي اقدم عليه بسوء اختياره وتصح نسبة الضلال

الى الله • لانه هو الذي جعل هذا الطريق مؤديا الى الضلال ، تماما كما جعل السم سببا للموت ، والتردي من شاهق علة للتحطيم والهلاك •

والانسان في البداية حرّ في ان يقدم او يحجم عن طريق الضلال ، فان اقدم سلبت منه الحرية ، ولزمه الضلال حتما وقهرا •• ونظير ذلك ان يقول قوي لضعيف : اياك ان تدخل هذا الكهف ، والا سددت بابه عليك حتى تموت فيه جوعا وكمدا جزاء لعصيانك وتمردك ، فاذا دخل بعد هذا التحذير ، وسد القوي باب الكهف على الضعيف ، وهلك فيه صح ان يقال : اهلك الداخل الضعيف نفسه بنفسه ، وان يقال ايضا : القوي اهلكه ، ولكن اللوم كل اللوم ، او اشد اللوم على من دخل الكهف ، وهو يعلم انه هالك فيه لا محالة •

وفي القرآن الكريم آيات عديدة وصريحة في هذا المعنى ، منها : « فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم ــ ٥ الصف) • اي انه تعالى اراد لهم الزيغ بعد ان ارادوه لانفسهم • ومنها : « ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بانهم قوم لا يفقهون ١٢٧ البقرة » « كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ــ ٣٤ غافر» •• « والذين اهتدوا زادهم الله هدى ــ ١٧ محمد» ••«ويضل الله الظالمين ــ ٢٧ ابراهيم » •• « كذلك يضل الله الكافرين ــ ٧٤ غافر » •• واوضح الآيات دلالة في هذا الباب قوله تعالى « كيف يهدي الله قوما كفروا بعد ايمانهم وشهدوا ان الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين ــ ٨٦ آل عمران » •

ويتضح من هذه الآيات ونظائرها ان افعاله تعالى تنقسم الى نوعين: الاول يهدف الى ما هو مطلوب بالذات ، والثاني يهدف الى ما هو مطلوب بالعرض ، والاضلال من النوع الثاني اي انه تعالى لم يرد الاضلال من العبد على كل حال حتى ولو اراد الهدى لنفسه ، بل اراده من العبد اذا اراده العبد لنفسه ، ونظيره ان تريد الخير والهداية لمن تحب، وترغبه فيها

بكل وسيلة ، ولما اصر وعاند وابى الا الضلال كرهته ، والزمته بكل ما يترتب على الضلال من آثار عملا بمبدأ « الزموهم بما الزموا به انفسهم » .

سؤال ثان : ان الله سبحانه يعلم انه لو خلق هذا الشقي لآثر الشقاء على السعادة ، وليس من شك ان عدم الشقي الفاسد خير من وجوده . واصلح له . لان مصيره الى الخلود في جهنم وعذابها ، وايضا عدمه اصلح للمجتمع لانه يرتاح من شره وضره .

الجواب اولا : ان من شأن الخالق هو ان يفيض الوجود على الممكنات على ان لا يتنافى ذلك مع عدله ورحمته ، والله سبحانه قد احسن الى الشقي الفاسد ، وانعم عليه بالوجود ، وزوده بالقدرة والعقل والارادة ، وهداه النجدين ، ولكنه اختار الشر : فكان هو المسؤول دون غيره .. وعليه يكون عدم الشقي خير من وجوده بالنسبة اليه ، لا بالنسبة الى الخالق .

ثانيا : لو اخذنا بهذا المبدأ لما صح الا تكليف من يعلم بأنه يسمع ويطيع مع ان التكليف يصح توجيهه للجميع .

ثالثا : ان الحجة لا تقوم لله على عباده الا اذا اوجدهم واقدرهم وكلفهم .

رابعا : ان وجود الشقي فيه شر ، وفيه خير ايضا ، حيث به يتميز التقي ويظهر فضله على غيره .

فلسفة النبوة

النبوة

يتفرع هذا البحث عن الايمان بوجود الله تعالى ، ومن انكر وكفر فلا يحق له الحديث عن النبوة والانبياء ، لان الفرع ينتفي بانتفاءالاصل، وايضا الحديث عن نبوة محمد (ص) وغيره من الانبياء يتفرع عن اثبات النبوة كفكرة بصرف النظر عن نبوة الاشخاص ، ولذا نبدأ الكلام قبل كل شيء عن تحديد النبوة من حيث هي ، ثم عن اثباتها ، فان استطعنا ذلك ، تحدثنا عن نبوة الرسول الاعظم (ص) في الفصل التالي :

البعثة :

النبوة بعثة من الله الى عباده ، وسفارة بينه وبينهم، وغايتها ارشادهم الى ما فيه لله رضا ، ولهم خير وصلاح ، فالرسول مبعوث من الله ، ورسالته النصيحة : « ابلغكم رسالات ربي وانصح لكم — ٦٢ الاعراف » . ولكن هل يحتم العقل ان يكون لله رسل الى خلقه وسفراء بينه وبينهم ؟.

الجواب : اذا كان لكل مصلح رسالة الى اهله وقومه فبالأولى ان يكون للخالق رسالة الى خلقه ، واية حاجة للناس باله لا يهتم بهم ، ولا يعنيه من امرهم قليلا ولا كثيرا ؟.

ويمكن ان نقرر حكم العقل بهذا الاسلوب ، وهو بعد ان افترضنا وجود الله سبحانه ، وانه متصف باعلى صفات الكمال والجلال . بعد

هذا الافتراض يلزمنا حتما ان نؤمن بان ما من شيء حسن في ذاته الا والله سبحانه فاعله وليس من شك ان ارشاد من يحتاج الى الارشاد حسن في ذاته وان الناس كل الناس في حاجة الى من يرشدهم الى النجاح والصلاح، فينتج من ذلك ان الله سبحانه لا بد ان يرشد عباده الى ما فيه خيرهم وصلاحهم ، وحيث لا سبيل الى ذلك الا بارسال الانبياء فيتعين ان لله انبياء ورسلا .

وبالاختصار : ان في افعالنا خيرا وشرا ، ونحن نجهل الكثير منها ، والله عالم بما نفعل ونجهل ، فيجب ، وهذي هي الحال ، ان يرشدنا ما يعلمه من صلاحنا باجدى الوسائل ، وارسال الرسل ... واليك هذا المثال للتوضيح : اعمى كاد ان يتردى في حفرة امامه ، وانت قريب منه وعلى مرأى ، فتجاهلته حتى هوى ومات ... ولو تفوهت بهذه الكلمة فقط : « انتبه امامك » لسلم ومع هذا تجاهلت من غير عذر ، لو حصل معك مثل هذا لكنت مذموما وآثما عندالله والناس وعند ضميرك ايضا .. والله سبحانه اجل واعظم ، واعدل وارحم ان يخلق عباده ثم يتركهم سدى يسيرون في طريق الهلاك من غير حارس ودليل .. ان الله ارحم بعباده من الام العطوف بوليدها . كما في الحديث .

هل يغني العقل عن الانبياء : وقال قوم ، وهم البراهمة ، لا حاجة اطلاقا الى الانبياء ، لانهم ان جاءوا بما يوافق العقل ففيه غنى عنهم ، وان خالفوه وجب ردهم والانكار عليهم .

واجيبوا : بأن العقل لا يحيط بكل شيء علما ، بل يدرك شيئا ، ويغيب عنه اشياء . لا يدركها الا علام الغيوب ، فيبينها سبحانه للناس بلسان انبيائه ورسله .

واصدق شاهد لهذا الجواب ان القرآن الكريم كشف عن كثير من الحقائق التى لم يهتد اليها العلم والعلماء الا بعد الف سنة او اكثر وعلى

سبيل المثال دون الحصر نذكر قوله تعالى : « وجعلنا من الماء كـل شيء حي ـ ٣٠ الانبياء » حيث اثبت العلم الحديث ان الماء مبدأ الحياة، وقوله « وارسلنا الرياح لواقح ـ ٢٢ الحجر » ايضا اثبت العلم ان الرياح تنقل نقاح الازهار الذكور الى الازهار الاناث لتخرج الثمر والفواكه، وقوله: « وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم امثالكـم ـ ٣٨ الانعام » وبهذا قال اهل الاختصاص بعلم طبائـع الحيوانات والطيـور والحشرات ، الى آخر الآيـات التي تتفق نصا وروحـا ، او تتفـق معها الكشوفات الحديثة .

ونعطف على جواب من رد على البراهمة ، نعطف عليـه الحقائـق التالية :

١ ـ ان قول البراهمة واضرابهم لو صح لانسد باب العلم والنصيحة والامر بالمعروف بشتى انواعه ، وباب الاصلاح والمصلحين ، وجـاز لكل انسان اذا ارشده مرشد ، افهم واعلم ان يرد عليه ، ويقول له لي من عقلي غنى عنك وعن تعاليمك .

٢ ـ لقد رأينا او قرأنا ان بعض الذين لا يدينون بالنبوات يعبدون الاحجار والاشجار ، وبعضهم النيران او الكواكب او الحيـوانات ، او البرق والرعد ، والاشباح والارواح ويفضلونها على عبادة الواحد الاحد التي تطهر النفوس من الاوهام والخرافات .. وقرأنا ايضا ان لبعض الامم مجموعة من الآلهة كثيرة وهائلة ... فإله للسمـاء وإله للارض ، وثالث للفضاء بينهما ، ورابع للشعر : وخامس للجمال ، وسادس للحب ، وآخر للبغض ، او للسلم او الحرب ولكل شيء رب يربه حتى القبائل ، لكل قبيلة رب .. اما صفات هذه الآلهة والارباب فعجيبـة غريبة ، فمنهم الطويل الاشقر ، ومنهم الاسمر ، وآخر يعشق الجميلات وينكح البنات الى آخر الاساطير والسخافات .. وايضا قرأنا ان بعض الاقوام الذين لا يدينون

بالنبوة ينكحون امهاتهم وبناتهم ، ومنهم من يأكل لحوم البشر الى ما لا يبلغه الاحصاء من المآثم والمنكرات .. وصدق الله العظيم « ان الانسان لظلوم كفار ــ ٣٤ ابراهيم » .

ومن هنا كان الدين السليم ضرورة لكل انسان بالغا ما بلغ من العلم والعقل ، فان كثيرا من الذين تعودوا اساليب العلم وطرقه الدقيقة في هذا العصر يؤمنون بالخرافات .. قال (غوستاف لوبون) في كتـاب الآراء والمعتقدات « ان العلمـاء تبدو عليهم السذاجـة كما تبدو على الجهلـة الآدميين ... فالعالم قلما يبدو اسمى من الجاهل في الامور التي ليست من اختصاصه ، وبهذه الملاحظة ندرك السبب في ان افضل العلماء يؤمنون باشد الاوهام خطلا » ثم ضرب على ذلك كثيرا من الامثلة منها ان عالمـا كبيرا في عصره كان لا يخرج من بيته الى المختبر الا ومعه قطعة من حبل المشنوق تقيه ــ بزعمه ــ حسد الحاسدين ، وسحر الساحرين » .

واغرب ما قرأت في تأليه الانسان للانسان في عصرنا هــذا ، عصر النور والحضارة ، هو ما ذكره عبدالرحمن عزام في كتابه الرسالة الخالدة، قال ما يتلخص بانه ذهب سنة ١٩٣١ الى جبال النوبة في جنوب كردفان ، فوجد قوما من الزنوج يعبدون واحدا منهم كإله ، ويسمونه « الكجور » ويرفعون اليه الدعاء ويقدمون له القرابين ، ويقدسونــه كل تقـديس ، ويعتقدون بأنه القدير على تصريف الامور الكونية ، وانه هو الذي ينزل المطر من السماء ، فاذا اجدبت الارض ، وهلك الزرع سألوه المطر ، فان تأخر عليهم شكوه الى الحكومة ، ولم يتركوها بحال حتى تأمر بحبسه ، واذا لم ينزل الغيث قتلوه واقاموا غيره مكانه ــ وهنا تذكرت الاعرابـي الذي صنع صنما من تمر ، ولما جاع اكله ــ وقال المؤلف : وقد جالست هذا الرب ، وتحدثت معه بواسطة المترجم ، وفي اثناء حديثي معــه جاءت زوجته . وكشفت عن ساقها . فأرتني آثار الضرب ... فقال المترجم ان

بعض الذين يعبدون زوجها قد ضربها ، وهي تشكوه اليك ظانة انك الحكومة قلت ـ ما زال الكلام للمؤلف : كيف ، وهي زوجة الرب المتصف بالقدرة عندهم ؟

ولا ادري كيف نطق عبد الرحمن عزام بهذا التساؤل ، وهو يروي عنهم انهم يقتلون الإله الذين يعبدون ويقدسون اذا لم ينزل الغيث ؟. ان الذي يعبد غير الله الواحد الاحد لا يكثر عليه شيء حتى ولو كان عالما كبيرا في عصره كالذي يحمل حبل المشنوق خوفا من حسد الحاسدين ، وسحر الساحرين كما حدثنا عنه غوستاف لوبون .

٣ ـ من تتبع سيرة الانبياء ، ودرسها بروية وامعان يجزم بانهم اول من دعا الى دين واحد ، وامة واحدة ، والى الصلاح والاصلاح بشتى انواعه ، وان دعوتهم هي التي غيرت وجه التاريخ ، ولولاهم لما تقدمت الانسانية خطوة واحدة الى الامام ، ولا كان لها تاريخ وحضارة واية دعوة اسمى واكمل من دعوة الاسلام التي تخاطب العقل والفطرة ، وترتكز على الاقناع والتحرر من الجهل والخرافات ، وتقليد الآباء والاجداد .

٤ ـ ان انكار النبوة والانبياء معناه ان البشرية في غنى عن الدين والشرائع السماوية واحكامها ، لان الانسان بمواهبه ـ كما يزعم المنكرون يستطيع ان يسد حاجاته في كل زمان ومكان مستقلا عن جميع الاديان .

وقد يبدو هذا صحيحا للوهلة الاولى عند البسطاء السذج ، ولكن الاذكياء يعلمون ان غاية الدين لا تنحصر بتنظيم العيش في هذه الحياة ، بل هي اعم واشمل ، ان غاية الدين ايضا ان يفهم الانسان معنى الحياة وقيمتها ومصدرها واهدافها ومصيرها .. وليس من شك ان كل عاقل يتمنى من اعماقه ان يعيش في حياته هذه حرا كريما ، لا ظالما ولا مظلوما، وايضا يتمنى بفطرته ان يحيا حياة ابدية سعيدة لا يشوب صفوها اية

شائبة ــ لو اتيح له ذلك والاسلام يقف معه ، ويؤازره فيما يبتغيه من الحياة الفانية ، ويرشده الى طريق الحياة الخالدة الراضية المرضية .. ومن جادل وخاصم نحيله الى الدعوة المحمدية التي تقدس العقل ، وتمتدح العلم ، وتساوي بين الناس على اساس الحق والعدل ، نحيله الى كتاب الله وسنة نبيه او على ما كتبه العلماء المنصفون في هذا الموضوع شريطة ان يقرأ ويدرس بتجرد وروية .

هل العلم يغني عن الدين :

وجاء بعد البراهمة من يقول اجل ، ان العقل وحده وبما هو لا يغني عن غيره ، ولا يخرج الانسان من العيش مع الحيوانات في الغاب والكهوف ، ولكن العلوم الطبيعية هي التي تخرجه من الهمجيةوالوحشية الى الحضارة والمدنية ، ومن الظلمات الى النور .

الجواب : ليس من شأن العلوم الطبيعية ولا في قدرتها ايضا ان تفسر القيم الانسانية ورغباتها كالسلم والحرية والمساواة ــ مثلا ــ وانما تصف الحوادث والتجارب وتسجلها ، كما هي في واقعها ، ومن هنا قال كثير من علماء الطبيعة انفسهم ان العلم وحده لا يحقق اماني الانسان ، وانما ينبغي ان يقترن بقيم انسانية وشريعة عادلة توجه العلم الى ما يضمن اعظم قدر من تحرر الانسان وسعادته .

وقال الدكتور فؤاد زكريا في مقال نشره بمجلة عالم الفكر الكويتية ج ١ ــ ٤٤ بعنوان العلم والحرية الشخصية ، قال : « في العصر الحديث اصبحت الصورة التي يرسمها العلم للكون تتصف بالآلية ، ولا تترك مجالا لقيم الانسان ورغباته لقد اصبح العالم موحشا يسير في طريقه المرسوم بدقة وانضباط لا مكان فيهما لمشاعر الانسان .. ان العصر الحديث اوجد انفصالا قاطعا بين عالم الطبيعة وعالم الانسان ، وقضىعلى التداخل بين هذين المجالين » .

ونذكر نحن صفة اخرى اضر واخطر من هذا الانفصال ، وهي ان تلك المصانع والمعامل قد حولت طعام الجياع ، ولباس العراة ، وبيوت البائسين ومستشفيات المرضى ، وروضات الاطفال ، ومعاهد العلوم ، حولتها الى اسلحة جهنمية ترعب البشرية بكاملها ، والى آلات التجسس على الدول والشعوب والافراد ، لا لشيء الا للايقاع والاضرار بهم .

ومن اغرب ما قرأت في هذا الباب ان في الولايات المتحدة يوجدبنوك للمعلومات عن اسرار الملايين ، تختزنها العقول الالكترونية ، وتباع تلك الاسرار لمن يشاء ساعة يشاء .. وقد بلغ استخدام هذه الاجهزة حدا يفوق التصور حتى لم يبق لاحد من سر مكتوم .

واخطر من ذلك آلات التصوير التي تنفذ اشعتها من الجدران ، وتعكس كل ما فيها حتى ما يجري في الحمام ، ويدور على الفراش ، ويكتنز بالخزائن .. وغريبة الغرائب ان هذه الاجهزة تباع علنا بالاسواق، وعلى مرأى من الحكومة ومسمعها حتى ارتفعت اصوات الاحتجاج تنبه الى الخطر الذي تعرضت له الحريات والكرامات .. هذي هي العلوم الطبيعية التي تغني عن دين الله القائل : « اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ايحب احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتا ــ ١٢ الحجرات » .

والخلاصة : ان احدث النظم التي يسمونها بالعلمية لا تغني عن دين الله شيئا ، لانها لا تعبر الا عن الذين يصنعونها ، ولا تعكس الا اطماعهم واهواءهم .

وقال احمد امين المصري في بعض ما كتب ونشر : « ان كان العلم في كل آماله يحقق رغبة الانسان من حيث مادته ، فالدين يحقق امله وطموحه من حيث نفسه وقلبه ، لقد اراد الماديون ان يؤسسوا نظاما

للاخلاق على العقل البحت فلم يفلحوا . ان الاخلاق اذا كان يحميها القانون فقط او الحكومة او الضمير او الرأي العام لم تكن اخلاقا محصنة ، فكل هذه وسائل لا تمنع الاجرام ، فكم من الجرائم يستطيع الانسان ارتكابها ولا يصل اليها القانون ولا الحكومة ولا الرأي العام ، وما سمي بالضمير ليس الا مرآة منعكسة للعرف والتقاليد فالضمير في الهند كان يسمح للزوجة ان تدفن حية مع زوجها ، والضمير في امريكا يسمح للامريكي الابيض ان يعامل الزنجي معاملة الانسان للغنم ، والدين هو الذي يسد هذه الثلمة ، فيربط قلب الانسان بربه ، وضميره بإلهه ، وإلهه مطلع على خفاياه يحاسبه حتى على نياته ، ويراقبه حتى في خلجات نفسه » .

محمد والقرآن

في فصل اثبات الخَالق حاولنا ان نعتمد على مبادىء اولية ، وحقائق يقينية في منتهى الوضوح ، ونحاول هنا ايضا في كل ما نكتب ان نسير على هذه السبيل • ومنه تعالى نستمد العون والتوفيق •

القرآن ومعجزات الانبياء

قالوا : كان لكل نبي معجزة تفسرها حوادث عصره وتعين نوعها الظروف التي كانت تحيط به ، ثم تذهب بذهاب تلك الظروف والحوادث، او بموت النبي كعصا موسى ، وابراء الاكمه والابرص على يد السيد المسيح ، اما معجزة الرسول الاعظم فهي القرآن ، والقرآن باق على مدى الايام ، وقد تفرد بهذه الفضيلة نبينا محمد وامتاز عن سائر الانبياء •

وهذا القول صحيح وصادق في واقعه ، ولكن لا يواجه به غير المسلم بخاصة المتعصب المتعنت ، لان له ان ينكر ويقول : اول الكلام ان القرآن معجزة تثبت نبوة محمد •

والذي يجب سلوكه مع المنكر هو ان نقول له : ان القرآن تتوافر فيه جميع الصفات والمؤهلات التي تجعله موضوعا للبحث والدرس في انه هل هو معجزة خارقة للعادة شكلا ومضمونا في كل مكان وزمان ، وعلى مدى العصور والاجيال ، اولا شيء فيه من هذه الصفات والمؤهلات ، بل ان حاله تماما كحال الانجيل والتوراة • وغيرهما من المؤلفات والمصنفات؟•

وليس من شك ان غير القرآن من الكتب .. حتى التوراة والانجيل لا تتوافر فيه هذه الصفات والمؤهلات . وبالتالـي لا يصح ان يكـون موضوعا لهذا النزاع والاختلاف .. والدليل على ذلك حسي ويقيني من وجوه ، وهي :

اولا : انه ما من يهودي او نصراني نجرأ حتى على الدعوى والزعم بان توراته او انجيله معجزة ، او شبه معجزة .. لا في مبناه ولا في معناه .. وايضا ليس في واحد من الكتابين تصريح بذلك ولا تلميح على عكس القرآن ، كما ترى في الآيتين التاليتين :

ثانيا : ان القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد الذي تحدى المعاندين له في كل زمان ومكان ، وقال لهم بلسان واضح وفصيح : «فأتوا بسورة من مثله وادعوا شركاءكم من دون الله ان كنتم صادقين فـان لم تفعلوا ــ ٢٤ البقرة » .

وقال ايضا ، « قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثـل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ــ ٨٨ الاسراء». ومضى على هذا التحدي اكثر من الف وثلاث مئة سنة ، وما اتى ولن يأتي احد بمثله على الرغم من كثرة خصومه وعلمهم ومقدرتهم .. ومن اجل هذا آمن به علماء وفلاسفة كثيرون ولا يزالون يدخلون في دينه ، ولن يزالوا على مدى العصور والاجيال .

ثالثا : كل معجزة من الانبياء كانت خاصة بعصره وتاريـخ قومه لا تتعداه الى غـيره . كعصا موسى ، واحالة المـاء خمرا في عرس « قـانا الجليل » على يد السيد المسيح ، كما قال الانجيـل ، او ابرائه الاكمـه والابرص كما يقول القرآن ..

ولا شيء على الاطلاق في الدنيا بكاملها نطق بلسان المقال او الحال،

وتجرأ ان يقول : انا المعجزة الكبرى مدى الدهر لفلان ابن فلان ، وان الله قد اوجب على جميع عباده بلا استثناء طاعتي وطاعته ، وهذا دليلي البالغ القاطع ، وهو التحدي .. ابدا لا قائل بهذا الا القرآن الكريم ، معجزة محمد الخالدة على مدى العصور والاجيال .. ذلك بانه « كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ١ ــ هود » . وبه آمنت وصدقت ملايين الملايين على مدى القرون .

وبهذا يتبين معنا ان المعجزة التي يدعيها المسلمون لمحمد (ص) ليست عصا ، ولا ماء يحول الى خمر ، ولا اي لون من الوان المادة التي تذهب وتزول مع الاحوال والايام ، بل هي روحية عقلية ، لها مبادىء واحكام انسانية تطمئن بها النفوس ، وتذعن لها العقول ، وتصلح لحياة الناس كل الناس في جميع الميادين ، وعلى كر العصور واختلاف الامم ، لانها تهدي باسسها الى التي هي اقوم ، ومن ارتاب وتردد قالت له معجزة محمد : « فاتوا بسورة من مثله » .

هذا هو الفارق بين معجزة محمد ، ومعجزة غيره من الانبياء، وبهذه المعجزة اي بالقرآن ونظامه وشريعته كان محمد سيد الانبياء وخاتمهم ، وكانت رسالته عامة وخالدة الى آخر يوم تماما كمعجزته .. « وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ــ ٢٤ فاطر » .

« وما ارسلناك الا رحمة للعالمين ــ ١٠٧ الانبياء » . اما الانبياء السابقون فشريعتهم خاصة كمعجزاتهم ، والذي يؤيد هذا انه لا اشارة في التوراة او في الانجيل الى ان موسى او عيسى هو رسول الله الى الناس كافة على تعاقب عصورهم ، وتباين لغاتهم ، او انه خاتم النبيين ، ولا احد من الانبياء السابقين ــ على محمد ــ وصف رسالته بالعموم والشمول ، او نفسه بخاتم المرسلين ، بل منهم من بشر بمحمد من بعده ، وتأتي الاشارة الى ذلك .

يرى البعض انه لا معجزة لمحمد (ص) الا القرآن ، اما نحن فنؤمن بان معجزاته لا يبلغها الاحصاء ، ذلك بان على الحكيم ان يخاطب كل قوم بلغتهم ، وبما تستسيغه عقولهم كي تتم الحجة عليهم ، والا كانت الحجة لهم عليه ، ولا تتم الحجة بحال ، ويستحيل أن تتم الا اذا كانت صحيحة في نفسها ، وواضحة في بيانها واسلوبها كنور الشمس بحيث لا تدع منفذا لاية شبهة في ذهن المخاطب .. والا فان « الحدود تدرأ بالشبهات » .. وبحيث يعد المنكر مكابرا ومتعنتا في نظر العقلاء جميعا . واشرنا الى ذلك في بعض ما تقدم .

وعلى هذا ينبغي ان تتنوع المعجزة وتختلف باختلاف الموارد والاشخاص ، كما استدعت حكمته سبحانه ان يباهل نبيه الكريم نصارى نجران .. هذا اذا كان طالب المعجزة يبتغيها بصدق ، واخلاص ، اما الكاذب المتعنت الذي لا يجدي معه شيء فيقتصر معه على القرآن ، لان اعجازه عام لا يختص بعصر دون عصر ، ولا بفئة دون فئة ، او بفرد دون فرد .

والذي يدلنا على ان معجزات الرسول الاعظم (ص) متعددة ومتنوعة ان رجل الدين فيما مضى كان يستدل على نبوة محمد بما جاءت به الاخبار من تكلم الحصى ، وسعي الشجرة اليه ، ونبع الماء من بين اصابعه .. الى غير ذلك من المعجزات التي انهاها بعضهم الى اربعة آلاف واربعمئة واربعين معجزة . كما في البحار وكان الناس يتقبلون هذا آنذاك ، اما اليوم حيث يتطلع العالم الى حياة افضل فانا نستدل على نبوة محمد (ص) ــ فيما نستدل : بانه خاطب العقل وحارب الجهل ، وساوى بين الناس ، ووقف مع المستضعفين ، وقاوم الطغاة المترفين ، واخرج بشريعته وتعاليمه العالم من ظلمات التوحش والهمجية الى نور الحضارة

والمدنية ، وبفضله نزع رعاة الابل التيجان عن رؤوس الجبابرة ، والقوا بها تحت اقدامهم .

وقد تستدعي الحكمة ان لا تعرض المعجزة على الشخص اطلاقـا ، كما لو اكتفى بمجرد شعوره واحساسه ؛ فقـد روى الرواة ، وفيهم ابن حنبل والبخاري ومسلم .

« ان رسول الله (ص) بينا هو في المسجد اذ دخل رجل . وقال : ايكم محمد ؟.

فارشد اليه . قال الرجل لمحمد (ص) : اني اسألك فمشدد عليـك في المسألة فلا تجد علي في نفسك .

قال النبي : سل ما بدا لك .

قال الرجل : اسألك بربك ، ورب من قبلك : هل ارسلك الله الـى الناس كلهم ؟.

النبي : اللهم نعم .

الرجل : انشدك الله : هل امرك ان تصوم هذا الشهر من السنة ؟. اليوم والليلة ؟

النبي : اللهم نعم .

الرجل : انشدك الله : هل امرك ان تصوم هذا الشهر من السنة ؟.

النبي : اللهم نعم .

الرجل : انشدك الـله : هل امره ان تأخذ الصدقـة من اغنيائنـا فتقسمها على فقرائنا ؟.

النبي : اللهم نعم .

الرجل : آمنت بما جئت به ، وانا رسول قومي اليك ، انا ضمام ابن ثعلبة اخو بني سعد بن بكر .

والخلاصة : ان معجزات الانبياء على نوعين : خاصة كابراء الاكمه ، وعامة كالقرآن ، ومعجزات الانبياء السابقين كلها خاصة لا تتعدى زمانها، وما لواحد منهم معجزة تشمل وتعم ، اما محمد (ص) فله معجزات خاصة ، كثيرة ومتنوعة ، وله وحده المعجزة العامة الخالدة ، وهي القرآن، ويأتي الكلام عن اعجازه .

اما قول من قال بانه لا معجزة للرسول الاعظم الا القرآن لان غيره يتنافى مع قانون الطبيعة اما هذا القول فرده **اولا** : بأن اعجاز القرآن يتنافى ايضا مع طبيعة الانسان ، والا امكنه ان يأتي بمثله . **ثانيا** : بان الطبيعة بما فيها من كائنات ترجع الى اصل واحد ، هو الله ، وارادة واحدة ، هي ارادته التي تقول للشيء : كن فيكون ... وما من كائن على الاطلاق له مع الله سبحانه ارادة ولا قانون ولا خصائص ، ولا اي اثر ، بل لا وجود ايضا .. وله مع غير الله وجوده وخصائصه وآثاره ، هذا هو الجواب الحق فيما نعتقد ، وما عداه اوهام وتكثير كلام .

وتجدر الاشارة الى ان المعجزة ليست من باب العجز في المقدور ، لا في القادر كاجتماع النقيضين او ارتفاعهما ، وكدخول الجمل في سم الخياط ، والالم يكن للمعجزة من موضوع ، وكان الكلام عنها جنون وهراء .

نبوة محمد ورسالة الاسلام

وجّه الي هذا السؤال شيخ افريقي يطلب العلم في قم .. وفي اللحظة الاولى لسؤاله تبادر الى ذهني انه يشعر بمسؤولية الدفاع عن دينه ، وانه يرغب الي ان امده وازوده بما املك من وسائل الدفاع ،

فاجبته ، وانا اشرح هنا وافصل ما اجملته هناك ، لان الكتابة بعد التفكير غير الجواب السريع ، اجبته وقلت : ان الاسلام هو رسالة محمد بالذات (ص) على انها وحي من الله ، لاصنع محمد ، واصدق الادلةعلى هذه الحقيقة هو القرآن الكريم ، وما على المشكك والمتردد الا ان ينظر اليه بروية وامعان ، فان توافرت فيه خصائص الوحي من الله فالاسلامحق وصدق ، والا فلا وحي ولا اسلام .

ونحن نسأل من تشكك وارتاب في نبوة محمد (ص) ورسالته ، او قطع وجزم بذلك بلا تردد ، نسأله هل انت من الذين ينكرون وجود الله من الاساس كالماديين ، او من الذين يؤمنون بوجوده ، وينكرون ان يكون لله وحي ، وللانسان بعث كاصحاب الدين الطبيعي [1] او انت من الذين يؤمنون بالله وكتبه ورسله ، ولكن ينكرون نبوة محمد ورسالته بالخصوص كالنصارى .. فان كنت من النوع الاول فلا يحق لك ان تجادل وتخاصم في النبوات والكتب السماوية فضلا عن القرآن ونبوة محمد (ص) ولك كل الحق ان تطالب بالدليل على وجود الله ، وقد اوضحناه في فصل سابق بعنوان اثبات الخالق ، فان اقتنعت فذاك ، والا قلنا مع نبينا الاكرم « لكم دينكم ولي دين » . وان كنت من النوع الثاني فنفس الشيء ، ولك ان تطالب بالدليل على وجوب الايمان بكتب الله ورسله ، وقد ذكرناه في الفصل المتقدم بعنوان النبوة .

وان كنت من النوع الثالث اي تؤمن بالله وكتبه ورسله ، ولكن تنكر نبوة محمد ، وتقول : ان القرآن بشري ، لا إلهي ، ان كنت هكذا سألناك هل تعتقد بان القرآن من عند محمد وابداعه بالذات ، او تعتقد بان محمدا اخذه من مخلوق مثله . والفرض الاول ابعد من كل بعيد ،

---

(١) هم قوم يؤمنون بخالق الطبيعة ، وينكرون البعث والنبوات ، وسموا انفسهم باصحاب الدين الطبيعي لان ايمانهم بالخالق تفرضهالحوث الطبيعية دون غيرها من المغيبات .

لان تفسير اي كتاب وتقييمه والحكم عليه يجب ان يكون في ضوء شخصية مؤلفه وظروفه الاجتماعية ، وما سبقه واحاط به من عوامل تؤثر في عقله وعاطفته ، ومهما كان الانسان قويا في شخصيته ، وعبقريا في مواهبه فيستحيل عليه ان يتحرر من جميع آثار البيئة التي عاش فيها حتى كأنه غريب عنها لان الانسان ابن الارض التي ولد منها وعاش عليها .

وعليه ، فاذا قارنا بين القرآن شكلا ومضمونا ، وبين بيئة محمد وعواملها تبين معنا ان الفرق بينهما هو عين الفرق بين العلم والجهل ، والظلم والعدل ، والحق والباطل ، والهدى والضلال ، وقد اشار القرآن الى هذا بقوله : « هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين ــ اول الجمعة » . كانوا في ضلال مبين من الشرك وتعدد الآلهة ، ولما جاءهم محمد (ص) بالتوحيد عجبوا وقالوا : « هذا ساحر كذاب اجعل الآلهة إلها واحدا ان هذا لشيء عجاب ــ ٥ ص » .

وكانوا يحللون الربا والزنا والخمر والميسر ، والكذب والغيبة ، والسلب والنهب ، وقتل النفس المحرمة ، كما تنابزوا بالالقاب ، وتعصبوا للانساب ، وتفاخروا بالاموال والاولاد وقطعوا الارحام ، ووأدوا البنات خوفا من العار ، وقتلوا الاولاد خشية الاملاق وجعلوا المرأة في عداد الحيوانات .. الى آخر الرذائل والبربرية التي حرمها محمد وانكرها اشد الانكار على قومه واهل بلده ولاقى منهم لذلك من الوان الاذى ما لم يلقه نبي من قبله .. اذن فاين وجه الشبه بين محمد وبيئته وما هي الافكار التي استوحاها وتأثر بها من ظروفه ومحيطه . واذا كان محمد بافكاره وميوله انعكاسا لبيئته وتقاليد قومه فلماذا جيشوا الجيوش لحربه وقالوا عنه فيما قالوا : ساحر وشاعر ومجنون وكذاب واذا اضفى النبي الصبغة الدينية على دعوته ليستجيب اليه العرب عن هذا الطريق

كما قال احد المستشرقين اذا كان هذا صحيحا فلماذا سفه النبي احلامهم وسب آلهتهم التي يعبدون وآباءهم الذين يقدسون ؟

لقد كانت دعوة رسول الله (ص) غريبة لدى العرب •• تفوق عقولهم وتصورهم حتى انهم لم يجدوا لها تفسيرا الا السحر « وقال الكافرون للحق لما جاءهم ان هذا الاسحر مبين ــ ٢٣ سبأ » • وعلى الرغم من هذا وغير هذا يكابر اعداء الاسلام وخصومه ويصرون على ان محمدا يرتبط في رسالته بحياة قومه ايما ارتباط على حد تعبير المستشرق الانكليزي « جب » ••

ابدا •• لا عامل من بيئة ، ولا سبب من ذات ، ولا شيء على الاطلاق الا الوحي من السماء •

وتسال : ان الاشخاص الذين يقاسون بظروفهم ، هم العاديون ، او العباقرة غير محمد صاحب الشخصية المبدعة الخلاقة التي تعطي البيئة ولا تأخذ منها ، وتتأثر به ، ولا يتأثر بها ؟•

ونجيب اولا : اجل ، ان شخصية رسول الله لا تدانيها اية شخصية عبقرية ، ولكن العبقرية ــ مهما سمت ــ فانها لا تأتي ولن تأتي بالمعجزات وخوارق العادات •• فالعبقري الذي لم يدرس فن الطب ــ مثلا ــ يستحيل ان يؤلف كتابا فيه صحيحا وسليما في جميع اقواله ونظرياته بخاصة اذا كان فيه كشوف جديدة ••• ولو افترض ان جاءنا بكتاب مثل هذا لجزمنا في الحال ومن غير تردد بأن وراءه عالما قديرا في فن الطب هو الذي وضع هذا الكتاب ، واعطاه للعبقري ، او العبقري سرقه منه •

وهذي هي الحال بالنسبة لمحمد (ص) ، فلقد جاء بالقرآن ، وفيه اشياء واشياء لا يمكن ان تكون الا من خالق الكائنات ، كالاخبار بالمغيبات وعجائب الارض والسموات ، وخلق الانسان وغيره من

الحيوانات والحشرات ، وفيه النظام الكامل الشامل لشتى ميادين الحياة .. الى غيرهـا من الحقائق الكونية والانسانية التي يعجز محمد والعلم في عصره عن معرفة القليل منها .. اذن ، فلا بد ان تكون تنزيلا مـن لدن حكيم خبير على قلب الرسول الامين : « ما كنت تدري ما الكتـاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ــ ٥٢ الشورى ».

ثانيا : ان للعبقري المبدع علامات تدل عليه ، وللثائر المصلح صفات تميزه عن غيره ، والنبي يشارك العبقري والمصلح ، في كل فضيلة ، ما في ذلك ريب ، ولكنه يمتاز بصفات لا يشاركه فيها احـد ، ان العبقري او المصلح يستوحي آراءه ومبادئه من الارض ، لا من السماء ، يستوحيهـا من عقله وبيئته ، والنبي يتلقى الوحي من السماء ، من الله جلت عظمته ، والوحي معصوم ، والعقل يخطىء ويصيب ، والبيئة شهوات واهواء .

وايضا العبقـري يبـدع في شيء دون شيء ولا يبدع في كل شيء والمصلح يهدف الى ناحية واحدة او اكثر من حياة فئة او امة في بقعة مـن الارض ، ولا يهدف الى اصلاح اهل الارض جميعا في كل شيء وفي كـل زمان ومكان .

اما محمد فهو رسول الحق والعدل الى الانسانية جمعاء لينقذهـا من الجهالة والضلالة ، ويحملها على نهج الهداية والنجاة .. واين العبقري والمصلح من هذا او شبه هذا ؟.

وبعد ، فان محمدا لا يقال : هو عبقري خلاق ، ولا مصلح ثائر، ولا عظيم خالد .. كلا ، والف كلا ، فما اكثر العباقرة والمصلحين والثائرين !. ان محمدا رحمـة مهداة من إله السمـاء لاهل الارض اجمعين : « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » . ورحمة الله سبحانه فوق العبقرية والعباقرة، والاصلاح والمصلحين ، وفوق العظمة والعظماء الخالدين ، بل فوق الناس

مجتمعين والسموات والارضين ، لانها تتسع لكل شيء ولا يتسع لها شيء الا قلب محمد ومن سار على طريقته وعمل بمبادئه وسنته انتهى .

القرآن والتوراة والانجيل

قدمنا ان الذي يؤمن بالله ورسله ، وينكر نبوة محمد (ص) امـا ان يزعم بان القرآن من محمد بالذات ، وإما ان يدعي ان محمدا اخذه من غيره ، وابطلنا الزعم الاول بكلام مفصل ومطول ، ونجيب الآن عن الزعم الثاني ، وهو من سموم المبشرين الذين ينفثونها ضد الاسلام والمسلمين ، وتتلخص اقوال المبشرين ضد القرآن بانه : مأخوذ من التوراة والانجيل ومن بعض الرهبان والقسيسين !..

وقال صهيوني عريق : انبثقت المسيحيـة من اليهودية ، وانبثـق الاسلام منهما معا !. ونجيب .

١ ــ اثبت التاريخ ان اليهود كانوا اعدى اعداء محمد (ص) ، وانهم حاربوه وكادوا له ، والبوا عليه العرب ، ولم يكفوا عنه الا بقوة السلاح، وايضا جرت بين رسول الله (ص) وبين النصارى بعض الحروب والغزوات كغزوة مؤتة وتبوك ، كما جادله نصارى نجران في الدين والسيد المسيح، حدث هذا ، وما نقل ناقل صادق ولا كاذب ان نصرانيا او يهوديا احتـج على رسول الله بانه اخذ القرآن من التوراة والانجيل ، على ان القرآن رد هذا الوهم قبـل ان يتفـوه به ناطـق ، وذلك حيث تقول الآية ٤٩ من العنكبوت : « وما كنت تتلو من قبلـه من كتاب ولا تخطه بيمينك اذاً لارتاب المبطلون بلهو آيات بينات فيصدور الذين اوتوا العلم وما يجحد بآياتنا الا الظالمون » .

اجل ، ان كان القرآن قد اخذ بعض الآيات من التوراة والانجيـل فهي هذه : « قل يا اهل الكتاب لستم على شيء ــ ٦٨ المائدة » .. « قل

يا اهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل ـ ٧١ آل عمران » .. « قل يا اهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ـ ٧٧ المائدة » .. لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة ـ ٧٣ المائدة » .. « وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت ايديهم ولعنوا بما قالوا ـ ٦٤ المائدة » ..

مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ٥ ـ الجمعة » الى آخر الايات التي نددت باليهود والنصارى ، ونعتتهم بالكفر والافتراء على الله ، وتحريف كتبه وقتل رسله ، ووصفتهم بكل قبيح .

٢ ـ ما هو وجه الشبه بين القرآن ، وبين التوراة والانجيل ؟. هل هو في الشكل او المضمون او هما معا ، اما الشكل والاسلوب فان تلامذة المدرسة الابتدائية لا يعجزون عن تقليد التوراة والانجيل .. ويأتي الحديث عن اسلوب القرآن ، واما وجه الشبه في المضمون فنساءل : هل تشبه التوراة والانجيل القرآن الكريم في تنزيه الله عن الشريك والولد ، او في الشريعة واحكامها او في الحرص على حقوق المرأة او في الاخبار عن المغيبات ، وعن عجائب الارض والسموات .. الى غير ذلك من الحقائق .

هذا ، الى ان القرآن تحدث عن انبياء لا ذكر لهم في الانجيل والتوراة لا تصريحا ولا تلميحا ، كهود وصالح وذي الكفل ، كما ان في التوراة انبياء لم يشر اليها القرآن كعاموس وميخا وناحوم وغيرهم ...

وقد شهد علماء الغرب بأن المسلمين بفضل القرآن وتعاليمه ملأوا الشرق والغرب بعلومهم وحضارتهم ، قال « سديو » احد وزراء فرنسا في كتابه تاريخ العرب :

« كان المسلمون متفردين في العلم والفلسفة والفنون الجميلة وقد

نشروها اينما حلت اقدامهم . وتسربت عنهم الى أوروبا . فكانـوا سببا لنهضتها وارتقائها ، ومعلمين للاوربيين وملقنين لهم النهوض والمدنية » .
وامثال هذه الشهادة كثير وكثير . ومع هذا يصر اعـداء الاسلام على ان القرآن اخذ من التـوراة والانجيل ، وان المسلمين اخـذوا الادب من الفرس ، والحكمة من الهند ، والفقه من الرومان ، والفلسفة من اليونان، وليس لهم فيها كثير ولا قليل ... الى مثل ذلك من العداء والافتراء .

وآمنت . وانا اقرأ هذه الاكاذيب ، ان افضل وسيلة للمسلم ، اذا احب ان يكون على يقين من دين آبائه واجداده ـ ان يقرأ ما يقوله اعداء الاسلام عن الاسلام ...

٣ ـ ان كل ما يستدعي الشك في القـرآن كوحي من الله ـ لو فرض وجوده ـ فهو يوجب الشك والريب في التوراة والانجيل بطريـق اولى ... وبالمناسبة ان اليهودية سبقها كثير من الانبياء ، منهـم نـوح وابراهيم ، وكان في عهد موسى وعيسى ديانات وكهانة وسحرة ... فكل ما يقوله اليهودي والمسيحي في حق القرآن ومحمد يصح للمسلم انيقوله بالذات في حق التوراة والانجيل وموسى والمسيح ... بل ويزيد عليـه ايضا .

الاسلام والصهيونية والاستعمار :

ولمناسبة ما ذكرناه عن اعـداء الاسلام نشير الى ان الصهيونيـة خصصت جماعة من اصحاب الادمغة للافتراء على الاسلام ، ووجهت لهذه الغاية الصحف الكبرى والاذاعات ، والصور المتحركة ، وعددا غير قليل من المؤلفين والممثلين ودور النشر ، وتعاونت مع بعثات التبشير المسيحي التي تملك مؤسسات ومراكز تنتشر في انحـاء البلاد الاسلامية بخـاصة افريقيا ، منها ٤٠ مركزا للسويد ، واكثر من ٥٠٠ للنروج و ٤٥٠٠ لامريكا عدا ما لايطاليا وفرنسا وانكلترا .. قال العقاد في كتاب « ما يقال عـن

الاسلام » « ان الغربيين يعرفون اكاذيب الصهيونيين ، وانما يساعدونهم، لان خطر الاسلام عليهم اكبر من خطر الصهيونية ، وما يماثلها من سائر الاخطار » .

ونقل الشيخ محمد الغزالي في كتابه « معركة الاسلام » عن « لورانس براون » انه قال : « لقد كنا نتوجس الخوف من خطر اليهود والخطر الشيوعي ، والخطر الاصفر . ثم تبين لنا ان اليهود اصدقاؤنا والبلاشفة حلفاؤنا ، اما الخطر الاصفر فهناك دول كبرى تتكفل بالقضاء عليه — يشير بهذا الى الخلاف بين الروس والصين — ان الخطر الحقيقي يكمن في نظام الاسلام ، وفي قدرة الدين الاسلامي وحيويته ، انه الجدار الوحيد الذي يقف في وجه الاستعمار » .

اعجاز القرآن :

تكلم العلماء كثيرا عن اعجاز القرآن ، واطالوا الكلام [1] وحاولوا جاهدين ان يكشفوا اسرار هذا الاعجاز ، او عن بعضها ، وربما خيل الى واحد منهم — على الاقل — انه قد ادرك ما اراد ، ولكن هيهات ! ، انى يكون له ذلك . والمفروض ان القرآن ان اعجز العقول والقرائح ، فبالاولى ان يعجز الالسن .

اجل ، ان العالم يفهم المعنى الذي يتبادر الى ذهنه من لفظ القرآن وظاهره ، ويستحيل عليه ان يحيط علما بجميع معانيه واسراره ، وعلومه وانواره .. وعلى هذا فاذا تحدث العالم عن اسرار القرآن فانما يتحدث عن اعجاز ما فهمه هو من لفظ القرآن وظاهره ، لا عن اعجاز القرآن كما هو في واقعه .. حتى هذا المعنى الظاهر ينطوي على كثير من الخصائص والاسرار ، ولا يعرف العالم منها الا قليلا .. واذن هو يعبر عن هذا النزر

---

(١) انظر : دلائل الاعجاز للجرجاني من القدماء ، والمعجزة الخالدة لهبة الدين الشهرستاني من الجدد .

القليل الذي يعلمه •• ومن اراد الاطلاع على هذه الرشحات او المحاولات فليرجع الى ما كتبه الجرجاني والباقلاني وابو عيسى الرماني ، وغيرهم ممن الفوا في هذا الباب •• اما نحن فنشير فيما يلي الى سر الاعجازومكان التحدي باختصار جامع وسريع •

التحدي :

نحن نقر ونعترف بان الذين كفروا وجحدوا بالقرآن الآن وقبل الآن كثيرون جدا ، ويعدون بالملايين ، لا بمئات الالوف ، وكيف ننكر هذه الحقيقة ويشهد لها الوجدان والبديهة !• ولكن هذا الاعتراف من المؤمنين يقابله الاعتراف من الكافرين بان القرآن تحداهم ــ مدى الدهر ــ على ان يأتوا بمثله ، ويدعوا من شاءوا ، وما ارادوا •• واذا لم نجد نحن ملجأ ولا مفرا من الاعتراف بوجود من جحد وكفر فان الجاحد الكافر لا ملجأ له ايضا ولا مفر ، الا الاذعان والتسليم بان القرآن تحداهم وما زال،وبان التاريخ ما حفظ محاولة ناجحة لتقليده على كثرة اعدائه ، والجاحدين به، وبمن نزل على قلبه •

نحن نعترف بوجود هؤلاء الكافرين ، وهم بحكم الحس والبديهة يعترفون بهذا التحدي •• كيف لا • والقرآن يعلن بلسان واضح وصريح : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ــ ٨٨ الاسراء » •• حتى فصحاء العرب وبلغائهم تصدوا للقرآن ، واعترفوا بالعجز عن تقليده ، وقال قائلهم وسيدهم الوليد بن المغيرة : « ان له لحلاوة، وان عليه لطلاوة، وان اعلاه لمثمر ، وان اسفله لمغدق •• وانه ليعلو ولا يعلى عليه •• وقال آخرون •• محمد ساحر وشاعر » •• وهذا القول اقرار واعتراف بان القرآن يذهل العقول ، ويخرس الالسن •

اما سر هذا الاعجاز فلا يكمن في نفس اللغة ، وان سمت وعظمت ،

ولا في اختيار الكلمات ، وسبكها وتشكيلها ، ووضع كل كلمة في مكانها، كما قيل ، فكم من اديب يتذوق نكهة الكلمة ويضعها في مكانها من شعره او نثره ويشكل اسلوبا بالغ الروعة في نعومته وطراوته .. كلا ، ليس السر في التشكيل والتجميل .. بل هناك سر ابعد واعمق .. وهو ذات المتكلم وجلاله وعظمته .. ويستحيل الفصل بين الاسلوب ، اي اسلوب، وبين صاحبه باتفاق اهل الخبرة والاختصاص ، قال الكاتب العالم الفرنسي بافون : « الاسلوب هو صاحب الاسلوب » وقال عارف آخر : ليست الكتابة الا التعبير عن طبيعة الكاتب وطابعه وقال خبير ثالث : الاسلوب جزء من صاحبه .

ومن اجل هذا يستحيل على الانس والجن ان يأتوا بمثل هذا القرآن او بسورة من مثله ، تماما كما يستحيل ان يأتوا بمثل هذا الكون، او بجزء من مثله .

ونفترض — جدلا — وفرض المحال ليس بمحال ، نفترض ان المخلوق يستطيع ان يقلد خالقه ، وخالق الارض والسموات ،ولو في اختيار الكلمات وتشكيل العبارات ، وان في مقدوره وامكانه ان يأتي بمثل القرآن حلاوة وطلاوة — على حد تعبير الوليد بن المغيرة — فهل يستطيع ان يأتي بكتاب تحدث تلاوته في القلب ما يحدثه كتاب الله من الرهبة والخشوع ، ويكون له من الآثار ما للقرآن في الاخلاق والآداب والتشريع والتاريخ والفلسفة .. الى غير ذلك من العلوم والحكم التي فتحت ابواب الجد والعمل للدنيا والآخرة ، واوجدت امة بعد العدم ، وجمعت صفوفها بعد الشتات ، وامدتها من القوة ما اكتسحت به دولتين عظيمتين تماما كامريكا وروسيا في هذا العصر واقامت على انقاضهما امبراطورية تمتد شرقا وغربا ، وتملأ الدنيا حضارة وعلما ؟.

هنا يكمن سر الاعجاز في كتاب الله وهنا مكان التحدي فيه ..

وهذا التحدي باق ما بقي الدهر •• اذن رسالة محمد باقية ما بقي الدهر، وبدوامها وخلودها انسد بـاب الوحي ، وختمت النبوات ، والشرائـع السماوية •

القرآن يتحدى الطغاة المعاندين

وتسال : هل الذين اسلموا وآمنوا بمحد (ص) في عهده كلهم او جلهم آمنوا بسبب تحدي القرآن ؟•• ولو صح هذا لكان الاسلام جديرا باسم دين التحديات وعرض العضلات من بين الاديان كلها •

الجواب : كلا •• كيف والاسلام دين الهداية والاخاء ؟ على ان الناس او اكثرهم لا يهتمون بالتحديات ، وبالخصوص اذا كان القصد من التحدي مجرد الايمان والاعتقاد بعظمة المتحدي ولو قام الاسلام على مجرد التحدي لما دخل الناس فيه بالملايين ، ولا كان له الآن وقبل الآن عين ولا اثر •• ان التحدي ـ كما تدل اسباب النزول ـ قد جاء في القرآن الكريم لكبـح المعاندين ، وافحام المشاكسين ، فان جماعة من عتاة الشرك وطغاته كـأبي سفيان وابي جهل قد اغرقوا في التعنت ، وتجاوزوا في اذى الرسول كـل حد ، ولم يرتدعوا بحلم ، ولا باية وسيلة ، فتحداهم القرآن ، ليفتضحوا امام الملأ حيث الفضيحة أولى بهم وأجدى ، ولو انهم سكتوا لسكت عنهم القرآن •

وهذا النوع مـن الناس موجود في كل زمان ومكـان . والقرآن يتحداهم اينما كانوا ومتى وجدوا ، ومن كف الاذى عن الاسلام ونبيـه فهو غير مقصود بالتحدي ، قال تعالى : « وان كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما اعمل وانا بريء مما تعملون ـ ٤١ يونس » •

اخبار القرآن بالمغيبات :

من اعجاز القرآن اخباره بالمغيبات ، وتحققت كما اخبر •

« منها » قوله تعـالى : « لتدخلن المسجد الحرام انشاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون ـ ٢٧ الفتح » . فدخلوا آمنين وما كانوا يطمعون .

و « منها » : « هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ـ ٣٣ التوبة » . وظهر .

و « منها » « وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونهـا ـ ٢٠ الفتح » . واخذوها .

و « منها » « واذ يعدكـم الله احدى الطائفتين انهـا لكـم ـ ٧ الانفال » . وصارت لهم .

و « منهـا » : « قل للذين كفروا ستغلبـون ـ ١٢ آل عمران » وغلبوا .

و « منها » : « غلبت الـروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهـم سيغلبون في بضع سنين ـ اول الروم » . وغلبـوا اعداءهم الفرس في بضع سنين .

و « منها » : « ام يقولون نحن جميع منتصر سيهزم الجمع ويولون الدبر ـ ٤٥ القمر » . وهزموا وولوا الدبر .

و « منها » : « ان كنتم في ريب مما نزلنا على عبـدنا فأتوا بسورة من مثله ـ الى قوله ـ فان لم تفعلوا ولن تفعلوا ـ ٢٣ البقرة » . ومـا فعلوا ولا طمعوا في ان يفعلوا .

و « منها » : آيات كثيرة كشفت اسرار المنافقين ، وما كانوا يقولون ويبيتون من الكيد والمكر ، كقوله تعالى : « يحلفون بالله ما قالوا ولقـد قالوا كلمة الكفر ـ ٧٤ التوبة » ... « سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم

اليهم ـ ٩٠ التوبة » الى كثير من الآيات التي لا ينطق بها حقا وصدقا الا علام الغيوب •

وبعد ، فان ما اشرنا اليه من اعجاز القرآن هو غيض من فيض •• وما كل الذين آمنوا بمحمد (ص) آمنوا به من اجل المعجزات •• كلا ، بل هم على انواع والتفصيل فيما يلي :

١ ـ الثقة بالصدق واهله :

آمن كثير من الناس بمحمد (ص) في عهده لمجرد الثقة به وبصدقه وامانته ، فلقد اشتهر بين قومه بلقب الصادق الامين وتميز عنهم منذ نشأته بالبعد عن كل قبيح كانوا يزاولونه ، وقد اجمع اهل السير والتاريخ ، ومنهم المنصفون من قادة الفكر في الشرق والغرب ، ومن كل دين،اجمعوا على ان محمدا كان قبل البعثة تماما كما كان بعدها المثل الأعلى لكل فضيلة ، وان عددا غير قليل تأثر بشخصيته وعظمته •

وضربنا مثلا لهؤلاء بقصة ايمان ضمام بن ثعلبة في فقرة « هل لمحمد معجزة غير القرآن ؟ » •

وفي كتاب لماذا اخترنا الدين الاسلامي : ان المؤرخ والكاتب الشهير « ولز » الذي ذاعت مؤلفاته الكثيرة وترجمت الى العديد من اللغات ـ قال : « من الذي يشك ان القوة الخارقة للعادة التي استطاع بها محمد ان يقهر خصومه هي من عند الله ؟• وقد اجمعوا على ان من انصع الأدلة على صدقه ان المطلعين على جميع اسراره اول من آمن به . ولو ارتابوا في صدقه لما آمنوا » •

٢ ـ البشارة بمحمد :

ما من نبي من الانبياء ـ حتى نوح وابراهيم ـ الا واخذ الله عليه

عهدا وميثاقا ان يبشر بمحمد (ص) وينوه باسمه ، كما تشير الآية ٨١ من آل عمران : « واذ اخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به » . وقال الامام علي (ع) : ما بعث الله نبيا الا اخذ عليه العهد في محمد (ص) وامره ان يأخذ العهد على قومه فيه بان يؤمنوا به ، ويناصروه اذا ادركوا زمانه .

واشارت بعض الكتب الموغلة جدا في القدم الى محمد ورسالته ، وفوق ذلك ذكرت اسم ابي لهب بالحرف ونصبه العداء لرسول الله (ص) فقد نقل العقاد في كتاب العبقريات الاسلامية تحت عنوان الطوالع والنبوات ــ عن عبد الحق في كتاب محمد في الاسفار الدينية العالمية المطبوع بالانكليزية ، نقل عنه ما يلي :

« ان اسم الرسول العربي مكتوب بلفظه العربي احمد في « السامافيدا » من كتب البراهمة ، وقد ورد في الفقرة السادسة والفقرة الثامنة من الجزء الثاني ما نصه بالحرف : ان احمد تلقى الشريعة من ربه، وهي مملوءة بالحكمة .. وان وصف الكعبة ثابت في كتاب « الآثار فافيدا » وانه قد جاء في كتاب « زندافستا » الذي اشتهر باسم الكتاب المقدس في المجوسية جاء فيه الاخبار عن نبي يوصف بانه رحمة للعالمين يدعو الى إله واحد لم يكن له كفوا احد ، ويتصدى له عدو يسمى ابو لهب » .

وفي القرآن الكريم اكثر من آية تصرح بوضوح ان البشارة بمحمد (ص) جاءت في التوراة والانجيل ، وان بعض علماء النصارى واليهود على يقين من ذلك ، وانهم كتموا الحق حرصا على مكانتهم ، وخوفا على جاههم قال تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه ــ اي محمدا ــ كما يعرفون ابناءهم وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ــ ١٤٦ البقرة » .

اجل كان هذا العلم موجودا ايـام نزول القرآن عند بعض احبـار اليهود ورؤساء الكنائس ، والا ما اعلن القرآن ذلك على سمع منهم . وما سجل التاريخ عن راو واحد انهم نفوا وكذبوا ، وكانوا يبحثون عن كـل صغيرة وكبيرة يدينون بها الرسول والقرآن .

اما الفريق الآخر من اهل الكتاب فقد اعلن هذا العلم ودان به، قال اهل التفسير : « ان عبدالله بن سلام كان من احبار اليهود وكبار علمائهم، وقد اسلم هو وجماعته على يد رسول الله (ص) وقال فيما قال : انا اعلم بنبوة محمد مني بابني لاني لا اشك في ان محمدا نبي ، اما ولدي فلعـل امه قد خانت .. وكان اسمه الحصين ، فسماه الرسول عبدالله ، وفيـه نزلت هذه الآية : « وشهـد شاهد من بني اسرائيـل على مثله فآمـن واستكبرتم ــ ١٠ الاحقاف » . وايضا الآية ٤٣ الرعد : « قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب » .

وكان عدي بن حـاتم الطائي نصرانيا ، ومن اشد النـاس عداوة لرسول الله ثم اسلم على يده طوعا وايمانا بالحق . ومن الآيـات التـي اشارت الى الذين آمنوا من اهل الكتاب الآية ١٥٧ من الاعراف : «الذين يتبعـون الرسول الامي الذي يجدونـه مكتوبا عندهـم في التـوراة والانجيل » . اي التوراة الحق التي انزلها الله على موسى ، والانجيـل الصدق الذي انزله على عيسى ، اما توراة النـاس وانجيلهم فمحرفـان مزوران . وعلى رغم التزوير والتحريف فان في التوراة فقرات تنطبق على محمد والتبشير به ، قال : « ول » في قصة الحضارة تعريب محمد بدران ج ٢ من المجلد الرابع ص ٢١ ما نصه بالحرف : « ويمكن ان تنطبق على محمـد بعض فقرات تبشر به » . وهذا القـائل مسيحي امريكي واكبر مؤرخ في هذا العصر .

اهل الكتاب يعترفون بتحريف كتابهم :

وتسال : لماذا تجيزون للمسلم ان ينسب التحريف والتزوير الى التوراة والانجيل ، وتحجرون على غير المسلم ان ينسب ذلك الى القرآن .

الجواب : نحن مع الدليل اينما كان بصرف النظر عن دين الآباء والاجداد ، واذا درسنا كل واحد من الكتب الثلاثة في ضوء ما احيط به من ظروف وعوامل ، او على اساس شكله ومحتواه ـ تبين معنا الفرق والسبب المانع من قياس الكتابين على القرآن .. من حيث الشكل والمضمون ، ومن حيث العوامل الخارجية .. فان معاني القرآن واسلوبه والعوامل التي احاطت به كلها ، تشهد وتعترف بانه من عند الله ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، اما اسلوب التوراة والانجيل ، وما فيهما من محتويات ومضامين ، واحيط بهما من ظروف وملابسات ـ فانها تبعث على الاعتقاد بان الله وموسى والسيد المسيح بريئون من هذه التوراة والاناجيل ، وممن كتبها وآمن بها .. وفيما يلي البيان بما امكن من السرعة والايجاز .

اما الفرق من حيث الظروف والعوامل الخارجية فقد روى الرواة والمؤرخون من كل دين ، وفي كل عصر على انه قد كان للنبي (ص) كتبة للوحي معروفون ، ومنهم باتفاق الجميع ـ كما في اعجاز القرآن للرافعي ـ الامام علي بن ابي طالب (ع) وزيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل ، وابي ابن كعب ، وعبدالله بن مسعود ، فاذا نزلت الآية سجلوها على ورق او جلد او عظم ونحوه ، حتى كتبت آي الذكر الحكيم كلها في عهد الرسول (ص) وبأمره ، ولكنها لم تجمع في مصحف واحد في حياته (ص) لانه كان يتوقع ان ينزل عليه جديد من الوحي ، وايضا كان عدد غيرقليل من الصحابة يحفظون القرآن في عهد الرسول (ص) ، منهم ـ كما في

اول تفسير القرطبي ـ الخلفاء الاربعة . وزيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل . وعبادة بن الصامت ، وسالم بن ابي حذيفة وعبدالله بن عمرو بن العاص .

ولما انتقل النبي (ص) الى الرفيق الاعلى . وانقضى عهد الوحي جمع المسلمون القرآن في كتاب واحد في عهد ابي بكر وبمدينة الرسول ، وبعده بلا فاصل ، ونصوص النسخ كلها واحدة حروفا وكلمات وترتيبا وسياقا ..

اجل ، حصل بعض الاختلاف في قراءة آيات منه ، وهذا امر طبيعي لخلوه آنذاك من النقط والشكل ، فحاول عثمان ايام خلافته ان يجمع الناس على قراءة واحدة ، واذن فالقرآن ثابت بالنقل المتوافر المتواتر عن محمد بالذات باعتراف الجاحدين لنبوته .

قال هيكل في كتاب حياة محمد (ص) ص ٣١ الطبعة التاسعة : « الذين يزعمون تحريف القرآن من المستشرقين هم قلة بين اشدالمستشرقين تعصبا اما كثرتهم فيقرون بان القرآن الذي تتلوه اليوم هو بعينه القرآن الذي تلاه محمد (ص) على المسلمين اثناء حياته لم يحرف ولم يبدل ـ الى ان قال ـ وقد اورد المستشرقون كثيرا من التحريف ، ونختار من هذا الكثير الذي قاله المستشرقون ، بعض ما كتبه السير « وليم موير » في كتابه حياة محمد (ص) ليرى الذين اسرفوا على انفسهم وعلى التاريخ شدة ما اسرفوا حتى اطمأنوا الى تحريف القرآن و « موير » مسيحي شديد الحرص على مسيحيته والدعوة اليها ، شديد الحرص على ان لا يدع موضعا لنقد نبي الاسلام وكتابه دون ان يقف عنده ومحاولة دعمه » . أي دعم النقد للنبي والقرآن .

ثم نقل هيكل عن « موير » المتعصب صفحات عديدة تشهد ان القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ومن هذه الصفحات ما نصه بالحرف : « ان كل ما في القرآن صورة صادقة كاملة لما اوحي به

الى محمد (ص) .. ونستطيع ان نؤكد استنادا الى اقوى الادلة ان كل آية من القرآن دقيقة في ضبطها تماما كما تلاها محمد » .

هذه شهادة واضحة نطق بها كبير يدين بالمسيحية ، ويتعصب لها ، ولكنه درس وحقق ظروف القرآن وكل ما احاط به من ملابسات ، ثم اعلن نتيجة دراسته وتحقيقه ، وهي ان القرآن الذي اوحي به الى الرسول الله (ص) هو هذا الذي عند المسلمين لا زيادة فيه ولا نقصان .

وبعد اعتراف جماعة من كبار اليهود والنصارى بان القرآن اخذ من رسول الله (ص) شكك المحققون منهم وارتابوا في نسبة التوراة الى موسى ، ونسبة الاناجيل الى عيسى .. ذلك بان التوراة التي نزلت على موسى (ع) قد فقدت من بعده باعتراف اليهود والنصارى انفسهم ، وانه بعد سنين طوال ادعى من ادعى بانه يحفظها عن ظهر قلب ، وكتب دعواه هذه ، وقال لها : كوني توراة فكانت .

ونفس الشيء حدث للانجيل الاصيل الذي انزل على عيسى (ع) ، قال صاحب اظهار الحق ص ٤٢ : ان قسيسا اعترف بضياع الانجيل بسبب المصائب والفتن التي وقعت على المسيحيين مدة ٣١٣ سنة فالتجأوا في اثباته الى الظن والتخمين ..

ومن الطريف ان انجيل السيد المسيح قد اولد بعده اكثر من ١٧٠ انجيلا ، انظر اظهار الحق ص ١٤ . وفي سنة ٣٢٥م اجتمع رؤساء النصارى واقروا اربعة منها .

وآخر ما قرأته في هذا الموضوع كتابين حديثين : الاول كتاب القاموس المقدس اشترك في وضعه ٢٧ عالما ورئيسا دينيا من المسيحيين وجاء في مادة يوشا من هذا الكتاب ما نصه بالحرف : « مما لا شك فيه

ان معظم الاسفار المقدسة اتلـف او فقـد في عصر الارتداد عـن الدين والاضطهاد » وجاء في مادة اسفار : « هناك رأي ـ اي لاهل الكتاب ـ يقول : ان الذي اضفى صفة القانون على اسفار العهد القديم هم كتـاب الاسفار انفسهم » وهذا اعتراف صريح لا يقبل الشك بان الاسفار لا عين لها ولا اثر ، وان هذه الاسفار المتداولة من عند كتبتها .

والكتاب الثاني قصة الحضارة لمؤلفه : « ول ديورانت » فقد جاء في الجزء الثاني من المجلد الاول ترجمة محمد بدران ص ٣٦٧ ـ ما نصه بالحرف : « كيف كتبت هذه الاسفار ؟ ومتى كتبت ؟ واين كتبت ؟ ذلك سؤال بريء لا ضير منه ، ولكنـه سؤال كتب فيه خمسون الف مجلد » وهذا ـ السؤال البريء من عالم ومؤرخ مسيحي اوضح دليل على شكه في مقدسات آبائه واجداده .. ولو كانت تلك الاسفار حقا وصدقا لكان جواب السؤال عنها بسطر او سطرين ، تماما كجواب السؤال عن القرآن الكريم... ومهما يكن فان الخمسين الف مجلد التي الفت في الجواب قد اكدت شبهة التحريف ، وحولتها الى القطع واليقين بالتزوير والتحريف .

هذا مجمل الفرق والتضاد بين ظروف القرآن التي تشهد بصدقه ، وظروف التوراة والانجيل التي تنطق بالتحريف والتزوير فيهما .

اما الفرق من حيث الشكل والاسلوب فلسنا بحاجة الى الكـلام عنه .. وحبذا لو سجلت الفاظ التوراة والانجيل كما سجلت المفردات في قواميس اللغة .. واما من حيث المحتـوى والمضمون فهذا نموذج مـن محتويات التوراة والانجيل : زنى لوط بابنته ، وزنى داود بزوجة احـد اتباعه وقتله ، وعبد هارون العجل مع من عبـد ، وشرب عيسى الخمر ، وقال فيه قول العاشق الولهان ، وسقاه في الاعراس للشبان ، وتجلى الله في صورة انسان ، وحملته مريم في بطنها ، واولدته كما تلـد النساء .. وشكى من ظلم عبيده الذين شتموه وضربوه ، ثم صلبوه ودفنوه فـي

التراب . الى غير ذلك من الاساطير والخرافات .. واطرف من كل طريف ان سفر التثنية من التوراة التي نزلت على موسى بالذات ـ قالت ما نصه بالحرف : « فمات موسى ، ولم يعرف انسان قبره الى اليوم..» هل نزل هذا الخبر على موسى قبل موته او بعده ؟ ومن بلغه الى الكاتب الذي خط التوراة بيمينه .

وايضا حدثتنا الاناجيل عن صلب السيد المسيح ودفنه ، ثم عن خروجه من القبر وصعوده الى السماء واختتام حياته على الارض ... فهل حديث الصلب والدفن الموجود في الاناجيل ، هل هذا الحديث وحي من الله ، او هو خبر من بعض الناس ، فان كان وحيا من الله فعلى من انزله بعد المسيح ؟ وان كان من بعض الناس فكيف دون في الاناجيل ، ونسب الى الله ؟.

وبعد ، فان علماء الاسلام قد وضعوا العديد من الكتب في تحريف التوراة والانجيل ، منها كتاب الرحلة المدرسية ، وكتاب الهدى الى دين المصطفى للشيخ جواد البلاغي ، وكتاب محمد رسول الله في بشارات الانبياء لمحمد عبد الغفار ، وكتاب محمد رسول الله هكذا « بشرت الاناجيل » لبشرى زخاري مخائيل ، وكتاب البشارات والمقارنات للشيخ محمد الصادقي .

كتاب اظهار الحق :

ومن اراد ان يقنع اي انسان بتحريف التوراة والانجيل ، او يفحمه بمعادلة شبه حسابية لا تقبل الشك ـ فليقرأ كتاب اظهار الحق لرحمة الله الهندي ، فانه يتيم وعظيم في هذا الموضوع ، يحتوي على مئة دليل حسي على التحريف والتزييف ... ولصاحبه عقل اشبه بالعقل الالكتروني في حفظ الارقام والاحاطة بها وحفظها : فهو يعرف كل ما في اسفار التوراة

والاناجيل ومتى فقد كتاب موسى ، وكتاب عيسى ؟ وكيف اختفيا من كل مكان ؟ وايضا يعرف اول من كتب هذه التوراة المتداولة في ايدي الناس ، ونسبها كذبا وافتراء الى كليم الله ، واول من كتب هذه الاناجيل، ونسبها الى روح الله ، ومتى كان ذلك ؟ وكيف قلمت بالنقصان، وطعمت بالزيادة مع مرور الزمن ، ثم يقارن بين النسخ اللاحقة والسابقة ، ويبين وجه التهافت والتناقض بينهما بل يعرف زمان الطبع ومكانه ، وعدداللغات التي ترجم اليها كل من الانجيل والتوراة .

وفوق ذلك احاط علما بالكتب المؤلفة في تفسير الكتابين ، ونقل عن اقطاب المفسرين : الاعتراف الصريح بتحريف الكثير من آيات التوراة والانجيل ، وهو يذكر اسم المفسرين ورقم الآية المحرفة ورقم الصفحة من التفسير وسنة الطبع .. الى غير ذلك من التدقيق والتثبت .

ويقع هذا الكتاب المفعم المتخم بالعلم والارقام ، في جزأين، ويقول المؤلف في المقدمة : ان الانكليز بعد ان استعمروا الهند حشدوا رجال الكنيسة للرد على الأسلام واهله ؛ فوضعوا لهذه الغاية الكتب والرسائل، ونشروها في كل قطر .. ثم دعاه رئيس الكنائس في الهند للمناظرة علنا ، فاستجاب الشيخ رحمة الله ، وانعقد مجلس المناظرة في بلدة « اكبر آباد » بمحفل عام في شهر رجب سنة ١٢٧٠ هـ ، وتقرر ان تكون المناظرة في خمسة موضوعات : هي تحريف التوراة والانجيل ، ونسخ الشرائع ، وعقيدة التثليث ، وحقيقة القرآن ونبوة محمد (ص) ولما ظهرت الغلبة للمؤلف في مسألة التحريف والنسخ احجم رئيس الكنائس عن المناظرة ، وسد بابها ، وولى هاربا .

ثم الف رحمة الله في الموضوعات الخمسة كتاب اظهار الحق ، وقال في آخره : ابتدأت به في ١٦ رجب سنة ١٢٨٠ هـ ، وانتهيت منه في آخر

ذي الحجة من السنة نفسها .. وقد طبع الكتاب سنة ١٣٠٥ هـ ، وهو نادر الوجود الا في بعض المكاتب القديمة ، واتمنى لو طبع ثانية طبعة حديثة على ان يجعل للموضوعات عناوين بارزة ، ولكل مسألة فقرة خاصة مع جملة في رأس السطر بالحرف الاسود تشير اليها ، وايضا مع الفواصل ، ورؤس الاسطر .

٣ ـ الفتح :

اشرنا فيما سبق الى ان الذين آمنوا برسول الله على انواع،وذكرنا منهم نوعين : نوع آمن به لمجرد الثقة بصدقه ، وآخر لورود البشارة به في التوراة والانجيل ، واضطرنا حديث البشارة الى الكلام عن التحريف واوجزنا بقدر الامكان ، ونعود الآن الى الموضوع ، ونذكر في هذه الفقرة النوع الثالث وهو ان الله سبحانه بعد ان فتح على نبيه الكريم ، ونصره على عتاة اليهود والمشركين ، وامتلأت قلوبهم منه رعبا ـ دخل الناس في دين الله قبائل وافرادا كما جاء في سورة النصر ، لان كثيرا منهم كانوا ينتظرون في اسلامهم فتح مكة ، ولما فتحها الله على نبيه عظم امر الاسلام ، وانتشر في الجزيرة العربية كلها .

٤ ـ ايمان العقل والوعي :

ابتدأ محمد (ص) دعوته بقوله ايها الناس قولوا : لا إله الا الله تفلحوا .. هو الذي خلقكم من نفس واحدة .. ان اكرمكم عند الله اتقاكم .. ان الله بالناس لرءوف رحيم .. ولكنه لا يحب الظالمين والمفسدين .. ويحب المتقين والمحسنين .

هذه امثلة مما قاله محمد (ص) للناس عن ربه وربهم .. وقال لهم عن نفسه : انما انا بشر مثلكم يوحى الي انما الهكم واحد فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين .. فمن يرجو لقاء ربه فليعمل عملا

صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا .. ما كان لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكمة والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله .

هذا هو اصل الدعوة الالهية المحمدية : الايمان بالله وحده الذي يحب المتقين ، ويكره المعتدين ، والايمان برسوله ، وهو واحد من الناس وبشر مثلهم كما نطقت الآية ١٢٨ من التوبة : « لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » . هذا هو اصل الدعوة المحمدية ، وعليه تتفرع جميع مبادىء الاسلام واحكامه .. واذا لم يأت الانبياء بهذا الدين فبأي شيء يأتون . وهل ابسط واوضح ، وانقى واصفى من هذا .

وجاء في كتاب « لماذا اخترنا الدين الاسلامي » : ان « ليون روش » الفرنسي قال في كتابه « ثلاثون عاما في الاسلام » : وجدت الاسلام افضل دين عرفته .. انه انساني يجمع المحامد والفضائل ولو انه وجد رجالا يعلمونه الناس حق التعليم ، ويفسرونه تمام التفسير لكان المسلمون اليوم ارقى العالمين ، واسبقهم في كل الميادين ومعنى قوله هذا، ان الاسلام تركن اليه النفس ، ويقره العقل ، وان الناس يجهلون حقيقته واهدافه . حتى المسلمين .. وانه لو اتيح له من يبينه للناس على حقيقته ، ويبشر به كما بشر بالمسيحية لظهر على الدين كله ، وآمن به اكثر من في الارض،وعاشوا في أمن ورخاء .. ويؤيد هذا الفهم للاسلام قول الرسول الاعظم (ص) : « المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف » وليس من شك ان كل انسان يود ان يكون قويا ، لا ضعيفا ، لانه بالقوة يعمل ويبني ، وبها يحيا وينمو .

وآمن كثيرون بمحمد (ص) في عهده ، واخلصوا لدعوته ، آمنوا بها وبه عن عقل وعلم ، وقناعة ودراية ، لا للمحاكاة والتقليد ، ولا لمجرد

الثقة بصدقه وامانته ، او لجاهه وسلطانه .. ومن هؤلاء النجاشي ملك الحبشة ، ومعه كثيرون من الرهبان والقسيسين ، وغيرهم من المسيحيين، وحديثه مع جعفر بن ابي طالب مشهور ومدون في كتب السيرة والتاريخ.

اسلام علي واسلام ابي بكر :

واول من آمن برسالة محمد (ص) عن هدى وبصيرة هو علي بن ابي طالب (ع) . قال محمد حسين هيكل في كتابه حياة محمد في ص ١٤٠ الطبعة التاسعة ــ ما نصه بالحرف : « دعا محمد (ص) ابن عمه عليا الى عبادة الله وحده لا شريك له ، والى دينه الذي بعث به نبيه .. فاستمهل علي ابن عمه محمدا حتى يشاور اباه ، ثم قضى ليله مضطربا حتى اذا اصبح اعلن لرسول الله وخديجة انه يتبع دين محمد من غير حاجة الى رأي ابي طالب ، وقال علي : لقد خلقني الله من غير ان يشاور ابا طالب ، فما حاجتي انا الى مشاورته لاعبدالله .

وبعد ان نطق هيكل بهذه الحقيقة اخذه عرق من تربيته ، وانسجم مع بيئته ، وقال : « وكذلك كان علي اول صبي اسلم » .

ان عليا سبق ابا بكر الى الاسلام باتفاق الكل ، وسبقه ابو بكر الى الخلافة ، فقال من آمن بالله ورسوله : كيف تقدم ابو بكر على اول القوم اسلاما واقدمهم بالله ايمانا ، والله يقول : « والسابقون السابقون اولئك المقربون ١١ ــ الواقعة » ؟ وحار في الجواب من تنكر للحق واهله .. واخيرا اسعفته القريحة على اللف والدوران ، فتلاعب بالالفاظ ، وقال : « اول من اسلم من النساء خديجة ، ومن الصبيان علي ، ومن الرجال ابو بكر » .

اجل ، ان ابا بكر كان رجلا حين اسلم ، ما في ذلك ريب ، وايضا

كان رجلا كبيرا . وهو يعبد الاصنام .. ولكنه لم يكن ذا عقل نير ينهاه ويردعه عن عبادة الاحجار كعقل ورقة بن نوفل ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو ، وغيرهم من الحنفاء الذين تمردوا على عصرهم الجاهلي، وادركوا بفطرتهم الصافية ان عبادة الاصنام جهالة وضلالة ... ان اسلام ابي بكر لم يكن عن عقل ووعي ، بل لمجرد صداقته مع رسول الله، وثقته بصدقه ، كما قال هيكل في نفس الصفحة من الكتاب السالف الذكر ، وهذي هي عبارته بالحرف : « وكان ابو بكر بن ابي قحافة التيمي صديقا حميما لمحمد يستريح اليه ، ويعرف فيه النزاهة والصدق .. ولم يتردد ابو بكر في اجابة محمد » .

اما ايمان علي فهو ايمان العقل والعلم الذي اعلنه بقوله : « لقد خلقني الله من غير ان يشاور ابا طالب ، فما حاجتي انا الى مشاورته لأعبد الله ؟ » وليست هذه وحدها من هفوات هيكل، فقد ذكر في الطبعة الاولى حديث « ان النبي (ص) عندما نزلت هذه الآية « وانذر عشيرتك الاقربين » جمع بني عبد المطلب ، وقال لهم : قد امرني الله ان ادعوكم اليه ، فايكم يؤازرني على هذا الامر على ان يكون اخي ووصيي وخليفتي فيكم ، فاسمعوا له واطيعوا » ذكر هيكل هذا في الطبعة الاولى . ثم حذفه في الثانية، لانه قبض خمس مائة جنيه ثمنا لهذا التحريف.. والعهدة على ذمة ناقل الرشوة .

الاسلام والقائلون بالحق :

اسلم الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه ، وآمنوا بدعوةمحمد (ص) في عهده ، وفي كل زمان ومكان ، وتنبأ كثيرون من قادة الفكر في هذا العصر بان الاسلام هو دين المستقبل مهما طال الامد ، وعللوا ذلك بان العالم يتجه الى العلم واستغلاله لخير الانسان وصالحه ، والاسلامهو الدين الذي يوجه العلم لهذه الغاية .

قال تولستوي الفيلسوف الروسي الشهير : « ان الشريعة الاسلامية ستعم البسيطة كلها ، لانها تأتلف مع العقل والحكمة والعدل » .

وقال الكاتب الفرنسي « هنري » في كتـاب الاسلام : ان السبب الوحيد لانتشار الاسلام بسرعة تشبه خرق العادة هو بساطة هذا الدين. وسهولة تعاليمه ، وخلوه من الخرافات ، ومن كل ما يصعب على العقـل قبوله .

وقال الفيلسوف الشهير واديب القرن العشرين برنادشو الانكليزي: « ان الاسلام دين المستقـبل ، ولا بـد ان تعتنق الامبراطوريـة الانكليزية النظم الاسلامية .. ولـو بعث محمـد في هذا العصر لحـل المشكلات العالمية ، وقاد العالم الى السعادة والسلام ، فما احوج العـالم الى رجل كمحمد » (كتاب لماذا اخترنا الدين الاسلامي) .

وهذا العظيم يمثل اسمى ما وصلت اليه الثقافة في هذا العصر، وقد نطق بهذه الحقيقة ، وهو يعنيها ويؤكدها ، لانها نتيجـة حتمية لدراسة طويلة وعميقة ، وثمرة يانعة لتفكـير صاف وسليم .. لقد تطلع هـذا الفيلسوف الى الوقت الذي يصبح فيه كل الناس مسلمين، لانهم يتطلعون بفطرتهم الى الامن والرخاء ، والعدل والمساواة ، ولا تتحقق هذه الامنية للناس كافة الا اذا آمنوا بالعدالة والاخوة الانسانية ، ودخلوا في السلم كافة على هذا الاساس وهذي هي دعوة محمد ولاجلها بعث .

لقد ادرك برنادشو الكثير من خصائص محمد (ص) التـي استحق بها ان يختاره الله لرسالته ، وايضا ادرك ان العصر الذي نعيش فيه تماما كعصر الجاهلية الجهلاء فسادا وتناحرا ، وان اختلف الشكل والمظهـر ، وانقذ محمد الناس من جاهليتهم الاولى ، فينقـذهم من توافرت فيـه

خصائصه من الثانية •• واذا لم يكن محمد (ص) في هذا العصر بشخصه فانه موجود بسنته وشريعته ، وقد آمن بها كثير من العلماء وقادة الفكر المنصفون بعد الدراسة والتمحيص، وفيما يلي نذكر امثلة من هؤلاء الذين يعدون بالعشرات •

من الذين آمنوا :

اكتب هذه الفقرة ، ولدي من مصادرها كتاب التكامل لاحمد امين العراقي ، وكتاب ما يقال عن الاسلام للعقاد ، وثالث كتاب محمد والقرآن لكاظم آل نوح ، ورابع كتاب لماذا اخترنا الدين الاسلامي للرضوي ، وفي هذه الكتب الاربعة عدد غير قليل من الذين آمنوا بان رسالة محمد (ص) إلهية ، لا بشرية ، وكلهم من اهل المعرفة وحملة الشهادات العالية ، وفيهم الانكليزي والفرنسي والالماني والامريكي والدنمركي والايطالي والهولندي والبلغاري •

قال اللورد « هيدلي » البريطاني : اعتنقت الاسلام نتيجة لبحث سنوات عديدة •• ان الاوربيين ينظرون الى الاسلام كأنه وحشيةوهمجية مع ان كل اعمال محمد كانت لازالة التوحش والهمجية ، ولكن المبشرين المسيحيين لا يدخرون وسعا لتحريف الاسلام ، وهذا هو الكذب الذي يخزيهم •

وقال الدكتور « بنوه » الفرنسي : تصفحت القرآن لانتقده ، فاذا بي اؤمن به واقدسه •

وقال « دولاند » الامريكي : اسلمت بعد ان قرأت القرآن وشيئا من سيرة محمد (ص) فرأيت ان الجانب الانساني يتجلى في كل وصية من وصايا الاسلام •

وقال الدكتور « ماركوس » الالماني بعد ان اسلم : عقيدة التوحيد

قدسية ، وتعاليمها منزهة عن الخرافات ، وتهدف الى تأسيس حرية جماعية عامة • (انظر صورة هؤلاء الاقطاب الاربعة في كتاب لماذا اخترنا الدين الاسلامي للسيد الرضوي) •

وجاء في كتاب « ما يقال عن الاسلام » للعقاد بعنوان الاسلام والنظم الاجتماعية : نحمد صنيع الكاتب الفاضل الاستاذ : « ليوجولد فايس » النمساوي •• لقد دان بالاسلام منذ خمس وثلاثين سنة ، وتسمى باسم « محمد اسد » ، ودافع عن الاسلام ، ودأب منذ اسلامه على تصحيح اخطاء الاوربيين •• والف في الموضوعات الاسلامية كتاب الاسلام على مفترق الطرق ، وكتاب اصول الفقه الاسلامي ، وكتاب الطريق الى مكة، وكتاب مبادىء الدولة والحكومة في الاسلام •

وبهذه المناسبة نشير الى ان الكتب التي الفها غير المسلمين في عظمة الاسلام ـــ كثيرة ، منها كتاب الاسلام والعصر الحديث للدكتورةالالمانية « الس ليختستادتر وكتاب الاسلام والجماعة المتحدة ، للاستاذمونتجومري عميد قسم الدراسات العربية بجامعة ادنبرة (انظر ما يقال عن الاسلام للعقاد) وكتاب حياة محمد لوليم ميود ، ايضا كتاب حياة محمد لثبورت اسمت (انظر كتاب لماذا اخترنا الدين الاسلامي ؟ للرضوي) • وكتاب اقوال محمد لتنلي لين بول ، وكتاب اشعة خاصة بنور الاسلام (انظر كتاب محمد والقرآن لكاظم آل نوح) •

محمد خاتم النبيين :

وتسأل : قال سبحانه في الآية ٤٠ من الاحزاب : « ما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » • وقد فهمنا ان محمدا نبي ولكن لماذا خاتم النبيين ؟•

الجواب : ان الغاية من بعثة الانبياء هي ان يبلغ النبي قول الله الى

عباده فيما يحتاجون اليه من امر دينهم ودنياهم . واي مبدأ من المبادىء التي يحتاج اليها الانسان في هذا العصر وغيره ـ غير موجود في كتاب الله وسنة نبيه ، وهل من شيء اصدق في الدلالة على ان الاسلام هو دين الحياة في شتى مراحلها من اسلام من اسلم عن بصيرة في هذا العصر ؟ .

قال سبحانه : « ما فرطنا في الكتاب من شيء ـ ٣٨ الانعام » . وقال الرسول الاعظم (ص) : ما من شيء يقربكم الى الله الا وامرتكم به ، وما من شيء يبعدكم عن الله الا ونهيتكم عنه .

وقال ايضا : ان مثلي ومثل الانبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانا فاحسنه الا موضع لبنة ، فجعل الناس يطوفون به ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟. فانا اللبنة ، وانا خاتم النبيين .

وقلنا في ما ألفنا : ان محمدا ودين محمد قد استوفيا جميع صفات الكمال ، وبلغا الغاية منها والنهاية ، تماما كما بلغت الشمس الحد الاعلى من النور ، فلا كوكب ولا كهرباء يمتلىء الكون بنورهما بعد كوكب الشمس .. كذلك لا نبي يأتي بجديد لخير الانسانية بعد محمد .

العصمة نوعان :

معنى العصمة : التنزيه عن الخطأ والخطيئة وهي نوعان : الاول العصمة في تبليغ الوحي عن الله سبحانه ، اي ان المعصوم لا يخطىء فيه لا جهلا ولا نسيانا ، ولا يتعمد الكذب اطلاقا ، وهذه العصمة تجب حتما لمن اصطفاه الله لابلاغ رسالته والا استحال ثبوت الوحي بحال من الاحوال حيث لا وسيلة لاثباته الا عصمة المبلغ .

وتسأل : هل هذا النوع من العصمة يكون بالقدرة والاختيار ، او بالجبر والقسر ؟

الجواب :

اما نحن فلا نرى مانعا من العقل ان تكون العصمة في التبليغ بالقسر لا بالاختيار ، ودليلنا على ذلك :

اولا : انها في تبليغ الاحكام عن الله ، لا في امتثالها .

ثانيا : ان النبي في هذه الحال هو لسان الله وبيانه . ولسانه تعالى يستحيل عليه الخطأ .

ثالثا : ان ظاهر القرآن يدل على ذلك ، قال تعالى في سورة الاعلى مخاطبا نبيه الكريم : « سنقرئك فلا تنسى » و «لا» هنا للنفي والاخبار ، لا للنهي والانشاء ، لان المعنى نحن نقرئك القرآن يا محمد ، ونحفظه في قلبك وعلى لسانك بكامله بحيث لا تنسى منه حرفا واحدا ، والى هذا يومىء قوله تعالى : « ان علينا جمعه وقرآنه ـ ١٧ القيامة » وقوله : « نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ـ ٩ الحجر » .

النوع الثاني : العصمة في امتثال الاحكام بحيث يفعل المعصوم الواجب مع قدرته على تركه ، ولا يفعل المحرم مع قدرته على فعله ... ابدا لا يفعل هذا ، ولا يترك ذلك ، لا عمدا ولا جهلا ولا سهوا . وهذه العصمة ممكنة ، بل هي ثابتة لاهلها ، ما في ذلك ريب .

اين هو المعصوم :

وتسأل : قد يوجد انسان يعرف حدود الله وحلاله وحرامه، ويلزم بها نفسه ، ولا يتعمد المعصية في قول او فعل ، ولا يقصر في فريضة بل ولا في سنة .. ولكن هل يوجد انسان واحد يستحيل في حقه الخطأ بما هو انسان بحيث لا يخفى عليه مكر ولا خديعة ، ولا يجوز عليه سهو ولا نسيان .. كيف وهو ابن الارض والطبيعة .. حتى سيد الانبياء (ص)

قال : « انما انا بشر مثلكم يوحى الي ــ ٦ فصلت » ونحن نؤمن بعصمته في التبليغ ، اما في غيره فهو كما وصف نفسه ، وان قال قائل : ان العصمة بالطبيعة او بالقسر قلنا له : اذن لا فضل بها ولا اجر عليها .

الجواب :

ان الانسان بما هو انسان ليس بمعصوم ، وايضا لا تأتيه العصمة بالكسب والعمل ، كما هي شأن العدالة ، ومن هنا اسقط سبحانه التكليف عن الجاهل والناسي مع التحفظ وعدم التقصير .. وايضا لا تكون العصمة في امتثال الحلال والحرام بالجبر والالجاء ، حيث لا طاعة ولا امتثال الا مع القدرة والارادة ، ولكن ليس معنى هذا انه لا وسيلة عند الله سبحانه الى العصمة في الامتثال الا الجبر والاكراه .. كلا هناك طريق آخر اليها عنده تعالى ، وقد اشار اليه بقوله : «وان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ــ ٢٩ الحديد » . واليك البيان :

وبقصد التوضيح نمهد بهذا المثال : لك صديق وحبيب تحرص كثيرا على مصلحته حتى كأن شيئا لو اصابه قد اصابك بالذات .. ورأيته يهم بامر ظنه خيرا له وصلاحا ، وانت تعلم علم اليقين انه شر وفساد، وهو يثق بعلمك و نصحك ، فتطلعه على الحقيقة ، وهو بدوره يحجم ويمتنع بارادته واختياره بمجرد الاشارة منك ، فيكون لك ، وهذي هي الحال ، فضيلة الاخلاص والنصيحة وله ايضا فضيلة الاستماع اليها ، والعمل بها.

والله سبحانه امر عباده ونهاهم ، ووعد الطائع منهم بالثواب ، وتوعد العاصي بالعقاب ، ثم ترك كل امرىء وما يختاره لنفسه ، ولا يتدخل في شؤونه عند الطاعة او المعصية ، ولكنه يعذر المخطىء اذا هو احتاط ولم يقصر .. هذا شأنه ، جلت حكمته ، مع جميع عباده الا مع المعصوم فانه يشمله بعنايته ويمده بارادة التسديد لا التكوين ، فاذا اوشك ان ينسى او ينخدع نبهه سبحانه بطريق او بآخر ، وكشف له عن الواقع ، فينتبه المعصوم ويمتنع مختارا لا ملجأ .

وقد حدث هذا مع الانبياء اكثر من مرة . من ذلك ما جاء في السبب الموجب لنزول هذه الآية : « ومن يرتكب اثما ويرم به بريئا فقد احتمل بهتانا واثما مبينا ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم ان يضلوك وما يضلون الا انفسهم ــ ١١٢ النساء » قال المفسرون : ان رجلا من المسلمين سرق متاعا ، ورمى به بريئا ، فناصرت السارق طائفة من الصحابة، وحاولوا جاهدين ان يخدعوا رسول الله (ص) في براءة السارق ، وكاد الرسول ان ينخدع ويثق بما اظهروه من الصلاح ، وبما اقسموا من الايمان فاطلعه الله على كذبهم ومكرهم . فعامل الرسول الأعظم (ص) كلا بما يستحق .

وهكذا سبحانه يسدد المعصوم ، ويمده بارادة لا هي بالتكوين فينتفي الفضل والاجر ، ولا بالتشريع فيستوي المعصوم وغير المعصوم ، بل بين بين ... ونحن على هذا الفهم والرأي حتى يثبت العكس ، وبهذه الارادة اي ارادة التسديد لا التكوين او التشريع ــ نفسر ارادته تعالى في آية التطهير : «انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا ٣٣ ــ الاحزاب » .

لقد اراد سبحانه للنبي وآله التطهير والتنزيه عن الخطأ والخطيئة ، اراد ذلك بالنص الصريح في هذه الآية التي لا تقبل التأويل بوجه .. ولكن من اي نوع هي الارادة الالهية ؟ هل هي من نوع التشريع ، واذن فلا مبرر للتخصيص باهل البيت (ع) ، او من التكوين ، واذن فلا فضيلة لهم ما داموا غير المختارين. ولا نتصور نوعا ثالثا لارادته تعالى الا ارادة التسديد والتأديب ، واليها اشار النبي (ص) بقوله : « ادبني ربي فاحسن تاديبي » ولنا ان نفسر هذا التأديب الرباني بقول امير المؤمنين (ع) : « لقد قرن الله نبيه محمدا (ص) من لدن ان كان فطيما اعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ، ومحاسن اخلاق العالم ليله ونهاره . ولقد كنت اتبعه

اتباع الفصيل اثرامه ، يرفع لي في كل يوم من اخلاقه علما ويأمرني بالاقتداء به » .

وبعد ، فهل من دليل على الارادة الثالثة اصرح واقوى من هذا الدليل .

الشيعة والعصمة :

والشيعة اول من ادرك ان العصمة يحتمها وجوب العمل بالوحي ، وقرروها باساليب شتى . واستدلوا عليها بمنطق العقل وبداهته . وعنهم اخذ السنة فكرة العصمة كما قال الدكتور احمد شلبي ــ من السنة ــ استاذ التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية بجامعة القاهرة ، فقد جاء في الجزء الثالث من كتابه مقارنة الاديان طبعة ١٩٦٧ ــ ما نصه بالحرف « الشيعة يثبتون عصمة الانبياء والائمة ايضا ، ويرون ان الرسول لو لم يكن معصوما من الزلل لقلت الثقة به ، ولانتفت فائدة البعثة .. والعجب ان قول الشيعة بعصمة الانبياء تسرب الى اهل السنة ، واصبح رأي جمهور المسلمين » .

ومع هذا يقول صاحب الخطوط العريضة بكل جهل وصلافة : ان الشيعة ينفون العصمة عن الانبياء وبناء على افترائه هذا حمل عليهم باضاليله واباطيله ، وتجاهل قول الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد : « من العسير اقامة الدليل العقلي ، او اصابة دليل شرعي يقطع بما ذهب اليه الجمهور » اي من وجوب العصمة للانبياء .

وبعد : فان النبي بشر بطبعه وطابعه ، وقد غالى وتجاوز الحد من قال : « ان محمدا (ص) هو الحقيقة التي خلق الله منها الوجود ، والروح التي سرت في جميع الكائنات علويها وسفليها ، كلا ، لا فرق بين محمد سيد الانبياء ، وغيره من البشر الا في الجهات التالية :

١ ــ انه قد ارتفع الـى اعلى مراتب الانسانية كمالا ، بحيث لـو تجاوزها قيد شعرة لكان إلها او نصف إله .

٢ ــ يوحى اليه .

٣ ــ ان الله قد لطف به كما لطف بجميع الانبياء ، فقربهم مـن كل فضيلة ، وابعدهم عن كل رذيلة ، لطف بهم ، لا في بيان الاحكام فقط ، بل في اقوالهم وافعالهم ، ومن اجل هذا كان قول النبي وفعله وتقريره دليـلا على الحق .

ومن المفيد ان نختم هذا الفصل بما قلناه في المجلد الاول من تفسير الكاشف ص ١٩٨ : ان فكرة العصمة لا تختص بالشيعة وحدهم ، فـان السنة قالوا بها ، ولكنهم جعلوها ايضا للامة ، لا للائمة ، مستنـدين الى حديث لم يثبت عند الشيعة ، وهو : « لا تجتمع امتي على ضلالـة » .. والمسيحيون قالوا بعصمة البابا ، والشيوعيون بعصمة ماركس ولينين ، وقال القوميون السوريون بعصمة انطون سعادة ، والاخوان المسلمـين بعصمة حسن البنا ، وكثير من البعثيين بعصمة عفلق ، وكل من استـدل بقول انسان ، واتخذ منه حجة ودليلا على الحق فقد قال بعصمتـه شعر بذلك ام لم يشعر .

وفي الصين مئات الملايـين اليوم تؤمن بعصمة ماوتسي تنـغ ، واذا اختلف الشيوعيون فيما بينهم ، وكذلك غيرهم ممن ذكرنا فانهم يختلفون في تفسير اقوال الرؤساء والقادة ، لا في وجـوب العمل بها ، تماما كمـا يختلف المسلمـون في تفسير نصوص القرآن ، والمسيحيـون في تفسير الانجيل .

فهرس الكتاب
فلسفة التوحيد والنبوة

الموضوع — الصفحة

فلسفة الولاية

فلسفة التوحيد
والنبـوة

فلسفة الولاية

دار الجواد
بيروت - لبنان
ص. ب ١٤/٥٨١٣

دار ومكتبة الهلال
بيروت - لبنان
ص. ب ١٥/٥٠٠٢

الطبعة السادسة
١٩٩٣م .

أصول الدين

« ما يجب بلا شرط ، وما يجب مع الشرط »

هذا الفصل :

هذا الفصل هام جدا ، وعليه ترتكز مباحث هذا الكتاب ، وكان من حقه ان يكون الاول في الترتيب ، ووضعناه هنا عن قصد ، لانـــه بمباحث الولاية اليق والصق ، وعلى اية حال ، فالمقصود الاول من البحث امران :

الاول : بيان ما يجب على المسلم ان يلتزم به كاصل وركن مـــن اصول الدين والعقيدة بحيث يكون مسؤولا عنه امام الله، ولا يعذر فيه ان قصر واهمل •

الثانية : تحديد الطريق الى معرفة هذا الاصل ، وما يتفرع على ذلك من صحة التقليد ، وحكم العاجز عن المعرفة والغافل •

بساطة العقيدة ووضوحها :

وعقيدة الاسلام في منتهى الوضوح والبساطة ، لانه دين الفطرة التي لا تشوبها شائبة من دنس البيئة والتربية ، فأصل الاصول فيه هوالتوحيد، واي عاقل يأبى الايمان باله لا شريك له ولا نظير ، وانه الحليم الكريم ، والغفور الرحيم ، والقادر العليم ؟•

اما الايمان بمحمد (ص) فهو ايمان بالدليل الصادق الناطق بحلال

الله وحرامه .. ومن اجل هذه البساطة ، وهذا الوضوح اسلم من طلب الحق لوجه الحق في هذا العصر ، واشرنا الـى بعضهم في فصل محمـد والقرآن ، وايضا شهد كثيرون من قادة الفكر الاجانب بان الاسلام هـو دين الحياة في كل زمـان ومكان ، ونقلنـا طرفا من اقوالهم في الفصل المذكور .

اصول الدين على نوعين :

يعترف للشيخ الانصاري بالسبق والاستذة في الغوص وبعد النظر ـ كل من تأخر عنه من اهل الفضل والاجتهاد ، وعلى كتابيه في الفقـه واصوله مدار الدرس والمذاكرات .. عليه الرحمـة والرضوان .. وان كان لا يرحم طالبا ولا استاذا في تعبيره واسلوبه .

فقد اتعب عشرات الآلاف ، واجهد عقولهم ، واسهر عيونهم حتى الصباح في تفسير معاني الكلمات وطلاسمها .. ومرة ثانية عليه رحمـه الله ورضوانه .

قال هذا الشيخ العظيم في كتابه المعروف بالرسائل ما توضيحه : ان اصول الدين على نوعين :

الاول : ما يجب البحث والنظر مقدمة لمعرفته ، وتمهيدا للتـدين والالتزام به، ويسمى هذا النوع في عرف الفقهاء والاصوليين بالـواجب المطلق ، اي ان العلم به شرط لوجوده ، لا لوجوبه تماما كالطهارة بالنسبة الى الصلاة ـ مثلا ـ من تنبه الى الخالق وشك في وجوده فعليه ان ينظر ويبحث ، ولا يجوز له ان يهمل ويقول : ان علمت بطريق او بآخر أن الله موجود آمنت واذعنت ، والا فما علي من سبيل !.. بل عليه ان يسعى ، ولا يدخر شيئا من جهده وطاقته .

النوع الثاني : لا يجب تحصيل العلم به مع انه في الواقع من اصول الدين ، ولكن لا يجب التدين به ، ولا تتم به الحجة الا بعد الاطلاع عليه، اي ان العلم به شرط لوجوبه ، لا لوجوده فقط ، فمتى علم به المكلف باي طريق من الطرق وجب عليه ان يلتزم ويذعن ، والا فلا يجب السعي وبذل الجهد لتحصيل العلم تماما كالاستطاعة بالنسبة الى الحج ، ويسمى هذا النوع بالواجب المشروط .

وزاد الاشتياني تلميذ الشيخ الانصاري قسما ثالثا في حاشيته الكبرى على رسائل استاذه ، وقال ما نصه بالحرف : « ان هنا قسما ثالثا لا يجب التدين به ولو بعد العلم بثبوته عن النبي (ص) واخباره به على سبيل الجزم واليقين ، وان كان انكاره بعد العلم بثبوته عن النبي (ص) موجبا للكفر من حيث رجوعه الى انكار النبوة وتكذيب النبي (ص) فان تكذيبه ولو في الاخبار العادية موجب للكفر قطعا ، وهو ما يرجع الى امور واقعية لا تعلق لها بالدين مثل بيان مبدأ خلق السماء والارض ــ الى ان قال ــ لا يقال : لا معنى لهذا التقسيم لان كل ما بينه النبي(ص) يكون من الدين لا محالة ، والالم يبينه ... لانا نقول : هذا غلطواضح، وخلط ظاهر ، فان الرسول (ص) قد يخبر عن الشيء من حيث كونه شارعا ومبلغا عن الله تعالى ومأمورا بتبليغه الى العباد ، وقد يخبر عن الشيء لا من هذه الحيثية ، بل من حيث كونه عالما بالغيب بافاضة الله سبحانه، ومن المعلوم ان هذا لا يرجع الى الاخبار عن الامر الديني » .. (انظر صفحة ٢٧٦) .

وقد تنبه الشيخ الانصاري لهذا النوع ، واشار اليه بقوله : « نعم ظهر في الشريعة امور ، صارت ضرورية الثبوت من النبي (ص) ، فيعتبر في الاسلام عدم انكارها » . تنبه الانصاري الى هذا النوع ، ولكن لا يعتبره قسما لاصول الدين التي يجب التدين ببعضها من غير شرط ،

وبالبعض الآخر مع الشرط ، وغاية الامر يحرم انكاره ، وبديهة ان حرمة الانكار اعم من وجوب التدين ، وجـواز الوقوف على الحياد بلا انكار ولا اقرار .

وعلى اية حال ، سنتحدث فيما يلي عن كل واحد من هذه الانـواع الثلاثة في فقرة على حدة .

١ ــ ما يجب التدين به من غير شرط :

الاصول الاولى التـي يبنى عليها الاسلام ، وعنهـا تتفرع سائر الاصول ، وكل الفروع ، وتجب مطلقا وبلا شرط العلم بها هي التوحيد، ونبوة محمد (ص) والمعاد روحا وجسما .

اما الامامة : فقال الخوارج : ما هي من اصول الدين ولا من فروعه في شيء على ما نسب اليهم ــ وقال السنـة : هي من الفروع ، لا مـن الاصول ، وان وجوبها كفاية لاعينا ، اذا قام به البعض سقط وجوبها عن الكل .. ولا ادري كيف يجتمع قول السنة هذا مع قول من قال منهـم بكفر الشيعة لانهـم ينكرون خلافة الشيخين .[1] وهـل انكار الفرع يستدعي الكفر حتى ولو كان من ضرورات المذهب ، لا مـن ضرورات الدين ؟.

واتفق الشيعة على ان الامامة اصل ، واختلفوا فيما بينهم : هل هي من اصول الدين ، او من اصول المذهب وضروراته ، وان الاعمال تصح بدونها ، ويسقط التكليف عن منكرها اذا قام بما عليه من عبادات، ولكنه لا يستحق الثواب من اجلها ــ كما عليه جماعة ــ ونحن نعتقد بانـه لا يسوغ لغير المعصوم ان يتحدث عن ثواب الآخرة وعذابها الا مـع النص القاطع سندا ومتنا .. اللهم الارجاء الترغيب والترهيب .. وعلى ايـة

(١) انظر : آخر الصواعق المحرقة لابن حجر .

حال ، فان لحديث الامامة والولاية العديد من الشعب . ويأتي الكلام عن الكثير منها .

وبعد ان ذكر الشيخ الانصاري بعض الروايات ، عن اهل البيت(ع) كدليل على ان الاصول الاولى للاسلام هي التوحيد والنبوة والامامة ــ قال : « تدل هذه الروايات على عدم اعتبار ما زاد .. وهذا هو الظاهر من جماعة من علمائنا الاخيار » وعلق الاشتياني على ذلك بقوله : « لا اشكال في عدم اعتبار الزائد عما ذكره في الايمان » .

وتسأل : لقد ثبت في الحديث : من قال : لا إله الا الله محمد رسول الله دخل الجنة . وإذن ، فمن اين جاءت الزيادة على الاقرار بالشهادتين ؟

الجواب : اولا لقد كان هذا عند بدء الاسلام وظهوره ، قال الامام الباقر (ع) بعث الله محمدا (ص) وهو بمكة عشر سنين ، ولا احد في هذه المدة يشهد ان لا إله الا الله وان محمدا رسول الله الا ادخله الله الجنة .

(**ملاحظة**) : اقام النبي بمكة ١٣ سنة بعد البعثة ، ولعل مراد الامام (ع) نفي السنوات الثلاث الاخيرة كان لا يطلب من المسلم اكثر من الاقرار بالشهادتين او ان الناقل سهى عن كلمة ثلاث .

ثانيا : ان المراد بدخول الجنة ان من اقر بالشهادتين لا يخلد في النار ، بل يعذب بقدر ما يستحق ــ ان كان قد اذنب ــ ثم يدخل الجنة .

ثالثا : ان الاقرار بالشهادتين يتضمن الاقرار بكل ما جاء به محمد (ص) ولو على سبيل الاجمال .

رابعا : لا قائل من المسلمين بان مجرد الاقرار كاف في الاسلام حتى مع انكار البعث .

٢ ــ ما يجب التدين به على شرط :

لكل اصل من الاصول الاولى شعب تنفرع عليه ، فمن الشعب او المسائل التي فرعها العلماء ، على اصل التوحيد رؤية الله تعالى ، وهل : هي ممكنة بذاتها او ممتنعة ومسألة صفاته تعالى ، وهل : هي عين ذاته ، او غيرها . وهل : افعال العباد مخلوقة لله . وهل : اللوح المحفوظ هو لوح كاسمه ، او هو كناية عن علمه تعالى . وهل : لله ان يعفو عن المسيء بعد التهديد والوعيد وهل القرآن حادث ، او قديم ؟. وهل نزل الوحي نجوما ، او دفعة واحدة ؟.. الخ .

وفرعوا على نبوة محمد (ص) انه هل : كان يعلم الغيب ؟ وهل : فوض الله اليه امر التشريع ؟. وهل : اسرى به من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى بالجسد ، او بالروح ؟ الخ .

وفرعوا على الامامة هل : الائمة المعصومون افضل ، او انبياء ما عدا محمدا . وهل كانت الملائكة تحدثهم . وهل فاطمة افضل ، ام مريم بنت عمران !. الخ .

وفرعوا على المعاد اشياء واشياء ، كالبرزخ ، وحساب القبر، وحشر الحيوانات ، وكيفية النفخ في الصور ، ودقة الصراط وحدته ، وكيفية نشر الصحف وشجرة طوبى والزقوم ، وتعذيب ابن الزنا واطفال الكفار ... الخ .

كل هذه الشعب ونحوها لا يجب تحصيل العلم من اجل الايمان بها، وان كانت من اصول الدين او شؤونها ، بل اذا اتفق وحصل العلم بها وجب الاذعان والا فلا ، على العكس من الاصول الاولى التي يجب تحصيل العلم للتدين بها والايمان .

والخلاصة : ان الاعتقاد بالتوحيد ، ونبوة محمد (ص) والمعاد

الجسماني وامامة الأئمة الاثني عشر ــ على قول الشيعة ــ يجب مطلقا ومن غير قيد ، والعلم شرط لوجود هذا الاعتقاد ، لا لوجوبه ، وما عدا ذلك فالعلم لوجوبه لا لوجوده ، وعلى من جهل ان يحجم عن القول بغير علم نفيا واثباتا ، قال الامام الصادق (ع) « لو ان العباد اذا جهلوا وقفوا ولم يجحدوا لم يكفروا » .

وتسأل : ان الاعتقاد من صفات القلب ، لا ارادة فيه للانسان ، ولا خيار ، وعليه يكون التكليف به تكليفا بما لا يطاق ، فكيف تعلق الامر به.

الجواب : اجل ، ان الاعتقاد والايمان من حيث هو فوق القدرة والاستطاعة ، سواء أتعلق بوجود الله ، ام بغيره ، ولكن الانسان يستطيعه ويقدر عليه من حيث مقدماته وايجاد اسبابه ، وايضا يقدر عليه من حيث اظهاره وآثاره ، والايمان مطلوب بهذين الاعتبارين ، فمعنى آمنوا بالله ورسوله اطيعوا الله ورسوله ، ومعنى لا تكفروا لا ترتبوا آثار الكفر في قول او فعل ، ومن كان في شك فليبحث وينظر الى حجج الله وبيناته التي تؤدي بطبعها الى الايمان والاعتقاد .

سؤال ثان : اوحى به الجواب عن السؤال السابق ، وهو : لقد علمنا ان للايمان بالله ورسوله واليوم الآخر ــ اعظم الاثر ، حيث يبعثنا على التقوى والعمل الصالح ، اما الايمان بأن الله لا يرى بالبصر، وان القرآن حادث ، وان لنا اماما مستورا ، اما هذا الايمان ونحوه فلا اثر له يحس ويلمس .. ان المهم هو طاعة الله ، لا جواز رؤيته ، او عدم جوازها ، وايضا المهم العمل بالقرآن ، لا الايمان بحدوثه ، او قدمه ، والانتفاع بالامام ، لا مجرد الاعتقاد بوجوده ؟.

الجواب : ان الحق احق ان يقال ، والاعتراف به فضيلة للمعترف وتعظيم وتكريم للحق واهله ، وانكاره قبيح في نظر العقلاء واي اثر اظهر من ذلك واوضح ؟.

ان قول الحق حسن بذاته ، حتى ولو لم ينتفع به القائل والمعترف والا جاز ان تتجاهل الانبياء والعظماء الاموات منهم والاحياء الا مع المنفعة ، وان نترك الشهادة بالحق الا اذا جرت الينا نفعا ، او دفعت عنا ضرا ، مع ان العكس هو الصحيح .. ولو اخذنا بمبدأ المنفعة بالشهادة لانسد باب القضاء وعمت الفوضى ، وضاعت الحقوق على اهلها .. ودفعا لهذه المفاسد وغيرها يجب علينا ان نقر بالحق ، ونعلنه اينما كان ويكون ، ولا يجوز جحوده وانكاره بحال ، ومن ذلك الاعتراف : بان الله لا يرى ، وبحدوث القرآن ، ووجود الامام المستور .. على ان الايمان بوجود هذا الامام ليس باعجب واغرب من الايمان بنبوة نوح وهود وصالح ، وغيرهم من الانبياء الذين عفى الدهر على آثارهم ، واكل وشرب ، ويأتي الحديث عن ذلك انشاء الله .

وبعد : فان للحق بما هو حق قدسيته وجلاله ، ومن تنكر له في اي مورد من موارده صغر مكانه من نفسه ، واجترأ عليه اينما كان ويكون ، وفي ذلك ضلال وفساد عظيم .

٣ ــ ما يحرم انكاره فقط :

هذا النوع لا صلة له باصول الدين ولا بفروعه ، ولا هو من الاخلاق ، او الأمر بالمعروف ، ولا يسأل عنه الانسان غدا ، ويحاسب على الجهل به ، لانه مجرد اخبار عن موضوع خارجي ، كالاخبار عن عمر الارض واصلها ، وطولها وعرضها ، وما فوقها وما تحتها ، وعدد من عاش عليها من قبل ومن بعد ، واذا لم يكن هذا النوع من الدين في شيء فكيف يجب التدين به ؟. اجل ، اذا اخبر المعصوم عنه حرم الرد عليه والاعتراض ، لانه تكذيب له ، وليس من شك ان تكذيب اهل العصمة كفر والحاد .

طريق المعرفة الى اصول الدين :

قال الرسول الاعظم (ص) : « اصل ديني العقل » وقال الامام الصادق (ع) : من كان عاقلا كان له دين ، وقال كبير من علماء الامامية ، وهو المحقق القمي : العقل حجة الله على عباده .. ولا نعرف دينا اشاد بالعقل والعلم كما اشاد بهما الاسلام ، فلقد تتبع بعض العلماء آي الذكر الحكيم ، فوجد فيها لكلمة العقل ومشتقاتها ومترادفاتها ٨٠ كلمة، ولكلمة العلم كذلك ٨٨٠ ... وليس معنى هذا ان العقل يدرك ويستقل بمعرفة الاسلام عقيدة وشريعة ، ولا يفوته شيء من اصوله وفروعه ، والا كان وجود الاسلام تحصيلا للحاصل ، وتوضيحا للواضح ، بل معناه ان الاسلام والعقل على وفاق تام في جميع مبادئه وكلياته وجزئياته ، ولا يتنكر لشيء منها على الاطلاق .

اجل ، ان العقل يدلنا بمعونة الحواس على وجود الله تعالى ، حيث لا طريق الى معرفة الله سوى ذلك ، والا دار او تسلسل على حد التعبير المشهور ، وسبق الكلام عن ذلك في فصل اثبات الخالق . وايضا العقل وحده يستقل في اثبات فكرة النبوة من حيث هي ، وانه لا محالة من ان يكون لله انبياء ورسل الى خلقه ، كما تقدم في فصل النبوة ، اما الطريق الى معرفة النبي وتعيينه باسمه وشخصه كمحمد وعيسى وموسى فهو العقل ، ولكن بضميمة النظر الى المعجزة وظهورها على يده بالذات ، وتحدثنا عن ذلك في فصل محمد والقرآن . وايضا يحكم العقل بامكان المعاد ، والحساب والجزاء بعد الموت ، اما وجوب الوقوع فيؤخذ من النقل ، بل ومن العقل ايضا ، ولكن بلحاظ العدالة الالهية ، لان ترك الظالم دون ان يقتص منه للمظلوم هو الظلم بعينه ، ويأتي البيان في فلسفة المعاد انشاء الله ، اما الامامة فهي تماما كالنبوة ، والفرق ان تعيين النبي بشخصه يكون بالمعجزة ، وتعيين الامام يكون بالنص من الله ، او المعصوم .

هذا بالنسبة الى اصول الدين الاساسية التي اشرنا اليها في الفقرة الاولى ، والتي يجب التدين بها مطلقا وعلى كل حال ، واما الشعب التي اشرنا الى بعضها في الفقرة الثانية ، ولا يجب التدين بها الا بعد العلم ، اما هذه فيثبت بعضها بالعقل كامتناع رؤية الله ، وكون الانسان مسيرا ، لا مخيرا ، وكعصمة الانبياء ، وبعضها الآخر يثبت بالضرورة الدينية او المذهبية نصا كان سببها ام اجماعا ام اي شيء ؟. ولكن التمييز بين ما هو ضروري وغير ضروري صعب مستصعب . قال صاحب القوانين : اختلف العلماء في ضرورات الدين ، يحكم احدهم بان هذا الشيء من ضرورات الدين ، ويحكم الآخر بان عدمه من ضرورات الدين .

وايضا يثبت بعض الاصول بالنقل ، شريطة ان يكون قطعي السند والدلالة كبعض آيات القرآن الكريم ، وبعض الاخبار المتواترة والخبر المحفوف بالقرينة القطعية على صدوره من المعصوم ، على ان يكون قطعي الدلالة ايضا .

وتسأل : لقد ثبت بالدليل القاطع ان الظن الذي يستند الى ظواهر الكتاب والسنة ، والى الخبر الواحد هو حجة تماما كالعلم ، وبناء على هذا يجوز لنا ان نثبت الاصول والعقائد بالخبر الواحد وان كان ظني السند ، وبظواهر الكتاب والسنة المتواترة ، وان كانت ظنية الدلالة ، وشرط القطع سندا ودلالة لا دليل عليه ، بل قام الدليل على عدمه .

الجواب : ايضا ثبت بالدليل القاطع ان التدين يجب ان يعتمد على العلم واليقين ، ولا يجوز التعويل فيها على الظن ايا كان مصدره . قال الشيخ الانصاري في الرسائل :

« ظاهر كلمات كثير من العلماء انه لا يجوز العمل بظواهر الكتاب والخبر المتواتر في اصول الدين ، ولعل الوجه في ذلك ان وجوب التدين

بهذه الاصول انما هو من آثار العلم » • وقال الاشتياني : « ان اكثر الآيات والاخبار الآمرة بالعمل بالعلم ، الناهية عن الظن تختص باصول الدين » ومثله في بعض الكتب المعتبرة •

وعليه يجب ان نخصص الدليل على جواز العمل بالظن الخاص ، وهو الناشىء من الخبر الواحد ، وبعض الآيات والسنة المتواترة ، ان نخصص هذا الدليل بالمسائل الفرعية العملية دون اصول الدين العقائدية•

التقليد في اصول الدين :

قال اكثر العلماء : لا يجوز التقليد في اصول الدين • وقال اهل التحقيق : يجوز • ومن هؤلاء الاردبيلي والانصاري والمحقق الطوسي ، ونحن معهم ، سواء أكان المقلد قادرا على تحصيل المعرفة ، ام عاجزا عنها، لان المطلوب الاول هو التدين والاعتقاد الجازم بالواقع على ما هو عليه من اي طريق سلكت اليه ، والمعرفة بالدليل وسيلة ، لا غاية ، ووجوبها مقدمة لوجود غيرها ، ومتى وجد ذو المقدمة سقط بطبيعة الحال وجوب المقدمة •

هذا ، الى ان سيرة العلماء منذ القديم ــ ومنهم القائلون بعدم جواز التقليد ــ قائمة على معاملة المقلدين في اصول الدين معاملة المسلمين ، بل وعدالة من اتقى وعمل صالحا• وقد اشبعنا هذا الموضوع بحثا وتفصيلا في المجلد الاول من التفسير الكاشف عند تفسير الآية ١٧٠ من البقرة ، فقرة التقليد واصول الدين ، وذكرنا للمقلد ٦ اقسام ، وقلنا في آخر البحث ما يلي :

« ان العبرة في اصول العقائد هي الايمان الصحيح المطابق للواقع ، ومن اجل هذا قبل النبي (ص) اسلام كل من آمن به ، وما طلب الاجتهاد

منه واستعمال النظر .. اما الآيات التي وردت في ذم اتباع الآباء فان سياقها يدل على ان المراد منها التقليد في الباطل والضلال ، لا في الحق والهداية، وتتجلى هذه الحقيقة لكل من امعن الفكر في قوله تعالى : « أولو جئتكم باهدى مما وجدتم عليه آباءكم » . وقوله : « واذا قيل لهم تعالوا الى ما انزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ». وقوله : « او لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » . فان المفهوم من هذه الآيات ان آباءهم اذا كانوا على الهدى الذي نزل على الرسول جاز اتباعهم ، لان المطلوب هو اتباع ما انزل الله ، فاذا اتبعوه فقد امتثلوا واطاعوا ، ولا يسألون بعد الطاعة عن شيء » .

الشاك في اصول الدين :

من شك في دين آبائه واجداده فلا يخلو ان يكون واحدا من ثلاثة.

١ ـ ان يعجز عن البحث والسؤال ، كما لو عاش في الصحراء ، او بلد ناء عن الاسلام والمسلمين ، واهله لا يهتمون الا بالدنيا واشيائها ، وليس من شك ان هذا معذور من حيث الحساب والعقاب ، ولا فرق في ذلك بين ان يكون ابواه مسلمين ، ام كافرين . وفي رسائل الانصاري عن الشيخ الطوسي انه قال : « العاجز عن تحصيل العلم بمنزلة البهائم » .. ولكن لا نرتب عليه آثار الاسلام اذا لم يقر باصول الدين ، ويظهر النطق بالشهادتين .

٢ ـ ان يقدر على السؤال والبحث ، وتتهيأ له اسباب المعرفة، وهذا يجب عليه ان يبحث ، ويبذل الجهد لتحصيل المعرفة حتى يشعر بالعجز ، وعندئذ يعمل بما توصل اليه من العلم ، فان كان محقا فذاك ، والا فهو معذور .

وان اهمل البحث ولم يكترث ، ومع هذا لم ينطق بالشهادتين فهو

كافر ظاهرا وواقعا • قيل للامام الصادق (ع) : ما تقول فيمن شك بالله ؟ قال : كافر • قيل فشك في رسول الله (ص) ؟• قال : كافر •

٣ ــ قدر على اسباب المعرفة ، ولكنه اهمل ولم يبحث ، ومــع هذا اقر باصول الاسلام واعلن الشهادتــين ، وهذا يعامل في الدنيا معاملــة المسلمين ، وفي الآخرة حكمه الى الله ، ونقلنا عن الامام (ع) انه قــال : « لو ان الناس اذا جهلوا وقفوا ولم يجحدوا لم يكفروا » • وقال الشيخ الانصاري : « تدل هذه الرواية بظاهرها ان المقر ظاهرا الشاك باطنا الغير مظهر لشكه ــ غير كافر » •

الغافل واصول الدين :

اكثر الناس ينشأون على دين الاباء والاجــداد ، ويطمئنون اليه ، ولا يشكون فيه على الاطلاق ، ويعتقدون انه الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وان كل ما عداه هراء وضلال ، ولا يختص هذا بالعوام ــ كما يظن ــ بــل عليه العديــد من العلماء واصحاب الكتب والمؤلفات •• ومنهم من يقول ايضا بحرمة التقليد في اصول الــدين ، ووجوب البحث والنظر لمعرفتها والعلم بادلتها •

وليس من شك ان الغافل الذاهل غير مكلف ولا مسؤول عما غفل عنه وذهل حتى ولو كان المحقق الاول ، لان التكليف مع الغفلة تكليــف بغير المقدور ، وقد اطال المحقق القمي الكلام عن ذلك في كتاب القوانين، ونذكر من اقواله بعض المقتطفات مــع التصرف في الاسلوب فقط بقصد التوضيح والتيسير على الافهام ، قال عليه الرحمة والرضوان :

ان الله عادل وحكيم ورءوف رحيــم ، وعليه اذا افترض ان انسانا نشأ منذ طفولته على دين الآباء والاجداد ، واستمر على ذلك حتى المو ت

دون ان يلتفت الى ان التقليد يصرف عن الحق ، ولا خطر له هذا على بال، اذا كان الامر على ذلك فبأية وسيلة يتحرر من التقليد ؟.. ان التحرر من هذا التقليد صعب وعسير حتى العلماء المرتاضين الذين يحسبون انهم خلعوا من اعناقهم اغلال التبعية والمحاكاة .. كيف والمفروض انهم لا يحتملون الخطأ بحال ؟. واي انسان بلغ به الامر الى هذا الحد فهو بحكم البهائم والمجانين .. ابدا . لا يتجه اليه امر ولا نهي ، ولا حساب ولا عتاب ، سواء أكان مسلما ، ام غير مسلم .

واليك عبارة القمي بحروفها لتكون على يقين مما اراد : « هذا الكلام لا يتفاوت فيه الحال بين الموافق والمخالف ، والمسلم والكافر على ما تقتضيه قواعد العدلية .. والقول بتعذيب الكفار والمخالفين دون المسلمين خروج عن العدل ــ الى ان قال ــ : وان كان اطمئنان الغافل من جهة حسن ظنه بابيه وامه من غير فرق بين ما صادف الواقع وعدمه في عدم العقاب » ويشهد لقول هذا المحقق العقل الحاكم الجازم بان الله لا يكلف نفسا الا وسعها . وايضا يشهد له النقل ، وهو قوله تعالى : «ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ــ ١١٥ النساء » ومعنى هذا ان من اتبع سبيل الكافرين والضالين عن جهل وقصور فان الله سبحانه لا يوليه ما تولى اي لا يكله الى من اعتمد عليه ، واخذ منه الكفر والضلال ، ولا يصليه نار جهنم وبئس المصير .

ثم قدم صاحب القوانين هذا المثال او هذا السؤال : ما قولك وحكمك فيمن نشأ بين قوم يكرهون الشيعة بالغ الكره واشده ، ولا يسمع من علمائه ورؤساء دينه الا تكفيرهم ، والاحاديث الموضوعة ، وتكذيب او تأويل كل حديث اخذ به الشيعة بما يتفق مع اهواء خصومهم واعدائهم !. ما ظنك بمن نشأ على ذلك ، ولم يحتمل ان الحق على غير

ما سمع . وما هو المبرر لحسابه وعذابه ؟ (انظر المجلد الثاني من القوانين من صفحة ١٦٦ الى صفحة ١٧٣ طبعة عبد الرحيم) وابلغ حجة قيلت في هذا الباب ما روي عن الامام الصادق (ع) : « ان امر الله كله عجيب الا انه قد احتج عليكم بما قد عرفكم من نفسه » . وعلى هذا يقع الوزر على السبب الاول الذي اضل الناس عن الحق واهله وسن بغض الشيعة لا لشيء الا لانهم يقدمون اهل بيت النبي (ص) على غيرهم عملا بآيات الله واحاديث رسول الله .

وتسال : هل يسقط التكليف بالواقع من الاساس بالنسبة الى الذاهل عن اصول العقائد ، او ان التكليف بالواقع ثابت لا ريب فيه ، ولكنه لم يصل الى مرحلة التنجيز التي يجب ان يتبعها العمل والامتثال بلا فاصل ، كما هي الحال بالنسبة الى الغافل عن الصلاة — مثلا — واستمرت غفلته حتى مضى الوقت .

الجواب : فرق بين اصول الدين وفروعه ، لان التكليف في الاولى يتعلق بالايمان والاعتقاد ، لا بالافعال ، وفي الثانية يتعلق التكليف بالافعال كالصلاة ونحوها ، وليس من شك ان الافعال يمكن قضاء واستدراك ما فات منها كما فات ، وعليه يصح التكليف بها من حيث هي ، وبصرف النظر عما يعرض للمكلف من الموانع والطوارىء عن الامتثال والطاعة ، فاذا عرض له مانع من غير تقصير كان معذورا ، ومتى زال المانع وجب القضاء والاستدراك ، اما الايمان والاعتقاد فلا تتصور بحال القضاء فيه ، وبالاولى ان لا تتصور قضاء مقدماته التي تؤدي الى تحصيله .. ومن الذي يقدر على ايجاد الفرع مع العجز عن الاصل كما هو الفرض ؟ وبكلمة ان للفرع بدلا ، ولذا وجب انشاءا على الاطلاق وتنجيزا مع الالتفات ، اما الاصل فلا بدل له ، وأذن ، فاية جدوى من انشاء وجوبه حين الغفلة ؟ .

سؤال ثان : اذا كان غير المسلم معذورا عندالله مع الغفلة والذهول

فلماذا لا نعذره نحن كما عذره الله سبحانه ، ولا نعامله معاملة غير الكافر . لماذا نحكم بنجاسته ونحرمه من الارث والمناكحة ، ونحو ذلك من الاحكام التي تجري على المسلمين . وهل يجب ان نكون ربانيين اكثر من العدالة الربانية !

الجواب : ان الفرق بين احكام الدنيا ، واحكام الآخرة تماما كالفرق بين الدنيا والآخرة ، ان الاحكام في حياتنا تتبع الاسماء ، وان الآثار تلحق الظاهر ، لا الواقع ، فمن قال : لا إله الا الله محمد رسول اخذنا بظاهره، اما في الآخرة فلا اسماء ولا ظواهر .. ابدا لا شيء الا الواقع .. ومن اجل هذا قد نعامل واحدا من الناس معاملة المسلم ، وما له في الآخرة الا النار والخسران وقد نعامل آخر معاملة الكافر ، وهو من عذاب الآخرة في أمن وأمان . وبكلام آخر كل من نطق بالشهادتين فله ما للمسلمين ، وعليه ما عليهم كائنا من كان في حقيقته وواقعه ، ومن لم ينطق بهما فحكمه غير حكم المسلم في الحياة الدنيا .

من هم أهل البيت

ليس الغرض من هذا الفصل ان نبين مكانــة اهل البيت وعظمتهم عندالله سبحانه ، بل غرضنا اولا وبالذات ان نعرف من هم المقصودون بهذه الكلمة ؟ والذي انتهينا اليه بعد التتبع والتأمل ان المقصودين عرفـا بكلمــة اهل بيت النبي (ص) هم اسرته وعشيرته الاقربون ، فلقد دأب الناس منذ القديم والى يومهم هذا ان يستعملوا كلمة اهل البيت في هــذا المعنى .. اجل ، ان الائمة الاطهار اشهر واكمل المصاديق . اما المقصودون شرعا من هذه الكلمة فهم فاطمة والائمة الاطهار ، ودليلنا على ذلك آيــة التطهير ٣٣ الاحزاب ، وحديث الثقلين ، اما آية التطهير فانها تعني عليــا وفاطمــة والحسن والحسين بدليل آية المباهلة ٦١ آل عمران ، واغرب ما قرأت في التناقضات ان بعض السنة يقولون : ان المراد من « نساءنــا » فاطمة لا ازواج النبي (ص) وفي الوقت نفسه يقولون : آية التطهير ٣٣ من الاحزاب نزلت في نساء النبي .. فاين وجه الجمع ؟! نستدل بهذا ، وبما جاء في سبب نزول آية التطهير في كتب الحديث والمناقب والتفسير ، وهو انها قد نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين .

ومن كتب الحديث التي اثبتت ذلك صحيــح مسلم والترمــذي ، ومستدرك الصحيحين ، ومسند احمد ، وخصائص النسائي ، والريــاض النضرة ، وكنز العمال ، ومسند ابي داوود ، والاستيعاب ، واسد الغابة ، ومشكل الآثار ، ومجمع الزوائــد ، ذكر هذه الكتب الفيروز آبادي في كتــاب فضائل الخمسة من الصحــاح الستة . واما كتب التفاسير فمنها

الدر المنثور للسيوطي عند تفسيره «وأمر اهلك بالصلاة» وتفسير الطبري والاندلسي والحافظ وغيرهم كثير حتى ابن تيمية في كتاب المنتقى •

وقال صاحب المنار عند تفسير قوله تعالى : « ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين ـ ٨٦ الانعام » • قال ما نصه بالحرف الواحد: « اقول في الباب حديث ابي بكرة عند البخاري مرفوعا : ان ابني هذا سيد يعني الحسن ولفظ ابني لا يجري عند العرب على اولاد البنات ، وحديث عمر في كتاب معرفة الصحابة لابي نعيم مرفوعا : وكل ولد آدم فان عصبتهم لابيهم خلا اولاد فاطمة فاني انا ابوهم وعصبتهم • وقد جرى الناس على هذا ، فيقولون في اولاد فاطمة اولاد رسول الله (ص) وابناؤه وعترته واهل بيته » •

ومعنى هذا القول من صاحب المنار ان ولد فاطمة ليسوا ابناء رسول الله لغة ، ولكنهم أبناؤه شرعا لقوله (ص) : « انا ابوهم وعصبتهم » : وايضا هم ابناء رسول الله عرفا لان طريقة الناس جرت على القول : ان اولاد فاطمة هم اولاد رسول الله وابناؤه وعترته واهل بيته •

هذا هو المراد بكلمة اهل البيت في آية التطهير ، اما المقصودون بها في حديث الثقلين فهم ـ على ما فهمناه من المساواة بينهم وبين القرآن في وجوب التمسك ـ فاطمة والائمة الاثنا عشر الذين اشار اليهم النبي (ص) بقوله : « ان هذا الامر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة ، كلهم من قريش » •

رواه مسلم في صحيحه كتاب الامارة ، والترمذي ج ٢ ص ٣٥ طبعة ١٢٩٢ هـ ، والبخاري كتاب الاحكام ، ومستدرك الصحيحين ج ٤ ص ٥٠١ طبعة ١٣٢٤ هـ ، ومسند احمد ج٥ ص ٨٦ طبعة ١٣١٣ هـ ، وكنز العمال ج ٦ ص ٢٠١ طبعة ١٣١٢ هـ ، كما في كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة •

هذا حديث الائمة ١٢ ، اما حديث الثقلين فقد جاء في صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل علي بن ابي طالب ، وفي الترمذي ج ٢ ص ٣٠٨ ومستدرك الصحيحين ج ٣ ص ١٠٩ ، ومسند احمد ج ٣ ص ١٧ ، وحلية الاولياء ج ٩ ص ٦٤ طبعة ١٣٥١ هـ ، وكنز العمال ج ١ ص ٩٦ ، ومجمع الزوائد للهيتمي ج ٩ ص ١٦٤ طبعة ١٣٥٢ هـ ، والصواعق المحرقة ص ٧٥ طبعة ١٣١٢ هـ ايضا كما في كتاب فضائل الخمسة .

وبهذا يتبين معنا ان السنة والشيعة متفقون على ان الخلافة لا بد منها ، وانها في قريش دون غيرهم ، وان عدد الائمة اثنا عشر اماما ، ولكن السنة يختلفون مع الشيعة في امرين : الاول في حصر الخلافة بالهاشميين ، وبصورة أخص بعلي وبنيه ، الامر الثاني في تعيين الائمة الاثني عشر باسمائهم وانسابهم وعلى هذا تكون فكرة الائمة الاثني عشر من حيث هي اسلامية ، لا سنية فقط ولا شيعية فقط وانما الخلاف في التطبيق .

اما السبب لتسمية الفرقة الاثني عشرية بهذا الاسم مع ان السنة يؤمنون بالائمة الاثني عشر فهو ان هذه الفرقة قد اجمعت على تعيين ال ١٢ باسمائهم واعيانهم ، واختلف السنة في ذلك ، فمنهم من قال : ال ١٢ لم يخلقوا بعد وسيخلقون ويملكون بعد ظهور المهدي المنتظروفاته، ومنهم من قال : ان المراد بال ١٢ اماما غير اصحاب الرسول لان حكم اصحابه يرتبط بحكمه .. اذن كل الائمة الاثني عشر من بني امية ما عدا عثمان ومروان بن الحكم لانهما صحابيان وعليه يكون اول الائمة الذين عناهم النبي (ص) : يزيد بن معاوية ، ثم ابنه معاوية . ثم عبد الملك بن مروان ، واولاده الاربعة : الوليد ، وسليمان ، ويزيد ، وهشام ، ثم عمر ابن عبدالعزيز، والوليد بن يزيد، ويزيد بن‌الوليد، واخوه ابراهيم‌ومروان الحمار ، ومن السنة من قال : هم ابو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، ومعاوية ، ويزيد بن معاوية ، وعبد الملك ، واولاده الاربعة ، وعمر بن

عبد العزيز ومنهم من قال : المراد وجود ال ١٢ اماما مدة الاسلام حتى يوم القيامة ، وان لم تتوال ايامهم (فتح الباري في شرح صحيح البخاري للعسقلاني ج١٣ ص ١٨٣ وما بعدها طبعة سنة ١٣٠١ هـ) .

وتسأل : لقد فهمنا ان الاثني عشرية آمنوا بامامة علي للنصوص التي دلت على امامته كتابا وسنة ، وفهمنا ايضا انهم آمنوا بامامة الحسن والحسين لقول جدهم الرسول (ص) : ولداي هذان امامان قاما ام قعدا .. اما ايمانهم بامامة التسعة من ذرية الحسين فلم نعرف له مصدرا ؟

الجواب : بعد ان ثبت النص على امامة علي من والحسين وعصمتهم ثبت عند الاثني عشرية ايضا ان الحسين (ع) نص على ولده زين العابدين ، وهكذا نص الامام السابق على الامام اللاحق حتى الامام الثاني عشر ، وعليه ينتهي النص الى الرسول الاعظم (ص) بالنظر الى انه هو الذي نص على الائمة الاول .

هذا ما ثبت عند الشيعة الامامية عن نبيهم الكريم ، واذا سألنا اي عالم من علماء السنة ، وقلنا له : هل يجوز لاحد ان يخالف نصا يعتقد صدوره عن النبي لا لشيء الا لانه لم يثبت عند غيره ؟ وانه هل يحرم العمل بالنص الا اذا ثبت عند جميع الفرق والطوائف ، اذا وجهنا اليه هذا السؤال اجاب بلا تردد : كلا ، والف كلا .. واذن علام الطعن والانتقاد .

وقد روى السيد عفيفي في كتابه « حياة الامام ابي حنيفة » روى عن السيوطي عن علماء السنة : ان النبي (ص) بشر بالامام مالك في حديث : يوشك ان يضرب الناس اكباد الابل يطلبون العلم فلا يجدون اعلم من عالم بالمدينة .. وبشر بالامام الشافعي في حديث : لا تسبوا قريشا فان عالمها يملأ الارض علما .. وبشر بالامام ابي حنيفة في حديث

لو كان العلم معلقا عند الثر يا لتناوله رجال من فارس • وجاء في تفسير روح البيان ان نصف الثمانية المقصودين بقوله تعالى « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » هم ابو حنيفة ومالك والشافعي واحمد •

فهل يجوز للسني ان يؤمن ويعتقد بان النبي نص على امامة المذاهب السنية ، وان الله سبحانه نص على انهم من حملة العرش يوم القيامة ، هل يجوز هذا للسني ، ولا يجوز للشيعي ان يعتقد بامامة الائمة الاطهار؟ وان النبي (ص) نص على بعضهم مباشرة ، وعلى البعض الآخربالواسطة؟•

وخير ما نختتم به هذا الفصل قول ابي حيان الاندلسي في تفسيره البحر المحيط عند قوله تعالى : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا ـ ٩٦ مريم » • قال الاندلسي : « ذكر النقاش ان هذه الآية نزلت في علي بن ابي طالب •• ومن غريب الكلام ما انشدنا الامام اللغوي رضا الدين ابو عبدالله محمد بن علي الانصاري لزبينا ابن اسحق النصراني الرسغي » :

عدي وتيم لا احاول ذكرهم ... بسوء ولكني محب لهاشم
وما تعتريني في علي ورهطه ... اذا ذكروا في الله لومة لائم
يقولون ما بال النصارى تحبهم ؟ ... واهل النهى من اعرب واعاجم ؟
فقلت لهم اني لاحسب حبهم ... سرى في قلوب الخلق حتى البهائم

الولاية علم

الولاية موضوع ديني ، ذكرها علماء الكلام في باب العقائد بعنوان الامامة ، ولكنها تصلح بمباحثها الهامة لان تكون علما بذاته من علوم الدين ، وتكاد تكون عند الامامية كذلك ، حيث وضعوا فيها العديد من الكتب ، منها المطول ، ومنها المختصر ، ومنها ما بين هذين .. والف بعض علماء السنة في الامامة كالماوردي صاحب الاحكام السلطانية ، وابن قتيبة صاحب الامامة والسياسة ، ولكن مؤلفاتهم في هذا الموضوع تختلف عن كتب الامامية في الكثير من مباحثها واهدافها ، بل بعض فصولها لا يمت الى الامامة بسبب .

وسواء أكانت الولاية علما مستقلا ، ام بابا من ابوابه فانها تثير هذه التساؤلات :

ما هو معناها ؟. وما هي اقسامها ؟ ولمن تجب ؟ وهل هي من اصول الدين او من فروعه ، او لا من هذه ولا تلك ، وانما هي من لوازم التقوى وشعار المخلصين .. وفيما يلي نحاول الاجابة عن هذه التساؤلات .

وفي رأينا انه لا ينبغي لاحد ان يكتب في الولاية ، ويذيع كتابته على الملأ الا بشكل يبشر ولا ينفر ، ويقرب ولا يبعد ، فان الخصم يتخذ من قول الامامي ، ايا كان ، حجة على جميع الامامية ، ووسيلة للطعن في عقيدتهم .. حتى ولو كان القائل او الكاتب غير معترف به عند علمائهم بالمعنى الدقيق للعلم والفضل ..

ان موضوع الولاية شائك للغاية ، وقل من يتنبه لحل المشكلات واجوبتها السليمة ، ولقد قرأت لبعض المؤلفين او المتطفلين كتابا لا يفرق فيه بين حديث الولاية ، وحديث الفضائل ، فيستدل على امامة امير المؤمنين بحديث « من سب عليا فقد سبني، ومن سبني فقد سب الله» مع العلم بان من سب مؤمنا لايمانه فقد سب الله ايا كان هذا المؤمن .

ونحن لا نشك في ان بعض الذين كتبوا في الامامة على تحصيل عال ، وعلم واسع بالاصول والفقه .. ولكن الولاية شيء ، والفقه واصوله شيء آخر ، ولا ضير ابدا على الفقيه ان يقول : من انكر الولاية، واقر بالشهادتين له في هذه الدنيا ما للمسلمين ، وعليه ما عليهم ، ولكن هل يحق له ان يقول : تعتبر الولاية في قبول العبادة ، والثواب عليها مع العلم بان الحديث عن الثواب والعقاب من البحوث الكلامية ، لا من المسائل الفقهية . بالاضافة الى ان الولاية على هذا لا تكون اصلا ولا فرعا ، بل من لوازم التقوى ، وشعار المخلصين .

وسمعت مرجعا محترما يقول : واي مانع ان يكون هذا الشعار من اقسام الولاية ، وان لم يتصف بالاصل او بالفرع ؟.. اجل ، لا مانع من جهة العقل ، ولكن هذا الشعار لا يتبادر من كلمة الولاية ، بل هو بعيد عنها كل البعد ، فكيف يكون من اقسامها ؟.

معنى الولاية :

قد تستعمل كلمة الولاية ومشتقاتها في اكثر من معنى ، ولكن المقام الاول لهذه المادة هو السلطة والقيام بالامر ، وهذا المعنى وحده هو الذي يتبادر الى الافهام عند الاطلاق ، وغيره يحتاج الى قرينة ، فاذا قيل : من يتولى امر هؤلاء القصر سبق الى التصور ، من يقوم بامرهم ، ويدير شؤونهم ، واذا قيل : هذا ولي العهد فهم منه انه يخلف الملك في السلطة والقيام بالامر .

ولا لبس وغموض في ذلك ، ولكن السنة ارادوا التخلص بكل وسيلة من نصوص الولاية على اهل البيت لا لشيء الا حرصا على خلافة ابي بكر ومن بعده ، وصيانة لها من الطعن والفضيحة ، فحملوا نصوص الولاية على غير معناها الظاهر او الاظهر تمحلا وجزافا ، ولو نظروا الى الولاية بتجرد وصرف النظر عن خلافة ابي بكر لقالوا بمقالة الشيعة ، وما كان للخلاف بين الطائفتين عين ولا اثر ويأتي التوضيح والتفصيل .

اقسام الولاية :

تنقسم الولاية باعتبارات شتى الى اقسام ، فهي من حيث التشريع والتكوين تنقسم الى تشريعية وتكوينية ، وهما لخالق الكون الذي يقول للشيء : « كن فيكون » . ونسبة الخلق والتكوين الى غيره تعالى شرك لا يغتفر ، واي تشريع خالف او يخالف كتاب الله ، وسنة نبيه فهو بدعة وضلالة .

التفويض في تشريع الاحكام :

وتسأل : اجل ، ان التشريع بيد الله تعالى ، ما في ذلك ريب ، ولكن يجوز ان يفوض سبحانه وتعالى امر التشريع الى المعصوم ، ولو في بعض المسائل بالنظر الى كماله في جميع الصفات ، وانه مسدد ومؤيد من الله ، بل جاء في بعض الروايات : ان الله سبحانه فرض الصلاة ركعتين ركعتين من غير فرق بين الصبح وغيرها ، فاضاف النبي (ص) الى كل من الظهر والعصر والعشاء ركعتين ، والى المغرب واحدة ، **وايضا في رواية اخرى :** ان النبي (ص) سن اشياء كثيرة غير ذلك ، فاجاز الله تعالى كل ما اضاف وسن نبيه الكريم .

الجواب :

هذا جائز عقلا . ولكنه لا يثبت شرعا الا بنص قطعي متنا وسندا ،

ولا نعلم بثبوت هذا النص ، اما قوله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ــ ٧ ــ الحشر » فالمراد به البلاغ عن الله ، لا من عند الرسول : « وما على الرسول الا البلاغ المبين ــ ٥٤ النور » . هذا، الى ان رواية الاضافة الى الصلاة محل نظر .. فنحن لا نتصور ان يفرض الله يسيرا على عباده ، والنبي (ص) يزيد عليه إلزاما ..' ثم ما هو القصد من جعل ــ المغرب ثلاثا والعشاء اربعا بعد ان كانا سواء فهل الغرض فتح باب الاعتراض للمشككين والمتحذلقين ؟.

هذا اولا ، وثانيا قال تعالى : « ان الحكم الا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين ــ ٥٧ الانعام » . وقال الامام الصادق (ع) : امـا الحلال والحـرام فقد والله انزله على نبيـه بكامله . وما يزاد الامـام في حلال وحرام . وكل من الآية والرواية تتنافى بظاهرها مع رواية التفويض .

ثالثا : أية جدوى من الاعتقاد بان الله سبحانه فوض امر التشريع الى المعصوم ما دام قوله وفعله وتقريره حجة على كل حال ؟.

الولاية المحمدية لا التكوينية :

وتسأل : نحن نؤمن بان التكوين بشتى انواعه والوانه هـو للـه وحده ، وان نسبة اي لون منه الى غيره شرك ، ولكن سمعنا عن قائـل يقول : ان الله سبحانه خص بشكل او بآخر المعصومين بولاية التكـوين على الاشياء وان في قدرتهم ان يخضعوها لارادتهم ان شاءوا ، فتخضع لهم تماما كما تخضع لارادة خالقها وباريها . وان كانوا لا يفعلون ذلـك ولا يشاءون . ولكن الله خصهم بهذا الفضل وهو بيده يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم . فما رأيك في ذلك ؟

الجواب :

كل شيء ممكن باذن الله حتى اطباق السماء على الارض بكلمة يقولها عبد من عباده تعالى ؟ ولكن العبرة بالوقوع لا بالامكان، وبالاثبات لا بالثبوت .. وليس من شك ان طريق الاثبات هنا منحصر بالنص القطعي متنا وسندا ، فاين هو ؟ وعلى فرض قيام هذا النص عند البعض فهو حجة عليه وحده ، لا على غيره ، لان وجوب الايمان بولاية التكوين ليس من ضرورات الدين ، ولا المذهب ، فالواجب على الامامي الاثني عشري ان يؤمن ويعتقد بان كل امام من الاول الى الثاني عشر معصوم عن الخطأ والخطيئة ، وانه يحيط علما بكتاب الله ، وسنة نبيه احاطة كاملة شاملة تماما كعلم الله ورسوله ، بهذين الاصلين ، وان الله سبحانه قد اصطفاه للامامة من بين خلقه ليكون رئيسا وحجة عليهم كما اصطفى جده للنبوة، وما زاد على ذلك فلا يجب الاعتقاد به الا على من قام لديه الدليل القاطع متنا وسندا .

وبكلام آخر ان الولاية الثابتة للامام قطعا ، وبضرورة المذهب هي الولاية المحمدية ، وغيرها يفتقر الى دليل قطعي لا يتطرق اليه الشك . ونعني بالولاية المحمدية ان كل حق ثبت لرسول الله (ص) على المسلمين فهو بذاته ثابت للامام المعصوم ، لانه الممثل الشرعي لرسول الله (ص) في جميع الشؤون التي تقبل النيابة والتمثيل .

وكفى المعصوم عظمة ان يكون منزها عن كل ما يشين ، وعالما بدين الله كما نزل على خاتم النبيين ، وان يكون قوله وفعله وتقريره حجة ودليلا على الحق تماما ككتاب الله وسنة رسول الله ، وهو بهذه الصفات الجلى يحلق الى القمة التي لا شيء فوقها الا خالق كل شيء ، وهو الواحد القهار .

اما كيف احاط المعصوم علما بدين الله واسراره من الفه الى يائه ؟ وهل كان ذلك برواية معصوم عن آخر ، او قذفا في القلب ، او نقرا في

السمع ، او بدعاء مستجاب .. كل ذلك جائز عقلا وشرعا .. ولكن نحن لا نعلم التعيين والتفصيل ، ولا يجب علينا ان نبحث ؟ كيف ؟ وبأي طريق؟ وانما يجب علينا ان نعتقد بانه يعلم الدين بكامله ، وانه دليله وبرهانه .

وتسأل : هل المعصوم يعلم الغيب ؟.

الجواب : .قال الله مخاطبا نبيه الكريم : « ومن اهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم ــ ١٠١ البقرة » وقال النبي : « لو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير ــ ١٨٨ ــ الاعراف » وقال الامام : « ليس بعلم غيب ــ اي علمه ــ وانما هو تعلم من ذي علم .. علمه الله فعلمنيه » وقال علماء الشيعة مجمعين : كل خبر خالف كتاب الله يجب طرحه ، وقال بعض الناس : كلا ان الامام يعلم الغيب وان قال الله والرسول والامام والعلماء اجمعين لان هناك خبرا يقول : انه يعلم ما كان وما يكون الى يوم القيامة مع انعلم بان هناك آيات واخبارا كثيرة تقول : لا يعلم الغيب الا الله .. ثم ما هي الثمرة العملية التي تترتب على ذلك ؟. انا لله وانا اليه راجعون .

وبعد ، فان الذي اعلناه من الاعتقاد بالمعصوم في كتابنا هذا وغيره .

مما كتبنا واذعنا هو الخط الاساسي لمذهب الاثني عشرية ، وبه نقطع الطريق على الذين يختلقون الافتراءات والاكاذيب لمجرد الطعن والنيل من الموالين لآل محمد (ص) .

ولقد تتبعت ادلة الولاية ، وقرأت الكثير مما قاله الموالون وغير الموالين ، ودافعت عنها وكافحت بلساني وقلمي ، وما زلت والى آخر يوم وما صعب علي شيء الا وقوفي في وجه العدو ، وهو يتسلح ويتشبث بقول من يقول : الامام يعلم ما كان وما يكون ، وانه لو شاء اسقط السماء على

الارض ، ورفع الارض الى السماء •• ولكن هذا اللون قليل : ولله الحمد ، ولا يمثل الا نفسه •

الولاية الطبيعية :

وايضا تنقسم الولاية من حيث النواميس الطبيعية ، والمبادىء الشرعية الى نوعين : طبيعية ، وشرعية ، وافراد كل من النوعين لا تناقض افراد النوع الآخر ، بل يستحيل وقوع التنافي بينهما ، لان خالق الطبيعة هو واضع الشريعة الحقة بالذات •• والولاية الشرعية ـ بشتى اقسامها ـ تدخل في علم الفقه ، اما الولاية الطبيعية فهي اصطلاح من عندنا•ونريد به ان الناقص الفاقد لاية صفة من صفات الكمال يفتقر بطبعه ووضعه الى الكامل الواجد لتلك الصفة ، فممكن الوجود ـ مثلا ـ مفتقر الى واجب الوجود في اصل وجوده ، وفي بقائه واستمراره ، والعاجز عن تدبير شؤونه كالصغير والمجنون مفتقر الى قوي امين يدبرها له ، والأعمى يحتاج الى بصير يقوده والمريض الى طبيب يعالجه ، والجاهل الى عالم يهديه ويرشده •

وهكذا كل واجد لصفة هو ولي على من فقدها •• وعلى هذا الفاقد ان يسمع ويطيع للكامل الواجد بحكم العقل والعدل فيما يتصل بتلك الصفة ، ولكن على اساس مصلحة الفاقد لا مصلحة الواجد واستغلاله •• فما من سلطة في الارض ولا في السماء الا وهي مقيدة بالمصلحة او بعدم المفسدة ـ على الاقل ـ واي قوي وواجد اذا خان وافسد وجب رفضه وابعاده كائنا من كان •

وقد يكون الاعمى استاذا في العلم لقائده والمريض اماما في الدين لطبيبه ولكن قول البصير حجة على الاعمى في معرفة الطريق وقول الطبيب حجة على الامام في معرفة الدواء •• وايضا قول من لا يحتمل الخطأ في

علمه حجة على المجتهد الذي يحتمل في علمه الخطأ وهذا حجة على غير المجتهد ولو تساوى اثنان في الصفات لم يكن للولاية من موضوع الا مع الارادة والرضا كانتخاب الحاكم والنائب واختيار الوكيل ونحوه ولو تولى بالقوة احد المتساويين شأنا من شؤون المساوي الآخر تكون التولية ظلما وعدوانا وافحش الظلم ان الناقص يتسلط على الكامل والجاهل يتسلط على العالم .

ولان هذه القاعدة ـ اي ولاية الواجد على الفاقد ـ ضرورة للحياة ونظامها فقد تبنتها وعملت بها جميع الشرائع قديمها وحديثها شرقيها وغربيها كما اعتبرت قول الامناء من اهل الخبرة والمعرفة حجة قاطعة فيما يعود الى مهنتهم واختصاصهم .

وبما ان محمدا (ص) هو امثل واكمل من كان ويكون في جميع صفات الكمال والجلال تكون ولايته طبيعية عقلية كما هي سماوية الهية ومعنى ولاية النبي ـ كما نفهم ونعلم ـ ان له السلطة الدينية والزمنية على الخلق وان قوله وفعله وتقريره حجة ودليل على الحق والعدل ولا يختلف في ذلك اثنان من المسلمين وانما الاختلاف بين السنة والشيعة في ان الرسول الاعظم هل اوصى بهذه الولاية لاحد من بعده او انه انتقل الى ربه دون ان ينص على من يخلفه في هاتين السلطتين او احداهما . وفيما يلي التفصيل :

هل أوصى النبي (ص) ؟.

قال السنة ذهب النبي (ص) الى ربه دون ان يوصي بالخلافة لاحد من بعده وانه ترك امرها شورى بين المسلمين ورد الشيعة هذا القول بما يتلخص :

١ ـ ما الدليل على ان النبي (ص) اناط الخلافة من بعده بارادة

المسلمين واختيارهم . وهل ادعى احد من السنة قديما او حديثا بانه (ص) اناط الخلافة من بعده بارادة المسلمين واختيارهم . وهل ادعى احد من السنة قديما او حديثا بانه (ص) نص على ان الخلافة شورى بين اهل الحل والعقد . والذي نعرفه ان البعض منهم ادعى النص على خلافة ابي بكر بتقديمه للصلاة .. مع العلم بان هذا المدعي يجيز الصلاة خلف البر والفاجر ويؤمن ايضا بان اكثر الذين يصلحون للامامة في الصلاة لا يصلحون للحكم والقيادة . وبالتالي كيف جاز للسنة ان ينسبوا هذه الشورى لنبي الرحمة وهم يعلمون بانه سكت عنها وعن الخلافة ، ولم يشر اليها من قريب او بعيد .. ان سنة الرسول الاعظم (ص) عبارة عن قوله وفعله وتقريره فهل يعد سكوته عن شيء لم يحدث بعد ، مع علمه بانه سيحدث لا محالة هل يعد هذا السكوت تقريرا منه لما سيكون على كل حال وكيف اتفق وبلا قيد او شرط ؟

٢ ـ روى السنة عن النبي (ص) بانه كان يعلم تناحر امته من بعده على الحكم وانهم يفترقون على ثلاث وسبعين فرقة وان الكثير منهم يرتد عن دينه ، وان الخلافة بعد ثلاثين تكون ملكا عضوضا ، فكيف ساغ بعد هذا كله ان يسكت عن الخلافة . وبالاصح كيف يصدق عاقل بانه (ص) سكت وتجاهل امر امته ، ولم ينص على امام يجمع شملها ، ويوحد كلمتها .؟ وقد وصفه الله بقوله : « عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم ١٢٨ التوبة » وهل كان ابو بكر اكثر حرصا على مصالح الامة من الرسول ، واشد رأفة منه ورحمة بالمؤمنين حين اوصى لعمر بالخلافة ؟ ولماذا استن ابو بكر هذه السنة التي مهدت السبيل ليزيد ابن معاوية وامثال يزيد ان يتحكموا برقاب العباد، ويفسدوا في البلاد ؟.

هذا تلخيص سريع لقول السنة والرد عليهم .. وهناك سر عميق يكمن وراء موقف السنة من النص على الخلافة والخليفة ، وانكارهم او

تأويلهم له ، وهو التعصب الاعمى لخلافة ابي بكر ، وصيانتها من النقد والطعن ، ويأتي البيان والتوضيح في الفصل الآتي .

وقد وضع الشيعة العديد من الكتب في نصوص الخلافة والولاية التي رواها السنة انفسهم في صحاحهم وسننهم ، واكثرها او الكثير منها يدل بصراحة على ان علي بن ابي طالب هو الذي يجب ان يخلف الرسول (ص) في السلطة الدينية والزمنية ، وان الولاية المحمدية حق الهي مقدس للصفوة من اهل البيت ، وان طاعتهم واجبة ، ومناقشتهم محرمة .

وقد تناقل علماء الشيعة هذه النصوص جيلا عن جيل مدى مئات السنين ، وأعادوا التأليف فيها مرات ، وما زالوا ، ومحصوها تمحيصا علميا ودقيقا ، فتثبتوا في نقلها عن السنة ، واوضحوا دلالتها قبل ان يذيعوها على الملأ ويناظروا بها من انكر وعاند .. واتمنى لو اتيح لنصوص الولاية عالم منصف لا سني ولا شيعي يبحثها بحثا موضوعيا ، ويصدر حكمه بما فهم منها وعلم ، ومن الكتب التي تحتوي على هذه النصوص كتاب الشافي للمرتضى ، ودلائل الصدق للمظفر ، والغدير للاميني ، والمراجعات لشرف الدين ، وفضائل الخمسة من الصحاح الستة للفيروز آبادي وغيرها ، ولا جديد لدينا نعطفه على ما في هذه الكتب ، واية جدوى في النقل عنها ما دامت في متناول كل راغب وطالب ؟. وعلى سبيل المثال نشير الى نصوص ثلاثة :

١ ـ بعد نزول الوحي على رسول الله (ص) امره تعالى ان يبدأ بدعوته اول ما يبدأ بارحامه واقاربه ، وخاطبه بقوله : « وانذر عشيرتك الاقربين ٢١٤ الشعراء » .

فلبى النبي (ص) واولم لعشيرته ، ودعاهم الى الاسلام ، وقال لهم فيما قال مشيرا الى علي : « هذا اخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له

واطيعوا » انظر من الكتب القديمة للسنة الجزء الاول من مسند احمد والجزء الثاني من تاريخ الطبري طبعة قديمة والجزء الثاني من الكامل لابن الاثير طبعة قديمة ايضا ، ومن الكتب الجديدة حياة محمد ، لمحمد حسين هيكل الطبعة الاولى وتاريخ الجمعيات لمحمد عبدالله عنان .

٢ ــ خطب النبي (ص) المسلمين يوم غدير خم ، وافتتح خطابه بقوله : ألست أولى منكم بانفسكم ؟ ثم قال : من كنت مولاه فعلي مولاه . والمتبادر الى الافهام من كلمة المولى هو الذي يتولى الامر ــ ويملك السلطة كما اسلفنا ــ ومع التسليم جدلا بان للمولى الف معنى ومعنى فان المقصود منه هنا خصوص الخلافة والولاية بدلالة « ألست اولى الخ : وقرينة الآيات والاحاديث الواردة في حق علي (ع) وامامته ».

واثبت الاميني في كتاب الغدير : ان هذا الحديث رواه ١١٠ من الصحابة ، و ٨٤ من التابعين .

٣ ــ قال الرسول الاعظم : « اني قد تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي : الثقلين واحدهما اكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الارض ، وعترتي اهل بيتي ، الا وانهما لم يفترقا حتى يردا علي الحوض » .

وهذا الحديث يرادف في معناه معنى قوله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب ــ ٧ الحشر » . لقد ساوت هذه الآية بين القرآن والرسول في وجوب التمسك والاتباع ، ومثلها تماما حديث الثقلين ، ساوى بين القرآن والعترة ، والمساويان لثالث متساويان ، وعليه فاي حق ثبت للرسول فهو بعينه ثابت للعترة شريطة ان يقبل النقل والانتقال كالسلطة الدينية

والزمنية ، وفي فصل « من هم اهل البيت ؟ » اشرنا الى سند الحديث والمراد بالعترة .

وتسأل : ان خلافة الرسول (ص) منصب هام وخطير للغاية ، لان صاحبه يجمع فيه بين السلطتين : الدينية ، والزمنية ، فينبغي ، وهذي هي الحال ، ان يكون النص عليه بالاسم لا بالوصف ، وبالتصريح لا بالتلويح .. وقد رأينا اكثر النصوص التي استدل بها الشيعة على خلافة الامام وولايته من النوع الثاني ، مثل من كنت مولاه فعلي مولاه .. وانت ولي كل مؤمن بعدي .. وعلي مع الحق ، والحق مع علي الخ .. فلماذا اكتفى النبي (ص) بالوصف عن الاسم ، وبدلالة اللزوم عن المطابقة ، وهي اصرح واوضح ، وفتح باب النقاش والتأويل ؟.

الجواب :

اولا : لا فرق من حيث الحجة والالزام بين دلالة اللزوم والمطابقة ، كما هو الشأن في سائر النصوص ، سواء أكان موضوع النص اصلا من اصول الدين ، ام فرعا من فروعه .. ومن اجل هذا اكتفى ابو بكر حين نص على عمر بقوله : « اني امرت عليكم عمر بن الخطاب » . قال المرحوم الشيخ محمد رضا المظفر في كتاب السقيفة : « ان الامارة تكون في الجيش وفي كل شيء .. والفرق بين نص النبي ــ على الامام ــ ونص ابي بكر ــ على عمر ــ ان ابا بكر لم يحدث بعده ما يوجب التأويل لانه قد عمل به ، اما نص النبي فقد اول لانه لم يعمل به » .

ثانيا : ان الحكمة والمصلحة قد تستدعي العدول من التصريح الى التلويح ، ومن الاسم الى الوصف مع العلم بان النتيجة واحدة ، والحكمة هنا ان عليا كان له في الصحابة اعداء وحساد لفضله من جهة « وقديما

كان في الناس الحسد » ولانه قد قتل في ــ بدر واحد ــ الكثير ممن كان يمت الى بعض الصحابة بنسب او سبب من جهة ثانية .. وعليه لو صرح النبي (ص) باسم علي لانشق المسلمون ، معه وعليه ، واختلفوا فيه بعدما اتفقوا عليه ، وذهبت هيبة الاسلام ، وضعفت شوكته .

ويدل على ذلك امران : احدهما ان النبي (ص) قد صرح بخلافة علي في النص الاول يوم انذر عشيرته ، وقال : هذا خليفتي فيكم ، فاسمعوا له واطيعوا [1] .

حيث لا حساد ولا اعداء لعلي (ع) آنذاك ، لانه كان في مقتبل العمر ، لم يمارس حربا ، ولم يقتل مشركا ، ولم يظهر له بعد من الفضل ما ظهر له يوم بدر واحد وخيبر والاحزاب ــ وثاني الامرين : الذي يدل على شقاق الصحابة لو صرح النبي باسم علي ، هو شقاقهم واختلافهم عند النبي وفي بيته ومرضه حين اراد ان يكتب لهم وصية لن يضلوا بعدها ابدا ، وقول عمر : ما شأنه ؟ أيهجر ؟ . ويأتي البيان في الفصل التالي .

وبعد ، فان المصدر الاول والاخير لوجود التشيع وظهوره في الاسلام هو نصوص القرآن والسنة فقط لا غير على ولاية اهل البيت ، لا الاغراض الشخصية ، ولا المحسنات العقلية ، ولولا هذه النصوص لقال الشيعة . بمقالة السنة .. اما الفضل في بقاء التشيع واستمراره فله اسباب لا سبب واحد . ومنها او من اهمها رواية علماء السنة انفسهم لنصوص الولاية . وحفظها وتدوينها في صحاحهم وسننهم ومسانيدهم ، فلقد كان لهذا التدوين . وتلك الرواية ابلغ الآثار في صمود مذهب التشيع لاهل البيت . وتثبيته ونموه بقلوب اهله وابنائه ، وانتشاره في شرق الارض

---

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٢ مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٣٥٧ هـ. عن فضائل الخمسة من الصحاح الستة .

وغربها .. واذهب الى ابعد من ذلك جازما بانه لولا اعتراف السنة بنصوص الولاية – على رغم التأويلات والتمحلات – لبلغ التناحر بين السنة والشيعة غايته ونهايته .

وهكذا نرى ان علماء السنة قد ساهموا مساهمة فعالة في التقريب بين الطائفتين الاسلاميتين من جهة ، وفي رسوخ التشيع ونموه وانتشاره من جهة ثانية ، ولكن من حيث لا يريدون ، أو من حيث ارادوا في واقعهم العكس .. واكرر جازما ومعبرا عن رأي الشيعة قاطبة بانهم يعتمدون لايمانهم بولاية اهل البيت على النص القطعي متنا وسندا ، وان علماءهم اذا اشاروا الى حكم العقل في هذا الباب ، وعند المناظرة فانما يشيرون اليه كمؤيد ، لا كدليل مستقل ، ولولا الخصومات والحملات لم يأتوا على ذكره تصريحا ولا تلويحا .

الدكتاتورية والديمقراطية :

ورب قائل : لو صرفنا النظر عن نص الكتاب والسنة على خلافة علي وامامته ، وقارنا بين قول الشيعة والسنة – لوجدنا قول السنة اقرب الى النفس وملاءمة «الحضارة» في هذا العصر – لان قول الشيعة يوجب على الامة كافة ان تخضع لحكم الفرد ودكتاتوريته ، اما قول السنة فانه يترك الامة وشأنها تنتخب وتختار من تراه اهلا للرياسة عليها ، وهذي هي الديمقراطية المتبعة اليوم في البلاد المتحضرة .

الجواب :

اولا : لا سبيل الى اتفاق عامة الناس على رأي واحد في اي موضوع كان .

ثانيا : ما من انتخاب جرى في العالم كله الا ودنسته الرشوة والجهل ،

والقوة والاغراض الشخصية ، ومن هنا قال سبحانه في اكثر من آية : « اكثرهم لا يعقلون » .

ثالثا : لو سلمنا ــ جدلا ــ بنزاهة الانتخاب وعدالته فان النتيجة الحتمية له هي حكم الاكثرية ، وارغام الاقلية على الخضوع لها ، ومعنى ذلك ان الاقلية لا شأن لها ولا رأي .. هذا الى ان الشواهد التاريخية قد اثبتت بالارقام ان الديمقراطية العصرية تبتدىء بالانتخاب ، وتنتهي باستبداد الاقلية بالاكثرية ، ومن هنا كانت الحرية للجميع ، والمساواة بين الجميع في هذا العصر ، بل وغيره من العصور ــ الفاظا بلا معنى الا في الذهن والتصور .. ويستحيل ان يتحقق للعدالة والمساواة اي معنى الا اذا حكم وسيطر المعصوم عن الخطأ والخطيئة .. وهذا قول الشيعة بالذات .. وقد يكون مجرد حلم من الاحلام .. ولكنه حلم الحق والناس اجمعين .

اصل او فرع ؟

وتسأل : هل الولاية عند الشيعة اصل او فرع ؟. وعلى الاول هل هي من اصول الدين او المذهب ؟.

الجواب :

الولاية اصل ، وليست بفرع ، لان الولاء عملية قلبية داخلية ، والفرع موضوعه الافعال الخارجية .. هذا ، الى ان الفرع يثبت بالظن من خبر الواحد ، وظواهر الكتاب والسنة ، والولاية لا تثبت الا بالقطع واليقين كغيرها من الاصول .

واكثر علماء الامامية على انها من اصول الدين . وقال قائل منهم : هي من اصول المذهب . وذهب البعض الى انها شرط لقبول العبادة

والثواب عليها ، وليست شرطا لصحة العبادة وكفايتها .. ويلاحظ بان اهل العرف لا يفرقون بين صحة العمل وقبوله ، فاذا قيل : هـذا العمل مقبول فهموا انه صحيح ، واذا قيل : هو صحيح فهموا انه مقبول .

ويلاحظ على القول الثاني بان مصدر الدين والمذهب الاسلامي واحد ، وهو الكتاب الكريم والسنة النبوية ، فأي شيء له اساس فيهما فهو من الدين في الصميم ، سواء اسميناه دينا ام عقيدة ، والذي لا اساس له في الكتاب والسنة لا واقعا ولا ظاهرا يبرر الاجتهاد فهو بدعة وضلالة لا تصح نسبته الى الاسلام بحال .

وعلى هذا فان كانت الولاية حقا في علم الله فهي من اصول الدين واقعا وظاهرا ، وان لم تكن كذلك فهي ايضا اصل من اصول الـدين ، ولكن ظاهرا لا واقعا كغيرها من الامور الدينية ، اذ المفروض ان القائلين بالولاية يعتمدون النص ، واذن فهي مـن الاصول على كل ، اما واقعـا وظاهرا ، واما ظاهرا فقط ، اجل ، يجوز ان نسميها باصل المذهب بالنظر الى انها ثبتت عند اهل هذا المذهب دون غيره من المذاهب ولكن التسمية لا تخرجها من اصول الدين .

وتسأل : هل الشيعة يكفرون من انكر الولاية لأئمتهم بالمعنى الذي يؤمنون به ويدينون ؟

الجواب :

كلا ، كيف وقد اجمعوا قولا واحدا على ان من نطق بالشهادتين له ما للمسلمين ، وعليه ما عليهم الا ان يكون ناصبيا او مغاليا ، ومن ادلتهم قول الامام (ع) هلك في رجلان : محب غال ، ومبغض قال .

سؤال ثان : اوحت به الاجابة عن السؤال الاول ، وهو اذا كـان

هذا حقا وصدقا ، لا تقية ومجاملة ، فكيف تكون الولاية من اصول الدين ، ويكون الاقرار بها واجبا تماما كوجوب الاقرار بالتوحيد والنبوة . واية جدوى من القول بان الايمان بالولاء واجب كالتوحيد اذا كان لمنكر هذا الولاء ما للمسلمين ، وعليه ما عليهم ؟

الجواب : عن هذا السؤال يعرف مما ذكرناه في الفصل السابق بعنوان ما يجب وما لا يجب ، وربما نسيه القارىء ، او لم يمر به ، ونلخصه له بان على كل بالغ عاقل ان يبحث وينظر لتحصيل العلم بالاصول الاربعة : التوحيد ، والنبوة ، والامامة ــ على قول الشيعة ــ والمعاد ، وان القادر المقصر في البحث والنظر غير معذور امام الله الا اذا آمن جازما، عن تقليد يتفق مع الواقع ، وان الغافل القاصر معذور ، لان حاله حال البهائم والمجانين من غير فرق في ذلك بين جميع الاصول الاربعة .

وقلنا أيضا : ان من نطق بالشهادتين يعامل في الدنيا معاملة المسلم حتى ولو كان شاكا في الواقع بالتوحيد والنبوة فضلا عن الشك بالولاية والامامة على شريطة ان لا يظهر هذا الشك ، مع انه عند الله من الكافرين لان من شك بالله او بنبوة محمد كافر كما ، تقدم عن الامام الصادق (ع) .. والفرق بين التوحيد والنبوة من جهة ، وبين الولاية من جهة هو ان اعلان الجحود او الشك في الله ورسوله لا يجتمع بحال مع اعلان الايمان بالشهادتين حيث يستدعي اجتماع النقيضين ، اما جحود الولاية فضلا عن الشك فيها فانه يجتمع مع اعلان الشهادتين ومن المتسالم عليه ان الاحكام الشرعية وآثارها تلحق هذا الاعلان ، وتترتب عليه ترتبا دينيا بصرف النظر عن الولاية ، وعن الثواب والعقاب ..

وعليه فلا منافاة بين قول الشيعة : ان الايمان بالولاية من اصول الدين ، وقولهم : ان منكرها ليس بكافر .. ان اقوال الشيعة في كل

شيء ينسجم بعضها مع بعض ، ولا تنافر بينهما على الاطلاق ، وهي بكاملها تنسجم مع عقيدتهم وافعالهم ، وانما التناقض والتنافر بين اقوال السنة انفسهم ، حيث قالوا ان الامامة من الفروع ، لا من الاصول ، ثم حكموا من حيث يشعرون ، او لا يشعرون بان من انكر خلافة ابي بكر وعمر ، فهو كافر ، قال ابن حجر في آخر صواعقه باب التخيير والخلافة ، ما نصه بالحرف الواحد : « ان ابا حنيفة وغيره من علماء السنة افتوا بأن من أنكر خلافة ابي بكر وعمر فهو كافر » . ونقل القزويني في كتاب الامامةالكبرى عن ابن حجر في صواعقه هذا الحديث عن النبي (ص) « يكون في آخر امتي الرافضة ينتحلون حب اهل بيتي .. من ادركهم منكم فليقتلهم فانهم مشركون » .

فان كانت الامامة من الفروع حقا فانكار خلافة الشيخين لا يوجب التكفير حتى ولو كانت بامر من الله ورسوله ، ويأتي الكلام عنها ، وان كانت الامامة من الاصول فلماذا ينكرون ذلك على الشيعة ؟.. وليس لواحد من السنة وغير السنة ان يدعي ويقول : اجل ، ان خلافة الشيخين فرع . ولكنها من ضرورات الدين ، وكل من انكر ضرورة دينية فهو كافر .. ليس لاحد ان يدعي ذلك ، لان الشرط الاساسي للضرورة الدينية ان يجمع عليها كافة المسلمين في كل زمان ومكان ، والشيعة ينكرونها ، وسبقهم الى انكارها كثير من الصحابة ، ويأتي البيان . هذا جواب ابي حنيفة وغيره من علماء السنة الذين افتوا بكفر من انكر خلافه الشيخين ، اما حديث قتل الرافضة فانه يرمز الى شيء عميق الدلالة لا يدركه الا المتعصبون من اهل السنة .

وبعد ، فان السنة او الكثير منهم يقعون في افحش التناقضات من حيث لا يدرون ويرمون بها الابرياء عن قصد او غير قصد .

حول التسنن والتشيع

ولاية اهل البيت وخلافة ابي بكر :

كنت ، وانا في مقتبل العمر اتساءل كما يتساءل الساذج البريء لماذا انقسم المسلمون الى سنة وشيعة ، وكتابهم واحد ، ونبيهم واحد ، وقبلتهم واحدة ؟.

ثم لاحظت ــ اكثر من مرة ــ حين يجتمع بعض السنة مع آخرين من الشيعة : ويأتي ذكر الاختلاف يتفقون جميعا على ان سبب الانقسام بين المسلمين قديما وحديثا يرجع الى سياسة الحكم الجائر ، ومبدأ «فرق تسد » وصادف ان قرأت ذلك في بعض الصحف والكتب الحديثة ، فصدقت من غير تحقيق وتمحيص ، بل من حيث لا احس واشعر .. كان ذلك قبل خمسين سنة او اكثر .

واستقرت هذه الفكرة في رأسي سنوات ، وكتبتها واذعتها في بعض ما كتبت واذعت .. وحين اضطرني اعداء الحق واهله الى الدفاع عنه وعنهم اخذت ابحث وانقب عن مصدر التشيع والبذرة الاولى لهذا المذهب ، فوجدتها في النص الصحيح عن رسول الله (ص) كما وجدها المنصفون من السنة انفسهم ومنهم الاستاذ ، محمد عبدالله عنان في كتابه تأريخ الجمعيات السرية حيث قال : من الخطأ ان يقال : ان الشيعة انما ظهروا لاول مرة عند انشقاق الخوارج ، بل كان بدء الشيعة وظهورهم

في عصر الرسول (ص) حين امره الله بانذار عشيرته في الآية ٢١٤ من الشعراء : « وانذر عشيرتك الاقربين » ، ولبى النبي فجمع عشيرته في بيته ، وقال لهم مشيرا الى ـ علي ـ هذا اخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له واطيعوا » .

بحثت ونقبت عن مصدر التشيع ، وقرأت نصوص الولاية بكاملها مرات وايضا قرأت اعتراضات السنة عليها وعلى الشيعة مرات ومرات ، وتتلخص هذه الاعتراضات بان بعض نصوص الولاية ضعيف السند ، وبعضها يدل على الولاية بمعنى السلطة وتولي الامر ، بل بمعنى المودة والنصرة ، وبعضها يدل على ان عليا يتولى الخلافة في المآل ، لا في الحال ، اي بعد خلافة ابي بكر وعمر وعثمان ، لا بعد وفاة النبي بلا فاصل .. قرأت هذا فعدلت عن فكرة السياسة و « فرق تسد » وآمنت بان السبب للاختلاف بين السنة والشيعة يرجع الى الاختلاف في فهم نصوص الولاية سندا ومتنا ، وكتبت ذلك واذعته ايضا في بعض ما كتبت واذعت .

وتشاء الاقدار ان اعود الى حديث الولاية ، وانا في ـ قم ـ او يعود هذا الحديث الي ، ويفرض نفسه علي ، فرحبت به ، لان حديث الولاية احسن الحديث بل افضل الاعمال ، وهذا من فضل ربي ، وبعد التتبع والتأمل تبين لي ان السبب الاول للاختلاف بين السنة والشيعة ابعد بكثير من السياسة ، ومن الاختلاف في النصوص سندا ومتنا .. كلا ، ان السبب الحقيقي يكمن في تصميم السنة وحرصهم على خلافة ابي بكر ، والدفاع عنها بكل سبيل حقا كانت ام باطلا .. واذن ، الاختلاف بين السنة والشيعة حول هذه النصوص جاء فرعا ، لا اصلا وتبعا ، لا اساسا .

اما السبب الموجب لحرص السنة على خلافة ابي بكر فهو ـ كما نرجح ان السنة او اكثرهم يؤمنون بالامر الواقع ، ويعترفون به ايا كان ، على عكس الشيعة الذين يدينون بالعقل والشرع ، وبهما يقيسون الحوادث

والوقائع ، ولو تولى علي الخلافة بعد الرسول مباشرة لكانت نصوص الولاية بكاملها عند السنة صدقا وعدلا ، متنا وسندا •• ونحن لا تتزيد في اقوال السنة ولا ننسب اليهم ما ليس لهم به من علم ، كما نسب الينا البعض منهم ما نسب كذبا وافتراء •• كلا ، لا نقابل الكذب بالكذب ، بل نلزم بالاقوال والافعال •• وفيما يلي نعرض طرفا من اقوال السنة التي تدل صراحة على انهم يدينون بمبدأ الاعتراف بالواقع مهما كان ويكون ، ثم نعرض بعض ما يدل من اقوالهم على ان خلافة ابي بكر اتت من طريق يرفضه الاسلام ، ويبرأ منه •

السنة ومبدا الاعتراف بالواقع :

قلنا : ان السنة تبنوا خلافة ابي بكر عملا بمبدأ الاعتراف بالواقع ، واليك الدليل :

١ ــ بايع نفر قليل ابا بكر بالخلافة ، وساعدته الظروف والاوضاع ، فتمت السلطة له دون غيره من الصحابة ، واصبح هو الآمر الناهي باسم خليفة رسول الله (ص) ، فاستدل السنة بخلافة ابي بكر : لا بآية ولا رواية ، ولا باجماع او عقل استدلوا او ابتدعوا اصلا عاما وهاما ؛ هو ان الخلافة الاسلامية الكبرى تنعقد شرعا ، وتصح عقلا وعرفا ببيعة نفر قليل من المسلمين ، وكان الاجدر ان يستدلوا على فساد خلافة ابي بكر وبطلانها ببيعة النفر القليل ، كما هو منطق الحق والعدل •

قال الماوردي في اول كتاب الاحكام السلطانية : « اقل ما تنعقد به الامامة خمسة انفار ، لان بيعة ابي بكر انعقدت بعمر ، وابي عبيدة واسيد بن خضير ، وبشر بن سعد ، وسالم مولى حذيفة •• ولان عمر جعل الشورى في ستة ليعقد البيعة لاحدهم برضا الخمسة هذا قول اكثر الفقهاء والمتكلمين من اهل البصرة وقال آخرون من علماء الكوفة تنعقد

بثلاثة يتولاها احدهم برضا الاثنين ، وقالت طائفة اخرى تنعقد البيعة بواحد » •

وجاء في كتاب المواقف وشرحها باب الامامة : «الواحد والاثنان من اهل الحل والعقد كاف في ثبوت الامامة ووجوب اتباع الامام على اهل الاسلام ، لان الصحابة اكتفوا في عقد الامامة بعقد عمر لابي بكر وعقد عبد الرحمن بن عوف لعثمان » •

أليس معنى هذا ان بيعة عمر لابي بكر هي حق وعدل وان خالفت كتاب الله وسنة نبيه •• لا لشيء الا لان ابا بكر صار خليفة بالفعل وان بيعة ابن عوف لا ريب فيها لان عثمان صار خليفة ؟

ومعنى هذا ايضا ان عمر ، او اي انسان لو بايع عليا وتمت له الخلافة ـ لكان اولى بها من جميع الصحابة بما فيهم ابو بكر ، ولكانت جميع النصوص على خلافته وولاية المعصومين من اولاده قطعية السند والدلالة •• حتى ولو بايع ابا بكر الانس والجان ، بل ونص على خلافته النبي والقرآن ما دامت الخلافة لم تتم له •• هذا مبدأ السنة او اكثرهم يقيسون الحق بما وقع ، ولا يقيسون ما وقع بالحق اما مبدأ الشيعة فالنص اولا وهو الضابط لما يقع ويحدث •

وقد تنبه بعض السنة لهذا الخطأ فبرره بما هو افحش ، ووضع هذا الحديث « من أطاع الامير فقد أطاعني ومن يعصي الامير فقد عصاني فان امر بتقوى الله وعدل فان له بذلك اجرا وان قال بغيره ـ اي غير العدل ـ فان عليه منه » اي وباله على نفسه لا على احد لانه من نفسه والنتيجة لذلك وجوب طاعته على كل حال •• جاء هذا الخبر في البخاري ج ١١ باب السمع والطاعة للامام •

٢ ـ وقعت الحرب بين علي ومعاوية وشاءت الاقدار او الظروف

ان يحكم معاويــة كما حكم الاول والثاني والثالث فتبنى السنة حكم ابن ابي سفيان واعترفوا به ودافعوا عنه لا لشيء الا لانه قد حكم بالفعل .. وكان قد تواتر عن النبي (ص) : ان عمارا تقتله الفئة الباغية يدعوهم الى الجنة ويدعونه الى النار ، تواتر هذا الحــديث حتى اصبح كآية قرآنية بخاصة بعدما دونه البخاري في صحيحه كتاب الصلاة باب التعاون في بناء المساجد ج ٤ ص ١٠٧ طبعة ١٣٥٢ هـ .

ومن هذا رفض السنة ، وأبوا ان ينعتوا معاوية وحكمه بالبغي كما نعته من لا ينطــق عن الهوى ، رفضــوا ذلك ، وهم على يقين من قول الرسول بأن عمارا يقتله الطاغية الباغيــة .. وعلى الرغــم من ذلك قال السنة : كلا ، ان معاوية ما طغى ولا بغى ، وانه معذور ، بل ومأجــور بقتل عمار وبسب علي على المنابر ، وحمل الناس على ذلك حتى يهــرم الكبير ويشيب الصغير لانه ــ اي معاوية ــ اجتهــد فأخطأ ، وللمجتهد المخطىء اجر .. ومهما شككت فاني لا اشك ابدا في ان معاوية لو فشل في حربه مع الامام ، ولم يستتب له الحكم لنعته السنة بالطاغية الباغيــة لنفس الحديث المتواتر : « يا عمار تقتلك الفئة الباغية » . ولكن معاوية صار حاكما بالفعل ، واذن يجب طرح النص وان تواتر .

وهذا هو بالذات حال النص على خلافــة الامام وولايته ، رفضه السنة ، لان الاوضاع الفاسدة الجائرة اسعفت ابا بكر ، وعاكست عليا ، ولو اسعفته الظروف ، وعاكست ابا بكر لكان النص صريحا وقاطعا بولاية علي وامامته .

أليس معنى هذا ان مقياس الحق عند السنة او اكثرهم هو ما وقع، لا النص من الله ورسول الله ؟

الاسلام وخلافة ابي بكر :

هل خلافة ابي بكر صحيحة، ام باطلة في مقاييس الاسلام واحكامه؟ وليس من شك اذا بطلت خلافة ابي بكر بطلت خلافة عمر وعثمان بطريق اولى ، لانها رشحة من خلافة الاول ، وبالتالي ينهار مذهب التسنن من الاساس ، او اعظم ركن من اركانه الذي من اجله اعرضوا عن نصوص الولاية ، وقسموا المسلمين بهذا الاعراض الى شيعة وسنة .

واذا تكلمنا نحن عن خلافة ابي بكر اتهمونـا بالتعصب والانحياز ، لذلك ندع الكلام عنها للسنة انفسهم ، قال الشيخ علي عبد الرازق ، وهو من علماء الازهر ، في كتاب « الاسلام واصول الحكم » ص ١٨٣ طبعة ثانية سنة ١٩٦٦ ، قال ما نصه بالحرف الواحد :

« اذا انت رأيت كيف تمت البيعة لابي بكر ، واستقام له الامر تبين لك انها كانت بيعة سياسية ملكية عليها طابع الدولة المحدثة ، وانها قامت كما تقوم الحكومات على اساس القوة والسيف » .. وقال في ص ١٩٤ : « لعل بعض من حاربهـم ابو بكر ، باسم الردة لم يرفضوا الزكـاة ، بل رفضوا الاذعان لحكومتـه ، كما رفض غيرهم من جلة القوم كعلي بن ابي طالب ، وسعد بن ابي عبـادة ــ الى ان قال ــ فقـد اعلن مالك بن نويرة في صراحة واضحة الى خالد بن الوليد ــ انه لا يزال على الاسلام، ولكنه لا يؤدي الزكاة الى ابي بكر » .

ومعنى هذا ان خلافـة ابي بكر لا اساس لها من الدين .. كيف ومصدرها القوة والسيف ؟. واي شيء اعظم جرما وظلما من التحكـم برقاب الناس قهرا عنهم ؟. ومن هنا اضطر جماعة من علماء السنة (١) الى

(١) منهم ابن خلدون في مقدمته ، والقاضي ابن جماعة الدمشقي فيمـا نقل عنه صاحب حضارة الاسلام « جرونيباوم » .

القول بأن الامامة تنعقد بالقـوة والغلبة .. وهذا شاهـد آخر على ان السنة يؤمنون بمبدأ الاعتراف بالامر الواقـع ، حتى ولو كان مصدره السيف ؟ ونعطف هذا الشاهد على ما قدمنا في الفقرة السابقة .

وقال عبد الكريم الخطيب (من السنة) في كتاب الخلافة والامامة ص ٢٧٢ طبعة ١٩٦٣ ، قال ما نصه بالحرف :

« لقد عرفنا ان الذين بايعوا ابا بكر لم يتجـاوزوا أهل المدينـة ، وربما كان بعض اهل مكة .. اما المسلمون جميعا في الجزيرة العربية كلها فلم يشاركوا في البيعة ، ولم يشهدوها ولم يروا رأيهم فيها ، وانما ورد عليهم الخبر بموت النبي مع الخبر باستخلاف ابي بكر . فهل هذه البيعة وهذا الاسلوب في اختيار الحاكم يعتبر معبرا عن ارادة الامة حقا ؟ وهل يرتفع هذا الاسلوب الى انظمة الاساليب الديمقراطية في اختيار الحكام ؟ لقد فتح هذا الاسلوب ابوابا للجدل فيه ، والخلاف عليه » . اي ان بيعة ابي بكر بالشكل الذي حدثت فيه اوجبت اختلاف المسلمين وتعدد فرقهم ومذاهبهم .

وقال في ص ٢٧٤ : « من اي نوع هو عقد بيعة الخليفة ؟ اهو عقد بيع ام عقد وكالة ؟ . ان عقد البيـع بعد ان تتم الصفقـة يصبح كل من المتبايعين بمعزل عن الآخر ، يتصرف فيما صار في يده مطلقا لا سلطـان للثاني عليه ، ولا شأن له معه ، فهل يصبح الذين بايعـوا الخليفة لا صلة لهم به بعد البيعة ، ويصبح الخليفة مالكا للخلافة لا حساب عليه لاحد ؟ هذا بالنسبة الى عقد البيع ، اما عقد الوكالة فأين هو ؟ ومـن هم الوكلاء والمسؤولون عنه ؟ اهم اهل الحل والعقد ؟ ومن هم اهل الحل والعقد ؟. وما هي صفتهم ومن الذي ألقى عليهم هذه المسؤولية ومنحهم اياها ؟ ».

ثم قـال في ص ٢٨٦ وما بعدهـا : « هل تمت البيعة لابي بكـر ...خاب العام .. ومن هنا نرى ان البيعة تنطوي على قصور في مجال

التعرف على الرأي العام كما تنطوي على غبن واضح لحق الافراد السياسيين الذي تقتضيه المساواة التي اقامها الاسلام مبدأ واضحا صريحا بين المسلمين جميعا » •

وهاجم احمد امين المصري الشيعة في كتاب فجر الاسلام وضحاه هجوما عنيفا ، وبعد مضي عشرين عاما او اكثر أ صيب بنظره فأملى كتابا اسماه يوم الاسلام ، وطبع سنة ١٩٥٨ قبل وفاته بقليل واعترف فيه بما كان قد انكره على الشيعة •

من ذلك قوله في ص ٤١ : « أراد رسول الله (ص) في مرضه الذي مات فيه ان يعين من يلي الامر بعده ، وقال : هل اكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده وكان في البيت رجال منهم عمر ، فقال عمر : ان رسول الله قد غلب عليه الوجع » [١] •

وقال احمد امين المصري في الكتاب المذكور في ص ٥٣ : « اختلف الصحابة على من يتولى الخلافة ، وكان هذا ضعف لياقة منهم ، اذ اختلفوا قبل ان يدفن الرسول » •

وقال في ص ٥٢ : « كان مجال الخلاف الاول في بيت النبي، والثاني في السقيفة ، واخيرا تم الامر لابي بكر على مضض » •

وقال في ص ٥٤ : « بايع عمر ابا بكر ، ثم بايعه الناس ، وكان في هذا مخالفة لركن الشورى ، ولذلك قال عمر : انها غلطة وقى الله المسلمين شرها ، وكذلك كانت غلطة بيعة ابي بكر لعمر » •

---

(١) في صحيح البخاري ج ٦ ص ٩ طبعة ١٣١٤ هـ : « ما شأنه ــ اي النبي ــ اهجر ؟ » ومثله في صحيح مسلم كتاب الوصية . ولكن البعض تصرف بكلمة هجر لانها تفيد الهذيان ، ومقام الرسول ، اعظم .

واذا لم تقم خلافة ابي بكر على الاجماع ، ولا على النص ، ولا على البيعة والوكالة ، ولا بالانتخاب الديمقراطي كما قال الاستاذ عبد الكريم الخطيب ، بل قامت على القوة والسيف كما قال الشيخ علي عبد الرازق ، وانها كانت غلطة كما قال عمر واحمد امين صاحب فجر الاسلام وضحاه، اذا كانت هذه خلافة ابي بكر في حقيقتها وواقعها فأين مكان الرشد فيها ، وفي خلافة عمر وعثمان ؟ وهل يزيد الفرع على الاصل ؟.

وبالتالي ، هل يبقى لمذهب التسنن من ركن يعتمد عليه ؟ لقد أنكر السنة النص على خلافة الامام .. لا لشيء الا حرصا على خلافة ابي بكر فاقتص الله ، جلت حكمته ، لعلي في الدنيا قبل الآخرة ، وسخر من السنة انفسهم من يهدم هذه الخلافة من اساسها ، ويثبت بالحس وينشر على الملأ والاجيال ان خلافة ابي بكر أتت من طريق لا يقره دين ولا عقل ، ولا عرف او قانون .

لماذا لم يحتج الامام بالنص ؟

وتسأل : اذا كان هناك نص جلي على امامة الامام علي(ع) فلماذا لم يحتج به علي من أبعده عن الخلافة ؟. ولو من باب القاء الحجة — على الاقل — .

الجواب :

ان العالم لا يجزم نفيا ولا اثباتا الا بدليل قاطع .. ولا وجود لهذا الدليل على ان الامام لم يحتج .. أجل ما سجل التاريخ ، ولا نقل الرواة ذلك عنه ، ولكن ليس كل ما قاله علي وفعله قد حفظه التاريخ ، ورواه الرواة بخاصة تاريخ العصر الاموي الذي كان فيه سب علي دينا تدين به الدولة واعوانها ، ومثله او أسوأ منه العصر العباسي .

ولو سلمنا ــ جدلا ــ بأن الامام سكت ولم يحتج فليس من الحق في شيء ان نفسر سكوت الامام بوجود النص او عدم وجوده الا في ضوء ما حدث وأحاط بالامام من الظروف والملابسات آنذاك .. ولا يكون سكوت الامام دليلا على عدم النص الا اذا وجد المقتضي ، وارتفعت جميع الموانع بحيث لو احتج الامام لبايعه عمر وابو بكر وسائر الصحابة، اما اذا كان الاحتجاج بالنص وعدمه سواء بل يتولد منه مفاسد ايضا فلا يدل السكوت ، ــ والحال هذه ــ على عدم وجود النص . واذا نظرنا الى تلك الظروف والاوضاع بعين الواقع والانصاف ــ وجدنا ان قريشا كانوا مصممين على معارضة الامام في الخلافة على كل حال ، وابعاده عنها بكل سلاح حقدا وحسدا .

وقد ظهرت بادرة العداء لعلي من قريش اول ما ظهرت حين أراد النبي (ص) ــ وهو على فراش الموت انيكتب لامته كتابا يعين فيه من يلي الامر بعده ، كما قال احمد امين المصري في كتاب يوم الاسلام ، فسنعته قريش ، وقالت كلمة يهتز لها العرش ، وهي « أ..هجر » .. ــ كما في الصحيحين : مسلم ــ والبخاري ــ وهذه الكلمة بذاتها قرينة قاطعة على ان عمر ما نطق بها الا لعلمه ويقينه بأن النبي (ص) أراد ان يسجل في الكتاب الخلافة من بعده لعلي .. والا فما هو الموجب لمنع الرسول عن الوصية ، ووصفه بالهجر ؟: وهل كان عمر يمنعه عنها ، ويقول عنه ما قال لوظن او احتمل ان النبي أراد ان يوصي بشيء غير الخلافة ، او اراد ان يوصي بالخلافة اليه ، او الى ابي بكر ؟. ولا أستبعد اطلاقا ان النبي (ص) لو أصر على الكتاب ، وسجل فيه الخلافة لعلي من بعده لاصر اقطاب قريش بدورهم على ان النبي كان يهجر ، واثبتوا ــ والعياذ بالله ــ هذيانه .. ولابطل السنة بعد ذلك كل وصية يوصى بها في مرض الموت .

ولولا هذا المحذور لاصر النبي على الكتاب ، وسجل فيه ما اراده..

وايضا لولا المحاذير التي سنذكرها بعد لحظة لاحتج الامام بالنص على خلافته ، فمن قال : لماذا لم يحتج علي بالنص ؟ قلنا في جوابه : ولماذا لم يصر النبي على الكتاب ويسجل فيه ما اراد ؟. والجواب الجواب .

هذه اول بادرة من قريش ظهرت في عدائهم لعلي بعد ان رأوا امارات الموت على رسول الله (ص) ، اما البادرة الثانية فقد ظهرت من قريش في عداء علي ، حين اسرعوا الى سقيفة بني ساعدة قبل ان يجرد النبي من ثيابه ، ويبرد جسده الشريف ، اسرعوا الى السقيفة ، واختلفوا على من يلي الامر ، وتجاهلوا عليا عن عمد ، وهم اعرف الناس بمكانه .. ولا سر الا الحقد والبغضاء ، والا التصميم والعزم على ابعاد علي عن كل ما يمت الى الخلافة بصلة .. اما الاعتذار بان عليا كان في شغل شاغل لتجهيز النبي (ص) فهو اوهن من بيت العنكبوت ، لان التجهيز مهما طال امده فلا يستغرق اكثر من بضع ساعات .

فالبادرة الاولى من عداء قريش لعلي كانت ، والنبي في ساعاته الاخيرة ، وجاءت الثانية قبل ان يوارى الجسد الشريف ، اما الثالثة من عداء قريش لعلي فقد جاءت بعد الدفن بقليل ، وهي اغتصاب فدك ، وافتراء حديث : « نحن معاشر الانبياء لا نورث » . فعلوا كل هذا ، واكثر من هذا ومع ذلك لم يرضوا من علي بالسكوت والحياد ، بل هجموا عليه ليكرهوه على الخضوع والاستسلام لابي بكر .. وكان من امر هذه الغارة على بيت فاطمة بضعة الرسول الاعظم (ص) ما كان .

واذا لم يتركوا فدكا لعلي ، ولم يقنعوا منه بالسكوت والحياد، فهل يتركون له الحكم والخلافة ، ويقولون له مد يدك حتى نبايع بمجرد ان يتفوه بالنص ؟. واذا منعوا النبي (ص) ان يكتب وصيته ، وهو في مرض الموت ، ونعتوه بالهجر كما في صحيح البخاري ومسلم ، فهل يسمعون لعلي ويطيعون اذا احتج عليهم بالنص او يضعون حديثا في نسخ ما يحتج

به الامام على غرار حديث : « نحن معاشر الانبياء لا نورث » الذي اتفق السنة على صحته ، لا لشيء الا لان راويه خليفة ، ولو روى حديث النسخ ابن الخطاب ــ مثلا ــ لاصبح وحيا منزلا تماما كحديث « نحن معاشر الانبياء » الذي ما رواه احد الا ابو بكر •• وقد وضع عمرو بن العاص بعد حين ارضاءاً لمعاوية حديث : « ان آل ابي طالب ليسوا باولياء » • ولكنه ترك واهمل ، لان راويه لم يتول الخلافة ، ولو تولاها لاعترف بها السنة وبالحديث المفترى عملا بمبدأ الاعتراف بالامر الواقع الذي تقدم الكلام عنه •

لا تستبعد شيئا من ذلك ــ ايها القارىء ــ فكله جائز ومعقول بالنسبة الى قريش •• الم يمكروا بالرسول الاعظم (ص) ويصمموا على قتله ، واوشك ان يتم كل شيء لولا ان يحول الله بينهم وبين ما ارادوا بخروج النبي من مكة ، ومبيت الامام على فراشه ؟• ومن الذي فعل بكربلاء ما فعل ، واقام مجزرة اهل بيت محمد ، قريش او غيرهم ؟• ولو ان عليا أصر على الامتناع عن بيعة ابي بكر لقتلوه وفعلوا به وباهل بيته ما فعلوا بالحسين ونسائه واطفاله •• واليك الدليل ، قال الامام (ع) في الخطبة ٢١٥ من خطب نهج البلاغة :

« اللهم اني استعديك على قريش ومن اعانهم ، فانهم قد قطعوا رحمي ، واكفأوا إنائي ، واجمعوا على منازعتي حقا كنت اولى به من غيري ، وقالوا ألا ، ان في الحق ان نأخذه [1] وفي الحق ان نمنعه ، فاصبر مغموما ، او مت متأسفا ، فنظرت فاذا ليس لي رافد ولا ذاب ولا مساعد الا اهل بيتي . فضننت بهم عن المنية • فاغضيت على القذى ، وجرعت ريقي على الشجى ، وصبرت من كظم الغيظ على امر من العلقم ، وآلم

(١) روي : ان تأخذه بالتاء، وروي ان نأخذه بالنون، وهو الاصح بقرينة السياق .

للقلب من حز الشفار » • فقول الامام (ع) : « فضننت بهم — أي بأهله — عن المنية » واضح الدلالة على انه لو اصر على المعارضة ، والتمسك بحقه لاصابه ما اصاب ولده الحسين (ع) وانه انما سكت حرصا على حياة اهله وعياله ، لا على نفسه ، لان عليا لا يبالي دخل الى الموت ، او خرج الموت اليه ، بل هو آنس بالموت من الطفل بثدي امه •

اما قوله (ع) : « فنظرت فاذا ليس لي رافد ولا ذاب ومساعد » فمعناه انه لو أعلن الحرب على خصومه ومعارضيه في حقه لما وجد معه معينا ، ولا مدافعا ، لان الناس منذ القديم ، وفي كل زمان ومكان — يقفون مع المحق الضعيف بقلوبهم فقط وميولهم ، اما سيوفهم فمع القوي محقا كان ام مبطلا •• وقد لخص الفرزدق هذه النظرية للحسين (ع) حين سأله عن اهل الكوفة ، لخصها بقوله : « قلوبهم معك ، وسيوفهم عليك »• وهل يستطيع قلب معافى من الآفات ان لا يكون مع علي والحسين •

والخلاصة : ان حقد قريش على الامام ، وحسدهم له ، واصرارهم على حربه مهما كانت النتائج اذا اصر على حقه هو الذي منعهُ من الاحتجاج بالنص ، كما ان خبث السرائر ، وسوء الضمائر هو الذي دعا الرسول الاعظم (ص) ان يكف ويمتنع عن الكتاب بعد ان حاول واراد — وهو في مرض الموت — ان يعين لامته من يلي الامر من بعده •

لماذا سكت القرآن عن اسم علي بالذات :

وتسأل : لماذا لم ينص القرآن على الامام باسمه الصريح الواضح؟•

الجواب :

ان الغرض الاول من النص هو بيان الحق ، وقيام الحجة على من خالفه وعانده ، وليس من شك ان هذا الغرض يتحقق بذكر الوصف وغيره

مـن القرائن ، كما يتحقق بذكر الموصوف صراحـة ، والفرق ان النص الصريح الواضح حجة على العالم والجاهل لاشتراكهما في تفهمه ومعرفته، اما النص بالوصف ، لا بالاسم فهو حجة على اهل العلم فقط ـ في الغالب ـ لانهم ادرى به وبمورده ، وهم حجة على الجاهل حيث يجب عليهم ان يبينوا المقصود من الوصف ، فان قصر العالم وقعت المسؤولية عليهوحده، كما هي الحال في اكثر النصوص القرآنية والنبويـة ، ومنها آيات الصلاة والزكاة ، فانها مجملة ، والتفصيل على اهل الذكر والعلم .

فكرة الامام المعصوم :

قال قائل من اهل السنة : ان فكرة الامام المعصوم سياسية بحت ، لا دينية ، وان مصدرها الاول هو خيال الشيعة ، فلقد تمنوا ان يتولـى علي الخلافة بعد الرسول (ص) ولما اخذها ابو بكر قالوا : ستكون لعلي من بعده ، فاخذها عمر ، فقال الشيعة : هي لعلي بعد عمر ، فاخذها عثمان .. وبعد ان ابعد علي عن الخلافة ثلاث مرات اتته في الرابعة ، وهي تلفظ النفس الاخير ، حيث وقف له معاوية وعائشة وطلحة والزبير ، ثم الخوارج .. حتى انتهت باستشهاده بعد امد قصير .

ولما استتب الامر لمعاوية اعدى اعداء العلويين قال الشيعة : سيمضي معاوية ، وتنتقل الخلافة الى الحسن (ع) ، ولكن الحسن استشهد قبـل ان يمضي معاوية ، ولما مضى انتقلت الخلافة الى ولده يزيد .. وكان من امر الحسين (ع) ما كان ، ثم الذي جرى على عموم اهل البيت في عهـد الامويين والعباسيين .. فاصطدم شعور الشيعة بالخيبة ، ولم يبق لهم اي امل ، فعوضوا عن هذا الواقع الاليم بفكرة الامام المعصوم ، ليبطلـوا خلافة الاولين والآخرين الذين ظلموا اهل البيت ، وابعدوهم عن مراتبهم التي رتبهم الله فيها ، ولو ان اهل البيت تمكنوا في الارض ، وتقلـدوا الخلافة لما كان لفكرة العصمة عين ولا اثر .

هكذا حاول بعض كتاب هذا العصر ان يشوه الحقيقة ، لا لشيء الا لينال من التشيع واهله •• وايا كان الدافع فجوابه فيما يلي :

١ ــ ان فكرة العصمة لا تختص بالشيعة ، بل هي عند السنة بصورة اشد واعنف ، بل هي عندهم فوق العقل وتصوراته •• فلقد رووا في بعض كتبهم : « ان رجلا مات بالمدينة ، فاراد النبي (ص) ان يصلي عليه، فنزل جبريل ، وقال :

« يا محمد لا تصل عليه ، فامتنع النبي ، فقال له ابو بكر : صل عليه فما علمت منه الا خيرا ، فنزل جبريل ثانية ، وقال : يا محمد صل عليه ، فان شهادة ابي بكر مقدمة على شهادتي» [1]• ومعنى هذا ان علم ابي بكر بالرجل الذي بالمدينة هو فوق علم الله تعالى : لان جبريل الامين لا ينطق الا بامر من علام الغيوب •

وقال صاحب المنار عند تفسير : « ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا ــ ٦٥ البقرة » : « ان الكرخي صرح قائلا بان الاصل قول ابي حنيفة ، فان وافقته نصوص الكتاب والسنة فذاك، والا وجب تأويل نصوص القرآن والسنة النبوية على وفق قول ابي حنيفة » • وهذا الكرخي امام من ائمة الاحناف ، والسنة يستسقون ويستشفون بقبره ببغداد •• وحين كتبت الفقه على المذاهب الخمسة رأيت كل أوجل علماء السنة على هذا المبدأ الكرخي ، فاي عالم منهم يقلد اماما من الائمة الاربعة يجتهد بكل وسعه في تأويل الكتاب والسنة على مذهب الامام الذي يقلده •

ابعد هذا يقال : ان فكرة العصمة مختصة بالشيعة وحدهم ؟• وهل

---

(١) كتاب نزهة المجالس ج٢ ص ١٨٤ ، وكتاب مصباح الظلام ج ٢ ص ٢٥ كما جاء في كتاب الغدير للاميني ج ٧ ص ٢٤٤ .

في عقيدة الاثني عشرية ما يشبه هذا من قريب ، ام بعيد ؟. ولقد جاء في كتبهم ان الائمة الاطهار من اهل بيت الرسول (ص) قالوا لشيعتهم : « لا تقبلوا علينا خلاف القرآن ، فان تحدثنا بموافقة القرآن ، وبموافقةالسنة، انا عن الله وعن رسوله نتحدث ، فاذا اتاكم من يحدثكم بخلاف ذلك فردوه ، ان لكلامنا حقيقة ، وان عليه لنورا ، وما لا نور عليه فذاك قول الشيطان » .

وما قال الشيعة بعصمة اهل البيت الا لانهم لا يقولون ولا يفعلون الا بوحي الكتاب والسنة .

وقال الشاطبي في الموافقات ج ٤ ص ٧٧ : « ان طائفة من السنة قالت ان قول ابي بكر وعمر حجة ودليل » . وليس من شك ان كل من استدل بقول انسان ، واتخذ منه حجة للحق فقد قال بعصمته : اراد ذلك، ام لم يرد .. هذا الى ان السنة اجمعوا قولا واحدا على عصمة الامة لحديث « لا تجتمع امتي على ضلالة » . واذن ، محمد (ص) هو المصدر الاول لفكرة العصمة وليس الشيعة .

وندع الكرخي وغيره من السلف الدابر ، وننظر الى عالم كبير من علماء السنة في هذا العصر وعميد لكلية اصول الدين في جامعة الازهر ، وهو الشيخ عبد الحليم محمود ، فقد الف كتابا ضخما ، اسماه التفكير الفلسفي في الاسلام ، قال في ص ١٧١ : « لو كان هناك ما يشبه ولو من بعيد رغبة الرسول في ان يتولى علي الامر من بعده لسارع ابو بكر وعمر الى بيعته » . اي ان عدم رغبة الشيخين في ان يتولى علي الخلافة دليل قاطع على ان رسول الله لم ينص بالخلافة على الامام .

أليس هذا هو معنى العصمة بالذات ؟. ولا ادري كيف يسوغ لهذا الشيخ ان يستدل بامتناع الشيخين عن بيعة علي ، ان يستدل على عدم

رغبة الرسول في خلافة علي ، ولا يسوغ لغيرهم ان يستدل بمعارضة علي لابي بكر وعمر على عدم رغبة الرسول في خلافتهما ؟.. اما حرص الشيخين على رغبة رسول الله (ص) فقد ظهرت بأجلى معانيها حين قال عمر عن خاتم النبيين : « ما شأنه أهجر ؟ » كما في صحيح البخاري ومسلم ، ومع هذا فان السنة يعتقدون بعصمة عمر ، بل ويقدمون قوله على قول رسول الله ويحرمون متعة النساء والحج ، وقول ـ حي على خير العمل ـ في الاذان لان عمر قال : « ثلاث كن على عهد رسول الله ، انا انهى عنهن واحرمهن ، واعاقب عليهن : متعة النساء ، ومتعة الحج ، وحي على خير العمل » .. (انظر شرح التجريد للقوشجي من علماء السنة ، آخر مبحث الامامة) .

وبعد ، فان الشيعة الاثني عشرية يعتمدون لعقيدتهم على بديهة العقل ، وعلى كتاب الله وسنة نبيه القطعية سندا ودلالة . انظر فصل اصول العقائد ما يجب بلا شرط ، ويجب بشرط من هذا الكتاب) . وقد استدل الشيعة على اصل فكرة العصمة بقوله تعالى : « لا ينال عهدي الظالمين ـ ١٢٤ البقرة » . وعلى عصمة أئمتهم بآية التطهير ٣٣ الاحزاب، وبحديث الثقلين الذي جعل اهل البيت وكتاب الله توأمين متساويين في هداية الخلق الى الحق . وبحديث ـ علي مع الحق ، والحق مع علي ، وحديث علي مع القرآن ، ـ والقرآن مع علي ـ والحديث الاول ثابت بالتواتر عند السنة قبل الشيعة ، وقد تتبع طرقه واحصاها في رسالةخاصة الشيخ قوام الدين القمي الوشنوي ، واسماها حديث الثقلين ، والحديث الثاني رواه الترمذي ج٢ ص ٢٩٨ طبعة ١٢٩٢ هـ ، وروى الحديثالثالث ابن حجر في صواعقه ص ٧٥ ، وصاحب مستدرك الصحيحين ج ٣ ص ١٢٤ طبعة ١٣٢٤ وغيره (انظر كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة).

علي والعصمة :

على ان عصمة الأمام علي بن ابي طالب لا تحتاج الى النص ، لانها ـ

ثابتة بالحس والوجدان من سيرته ، وتاريخ حياته ، ولذا آمن بها كثير من اهل الاديان والمذاهب ـ غير الاسلامية ـ من حيث لا يريدون ولا يشعرون بل آمن بها كذلك العديد من الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ... وكل من درس حياة علي يؤمن ايمانا جازما قاطعا بانه يختلف عن الناس في عقله وعاطفته وجميع صفاته .. ابدا لا يشبههم في شيء ولا يشبهونه في شيء الا في الشكل ... واذا لم يكن علي من هذا البشرفليس من الضروري ان يكون إله او نصف إله ، بل هو طبيعة ثالثة فوق الخلق، ودون الخالق ، او ان الله سبحانه خصه ومحمدا بما لم يخص به احدا من خلقه .

ومن شك في شيء من هذا فليقرأ سيرة عليع ، او يقرأ بعض ما كتبه من علي علماء الغرب والشرق ـ من غير الشيعة ـ .. واذكر هنا كلمة واحدة مما نشره الاستاذ احمد عباس صالح في مجلة الكاتب المصرية عدد نيسان سنة ١٩٦٥ بعنوان « الصراع بين اليمين واليسار في الاسلام » . والاستاذ صالح من كبار الادباء في هذا العصر ، ورئيس تحرير المجلة المذكورة ، قال :

« لو لم يسر على سيرته المثالية أكانت تبقى تلك الجذوة ـ يريد جذوة الحق كما يدل السياق ـ مشتعلة وكامنة في النفوس » . أي ان عليا بسيرته المثلى اشعل في نفوس عارفيه وقارئي سيرته جذوة الحق .

ثم قال : « قاد معاوية جيش الشام ، وهو الرجل الذي يمثل النقيض من علي بن ابي طالب تماما ، هو شخصية فريدة ، جمعت كل خصائص الرجل الذي لا تشل حركته اية قيمة من القيم الدينية والانسانية .. انه ابن ابي سفيان الشهير ، وابن تلك المرأة التي مضغت كبد حمزة عم النبي حين سقط قتيلا .. ان في نفس معاوية ارادة الانتصار والغلب ... ان فيه قسوة الاعصار ، وعبقرية القدر الغاشم .. انه قطب السلب المطلق الذي

يصطرع في قلب الانسان كما يصطرع في قلب الكون ، والسلب في الكون يتجه الى الشر ، والايجاب ينجه الى الخير ، وقد تصادم القطبان : السالب — اي معاوية — والموجب — اي علي — بقدر ما تتيح الامكانية البشرية ان تكون سلبا مطلقا ، او ايجابا مطلقا » اي ان عليا فيه جميع امكانيات الخير والحق التي يمكن ان توجد في الطبيعة البشرية ، كما ان معاوية فيه جميع امكانيات الشر والباطل التي يمكن ان توجد في الطبيعةالبشرية، وقد تصادما ، وكل على صفته ..

ثم قال الاستاذ صالح : « لقد تربى معاوية في حجر ابي سفيان رأس القوى الرجعية في مكة ، وتربى علي في حجر النبي بكل ما تحمله النبوة من فداء وتضحية وايجابية للخير المطلق » .

اثبت الاستاذ صالح للامام صفات الانبياء والخير المطلق ، ولا عدائه صفات اللؤماء والشر المطلق ، وهل للعصمة من معنى وراء ذلك ؟ ولكن لو سألنا الاستاذ صالح عن عصمة اهل البيت الاطهار لانكرها وتشدد في انكاره .. وهكذا كل من قرأ سيرة الائمة الابرار بقلب سليم يؤمن بعصمتهم في جنانه تماما كما يؤمن الشيعة وزيادة ايضا ، ولكنه ينكرها بلسانه من حيث لا يحس ولا يشعر .

المهدي المنتظر عند الشيعة والسنة :

وقد يظن ان فكرة المهدي المنتظر من خصائص الشيعة . وانها مقصورة عليهم وحدهم ... وهذا خطأ فقد شاعت هذه الفكرة قبل الاسلام في اليهودية ، وشاعت ايضا في النصرانية ، وغيرها من الاديان ، واطلق على المهدي المنتظر لقب المنقذ والمحرر والمسيح والمخلص — بتشديد اللام وكسرها — اما الاحاديث التي رواها السنة عن النبي في المهدي المنتظر فقد شغلت حيزا كبيرا من كتبهم ، ومنها الصحاح

كالترمذي ٠ وابن ماجة ، وابي داود ، ومنها مسند احمد ، ومستدرك الصحيحين ، وكنز العمال ، وغير ذلك ، اما الكتب التي وضعها السنة في اخبار المهدي بالخصوص فكثيرة ، ولعلها لا تقل عن كتب الشيعة في هذا الموضوع كما وكيفا ٠

اذن فكرة المهدي المنتظر ليست شيعية فقط ، ولا سنية فقط ، بل هي اسلامية يدين بها كل مسلم ، بل يدين بها اليهود الذين ما زالوا في انتظار المسيح ، وايضا يعتقد كثير من النصارى برجعة المسيح ثانية الى الارض ، وبعد ان اتفق الشيعة والسنة او اكثرهم على ظهور المهدي المنتظر وعلى اسمه ونسبه ، وكنيته ولقبه ، وانه يملأ الارض قسطا وعدلا ، بعد هذا اختلفوا فيما بينهم : هل ولد ، او سوف يولد ؟ قال الشيعة : انه ولد ، وانه موجود ، ولكنه مستور ، وقال السنة او اكثرهم : كلا ، انه يولد في آخر الزمان ... وما هذا بالامر المهم ، ما دام الاختلاف في التقديم والتأخير لا في اصل الفكرة واصولها ٠

لماذا الامام الغايب ؟ :

اعترض السنة ، ومنهم الرازي والايجي والمتعصب ابن تيمية ، اعترضوا على الشيعة ، وقالوا : ما الفائدة من امام غائب ، لا يرى له اثر ولا خبر ؟٠

واجاب العلامة الحلي في كتاب الالفين بان القصور جاء من الامة ، لا من الله ، ولا من الامام المستور ، وحفظ هذا الجواب كل من جاء بعد الحلي، وكرره في حلقات الدرس وغيرها ، كآية محكمة ، او رواية مسلمة دون ان يفكروا فيما يمكن ان يقال عن هذا الجواب ، ويرد عليه ٠

واجاب المحقق الطوسي في التجريد بان مجرد وجود المعصوم لطف سواء أتصرف ام لم يتصرف ، وتبنى هذا الجواب الملا صدرا ، ولكن

اورده بأسلوبه الخاص في كلام طويل ، ذكره في شرحه لاصول الكافي كتاب الحجة ، ونحن بدورنا نلخص ونوضح ما فهمناه من كلامه باسلوبنا الخاص بلا ادنى تصرف في المعنى ، وهو ان المعصوم حجة ، ما في ذلك ريب ، ولكن للحجة وصفان : **الوصف الاول** :

ذاتي أي ثابت للذات بصرف النظر عن تبليغ الاحكام وبيانها للغير ، والزامه بها ، **والوصف الثاني** عرضي واضافي ، وهو تبليغ الاحكام للغير، والقاء الحجة عليه ، وبديهة ان نفي العرض لا يستدعي نفي الذات ، بل العكس هو الصحيح ، واحسن مثال نوضح به مراد هذا الفيلسوف هو ان الحجة كالماء المطلق ، طاهر بنفسه ، ومطهر لغيره ، وطهارته الذاتية باقية على ما هي ، وان انتفت طهارته العرضية أي لم يتطهر به المتنجسون .. وهكذا اذا لم تبلغ الاحكام للغير ، فانها تبقى قائمة بنفسها ، بل هي باقية ببقاء الله ، وبهذا نجد تفسير قول الامام الصادق (ع) « الحجة قبل الخلق ومع الخلق وبعد الخلق » ـ (١) .

هذا توضيح لما فهمناه من كلام صدرا « المطلسم » والذي ختمه بقوله : « فافهم ، ولا اراك تفهم ، لانك لست من الطيارين ولا السيارين » اجل ، يا استاذنا ولا من الغواصين في بحار التكوين .

وبعضهم اجاب بما رواه مسلم في آخر باب الامارة عن رسول الله (ص) انه قال : « من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » .

بتقريب ان لكل زمان اماما تجب معرفته ، وقال القزويني في كتاب الامامة الكبرى جاء في هذا الحديث ج٢ ص ٩٦ من مسند احمد بلفظ :

---

(١) قد يكون المراد بالحجة في هذه الرواية ـ حكم الله سبحانه في كل واقعة من حيث هي ، يصيبها من اصاب ، ويخطئها من اخطأ كما يقول الشيعة .

« من مات بغير امام مات ميتة جاهلية » ومثله في حليــة الأولياء ج٣ ص ٢٢٤ ، وكنز العمال ، كتاب أحكام البيعة ، ومستدرك الحاكم .

هذا ملخص سريع لما اطلعنا عليه من الاجوبة ، وسواء أكــانت في واقعهــا ردا وتفنيدا لاعتراضات السنة ، ام كانت بسطا وشرحا لعقيــدة الشيعة بلا رد وتفنيد ــ فاننا نعطف عليها ما يلي :

ان الاصول الاولى للدين كالايمان بالتوحيد ونحوه ــ ينظر اليها من خلال العقل ، ما في ذلك ريب ، اما الايمان ببعض التفاصيل والغيبيات المتفرعة عن الايمان بالله وكتبه ورسله ، كالايمان بوجود الجن والملائكــة فلا ينظر اليه من خلال العقل ، او العرف والتقاليد ، وانما ينظر اليه مــن خلال كتاب الله ، وسنة نبيه ، قال تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيــه هدى للمتقين الذين يؤمنــون بالغيب ويقيمــون الصلوة » اول البقرة فالايمان بالغيب هو الوصف الاول للمتقين وتأتي بعده اقامة الصلاة مــع العلم بانها عمود الدين .. والغيب هو الذي لا يمكن التوصل الى معرفته الا بالوحي من السماء من كتاب الله وسنة الرسول : « وعنده مفاتــح الغيب لا يعلمها الا هو ــ ٥٩ الانعام » والايمان بوجود المهدي المنتظر ايمان بالغيب ، وكــل ايمان بالغيب يقاس بالوحي وحده ، فان كــان له مصدر منه فهو حق وهدى ، سواء أكان له اثر كالايمان باليوم الآخر ، أم لم يكن كالايمان بوجود سفينة نوح ، وناقة صالح ، واذا لم يكن لــه مصدر في كتاب الله وسنة نبيه فهو جهل وضلالة ، وقد ثبت عند الشيعة النص عن المعصوم ان المهدي حي يرزق ، فوجب ان يؤمنوا ويتعبدوا بهذا النص حتى ولو لم يثبت عند غيرهم ، والا كانوا من الذين عنــاهم الله بقوله : « يقولون بافواههم ما ليس في قلوبهــم » لان الشرط الاساسي لوجوب العمل بالنص هو أن يثبت عند الباحث عنه ، والمطلع عليه ، لا عند غيره ، وليس من شك انه لو ثبت النص عند السنة على وجود المهدي الآن

وقبله وبعده لقالوا بمقالة الشيعة ، وان لم يكن للغائب اي اثر وخبر ، وايضا لو لم يثبت النص عند الشيعة لقالوا بمقالة السنة .

والاختلاف في ثبوت النص وعدمه كثير بين المسلمين ، ومنه ما جاء في صحيحي مسلم والبخاري كتاب العيدين — من ان ابا بكر دخل على رسول الله في بيت عائشة ، فوجد جاريتين تغنيان في محضر النبي، فغضب ابو بكر ، وقال : مزمارة الشيطان عند رسول الله (ص) ؟. فقال النبي : دعهما . فصدق السنة وآمنوا بان النبي كان يستمع لمزمارة الشيطان على حد تعبير ابي بكر ، آمنوا ثقة بالبخاري ومسلم ، وانكر الشيعة ذلك ، لانهم لا يثقون بالبخاري ومسلم لا ، لانهما من السنة فان الشيعة لا ينظرون الى مذهب الراوي ، بل الى صدقه في النقل ، وروايته عن الصادقين ، وقد ثبت عند الشيعة ، وعند جماعة من السنة ايضا انالبخاري ومسلم يرويان الصحيح والضعيف : هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ان الشيعة ينزهون مقام النبوة عن الشيطان ومزماره .. ولكل رأيه ووجهته.

واذن ، فالمهم هو ثبوت النص عند من اطلع عليه بصرف النظر عن حقيقة الثابت بالنص وآثاره .. وعليه يكون اعتراض السنة على الشيعة بعدم الخبر والاثر للامام — في غير محله ، والا جاز للشيعة ان يعترضوا على السنة لانهم آمنوا بان الرسول استمع لمزمارة الشيطان .

وتسال : ان هذا يصلح جوابا لاعتراض السنة وانتقادهم ، ما في ذلك ريب . بل يصلح ردا لكل شبهة تقال حول الايمان بالمغيبات ، ولكن نود ان نعرف ما للايمان بالامام من فوائد . فهل لك ان تبين شيئا من ذلك .

الجواب :

ان الامة او الطائفة والجماعة لها مقومات تحقق وحدتها ، وتجمع

شتاتها ، وتربط افرادها بعضهم ببعض ، ويستحيل ان توجد الوحدة بين اثنين فضلا عن الامة او الطائفة الا بجامع ورابط بينهما ، والجامع الاول بين المسلمين_ على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم _ شهادة ان لا إله الا الله وان محمدا رسول الله ، اما المسلمون السنة فتجمعهم هذه الشهادة مع الايمان بان النبي (ص) انتقل الى ربه دون ان يوصي ، ويستخلف احدا ، اما الجامع بين المسلمين الشيعة فهو شهادة ان لا إله الا الله وان محمدا رسول الله مع الايمان والاقرار بالولاية للائمة الاطهار من اهل بيت الرسول ، وانه قد نص مباشرة على من كان منهم في عهده ، وبالواسطة على من جاء من بعده _ كما اسلفنا _ واكد الشيعة على هذه الولاية توكيدهم على التوحيد والنبوة ، واوجبوا البحث والنظر لمعرفة الامام المعصوم تماما كما اوجبوه لمعرفة الله ونبوة محمد (ص) ، وقد استدلوا على ذلك بنصوص كثيرة ، منها « لا يكون العبد مؤمنا حتى يعرف الله ورسوله ، والائمة كلهم ، وامام زمانه » .

والمراد بامام الزمان المعصوم الغائب من اهل البيت ، اما الحكمة من وجوده _ كما نرجح _ فهي ان هذا الايمان هو الضامن والكفيل لعقيدة الولاية واستمرارها مدى الحياة ، لان الاعتقاد بوجود امام من آل الرسول في جميع الازمنة ، وان الارض لو خليت منه لساخت باهلها _ يشد عزم الموالي ، ويدفعه الى الحرص عليها ، والاستماتة في سبيلها .. ومنذ ايام قرأت لبعض حاملي شهادة الدكتوراه في الفلسفة _ كلمة تقول : « كيف استطاعت عقيدة التشيع ان تعيش في قلوب قوم الى اليوم بالرغم مما احاط بهم من اضطهاد فكري وسياسي ، بينما اندثرت فرق جديرة آراؤها بكل اعجاب وتقدير ، واعني بهم المعتزلة » .

وقد غاب عن هذا المتعجب ان السبب لبقاء عقيدة التشيع وخلودها هو الايمان بولاية المعصومين من اهل البيت الاطهار : واحياء ذكرهم

وآثارهم وسننهم ، والايمان بان الارض لا تخلو من واحد منهم منزه عن الخطأ والخطيئة .. ولو ان المعتزلة دانوا وآمنوا بهذا الولاء لآل محمد (ص) لبقوا وبقيت آراؤهم الى يوم يبعثون تماما كالشيعة والتشيع ، ولكنهم رفضوا ذلك ، فاندثروا واندثرت آراؤهم مع انها جديرة بكل اعجاب وتقدير على حد تعبير الدكتور المذكور ، وكما سقط المعتزلة سقط الى الابد كثير غيرهم كالنواصب ومن اليهم من اهل المذاهب .

هذا ، الى ان الايمان بوجود الرئيس ــ مستورا كان ام مشهورا ــ يخلق في نفوس اتباعه قوة معنوية تجعل منهم اسرة واحدة ، وقلبا واحدا على اختلاف لغاتهم وتعدد اوطانهم ، ولهذه الغاية حافظ المسلمون من قبل على منصب الخلافة بعد ان اضمحلت الدولة العباسية ، واضطر البويهيون وغيرهم من الحكام ان يبقوا لقب الخليفة لواحد من العباسيين ، يخطبون باسمه في المساجد وعلى المنابر ، ويقدمونه في الاحتفالات الدينية وغيرها وما كان له اي اثر ولا خبر الا الحرص على وحدة المسلمين والاخوة الاسلامية .. وقد ضج كثير من المسلمين عند سقوط الدولة العثمانية ، وقامت قيامتهم خوفا على منصب الخلافة من الضياع والزوال ، ورثاها شوقي باكثر من قصيدة ، وقال فيما قال :

قل للخلافة قول باك شمسها　　　بالامس لما آذنت بدلوك

وقال من قصيدة ثانية :

الهند والهة ومصر حزينة　　　تبكي عليك بمدمع سحاح
والشام تسأل والعراق وفارس　　　أمحا من الارض الخلافة ماح

وكلنا يعلم من هم الخلفاء العباسيون والاتراك العثمانيون ؟... ولكن الرثاء والبكاء كان على منصب الخلافة ، لانه اللواء الذي ينضوي

تحته كل من نطق بالشهادتين ، وهذي هي بالذات الحكمة من الايمان بالامام المنزه عن الخطأ والخطيئة وان كان مستورا ، وهي حكمة بالغة تجمع قلوب الموالين لآل البيت على الاحساس المتحد .. وقد ادرك هذه الحكمة الانكليز ، وهم من ارقى الامم ، فحافظوا على التاج البريطاني ، ووضعوا رسمه على العلم والسلع ايضا للدلالة على انهم اسرة واحدة لاب واحد وهو حامل التاج مع انه اسم لغير معنى ، وحاكم بلا امر ونهي .. ولا يصل اليه احد من رعيته واهل مملكته الا القليل النادر .. وهكذا ميكاد اليابان الذي ينظر اليه اليابانيون كاله او نصف إله .. فهل الانكليز واهل اليابان عقلاء والشيعة مجانين ؟ .

حياة المهدي المنتظر :

وتسال : يقول الشيعة : ان المهدي محمد بن الحسن (ع) حي يرزق ، وان حياته سوف تمتد الى آخر الزمان .. وليس من شك ان هذا جائز وممكن في نظر العقل ، ولكن العبرة بالوقوع ، لا بالامكان ؟.

واجاب عن هذا بعض من سلف ، وليته لم يجب .. قال : وأي اشكال في ذلك ؟. فالخضر حي ، والشيطان حي !.. ولو سمع او قرأ احد المتشككين هذا الجواب لصار شكه يقينا ، وتحمل المسؤولية نفس المجيب اذا لم يكن من الغافلين الذاهلين .. ولا ادري كيف تجرأ على التمثيل او الاستشهاد بالشيطان !. وكان الاولى ان ينزه عنه مقام العصمة والامامة ؟.

والحق ان الجواب عن هذا السؤال لا نجده عند العقل من حيث الوقوع الذي اراده السائل ، وان حكم العقل بالامكان ، ولكنه غير مراد للسائل ... ونجد الجواب جليا واضحا عند الدين ، ويستسيغه ويؤمن به كل من آمن بالله وكتابه وسنة نبيه ، على شريطة ان يثبت عنده

النص الصحيح الصريح على ذلك ، وقد ثبت هذا النص عند الشيعة دون السنة او اكثرهم ، فآمن به اولئك ، وانكره هؤلاء وما اكثر ما حدث ذلك .. ولكل رأيه وعذره ، وما لاحد منهما ان يعترض على الآخر ، لان الشرط الاساسي للعمل بالنص هو ان يثبت عند من يطلع عليه ، لا عند غيره ، كما اسلفنا في جواب من قال : أية جدوى من الايمان بامام غائب ، لا اثر له ولا خبر .

ومما قلناه في كتاب المهدي المنتظر والعقل : ان كثيرا من الناس يخلطون بين الممتنع عادة ، والممتنع عقلا ، ويتعذر عليهم التمييز بينهما ، فيظنون ان كل ما هو ممتنع عادة فهو ممتنع عقلا .. فلقد اخبر القرآن بصراحة لا تقبل التأويل ان السيد المسيح كلم الناس ، وهو في المهد ، وأبرأ الاكمه والابرص من غير علاج ، وانزل مائدة من السماء بمجرد الدعاء ، وانه ما زال حيا ، وسيبقى حيا الى الوف السنين او الوف الالوف .

وان النار كانت بردا وسلاما على ابراهيم ، وان عصا موسى صارت ثعبانا ، وان الحديد لان لداوود ، وسبح معه الطير والجبال، وان سليمان استخدم الجان ، وعرف لغة النمل والطيور .

وهذه الخوارق ممتنعة عادة ، جائزة عقلا ، ولو كانت ممتنعة في نفسها لامتنع وقوعها على يد الانبياء وغيرهم .

ولانها جائزة في العقل ، واخبر عنها الشرع وجب التصديق، فكذلك بقاء المهدي جائز عقلا واقع دينا بشهادة الاحاديث الثابتة عن رسول الله واهل بيته المعصومين ، والايمان بوجوده حيا ليس باعظم من الايمان بتلك الخوارق ، بل الجميع من باب واحد .

اشارة

ونختم الفصل بهذه الاشارة ، وهي ان فكرة العصمة والـ ١٢ اماما من قريش ، والمهدي المنتظر والمتعة كلها اسلامية ، لا مذهبية سنية ، ولا شيعية ، لاتفــاق المسلمين عليها جميعــا وانما الاختـــلاف في الصغرى والتطبيق ، فالسنة ينسبون العصمة للامة ، وبعضهم ينسبهــا للشيخين ايضا ابي بكر وعمر كما اسلفنا ، والشيعة يثبتونها للائمــة الاطهار من آل محمد (ص) ، والسنة يعــدون الـ ١٢ امامــا من غير اهل البيت ، والشيعــة يوجبون الحصر بهم ، والسنة يقولون : المتعــة شرعت ، ثم نسخت ، والشيعــة يقولون : لم يثبت النسخ . ولو ثبت عندهم لقالوا بمقالة السنة ، ولو لم يثبت عند السنة لقــالوا بمقالة الشيعة ، والسنة قالوا : لم يولد المهــدي بعد ، وقال الشيعــة ولد . وهكذا في كثير من المسائل .



فلسفة المعاد

التعجب من المعاد هو العجب

انا واليوم الآخر :

ما شغفت بشيء شغفي بالقـراءة عن حديث الحيـاة بعد الموت ، والاستماع اليه ، والى حل اسرار البعث والغازه واي انسان لا يتجه بكل حواسه ، ويقبل بكيانه على الحديث عنه وعن مستقبله ، وبالخصوص اذا كان عن احيائه بعد الفناء ، وخلقه خلقا جديدا .. وايضا ما تخوفت مـن شيء تخوفي من القبر ووحشته ، ثم موقفي للعرض والحساب بين يـدي عالم الغيب والشهادة .. اما جهنم فنعوذ بالله من لهبها وكلبها .

وكل الناس من ملوك وصعاليك ينتهون ـ لا محالة ـ الى قبر ، طوله خمسة اشبار او ستة في عرض شبرين ونصف او ثلاثة .. ولـكن هل هذا اللحد هو غاية حياة الانسان ، ونهاية عقله العجيب الغريب الذي يملك ما يملك من الطاقات ، ويفعل ما فعل وسوف يفعل من المعجزات ؟. هل هذا اللحد هو جزاء الحق والعدل للصالح والطالـح على السواء ؟. وهل معنى الديمقراطية المساواة بين القاتل والمقتول ظلما وعدوانا ، وبين العالم والجاهل ؟. واذا كان الامر كذلك فاي فرق بين الانسان والهـوام والديدان ؟.

وخير للانسان الف مرة ان يعيش بلا عقل ، ويمتلىء دماغه بالقذارة من ان يكون له عقل نير يرتفع به الى القمر والمريخ ، ثم ينتهي كما تنتهي الحشرات والحيوانات .

واعجب من العجب ان يقول الانسان : انا ابن جلا ، ويرى نفسه من الذوات والشخصيات ، ويطلب من الغير ان يحترمه ويعظمه ، وان يجزى بالاحسان احسانا ، وبالسيئات عفوا وغفرانا ، وهو في نفس الوقت يعتقد انه تماما كالنبات والحشرات ، وانه سيختفي الى الابد !.. واذن ، لماذا تكريم الاموات ، والحفاوة بجنائزهم ورفاتهم ؟. ولماذا اقامة الحفلات لتخليد الذكر ، واحياء الآثار ؟.

لقد آمنت باليوم الآخر اول ما آمنت تقليدا وتلقينا ، وشب هـذا الايمان عن الطوق في مدرسة النجف الاشرف ، وبلغ اشده بعد أن امتهنت التأليف ، واذعت ما عرفت عن هذا اليوم في كتاب « الآخرة والعقل » وفي العديد من كتبي ، كـالاسلام مع الحياة ، ومعالـم الفلسفة الاسلامية ، وفلسفة المبدأ والمعاد ، ثم عدت الى هـذا الموضوع مرات ومرات فـي التفسير الكاشف لمناسبة آيات الساعة والحساب والجزاء .. والآن اعود اليه في هذا الكتاب ، ولا وقفات ولفتات جديدة لدي كي اعطفها على ما اسلفت سوى تساؤلات تؤكد وتوضح الفكرة ودليلـها ـ كما رأيت ـ ولذا ساوجز الكلام ما استطعت .

وحديث المعاد يمكن تلخيصه بهاتين الكلمتين : « قال مـن يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي انشأها اول مرة وهو بكل خلق عليم ٧٨ يس » .

ويمكن ان يؤلف فيه مجلد ضخم .. ونتيجة الاطناب والايجـاز واحدة ، وهي ان المعاد ممكن عقـلا ، وثابت شرعـا ، فيجب الايمـان والتصديق .

لماذا انكروا البعث ؟

قد يقال : ان البعث والحياة بعد الموت من اصعب الحقائق فهمـا ،

واكثرها غموضا ، وابعدها عن التصور والشعور ، لان ما من احد رأى ميتا عاد الى الحياة بعد أن فارقها انسانا كان ام حيوانا ام نباتا •• واذن، فأي عجب في قول من قال : « أئذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقا جديدا ــ ٤٩ الاسراء » أي عجب في هذا كي يعجب منه سبحانه ، ويقول: « وان تعجب فعجب قولهم أئذامتنا وكنا ترابا أإنا لفي خلق جديد ــ ٥ الرعد » •

الجواب :

لقد اراد سبحانه بهذه الآية ان البعث في ذاته سهل يسير على الافهام، وان الغموض والتعقيد جاء من غفلة الجاحدين ، وسبات عقولهم عن الكون وانفسهم ، وانهم لو اتتبهوا وفكروا قليلا لقاسوا الآخرة على الدنيا ، وادركوا من النظرة الاولى ان الذي قدر على خلق الاشياء من لا شيء فهو على جمع اجزائها بعد التفرق والشتات اقدر ، وعليه ايسر ، كما قال، جل شأنه : « وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو اهون عليه ــ ٢٧ الروم » • وقد تكرر هذا المعنى بشتى الاساليب في العديد من الآيات ، واوجزه الامام (ع) بقوله : « عجبت لمن انكر النشأة الاخرى ، وهو يرى النشأة الاولى » !•• وعليه يكون العجب من البعث هو العجب !•• «ومن اصدق من الله قيلا ــ ١٢٢ النساء » •

ولكن المصابين بداء القيل والقال قد ابوا الا ان يشككوا ويضللوا قال الشيخ الانصاري في كتابه المعروف بالرسائل ، آخر باب الظن : « الانصاف ان النظر والاستدلال بالبراهين العقلية ــ فيما يعود الى اصول العقائد ــ للشخص المتفطن لا يفيد بنفسه الجزم ، لكثرة الشبهات في النفس ، والمدونة في الكتب ، حتى انهم ذكروا شبهات يصعب ان يجيب عنها المحققوف الصارفون اعمارهم في فن الكلام ، فكيف بغيرهم ••• والشيطان يغتنم الفرصة لالقاء الشبهات ، والتشكيك في البديهيات،

وقد شاهدنا جماعة صرفوا اعمارهم فيها ، ولم يحصلوا منها الا القليل ».

واوضح دليل على صدق هذا الاستاذ الكبير انك كلما اكثرت من قراءة كلام الفلاسفة ، وتوغلت فيها ازددت حيرة وارتباكا .

وبعد ، فان من تتبع اقوال الجاحدين لا يجد عندهم شيئا من المنطق الا مجرد الزعم بان البعث بعد الموت مستحيل الوقوع ، لانهم ما رأوا ذلك بالعيان والوجدان !.. ومن اجل هذا كان رد القرآن الكريم في جميع آياته يهدف الى ابطال هذا الزعم وخطئه .. ونعطف نحن على تلك الآيات ، او نزيدها توضيحا بان نفي الامكان واستبعاده لعدم الوقوع بالفعل ـ لا يصلح دليلا ولا قرينة على النفي ، فبالامس القريب كان احفادنا ، وهم الذين ألفوا الهاتف والطائرة والتلفزيون ـ مثلا ـ ولم يستبعدوا شيئا من ذلك كما استبعدناه نحن من قبل ، كان هؤلاء الصغار الى ايام قلائل يستبعدون ولا يتصورون ابدا صعود الانسان الى القمر ، ويرونه فوق قدرة العقل ، ومع هذا صعد الانسان الى القمر ، ووطأه باقدامه وتحدث الى اهل الارض من فوقه ، وسمعه العالم كله حتى الاطفال .. بل رأوه يمشي ، وينتقل عليه من مكان الى مكان !..

أبعد هذا نقيس امكان البعث بالمألوف والمعتاد ؟. وما لنا وللزهرة والقمر .. لندع السماء وما فيها ، وننظر الى اشياء هذه الارض صغيرها وكبيرها من النملة وطاقاتها الى الجبال والبحار ، ونفكر قليلا في عجائبها، ولا بد ان ننتهي من هذا التفكير الى اننا لو لم نر النملة بالعيان والوجدان ـ فضلا عن غيرها ـ لاعتقدنا جازمين بانها من الممتنعات ذاتا وعقلا ... وهكذا حال البعث بعد الموت ما جحد به جاحد واستبعده مستبعد الا لانه ما رآه بعينه ، ولا لمسه بيده .. وعلى منطقه هذا ينبغي ان ينكر ايضا الكثير من طاقاته الروحية والجسمية ، لانها لا تزال مجهولة لديه .

لماذا وجد الانسان :

ما هي الحكمة الالهية من خلق هذا الانسان الصغير بجسمه وحجمه ، الكبير بعقله وآثاره ؟ لقد اودع الله سبحانه في الانسان من الاستعداد والطاقة ما لم يودعه في أي مخلوق آخر ، وبهذه الطاقة وهذا الاستعداد بحث الانسان عن نفسه ، وعما وراء الطبيعة ، وعن الطبيعة ، وسخر الكثير من اشيائها ، ولا يزال ، وسوف يسخرها او يسخر منها مالا تتصوره العقول والاوهام .. هل الغاية او الحكمة من خلق الانسان ووجوده ان يقيم في هذه الارض امدا قصيرا ، ثم يذهب بلا رجعة تماما كما يدخل بعض المطاعم مختارا او مضطرا ، ثم لا يعود اليه ؟ وهل يحتاج هذا الدخول والخروج الى كل الطاقات والاستعدادات التي زود الله بها الانسان ؟

ولا جواب لهذا السؤال الا عند خالق الانسان ، فهو وحده الذي يعلم ماذا اراد من خلقه .. ان الاطباء وعلماء التشريح يعرفون اعضاء الجسم ووظائفها ووجه الترابط بينها ، وتكييف كل عضو منها مع الآخر ، وعلماء الكيمياء يعرفون ما في جسم الانسان من مواد وعناصر ، وعلماء النفس يعرفون ما فيها من خصائص وغرائز حيوانية وانسانية ، وعلماء التاريخ يعلمون ما فعل الانسان وما عجز عن فعله ، وقد يعلم علماء الآثار عمر الانسان على هذه الارض .. اما الحكمة من خلق الانسان فلا يعلمها الا خالق الانسان وموجده .

وقال مؤلف معاصر : « لا يزال وراء النصوص الدينية المتعلقة بخلق الانسان من الاسرار ما لا نعلم ، كما ان علم الانسان بنفسه وبامكاناته الهائلة لا يزال محدودا الى الآن ، وربما استطاع الانسان ان يعرف عن الكون المادي اكثر مما استطاع ان يعرف عن اسرار نفسه » .

ونحن نقـول هذا مع المؤلف ان الانسان يعرف عن غيره اكثر مما يعرف عن نفسه ، وان هنـاك اسرارا لخلق الانسان لم تفسر بعد ، ونقول ايضا : ان النصوص القرآنية لم تتحدث بالتفصيل : وتبين بصراحة ما هو القصد الاول من خلق الانسان ووجوده .. ولكن بوسعنا اذا امعنا النظر في بعض الآيات ان ندرك الحكمة من وجود الانسان ، وانه وجد في هذه الدنيا الفانية ليستعد ويهيىء نفسه لحياة ابقى واكمل ، فـوجوده الاول وسيلة ، ووجوده الثاني هو الغاية .

قال تعالى : « ولـكم في الارض مستقر ومتاع الـى حـين ــ ٣٦ البقرة » . أي ان الانسان يتمتـع في هذه الحياة ، ويستثمر محـاصيلها وخيراتها ، انه يبني بيتا ، او يفتح متجرا ، او يغرس بستانا ، ولكن ما هو بالمالك الحقيقي لشيء من ذلك ، وانما هو حارس يسلم ما في يده للاولاد الوافدين من بعده ، ثم ينتظر الاحفاد دورهم في التسلم والتسليم .. وفي نهج البلاغة : « ماذا يصنع في الدنيا من خلق للآخرة » .

وقال سبحانه : « ان الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هي دار القرار ــ ٣٩ غافر » .

اي ان نهاية الانسان هي الآخرة : والنهاية هي لغاية بالذات. وقال: « أفحسبتم انا خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون ــ ١١٥ المؤمنون » . أي لو كانت الحياة الدنيا هي الغاية من خلق الانسان ووجوده لكان خلقه عبثا لا معنى له .. واذن ، فلا بد من وجود حياة ثانية للانسان تبقى ببقاء الله سبحانه .. ومن هذه النصوص تبين معنا ان الحياة الاولـى وسيلة لغيرها ، وان الثانية غاية في نفسها .

وتسال : وما تصنع بقوله تعالى : « اني جاعل في الارض خليفة ــ ١٦٥ الانعام » . فان ظاهر الآية يومىء الى ان الاستخلاف في الارض غاية لا وسيلة ؟.

الجواب :

ان آيات القرآن الكريم يفسر بعضها بعضا ، لانها جميعا من مصدر واحد ، وهناك آيات كثيرة تدل بصراحة على ان الله سبحانه اوجدالانسان في دار الدنيا ليتهيأ فيها بالعمل الصالح لحياة اخرى ابعد اثرا من الاولى واعظم ، وفي هذه الحياة الاعلى ، يلقى الانسان الجزاء على ما قدم من اعمال في الحياة الادنى ..

قال تعالى : « هو الذي جعلكم خلائف في الارض فمن كفر فعليه كفره ــ ٣٩ فاطر » . وقال : « يومئذ يصدر الناس اشتاتا ليروا اعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ــ ٨ الزلزلة » وقال . « انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم ايهم احسن عملا ــ ٧ الكهف » أي ان الله سبحانه اوجد الانسان في دار الدنيا ليعمل ، وتظهر اعماله التي يستحق بها الثواب . والعقاب في الآخرة ، وعليه يكون عمله في الدنيا غاية من جهة ووسيلة من جهة اخرى هو غاية بالنظر الى الامتحان والابتلاء ووسيلة بالنظر الى ان الابتلاء والامتحان طريق الى النجاح او الرسوب في الآخرة .

ولا مانع من الجمع بين هذا المعنى ، وبين قوله تعالى : « اني جاعل في الارض خليفة » حيث قال المفسرون : معناه ان الله سبحانه استخلف الانسان على الارض ليعمرها ، وينتفع بخيراتها ، لا مانع ابدا من الجمع فالانسان يعمر ، وينتفع ، وفي نفس الوقت يعمل صالحا . اي ان وجود الانسان في دار الدنيا عبارة عن عملية مزدوجة من العمل للدنيا ، والعمل للآخرة : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ــ ٧٧ القصص » .

سؤال ثان : وماذا تصنع بقوله تعالى : « وما خلقت الجن والانس

الا ليعبدون ــ ٥٦ الذاريات » فانه يدل بصراحة على ان الغاية من خلق الانسان هي ان يعبد الله فقط لا غير ؟

الجواب :

المراد بالعبادة هنا ، كل عمل يرضي الله سبحانه من اي نوع كان ويكون ، وليس من شك ان مرضاة الله ، جل شأنه ، هي السبيل الوحيد الى الحياة الطيبة الدائمة ، وعليه يكون المعنى ما خلقت الجن والانس الا ليعملوا صالحا ، وبهذا العمل الصالح يحيون حياة دائمة في جنة قائمة .. وبكلمة ان قوله تعالى : « وما خلقت الجن والانس .. الخ يرادف قوله : « وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ــ ٥ البينة » .

اي لتكون اعمالهم كلها خالصة لوجه الله سواء أكانت من نوع الركوع والسجود ، ام من نوع آخر .. وتتيجة الاخلاص في الاعمال هي الخلود في جنات تجري من تحتها الانهار . اما الحديث القدسي : « خلقت الخلق لكي اعرف » فمعناه ايضا لكي يعملوا صالحا باخلاص ، لان من عرف الله حقا خاف من عذابه ، ومن خاف اتقى ، ومن اتقى فهو في جنة المأوى .

لا توحيد ولا نبوة الا مع البعث :

قالت طائفة من المتفلسفين : ان المعاد ممتنع بالذات ، وان العقل يستقل استقلالا تاما بعدم امكانه جسما وروحا فضلا عن وقوعه ، لان المعدوم لا يعاد ، وان من مات فات .. وتوقف آخرون عن الحكم نفيا واثباتا .

وابطل العلم الحديث زعم المانعين والمتعسفين بعد ما اثبت حدوث المادة على اسس واقعية ، وانها تتحول الى طاقة . وان الطاقة ايضا تتحول الى المادة .

ووقفت طائفة اخرى موقفا مضادا من الطائفة الاولى ، وقالت بثقة وحزم :

« ان العقل يحكم حكما مستقلا وباتا بوقوع المعاد جسما وروحا فضلا عن امكانه .. وقالت فئة من الفئات : بل يحكم العقل باعادة الروح فقط ، لانها جوهر مجرد لا يقبل الفناء .. وقد تكون هذه الفئة وتلك الطائفة على حق .. ولكن دليلهما مبهم ومعقد ، وفهمه يحتاج الى عقل كبير كعقل انيشتين واديسون اللذين قلبا العالم كله رأسا على عقب، ودفعا به الى الامام مئات السنين .

اما نحن فنرفض هذا الافراط ، وذاك التفريط ، ونقف موقفا متوسطا بين الاثنين ، ونقول : ان العقل السليم يحكم بامكان المعاد حكما مستقلا بصرف النظر عن العدل الالهي والنصوص الدينية ، ويحكم بوقوعه وانه حتم لا مفر منه ، ولكن مع النظر الى ثبوت النص والعدل الالهي ، اما ثبوت النص فواضح بعد ان تجاوز حد التواتر ، وبلغ الضرورة الدينية ، واما العدل الالهي فهذا بيانه :

ان الله سبحانه منح عباده القدرة ، والعقل والارادة ، ثم كلفهم وامرهم بالخير ، ونهاهم عن الشر ، وهم بالقدرة يفعلون او يتركون ، وبالعقل يميزون بين هذا وذاك ، وبالارادة يختارون فعل الخير او فعل الشر .. هذا هو شأنه جل وعلا مع عباده .. وقد اطاعه منهم من اطاع ، وعصاه من عصى في هذه الحياة ثم مضى كل من الصالح والطالح الى حفرته ، دون ان يثاب المطيع ، ويعاقب العاصي ، بل ان كثيرا من العصاة طغوا وبغوا ، وملأوا الارض ظلما وفسادا ، ولم يحاسبهم محاسب ، ويسألهم سائل .

فان افترض انه لا بعث ولا حساب غدا فمعنى هذا ان الظالم

والمظلوم ، والمؤمن والجاحد عند الله سواء بل الجائر والمفسد خير وافضل عنده سبحانه من العادل والمصلح ، والطاغية الباغية اكرم عليه ممن استشهد في سبيل الحق والانسانية .. وليس من شك ان هذا يتنافى مع عدل الله وحكمته وقدرته ، بل مع وجوده ايضا .. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .. وقد رأينا كثيرا من المظلومين يصرخون من الاعماق قائلين : لو كان الله موجودا لما ابقى طاغية على وجه الارض .. وليس هذا القول الا انعكاسا عن غريزة الايمان بوجود عادل قادر يقتص للمظلوم من الظالم ، ولكنهم تعجلوا القصاص لحرقة الالم ، وذهلوا عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها ، فقالوا ما قالوا ، وهم في قرارة نفوسهم من المؤمنين .

ومما قلته في التفسير الكاشف : ان اقوى الادلة على ثبوت البعث قوله تعالى : « اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم ان الله سريع الحساب ١٧ غافر » . ان هذه الآية تحمل برهانها معها ، وتدل على نفسها بنفسها .. « اليوم تجزى كل نفس بما كسبت » ولماذا ؟. لانه لا ظلم عند الله . بل هو سريع الحساب .. والتحليل العلمي لهذه القضية انه لولا هذا اليوم الذي تجزى فيه كل نفس بما كسبت لكان الله ظالما لا عادلا ، ووجوده نقمة لا رحمة ، وتكليفه عبثا لا حكمة .. سبحانه وتعالى عما يصفون.. والنتيجة الحتمية لهذا المنطق ان كل من انكر البعث والحساب والجزاء فقد انكر وجود الله ، لا عدله فقط من حيث يريد ، او لا يريد .

هذا ، الى ان فكرة البعث تقضي على فكرة العدم التي تغرق الانسان في الشعور بالتفاهة والضياع ، وتقتل فيه معنى وجوده وتسلط عليه اليأس والكآبة .. الامر الذي يحطم حياته او يدفعه الى الاستغراق المجنون في الفردية وانتهاب الملذات وبعد ، فلا توحيد ولا نبوة الا مع البعث والحساب والجزاء ولا بعث ولا جزاء الا مع التوحيد والنبوة ، فكل واحد من

الاصول الثلاثة متمم للآخر ، وبالجميع يحكم العقل مباشرة او بالواسطة، وبهذا وحده يطمئن القلب ، ويجعل للانسان معنى وللحياة حقيقة ، قال انيشتين : «ان الشخص الذي يعتبر حياته وحياة غيره من المخلوقات عديمة المعنى ليس تعيسا فحسب ولكنه غير مؤهل للحياة » وقال افلاطون : لو لم تكن للانسان حياة ثانية لكان القرد اشرف منه .

وقال الفيلسوف الالماني « كنت » : على الانسان ان يكون فاضلا في اخلاقه واعماله كي تتحقق له السعادة ولن تتحقق بحال الا اذا آمن بإله حكيم خبير ، يعلم النوايا الطيبة ، ويجازي عليها ، ويكون الله وحده هو الكفيل والضامن لسعادة الطيبين .. ولما كانت الحياة الدنيا لا تحقق الجزاء الذي يفرضه القانون الاخلاقي فان الموت لا يمكن ان يكون نهاية حياة الانسان ، ولابد ان تكون الروح خالدة لكي تستطيع مواصلة طموحها ، والاقتراب من غايتها ، وهذا لا يكون بطبيعة الحال الا في حياة اخرى .

وقال جماعة من الفلاسفة : ان الله سبحانه قادر عظيم وعليم حكيم فيستحيل ان يوجد الادنى حيث يمكن وجود الاعلى واي عاقل يختار النقص على الكمال ، والعدم على الخلود ؟. وليس من شك ان خلق الانسان لحياة باقية أولى وأعلى من خلقه لحياة فانية .

المعاد الجسماني :

المعاد الجسماني ممكن عقلا ، وثابت شرعا بصريح الكتاب والسنة المتواترة ، واجماع المسلمين كافة في كل عصر ومصر حتى اصبح ضرورة دينية ، والايمان به من اصول الدين الاساسية التي يجب البحث والنظر لمعرفتها تماما كالتوحيد والنبوة ، ومن انكر المعاد جسما وروحا ، او جسما فقط فقد انكر الجنة والنار من حيث يريد او لا يريد ، لان اوصافهما

في النصوص مادية تبصر بالعين ، وتسمع بالاذن ، وتذاق بالفم : وتلمس باليد ، كالغرف والاشجار ، والكؤوس والانهار ، والحور والولدان ، والحدائق والاعناب، ولا موجب للتأويل بعد حكم العقل بالامكان، وليس من شك ان انكار الجنة والنار رد صريح على ما ثبت بالضرورة عن الله ورسوله .

اما القول بان هذه الاوصاف كناية عن لذة الروح أو ألمها ، وان الحكمة من هذه الكناية مجرد الترغيب والترهيب ، او مجرد التقريب الى الاذهان ، او هما معا ، اما هذا القول فمبهم ، ورد على الله ورسوله بطرح النصوص القطعية متنا وسندا .. وفوق هذا فنحن لا نتصور راحة وتعبا، ولذة وألما من غير جسم ، كما لا نتصور جسما يتبلل بالماء ، لا لشيء الا لان ظله قد ارتسم فيه وايضا لا نتصور ان كوكبا عظيما تسعه مرآة صغيرة لان صورته قد انعكست فيها .. ان الملذات الروحية وآلامها ترتبط بالجسم ارتباطا وثيقا .. حتى الحب العذري يعتمد على النظرات والابتسامات وعلى عذوبة الحديث واسلوب الحركات .. وقد ثبت في العلم الحديث حركة بلا حياة ولا ندري : هل ثبت فيه حياة بلا حركة او حركة بلا جسم .؟

اقول هذا وقد قرأت اقوال المتصوفة وبعض الفلاسفة عن نشوة الروح ومرحها وبهجة العقل واشراقه حين يتحرران من ظلمة الجسم وكثافة المادة قرأت الكثير من هذا النوع ولكني ما فهمته ولا هضمته ولماذا ؟. هل لانه كلام فارغ لا محصل له او لان فهمي بليد وآسن .

وقال صاحب الاسفار : « ان السيف سيف بحده لا بحديده » .. ونقول له : ولا حد للسيف من غير حديد .. وان قال : ان الحديد محمول لا حامل وقابل لا فاعل قلنا في جوابه : لا اثر للفاعل الا بوجود المنفعل

•• واذن فلا بد منهما معا وهذي هي الحال بالنسبة الى الروح والجسد فلا غنى لاحدهما عن الآخر حيث لا توجد متطلباتها الا به ولا يشعر هو الا بها [1] •

ومن اجل هذا آمنا وآمن كل عارف باعادة الانسان روحا وجسما تماما كما كان في حياته الاولى ولا غرابة فان قدرة الله لا يعجزها شيء ولا تفتقر الى اداة وآلة •• انه يقول لغير الكائن كن فيكون وللإنسان الذي صار ترابا وعظاما عد الى سيرتك الاولى فيعود بجسمه وحجمه ، ودمه ولحمه وبملامح وجهه وخطوط اصابعه وعدد شعرات رأسه وبدنه التي تختلف في كل فرد عن الآخر منذ الانسان الاول الى الانسان الاخير كل هذه وغيرها تعود الى سابق عهدها كما كانت تماما وكمالا •

وتسأل : هناك ادلة تقول : الانسان بعد موته ، وقبل بعثه اما في عذاب ، واما في ثواب ، حسب عمله ، واذا كانت الروح لا تحس بشقاء او هناء بدون الجسم ــ كما قلت ــ تكون هذه الادلة حكما بلا موضوع، ولفظا بلا معنى ، لان جسم الانسان خلال هذه المدة تراب ويباب ، وابعد ما يكون عن روحه ؟•

الجواب :

يجوز في حكم العقل والعدل ايضا ان الروح بعدان تفارق جسمها الطبيعي تتصل بجسم آخر مثله ، ويكون هذا الاتصال سببا لنعيمها او جحيمها تماما كالماء يبرد بالثلج ، ويسخن بالنار •

وروايات اهل البيت (ع) تدل على ذلك قال الامام الصادق (ع) :

---

(١) صاحب الاسفار يؤكد المعاد الجسماني ، ويصر عليه ، وذكر هذه الجملة « السيف بحده لا بحديده » تمهيدا لاثباته ، وناقشناه بقصد التوضيح ودفعا للالتباس .

اذا قبض الله ارواح المؤمنين صيرها في قالب كقالبها في الدنيا فيأكلون ويشربون ويتعارفون قال الشيخ البهائي : وامثال هذه الاحاديث من طرق الخاصة كثيرة ، وروى العامة ما يقرب منها انظر الاربعين حديثا ص ١٩٠ وما بعدها لهذا الشيخ الجليل .

وليس لقائل ان يقول : ان هذه المادة الجديدة لم تأت بجناية ، ولم تدر ما الغاية ، فكيف يتخذ الله من عذابها وسيلة لعذاب الروح التي جنت واخطأت ، لا يحق لاحد ان يقول هذا كما لا يحق له ان يقول : ما ذنب الحطب حتى يحرق ، والقمح حتى يطحن ، والحجر حتى يكسر ، لان كل ذلك وما اليه غير قابل بطبعه للالم والعذاب .. وانما اتخذ وسيلة اليه .

وقال صاحب الاسفار في ج٢ من السفر الرابع طبعة ٣٧٩ هـ : ان النفس بعد ان تفارق البدن تدرك بقوتها الخيالية الجزئيات والماديات، ومن ذلك ما يحدث لبدن الميت في قبره ، ونعيم النفس وجحيمها انما يكونان بمجرد تصورها لما يعرض لبدنها المقبور ، وان سعة القبر عبارة عن انشراح الصدر ، وضيقه عبارة عن ضيقه . ثم قال صاحب الاسفار في ص ٢٢١ : « ان النفس اذا فارقت البدن بقي لها من البدن امر ضعيف الوجود، فوقع في الحديث النبوي التعبير عنه بعجب الذنب » . بفتح العين اي اصل الذنب .

وان دل هذا القول على شيء فانما يدل على ان النفس لا تتألم ولا تتنعم الا على صعيد البدن او تصوره — على الاقل — .

الآكل والمأكول :

وتسأل : ان للمعاد الجسماني محاذير ، واهمها الشبهة الذائعة والمعروفة بشبهة الآكل والمأكول ، وهي كما في الاسفار : « احتج من

انكر البعث بانه ان اكل الانسان انسانا فالاجزاء المأكولة ان اعيدت في بدن الآكل لم يكن الانسان المأكول معادا ، وان اعيدت في بدن المأكول لم يكن الآكل معادا ، ولزم ان تكون الاجزاء المأكولة بعينها منعمة ومعذبة اذا اكل مؤمن كافرا » .

واجيب عن ذلك في الكتب الكلامية بان المعاد هو الاجزاء التي منها ابتداء الخلق ، وهي الاعضاء الاصلية عندهم ، والله يحفظها ، ولا يجعلها جزءا لبدن آخر » .

ثم قال صاحب الاسفار ما معناه : ان هذا الجواب لا يفي بالغرض، والحق ان كل ممكن في نظر العقل ، ودل عليه الوحي يجب الايمان به ، والبعث الجسماني ممكن عقلا ، وثابت وحيا ، فوجب التصديق والايمان .. اما اقيسة الفلاسفة وأهل المنطق فما هي بمعصومة عن الخطأ .. مع العلم بان صاحب الاسفار اجاب عن هذه الشبهة في غير مكان من اسفاره بهذه الاقيسة التي لا تغني عن الحق شيئا .

جهنم والاسلحة الجهنمية .

وتسأل : لقد ذكر سبحانه في كتابه صوراً لعذاب اهل النار ، قراءتها تبعث الرعب في القلوب والنفوس . والقشعريرة في الجلود ، والتوتر في الاعصاب ، فكيف بمن يذوق ويختبر .. ومن هذه الصور حشر المجرمين مكبلين بالقيود ، يلبسون ثيابا من مادة شديدة الالتهاب ، وعلى وجوههم غطاء وغشاء من نار ، اما طعامهم فمن شجر الزقوم ، وشرابهم من ماء الصديد ، هذا وهم في جحيم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم العذاب .. ألا يتنافى هذا مع حلم الله ورحمته : وجوده ورأفته ؟ ألا يكفي لجزاء هذا الانسان بلحمه ودمه بعض هذا الجحيم الاليم ؟.

الجواب :

ان في الناس مجرمين يستحقون هذا النوع الاليم واكثر منه ايضا لو امكن .. ومن هؤلاء الذين يستنون للاجيال السنن السيئة،ويحاربون الحق ، او يكتمونه وهم يعلمون ، واعظم منهم جرما تجار الحروب الذين اعدوا لسفك الدماء وتدمير الحياة الاسلحة الجهنمية كالقنابل الذرية والهيدروجينية ، والمواد السامة التي تقتل الالوف ومئات الالوف في دقائق معدودات .. ان اية عقوبة يعاقب بها السفاحون فهي دون ما يستحقون ... وليست السلاسل والاصفاد وسرابيل القطران بشيء في جانب تدمير البلاد وتشريد العباد ، وسلب اقواتهم ومقدراتهم وتشريدهم وتقتيلهم بمئات الالوف .. وبكلمة ان الجريمة بنوعها واثرها، لا بصورتها ومظهرها .

هل هذا علم وتحقيق ؟.

وهناك مسائل كثيرة ذكرها صاحب الاسفار وغيره في مباحث المعاد، واعرضنا عنها لانها لا تتصل بالبعث من قريب او بعيد ، ونشير هنا الى مسألة واحدة منها كشاهد ومثال ، قال صاحب الاسفار في الجزء الثاني من السفر الرابع في مبحث من مباحث المعاد ص ١٤٤ طبعة سنة ١٣٧٩ هـ، قال ما نصه بالحرف :

« العنقاء محقق الوجود عند العارفين لا يشكون في وجوده كما لا يشكون في البيضاء وهو طائر قدسي ، مكانه جبل قاف ، وصفيره يوقظ الراقدين في مراقد الظلمات ، وصوته ينبه الغافلين عن ذكر الآيات، ونداؤه ينتهي الى اسماع الهابطين في مهوى الجهالات المترددين كالحيارى في تيه الظلمات » .. الى آخر هذه المبهمات والمعميات .

وقال المعلق على الاسفار : جبل قاف اي قاف القدرة اذا نظرنا الى فوق ، وقاف القلب اذا نظرنا الى تحت .

ولا ادري : هل هذا كشف علمي حديث يثبت المعاد بالتجربة والعيان ، ويحمل الجاحدين على التسليم والاذعان ، او هو ثورة دينية انسانية ضد الجهل والفقر والتخلف ، او هو عبادة وتقديس ، او هو مجرد حيرة وبلبلة ، او ماذا ؟.

ان الاسلام ــ كما حدده القرآن والسنة النبوية . سهل يسير لا يحتاج فهمه الى منطق فلسفي ، وتفكير علمي .. انه واضح وبسيط يمكن شرحه بمنطق الفطرة في سطرين فقط ، ويمكن ان يشرحه العلماء في مجلدات ..

ومن اجل هذا خاطب به سبحانه الاذكياء والبلداء ، وحملهم المسؤولية.. كل بحسبه .. واي شيء ادل على ان الاسلام هو دين الفطرة والبساطة ــ من دعوته تعالى كل عاقل ان يتجه بنفسه الى الكون وما فيه ليتعرف على عجائب خلقه ، وبه يستدل على وجود الخالق الحكيم ، وان الذي بدأ الخلق اول مرة يعيده ، وهو بكل شيء عليم ؟.

وبعد ، فاني احمد الله الذي هداني الى معرفته ، والتمسك بالنبي وولاية الصفوة من عترته واشكره على توفيقي الى هذا الكتاب وغيره مما كتبت واذعت .. وما شعرت بالغبطة والسعادة كشعوري ــ وانا اختم كتابي هذا بفلسفة المعاد ــ في مشهد الامام الرضا (ع) وجواره مساء (٥) جمادى الاولى سنة ١٣٩١ هـ الموافق ٢٦ حزيران سنة ١٩٧١ م . وهو سبحانه المسؤول ان يجعل جزائي عليه ، وجزاء من استفاد منه واهتدى به شفاعة النبي وآله الابرار يوم تسود وجوه ، وتبيض وجوه . انه خير مسؤول ، والصلاة على محمد واهل بيته ، وعلى كل من استن بسنتهم ، ومات على ولايتهم .

بين الشيوعية والرأسمالية

قصة هذا الفصل

لاحظت ان تلاميذي في دار التبليغ الاسلامي بمعزل في معرفتهم عن الاتجاهات الفكرية والمذاهب السائدة في هذا العصر ، وانهم لا يفرقون بين الاشتراكية والشيوعية . وبعضهم لم يسمع من قبل كلمة الرأسمالية فضلا عن معرفته بحقيقتها واهدافها .. ومن الطريف ان احدهم قال لي في اليوم الثاني من القاء الدرس : ما رأيت هذه الكلمة في كتب اللغة .

فكتبت ملخصا لهذا الموضوع ، والقيته عليهم ليكونوا على بصيرة من اصوله الاساسية ـ على الاقل ـ وايضا جعلته احد مواد الامتحان ، وكانت النتيجة مرضية ، ولله الحمد .

وما كان من قصدي ان اجعل هذا الملخص فصلا من كتاب فلسفة التوحيد والولاية ، ولكن احد تلاميذي المتفوقين في التحصيل والامتحان حدثني بما اغتبطت به ، وحمدت الله عليه ، قال : ضمني مجلس مع بعض الشباب في احدى مدن ايران ، فتحدثوا عن الانظمة الاقتصادية ، واشتركت في الحديث وتفوقت كما رأى من حضر وسمع ، والفضل لله ولدرسك هذا ، ولولاه ما كان امامي الا الصمت او القول بغير علم ، لاني لم اكن من قبل على المام بالموضوع فشكرت الله سبحانه ، وقلت في نفسي لو لم يكن لوجودي في قم سوى هذه لكفى وادرجت التلخيص هنا رغبة في المزيد من النفع والفائدة . وعليه سبحانه المعول .

فلسفة الشيوعية ونظامها الاقتصادي :

للشيوعية فلسفتها الخاصة بتفسير الكون والانسان بصرف النظر عن الاقتصاد ونظامه ، وايضا لها نظام يختص بالثروة وتوزيعها ، واذن ، فموضوع كل من فلسفة الشيوعية ونظامها الاقتصادي مستقل عن موضوع الآخر ، وان كان هذا النظام وثيق الصلة بتلك الفلسفة ، ولكن الصلة غير الموضوع كما ان الانسان غير الماء مع قوة الصلة بين الاثنين .

وفلسفة الشيوعية بوجه العموم تتمثل في ان المادة هي الموجود الاسبق من كل موجود ، بل هي الموجود الوحيد الذي لا شيء غيره في الوجود كله واطلق الشيوعيون على هذه الفلسفة « المادة الجدلية » بالنظر الى ان المادة تتغير وتتحول من الشيء الى نقيضه باستمرار والى ما لا نهاية .. وفرعوا على هذه الفلسفة ان الانسان في جوهره وماهيته مادة صرف وانه من صنع الطبيعة وحدها ، وانه يفنى ويزول كلية بالموت تماما كنبتة الربيع ، وانه لا طبيعة بشرية عاقلة بالذات ، ولا قيم لها مطلقة، ولا هي بمعنى واحد عام لا فراد الانسان في كل جيل ، لانه لا شيء في الواقع سوى كائن طبيعي اسمه الانسان ، يندمج مع غيره من الكائنات الطبيعية « وليس ما يمنع ان يتحول في المستقبل الى كائن آخر يكون مفهومه غير مفهوم الانسان الحالي ، وايضا لن يكون هذا الكائن الآخر هو النهائي والحاسم ، بل يتحول الى ثالث ، والثالث الى رابع: الى ما لا نهاية .. ففي كل حقبة من التاريخ طبيعة بشرية جديدة تختلف عن غيرها من الحقب » .

اما الذي نراه في الانسان من احساس وادراك وارادة فهو جانبي ثانوي يتفرع عن المادة ويتولد منها .. وبالقلم العريض ان كل ما في الانسان من خصائص كالعقل والارادة وغيرها من الغرائز ان هو الا من افراز جسمه واعضائه تماما كالعرق والمخاط وسائر الفضلات .

هذي هي الفلسفة الشيوعية في جوهرها وواقعها .. اما الفلسفة القرآنية فانها تعترف بانسانية الانسان ، وتفضيله على المادة . وان الله خلقها له ولمصالحه ، قال تعالى : « ولقد كرمنا بني آدم .. وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ــ ٧٠ الاسراء » . وقال : « الله الذي جعل لكم الارض قرارا والسماء بناء وصوركم فاحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ــ ٦٣ فصلت » .

وبعد هذا العرض الموجز نسأل الشيوعيين : هل قولكم : المادة هي الموجود الوحيد هو من وحي المادة او من غيرها ، فان كان من غيرها فقد ناقضتم انفسكم واعترفتم بان المادة ليست هي الموجود الوحيد ، وان كان قولكم هذا من وحي المادة نفسها احتاج اثباته الى دليل مغاير للمادة لان الشيء لا يكون دليلا ومدلولا ، ومدعيا وحاكما ؟.. والمفروض انه لا شيء في الوجود الا المادة ، وبالتالي فلا دليل على ما تزعمون ..

وايضا اذا كان العالم كله مادة وجب ان تكون خصائصه واحدة من غير فرق بين الانسان وغيره من الكائنات ، ولا وجه لظهور الحياة في مادة دون مادة .. ثم هل تدرك المادة نفسها بنفسها ؟ نوجه هذا السؤال للشيوعيين لانهم ردوا على المثاليين بان الذات المدركة ــ بالكسر ــ غير الشيء المدرك ــ بالفتح ــ وايضا اذا لم يكن للبشرية من قيم فلماذا تقديس الشيوعية وعبادتها ؟.. وبالتالي اذا كان الانسان مادة وكفى فيجوز تسخيره واستعباده ، بل واكله ايضا تماما كما جاز ذلك في غيره من الاشياء المادية .. واذن فعلام الصياح والصراخ للمطالبة بحقوق العمال ما داموا في حقيقتهم كالآلة التي صنعوها واداروها بايديهم ؟ اما عقولهم واحاسيسهم فهي ثانوية لا قيمة لها ، لانها تولدت من المادة ذاتها تماما كالعرق والمخاط والفضلات ؟.

اما النظام الاقتصادي الشيوعي فانه يلغي الملكية الخاصة الغاء تاما،

ويحرمها تحريما مطلقا حتى ملكية الاتناج نفسه ، والسلع الاستهلاكية فضلا عن الوسائل المنتجة كالارض والآلة والعمل ، بل لا يحق للانسان ان يملك ثمرة عمله بالذات برغم ان الشيوعية تفرض عليه ان يعمل حسب طاقته : ومع هذا لا شيء له من كد يمينه ، وعرق جبينه الا ما يملأ بطنه ، ويكسو جلده ، وما يأوي اليه عند مبيته تماما كوحش الغاب ، وان كان مخترعا مبدعا .

والغريب ان انصار الشيوعية يعتبرونها قمة القمم ، ونهاية النهايات ، وفي الوقت نفسه يؤمنون بان كل شيء يتغير ويتحول الى ضده حتى اذا وصل هذا الضد الى درجة معينة تحول الى ضده .. وهكذا الى ما لا نهاية . ومعنى هذا ان التحول والانقلاب ضروري حتمي ، فكيف تكون الشيوعية اذن ، هي القمة والنهاية ؟!

طبيعة الرأسمالية ونظامها :

الفرق بين المالك والرأسمالي عموم وخصوص مطلق، فكل رأسمالي هو مالك ، ولا عكس ... فقد يملك الانسان بيتا يسكنه او بستانا او حانوتا يستثمره في سد حاجاته دون ان يمكنه من السيطرة على غيره ، وهذا يسمى مالكا فقط ، اما المالك الرأسمالي فهو الذي يملك من المال ما يقوى به على غيره ، ويستطيع بواسطته ان يتحكم باسباب الحياة العامة ولو بجهة من الجهات .. وكثيرا ما تطلق كلمة « برجوازي » على الرأسمالي .. وقد استخلصنا هذه التفرقة من الاستعمال الدارج .

والرأسمالية بطبيعتها عدوة الاديان والانسانية . لانها توغل في احتقار الضعيف والمحروم وتعتبره آلة يتحرك لينتج الارباح لاصحاب رؤوس الاموال ، فهم وحدهم محور الوجود وغايته ، وغيرهم وسيلة لتكديس الثروات في مصارف الاثرياء .. ونتيجة لذلك يرى اصحاب

رؤوس الاموال ان أي شعب يحاول الاستقلال الاقتصادي والاكتفاء الذاتي عن سلعهم ومصانعهم فهو العدو الاكبر اللدود لاصل وجودهم وحياتهم ، يدبرون ضده المؤامرات والانقلابات ، وعمليات التخريب والتجسس ، ويشنون عليه الغارات سرا وعلانية ، ويقفون ضده في الامم المتحدة ، ويضيقون عليه الخناق اقتصاديا حتى يموت جوعا •• بل لو اقام اي انسان مصنعا في جزء من الارض ينتج سلعة ما ، ولو من نوع « العلكة » اعتبره الرأسماليون هزيمة لهم ، وطعنة في قلوبهم ، لانه يقفل مصنعا مماثلا من مصانعهم •

وبعد فاذا كانت الشيوعية تقف موقفا عدائيا من الاديان والعقائد التي ترفضها ولا تدين بها فان الرأسمالية حرب على كل شعب يبتغي التقدم على المستوى الاقتصادي ، ويرفض ان تكون مقدراته وخيراته نهبا لشركات « العالم الحر » وان يكون سوقا لسلعها وانتاجها •

النظام الاشتراكي :

وللنظام الاشتراكي انواع متعددة ومختلفة ، ولكنه ــ على وجه العموم ــ يؤمم مصادر الثروة الكبرى كالبترول وغيره من المعادن ، والصناعة الثقيلة ، ويلغي الاقطاع والاحتكار ، ويقر الملكية الخاصة فيما عدا ذلك ، ولكنه يضيق عليها الخناق بفرض القيود والشروط التي تقلم من اظافر أصحاب المال ، وتجردهم من السيطرة والنفوذ ، وتقرب بين الافراد والطبقات من الوجهة المادية ، ولا تلغى الطبقية من الاساس في المجتمع الاشتراكي ــ كما رأى احد الباحثين ــ •

واذا امعن النظام الاشتراكي في كثرة القيود على الملكية الخاصة ، واضعاف رأس المال ــ قرب من النظام الشيوعي ، ويسمى بالاشتراكية اليسارية ، ومثاله ان يؤذن للفرد بحيازة عشرة دنمات من الارض فقط ،

واذا خفف القيود عن الملكية الخاصة قرب من النظام الرأسمالي ، ويسمى بالاشتراكية اليمينية ، ومثاله ان يحدد ملكية الارض بمئة دنم او اكثر ، واذا لم يشدد ولم يخفف يسمى بالاشتراكية المعتدلة، كما لو جعل ملكية الارض ٥٠ دنما .

وإذا نظرنا الى الاشتراكية كنظام اقتصادي وكفى بصرف النظر عن فلسفة اربابها وعقيدتهم ، وبلا هوى وتحيز ، اذا نظرنا اليها كذلك الفينا لها حسنات وسيئات .. فمن حسناتها ان الفئة القليلة المستغلة ـ كالرأسماليين والاقطاعيين وسماسرتهم ـ اختفت او كادت من المجتمع الاشتراكي .. وايضا كان الرأسماليون وارباب المصانع يستغلون العامل استغلالا بشعا حيث كان يعمل اربع عشرة ساعة في اليوم باجر زهيد حتى اذا شاخ او مرض طرحوه كالقمامة ، فاضطرتهم الاشتراكية ان يعترفوا للعامل بحقوقه او بعضها كتحديد ساعات العمل، وزيادة الاجور مع نفقات التطبيب ، والالتزام بقانون الضمان او العدل الاجتماعي كما اضطرتهم ان يبسطوا كف الهبات لبعض المشاريع والهيئات خوفا من العواقب وحرصا على المكاسب .

ومن سيئات الاشتراكية ان الغرض الأول من تشريعها هو الاصلاح الجذري وقطع الطريق على المظالم والمفاسد ـ كما قال الاشتراكيون ـ فهل تحقق هذا الغرض في البلاد الاشتراكية ، ونال كل واحد من اهلها وابنائها الفوز العظيم او سلك الطريق القويم اختيارا او اضطرارا ؟. اجل ان الاشتراكية حررت الكثير من ظلم الرأسماليين والاقطاعيين ما في ذلك ريب ولكنها اعادتهم من جديد الى دكتاتورية البروليتاريا ليغدوا آلة لا تتحرك الا بارادة الحاكمين ؟.

ولماذا سلطة العمال فقط لا غير ؟. ألانهم معصومون عن الخطأ والخطيئة او لانهم وحدهم العدول الابرار ؟. ولنفترض انهم كذلك فهل

كانت الكلمة الحاسمة في دولتهم للعمال اجمعين او للبعض منهم ؟ وقد اجاب عن هذا السؤال زعماء الاشتراكية وحماتها أجاب عنه خلفاء ستالين بانه كان هو وحده الحاكم بامره ولا شيء لمن خالف الا الموت حتى ولو كان عاملا بل وعضوا من الحزب الشيوعي .. اذن اين حق الضعفاء وحمايتهم من الاقوياء في ظل الاشتراكية ودولتها العمالية ؟.

وما قرأت شيئا ابلغ واقوى في الرد على الرأسمالية من قول الاشتراكيين وردهم على الرأسماليين وايضا ما قرأت ابلغ واقوى من رد هؤلاء على الاشتراكيين .. ونحن نتبنى الردين معا ، ونبطل كلا بمنطق الآخر .

وينلخص رد الاشتراكيين : بان النظام الرأسمالي يخضع السياسة والحكم لاصحاب المال والاقتصاد ، ويجعل من الدولة خادما امينا لمصالحهم والا غضبوا وثاروا وبذلوا الاموال لحربها والقضاء عليها ، وجندوا الصحف والاذاعات لهذه الغاية .. فتغريهم هي بما يزيدهم قوة وثراء حرصا على مرضاتهم وسكوتهم ، وهم يمنحونها بدورهم الثقة والتسديد ، والشعب الضحية ومن لا حول له ولا قوة .. وكم من رجل كان قبل الحكم طاهر القلب والقصد ، ولما حكم امعن في الفساد حرصا على سيطرته ومكانته وخوفا عليها من اعداء الحق والعدل .

وينلخص رد الراسماليين : بانه اذا كان النظام الرأسمالي يخضع السياسة والحكم لارباب المال فان النظام الاشتراكي يخضع ثروة البلاد كلها لرجال السياسة والحكم ، وتصبح الفئة الحاكمة هي المسيطر الوحيد على الاقوات والثروات ، والنتيجة الحتمية لذلك هي سلب الحرية عن الناس ، وبالتالي لا شعب الا الدولة ، ولا مال الا في تصرفها .

واذا بطل هذا وذاك وجب البحث عن نظام ثالث يحقق العدل والحرية للجميع .

بين النظام الاقتصادي الشيوعي والاشتراكي

اتضح مما قدمنا الفرق بين النظام الاقتصادي الشيوعي والاشتراكي، وزيادة في التوضيح نشير في هذه الفقرة الى خصائص كل منهما :

١ ـ ان النظام الشيوعي يلغي الملكية الخاصة من الاساس بشتى انواعها ، اما النظام الاشتراكي فيلغي البعض ، ويقيد البعض الآخر ، كما قدمنــا :

٢ ـ النظام الشيوعي يمحو الطبقات حيــث لا مالك لشيء عــلى الاطلاق ، اما النظام الاشتراكي فيقرب بينها ولا يلغيها كلية حيث يكون في الناس مالك صغير ومقيد ، ولا مالك اطلاقا •

٣ ـ الحكم والسلطة في النظام الاشتراكي بيد « البروليتاريا » أي العمــال ، فهم وحدهم يشرفون على ثروة البــلاد ويتصرفون فيها ، اما الشيوعية فان اختصت بجزء من الارض ، ولم تعم وتشمل العالم بكامله فلا بد لها من دولة تحافظ على ارضها وحدودها من الاعتداء ، وهــذه الدولة بطبيعة الحال تمثل جميع الافراد حيث لا طبقات ولا صراع •• وان عمت الشيوعية العالم كله ، وانصهر فيها جميع الناس فلا يحتاجون آنذاك الى دولة على الاطلاق حيث لا طبقات وقوميات ، ولا جباية ضرائب ولا حدود ، ولا ملكية خاصة تحتاج الى حماية •

وخفيت هذه الحقيقة على بعض الباحثين حيث نسب الى الشيوعيين القول بان المجتمع الشيوعي لا يحتاج الى حكومة ، وان لم تعم الشيوعية العالم كله . وكان هناك حكومات غيرها « وكل حكومة اخرى على وجه الارض تتمسك بمركزها » على حد تعبيره •

٤ ـ النظام الاشتراكي يقول : من كل حسب طاقته ، ولكــل حسب

عمله ، ويقول النظام الشيوعي : من كل حسب طاقته ، ولكل حسب حاجته ومعنى هذا ان بعض الافراد في المجتمع الشيوعي قد يعطي كثيرا ويـأخذ قليلا كالمخترع ، والبعض الآخر قد يعطي قليلا ، ويأخذ كثيرا ، كالعامل البسيط ـ بالنسبة الى المخترع ـ واذن اين المساواة ؟•

٥ ـ النظام الشيوعي يؤمم الملكية الخاصة من غير تعويض،والنظام الاشتراكي قد يعوض •

٦ ـ الاشتراكية عند الشيوعيين هي الخطوة الاخيرة التـي يتـم الانتقال منها مباشرة الى الشيوعية •

الاسلام والاقتصاد :

للاسلام تشريع خاص به في العبادات والمعاملات بشتى انواعها ، وفي الاحوال الشخصية ، والجنايات بحدودها وقصاصها ودياتها ، ويطلق على هذا التشريع بمجموعه كلمة الفقـه الاسلامي وايضا يطلق عليه الاحكام العملية في مقابل الاحكام الاعتقادية ، وايضا يطلق عليه كلمـة الشريعـة الاسلامية ، وبعضهم يعمم كلمة الشريعة للاحكام الاعتقادية والعملية •• وللفقه الاسلامي اصوله وتاريخه وكتبه ومعاهده •• ولا كلام في دلك ، او سؤال •• والشيء الذي تجب دراسته ومعرفته هو :

في الاسلام أ صـول الاقتصاد بلا ريب ، وايضا فيه المبادىء لحل المشاكل الاقتصادية لقد رفع الاسلام الجور عن الفقراء والمستضعفـين ، وامر بالمساواة بين ابناء المجتمع الواحد والواجبات ، وقدم صالح الجماعة على صالح الافراد ، وقد خلط كثيرون بين هذه النزعة الانسانيةالجماعية وبين الاشتراكية حيث نسبها الى الاسلام • ان في الاسلام روح النظريـة الاشتراكية نفسها ، وجوهر المنهج الاشتراكي لا النهج نفسه •

هل للاسلام مذهب او نظـام اقتصادي كامل ومفصل عـلى غرار الانظمة التي تناولت الحياة الاقتصادية انتاجا وتوزيعا ؟. مع العلم بـان هذا النظام الاقتصادي ـ على فرض وجوده ـ وثيق الصلـة باحكـام الشريعة الاسلامية بوصفهما فرعين عن اصل واحد ، ومعلولين لعلة واحدة، وهي مبادىء الاسلام وعلل الاحكام .

واجاب مسلم غيور بانه لا شك في ان الاسلام قد وضع نظاما مفصلا ومبرما للشؤون الاقتصادية انتاجا حتى « الآلة والعمل » وتوزيعـا على ارحب نطاق .. كيف ؟. وهل يستكمل الاسلام لخصال الخير الا بهـذا النظام .

واجاب مسلم آخر ، لا يقل غيرة على الاسلام من الاول ، وقال : ان كمال الاسلام وفضله ان يترك المجتمع في ان يختار من الانظمة للشؤون الاقتصادية ما هو اصلح له وانفع على اساس المراعاة لمبادىء الشريعـة الاسلامية ، وبكلمة ان الاسلام يراقب ويحاسب جميع الانظمةالاقتصادية، فيحللها او يحرمها او يعدلها على اساس مصلحة الفرد والجماعـة ، وفي نطاق الحـدود التي اشار اليها سبحانـه بقوله : « تلك حدود الله فلا تعتدوها ـ ٢٢٩ البقرة » . وعليه فيكون للاسلام انظمـة اقتصادية ، لا نظام واحد . واستدل هذا الغيور بما يلي :

١ ـ ان البيئات الاجتماعية تختلف وتتباين تباينا كبيرا في ثرواتها ووسائل انتاجها وفي حاجاتها ، وضروراتهـا الاقتصادية ، وفي عـاداتها وثقافتها ، بل ان المجتمع الواحد تتبدل اوضاعه ، وتتغير مع الزمن،ويغدو النظام الذي كان يصلح بالامس من امر يفسده اليوم ، ويضر بمصالحـه فمن العسير اذن ، بل من المستحيل ان يحقق نظام اقتصادي واحد لمجتمع واحد جميع مصالحه في كل زمان ، وفي سائر الاحوال ، فكيف بالنظـام

الموحد للعالم كله من اقصى المشرق الى اقصى المغرب ، وفي كل الاجيال والازمان !.

وأي عاقل يتصور ان النظام الاقتصادي الذي يطبق الآن فيالولايات المتحدة هو اصلح وانجح نظام لليمن واهل اليمن ؟. وان الاجدر والاليق بالكويت والسعودية ، وبعد ان تدفق النفط في اراضيها هو نظامالصحراء الجرداء الذي كان متبعا فيهما قبل النفط ؟.

ان رسالة محمد (ص) عامة تشمل كل جيل في كل ارض ، والى آخر يوم . فاذا سنت هذه الرسالة نظاما اقتصاديا لمجتمع دون مجتمع ، ولبيئة دون بيئة ـ تنافى ذلك مع عمومها وشمولها ، ومع اهدافها ايضا ومن البداهة بمكان ان تعدد الانظمة بتعدد المجتمعات والاوضاع غير ممكن ، لان الاوضاع والاحوال لا حصر لها ولا نهاية .. والنظام المثالي العالمي مستحيل ـ كما اوضحنا ـ فلم يبق الا السكوت ، واذا سكت الاسلام عن هذا النظام ، لانه مستحيل من الوجهة العملية والتطبيق ـ فقد اعلن وقال ـ اي الاسلام ـ بلسان الامام جعفر الصادق (ص) : « كل شيء فيه للناس الصلاح في جهة من الجهات فهو جائز ، وكل ما فيه قوامهم ، وبلغة لجميع حوائجهم فحلال تعلمه وتعليمه والعمل به » . وبهذا المبدأ العظيم تتجلى عظمة الاسلام ، ولولاه لم يكن دين الله يسرا ، ولا للاسلام مرونة، ولا للعقول ان تنظر وتجتهد ، وبالتالي ان لا تختم الشرائع بشريعة محمد (ص) ولا النبوات بنبوته .

٢ ـ ان الاسلام أجاز الاقطاع في حال دون حال ، وذلك اذا دار الامر بين ان يبقى هذا الجزء من الارض بورا ومعطلا بلا انتاج مع عدم الاقطاع في حين ان الناس بحاجة ملحة لاصلاحه وانتاجه ، وبين ان يقطعه الحاكم مؤقتا لفرد او لفئة على ان ينتج ما يسد الحاجة ، ويستغنيبانتاجه

عن الاستيراد من الخارج ، اذا كان الواقع على هذا فالاقطاع ارجح كوسيلة الى غيره ، لا كغاية في نفسه تماما كأكل الميتة لمن اشرف على الهلاك .

وايضا اناط الاسلام ــ في بعض الحالات ــ ملكية الارض بدين الانسان وعقيدته ، فلقد اجمع فقهاء المسلمين قولا واحدا على ان أي بلد مشرك فتحه المسلمون بالقوة ــ بعد ان رفض اهله الاسلام ــ انتزعت منهم الارض وتغدو بكاملها ملكا مشاعا بين المسلمين لمن كان منهم ويكون، وان اسلم اهل البلد المشرك طوعا ودون قتال تبقى الارض على ملكهم يتصرفون فيها كما يشاءون .

ولا نعرف نظاما اقتصاديا اناط الملكية بالدين والعقيدة .. ولكن الحكمة والمصلحة آنذاك اقتضت هذا القيد والشرط تماما، كما اقتضت جواز الاقطاع عند الضرورة ، واذن ، من الخطأ ان نعتبر هذه الملكية مصداقا للنظام الاقتصادي وفردا من افراده .. وقد فسر بعضهم هذه المصلحة بالترغيب في الحق والتحذير من اتباع الباطل ، ونعطف على هذا التفسير: ان الاسلام ترك الخيار للمحاربين المشركين في البقاء على ارضهم ان اسلموا ، او انتزاعها منهم ان اصروا على الشرك والقتال ، فاختاروا الشق الثاني ، وتنازلوا عن الارض ، وهم قادرون على ابقائها والاحتفاظ بها لمصالحهم .

٣ ــ لو ان الاسلام قيد المسلمين بنظام اقتصادي خاص لاوقعهم في العسر والحرج ، واضطرهم الى الخروج من عقيدتهم ، وبهذا يكون الاسلام هو السبب لاغرائهم بمعصيته والخروج عليه كالحاكم الجائر يحرج الرعية الى الخروج عن طاعته .

٤ ــ اتفق فقهاء المسلمين على ان كل شيء جائز وحلال اذا لم يحرم حلالا ، او يحلل حراما ، وان الاسلام قد اقر الناس على عاداتهم واوضاعهم

وانظمتهم ومعاملاتهم ، وأباح لهم كل ما يأتي به الزمن على ان لا يتعدوا حدود الله واحكامه .. وعلى هذا الاساس عدل الاسلام بالتقليم والتطعيم بعض المعاملات والتصرفات ، وهدفه الاصيل اصلاح الكل ، وتوجيههم نحو العدل والاحسان ، وصيانة الحقوق والحريات للناس على السواء ، وتوطيد الصلات فيما بينهم ، فلا يطغى انسان على اخيه بالاستغلال ، او التعدي على حق من حقوقه .

هذا ما اجمع عليه علماء المسلمين ، بل هو من ضرورات الدين .. ونذكر من اقوالهم عبارة لقطب من كبارهم ، وهو الميرزا النائيني فيما رواه عنه تلميذه الخراساني في فوائد الاصول ج ٤ ص ١٤٠ ، وهذا نصه بالحرف : « ان الامور الاعتبارية العرفية التي يعتبرها العرف والعقلاء كالملكية — انتبه لكلمة الملكية — والزوجية والرقية والحرية ونحو ذلك من منشآت العقود . والايقاعات كلها ثابتة عند الناس قبل الشرع والشريعة وعليها يدور نظامهم ومعاشهم ، والشارع امضاها بمثل « احل الله البيع .. واوفوا بالعقود .. والصلح جائز بين المسلمين ، ونحو ذلك من الادلة الواردة في الكتاب والسنة وليست الملكية المنشأة بالبيع من المخترعات الشرعية بل هي من الامور الاعتبارية العرفية التي امضاها الشارع بزيادة بعض القيود والخصوصيات » .

وهذا الكلام واضح الدلالة على ان « الملكية » لا واقع لها في نفسها ، ولا هي من جعل الاسلام واختراعه في شيء ، وانما هي مجرد تبان واصطلاح من العرف دعت اليه الحاجة والضرورة تماما كما تبانوا على بيع الطماطم مثلا — بالوزن — والجوز بالعد ، واقرهم الاسلام على ذلك تيسيرا عليهم من جهة ، ولانهم لم يعصوا الله فيه من جهة ثانية، ومعنى هذا ان الناس لو تبانوا واتفقوا على الغاء الملكية طوعا وعن طيب النفس — لاقرهم الاسلام على ذلك ، ولم يلزمهم بابقاء الملكية جبرا وقهرا ..

وايضا معنى هذا ان الاسلام لا نظرية له مستقلة في الملكية ، وانما نظره ورأيه فيها تابع للعرف وجودا واستمرارا ، وبالتالي فلا مذهب اقتصادي للاسلام . لان الملكية هي الدعامة الاولى للانظمة الاقتصادية .

وبعد : فلا اثر في الاسلام ، ولا في غيره لنظام اقتصادي عالمي ومثالي كامل وثابت لا يتغير ولا يتبدل بتبدل الاوضاع والمستحدثات .

ابدا لا وجود لهذا النظام ، لانه يتفرع عن الاوضاع والمستحدثات، ويرتبط بها ارتباط الحكم بموضوعه ، والفرع باصله .. هذا الى ما ثبت بالتجربة والخبرة الحسية ان كل وضع ، بل كل محسوس ملموس اقتصادا كان ام غير اقتصاد فهو الى التغير والزوال لا محالة ، واذن فالنظام العالمي خيال في خيال .. ومن اجل هذا وغير هذا فوض الاسلام الى الناس التنظيم للشؤون الاقتصادية والاحتفاظ باصول الشريعة وقواعدها، وقال فيما قال : كل شيء ييسر العيش والراحة ، ويحقق العدل والخير للجميع فهو جائز وحلال قديما كان ام جديدا . ومعنى هذا في جوهره ان كل نظام انساني عادل لا يضيع فرضا واحدا من فرائض الله ، ولا سنة واحدة من سنن نبيه فهو اسلامي قرآني محمدي ، وعليه يكون للاسلام انظمة اقتصادية لا نظام واحد ، وبالتالي فاي القولين افضل وانسب لعظمة الاسلام ، هذا القول ، او القول بان للاسلام نظاما واحدا فقط لا يتغير ولا يتبدل من يومه الى قيام يوم الدين ؟

اطار واحد لجميع الاحكام :

في الشريعة الاسلامية احكام مطلقة لا يحدها شيء ، وهي التي شرعت لمصلحة الانسان بما هو انسان بصرف النظر عن وضعه الخاص ، مثل رفع القلم عن الصبي والمجنون ، وايضا في الشريعة احكام مقيدة وتابعة للظروف والاوضاع الخاصة ، وهذه تتبدل وتتطور بحسب تبدل

الظروف وتتطـور الاوضاع كجـواز الاقطـاع اذا دعت الضرورة ٠٠ الشرعية اطار واحد يضمها جميعا مطلقة كانت ام مقيدة ، وهـذا الاطار هو الاصول العامة والقواعد الكلية ، ومنها : ضمان الحرية لكل فرد مع العدالة ــ طبعا ــ اذ لا حرية بلا عدالـة ، ولا عدالة بلا حرية وصيانـة الحقوق للجميع ، والتعاون المتبادل ، واعتبار المجتمع وحدة متماسكـة ، وان حقوقه تسمو على حقوق الافراد ، والاعتراف بكل ما يصلح الناس، وتحريم الاستغلال وكنز الاموال ، ومسؤولية الانسان عن عمله وتقصيره ٠٠ الى غير ذلك من القيم الاخلاقية ، والمبادىء الانسانية ٠

وبهذه المبادىء وحدها تقاس جميع الاقوال والافعال ، وفي ضوئها يجوز للمجتهد ان يختار من القوانين الوضعية المستحدثة ويفتي به ، وان لم يكن له عين ولا اثر في كلمات الفقهاء القدامى منهم والجدد ٠٠ فـأي حكم انساني ، او نظام ينبع من حاجات الناس فهو حكم الله ونظامـه وقانونه ، وان كان جديدا ومن تشريع الشرق او الغرب ٠٠ بل يجب على الفقيه ان يفعل ذلك وبخاصة المرجع المسموع ، كي يثبت للملأ والاجيال ان الاسلام هو دين الحياة والخلود ٠٠ بل يجوز للمجتهد ان يراجع الفقه المدون من الفه الى يائه ، وان يقلم ويطعم على شرط الرسالة المحمدية التي جاءت لصلاح الناس واصلاحهم في كل زمان ومكان ، ومن اجل هـذا فتحت باب الاجتهاد على مصراعيه ، وجعلته حقا ثابتا للمجتهد ، واوجبت عليه ان يمارسه ، ولا يمنع الناس من ثماره ٠

ولكن اين الذي لا يخشى في الله لومة لائم ؟٠ « واذ اخذ اللهميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهـم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون ــ ١٨٧ آل عمران » ٠

الاسلام ضد الانظمة الثلاثة :

قلنا : ان الشيوعية تلغي الملكية مالا وآلة وعملا وارضا وعقارا ،

وان الرأسمالية تطلقها للفرد بلا حدود ، وان الاشتراكية تحدد وتقيد بعض القيود ، اما الاسلام فلا يلغي ولا يطلق ، ولا يحدد ، بل يفوض لكل مجتمع الرأي في اختيار ما هو اصلح له انتاجا وتوزيعا على شرط كتاب الله وسنة نبيه ، وكل من الانظمة الثلاثة يرفض هذا الشرط ويناوئه، قال تعالى : « وما الحياة الدنيا الامتاع الغرور .. والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا » . وقال الشيوعيون : كلا ، لا مرد ولا ثواب ولا عقاب ؟ ولا شيء الا الدنيا ومتاعها وغرورها .. ويأكل الرأسماليون اموال الناس بالباطل ، يتلهون بها عن الله والانسانية ، ويستزيدون من الترف وكنز الاموال على حساب البائسين .. وهددهم سبحانه بقوله : « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون ــ ٣ الحجر » .. وتؤمم الاشتراكية املاك العباد بالقهر والغلبة ، وتحكم العمال بالدماء والاموال ، والله سبحانه يقول : « لا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل الا ان تكون تجارة عن تراض منكم ــ ١٠ النساء » . وقال الرسول الاعظم (ص) : « دماؤكم واموالكم عليكم حرام » .

وبهذا يتبين معنا ان من نسب الاشتراكية الى الاسلام فقد خبط وخلط ، واتخذ من دين الله اداة لدعم الشيوعية والكتلة الشرقية من حيث يريد ، او لا يريد . ومن نسب الرأسمالية بوضعها الحاضر الى دين سماوي فهو عميل مأجور ، او جاهل غير معذور ، لان الجهل بالواضحات تقصير واهمال ، ومن قال : للاسلام نظام اقتصادي مستقل بحدوده وقيوده عن كل نظام من هذه الانظمة فهو ، ولا شك ، نزيه القصد ، وصاحب نظرية ايضا ، ولكن خانه التطبيق ، وكم من عالم نحرير زلت به القدم حين تصطدم خطوطه بعملية التطبيق ، ومهما يكن فان الامر هين ويسير ما دام كل منا يؤمن ويعتقد بان الاسلام يهدف في جميع احكامه ومبادئه الى حياة افضل ، وانها المثل الاعلى الذي يسعى الانسان بما هو انسان الى بلوغه في كل جيل .

الزكـاة :

قرن سبحانه وجوب الزكاة بوجوب الصلاة في العديد من الآيات ، واهتم بها الفقهاء اهتماما بالغا ، فعقدوا لها في كتبهم بابا خاصا ، وحددوا نوعها وكميتها وكيفية ادائها ، ومن هم المستحقون لها ، وغير ذلك في كلام طويل ، وتفصيل دقيق •

وتكلم حول فوائدها كثير من ارباب الاقلام ، فرآها بعضهم من باب المساواة ، وآخر من العدل الاجتماعي ، وشط ثالث بقوله : ان الهدف منها ازالة الطبقية ، وتحقق الاشتراكية ، وقال رابع : هي عبادة • ولا تعلل العبادات الا بالنص الذي دل عليها ، وامر بها •

والحـق :

ان في الزكاة جانبين : احدهمـا عبادة حيث يعتبر فيهـا قصـد التقرب الى الله تعالى ، وثانيهما حق مالي ، وبالنظر الى هذا الجانب يصح لنا ان نعدها من العدل الاجتماعي الالزامي ، اما المساواة فيما زاد عن الحق المعلوم الذي ذكره الفقهاء فهي بر واحسان ، لا وجوب والزام •• وعلى اية حال فقد حارب الاسلام الترف والفقر معا ، وحث كل غني ان يبذل ما زاد عن حاجته في سبيل الله ، وعلى المعوزين • ومن ذلك قـول الرسول الاعظم (ص) : « من كان معه فضل من ظهر فليعد به على من لا زاد له ، ومن كان له فضل من ظهر فليعد به على من لا ظهر له » • المراد بالظهر المطية والمركب • وفي حديث ثان : « ايما اهل عرصة امسوا، وفيهم جائع فقد برئت منهم ذمة الله » •

وهنا سؤال

يطرح نفسه ، وهـو مـا دام الامـر كذلك فلماذا لم يحدد الاسلام الملكية الفردية • بمقدار حاجة الفرد فقط ، ويمنعه عن تملـك الزائد بدل ان يبيح له ذلك ثم يحثه على الصدقة ، ويستدر عطفه وشفقته

على المعوزين !• وعلى الاقل ان يوجب على الاغنياء بــذل ما زاد عــن حوائجهم تماما كما اوجب الزكاة •

الجواب :

ان الاسلام يحرص كــل الحرص ان يستكمــل الانسان حريته ، ويحتفظ بشخصيته ، وان يستغل طاقته في الابداع والتعمير ، ويبذل في هذا الميدان كل ما لديه من جهد وكفاءة ، ومن اجل هذا فسح له المجال على اساس الحق والعدل •• وفي الوقت نفسه يحرص الاسلام ان يحتفظ الانسان بانسانيته وضميره ووجدانه ، فيتعاطف مع ابناء جنسه بالمــال وبالنصيحة والارشاد ، وغير ذلك من انواع التعاطف والتعاون •• ولــو قيد الاسلام الملكية الخاصة بحاجة الفرد لسد في وجهه باب التعــاون ، والتقرب الى الله بعمل البر من جهة ، وقضى على ارادته وطاقته وطموحه من جهة ثانية •• وليس من شك ان الانسان بلا طاقة وطموح اشبه بالجماد او الحيوان •

ونحمد الله شكرا على هدايته ، والصلاة على محمد وعترته •

من شرح النهج الجديد

ابتدأت بتأليف كتاب « فلسفة التوحيد والولاية » في شهر المحرم سنة ١٣٩١ هـ . بقم ، وانتهيت منه في جمادى الاولى بمشهد الامام الرضا (ع) في اوتيل سينا ، واعدت النظر فيه في شهر جمادى الثانيةبمدينة تبريز ، وانا ضيف على العلامة الشهير حجة الاسلام الميرزا عبدالله مجتهدي ، وانتهت المطبعة منه في اليوم الاول من شهر رمضان المبارك، وبقي من الملزمة الاخيرة ثلاث صفحات بيض، فرغب الي القائمون على المطبعة ان املأها بأي شيء ، وفكرت حائرا : ماذا اختار ؟ وكنت قد بلغت من « الشرح الكاشف » عن خطب نهج البلاغة الى قول الامام (ع):«وان بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيه صلى الله عليه وآله » من الخطبة السادسة عشرة ، فاخترت للصفحات الباقية شرح هذه الفقرة .

يريد الامام (ع) ان المسلمين اليوم كما كانوا في الجاهلية الجهلاء تحسبهم جمعا وقلوبهم شتى على ما فيهم من سائر العيوب .. وتكلم كثيرون عن السبب الموجب لتأخير المسلمين ، ووضعوا في ذلك المؤلفات وفسروه بالفرقة والشتات ، والمخالفة عن امر الاسلام ، وعدم الالتزام باحكامه وكلامه وكلام الامام يومىء الى ذلك ، لانه ربط ولازم بين عدم التقوى والبلية ، وآيات القرآن صريحة في هذا المعنى : « فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم ٥ ــ الصف » « والذين اهتدوا زادهم هدى ــ١٧ محمد » .

ونوجز بيان التلازم والترابط بان المسلم الحق هو الذي يؤمن ويعتقد :

اولا :

وقبل كل شيء : بأن وراء هذا الكون ذاتا وقوة يجب ان يحبها ويقدسها وايضا يؤمن ويعتقد بان تلك الذات والقوة هي مصدر الخلق والتدبير ومصدر التحليل والتحريم ، وانها تهاب وترجى، وتثيب وتعاقب .

ثانيا :

ان يترجم المسلم تقديسه وحبه لله . وايمانه بانه تعالى هو وحده الخالق والحاكم والمشرع والمحاسب والمعاقب ؛ ان يترجم ذلك كله بالافعال لا بالاقوال ، لان الحب والايمان يقاسان بالآثار والاعمال ، اما مجرد النظرية المنطقية ، والحالة النفسية فتشبهان الخيال وحديث النفس.

هذا هو المسلم الحق والاسلام الصحيح ، واذا نظرنا الى المسلمين في هذا العصر ، واردنا ان نقيم تدينهم على هذا الاساس ـ وجدنا انهم يترجمون تقديس الله بالمظاهر والشعائر كالصوم والصلاة ، وبناء المساجد والحسينيات ، اما الايمان بان الله وحده هو المحلل والمحرم ، والذي يجب ان يخاف ويرهب ، اما هذا الايمان فلا اثر له الا عند القلة القليلة من الافراد ، اما المجتمع الاسلامي على وجه العموم فالاسلام عنده نظرية منطقية تنحصر في الاذهان والاستدلال ، وعصبية دينية لا تتجاوز الخطرات والاقوال .

ان الذين في مجتمعنا اليوم مجرد « اتيكيت » و « بروتوكول » تماما كالتهنئة في الافراح والتعزية في الاتراح ، ولا نرى له اثرا الا في العبرات وضرب القامات ، وفي سير المواكب واقامة الحفلات والاذان والصلوات ، وفيما عدا ذلك لا اثر للدين الا عند الافراد كما اشرنا .

وهكذا كلما كثرت المظاهر الدينية وارتفع طنينها ضعف تأثير الـدين من الوجهة العملية حتى قال قائل على صفحات الجرائد : « ان الله لا يوجـد بين القوم الذين يؤمنون به » • وعسى ان يريد ان الذين يكثرون مـن التظاهر في الايمان هم ابعد الناس عنه تماما كالكسول البطال يكثر من الثرثرات والتفاهات ••• ان المتدين حقا وصدقا يظهر دينه وايمانـه في جميع افعاله وحركاته ، ووجوه نشاطـه واخلاقه لا في مجرد الشعـائر والمظاهر •

فهرس الكتاب
فلسفة الولاية

الموضوع | الصفحة

معالم الفلسفة الإسلامية

مَعالم الفلسَفة الإسلاميَّة

نظرات في التصوّف والكرامات

دار ومكتبة الهلال
بيروت - لبنان
ص . ب ١٥/٥٠٠٢

دار الجواد
بيروت - لبنان
ص . ب ١٤/٥٨١٣

مقدمة المؤلف

بسم الله ، وله الحمد ، والصلاة على محمد وآله .

وبعد :

فقد وضعت هذا الكتاب لطلاب الفلسفة الاسلامية ، لا للفلاسفة ، والاساتذة الكبار، وضعته ليفهم الطالب موضوعات هذا الفن، ومصطلحاته وبذلت في سبيل إفهامه أقصى ما لدي من جهد ، فان كان من غموض فانه في الموضوع نفسه ، لأن الفلسفة معقدة شديدة الغموض ، وغموضها في نفسها يستدعي غموض التعبير عنها. لقد حاولت جهد المستطيع أن أشرح واوضح ، واقرّب المعنى الى الاذهان بالامثلة ، وبتعابير شتى ، وكتبت كما أتكلم واحدث ، ولم أتكلف التجويد والتزويق ، وكنت اذا وجدت تعبيرا لغيري أوضح وأصرح اعتمدته من أجل التسهيل والتيسير .

هذا فيما يعود الى الاسلوب ، اما الفكرة فلم أعتمد في معرفتها على مستشرق ، او متطفل ، قديم او حديث ، بل استقيت من الينبوع والمصدر الاول أمثال الطوسي والحلّي ، والإيجي والقوشجي ، وغيرهم . وكلنا يعلم ان الطريق الى الينبوع شاق عسير ، وان الفرق كبير جدا بين الجهد الذي يلاقيه من يشرب من كوز غيره ، وبين من لا يرتضي لنفسه الا ان يغترف من المصدر .. أقول هذا مع العلم بأني لم أبلغ من فيضه كل ما أردت ، ولكني بلغت ، ولله الحمد ، من طلابي في الجامعة اللبنانية بعض ما أردت ، فأنرت لهم الطريق ، وعلموا من حقائق الفلسفة ما لم يكونوا يعلمون . وقد شعروا بهذه الحقيقة ، بل خيّل اليهم أنهم نالوا من الفلسفة الاسلامية الشيء الكثير .

ولو كانت الفلسفة كعلم النحو والصرف ، مجرد قواعد تحفظ ، وتطبق عند التلفظ والكتابة — لهان الامر على الاستاذ والتلميذ ، او لو كان للفلسفة الاسلامية اليوم من الاهمية عند الناس ما كان لها من قبل لبذل في تحصيلها من الجهود أكثر مما نرى •

ولست انكر ان دنيانا الحديثة غير دنيا الاقدمين ، وان العلم الحديث أصبح عمادا لكل ما يجري من شؤون في هذه الحياة ، غير أن دراسة الفلسفة على حقيقتها تخلق في الطالب قوة يستطيع بها أن يحاكم الافكار على أساس المنطق السليم ، ويذب عن صحيحها بالحجة الدامغة• هذا اذا لم تخلق منه عبقريا مبدعا • ان دراسة الفلسفة الاسلامية هي دراسة المعارك بين عقول الاقطاب ، ولا شيء أجدى نفعا للعلم والفن من الصراع والنزاع في مجال الافكار والآراء ، على ان يكون رائدها الصدق والصراحة • وانا أعتقد ان الذي يضيق بتعدد الاقوال والنقاش والجدال حول المسألة الواحدة هو ضعيف لا ينهض بالحمل الثقيل •

ورب قائل بأن مشاكلنا العملية لا يحلها الا العلم ، أما الفلسفة فتحل مشاكل فكرية لا تمت الى الحياة بصلة •

وجوابه أن الفلسفة الاسلامية كانت السبب الاول للحضارة الاسلامية التي هي ام الحضارات في هذا العصر • ولولا الفلاسفة المسلمون لتأخرت الانسانية عما هي عليه الآن مئات السنين ، هذا الى أن حل المشاكل الفكرية هو السبيل الى حل المشاكل العملية •

ثم ان التمييز والفصل بين الفلسفة وتاريخها لم يكن معروفا من قبل،فلم يضع القدامى كتبا في الفلسفة ، واخرى في تاريخها ، كما هي الحال اليوم ، لان من يدرس الفلسفة ، ويدرك مسائلها ، وأقوال الفلاسفة في كل مسألة ، واصطلاحاتهم — يستطيع معرفة تاريخها من غير أن يستعين

باستاذ . بل يستطيع أن يؤلف فيهـا بسهولة . لان تاريخ الفلسفة هو الاطـلاع على آراء الاقدمين ، والتمييز بينها ، ومعرفـة ترتيبها بحسب الزمان ، ولا شيء أيسر ، وأسهل من ذلك على من درس الفلسفة نفسها. وعليه فان هذه الصفحات كما هي فصول في الفلسفة الاسلامية ، فانها في نفس الوقت تسهّل السبيل الى معرفة تاريخها .

والله سبحانه المسؤول أن يجد قراءُ التـراث الاسلامي والعربي بغيتهم فيما كتبت ، والحمد لله اولا وآخرا .

المؤلف

القسم الاول

معالم الفلسفة الاسلامية

الفصل الاول

الفلسفة

موضوعها ـ غايتها ـ منهج البحث

قبل أن ندرس علما من العلوم ينبغي أن نعرف موضوعه ، وغايته ، والمنهج في دراسته ــ مثلا ــ نعلم ان كلام العرب موضوع علم النحو ، وأن الغاية منه صَوْنُ اللسان عن الخطأ في الإعراب ، وان المصدر الذي نعتمده هو أقوال الثقات وروايتهم عن العرب .. فما هو موضوع الفلسفة ، وما هي الغاية منها ، وبالتالي ما هو منهج البحث المتبع فيها ؟.

موضوع الفلسفة :

لكي يتضح موضوع الفلسفة جليا نمهد بما يلي :

إن اللغة العربية موضوع لدراسة علم النحو ، ولكن النحوي لا يبحث جميع صفات اللغة وعوارضها ، وانما يهتم بما يعرض لأواخر الكلمة من البناء والإعراب رفعا ونصبا وجرا ، أما سائر الجهات كمعنى الكلمة او وزنها وما الى ذاك فلا تعنيه في كثير او قليل ، فمجال دراسة علم النحو محدود بجهة خاصة من اللغة العربية . وكذا علم الصرف ، فان موضوعه اللغة العربية، ولكنه يبحث عن تصرفات الكلمة ومشتقاتها، وما يعرض لحروفها ما عدا الحرف الاخير . وعلم مفردات اللغة يبحث

في معنى الكلمة ، ولا يعنيه شيء من أمر التركيب . وعلم البيان يبحث في إيراد المعنى الواحد بعبارات شتى ، والبلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

فموضوع العلـوم العربيـة هو اللغـة ، وانما اختلفت وتباينت بالحيثيات والجهات .

وهكذا سائر العلوم قد تتفق في أصل الموضوع، وتختلف فيالقيود والحيثيات . فالعلوم الطبيعيـة تبحث في الوجود ، ولكن من حيث هو جسم مادي ؛ له قوانين خاصة تحـدده . والعلـوم الرياضية تبحث في الوجود من حيث الشكل والاعداد (١) . والكيميـاء تبحث في الوجود من حيث هو مـادة تحتـوي على عنـاصر ، لهـا تأثير خـاص عنـد التركيب . وعلم الحياة يبحث في الوجود من حيث هو مادة حية تستهلك الطعام وتجدّد بناءها . وعلم التاريخ يبحث في الانسان من حيث ماضيه وتطوراتـه . وعلـم النفس يبحث في الانسان من حيث أنه كائن يحس ويدرك .. وهكذا تتحد العلوم في أصل الموضوع ، وتختلف بالحيثيات والجهات .

اما الفلسفة فهي العلم الوحيد الذي يبحث في الوجود مجردا عن كل قيد ، وبقطع النظـر عن كونه طبيعيا او غير طبيعـي . فحين يقـول الفيلسوف : ينقسم الوجود الى واجب وممكن فلا يريد بقوله هذا أن التقسيم يعرض لنوع خاص من الوجود ، وانما أراد طبيعة الوجود بما هو . فكما أن المهندس يبحث في المربع او المثلث ، بقطع النظر عن كونه من الحديد او الخشب ــ كذلك الفيلسوف يبحث في الوجود بقطعالنظر

(١) عد الملا صدرا في «كتاب الاسفار» الموسيقى من العلوم الرياضية . وهو صدر الدين محمد الشيرازي من اعاظـم فلاسفة الامامية توفي سنـة ١٠٥٠ هـ .

عن كونه طبيعيا او غير طبيعي • اما غيره من العلمـــاء فان مجال دراسته ينحصر بنطاق خاص من الوجود ، وهذا معنى قول أرسطو : « الفلسفة تبحث في طبيعة الوجود كما هو » • وسنوضح هذه الحقيقة باسلوب آخر في البحث الآتي بعنوان « الوجود » •

اشارة :

شاع في هذا العصر رأي يقول بأنهدا التحديد هو تحديد لموضوع الفلسفــة التقليدية ــ القديمة ــ حين كانت الفلسفة كلّ العلــوم ، اما اليوم فلم يعد لها تلك الاهمية التي كانت لها من قبل ، حيث قسم العلماء تركة الفلسفة فيما بينهم ، واختص كل منهم بنــوع من انواع الوجود • ولم يبق لها ما تتحدث عنه • فعالم الطبيعة أولى من الفيلسوف بالتحدث عن الشؤون الطبيعية،وعالم الرياضة أولى منه بالشؤون الرياضية، وعالم النفس والاجتماعأولى بالحديث عما يعود الى الانسان وصفاته وغرائزه• اذن لا جديد عند الفيلسوف يتحدث عنه ، الا شيء واحد ، وهو تحليل الالفاظ ، وتنظيم القضايا التي يستعملها العلماء ، أي أن الفيلسوف يقوم بعملية البيان والتوضيح فقط ، اما عملية الاستنتاج والاستخراج فيتركها الى غــيره • فنيوتن ــ مثلا ــ يكتشف الجاذبيــة ، والفيلسوف يفسر معناها ، وآينشتين يكتشف النسبية ، والفيلسوف يشرحها ، ويوضحها ، فاذا شرحها آينشتين كان عالما وفيلسوفا في آن واحد •

ويرد هذا القول :

اولا :

ان التفسير والتوضيح من شؤون اللفظ لا من شؤون العقــل ، ومعلوم أن مهمة الفيلسوف عقلية ، وليست لفظية ، واذا استعمل اللفظ

فانما يستعمله كوسيلـة وأداة للتعبير عما يريد ، شأنه في ذلك شأن أي انسان •

ثانيـا :

ليس توزيع العلماء لمناطق الوجود ، واختصاص كل واحد بدائرة منه ـ معناه انه لم يبق للفلسفة موضوع تبحث فيه ، بل بقي لها الوجود المطلق الشامل [1] لجميع مناطق الوجود وانحائه ، فكما ان كل حاكم من حكام الاقاليم يسيطر على اقليمه ومنطقته ، والرئيس فوق الكل يسيطر على جميع الاقاليم والمناطق ، كذلك الفلسفة يخضع لها الوجود بكامله ، فالعالم بأسره موضوعها ، والكون بعظمته مجال دراستها •

فاذا بحث كل عالم في جهة من جهات الكون فان الفيلسوف يبحث في أصل الكون ، هل وجـد من شيء او لا شيء ؟ وهل هو حـادث او قديـم ؟ وهل هو مادة صرف والروح عارض من عوارضه ، او هو روح صرف ، والمادة صورة من صوره ؟ او هو مادة وروح معا او مادة وروح وواجب لوجود وراءهما ، او لا مادة ولا روح ، وانما هو وهم وخيال ، كما تزعم فئة من السفسطائيين ؟ وهل وجد الكون صدفة ، او بقـدرة قادر ؟ ومن هو هذا القادر ؟ وما هي صفاته ، ومن أي نوع تكون علاقته بالكـون ؟ وهل الافكار الحاصلة من التجربـة او الاستنباط خطـأ او صواب ؟ وهل الدين هداية او ضلالة ؟ وما هو مقياس الحسن والقبح ، والخير والشر ، والحـق والباطل ، وما الى ذاك من البحـوث الالهيـة والاخلاقية والطبيعية والرياضية من الوجهة العامة •

---

(١) بهذا يفرق بين العلم والفلسفـة ، فموضوعها عـام ، وموضوعـه خاص . ثانيا : ان العلم يبحث عن العلل القريبـة ، والفلسفـة تبحث عن العلل البعيدة . ثالثا : الفلسفة تبحث عما ينبغي ان يكـون والعـلم عن الشكل الكائن بالفعل . وبعضهم فـرق بينهما بقولـه : ان العلم يتنـاول الطبيعة ، والفلسفة ما وراءها . ومهما يكن ، فان التفرقة بينهما حديثـة ترجع الى ٣٠٠ عام كما قيل .

وخلاصة القول :

ان موضوع الفلسفة هو الكون وما بعده ، والانسان .

غاية الفلسفة :

ليست الغاية من الفلسفة أن يحصل طالبها على ثروة مالية ، او شهرة أدبية ، ولا أن يكون جليلا ، له هيبة الفلاسفة ووقارهم ، ومقدرتهم على الجدال والنقاش ، وانما الغاية الاساسية منها ادراك حقائق الموجودات كما هي في واقعها بالبراهين العقلية ، لا بالظن والتقليد . والمراد بالموجودات اعم من الطبيعية وغير الطبيعية [1] . ويتفق هذا مع رأي أفلاطون وأرسطو ، ويقرب منه قول بعض اساتذة الفلسفة الجدد من « ان الفلسفة محاولة يراد بها فهم الوجود ومعرفة انفسنا ، مكاننا من الوجود ، لاسباب عقلية نظرية ، او اغراض عملية مادية » . وعلى هذا فان حصل لنا الاقتناع بفهم الوجود فهو المطلوب ، والا فقد اشبعنا رغبة في انفسنا .

وقيل : ان الغاية من الفلسفة محاولة التوفيق بين حقائق الوحي والعقل . ويلاحظ على هذا القول بأنه تضييق لموضوع الفلسفة الذي يشمل الوجود بماهو كما اسلفنا . وقيل : ان الفلسفة تهدف الى الحياة العملية . ويسمى هذا المذهب بالمذهب البرجماتي وعنده أن الفكرة اذا لم تكن أداة للسلوك فليست بفكرة ولا بشيء من المعرفة ، ومن رواد هذا المذهب الفيلسوف الاميركي وليم جيمس ت ١٩١٠ (انظر نظرية

---

(١) قال بعضهم : ان قولنا الموجودات غير الطبيعية كلام فارغ لا يدل على معنى ؛ لان الموجود ينحصر في الطبيعيات فقط ، فأي لفظ لا يشير الى معنى محسوس فهو لا شيء ، واللاشيء عدم لا يتصف بالكذب او الصدق؛ حيث لا واقع يمكن ان يطابقه مدلول اللفظ او لا يطابقه . وهذا القول يبتني على صحة المذهب المادي الذي يرى ان المادة أصل ، والروح فرع ، وسيأتي الكلام عنه .

المعرفـة لزكي نجيب محمود) . وهذا القـول يربـط التفكير النظري بالعمل ، وليس من شك أن هذا الاتجاه سليم في نفسه ، وهو لا يتنافى مع القول الاول ، لان الفلسفة اذا كانت سبيلا لمعرفة الحقيقة سبيل ايضا للعمل [1] . قال الامـام علي : « رحم الله امرءا أعدّ لنفسه ، واستعد لرمسه ، وعلم من أين ؟ وفي أين ؟ والى أين ؟ » أي من أين أتى ؟ والى أين ينتهي ؟ وفي أي وضع هو ؟ وبكلمة ان يعلـم مكانه من الوجـود ، ويعمل بما تستدعيه بدايته ونهايته وحياته الحالية .

منهج البحث :

نريد بالمنهج الطريق الذي يعتمده الفيلسوف في بحثه عن الحقيقة ، ولا خلاف [2] في ان الطريق هوا لعقـل لا الاجمـاع ولا العـرف ولا الوحي . وهنا اسلوبان لاستخراج الحقيقـة من العقل ، الاول قديم ، وهو القياس الصوري الذي اعتمده ارسطو واضع علم المنطق ، وسمي صوريا ، لانه يهتم بصورة التفكير وهيئته . قال ارسطو : لا يصح الحكم على أمر بأنه صادق الا اذا كان نتيجـة لقياس مضبوط ، وهو عبارة عن قول مؤلف من قضيتين او اكثر يلزمه لذاته قول آخر ، أي متى سلمنـا بصحة المقدمات يلزمنا قهرا التسليم بالنتيجـة المترتبـة عليها ، فالقياس ينتقل بنا من مقدمات معلومة الى حقيقة مجهولة ــ مثال ذلك ــ الانسان حيوان عاقل ، وزيد انسان ، فزيد حيوان عاقل .

وأنكر البعض هذا القيـاس ، وأورد عليـه اعتراضين : الاول ان

---

(١) قال بعض الفلاسفة : ان الغاية من الفلسـفة التجلي ، والتخلي ، والتحلي ، ويريد من التجلي معرفة الحقائـق ، ومن التخلي البعد عـن الرذائل ، ومن التحلي الاتصاف بالفضائل .

(٢) بل الخلاف ظاهر بين من يعتمد النظر والاستدلال ، ومن يعتمـد الحدس والكشف ، الا ان يقال : ان العقـل وسيلـة للكشف ، والكشف طريق للمعرفة ، اي بالعقل نصل الى الكشف .

نتيجته ليست صحيحة بالقياس الى الواقع، بل ترتبط بالمقدمات ، وتدور مدارها صدقا وكذبا •

والجواب :

عن هذا الاعتراض : بأن شرط القياس أن يتألف من مقدمات يقينية ، والمقدمة اليقينية يجب أن تكون ضرورية في الصدق ، فالنتيجة المرتبة عليها كذلك ، وأي قضية تكون كاذبة فلا يصح بحال أخذها جزءا في القياس •

الاعتراض الثاني :

على القياس الصوري انه لا يأتي بجديد ،ولا ينتقل بنا من معلوم الى مجهول ، لان المقدمة الكبرى ، وهي « الانسان حيوان عاقل » تشمل زيدا بالضرورة ، والا كانت النتيجة بعيدة عن المقدمات بعد الحجر عن الانسان ، واذا كانت النتيجة داخلة في الكبرى المعلومة فلم يبق من حاجة الى تأليف القياس وعملية الاستنتاج •

ويمكن الجواب :

عن هذا الاعتراض بأن الحكم في الكبرى جاء على الطبيعة الشاملة لجميع الافراد الموجودة بالفعل ، والتي ستوجد فيما بعد ، اما في النتيجة فان الحكم كان على الفرد الموجود حالا ، او قل : ان المحمول وهو « حيوان عاقل » قد استند في الكبرى الى موضوع كلي ، وفي النتيجة الى موضوع جزئي • فالتغاير اذن بين النتيجة والمقدمات متحقق •

الاسلوب الثاني :

لاستخراج الحقيقة من العقل هو الاستنباط الرياضي الذي اعتمده ديكارت ، وسلم به العقليون من بعده ، ويتلخص في استخراج الحقيقة من البديهيات التي يجزم بها العقل لذاتها ، لا لدليل

خارج يثبت صدقها ، فينتقل الذهن مباشرة ، ودون توسط عمليات فكرية ، من قضية معلومة الى حقيقة مجهولة ، كانتقالنا من « أنا افكر » الى « أنا موجود » . وهذا الاسلوب يتفادى الاعتراضين السابقين على القياس الصوري الارسطي ، لان النتيجة لم تدخل في الكبرى ، وهي صادقة في القياس الى الواقع ، لا بالقياس الى مقدماتها .

وهناك اسلوب ثالث يعتمد التجربة فقط ، ولا يعتبر القياس الصوري ، ولا الاستنباط الرياضي .

ومهما يكن ، فان الفلاسفة المسلمين يعتمدون القياس الارسطي ، ولا ينكرون الاستنباط الرياضي ، ولا التجربة في الموضوعات التي يمكن أن تتناولها ، ولكنهم لا يحصرون سبب المعرفة في التجربة او في الاستنباط الرياضي ولا فيهما معا .

والمهم عندهم استخدام الفكر لبلوغ الحقيقة بالبراهين اليقينية بديهية كانت ، او نظرية ، فلا فرق عند العقل بين ان ننتقل من قضية بديهية الى اخرى كسبية ، وبين ان ننتقل من قضية كسبية الى اخرى مثلها ما دامت ترجع بالنهاية الى قضية بديهية . قال العلامة الحلّي [1] في كتاب « نهج الحق » : المعارف الكسبية فرع عن المعارف الضرورية ، والمعارف الضرورية الكلية فرع عن المحسوسات الجزئية ، فالمحسوسات أصل الاعتقادات ، ولا يصح الفرع الا بعد صحة الاصل . ويأتي التفصيل في مبحث القياس واقسامه .

ومن احب الاطلاع على ما قيل قديما وحديثا في تعريف الفلسفة وموضوعها ، وغايتها ، ومناهج البحث فيها فليراجع كتاب « اسس الفلسفة » للدكتور توفيق الطويل .

---

(١) الحسن بن يوسف المطهر ، توفي ٧٢٦ هـ ، وهو من كبار متكلمي الامامية ، وفقائهم ، له مؤلفات كثيرة مطبوعة ومنتشرة جدا بين الطائفة الامامية ، منها في علم الكلام شرح التجريد ، وكشف الفوائد ، ونهج الحق وغيره .

الفصل الثاني

علم الكلام

قال علي بن ابي طالب : « بعث الله محمدا ، وليس أحد من العرب يقرأ كتابا ، ولا يدعي نبوة ولا وحيا » .

وهذه الكلمة على ايجازها تصور جهل العرب قبل الاسلام ، فلم يقرأ أحد منهم كتابا ، لتكون له معرفة علمية ، او ينزل عليه وحي، لتكون له معرفة دينية ، فكل معارفهم البدائية ناشئة عن العادات والتقاليد الموروثة ، وقد وصف العرب أنفسهم بهذا الجهل حين ردوا على دعوة محمد ورسالته بقولهم : « إنا وجدنا آباءنا على امة وإنا على آثارهم مقتدون ـ الزخرف ٢٣ » ، ويكفي للتدليل على هذه الحقيقة ان الاعراب يضرب المثل بجهلهم [1] .

وبعد الاسلام وجد رجال من العرب وغير العرب تكلموا عن الله وصفاته ، وعن الكون واعراضه ، وعن الانسان وسلوكه ، وهذه

---

(١) وان القرآن قد نعتهم بالاميين فقد جاء في سورة الجمعة الآية ٢ « هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » والقرآن وثيقة تاريخية لا تقبل الجدل .

البحوث كما قدمنا من شؤون الفلسفة . غير ان المسلمين لم يتكلموا في شيء من ذلك في حياة النبي ، لأن معنى الايمان برسالته هو التسليم له في كل شيء ، وان قوله وفعله حجة قاطعة لجميع الاقوال . ومن هنا اتفقت جميع الفرق الاسلامية على ان معنى الاسلام هو التسليم بما جاء به محمد فمن أنكر او شك في قول من أقواله، أو حكم من احكامه ــ بعد ثبوته عنده ــ فهو خارج عن الاسلام . أجل ، للمسلم أن يشكك في النقل عن الرسول لا في قول الرسول وصدقه ، وهذا لازم طبيعي لمعنى الرسالة وقول : « لا إله الا الله محمد رسول الله » . وروي انه حين قبض النبي، واختلف المهاجرون والانصار على الخلافة قال يهودي للامام علي : لم يمت نبيكم حتى اختلفتم فيه !.. فقال له الامام : بل اختلفنا عنه ، ولم نختلف فيه .

وبعد وفاة الرسول اختلفوا في مسائل فقهية، وسياسية، وعقائدية. والنوع الاول من الاختلاف يدخل في علم الفقه ، ولا يمت الى الفلسفة بسبب ، اما المسائل السياسية فهي ذات صلة بالعقيدة والفرق الاسلامية، بل هي سبب التصدع الذي طرأ على المسلمين . اما الخلافات السياسية التي ظهر أثرها في الفلسفة الاسلامية ، فأهمها الخلافات [1] التالية :

١ ــ اختلف المسلمون في من هو أحق وأولى بالخلافة بعد الرسول . قال المهاجرون : نحن القرابة وأول من صدق وهاجر . وقال الانصار : نحن آوينا ونصرنا . ورد علي بن ابي طالب على الطرفين بقوله: « واعجباه أتكون الخلافة بالصحابة والقرابة !. » . وظهر أثر هذا

(١) اول خلاف وقع في الاسلام حين قال الرسول في مرض الموت : ائتوني بكتاب اكتب لكم كتابا لا تضلوا بعدي . فقال عمر يهجر فاختلفوا او كثر اللغط ، فقال النبي قوموا عني لا ينبغي عندي التنازع (تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية لمصطفى عبد الرازق ، ص ١٦٣) .

الاختلاف في مبحث الامامة من علم الكلام ، حيث تعددت أقوال العلماء حول شخصية الامام ، وصفاته ، وحول جواز اقامة امامين في زمان واحد ، او يجب الاختصار على امام واحد ، وهل يجب ان يكون من قريش ، وان يكون معصوما ؟ وبالتالي ما هو الطريق لمعرفته ؟ هل النص من الرسول او الانتخاب ؟

٢ ـ اختلفوا حول مقتل عثمان بن عفان ، والاحداث التي أدت الى مصرعه ، كنفيه الصحابي الجليل أبا ذر الى الربذة ، وعطفه على من طرده النبي من المدينة ، وارجاعه اليها ، وتعيينه ولاة غير مرغوب فيهم،ومحاباته لاقاربه وأرحامه بأموال المسلمين . وقد صور ابو ذر احداث عثمان بقوله : « والله لقد حدثت اعمال ما اعرفها ، والله ما هي في كتاب الله ، ولا سنة نبيه ، والله اني لارى حقا يطفأ ، وباطلا يحيا ، وصادقا مكذبا، وأثرة بغير تقى ، ومالا مستأثرا به » . وظهر اثر مقتل عثمان في كتب العقائد وكتب الفقه ، حيث اختلف العلماء في وجوب الصبر على الجور ، فقال الامامية والخوارج والمعتزلة بوجوب منازعة الظالم الجائر ومعارضته . « أما أهل السنة فقالوا : الاختيار ان يكون الامام فاضلا عادلا محسنا ، فان لم يكن فالصبر على طاعة الجائر أولى من الخروج عليه ، لما فيه من الخوف بالامن » [1] .

٣ ـ كان من آثار التحكيم الذي حصل في صفين ان اختلف المسلمون في مرتكب الكبيرة : هل هو كافر او مؤمن فاسق ، او لا مؤمن ولا كافر ، كما يأتي مفصلا .

هذه اهم المسائل السياسية ذات الصلة بالعقيدة التي وقع فيها

---

(١) كتاب « المذاهب الاسلامية » للشيخ ابي زهرة بعنوان ـ الحاكم اذا خرج عن الشروط .

الاختلاف . أما المسائل العقائدية فكثيرة ، منها رؤية الله ، وصفاته ، وخلق القرآن ، والجبر والاختيار ، والتحسين والتقبيح ، وعصمة الانبياء ، وصفات الامام ، وبعض احوال المعاد ، وما الى ذلك . وبعد ان حصل النزاع في المسائل العقائدية استغله السياسيون ــ كما هو شأنهم ــ واتخذوا منه وسيلة لاثارة الفتن ، ومبررا لعدوانهم ، وبخاصة مسألة الجبر حيث تنفي عنهم المسؤولية وتلقيها على الله وحده .

وهناك ظاهرة اخرى كان لها آثرها في كتب العقائد وهي فكرة التصوف ، فقد وجد بعد وفاة الرسول زهاد في متاع الدنيا ونعيمها (١) ، ثم تطورت هذه الفكرة الى القاء المعرفة بالقلب ، ثم الى الحلول والاتحاد، ويأتي التفصيل (٢) .

ويلاحظ ان المسائل السياسية لم يقع فيها النزاع على مبادىء عامة في أول الامر ، بل كان في وقائع خاصة ، كخلافة أبي بكر ، واحداث عثمان ومصرعه ، ومسألة التحكيم ، ثم انتقل الى الخلافة ومرتكب الكبيرة بوجه عام ، وبصرف النظر عن الافراد والوقائع الخاصة . اما النزاع في المسائل العقائدية فقد كان منذ البداية نزاعا في المبدأ العام .

ومهما يكن ، فان الخلافات حول المسائل السياسية والعقائدية كانت السبب لنشأة علم الكلام ، أو علم التوحيد ، او علم اصول الدين، مهما شئت فعبر ، ولكن هذا العلم لا تنحصر موضوعاته في هذه البحوث، فقد تأثر بالفلسفة ، واستعملها للذود عن العقيدة الدينية ، وتعرض علماء الكلام لجميع مسائلها حتى اختلطت بمسائله حيث لا يتميز احد الفنين

---

(١) كان الزهد والتنسك عملا لا غبار عليه من الوجهة الاسلامية ثم تحول الى تنسك نظري يعتمد على آراء وفلسفة لا تمت الى الاسلام بسبب.

(٢) راجع الجزء الأول من كتاب « الجانب الإلهي » للدكتور محمد البهي .

عن الآخر كما قال ابن خلدون . هذا ، الى ان آراء الفرق الاسلامية كالخوارج والامامية والمعتزلة والاشاعرة والمرجئة ، وغيرهم ـ تعرفعلى حقيقتها من علم الكلام ، فهو المظهر الصحيح للفلسفة الاسلامية . واطلق لفظ علم الكلام على علم التوحيد في عصر المأمون ، وسمي بهذا الاسم ، لان الاختلاف الذي حصل في مسألة كلام الله انه حادث او قديم هي أشهر مسائله .

وبالتالي فان الكتب الكلامية تحتوي على ستة مقاصد :

١ ـ الامور العامة ، وهي التي لا تختص بقسم واحد من اقسام الوجود ، بل تشمله بجميع انواعه واجبا كان او ممكنا ، جوهرا او عرضا ، علة او معلولا ، كما انها تكون مبادىء لجميع العلوم والفنون ، أي ان حقائقها ونتائجها لا تختص بعلم دون علم .

٢ ـ الموجودات الممكنة ، وتقسيمها الى جواهر واعراض ، وتقسيم الحواس الى ظاهرة وباطنة .

٣ ـ اثبات الصانع وصفاته وعلاقته بالعالم .

٤ ـ النبوة وما يتبعها من المعجزة والعصمة .

٥ ـ الامامة وشروطها .

٦ ـ المعاد واحواله .

وهذه المسائل تعالجها الفلسفة بصورة مفصلة ومطولة ، ولكن الفلاسفة يختلفون عن المتكلمين في الطريقة والمنهج . فالمتكلم ـ كما قيل ـ يبدأ اول ما يبدأ بالايمان بمبادىء الدين وتعاليمه ، ثم يستدل على صحتها بالعقل ويدفع كل شبهة تحوم حولها بالبراهين العقلية ، تماما

كالمحامي الذي يتبنى صحة قضية ، ويتولى الدفاع عنها . أما الفيلسوف فأول ما يبدأ بالايمان بحقائق الفلسفة ، فاذا كان مسلما حاول التوفيق بينها وبين الحقائق الدينية . فالمتكلم يوجه العقل الى مساندة الدين ، والفيلسوف يوجه الدين الى عدم منافاته للفلسفة ، كما سنرى في مسألة حدوث العالم وقدمه ، حيث قال الفلاسفة بالقدم ، ووجهوا الدين القائل بالحدوث على وفق الفلسفة .

ومهما يكن ، فان الوحي لا يخرج عن نطاق العقل عند كل من الطرفين ، فان محاولة التوفيق بينهما اعتراف واضح بأن الدين يجب ان لا يخالف العقل في شيء . وهذا عكس الرأي القائل بأن كلا منهما في معزل عن الآخر [1] .

(١) هل يمكن ان يؤمن العقل بشيء يثبت الدين عكسه ؟ **الجواب** : ان رجال الدين في ذلك بين افراط وتفريط ؛ فمنهم من قال نعم ان الدين يطلب من الناس الايمان بأشياء لا يقرها العقل ويحكم بكذبها . ومنهم من قال : ان مسائل الدين كلها تؤخذ من العقل بحيث اذا لم يدركها فليست من الدين في شيء . وهذا خطأ حيث يصبح الدين والحال هذه طرفا من الفلسفة لا داعي اليه بالمرة . والحق هو القول الوسيط الذي ذهب اليه المحققون من اقطاب الدين كتوما الاكويني ، ونظرائه من علماء المسلمين وهو ان الدين يثبت ما لا ينكره العقل ولا يقول بعكسه ، اعم من ان يدرك مسألة الدين ويثبتها كوجود الباريء وحسن الصدق النافع او لا يثبت ولا ينفي كالعبادات وبر الوالدين وما الى ذلك ، والنتيجة المنطقية لهذا القول المعتدل انه ليس كل حق قابلا للاثبات بالعقل ، ولا كل ما لا يثبت بالعقل فهو باطل ، بل قد يكون الحق قادرا على الادراك والمعرفة والاثبات ، ولا يقف موقفا حياديا فالشرط فيما يعود الى الدين ان لا ينكر العقل مبادئه ويقف موقفا سلبيا . (راجع توما الاكويني لضومط تحت عنوان : التوفيق بين الحكم والشريعة) .

الفصل الثالث

الوجود

ما هو معنى الوجود ؟ وهل هو واجب فقط ، او واجب وممكن ؟ وهل هو جوهر او عرض ، أو هما معا ؟ وهل هو خارجي او ذهني ، أو خارجي وذهني ؟ وهل هناك شيء وراء الوجود يقال له الماهيات ؟ وهل هو مادة ، أو روح ، أو روح ومادة ؟ (١) .

ونجد جواب هذه الاسئلة في كتب الفلسفة (٢) وعلم الكلام . ويلاحظ ان الموضوع في جميعها واحد ، وهو الوجود ، وان الاستفهام تعلق بأوصافه الذاتية التي تعرض له ابتداء وبلا واسطة . واليك مثالا

(١) قال صاحب الاسفار : اختلفوا في الوجود هل هو كلي أو جزئي ؟ وفي انه واجب او ممكن ؟ وفي انه عرض او جوهر ، أو ليس بعرض ولا جوهر ، وفي ان الموجودات الخاصة نفس الماهيات ، او زائدة ؟ بل اختلفوا في ان الوجود موجود أو معدوم ، او ليس بموجود ولا بمعدوم ؟ ما أعجب حال الوجود اختلف فيه العقلاء بعد اتفاقهم على انه اظهر الاشياء، واعرفها عند العقل !.. ولذا قال بعض الفلاسفة عن الوجود :

مفهومه من اظهر الاشياء وكنهه في غاية الخفاء

(٢) اذا كان موضوع الفلسفة هو الوجود ، والمنطق يستمد خصائصه من الوجود ، واذا كانت ادوات المعرفة كالسمع والبصر واللمس كلها وجودية بيولوجية ـ فلا بد ان نعرف ما هو الوجود، فالعقل وحده لا يمكن ان يصنع شيئا الا بأدواته ، تماما كالباقي .

يتضح به ما نريد بيانه : نرى سفينة تضطرب في مهب الرياح ، ويضطرب الركاب في داخلها بسبب حركتها غير الاعتيادية ، فاذا نسبت الحركة الى السفينة كانت النسبة ذاتية ، لانها تعرض للسفينة ابتداء واذا نسبتها الى الركاب كانت بالواسطة لا بالذات ، اي ان الحركة عرضت للسفينة اولا وبالذات ، وللركاب ثانيا وبالعرض ، وبهذا يتبين ان البحث في تقسيم الوجود الى واجب وممكن ، وجوهر وعرض ، وما الى ذلك ـ هو بحث عما يعرض للوجود لذاته لا لشيء آخر .

معنى الوجود :

عرّف المتكلمون الوجود بانه الثابت العين ، والعدم هو المنفي العين . وقال الفلاسفة : ان الوجود هو الذي يمكن ان يخبر عنه ، والعدم الذي لا يمكن ان يخبر عنه ، واورد بعضهم على كلا التعرفين اشكالات لا جدوى من ذكرها ، لان الوجود اشهر من ان يحد بحد ، او يرسم برسم (١) وهو يشمل كل شيء ، ومعناه واحد في الواجب والممكن والجوهر والعرض ، بدليل جعله مقسما وقدرا مشتركا بين جميع الموجودات . ثم ان شموله للكل بالتشكيك لا بالتواطؤ . فالوجود في

(١) قال اهل المنطق : ان المعرف لا بد ان يكون مساويا واجلى من المعرف ؛ لانه ان كان اعم دخل فيه ما هو خارج عنه ؛ كتعريف الانسان بالحيوان ، وهذا معنى قولهم : « جامع مانع » اي يجمع القريب ويمنع البعيد ، واذا لم يكن المعرف اوضح واجلى كان تعريف مجهول بمجهول . وقسموا التعريف الى قسمين : حد ورسم ، والحد هو أن يعرف الشيء بحقيقته ، كتعريف الانسان بالحيوان الناطق ، والرسم هو تعريف الشيء بوصف من اوصافه ، كتعريف الانسان بالضاحك .

ويحاول العلم الحديث أن ينصرف بكل شيء الى القوانين الطبيعية وعليه فلا يسأل ما تعريف الموضوع الفلاني او ما هي صفاته الجوهرية بل يضع السؤال هكذا : في اي الظروف يحدث التغيير الفلاني او ما هي اهم المبادىء التي تتمثل في التغيير الفلاني ؟ المنطق نظرية البحث ، ص ٦٩ .

الواجب اولى واقوى منه في الممكن ، ومعنى التشكيك في اصطلاح اهل المنطق التفاوت ، ومعنى التواطؤ التساوي •

لا واسطة بين الوجود والعدم :

قال مشايخ المعتزلة كأبي علي الجبائي «ت٣٠٣هـ» وولده ابي هاشم ، والقاضي عبد الجبار « ت ٤١٥ هـ » وغيرهم ، قالوا : ان الثابت ينقسم الى موجود ومعدوم وحال ، وبهذا اثبتوا الواسطة بين الوجود والعدم ، والحال عندهم هو عبارة عن صفة الشيء ، ولكنها لا توصف بالوجود ولا بالعدم ، ولا بالمعلومة ، ولا بالمجهولة ، ولا بشيء ابدا [(١)] وهذا القول يدل بنفسه على فساده ، ومن الذي يعقل ويهضم معنى لا موجود ولا معدوم ، ولا مجهول ولا معلوم ؟! انه كلام فارغ •

هل الماهية زائدة على الوجود ؟

الماهية هي الواقعة في جواب « ما هو » فاذا قلت : ما هو الانسان؟ وجاء الجواب : حيوان ناطق ـ كان الجواب هو نفس ماهية الانسان ، وبهذا يتبين ان لفظة ماهية مأخوذة عن « ما هو » •

وقد اتفقوا على ان ماهية واجب الوجود عين وجوده ، وانه لا ماهية له سوى الوجود المجرد عن كل شيء • واتفقوا على ان ماهية الممكن كالانسان هي عين وجوده في الخارج [(٢)] ، لانه يستحيل تحقق الماهية في الاعيان منفردة عن الوجود ، واختلفوا في أن الوجود هل هو نفس الماهية بحيث يكون وجود الانسان هو الحيوان الناطق ، والحيوان الناطق هو

---

(١) قال صاحب الاسفار في الجزء الاول ، فصل : مساوقة الوجود للشيء : « من هذا القبيل قول جماعة بأن الله لا يقال له موجود ولا معدوم، لان لفظ موجود ومعدوم على صيغة المفعول » والله فاعل وليس بمفعول .

(٢) شرح التجريد للعلامة الحلي ، ص ٥ ، طبعة العرفان ـ صيدا .

عين وجـود الانسان ، او ان الوجود زائد على الماهيـة بحيث يمكن ان تتعقل الماهية بصرف النظر عن الوجود ، كما تتعقل زيدا بصرف النظر عن القيام والقعود .

قال ابو الحسن الاشعري « ت ٣٣٦ هـ » وآبو الحسين البصري من أئمة المعتزلة « ت ٤٣٦ هـ » ومن تابعهما : ان وجود الماهية هـو عينهـا بالذات ، فوجود الانسان هو نفس الحيوان الناطق دون زيادة في الخارج او في الذهن . وقال جماعة من المتكلمين والفلاسفة : ان وجود الماهيـة زائد عليها ومغاير لها ، واستدلوا « أولا » بانه يصح ان نقـول الماهيـة موجودة ، وصحة حمل شيء على شيء دليل المغايرة ، اذ لو كان الوجود هو تفس الماهية لكان معنى الحمل : الماهية ، والموجودة موجودة ، وليس كذلك . « ثانيا » بأنه يصح سلب الوجود عن الماهية ، فنقول : العنقـاء لا وجود لها ، ولو كان الوجود عين الماهية للزم سلب الشيء عن نفسه . « ثالثا » بانه يصح التفكيك بين تعقل الماهية ، وتعقل وجودها ، لانه مـن الممكن ان تتعقل الماهية ، ونشك في وجودها ، وان نعقل وجودا مطلقا، ونجهل خصوصيات الماهية .

الوجود الخارجي والذهني :

للوجود انحاء شتى ، منها الوجود الخارجي ، ومنها الوجودالذهني، ومنها الوجود الفني كالشعر والالحان والتصوير ، ولكل واحد من هذه الوجودات خواص وآثار لا تترتب على غيره ــ مثلا ــ وجود الحرب في الخارج يترتب عليه الهلاك والدمار ، وتصورها في الذهن يبعث الخوف والرعب ، وتصويرهـا باللفظ والالحـان والرسم يخلق فينـا احساسا خاصا [١] .

(١) قال العلامة الحلي في شرح التجريد : ان الوجود الذهني والوجود الخارجي حقيقيان ، اما في اللفظ والكتابـة فمجازيـان ، لان الشيء غير موجود فيهما حقيقة ، ولكن حين دلا على الوجود وعبرا عنه قيل على سبيل المجاز : ان الشيء موجود فيهما .

وقد نفى جماعة :

الوجـود الذهني ، وقالـوا : لو كـان للاشيـاء وجـود في الذهن للزم أن تكون عقولنا مجتمعا للمتناقضات ، فتجتمع فيها الحرارة والبرودة عند حصول النار والثلج في الذهن ، والاستقامة والاعوجـاج عند حصول الجسم المستقيم والمعـوج ، وان تكـون البحار والجبـال والكواكب في أذهاننا ، لان وجود الشيء في المحل يوجب اتصافـه بـه وحمله عليه .

واجيبـوا :

بان الموجود في الذهن ليس عين الثلج والنـار ، ولا الجبـال والكواكب ، بل صور هذه واشباحها ، تماما كما هي الحال فـي المرآة، وعليه فلا يلزم اتصاف المحل بها على نحو الحقيقة .

الوجود خير من العدم :

الوجود خير بذاته ، وبصرف النظر عن كل قيد ، والعدم شر بذاته دون أي لحاظ ، والدليل على ذلك اننا لم نجد شيئا يقال له خير الا ألفينا مصدره الوجود ، وما رأينا شيئا يقال لـه شر الا لانه عدم لشيء مـن الاشياء ، أو لصفة من الصفات . فالخير هـو الوجود ، والوجـود هو الخير ، وليس الشر الا العدم ، وليس العدم الا الشر .

ومن هنا تختلف مراتب الخير ، وتتفاوت باختلاف مراتب الوجود ، فالوجود التام من جميع الجهات بحيث لا يعرض عليه النقص والـزوال أشرف واعلى مما يزول ولا يبقى ، والذي هو اطول امدا من غيره يكون كاملا بالقياس الى قصير الامد . وقد يتراءى ان من الوجود ما هو شر كالقتل ونحوه ، ولكن القتل انما وصف بالشر ، لانه يؤدي الـى عـدم الحياة . فقوة عضلات القاتل ، وجودة آلة القتل ليستا شرا مـن حيث وجودهما ، بل من حيث انهما سبب لازالة الحياة . فالشر هـو ازهـاق الروح ، اما وسائل القتل فهي خير في نفسها ، فالوجود بجميـع انحـائه

ومظاهره خير بطبيعتـه ، ولا يصبح شرا الا اذا اتخذ منه اداة لازالـة الوجود . واصدق مثال على ذلك الذرة ، فانها خير ما لم توجّه الى الفناء، فان وجهت اليه كانت خيرا بالذات ، وشرا ثانيا وبالعرض ، اما اذا وجهت الى سعادة الانسان فهي خير على خير ، أي خير بالذات وبالعرض [1] .

الشيء والوجود :

هل هناك أمر غير الوجود يقال له شيء ، او ان الوجـود والشيء يعبران عن معنى واحد ؟.

قال الاشاعرة والامامية وجماعة من الفلاسفـة : ان لفظ الشيء والوجود مترادفان ، ومتساويان في الصدق ، فكل ما يقال له شيء يقال له وجود وما يقال له وجود يقال له شيء .

وقال المعتزلة : ان لفظ الشيء يطلق على الموجود في الخارج، وعلى المعدوم من الخارج ايضا اذا امكن وجوده بعد ان كان معدوما ، اما اذا كان ممتنع الوجود بحيث لا يمكن وجوده في الخارج بحـال كشريـك الباري فلا يقال له شيء ، بل يقال له المنفي ، وبعبارة ثانية : ان هنـاك ثلاث حالات :

١ ـ الموجود بالفعل ، وهذا يقال له موجود وثابت وشيء .
٢ ـ ممتنع الوجود بحيث لا يمكن وجوده بحال كشريك الباري ، ويطلق عليه لفظة المعدوم والمنفي ، ولا يقال له شيء .

٣ ـ غير الموجود في الخارج ، وهذا يسمى ثابتا ومعدوما وشيئا .

---

(١) قد يقال انه لا جدوى وراء هذا البحث والجواب ان العلم عند اليونانيين يطلب لذاته لا لشيء آخر . ولذا قال افلاطون ان ميزة اليونان حب البحث اما ميزة المصريين والفينيقيين فحب الكسب . مبادىء الفلسفة ص ٩٦ .

فالثابت يطلق على الموجود ، وعلى الشيء ، وعلى المعدوم الممكن ، والشيء يطلق على الموجود ، وعلى المعدوم الممكن ، والوجود يطلق على الموجود فقط ، وبهذا يكون الشيء أعم من الوجود .

وهذا القول باطل ومردود ، حيث يلزم منه ان يكون الله سبحانه غير موجد للكائنات ، وعاجزا عن ايجادها ، لان ماهية الانسان والحيوان والتراب ، وما الى ذلك كلها اشياء أزلية متحققة منذ القدم ، وما دامت كذلك فلا معنى لتعلق القدرة بها .

واذا اجاب المعتزلة ، وقالوا : ان قدرة الله لم تتعلق بحقائق الكائنات ولكنه اعطاها صفة الوجود ، فنقول في الجواب : « أولا » ان الوجود صفة اعتبارية تنتزع من الشيء بعد وجوده ، ولا يمكن ايجاد الوجود ، بل هو محال كاعدام العدم . « ثانيا » نسأل عن هذا الوجود الذي يريد الله ان يعطيه للماهيات المتقررة منذ الازل : هل هو شيء ، او ليس بشيء؟ فان كان شيئا فلا تتعلق به القدرة لان الشيء موجود منذ الازل على منطقهم ، وان لم يكن شيئا فمعنى ذلك ان الله لم يفعل شيئا ابدا .

وبالتالي ، فان ماهية أي كائن اذا لم توجد فهي ليست بشيء في ذاتها ولا في أي صفة من صفاتها ، وان العدم كاسمه ليس بشيء من الاشياء ، وانه لا واسطة بين الوجود والعدم ، وان الشيء والوجود والثابت الفاظ مترادفة ، كما ان المنفي والمعدوم يعبران عن شيء واحد .

الوجود واحد وبسيط :

لا شيء أعم من الوجود ، لانه يصدق على جميع المعقولات الذهنية والوجودات الخارجية ، بل قد يصدق الوجود على نوع من العدم ، فاذا قلت : المعدوم في الخارج لا أثر له ، وليس بشيء يحكم عليه فقد تصورت مفهوم العدم في ذهنك ، ثم حكمت عليه بنفي التأثير . والتصور وجود

ذهني ، وهو قسم من اقسام الوجود ، فالعدم يكون قسيما ومقابلا للوجود بلحاظ ان الوجود بما هو مقابل للعدم بما هو ، ويكون قسما من اقسام الوجود بلحاظ ان مفهوم العدم متصور في الذهن . قال صاحب الاسفار : « انظر الى شمول نور الوجود ، وعموم فيضه كيف يقع على جميع المفهومات والمعاني حتى على مفهوم اللاشيء ، وعلى العدم المطلق ، والممتنع الوجود بما هي مفهومات متمثلة في الذهن ، لا بما هي سلب وعدم » أي ان الوجود يشمل الموجود ، والممتنع ، والمعدوم الممكن باعتبار الوجود الذهني .

ولاجل هذا الشمول في طبيعة الوجود لم يكن له جنس اذ لا شيء أعم منه ، كي يكون جنسا له ، واذا لم يكن له جنس فلا يكون له فصل، لان الفصل هو الذي يميز بعض افراد الجنس عن البعض الآخر ، فقولنا: الانسان حيوان ناطق . فالانسان نوع ، والحيوان جنس يشمل الانسان والفرس ، والناطق فصل يميز افراد الانسان عن أفراد الفرس ، وما دام الجنس منتفيا فلا حاجة للفصل . واذا لم يكن للوجود جنس ولا فصل تعين أن يكون بسيطا .

هذا الى انه لو قلنا بان الوجود مركب لكانت أجزاؤه اما من الوجود ، واما من العدم ، فاذا كانت من الوجود يلزم ان يكون الشيء متقدما على نفسه بنفسه ، لان الجزء مقدم على الكل بحسب المرتبة . واذا كانت الاجزاء من العدم يلزم ان يكون الوجود عدما ، لان الكل عين أجزائه .

كما ان الوجود بسيط لا جنس له ولا فصل كذلك لا ضد له ولا مثيل ، اذ كل ما يفرض انه ضده او مثيله فانه يصدق عليه الوجود ، والشيء الواحد لا يكون ضدا ولا مثيلا لنفسه .

ثم أن الوجود واحد لا تعدد فيه ولا تكثر ، انما التعدد في الكائنات التي يعرض لها ، كالحيوان والنبات ، ويصدق الوجود على وجودات الكائنات صدق الكلي على جزئياته •

تمايز الاعدام :

مفهوم العدم واحد لا تعدد فيه ، تماما كمفهوم الوجود من هذه الجهة ، ولكن وقع النزاع : تتمايز الاعدام بلحاظ ما تضاف اليه ، كما تتمايز الوجودات بلحاظ ما تعرض له من الكائنات ؟••

قال جماعة :

لا تمايز بين الاعدام ، لان التميز فرع الثبوت والتحقق ، والعدم نفي محض لا تحقق له ولا يشار اليه • واثبت آخرون التميز ، لان عدم المعلول يستند الى عدم علته الخاصة ــ مثلا ــ : عدم البعوض سبب لعدم الملاريا ، فتنسب عدم الملاريا الى العدم الخاص ، أي الى العدم المنسوب الى البعوض • والنسبة الى الخاص تستدعي التميز ، فكما ان مفهوم الوجود واحد ، ويتعدد بعروضه للانسان والفرس ــ كذلك مفهوم العدم فانه واحد ، ويتميز بنسبته الى اشياء خاصة • وبكلمة ثانية: نحن نعرف امورا معدومة مثل : لا حر في الشتاء ، ولا برد في الصيف ، وكل معلوم لا بد ان يكون متميزا ، فالاعدام متميزة •

وهنا حقيقة ذكرها المتكلمون والفلاسفة ، وهي ان عدم العلة سبب كاف لعدم المعلول في الخارج بحيث يكون عدم العلة علة للعدم ، اما عدم المعلول فلا يكون سببا لعدم العلة ، وانما يكون كاشفا عن عدمها ، فعدم البعوض سبب بذاته لعدم الملاريا ، ولكن عدم الملاريا ليس سببا لعدم البعوض ، وانما السبب لعدم البعوض هو عدم وجود المستنقعات• أجل، يستكشف العقل من عدم الملاريا عدم البعوض ، أي ان عدم الملاريا علة

للكشف عن خلو المنطقة من البعوض ، وليس سببا حقيقيا لانتفاء البعوض في الخارج .

ثم ان الاستدلال بعدم العلة على عدم المعلول ، وبوجودها على وجوده يسمى برهانا « لميّا » حيث يسأل عن العلة « بلم » . أما الاستدلال بعدم المعلول على عدم العلة فيسمى برهانا « إنيّا » ، لانه يفيد الثبوت والاكتشاف . ولفظة « ان » تفيد الثبوت والتوكيد .

الفصل الرابع

الوجوب والامكان والامتناع [1]

ان نسبة شيء لشيء ، اما ان تكون ضرورية الثبوت بحيث لا يصلح سلبها عنه بحال ، كنسبة الجاذبية الى الارض ؛ واما ان تكون ضرورية السلب ، كنسبة السكون وعدم الدوران للارض ، واما ان لا تكون ضرورية السلب ولا ضرورية الثبوت ، كنسبة لون الغبرة والصفرة للارض . وكيفية هذه النسبة تسمى باصطلاح اهل المنطق مادة القضية في نفس الامر والواقع ، فاذا صرحت بها ، وقلت : الارض يجب أن تجذب الاجسام سميت القضية موجهة ، واذا سكت ، ولم تبين كيفية النسبة ، وقلت : الارض تجذب الاجسام ، دون ان تأتي بلفظ يجب او يمتنع ـ سميت القضية مطلقة ، أي لم تقيد بشيء . وحينئذ ، فان طابقت النسبة المادة الواقعية كقولك : الارض تدور حول الشمس تكون القضية

---

(١) تتفق جميع الاديان على تقسيم الموجود الى واجب وممكن ، اما الفلاسفة فيختلفون فيما بينهم ، فبعضهم يوافق الأديان ، وبعضهم يرى وحدة الواجب ولا يقسم الى قسمين . وكل من قسم الوجود الى قسمين جعل الواجب مصدرا للممكن (الجانب الالهي للبهي ج ٢ ص ٣٧) .

صادقة ، والا فكاذبة كقولك : الارض ساكنة [1] .

اذا تمهد هذا تبين معنا ان كل ما يمكن ان يعبر عنه ، اما ان يكون ضروري الثبوت ، واما ان يكون ضروري السلب ، واما ان لا يكون ضروري الثبوت ولا ضروري السلب . والاول هو الواجب لذاته ، والثاني الممتنع لذاته ، والثالث الممكن لذاته . وقد يعبر عن الثاني بالمحال او المستحيل ، وعن الثالث بالجائز . وهذه الجهات الثلاث ، وهي الوجوب والامتناع والامكان ــ امور اعتبارية لا وجود لها في الخارج ، وانما يعتبرها العقل عند نسبة الوجود الى الماهية .

ثم ان كل واحد من الثلاثة يستحيل انقلابه الى غيره ، فالواجب بالذات لا يصير ممكنا او ممتنعا بالذات ، لان ما بالذات لا يتغير . اجل ، الممكن بالذات قد يصير واجبا او ممتنعا بالغير ، ومن هنا قالوا : ان الواجب على ضربين : واجب بالذات ، وهو ما كانت ذاته علة لوجوده ، وواجب بالغير ، وهو ما كانت علة وجوده خارجة عنه . وقد قيل ان الممكن ما لم يجب لم يوجد ، الا بعلة [2] ، ومتى وجدت اصبح وجوده واجبا . والممتنع ايضا على ضربين ، ممتنع لذاته ، وهو ما كان وجوده مستحيلا

---

(١) ويقول وليم جيمس : ليس معنى الحقيقة مطابقة الافكار والاقوال للواقع بل مقياسها ان تكون نافعة ومجدية للاغراض الانسانية ، ومثمرة في الحياة العملية . ولا يخفى ما في هذا القول من الخلط بين الحقيقة واهدافها (فلسفتنا ص ١٤٥) .

(٢) الفرق بين الممكن والممتنع ان كلا منهما معدوم ، ولكن الاول معدوم غير قابل للوجود ، والثاني معدوم قابل له، وبهذا يتميز عن المستحيل الذي لا يمكن وجوده بحال ، فالممكن له حظ من الوجود على العكس من الممتنع . والفرق بين واجب الوجود وممكن الوجود ان كلا منهما موجود ، لكن الاول موجود بذاته ، والثاني بعلته .

بحيث لا يمكن ان يوجد بحال ، وممتنع بالغير ، وهو الذي امتنع لعدم توافر الاسباب ، كصعود الانسان الى المريخ في سنتنا هذه ١٩٦٠ . أما الممكن فلا يعقل ان يكون ممكنا بلحاظ غيره ، بل هو ممكن ذاتا،وواجب عرضا ما دامت علته موجودة، او ممتنععرضا ما دامت علته معدومة[١].

احكام الواجب :

احكام الواجب اربعة :

١ ــ لا يكون واجبا بالغير ، لان معنى وجوبه بالذات انه لم يوجد بسبب موجد ، ومعنى وجوبه بالغير انه وجد بسبب ، وعليه يلزم اجتماع النقيضين ، وهو محال .

٢ ــ لا يمكن ان يكون مركبا ، لان المركب مفتقر الى اجزائه ، والواجب غير مفتقر الى شيء ، وكما لا يكون الغير جزءا له ، كذلك لا يكون هو جزءا للغير .

٣ ــ وجود الواجب نفس حقيقته ، ولا شيء غير الوجود ، اذ لو كان للواجب ماهية زائدة على وجوده لكان الوجود عارضا ووصفا له ، والوصف مفتقر الى الموصوف ، والواجب لا يفتقر الى شيء .

٤ ــ لا يكون الواجب أكثر من واحد ، لانه اما ان لا يكون بين الواجبين أية علاقة بحيث يكون احدهما مباينا للآخر ، واما ان يكون أحدهما علة للثاني ، واما ان يكونا معلولين لعلة ثالثة ، وعلى الاول لا يكون كل منهما واجبا ، اذ المفروض انهما متباينان ، وعلى الوجهين الآخرين ، يكون الواجب مفتقرا الى علة ، وهو خلاف الفرض . وكما لا يكون اكثر من واحد كذلك لا يجوز عليه العدم ، لانه واجب الوجود بالذات .

(١) للممكن لحاظان : لحاظ باعتبار ذاته وهو ممكن بالذات ، ولحاظ باعتبار علته . وعليه يكون اما واجب الوجود اذا وجدت علته واما ممتنع الوجود اذا لم توجد علته .

أحكام الممكن :

أحكام الممكن أربعة :

١ ـ ان لا تقتضي ذاته وجودا ولا عدما ، اذ لو اقتضت الوجود لكان الممكن واجبا لذاته ، ولو اقتضت العدم لكان ممتنعا لذاته ، وهو خلاف الفرض .

٢ ـ ان الامكان الذاتي وصف ملازم للممكن لا ينفك عنه بحال ، لانه لو انفك عنه لانقلب الامكان الى الامتناع او الوجوب ، وقدمنا ان ذلك محال .

٣ ـ ان الامكان هو السبب الوحيد لاحتياج الممكن الى فاعل ، أي ان طبيعة الممكن بذاتها تستدعي الاحتياج الى موجد ، وكما ان وجود الممكن يحتاج الى علة فبقاؤه واستمراره يحتاج الى علة ايضا ، لان سبب الحاجة الى موجد هو الامكان ، ولكن علة الايجاد هي بنفسها علة البقاء .

٤ ـ ان وجود الممكن ليس باولى من عدمه ، ولا عدمه اولى من وجوده ، فالنسبة الى طرفي الوجود والعدم متساوية ، وكل منهما مفتقر الى سبب ، غير ان سبب الوجود توافر المؤثرات الخارجية ، وسبب العدم فقدان تلك المؤثرات ، وبكلمة ان عدم السبب سبب العدم .

الامكان الذاتي والاستعدادي :

ان الامكان ينظر اليه تارة باعتبار ماهيته ، كما اذا نظر الى الانسان من حيث انه حيوان ناطق بصرف النظر عن المادة التي يعرض لها . ويسمى هذا الامكان بالامكان الذاتي ، لانه قائم بذات الماهية لا في محلها الذي

تعرض له . وهذا الامكان لا يزول عن الطبيعة ابدا ، وغير قابـل للشدة والضعف . واخرى ينظر الـى الامكـان باعتبـار المادة التي هي محل للماهية ، كجسم الانسان الذي تتمثل فيه الطبيعة الانسانية ، ويسمى هذا الامكان بالامكان الاستعدادي ، وهو قابل للشدة والضعف ، والزيـادة والنقصان ، لانه يقرب ويبعد عن الوجود تبعا لقرب الاسباب وبعدها .. فان استعداد النطفة للانسان اضعف مـن استعداد العلقة ، واستعـداد العلقة أضعف من استعداد المضغة . وقد يزول الامكان الاستعدادي كلية كما لو فسدت النطفة والعلقة ، اما الامكان الذاتي فكما قدمنا لا يزول عن الماهية بحال .

الفصل الخامس

القدم والحدوث

كل موجود ان كان لوجوده اول سمي حادثا ، وان لم يكن لوجوده اول سمي قديما : فالقديم موجود في الازل ، ولم يسبق بالعدم، والحادث لم يكن ثم كان . وليس القدم والحدوث من الاعيان ولا من الاعراض المحسوسة الملموسة ، بل من الامور الاعتبارية ينتزعهما الذهن من كون الشيء مسبوقا بعدمه او غير مسبوق . ويسمى الحادث حادثا ذاتيا ان سبق بحادث سواه ، وحادثا زمنيا ان كان مسبوقا بالعدم المحض .

ويكون التقدم على انحاء خمسة :

١ ـ التقدم بالعلية ، كتقدم حركة اليد على حركة المفتاح .

٢ ـ التقدم بالطبع ، كتقدم الواحد على الاثنين ، حيث لا يوجد الاثنان بدون الواحد ، ويوجد الواحد بدون الاثنين ، ومن هنا افترق هذا الوجه عن سابقه لان العلة لا تفارق المعلول [١] .

٣ ـ التقدم بالزمان ، كتقدم الاب على الابن .

---

(١) وقيل : ان العلة ما يلزم من عدمها العدم ولا يلزم من وجودها الوجود ، اي عدم العلة علة للعدم ، ولكن لا يجب المعلول بوجود العلة (اسفار ج ٣ ص ١٢٧) .

٤ ــ التقدم بالرتبة ، كتقدم الامام على المأموم •

٥ ــ التقدم بالشرف ، كتقدم العالم على المتعلم •

وزاد المتكلمون قسما سادسا ، سموه التقدم بالذات ، كتقدم الامس على اليــوم ، لانه ليس تقدما بالعليــة ، ولا بالطبع ، ولا بالشرف ، ولا بالرتبة ، ولا بالزمان ، والا احتاج الزمان الى زمان ، ويتسلسل •

ثم ان اقسام التقدم هذه لم تكن للشيء باعتبار ماهيته ، فان الماهية من حيث هي ليست الا هي لا تتقدم على الغير ، ولا يتقدم الغير عليهــا ، وانما يعرض التقدم والتأخر باعتبار امر خــارج عن الماهية ، كالزمــان والمكان وما الى ذلك من الاقسام •

الفصل السادس

هل يعاد المعدوم

اذا عدم الشيء بعد وجوده بحيث تزول مادته كلية ، ولم يبق منها شيء ، فهل يمكن اعادته بحقيقته وجميع ملابساته وعوارضه الشخصية تماما كما كان ؟

ذهب أكثر المتكلمين الى ان المعدوم يمكن اعادته . وقال الفلاسفة: لا يمكن اعادة المعدوم بحال ، واستدلوا بأدلة ، منها انه لو اعيد المعدوم بعينه للزم تخلل العدم بين الشيء ونفسه ، وهو محال ، لان تخلل العدم انما يتصور بين شيئين . ومنها أن اعادة المعدوم بلوازمه وتوابعه يستدعي اعادة الزمان الذي كان فيه ، والا لو اتي به مجردا عن زمانه لم يكن اعادة للشيء بنفسه ، بل كان ابتداء لعمل جديد ، واعادة الزمان في زمان ثان يستلزم ان يكون للزمان زمان يوجد فيه ، وهو محال .

واستدل المتكلمون على جواز الاعادة بان كثيرا من الحوادث تعدم، ثم تتجدد ، وذلك لان عدمها لا يكون مستندا الى عدم حقيقتها وماهيتها، ولا الى عدم شيء من لوازمها ومقوماتها ، وانما تعدم لعروض مانع خارجي ، ومتى زال المانع والعارض تعود الماهية كما كانت .

وأجاب عن هذا نصير الدين الطوسي [1] في كتاب « التجريد » بأن عدم الشيء ليس عارضا من عوارض الماهية ، ولا مانعا من الموانع الخارجية ، وانما هو وصف لازم لماهية المعدوم ، ولا ينفك عنها بحال ، واذا كان العدم لازما لها فوجودها محال. اما ما يظن من تكرار الحوادث فليست من نوع اعادة المعدوم ، بل هي نظائر وامثال .

وبالتالي ، فان لكل موجود زمانا معينا ، وحالات خاصة لا يمكن ان يشاركه فيها احد ، ومعنى اعادته ان يعاد مع زمانه ومكانه وجميع صفاته التي كان عليها ، فان اختل شيء منها فلا يكون اعادة ، والاختلال حاصل لا محالة ، اذ يستحيل ان يكون للشيء الواحد وجودان ، كما يستحيل ان يكون له عدمان . ويقرب من هذا القول النظرية النسبية القائلة بان الشيء الواحد تختلف آثاره باختلاف الاوضاع والحالات التي يكون عليها .

---

(١) هو محمد بن الحسن المعروف بالمحقق الطوسي ، له مؤلفات كثيرة في علم الكلام والفلك والهندسة ، وهو حجة الفرقة الامامية ، وقد شرح كتبه علماء كبار من السنة والشيعة ، واثبت العلم الحديث صحة نظرياته في الهندسة ، وكتب عنه الغربيون الشيء الكثير ، وهو صاحب الرصد العظيم بمدينة مراغة ، واتخذ مكتبة تزيد على اربعمئة الف مجلد . توفي سنة ٦٧٢ هـ .

الفصل السابع

الماهيـــة

معنى الماهية والحقيقة والذات :

كثيرا ما يتردد في أقوال الفلاسفة والمتكلمين لفظة الماهية والحقيقة والذات ، فهل هذه الالفاظ مترادفة تعبر عن معنى واحد ، او ان لكل منها معنى مستقلا ؟

لقد سبقت الاشارة الى ان لفظة الماهية مأخوذة عن « ما هو » فاذا قلت في جواب السؤال عما هو الانسان : « هو حيوان ناطق » كان هذا الجواب معبرا عن ماهية الانسان . اذن معنى الماهية امر كلي موجود في الذهن . ثم انك اذا لاحظت هذا المعنى الكلي من حيث هو موجود في الخارج ، وانه يصدق على افراده المتحققة بالفعل قيل له حقيقة وهوية ، وقيل له ذات ايضا ، فلفظتا الحقيقة والذات مترادفتان تعبران عن الماهية من حيث وجودها في الخارج ، ولفظة الماهية تعبر عنها من حيث هـي ، وبصرف النظر عـن كل قيد . هذا هو الغالب مـن الاستعمال ، وقـد تستعمل الالفاظ الثلاثة بمعنى واحد بلا اعتبار الفرق بينها .

عوارض الماهية :

كل ما يعرض على الماهية من العوارض والاوصاف كالوحدة والكثرة ، وما اليهما فهو خارج عن حقيقتها ، ومغاير لها ، فاذا قلت : الانسان واحد او كثير ، فالوحدة والكثرة ليست نفس الانسان ، ولا جزءا منه ، لان حقيقة الانسان هي الانسانية ، وكفى . وما عداها من العوارض زائد عليها ، ومنضم اليها . فتكون الانسانية مع الواحدوحدة، ومع الكثير كثرة . ولو كانت هذه داخلة في حقيقة الانسان لما صدقت على الوحدة والكثرة .

اقسام الماهية :

الماهية معنى كلي ، والكلي هو الذي لا يمتنع صدقه على الكثير ، كالانسان والحيوان ، فان كل واحد منهما يصدق على عديد من الافراد. والجزئي يمتنع صدقه على الكثير ، كزيد وعمرو . وينقسم الكلي الى اقسام متعددة باعتبارات مختلفة ، منها انقسامه الى الجنس ، والنوع ، والفصل . والجنس هو الذي يقال على أشياء مختلفة : كالحيوان فانه يصدق على الانسان والفرس والجمل . والنوع يقال على افراد متفقة بحسب الحقيقة كالانسان يصدق على زيد وعمرو . والفصل هو الجزء المقوم للنوع ، والمميز له عن غيره ، كالناطق فانه جزء من الانسان يميزه عن الفرس وغيره من أقسام الحيوان .

ثم ان هذه المعاني كلها معان تصورية لا وجود لها الا في الذهن ، فالتصور ان احاط بأشياء مختلفة الحقيقة فجنس ، وان أحاط بأشياء متحدة الحقيقة فنوع .

ومن اقسام الكلي انقسامه الى مركب وبسيط ، والمركب هو الذي يتألف من جزئين او اكثر ، ويقابله البسيط الذي لا اجزاء له . وقد تكون

الماهية مركبة كالانسان المتقوم من الحيوان والناطق ، وقد تكون بسيطة كالعقل • وكل مركب لا بد ان ينحل وينتهي الى البسيط ، والا استحال وجوده ، كما يستحيل وجود العدد اذا لم ينته الى الواحد • ومن احكام المركب انه يفتقر الى كل جزء من اجزائه ؛ وعليــه يكون الجزء متقدمــا على الكل بحسب الوجود ، واذا عدم احد اجزاء المركب يكون عدمه علة تامة لعدم المركب ، والعلة متقدمة على المعلول ، وبهذا يتبين ان وجــود الجزء متقدم على وجود الماهية المركبة ، وعدمه متقدم على عدمها •

واليك المثال ! ان البيت لا يوجد الا بعد وجود الجدران والسقف، أما انتفاء البيت فيكون بانتفاء السقف او احد الجدران فقط • اذنوجود المركب يتوقف على وجود جميع الاجزاء ، اما عدمه فيكون بعدم جــزء واحد ، وفي الحالتين يتقدم الجزء على الكل •

الفصل الثامن

الوحدة والكثرة

الوحدة والكثرة من المعاني التصورية ، لا من الاعيان الخارجية القائمة بنفسها ، فالعقل اذا رأى شيئا لا ينقسم الى متعدد وصفه بالواحد، واذا رآه منقسما الى متعدد وصفه بالكثير ، وهما من الصفات الملازمة للوجود ، وليست عين الوجود ، فكل ما هو واحد او كثير يقال له موجود ثم ان مسائل هذا الباب ثلاثة :

المسألة الاولى :

قد يظن ان بين الوحدة والكثرة تنافيا وتنافرا بحسب الذات، ولكن الحقيقة ان لا تقابل جوهري بين المعنيين ، وانما هو تقابل يعبر عنه تارة بتقابل العلة والمعلول ، واخرى بتقابل المكيالية والمكيلية • اما العلية فظاهرة ، لان الوحدة علة مقومة للكثرة ، والكثرة معلولة لها ، وأما المكيالية والمكيلية فقد ارادوا بها ان الكثرة تكال بالوحدة ، والوحدة كيل للكثرة •

مثال ذلك : لو وجدت صبرة من الحبوب ، وبوشر بكيلها صاعا فصاعا فالكثرة تكون مكيلة بالوحدة ، والوحدة تكون كيلا لها •

وقد توصف الكثرة بالوحدة ، فتقول : عشرة واحدة من العشرات، ومئة واحدة من المئات ، فالكثرة في قولك هذا قد عرضت للعدد الموجود في الخارج ، والوحدة عرضت لنفس الكثرة ، أي انك لم تجعل الوحدة وصفا للعدد الكثير ، بل لبعض صفاته وعوارضه ، ولو كان بينهما تقابل ذاتي لما صح مثل هذا الحمل • ويأتي الكلام على اقسام التقابل في الفصل التالي •

المسألة الثانية :

ان الاثنين مع بقاء كل على ما هو عليه من غير أن يزول عنه شيء ، ولا يضاف اليه شيء يستحيل اتحادهما ، لان صفات كل ان بقيت على ما كانت فهما اثنان ، لا واحد ، وان عدمت ، كما اذا امتزج المـاء والتراب وصارا طينا فهو امتزاج لا اتحاد ، وان عدم احدهما دون الآخر فالموجود واحد فقط •

المسألة الثالثة :

قال أرسطو : ان مبدأ العدد هو الواحد دون غيره من الارقـام ، فالعشرة لا تتقوم من الخمسة والخمسة ، والاربعة والستة ، او الثلاثـة والسبعة ، وانما تتقوم من عشر وحدات ، وهكذا سائر الاعداد ، وكـل عدد اذا اضفت اليه واحدا كان مخالفـا في الماهية لنوع العـدد الآخر ، فالجسم المركب من ثلاثة عناصر هو غير الجسم المركب من هذه الثلاثة ، وعنصر رابع • وأثر كل منهما مخالف لاثر الآخر • وبديهة ان اختـلاف الاثر دليل على اختلاف المؤثر • وهذا ما اراده علماء الرياضة بأن الاعداد الصحيحـة تحصل من اضافة الواحد الى نفسه ، فاذا حصل اثنـان ، ثم اضيف اليهما واحد حصل ثلاثة ، وهكذا ننتقل من الثلاثة الـى الاربعة باضافة واحد اليها ، ويكون الواحـد هو الحد الفاصل بين رقم ورقم ، فالعشرون تفترق عن العشرة من رقم ١١ ، لا رقم ١٩ •

الفصل التاسع

أقسام التقابل

كل اثنين اذا نسب احدهما للآخر ، فان اتحدا في الماهية ، واختلفا في العوارض المشخصة فهما متماثلان ، كسوادين وبياضين ، فقد تعددا بتعدد المحل الذي عرضا له ، اما حقيقتهما فواحدة ، واذا وضع سواد على سواد فلا يجتمع لونان ، بل يتضاعف ويشتد اللون الاول . وان كانت ماهية كل غير ماهية الآخر ، فاما ان لا يمتنع اجتماع الماهيتين في مكان واحد كالسواد والحركة ، والبياض والحلاوة فهما المتخالفان ، واما ان يمتنع اجتماعهما في محل واحد فهما المتقابلان ، واقسام التقابل اربعة :

١ ـ تقابل السلب والايجاب ، كقولك : هذا موجود ، هذا ليس بموجود ويقال لهذا النوع من التقابل : التناقض . ومن لوازم النقيضين انهما لا يجتمعان ولا يرتفعان ، اي لا يكون الشيء الواحد موجودا ومعدوما معا ، ولا غير موجود وغير معدوم معا .

٢ ـ تقابل التضاد بين وجودين بحيث لا يمكن اجتماعهما في محل واحد على التعاقب والتوالي ، ويقال لهما : الضدان . وهما لا يجتمعان ولا يرتفعان اذا لم يكن لهما ضد ثالث ، كالحركة والسكون . اما مع

وجـود الضد الثالث فانهما لا يجتمعـان ، ولكن يرتفعـان ، كالسواد والبياض ، فان الشيء الواحد لا يكون اسود وابيض ، وقد يكون أخضر او احمر •

٣ ــ تقابل التضايف ، كالابوة والبنوة ، حيث لا يجتمعان في ذات واحدة باعتبار واحد ، فان زيدا لا يكون ابا لعمرو وابنا له ، ويمكن أن يجتمعا مع تعدد الجهة ، فيكـون الشخص الواحـد ابا لبكر ، وابنـا لخالد •

٤ ــ تقابل العدم والملكة ، كالعمى والبصر ، والفرق بين هذا الوجه والوجه الاول ان العـدم والملكة يشترط فيه ان يكون العدمـي قابلا للوجودي ، كالاعمى فانه قابل لان يكون بصيرا بخلاف السلب والايجاب فان المحل العدمي غير قابل للوجودي بحال •

ومن هذه الاقسام يتبين معنا انه من الغلـط الفاحش ان يعتقـد الانسان برأيين متقابلين ، اذ لا يقع تحت تصور العقل ان يكون الشيء الواحد موجودا ومعدومـا في آن واحد ، ولا ان يجتـمع الضدان ، او المتضايفان او العدم والملكة في ذات واحدة •

ثم يجب ان يزاد لتحقيق التناقض في تقابل السلب والايجاب شروط ثمانية :

١ ــ وحدة الموضوع ، فاذا اختلف وتعدد ، كما لو قلت : زيـد كاتب ، عمرو ليس بكاتب ارتفع التناقض •

٢ ــ وحدة المحمول ، فان قلت : زيد كاتب ، زيد ليس بنجار ، فلا تناقض •

٣ ـ وحدة الزمان ، اذ لا منافاة بين قولك : زيد موجود الآن ،زيد ليس بموجود الامس •

٤ ـ وحدة المكان ، فلو قلت : زيد موجود في الدار ، زيد ليس بموجود في السوق أمكن صدقهما معا •

٥ ـ وحدة الاضافة ، فلو قلت : زيد أب لخالد ، زيد ليس بأب لعمرو صح القول •

٦ ـ وحدة الكل والجزء ، فلو قلت : بعض الزنجي أسود ، وليس الزنجي كله أسود ارتفع التناقض •

٧ ـ وحدة الشرط ، فلو قلت : الجسم يجمع البصر اذا كان أسود ، ولا يجمعه اذا كان أبيض كانا صادقين •

٨ ـ وحدة القول والفعل ، فلو قلت : زيد كاتب بالقوة ، زيد ليس بكاتب بالفعل ، لم يكن بين القولين أي منافاة •

وفي هذه الشروط التي ذكرها القدامى دلالة واضحة على أن الحقائق في نظرهم نسبية ، وليست مطلقة ، وان الحكم على الشيء يجب أن يكون مقيدا بظرفه المعين ، وملابساته الخاصة ، اذ من الجائز ان يتغير الموضوع ، ويتطور الى حالة أخرى • ان الحقيقة المطلقة لا توجد في عالم المادة •

أقسام العلة

العلة هي القـوة التي يصدر عنها المعلول [1] وهي أربعة أنواع : فاعلية ، وغائية ، ومادية ، وصورية .

١ ـ العلة الفاعلية ، هي العامل المؤثر ، والمحرك الذي به يوجـد الشيء ، كالنجار الذي جعل الخشب سريرا .

٢ ـ العلة الغائية ، وهي ما لأجله يكون الشيء ، كالجلوس على السرير ، فانه غاية لصنعه وايجاده . وهي تكون علة بلحاظ ، ومعلولـة بلحاظ آخر ، فالجلوس معلول بحسب الخارج لوجود السرير ، اذ لولاه لما تحقق الجلوس وهو في نفس الوقت علة ، اذ لولا فكـرة الجلوس لم يوجد الدافع على ايجاده ، لذا قيل : ان الغاية تثبت لكل فاعل مختـار ، أما فعل الطبيعة التي تجعل من الحبة سنبلة فتسمى فائدة وحكمة ، وقد تسمى غاية تشبيها لها بالغاية الحقيقية التي تفتقر الى قصد وارادة .

٣ ـ العلة الماديـة ، وهي التي يتكون منهـا الشيء ، كالخشب

---

(١) انتقد هيوم هذا التعريف ، وقال : « أن العلة هي حادثة متقدمة ، والمعلول حادثة متأخرة ، اما القوة المؤثرة فلم نجدها عند التجربة » ومهما يكن ، فان مجرد التقدم والتأخر بين شيئين لا يدل على ان احدهما علة ، والآخر معلول ، فقد يكون ذلك من باب الصدفـة ، كانتحار الطـلاب ايام الامتحان ، او يكون الاثنان معلولين لعلة اخرى ، كالتتابع بين الليل والنهار ، فانهما مسببان عن دوران الارض .

بالقياس الى السرير ، ويعبر عنها بالقابل والهيولى [1] .

٤ ــ العلة الصورية ، وهي الهيئة التركيبية التي تظهر في السرير بعد الصنع .

وهذه العلل الاربع لا بد من تحققها في كل موجود خارجي بعدما أثبت العلم انه لا يوجد شيء صدفة وبلا سبب . والعلة المادية والصورية تتكون منهما الماهية ، ولا يمكن انفصال احداهما عن الاخرى في الوجود، الا ان الاغراض والمصالح تتعلق ــ في الغالب ــ بالهيئة فقط ، فاذا قلت لصاحبك : اسمح لي بقلمك ، فانما تريد هيئة القلم التي تكبب من اية مادة تكون اما العلة الفاعلية والغائية فهما علة للوجود ، اذ لولا الفاعل المحرك والفكرة التي تدفعه على العمل لما وجد شيء . ويتصل بمبحث العلة مسألتان هامتان :

الدور والتسلسل

« المسألة الاولى » في إبطال الدور والتسلسل ، ومعنى الدور ان يوجد شيئان ، كل واحد منهما علة للاخر ، وبطلانه واضح ، لانه يستلزم توقف الشيء على نفسه ، ومثال قول الشاعر :

مسألة الدور جرت   بيني وبين من أحب
لولا مشيبي ما جفا   لولا جفاه لم أشب

يقول الشاعر : ان حبيبه جفاه لشيبه ، وان الشيب حصل أولا ، ثم أعقبه الجفاء ، ثم ناقض نفسه ، وقال : ان الشيب كان من جفاء الحبيب،

---

(١) الهيولي كلمة يونانية معناها الاصل والمادة ، وهي واحدة في جميع الاشياء حتى في الجماد والنبات والحيوان ، وانما تتباين الكائنات بالصورة فقط .

أي أن الجفاء حصل أولا ثم أعقبه المشيب ، فيكون كل من الجفاء والشيب متقدما ومتأخرا في آن واحد ، وبالتالي يكون الشيء متقدما على نفسه . وكذا لو قلت : لا يوجد المساء الا بعد الصباح ، ولا يوجد الصباح الا بعد المساء .

ومعنى التسلسل أن يفرض وجود حوادث او افراد من جنس واحد لا تتناهى في جانب الماضي ، وكل فرد مسبوق بغيره على أن يكون السابق علة للاحق . وهو جائز في جانب المستقبل والابد ، كالاعداد ، فانها تقبل الزيادة ، ولا يمنع العقل من عدم تناهيها . اما التسلسل في جانب الماضي والأزل بحيث لا يكون لها أول فمحال ، لأن الافراد اذا لم تنته الى موجود بالذات يلزم ان لا يوجد شيء أبدا ، فلو افترضنا أن كل فرد من أفراد الانسان لا بد أن يولد من انسان مثله كانت النتيجة المنطقية أنه لم يوجد انسان أبدا ، تماما كما لو قلت : لا يدخل أحد الى هذه الغرفة حتى يدخلها انسان قبله ، فتكون النتيجة ، والحال هذه ، أن لا يدخل الغرفة احد ، حيث يصبح المعنى ان دخول الانسان الغرفة شرط في دخوله اليها ، وبديهة أن الشيء الواحد لا يكون شرطا لنفسه بنفسه ، ولا علة ومعلولا لها في آن واحد لشيء واحد .

ومن الادلة على بطلان التسلسل البرهان المسمى ببرهان التطبيق ، وهو العمدة عند الفلاسفة . ومحصله أن تفترض خطين غير متناهيين ويبتدىء كل منهما من نقطة واحدة ، ثم نفصل من أحد الخطين قطعة ، ثم نطبق أحد الخطين على الآخر ، فنجعل أول أحدهما مقابلا لأول الآخر ، ونمده الى ما لا نهاية ، فان استمر كذلك ، وكان في ازاء كل واحد من الخط الزائد واحد من الخط الناقص كان الناقص مثل الزائد ، وهو محال . وان انقطع الناقص يكون متناهيا لا محالة . واذا انتهى الناقص ينتهي الزائد ايضا ، لانه انما زاد بالمقدار المقطوع ، والزائد على المتناهي متناهٍ .

الواحد لا يصدر عنه الا واحد :

« المسألة الثانية » : قال الفلاسفة : ان الواحد الذي ليس فيه حيثيات متعددة لا يصدر عنه الا واحد ، لانه لا بد أن يكون بين العلة ومعلولها نوع من العلاقة والخصوصية ، ولولا وجود العلاقة بينهما لما استدعت العلة وجود معلول معين ، ولكان صدور الحرارة عن النار دون البرودة ، وصدور البرودة عن الماء دون الحرارة ترجيحا بلا مرجّح ما دامت العلاقة مفقودة بين الطرفين .

وقد تولد من هذه النظرية مشكلة فكرية ، وهي أن الله واحد من جميع جهاته ، والعالم متكثر ، فكيف صدر العالم المتعدد عن الله الواحد ؟. وعليه لا بد من القول اما بوحدة العالم ، واما بتعدد الخالق ، وكلاهما خلاف الواقع . فما هو الحل ؟

وهذا الاشكال لا يرد على من ذهب الى أن صفات الله غير ذاته ، كما يقول الاشاعرة [1] ، ولا على من قال بأن الله سبحانه هو الفاعل المختار يوجِد الاشياء بارادات متعددة ، اذ يكون فيه ، والحال هذه ، حيثيات كثيرة باعتبار صفاته ، وتعدد ارادته . اما القائلون بأن الله واحد

---

(١) وللاشاعرة مبدا آخر غير تعدد الصفات يمكنهم ان يدفعوا به هذا الاشكال ، وكثيرا غيره من الايرادات ، وهو « ان جميع الممكنات تستند الى الله ابتداء وبلا واسطة » كما ذكره صاحب المواقف في ج ٤ ص ١٢٣ ، ويتفرع عليه ان النار ليست محرقة وان الحجر لا يسقط الى اسفل اذا رمي في الهواء ، وان العلم بالنتيجة لا يوجد عند العلم بالمقدمات ، بل الله اوجد الاحراق عند وجود النار ، ولو شاء لأوجد نارا بلا احراق ، واحراقا بلا نار ، والله اسقط الحجر الى الارض ، ولو شاء لرفعه الى السماء ، والله اوجد العلم عند النظر الصحيح ، ولو شاء لأوجد علما بلا نظر ، ونظرا بلا علم ، واورد عليهم العلامة الحلي بأنه يلزمهم اذا علم الانسان بأن الواحد نصف الاثنين ، وان الاثنين نصف الاربعة ان لا يعلم بأن الواحد نصف نصف الاربعة . اي يجوز تخلف العلة القهرية عن اسبابها الضرورية .

بالذات ، واحد بالصفات ، وليست له ارادات متجددة ، ولا حيثيات متعددة ، فقد حلوا الاشكال بما يلي :

وهو ان الله يوحد المعلول الاول ، وهذا المعلول فيه جهات كثيرة ، منها انه ممكن الوجود بذاته ، ومنها انه واجب الوجود باعتبار علته ، ومنها انه يدرك نفسه ويدرك مبدأه ، وكل هذه الحيثيات تجمعت في المعلول الاول ، ويصدر عن هذا المعلول أشياء كثيرة بلحاظ جهاته الكثيرة أي أن الله خلق واحدا فقط ، فيه جهات ، وهذا الواحد المتعدد بالجهات أوجد العالم المتكثر ، ومن هنا تولدت فكرة التوسط بين الله وخلقه .

ثم اختلف الفلاسفة في الواسطة : هل هي واحدة أو أكثر ، فقال افلاطون : انها واحدة ، وهي النفس الكلية ، فالله أوجد النفس ، وعنها يتفرع العالم. وقال الكندي (ت ٢٥٢ هـ) : ان الله أوجد العالم بواسطتين هما العقل والنفس ، اوجد الله العقل ، واودع فيه الفعل والايجاد ، وهو بدوره اوجد النفس، وهي اوجدت العالم . اما الفارابي فقد جعل بين الله والعالم عشر وساطات ، وهي العقول العشرة ، قال : العقل الاول ينبثق عن الله ابتداء ، وينبثق عن العقل الاول عقل ثان يدبر شؤون الافلاك وعن الثالث عقل رابع يدبر زحلا ، ثم الخامس للمشتري ، ثم السادس للمريخ ، ثم السابع للشمس ، والثامن للزهرة ، والتاسع لعطارد ، والعاشر للقمر .

ونحن اذ نتكلم عن هذه العقول فاننا ننقل ألفاظا سطرها الاولون دون ان نتعقلها او نهضم معناها ، اما لقصورٍ في عقولنا ، واما لانها غير معقولة في ذاتها .

وهناك فئة من الفلاسفة ومنهم أرسطو ، قالوا بأن لا واسطة بين الواجب والممكن ، بين الله والعالم ، فكما ان الله واحد فالعالم واحد

ايضا ، والكثرة انما هي في الجزئيات والافراد [1] •

وقال محمـد بن ابراهيم الشيرازي المعروف بالملا صدرا في كتاب « المبدأ والمعاد » : ان واجب الوجود لا كثرة له بوجه من الوجوه ، هو أحدي الذات ، أحدي الصفات ، أحدي الفعل ، لا صفة له الا وجوب الوجود، ولا فعل له الا افاضة الوجود ، وجميع صفاته الفعلية هي ابداع الوجود ، واضافة الخير •

---

(1) كتاب مصباح الانس بين المعقول والمشهور لمحمد بن اسحق القونوي ص ٧٠ طبعة ايران ١٣٢٣ هـ. توفي القونوي سنة ١٢٧٢ هـ.

الفصل العاشر

الجواهر والأعراض

سبقت الاشارة الى أن واجب الوجود هو نفس ماهيته ، وماهيته هي نفس وجوده ، ولاشيء زائد على ضرورة الوجود . اذن فلا يصح ، والحالة هذه ، وصفه بالجوهر والعرض ، لانهما من أوصاف الماهية . وعليه ينحصر التقسيم الى الجوهر والعرض بالممكن فقط . والجوهر هو القائم بذاته ، ولا يفتقر وجوده الى موضوع ، كالانسان والشجر . والعرض هو القائم المحتاج الى موضوع ، كالسواد والحركة ، فانهما لا يتصوران الا في موضوع يقومان فيه .

ويشمل الجوهر خمسة انواع : الاول : الصورة ، وهي الهيئة التركيبية التي يتقوم منها الجسم [1] . الثاني : المادة ، وهي المحل للصورة . الثالث : المركب من الصورة والمادة ، وهو الجسم . الرابع : الجوهر المجرد عن المادة في ذاته دون فعله ، وهو النفس ، فانها بعيدة عن

---

(١) ربما يقال : ان الهيئة غير مستقلة بنفسها ، لانها مفتقرة الى المحل، وهي المادة ، اذن يصدق عليها تعريف العرض . والجواب ان المحل يمكن وجوده بدون العرض ، فوجود الجسم لا يتوقف على وجود السواد ، بخلاف الهيئة فانها جزء مقوم للمحل ، ولا يمكن وجوده بدونها . ومن هنا قال الفلاسفة : ان الجوهر هو القائم لا في موضوع أعم من ان يقوم مستقلا بنفسه ، او يحتاج الى غيره ، ولكن لا على نحو القيام به كالسواد بالجسم، بل لانه مقوم للمحل كالهيئة بالنسبة الى الجسم .

المادة في ماهيتها ، ولكن آثارها لا تظهر الا بتوسط المادة ، ويأتي الكلام عنها • الخامس : المجرد عن المادة في ذاته وفعله ، وهو العقل ، حيث قيل بأنه يدرك من غير توسط المادة ، وقيل : لا يدرك الا بها •

الجوهر الفرد :

قال اكثر المتكلمين : ان الجسم المتحيز يقبل القسمة الى اجزاء متناهية بحيث ينتهي التقسيم الى جزء لا يتجزأ ، ثم اختلف هؤلاء القائلون بالجوهر الفرد في كمية الافراد التي يجب ان يتألف منها الجسم على أقل تقدير ، فقال بعضهم : أقل عدد يتألف منه الجسم جوهران ، لان بهما تتحقق القسمة ، وقال آخرون : بل من ثلاثة جواهر • وقال ثالث : بل من اربعة الخ • ومهما يكن ، فان هذا الخلاف يرجع في حقيقته الى الخلاف في أن الطول والعرض والعمق هل يحصل في المثلث او في المربع او في المسدس •

اما الفلاسفة فقد نفوا الجوهر الفرد ، وانكروا وجود الجزء الذي لا يتجزأ ، وقالوا : ان كل جسم يفرض وجوده فهو قابل للقسمة والتجزئة الى ما لا نهاية ، وليس معنى انحلال الجسم وفساده انه ينحل الى اجزاء متناهية ، كما قال المتكلمون ، بل معناه ذهاب هيئته الخاصة التي تألف الجسم منها ومن المادة •

واستدل القائلون بثبوت الجوهر الفرد بأدلة :

« منها » ان الجسم متناه بحجمه ومقداره ، واذا كان الجسم متناهيا فيجب ان تتناهى اجزاؤه ، لان الفرع لا يزيد على الاصل •

و « منها » ان الحركة تنقسم الى حاضرة ، وماضية ، ومستقبلة ، والماضية قد عدمت ، والمستقبلة لم تتحقق بعد ، والحركة الحاضرة لا

يمكن انقسامها بحال ، والا كان بعضها ماضيا ، وبعضها مستقبلا ، وهو خلاف الفرض ، لان كل جزء من اجزاء الحركة كان حاضرا في آن من الآنات ، وعليه تكون الحركة مركبة من جزء لا يتجزأ ، فكذلك الجسم الذي تعرض عليه الحركة .

و « منها » ان الاجزاء لو كانت غير متناهية لاستحال على اي كان ان يقطع مسافة في زمان محدود ، ولا يمكن قطعها الا بعد قطع نصفها ، ولا يمكن قطع النصف الا بعد قطع الربع ، وهكذا .. فاذا كانت المسافة غير متناهية فيكون قطعها غير متناه ايضا . مثال ذلك : لو أراد انسان ان يقطع كيلو مترا فلا بد ان يقطع نصفه اولا ، ولا يمكن ان يقطع نصفه الا بعد ان يقطع ربعه ، ولا يمكن ان يقطع الربع الا بعد قطع الثمن . وهكذا ، اذ المفروض ان الاجزاء غير متناهية فقطعها غير متناه ، وعلى هذا لا يمكن ان يلحق الفارس المسرع بالنملة اذا سبقته بمتر واحد ، لان المفروض ان هذا مركب من اجزاء لا تتناهى ، فلا يستطيع الفارس قطعها حتى يلحق بالنملة ، وهو خلاف الوجدان والعيان .

وقد أجاب النظّام عن هذا الاشكال بأن المتحرك يقطع المسافة بالطفرة ، وذلك ان ينتقل من المكان الاول الى الثالث رأسا ، ودون ان يمر بالثاني .

واستدل الفلاسفة على نفي الجوهر الفرد بأدلة :

« منها » ان كل متحيز له جهات متعددة يمين ويسار ، وفوق وتحت فيجب ان ينقسم بحسبها ، اي ان ما حاذى منه لجهة اليمين غير ما حاذى منه لجهة اليسار ، وما كان لجهة فوق غير ما هو لجهة تحت ، فالتعدد حاصل بالوجدان .

و « منها » ان نفرض خطا مركبا من خمسة اجزاء ، ثم نضع على كل

طرف من طرفي الخط جزءا ، ثم نحرك كل واحد من الجزئين نحو صاحبه بسرعة واحدة ، فلا بد ان يلتقيا في وسط الخط ، وهو الجزء الثالث ، ولا بد ايضا ان يكون شيء من كل واحد من الجزئين على شيء من الجزء الثالث الذي هو الوسط حتى يتحقق التلاقي .. والا ، لو كان احدهما بكامله على الثالث لم يكن التلاقي في الوسط كما هو الفرض ، واذا كان شيء من الثالث ملاقيا لاحد الجزئين ، وشيء منه ملاقيا للجزء الآخر كان منقسما اليهما بالضرورة ، وعليه يبطل القول بوجود الجزء الذي لا يتجزأ .

الاعراض :

ذهب ارسطو ومن تابعه من فلاسفة المسلمين الى ان الاعراض تنحصر في تسعة أجناس ، فانهم بعد أن قسموا الموجود الى واجب وممكن ، قالوا : ان الممكن ان استغنى عن الموضوع فهو الجوهر ، وان احتاج اليه فهو العرض ، وقسموا العرض الى تسعة اقسام :

١ ــ الكم ، وهو القابل للمساواة واللامساواة لذاته . وينقسم الكم الى متصل ومنفصل ، والمتصل هو الذي يمكن ان يفرض فيه أجزاء تتلاقى عند حد واحد مشترك يكون بداية لاحد القسمين ، ونهاية للقسم الآخر .

مثال ذلك الخط الممتد ، فانك اذا قسمت خطا الى جزئين كانت النقطة هي الحد المشترك بينهما ، بمعنى ان نصف الخط الاول ينتهي عند النقطة ، ومنها يبتدىء النصف الثاني . وكذلك اذا قسمت السطح الى جزئين ، فان نصفه الاول ينتهي الى خط ، ونصفه الآخر يبتدىء من هذا الخط ، وهو الحد المشترك بينهما . ثم ان من المتصل ما ينقسم الى الطول والعرض ، كالسطح ، ومنه ما ينقسم الى الطول والعرض والعمق ، وهو الحجم .

اما الكم المنفصل فلا يوجد حد مشترك بين أجزائه ، كالعدد ، فاذا أشرت الى ستة من عشرة ، فالاول من الاربعة الباقية سابع بالنسبة الى الستة ، والسادس من الستة خامس بالنسبة الى الاربعة ، وليس بين العددين حد مشترك •

والبحث عن الكم المتصل يدخل في علم الهندسة ، وعن المنفصل في علم الحساب ، ومن هنا تتبين الصلة الوثيقة بين العلمين •

٢ ـ الكيف ، والمعروف عند اكثر الفلاسفة انه يشمل الاعراض المحسوسة بأحد الحواس الخمس : الملموسات ، كالحرارة والبرودة ، والمبصَرات، كالاضواء والالوان، والمسموعات، كالاصوات والحروف، والمذوقات ، كالحلاوة والحموضة ، والمشمومات ، كالروائح • ويشمل ايضا الصفات النفسانية ، كالعلم والظن ، والشهوة والارادة •

وقال هشام بن الحكم [١] : ان الاصوات والالوان والطعوم والروائح والاضواء هي أجسام ، وليست أعراضا • ووافقه على ذلك تلميذه النظّام •

٣ ـ الاضافة ، وهي نسبة شيء الى شيء بالقياس الى نسبة اخرى ، كالابوة والبنوة ، فاذا نسبت الابن للأب فقد نسبت ايضا الاب للابن •

٤ ـ الوضع ، كالقيام والقعود والنوم •

٥ ـ الأين ، وهو نسبة الجسم الى المكان بالحصول فيه، ويكون

---

(١) انظر كتاب « هشام بن الحكم » للشيخ عبدالله نعمة ، توفي هشام سنة ١٩٩ هـ • وكان من المع تلامذة الامام جعفر الصادق ، واستاذ عصره في علم الكلام .

بنحو الحقيقة ، كالكون في نفس الحيز الذي يشغلـه ، وبنحو المجاز ، كما لو قلت : فلان في الـدار ، او في السوق ، فان جسمه لا يستغـرق جميع الدار ، ولا جميع السوق •

وقال قوم لا وجود للمكان أصلا ، والا احتاج المكان الى مكان ، ويتسلسل • وقال آخرون : ان المكان أشبه شيء بالهيولى ، فهي تقبـل كل صورة ، وهو يقبل كل جسم ، وقد نسب هذا القول الى افلاطون • ومهما يكن فان الذي نفهمه من المكان هو ما أشرنا اليه من نسبة الجسم الى الحيز الذي يشغله •

الخـلاء :

واختلفوا في جواز خلو المكان عن الشاغل ، فقـال المتكلمـون : يجـوز ان يكون المكان خاليـا من كل شيء حتى من الهـواء • وقال الفلاسفة : لا يجوز خلوه من الشاغل • واستدل المتكلمون بأنه لو كان كل مكان مشغولا وممتلئا لتصادمت الاجسام ، وامتنعت الحركة كلية ، اذ لا يمكن ان ينتقل الجسم الاول من مكانه الا بعد ان ينتقـل الجسم الثاني ، ولا ينتقل الثاني الا بعد ان ينتقل الثالث،وهكذا فتتحرك أجسام العالم كلها دفعة واحدة ، هذا مع العلـم بأنه محال ان تحصل الحركة ، لان كل مكان مملوء بشاغل •

ومن أدلة الفلاسفة على امتناع الخلاء أنـه لو ملأنا زجاجة بالماء ، وكان في أسفلهـا ثقب صغير ، وسددنا فمها سدا محكمـا لوقف ، ولم يتحرك • واذا فتحنا فم الزجاجة خرج الماء من الثقب ، وما ذاك الا لأن المحل ممتلىء بالشاغل ، ولو كان خاليـا لنزل الماء • ومتى فتحنـا فم الزجاجة يخرج الماء من الثقب بمقـدار ما يدخل الهـواء ، من جانب ،

وينزل الماء من جانب آخر [1] .

٦ ــ المتى ، وهو نسبة الشيء الى الزمان الذي وقع فيه ، كقولك : فعلت كذا في الساعة الثانية من ٢ ــ ٢ ــ ٦٠ ، او في طرف من الزمان الذي تذكره ، كقولك : فعلته في شهر تموز ، فان الفعل لم يستغرق الشهر بكامله .

وقال جماعة : ان الزمان جوهر مجرد عن المادة لا يقبل العدم . وقال آخرون : انه الفلك الاعظم ، لانه محيط بكل شيء . وقال ثالث : انه حركة الفلك لا نفس الفلك. وقال أرسطو : ليس الزمان نفس الفلك، ولا حركة الفلك ، وانما هو مقدار حركة الفلك ، لانه يتفاوت بالزيادة والنقصان ، وهو عنده كمّ متصل . وقال الاشاعرة : ان الزمان متجدد الاجزاء ، فيكون كماً منفصلا . ومهما يكن ، فان المفهوم من الزمان انه معنى اعتباري ينتزع من تقدّم شيء على آخر ، فيقال للمتقدم ماضٍ ، وللمتأخر حال او مستقبل .

٧ ــ الملك ، كقولك : فلان له مال او مكتبة .

٨ ــ الفعل ، وهو نسبة بين الشيء ، وبين ما يؤثر فيه ما دام مؤثرا ، كقولك : كسرت الابريق ، فاذا استقر الفعل خرج عن المقولة .

٩ ــ الانفعال ، وهو ان يتأثر الشيء بالغير ، كقولك : كسرت الابريق فانكسر ، فقبول الابريق للكسر ، يسمى انفعالا .

---

(١) من طريف ما استدلوا به على قاعدة الخلاء انه لو رمى انسان حجرا الى فوق يلزم ان يبقى سائرا في العلو الى ما لا نهاية ، اذ لا شيء يصدمه في الفضاء على القول بالخلاء ، مع انه باطل بالمشاهدة والوجدان، والسر ان الفضاء مملوء بالشاغل الذي يصدم الحجر ، ويضطره الى الرجوع القهقري .

وقد نظم بعضهم بيتين ذكر فيهما أمثلة المقولات العشر ليسهل حفظها على الطالب ، قال :

زيد الطويل الازرق ابن مالك
في بيته بالامس كان « متكي »
في يده سيف لواه فالتوى
فهذه عشر مقولات سوا

فزيد مثال للجوهر ، والطويل للكم ، والازرق للكيف ، وابن للاضافة وفي بيته للأين ، وبالامس للمتى ، ومتكي للوضع ، وفي يده سيف للملك ، ولواه ، للفعل ، والتوى للانفعال .

الفصل الحادي عشر

هل العالم حادث أو قديم

هذا العالم بأرضه وسمائه يقال له العالم ، وقد اختلف الناس : هل هو حادث ، اي لم يكن فكان ، او قديم لا أول له ولا آخر ؟.

قال أرسطو وجمهور الفلاسفة بأنه قديم ، واستدلوا بأن حدوث العالم يستدعي تأخر المعلول عن علّته ، والتأخر لا يبرره الا نقص في العلة ، ولا يجوز بحال نسبة النقص الى العلة الاولى ، وبكلمة ان العالم صادر عن ارادة الله ، وارادته قديمة ، فيكون العالم قديما . ولو تأخر العالم يلزم تراخي المعلول عن علته ، والتراخي لا يكون الا بخلل في العلة . وهو محال بالنسبة الى الله سبحانه .

ورد المتكلمون هذا القول بأن ارادة الله تعلقت بوجود العالم في وقت متأخر ، تماما كما لو أردت الآن السفر غدا .

وذهب المسلمون والنصارى واليهود والمجوس ، وجميع المتكلمين الى ان العالم حادث . وهذه المسألة من أجل المسائل وأهمها ، وعليها ترتكز قواعد الاديان كلها ، حيث اتفقت كلمتها على أن القديم واحد لا غير ، وهو الله سبحانه ، وأنه وجد في الازل ، ولم يوجد معه شيء ، وانه

خلق الكون من العدم ، وأبدعه حسب مشيئته وارادته • واذا قلنا بقدم العالم يلزمه اللوازم الباطلة الآتية :

١ ــ أن لا يحتاج العالم الى موجد لانه لا بداية له ولا نهاية[1] •

٢ ــ أن يكون القديم أكثر من واحد ، وانه كان الله وكان معه قديم آخر •

٣ ــ أن يكون الله مغلوبا على أمره ، لان الكون وُجد في الازل قهراً بحيث لا يستطيع ان يحدثه في زمان متأخر •

٤ ــ أن يكون الله غير قادر على إفناء هذا العالم ، والإتيان بعالم آخر يحشر الناس فيه للحساب ، لان هذا العالم لم ينتقل من العدم الى الوجود فكذلك لا ينتقل من الوجود الى العدم • ولانه ثابت لا يتبدل ، كما هو شأن القديم •

ومن أجل ذلك قال العقلاء وأهل الاديان : ان العالم حادث ، وان الله كان وحده ولم يشاركه شيء في القدم والازل •

وقد استدل متكلموا المسلمين على حدوث العالم بأدلة أشهرها الدليل التالي :

وهو أن الجسم لا يخلو من الحوادث ، وكل ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث • واليك شرح هذا الدليل •

---

(١) حاول بعض الفلاسفة ان يوفق بين القول بقدم العالم ، وايجاد الله له ، فقال : ان للقديم معنيين الاول القديم بالذات ، وهو ما كانت ذاته علة لوجوده ، وهذا يصدق على الله وحده ، الثاني القديم بالزمان ، وهو الذي لا اول له ، غير انه مستند الى علة قديمة توجده ، وهو العالم ، وعليه يكون العالم قديما زمانا ، ممكنا ذاتا ، لان الله اوجده . واذا دفع هذا القول اشكال عدم الخلق فانه لا يدفع بقية اللوازم الباطلة ، كتعدد القديم وكون الله مغلوبا على امره .

ان من جملة الحوادث التي لا ينفك عنها الجسم السكون والحركة، لان كل جسم لا محالة إما أن يكون ساكنا ، وإما أن يكون متحركا . ومعنى سكون الجسم كونه في مكان واحد أكثر من زمان واحد . ومعنى حركته انتقاله من مكان الى مكان . والسكون والحركة من الامور الحادثة ، لان كلاً منهما يزول ويتبدل ، فالمتحرك قد يسكن ، والساكن قد يتحرك ، والقديم هو الثابت بطبعه على طريقة واحدة لا يتغير ولا يتبدل . ثم ان الحركة مسبوقة بحركة قبلها ، وكذلك المكوث في المكان الواحد مسبوق بمكوث قبله ، اي ان المكوث في اللحظة الثانية مسبوق بالمكوث في اللحظة الاولى ، وكل ما سُبق بالغير فهو حادث .

واذا كان السكون والحركة حادثين ، والجسم لا يخلو عنهما – لزم ان يكون الجسم محلاً للحوادث . واذا كان محلاً للحوادث فلابد ان يكون حادثا . ولو افترضنا انه غير حادث لكان معنى هذا انه وجد في الازل قبل الحركة والسكون ، وان الجسم قد مضى عليه أمد لم يكن ساكنا فيه ولا متحركا ، وهو محال . وعليه تكون الاجسام حادثة .

وسلك فيلسوف العرب الكِندي طريقا آخر لاثبات حدوث العالم، قال : كل جسم موجود بالفعل ، او سيوجد فهو متناه ، ويستحيل ان يكون سرمديا وباقيا الى الابد . واستدل بالدليل المعروف عند الفلاسفة ببرهان التطبيق الذي اعتمدوا عليه لبطلان التسلسل وعدم التناهي في الزمان الماضي ، فاتخذ الكندي منه دليلا على التناهي في المستقبل ايضا ، ويتلخص :

في اننا لو فصلنا جزءا محدودا من الجسم المفروض انه لا نهاية له ، فالباقي من هذا الجسم ان كان متناهيا فهو المطلوب ، وان فُرض انه غير متناه ، وأرجعنا الى الجسم الجزء الذي فصل منه يكون معنى ذلك أن

الجسم بعد ان اقتطعنا جزءا منه كان غير متناه ، وانه بقي كذلك غير متناه ايضا بعد ان زدنا عليه ما اخذنا منه اولا ، ولكن هذا الجسم بعد الزيادة أكبر منه قبلها ، فاذا كان في كلا الحالين غير متناه تكون النتيجة الحتمية ان اللامتناهي اكبر من اللامتناهي ، وان الكل بمقدار الجزء ، وهو محال . اذن فلا بد ان يكون الجسم متناهيا في المستقبل ، ويكون ايضا متناهيا في الماضي وهو معنى الحدوث .

واذ أثبت ان العالم حادث ، وانه وجد بقدرة الله المبدعة المطلقة فيكون بقاؤه متوقفا على ارادته ايضا ، ان شاء أبقى ، وان شاء افنى .

وقد يتساءل : كيف توجد اشياء من لا شيء ؟

ونجيب بالتساؤل : من أين جاء ذلك الشيء الذي هو مصدر الاشياء ؟ فان وجد من شيء آخر أعدنا التساؤل الى ما لا نهاية ، ولا حل أبدا الا أمر الله اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون .

فالارادة الالهية هي التي تبدع الكون ، وتوجده بعد ان لم يكن شيئا ، وهي التي تفنيه فيصبح لا شيء . والعلم الحديث لا يتصادم مع هذا بخاصة بعد أن أثبت ان المادة تتحول الى طاقة ، والطاقة الى مادة ، وانه لا حلول نهائية ، ولا حقائق مطلقة في « علم الطبيعة الذي تكوّن على يد كبار علماء النسبية في القرن العشرين ، وهم الذين تتسع فلسفتهم ونظرتهم الى هذا العالم المادي للقول بالخلق والفناء ، كما تتسع للقول بنوع من المعرفة بهذا العالم غير المعرفة المأخوذة من العلم الطبيعي » [1].

وبالتالي ، فنحن نتحدى الفلاسفة والعلماء في هذا القرن وفي كل قرن ان يحلوا معضلة الكون حلا سليما دون ان يرجعوا الى قدرة الله

---

(١) ابو ريده « رسائل الكندي الفلسفية » ص ٧٥ طبعة ١٩٥٠ .

وارادته ، فان فعلوا ، ولن يفعلـوا ، فنحن اول من يسلم ويستسلم . وبالتالي ، فان كل ما نحسه ونشاهـده من أنفسنا ومن عوارض الكون فهو حادث ومتجدد ، فمن الكبر الى الصغر ، ومن الشروق الى الغروب، ومن الجذب الى الاقبال ، ومن الصحو الى غيره ، وهكذا .. حتى الحجر الاصم في تغير دائم ، كما تقتضيه النظرية الحديثة . وتغير هذه الاشيـاء معناه حدوثها وتجددها . واذا كانت حادثـة فالنتيجة المنطقية ان الكون الذي يتألف منها حادث ايضا ، لان وجود الكلـي عين وجود أفـراده ، وليس له وجود مستقل عنها .

الفصل الثاني عشر

النفس

اختلفوا في طبيعة النفس وحقيقتها ، وفي أصلها ومبدئها ، وفي مصيرها ونهايتها •

حقيقة النفس :

لقد تعددت الاقوال في حقيقة النفس ، حتى بلغت اربعة عشر قولا [1] أسخفها القول بأن نفس الانسان هي الله بالذات ، وأضعفها انها الماء والهواء ، والنار فقط ، او هذه العناصر الثلاثة مجتمعة ، لانه لا حياة مع فقد أحدها • وأشهر الاقوال قولان : الاول انها جوهر مجرد عن المادة وعوارضها ، اي ليست جسما ولا حالة في جسم ، وانما تتصل به اتصال تدبير وتصرف ، وبالموت ينقطع الاتصال ، وعلى هذا الرأي جمهور الفلاسفة الالهيين ، وأكابر الصوفية ، والمحققين من علماء الكلام كالطوسي والغزالي والرازي •

القول الثاني : انها جوهر مادي ، ذهب اليه جماعة من المعتزلة ،

(١) « كتاب السماء والعالم » وهو المجلد الرابع عشر من بحار الانوار للمجلسي .

وكثير من المتكلمين [١] وقال الحنابلة والكرامية وكثير من أهل الحديث : كل ما ليس جسما ولا يدرك باحدى الحواس الخمس فهو لا شيء [٢] .

واستدل القائلون بأن النفس جوهر روحاني مجرد قائم بذاته ، استدلوا بأدلة :

« منها » ان نفس الانسان تعرف ، وتعرف انها تعرف ، والمعرفة ليست من خواص الجسم ، والا اتصفت كل مادة بالادراك .

و « منها » ان للجسم خصائص، أظهرها اذا قبل شكلا من الاشكال كالتثليث فلا يقبل غيره من التربيع والتدوير الا بعد زوال الشكل الاول، واذا قبل صورة من نقش او رسم فلا يقبل اخرى .. فاذا رسمتَ صورة على لوحة او ورقة فلا يمكنك ان ترسم عليها شيئا غيرها حتى تمحى الصورة الاولى . اما النفس فتتراكم فيها الانطباعات المختلفة ، والصور المتنوعة من المحسوسات والمعقولات دون ان تمحى الاولى ، بل تبقى كاملة ، وتزداد قوة بالثانية ، لان الانسان يزداد فهماً كلما ازداد علماً ، وهذه صفة مضادة لصفات الاجسام التي يلحقها الفتور والكلل ، كلما تكدست عليها الاثقال .

اما القول بأن النفس من نوع المادة — بدليل انه لا يتيسر لها العمل بدون الآلات البدنية — فخطأ محض ، لان افتقارها الى المادة ان دل على شيء فانما يدل على أن عملها مشروط بوجود الآلات المادية لا ان حقيقتها هي المادة ، والا كان المنشار حقيقة النجار ، وحقيقة الباني أدوات البناء ، وحقيقة الفلاح آلات الفلاحة !...

---

(١) المصدر السابق .
(٢) كتاب المبدا والمعاد لصدر المتالهين الشيرازي .

ومن الخير ان نشير الى ان الايمـان بأن النفس مادة ، او جوهر مجرد عنها ــ ليس من اصول الدين ولا من فروعه . فللمسلم ان يعتقد ما شاء في حقيقة النفس ما دام يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر . ولذا ذهب جماعة من علماء المسلمين الى انها جسم ، وآخرون منهم الى انها جوهر مجرد عن الاجسام . وقال العلامة المجلسي [1] في مجلد « السماء والعالم » من كتاب البحار » بعنوان « في حقيقة النفس » : « لم يقم دليل عقلي على التجرد ، ولا على المادية ، وظواهر الآيات والاخبار تدل على تجسيم الروح والنفس ، وان كان بعضها ــ اي بعض الآيات والاخبار ــ قابلا للتأويل ، وما استدلوا به على التجرد لا يدل دلالة صريحة عليه ، وان كان في بعضها ايماء اليـه ، فما يحكم به بعضهـم من تكفير القائل بالتجرد افراط وتحكم » .

اصل النفس :

ذهب أرسطو وأكثر الفلاسفة والمتكلمين ، واهل الاديان جميعا الى ان النفس حادثة ، وان وجودها مقارن لوجود البدن ، واستدلوا بأدلة :

« منها » ان النفس لو كانت قديمة لم يلحقها نقص وفتـور ، لان القديم يستقر على حال واحدة ، مع ان المشاهد خلاف ذلك .

و « منها » ان النفس لو كانت موجودة في الازل قبل الابدان لكانت اما واحدة ، واما متعددة بحسب الماهية . وكلاهما باطل . لانها ان كانت واحدة ، بقيت على وحدتها بعد تعلقها بالابدان فيلزم ان يشترك جميـع

---

(۱) محمد باقر من اقطاب الامامية وعلمائهم الكبار ، وصاحب كتـاب « بحار الانوار » الذي لم تحو المكتبة الاسلامية قديما وحديثا كتابا بحجمه وضخامته ، وتعدد مواضيعه وتنوع ابحاثه ، ويبلـغ حوالي خمسين الف صفحة من صفحات هذا الكتاب على اقل تقدير . توفي سنة ۱۱۱۰ هـ.

الناس بالعلم والجهل ، فاذا علم انسان شيئا فيجب ان يعلمه كل انسان ، واذا جهل شيئا فيجب ان يجهله كل انسان ، اذ المفروض وحدة النفس . وكذا يلزم اجتماع الاضداد في الشيء الواحد حيث تكون نفس الجبان البخيل هي نفس المتهور المسرف ، وهو محال . ومحال ايضا ان تتكثر النفس عند وجود الابدان بعد وحدتها ؛ لانها مجردة عن المادة ، والمجرد لا يقبل التجزئة والانقسام . هذا اذا كانت واحدة في الازل ، وقبل وجود الابدان . اما اذا كانت متكثرة فلا بد ان تمتاز كل نفس عن صاحبتها بالماهية ، أو باللوازم والعوارض ، والا لم يتحقق التعدد والتكثر . وكلا الافتراضين باطل . أما افتراض تعددها بالماهية فلأن النفس الانسانية متحدة بالنوع اتفاقا ، ويستحيل تعددها ذاتا . وأما افتراض تعددها بالعوارض فلأن العوارض انما تحدث بسبب وجود المادة ، ولا وجود للمادة قبل الابدان ، فلا تعدد ، اذن ، بالعوارض كما لا تعدد بالماهية . فيمتنع ، والحال هذه ، وجود النفس قبل وجود الابدان ، وبالتالي يبطل القول بقدمها . هذا بالاضافة الى الادلة التي اوردناها على حدوث العالم .

وذهب افلاطون ومن تابعه الى ان النفس قديمة ، وهذي احدى المسائل التي وقع الخلاف فيها بين أرسطو وافلاطون . ومن ادلة القائلين بقدم النفس انها لو كانت حادثة لكانت غير دائمة ، مع انها باقية الى الابد كما ثبت بالبرهان .. وكل ما هو أبدي فهو أزلي . واجاب صاحب الاسفار عن ذلك بأن النفس ابدية من حيث ذاتها المجردة ، وغير ابدية من حيث مفارقتها للبدن بالموت ، وهذا كاف لتبرير حدوثها ، وعدم أزليتها .

مصير النفس :

اتفق الفلاسفة والمتكلمون على أن النفس باقية بعد مفارقتها للبدن،

ولكنهم اختلفوا في نوع الدليل الذي دل على انها باقية الى الابد . فقال المتكلمون : انه السمع ، وزعم الفلاسفة انه العقل . ويتلخص دليل المتكلمين بأن فناء البدن لا يوجب فناء النفس ، ولا بقاءها ، ومجرد كونها مدبرة له ، ومتصرفة فيه لا يستدعي شيئا من ذلك . والعقل لا يُلزم بالبقاء ولا بالفناء ، بل يترك الامر في ذلك الى الشرع . وقد نص القرآن الكريم ، وتواترت السنة النبوية ، واجتمعت الامة على ان النفس باقية بعد فناء الجسم : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون » .

واستدل الفلاسفة بالعقل على بقاء النفس بان الفناء والفساد انما يعرض للكائن بأحد أمرين : الاول ان يكون مركبا من اجزاء فيفسد بانحلال اجزائه . الثاني أن يكون قائما بغيره فينعدم بانعدام الموضوع الذي كان قائما فيه ، كالسواد يذهب بذهاب الجسم . وحقيقة النفس البشرية بعيدة عن كلا الامرين ؟ لانها جوهر بسيط قائم بذاته ، فلا اجزاء لها كي تفسد بالانحلال ، ولا هي قائمة بغيرها وعارضة عليه كي تنعدم بانعدامه . وعليه فلا تكون قابلة للفساد والفناء بحال من الاحوال .

التناسخ :

ويوجد طوائف شتى تدين ببقاء النفس بعد فناء الجسم ، ولكنها تؤمن بتناسخ النفوس متنقلة من بدن الى بدن بحيث يكون بينها وبين الثاني من العلاقة ما كان بينها وبين الاول . ومن عقيدة اهل التناسخ ان النفس اذا كانت مطيعة لله تعالى ، ومن ذوات الاعمال الطيبة والاخلاق الطاهرة ـ انتقلت بعد موتها الى ابدان السعداء واهل الجاه والثراء . واذا كانت عاصية شقية انتقلت الى ابدان الحيوانات ، وكلما كانت أكثر شقاوة اختير لها بدن اخس واكثر تعبا .

وقال صدر المتألهين الشيرازي في كتاب « المبدأ والمعاد » : اذا

انتقلت النفس الانسانية الى بدن انسان سمي ذلك نسخا ، واذا انتقلت الى بدن حيوان كان مسخا ، واذا انتقلت الى النبات فهو الفسخ ، او الى الجماد فهو الرسخ . ولا بعث ولا حساب عند اهل التناسخ ، بل تنتقل النفس في هذه الحياة من كائن الى كائن ، وهكذا الى ما لا نهاية . وغير بعيد ان مخترع هذه الفكرة كان رحّالا من عشاق الاسفار. ومهما يكن فقد استدلوا على التناسخ بما يلي :

١ ـ ان النفس لو لم تنتقل بعد فساد الجسم الاول الى غيره لبقيت معطلة بلا عمل . لان البدن بمنزلة الآلات والادوات للنفس ، وبدونه لا تستطيع القيام بأي عمل .

واجيبوا بانه ثم ماذا ؟! وأي باطل يترتب على تركها للعمل ؟! وعلى افتراض انه لا بد لها من تدبير عمل فليس من الضروري ان يكون عملها بعد مفارقة البدن تماما كعملها حين اتصالها به ، فربما كان من نوع آخر كالاشراق والابتهاج وما الى ذلك مما لا يستدعي وجود البدن .

٢ ـ ان النفوس هي عبارة عن كمية محدودة العدد لانها موجودة بكاملها فعلا وخارجا لا تزيد ولا تنقص ، اما الاجسام فلا نهاية لها ، بل تتجدد وتتبدل على التوالي والتعاقب وبذلك تكون الابدان اكثر عددا من النفوس . فاذا لم تنتقل النفس الواحدة بين ابدان عديدة لزم أن تبقى أبدان بلا نفوس ، لان توزيع الاقل على الاكثر بالتساوي محال .

والجواب ان هذه دعوى بلا دليل ، وافتراض بدون اساس ، ومن الذي قام بعملية الاحصاء ، وثبت له بالتتبع او الاستقراء ان النفوس اقل من الاجسام ؟!.

وعلى الرغم من ان اقوال اهل التناسخ كلها من هذا القبيل فقد استدل العقلاء على بطلان التناسخ بامور :

١ ـ لو انتقلت النفس من البدن الاول الى الثاني للزم ان يتذكر الانسان شيئا من احوال البدن الاول ، لان العلم والحفظ والتـذكر من الصفات التي لا تختلف باختلاف الابدان والاحوال ، مـع اننا لا نعرف شيئا عما كان قبل وجودنا الحالي .

٢ ـ لو تعلقت النفس بعد مفارقة هذا البدن ببـدن آخر للزم أن يكون عدد الوفيات بمقدار عدد المواليد دون زيادة أو نقصان ، لانه اذا زادت الوفيات بقيت نفوس بلا ابدان ، واذا زادت المواليد بقيت ابدان بلا نفوس . وكلاهما باطل عند اهل التناسخ .. لانه يستلزم اما تعطيل النفوس ، واما تعطيل الابدان ، وهم يمنعون من وجود المعطل في الطبيعة. هذا بالاضافة الى ان المواليد لا تتساوى ابدا مع الوفيات ، فأيام الحرب والجوع والامراض والطوفان والزلازل تزيد الوفيات ، وأيـام السلـم والرخاء تزيد المواليد .

٣ ـ ان النفس لا تتصل بالبدن الا بعـد ان يكون له الصلاحيـة والاستعداد التام لقبولها . فالجماد والنبـات والحيوانات غير صالحـة لتقبل النفس الانسانية ، وكذا بدن عمرو لا يصلح بحال لان يتقبل نفس زيد ، لانه منذ تكوينه في بطن امه تتصل به نفسه المختصة به ، ولا تنفك عنه بحال ، والا لزم تخلف المعلول عن علته ، وبعد ان تتصل بـه نفسه الخاصة لا يمكن ان تنتقل اليه نفس اخرى ، اذ لا تجتمع نفسان في بدن واحد ، كما لا يشترك بدنان في نفس واحدة .

وبالتالي : فـلا احد منا يشعر بان له نفسين مختلفتـين تتصرفـان بشؤونه وبدنه ، وانما الذي يحسه ويشعر به ان له ذاتا واحدة لا غـير ، وانه لا يعلم شيئا عما كان قبـل حياته هذه ، كما انه لا يجـد ولن يجد شخصا يماثله في جميع صفاته النفسية ، ومن هذا يتبين ان التناسخ وهم وهراء .

الفصل الثالث عشر

الحواس الخمس

تنقسم الحواس الى ظاهرة وباطنية ، والاولى على خمسة اقسام : البصر والسمع واللمس والشم والطعم .

واقسام الثانية خمسة أيضا :

١ ـ الحس المشترك ، ويسمى بنطاسيا في اليونانية ، أي لوح النفس ، وهو قوة في داخلها يعكس جميع الصور المتسربة اليها عن طريق الحواس الخمس ، فيجتمع في هذه القوة صور الملموسات والمشمومات والمسموعات والمبصرات والمذوقات . ولذا سميت بالحس المشترك .

واستدلوا على وجوده بأدلة ، منها انا نشاهد قطرات الماء النازلة بسرعة خطا مستقيما ، ونرى الشعلة التي تدار بسرعة دائرة ، مع انها ليست كذلك في حقيقتها .. وان البصر يدرك الشيء على ما هو عليه ، فلا بد اذن من قوة اخرى ترتسم فيها صورة النقطة الاولى ، وقبل انمحائها ترتسم صورة النقطة الثانية ، فتتصل الصورتان في الحس المشترك ، فنرى النقط خطا والشعلة دائرة .

٢ ـ الخيال ، وهو خزانة الحس المشترك ، أي أن الصور التي

ارتسمت بهـذا الحس اذا غابت وذهلنا عنها تتذكرهـا كمـا كانت اولا بالرجوع الى الخيال ، فلو لم تكن مخزونة فيه لما امكن تذكرها بحال .

٣ ـ الوهم ، وهو قوة تدرك المعاني الجزئية ، كالعداوة تدركهـا الشاة من الذئب ، والمحبة يدركها الحيوان الصغير من امه ، ومثل هذه المعاني لا تدرك بالحواس الظاهرة كالعين والاذن ، ولا بالنفس الناطقة ، أي العاقلة ، لانها تدرك الكليات دون الجزئيات ، مع ان هذا الادراك كما قدمنا موجود في الحيوانات .

٤ ـ الحافظـة ، وهي خزانة الوهـم ، فاذا ذهبت صورة المعـاني الجزئية ، تتذكرها بالرجوع الى الحافظة ، فنسبة الحـافظة الى الوهـم كنسبة الخيال الى الحس المشترك .

٥ ـ المتخيلة ، وهي التي تنسب بعض الصور الى بعض ، كقولك : صاحب هذا اللون له طعم كذا ، وان كل عدو يعمل هذا العمل .

الفصل الرابع عشر

المعرفة

القضايا البديهية :

بأي شيء تثبت أن حكم العقل حجة يجب العمل به ؟ أي ما هو الدليل الذي يلزم باتباع العقل ، وعدم مخالفته ؟ ولماذا يجب على العالم ان يعمل بعلمه ، وعلى الجاهل أن يسأل العالم ؟

الجواب : ان الشيء الثابت واقعا تارة يكون مجرد العلم بموضوعه مستلزما للعلم به بحيث لا نحتاج في معرفته الى اكثر من تحقق الموضوع في الذهن ، كمعرفتنا بان الاثنين زوج ، وان النار حارة ، والعلم خير من الجهل ، والصحة خير من المرض ، والكل اكبر من الجزء ، والواحد نصف الاثنين ، وما الى ذلك من البديهيات التي لا يفتقر اثباتها الى استعمال النظر والتفكير ، والتي تثبت لذات الشيء ثبوت الوجود للموجود والانسانية للانسان .

واخرى لا يكون العلم بموضوعه مستلزما للعلم به ، بل نحتاج في اثباته الى أكثر من تصور الموضوع ، كالعلم بأن الارض كروية ، وأن الشمس تبعد عن الارض « كذا » ، وان سرعة الضوء في الثانية تبلغ

« مئات الكيلومترات » وما الى ذلك من الحقائق النظرية التي يفتقر اثباتها الى البحث والتنقيب واستعمال الادوات الفنية • وما كان من النوع الاول ، أي في عدد البديهيات فلا يسأل دليلها ، ولا يطلب من مدعيها البينة ، لانها من القضايا التي تحمل معها أقيستها ، وعليه فلا يقال : ما الدليل على اعتبار العقل والعلم ، لان هذا الاعتبار ثابت لذات العقل والعلم بقطع النظر عن أي شيء آخر ، ومن غير حاجة الى دليل وبرهان ، لان الصدق ثابت لنفس الذات ، كما أشرنا • وما بالذات لا يعلل بشيء • ولو احتاج اعتبار العقل الى دليل لكان هذا الدليل اما العقل ، واما غيره • والاول محال : لان الشيء لا يكون دليلا لنفسه بنفسه والثاني باطل ، لان العقل هو دليل الغير فلا يكون الغير دليلا له • وبالتالي فان سلب الاعتبار والحجة عن العقل يستدعي سلب الشيء عن نفسه ، وسلب الوجود من الموجود ، فانك اذا قلت : العقل ليس بحجة فكأنك قلت العقل ليس بعقل ، والموجود ليس بموجود ، ولا ينطق بهذا الهذيان الا مجنون !••

ومن هنا قيل : ان القضية البديهية لا تحتاج الى دليل ، والنظرية لا بد ان ينتهي دليلها الى البديهية والوجدان ، كما ينتهي العدد الى الواحد • وما زلت أحفظ الدرس الاول من علم النحو الذي قرأته منذ ٣٥ سنة • وهذه خلاصته ، قال الاستاذ : الكلام هو اللفظ المفيد • واللفظ هو الصوت المشتمل على بعض الحروف الهجائية • والصوت كيفية قائمة بمحض خلق الله تعالى • وعندما وصل الاستاذ الى هنا قال : لقد بلغنا الى حكم البديهة والوجدان الذي لا يحتاج الى توضيح ، لان توضيح الواضحات من اشكل المشكلات ، ثم ختم الدرس مستشهدا بقول الشاعر :

وليس يصح في الافهام شيء ... متى احتاج النهار الى دليل [1]

وبهذا يتبين معنا ان القضايا ليست بديهية بكاملها ، والا استغنينا عن العلم والتعلم ، ولا نظرية بأجمعها ، والا استحالت المعرفة ، وانسد باب العلم .. بل بعضها نظرية ، وبعضها بديهية ، وبالقضايا البديهية الواضحة تتوصل الى معرفة القضايا النظرية الغامضة .

وما دامت القضايا البديهية لا تحتاج الى الدليل واستعمال الفكر فيكون الناس ، والحال هذه ، في ادراكها سواء لا فرق فيها بين العالم والجاهل ، كما انها ليست محلا للجدل والنقاش بين أهل المعرفة والعلم ، ولا يُبحث عنها في العلوم كغاية ، بل كوسائل ومقدمات تتألف منها الادلة والاقيسة المنطقية . فليس من مسائل العلم في شيء البحث في ان الماء يغلي اذا وُضع اناؤه على النار ، وان الشمس تشرق عند الصباح ، وتعلو في النهار ، وان الحجر اذا رمي يسقط على الارض ، وما الى ذلك مما تواضع عليه الناس ، وانما يبحث العلم : لماذا سقط الحجر على الارض ؟ وما هو السبب لارتفاع الشمس وسط النهار ؟ وكم تبلغ درجة الحرارة في الماء اذا غلى .

القضايا النظرية :

اما النوع الثاني ، وهي القضايا النظرية التي تفتقر الى الدليل فانها تقبل السلب والايجاب بنسبة متعادلة بالقياس الى العلم بالموضوع ، أي ان العلم بموضوع القضية لا يستدعي العلم بنسبة المحمول اليه لا نفيا ولا اثباتا ، فان العلم بالارض ـ مثلا ـ لا يستدعي العلم بكرويتها او

---

(١) وشبيه بهذا ما قرأته في المنطق عن تعريف الانسان بأنه حيوان ناطق . والحيوان بأنه جسم نام حساس متحرك بالارادة ، والجسم بأنه جوهر قابل للابعاد الثلاثة : الطول والعرض والعمق .

عدم كرويتها ، فلا بد ، اذن ، من أمر خارج ، وسبب زائد يستدعي المعرفة . فما هو هذا السبب الذي يوجب العلم ، والمعرفة النظرية ؟ .

اسباب المعرفة النظرية :

لقد تعددت اقوال الفلاسفة حول منابع المعرفة ومصادرها ، فمن قائل بأنه لا مصدر للمعرفة ابدا ، حيث لا يمكن الوثوق بشيء يحصل منه العلم الصحيح ، وهؤلاء هم السفسطائيون . ومن قائل بأن مصدر المعرفة الاتصال المباشر فقط ، كما ذهب اليه المتصوفة . ومن قائل بأنه العقل دون سواه ، وهم المثاليون . وقائل بأنه العقل والتجربة .. الى غير ذلك من المذاهب . وسنتكلم عن كل من السفسطائيين والمتصوفة في فصل مستقل ، وقبل ان نشير الى منهج الذين يعتمدون العقل فقط ، أو التجربة فقط نمهد بما يلي :

رأى جماعة من الفلاسفة ان في الكون ظواهر عقلية ، وظواهر مادية ، ثم رأوا ان حقيقة كل منهما تباين حقيقة الاخرى ، لانِ من شأن العقل ان يدرك ويفكر ، والمادة لا تعقل ولا تفكر . وقد تولد من هذا التباين مشكلة فكرية ، وهي : ما دام العقل والمادة متباينين فكيف يستطيع العقل ان يعرف المادة ؟! وهل من الممكن ان يدرك الضد ضده ؟! وقد حل المثاليون هذا الاشكال بأن حولوا الكون بكامله الى عقل ، واعتبروا وجود الطبيعة وجودا عقليا لا ماديا .. وعكس الماديون الامر فأرجعوا العقل الى المادة ، وقالوا : ان المعرفة نفسها ليست الا اهتزازا في ذرات المخ والجهاز العصبي [1] . وعلى كل من القولين يكون العقل والطبيعة من سنخ واحد ، وتنحل المشكلة . وبهذا يتبين معنا : لماذا حصر المثاليون سبب المعرفة بالعقل وحده ، والماديون بالتجربة وحدها .

---

(١) المذهب المادي قديم بقدم الفلسفة ، ومن اتباعه ابيقور (٢٧٠ قم) وقد قاوم سقراط وافلاطون وارسطو النزعة المادية .

والحقيقة ان اسباب المعارف الاستدلالية لا تنحصر بالتجربة والمشاهدة ، ولا بالعقل او النقل ، ولا بالوثائق والآثار ، بل تشمل هذه جميعا . ولو اختصرت اسباب المعرفة بشيء واحد للزم ايضا ان تكون أشياء الكون عندنا علما واحدا فقط لا علوما متعددة — مع ان لدينا علوما شتى ، يبحث كل علم منها بموضوع خاص يميزه عن غيره. فالعلوم الطبيعية منها ما يبحث في ظواهر المادة الجامدة ، كعلم الفيزياء والكيمياء، ومنها يبحث في الكائنات الحية وتطورها ، كعلم الحياة . والعلوم الطبيعية بجميع اقسامها تعتمد التجربة والمشاهدة ، لذا يحتاج العالم الطبيعي الى المختبرات والآلات . أما الرياضيات فتبحث في امور مجردة ، كالاعداد والاشكال الهندسية ، وأكثر اعتمادها على العقل ، لذا يكتفي الرياضي بقلمه وقرطاسه . وتبحث العلوم التاريخية والاجتماعية في الانسان ومظاهر الحياة البشرية وتطورها . وهي تعتمد الوثائق والآثار، وملاحظة العلاقات المشتركة بين الناس ، واستقراء الحوادث الاجتماعية . أما علوم اللغة ، وهي فرع من العلوم الاجتماعية فتبحث في مفردات الالفاظ ، وتراكيبها وقوانينها ، وتعتمد على النقل والعرف . ان هذه الاسباب بأجمعها تؤدي الى المعرفة ويصدق كل واحد منها في مجاله الخاص .

هذا مع العلم بانه لا غنى للتجربة في الطبيعيات عن العقل ، ولا للعقل في الرياضيات عن التجربة ، فكثيرا ما يطابق الرياضي بين شكلين هندسيين. بل لا غنى عن العقل في جميع الاسباب . واذا دل هذا على شيء فانما يدل على وجود صلة بين العقل والمادة بنحو من الانحاء على ما بينهما من التباين والتباعد . وبالتالي ، فان الواقع اعم مما تناله التجربة الحسية والتفكير العقلي ، ونقل الثقات ، بل يشملها جميعا .

القياس والاستقراء والتمثيل :

ان الذين تتبعوا اقوال من تكلم في أسباب المعرفة قديما وحديثا ،

وتجردوا للواقع ـ لا بد ان ينتهوا الى انها لا تنحصر بالعقل ، أو التجربة او غيرهما ، بل تشتمل الجميع كلا في ميدانه ودائرة اختصاصه • وهذه النتيجة يمكن استفادتها من اقوال اهل المنطق ، وعلماء الكلام ، حيث قسموا الدليل الى ثلاثة اقسام : القياس [1] والاستقراء والتمثيل • والقياس عندهم اشرف الادلة ، ويتألف من قضايا عقلية وغير عقلية على أن تكون مسلما بها عند المخاطب • وكيفية الاستدلال بالقياس هي أن تنتقل من الكلي الى الجزئي ، من حالة عامة الى حالة خاصة • كقولك : كل انسان فان ، وسقراط انسان ، فسقراط فان ، فالحكم الثابت للعام قد أعطيته للخاص •

أما دليل الاستقراء فبالعكس ، وهو الانتقال من حوادث جزئية الى حكم كلي • وهو ينقسم الى تام وناقص ، فالتام ان تتبع افراد الكلي فردا فردا فتراها على وتيرة واحدة ، وفي هذه الحال تستخرج منها حكما كليا يشمل جميع الافراد • مثال ذلك أن ترى الارض تدور حول الشمس ، ثم ترى زحلا وعطارد والمريخ والمشتري والزهرة وغيرها من الكواكب كذلك ، وبعد التتبع التام تصدر حكما كليا على الجميع • وتقول : كل كوكب يدور حول الشمس • وأما الاستقراء الناقص فهو أن تتبع اكثر الافراد لا كلها ، ثم تنشىء حكما عاما على الجميع • مثاله ان ترى الناس والبهائم والسباع تحرك فكها الاسفل عند المضغ • فتقول: كل حيوان يحرك فكه الاسفل عند المضغ ، مع انه يحتمل ان يكون حال

---

(١) قسموا القياس اربعة اقسام : (١) القياس البرهاني ، وهو الذي يثبت الواقع (٢) القياس الجدلي ، وهو لا ينفي ولا يثبت ، ولكنه يفحم الخصم . وقال ابن رشد في كتاب « الكشف عن مناهج الادلة » ليس في قوة صناعة الكلام الوقوف على الحق ، وانما هي حكمة جدلية فقط . (٣) قياس المغالطة ، ومن شأنه التضليل والتلبيس ، ويسمى بالقياس السفسطائي . (٤) قياس الخطابة ، وهو ان تمدح الشيء او تذمه بألفاظ طنانة وعبارات رنانة لا شيء وراءها سوى التهويل والتهويش .

بعض الحيــوانات التي لم ترها تحــرك الفــك الاعلى ، لا الاسفــل ، كالتمساح .

واما دليل التمثيل فهو الحاق فرد بفرد في الحكم، لاشتراكهما في معنى جامع بينهما بحسب الظن ، ويسميه الفقهاء قياسا . والفرد الاول أصلا ، والثاني فرعا . مثاله ان ينهاك الطبيب عن اكل الليمون الحامض فتمتنــع عنه وعن الرمان الحامض ايضا ــ ظنا منك أن الحموضة هي علة النهي .

وقد صرح أهل المعقول ان هــذا الدليل والاستقراء النــاقص لا يفيدان الا الظن . أما القياس والاستقراء التام فيفيدان العلم واليقين . ويختص الاستقراء التام بالمشاهدة ، أما القياس فيعم المشاهدة والمعقــول والمنقول على شريطة ان تكون القضايا التي يتألف منها القياس مسلما بها عند المخاطب .

الفصل الخامس عشر

السفسطائيون

الفلسفة محاولة يراد بها فهم حقائق الاشياء ، والسفسطة مغالطة وتلبيس الحق بالباطل . وقد كان عظيم السفسطائيين الاكبر فيلسوفا يونانيا ظهر في القرن الخامس قبل الميلاد يدعى « بروتاغوراس » .

ويلاحظ ان السفسطة عند اهلها علم مستقل بذاته ، بل لا علم سواه في الوجود ، أما الغاية من انشائه فهي النجاح في الحياة ، والارتفاع عن طريق السفسطة الى اعلى المراتب والمناصب ، اذ لا طريق الى التقدم والنجاح الا التأثير في الناس ، ولا وسيلة الى هذا التأثير الا البراعة اللفظية ، والقدرة على المماحكة التي تجعل من الانسان سيدا لكل مجلس !.

ويرى بعض الغربيين ان السفسطة كانت خطوة تقدمية في الفلسفة اليونانية ، وان قرنها كان قرن تنوير العقول والافكار ، لانها جاءت رد فعل لانتشار الفلسفة وتقديس اليونانيين اياها ، حتى اصبحت شغلهم الشاغل ، وحتى ارتفعوا بصاحبها الى درجة الانبياء — فاراد السفسطائيون ان يبينوا للناس ان الفلسفة كذب وخيال ، وان الفلاسفة

مشعوذون لا يملكون سوى كلام فارغ ، ظاهره خصب ، وباطنه جدب.
وقد أقام أهل السفسطة البرهان على دعواهم هذه بأنهم اقدر من الفلاسفة على التلاعب بالالفاظ ، وتأليف الاقيسة الصورية التي لا تمت الى الواقع بسبب ، وانهم ستطيعون ان يجعلوا الحق باطلا ، والباطل حقا ... واليك بعض الامثلة من أقيسة السفسطائيين :

رأى سفسطائي صورة فرس في يد شخص فقال له :

أتريد ان اثبت لك بالبرهان ان هذا الرسم صاهل ؟

ـ مع الشكر .

ـ هذا فرس ، وكل فرس صاهل ، فهذا صاهل . واذا حاول هذا السفسطائي أن يثبت الصهيل الى رسم الفرس ، فان بعض كتاب هذا العصر يحاول ان يجعله السابق في الحلبات .

و « منها » ـ أي من أقيسة السفسطائيين ـ قولهم : في الحائط فأرة ، وللفأرة آذان فللحائط آذان ...

وهذا القياس أشبه بمنطق القائلين : في الجزائر بترول ، والبترول ملك لفرنسا ، فالجزائر ملك لفرنسا ...

و « منها » ان سفسطائيا كان يتحدث في الملعب مع شاب أثيني ، فقال للشاب :

ـ هل ابرهن لك ان اباك كلب ؟

ـ وكيف ذلك ؟

ـ هل عندك كلب ؟

ـ أجل .

ـ هل للكلب جراء ؟

ـ نعـم •

ـ اذن ، فالكلب أب •

ـ بكل تأكيد •

ـ اليس الكلب لك ؟

ـ بلى •

وعندما انتهى السفسطائي من هذا الاستنطاق قال للشاب :

ـ اذن الكلب هو أب ، وهو في نفس الوقت لك ، فالنتيجـة ان الكلب أب لك •••

و « منها » قال سفسطائي لشاب : استطيع ان اثبت لك انك حمار•

ـ تفضل واتحف السمع •

ـ أنا لست أنت ، أليس كذلك ؟

ـ أجل ، أنت غيري ، وأنا غيرك •

ـ وأنا لست حمارا •

ـ لا شك ، لان الحمار يمشي على اربع ، وانت تمشي على رجلين•

قال السفسطائي منتصرا : اذن انت حمار !••

وقد تصدى سقراط وافلاطون وارسطو لدحض السفسطة كل على طريقته ، وحملوا عليها حملات شعواء ، وابطلوها بالبرهان، حتى تهدمت من الاساس ، وحتى اصبحت مضرب الامثال لكل وهم وخيـال • وقد استعمل سقراط مع السفسطائيين اسلوبه المعروف ، فكان يتظاهر لمحدثه بالجهل ، ثم يأخذ بالاستفسار والتساؤل ، واثارة الشكوك ، ويستدرجه الى الكلام ، حتى يوقعه في المتناقضات مـن حيث لا يدري ، ويتركـه

أضحوكــة للكبير والصغــير ، كمــا يترك البطــل فريسته لــلاسود والحشرات ...

وسار افلاطون على طريقة استاذه سقراط في الجدل والنقاش مــع أهل السفسطة ، على ما بينهما من الاختلاف في النظر ، حيث ان الاشيــاء المحسوسة عند سقراط تعبر عن الواقع ، وعند افلاطون تذكر بحقيقــة المثُل في العالم المعقول (١) .

ومهما يكن ، فقد ظهر أثر السفسطة في الفلسفة الاسلامية ، اذ رأينا متكلمي المسلمين يتعرضون للسفسطائيين والرد على اقوالهم ، بل جاء في كتب الادب والتراجم حكايات ونوادر طريفة عن السفسطائيين في عهــد

---

(١) تقوم فلسفة افلاطون على نظرية المثل ، وهي ان الحقائق كلها كامنة في العقل والمحسوسات الخارجية صور واشباح لها ، فاذا ذهلنا عن حقيقة من الحقائق العقليــة سهلت لنا المحسوسات سبيــل التذكر والانتبــاه ، فالموجود الحقيقي هو المثل المرتسمة في العقل ، ولا وجود لغيرها بالمعنــى الصحيح للوجود . اما العقل عند ارسطو فهو صحيفة بيضاء ، والموجودات الخارجية هي نقطة الانطلاق الى التفكير ، ومنها يستنبط العقل الحقائق . فافلاطون ينزل من الاعلى الى الاسفــل ، من العقل الى اشياء الكــون ، وارسطو يصعد من الاسفل الى الاعلى ، ومن هنا راى الكثيرون ان فلسفة ارسطو تقدمية بالقياس الى فلسفة افلاطون .

هذه هي الافلاطونيــة القديمــة ، فما هــي الافلاطونيــة الحديثــة والمستحدثة ؟ الجواب : لقد كثر حولها التأويل والتفسير من ارسطو الى افلوطين احد اساتــذة مدرسة الاسكندرية الى ابن سينا الى الملا صدرا . وقد مزج افلوطين المصري بينها وبين المذهب المادي ، واصبحت تعرف بعد تطويرها بالافلوطينية الحديثة . وهي تعرف في النصوص العربية بفلسفة الاسكندرانيين وترتكز على وجود الله وايجاده للعالم ، لكن هذا الايجاد منه جاء على سبيل الانبثاق والفيض كنور شمس المنبثق عنها. ويتفرع على هذه النظرية نظرية الاشواق وهي ان النفس اذا اقتربت من الشهوات بعــدت عن الحقائق ومصدرها الذي تنبثق عنه الاشياء ، واذا بعدت عن الشهوات قربت من هذا المصدر وانكشفت لها المعارف . وهذا معنى . اما العقــل الفعــال فهو واهب الصور العقليــة ، او قل هو الذي يصوغ المعقولات في النفوس (راجع الاسفار للملا صدرا ج ٢ ص ٤٦ وتوما الاكويني ٣٠ و١١٧ واعلام الفلسفة لكرم وصليبا ٤٢٨ و ٤٧٤) .

بني العباس ، وكان من رؤوسهم صالح بن عبد القدوس ، وهو معاصر للنظام . وقد شاع بين الفلاسفة وعلماء الكلام التعبير بلفظ « سفسطة » عن الآراء الخاطئة والاقوال الباطلة .

وقسم علماء الكلام السفسطائيين الى فئات ثلاث : الاولى تنكر الوجود ، وتقول : لا شيء موجود بالمرة ، وما يظن وجوده فهو وهم وتخيل . وقد سموا هذه « بالعنادية » لانها تعاند البديهة والحس ، ومن اقوالها : ان الكون اذا كان موجودا فاما ان يكون قديما واما ان يكون حادثا ، والقدم باطل بنفس الادلة التي استدل بها القائلون بالحدوث ، والحدوث باطل ايضا بنفس الادلة التي استدل بها القائلون بالقدم . وهكذا كلما اختلف اثنان في شيء ابطلوا قول كل واحد بقول خصمه ! وتقول الفئة الثانية : انه لا شيء ثابت بنفسه ، وان الموجودات بكاملها تتبع الاعتقاد ، فمن اعتقد ان السماء تحت الارض تكون كذلك في حقه ، ومن اعتقد انها فوق فهي كذلك بالقياس اليه . ومن ادلة هذه الفئة ان العسل يكون مرا في مذاق ، حلوا في مذاق آخر ، بل قد يبدو حلوا عند الانسان الواحد في الصباح مرا عنده في المساء . وليس احساس اصدق من احساس ، والحكم بفساد احد الاحساسين دون الآخر ترجيح بلا مرجح ، فتكون جميع الاحساسات صحيحة ، وبالتالي يكون الفرد مقياس الحقيقة . وقد رد الفلاسفة هذا الدليل بان المعوَّل على الذوق السليم وسموا هذه الفئة « بالعندية » أي أنها تأخذ الحقيقة من عند نفسها لا من الواقع .

والفئة الثالثة هي اللادرية لا تثبت ولا تنفي ، وهي تشك في كل شيء ، وتشك في انها تشك ، ولو علمت بانها تشك لناقضت نفسها بنفسها . اذ المفروض ان العلم محال في نظرها . وقد استدلت على نفي العلم وعدم امكانه بانه اما ان يحصل من الامور البديهية ، واما من الامور

النظرية ، وكلاهما محال ، لان البديهة تخطىء ، والنظر انما يكون حجة اذا انتهى الى البديهة . وقد فرضنا ان البديهة لا يمكن الاعتماد عليها فكذلك النظر لان المبني على الفاسد فاسد . ومن اقوال اللاأدرية انه يستحيل على الانسان ان يتعلم شيئا من غيره ، لان العلم ان بقي بعد التعليم عند المعلم فمعناه انه لم ينتقل منه الى غيره ، بل ظل راسبا مكانه ، وان انتقل من المعلم الى المتعلم يلزم ان يصير المعلم جاهلا بعد ان كان عالما . وان كان العلم عند الاثنين يلزم ان يكون الشيء الواحد موجودا في محلين ، وهو محال .

ومن السفسطة الشائعة في هذا العصر بأن ما نظن انه خير أو شر انما هو مستمد من ذاتنا ، لا من الواقع ، لان المتكلم اذا قال : هذا هو خير أو شر فانما يعبر عن شعوره نحو الاشياء من حب وكراهة بحكم بيئته وتربيته .

وبالتالي فان الشك ضروري لكل باحث وطالب ، لانه عنصر فكري هام ، ودافع قوي على البحث والدرس ، ومرحلة لا غنى للفلسفة عنها ، بل لا غنى عنها للنهضات والتطورات العلمية والاجتماعية ، ولكن ليس معنى هذا ان الشك هو عين الفلسفة ، وانه يجب الوقوف عنده ، والبقاء في ظلمات الجهل والريب .

ومن اطرف الردود على السفسطائيين ما قرأته في كتاب المواقف للايجي ، قال :

يجب ان يضرب السفسطائي ضربا مؤلما فان اعترف بالالم ، واحتج على الضارب كان هذا حجة عليه ، واقرارا منه بوجود الحقائق ، وان لم

ينكر ولم يحتج فليكن جوابه الضرب كلما تكلم بالسفسطة ، لانه بزعمه يلزم ان لا يكون على جسمه ضرب ما دام لا شيء في الوجود .

(اهم مصادر هـذا البحث المواقف للايجي ، وتلبيس ابليس لابن الجوزي واسس الفلسفة لتوفيق الطويل ، واعلام الفلسفة العربية لليازجي وكرم) .

الفصل السادس عشر

المتصوفة

الزهد في نظر الاسلام :

أباح الاسلام للانسان أن يحيا في نعيم الطيبات ، وأن يظهر بمظهر الزينة ما دام غير باغ ولا عاد ، فقد جاء في الآية ٣١ من سورة الاعراف : « قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصّل الآيات لقوم يعلمون . قل انما حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والاثم والبغي بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وان تقولوا على الله ما لا تعلمون » .

فالحرام في دين الاسلام هو الشرك والكذب والبغي والاثم والفواحش ، والعيش على حساب الناس ، أما ان يتقلب الانسان في نعيم الحلال ، ويعيش عيشة راضية فاحب الى الله من ان يكون ضعيفا مهانا . قال الرسول الاعظم : « المؤمن القوي خير واحب الى الله من المؤمن الضعيف » . وقال : الفقر هو الموت الاكبر . وقال الامام علي لولده محمد بن الحنفية : يا بني اني اخاف عليك الفقر ، فاستعذ بالله منه ، فان الفقر منقصة للدين ، مدهشة ، داعية للمقت . وقال : الغنى في الغربة

وطن ، والفقر في الوطن غربة . وقال : كاد الفقر ان يكون كفرا . وقال الصحابي الجليل ابو ذر الغفاري : اذا ذهب الفقر الى بلد قال لـه الكفر خذني معك . الى غير ذلك من الاحاديث في ذم الفقر .

أما حياة التقشف التي كان يحياها محمد وخلفاؤه الراشدون فلا دلالة فيها على ان التقشف مطلوب لذاته ، وانما هو عمل بمبدأ مساواة الحاكم للرعية ، اذ عليه ان يقيس نفسه بأضعف الافراد ، وليس لـه أن يشبع وفي رعاياه جائع . ويدل على هذه الحقيقة ما جاء في نهج البلاغة :

قال العلاء بن زياد الحارثي للامام علي ، وكان من اصحابه . قال له : يا أمير المؤمنين اشكو اليك أخي عاصما . قال : وما له ؟ قال : لبس العباءة ، وتخلى عن الدنيا . قال : عليّ به . فلما جاء قال : يا عدو نفسه لقد استهام بك الخبيث ــ أي الشيطان ــ اما رحمت اهلك وولدك ؟! أترى الله احل لك الطيبات ، وهو يكره ان تأخذها ؟! انت أهون على الله من ذلك . قال : يا امير المؤمنين هذا انت في خشونة ملبسك، وجشوبة مأكلك . قال : ويحك اني لست كأنت . ان الله فرض على أئمة العدل ان يقدروا انفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقره ، أي يهيج به ألم الفقر فيهلكه .

وبالتالي ، فان معنى الزهد في نظر الاسلام ان لا تطغى عند الانسان النزعة المادية على النزعة الروحية ، والجانب الدنيوي على الجانب الاخروي ، كما صرحت الآية ٧٧ من سورة القصص : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا » وكما قال الامام علي : اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا .

وقد احتفظ المسلمون بهذه الروح في عهد الرسول وعهد أبي بكر وعمر ، حتى قام الخليفة الثالث عثمان بن عفان فضعفت الروح الاسلامية

عند جماعة من الاصحاب ، وكثير غيرهم ، حيث تغلب عليهم حب المجد والمال ، فكنزوا الذهب والفضة ، وشيدوا الدور والقصور ، واقتنوا العقارات والجواري والعبيد • وقابل المؤمنون الصادقون هذا التحول بالثورة والاستياء ، كما حدث للصحابي الجليل أبي ذر الغفاري مع عثمان ومعاوية • ووجدت فئة من المسلمين تدعو الى احتذاء الرسول ، والاقتداء به وبالصالحين من أصحابه ، وكان وجود هذه الفئة ردة فعل لاشاعة الترف والبذخ في عهد الامويين والعباسيين • ولم تتعد في دعوتها تعاليم القرآن والسنة النبوية ، ولكن هذه الفكرة ، فكرة الزهد والاعتدال تطورت بمرور الزمن ، ودخلت في ادوار عديدة ، حتى اطلق فيما بعد على اصحابها اسم المتصوفة ، وقد اشتهروا بهذا الاسم قبل المئتين من الهجرة •

ادوار التصوف :

١ ــ كانت البذرة الاولى لفكرة التصوف هي الزهد ، وقد أشرنا الى الاحتفاظ بالتوازن بين النزعة المادية والروحية فلا تطغى احداهما على الاخرى • وكان زعيم هذه الدعوى أبا ذر الغفاري •

٢ ــ ثم أصبحت هذه الفكرة طريقا للمعرفة عند المتصوفة ، فالعلم بزعمهم لا يحصل من الاستدلال والتعلم ، ولا من المدارس والمعاهد ، بل من المساجد والمعابد ، من التعبد والتهجد ، وكبح الشهوات • فمتى أخلص الانسان لله في أعماله ، وصدق في اقواله القى الله العلم في قلبه القاء • قال ابن رشد في كتاب « الكشف عن مناهج الادلة » : أما الصوفية فطرقهم في النظر ليست طرقا نظرية مركبة من مقدمات واقيسة ، وانما يزعمون ان المعرفة بالله وبغيره من الموجودات شيء يلقى في النفس عند تجريدها من العوارض الشهوانية ، واقبالها بالفكرة على المطلوب •

وخير مثال يوضح فكرتهم هذه ما نقله ابن الجوزي المتوفى ٥٩٧ هـ

في كتاب « تلبيس ابليس » وهو ان فقيهـا كان مجاورا لاحد اقطـاب الصوفية ، وكان يسمع عنه الكثير ، فقصده ذات يوم . وقال له : حكـي لي عنك عجائب . فقال الصوفي : اما علمك انت وامثالك فهو نقل لسان عن لسان ، وعلمي انا عطاء من الله والهام . فقال الفقيه : وكيف تأخـذه عن الله ؟! قال الصوفي : بالالقاء في القلب . مساكين أنتم تأخذون العلـم ميتا عن ميت ، وعلمي أنا عن الحي الذي لا يموت . وكان أحد الصوفيين اذا حدّث قال : حدثني قلبي عن ربي ..

٣ ـ وعلى يد ابي يزيد البسطامي المتوفى ٢٦١ هـ انتقلت فكـرة التصوف من نظرية الالهام والالقاء في القلب الى نظرية اتحـاد الانسان بالله . وجعلهما حقيقة واحدة .

٤ ـ وعلى يد الحلاّج الذي قتل ٣٠٩ هـ انتقلت هذه الفكرة الى حلول الله بالانسان ، وسائر المخلوقات . ويتفق الاتحاد والحلول فـي انهما حقيقتان اندمجتا واصبحتا حقيقة واحدة ، والفرق بينهما اعتباري لا جوهري ، اذ معنى الاتحاد ان المخلوق اتحد مع الخالق ، ومعنى الحلول ان الخالق حل في المخلوق ، واتحد معه . ويختلف المعنيان عن معنى وحدة الوجود الذي قال به ابن عربي المتوفى ٦٣٨ هـ ، لان معنى وحدة الوجود انه لا حقائق متعددة ثم اتحدت ، وانما الوجود باجمعـه من اول الامر حقيقة واحدة ، وهو الله ، وله مظاهر شتى تتكثر بالصفات والاسمـاء ، وجوهرها واحد ، فالجماد والنبات والحيوان والانسان ، وكل وجود هو الله بالذات ..

ولا نضيع الوقت في الرد على هذه الاقوال ، لانها ليست مـن العلم في شيء ، وانما هي شطحات صوفية ، وأوهام سفسطائية ، كيف وهـي تدعو الى ترك العلم ، واقفال المعاهد والجامعات والمختبرات ؟!.

(أهم مصادر هذا الباب تلبيس ابليس ـ لابن الجوزي ، والكشف عن مناهج الادلة لابن رشد ، واسس الفلسفة لتوفيق ـ الطويل) .

الفصل السابع عشر

الالهيات

اثبات الخالق :

استدل أهل الكلام والفلاسفة على اثبات الخالق ببراهين منها :

١ ـ قدمنا فيما سبق ان الموجود ينقسم الى واجب الوجود ، وهو الذي لا يحتاج وجوده الى علة ، والى ممكن ، وهو ما يحتاج وجوده الى علة توجده . ونحن نرى موجودا بالضرورة فان كان واجبا فقد بلغنا المطلوب ، وان كان ممكنا كله ادى ذلك الى تسلسل العلل الى ما لا نهاية او الدور ، وكلاهما محال . بيان ذلك ان علة الممكن ان كانت من ذات نفسه لزم ان يكون الشيء الواحد متقدما على نفسه باعتباره علة لها ، ومتأخرا عن نفسه باعتباره معلولا . وهذا هو الدور الباطل ، وان كانت العلة خارجة عن الممكن فتلك العلة تحتاج الى علة ايضا ، وهكذا دواليك، وهذا هو التسلسل الباطل . وتتيجته ان لا يكون هناك علة على الاطلاق، وبالتالي ان لا يوجد شيء ابدا . اذن لا بد من الاعتراف بمبدأ اول وُجد بدون علة توجده ، وهو في نفس الوقت علة لغيره . وهذا الدليل يتخذ من النظر الى الوجود نفسه برهانا على وجوب الواجب بذاته بصرف النظر عن العالم المشاهد .

٢ ـ سلك المتكلمون سبيلا آخر . قالوا : العالم حادث ، كما قدمنا ، وكل حادث لا بد له من موجد ، فان كان الموجد قديما ثبت المطلوب لان القديم هو واجب الوجود ، وان كان حادثا تسلسل او دار. ويرجع هذا الدليل في جوهره الى الدليل السابق .

٣ ـ ان في الكون تدبيرا ونظاما ، وهما يدلان على وجود المنظم والمدبر ، تماما كما تدل الكتابة على الكاتب ، والكلام على المتكلم .

ومرة ثانية نقول : انه لو لم يوجد واجب لذاته يكون العلة الاولى لجميع الموجودات لما وجد شيء ابدا ، اذ لو فرض ان كل موجود لا بد له من علة توجده ، وان العلة التي لا علة لها منتفية ، وان كل شيء منتف لانتفاء علته ، مع اني انا وانت وغيرنا ـ ايها القارىء ـ لنا وجود بالضرورة والعيان ، فاذن العلة الاولى التي وُجدت بذاتها ، ومن غير موجد موجودة بالضرورة . وقد اعتمد هذا الدليل اهل المعقول والمنقول منذ عهد ارسطو حتى اليوم ، وما استطاع احد ان يأتي ضده بشبهة معقولة ، او كلمة مقبولة .

وقال قائل : ان الاشياء الجزئية تحتاج الى سبب يوجدها ، اما الحدث الكلي ، أما الكون فانه لا يحتاج الى سبب ، لانه سبب بذاته .

ونقول في جوابه :

أولا : ان الكلي هو عين جزئياته وافراده ، فاذا احتاج كل فرد الى سبب ينتج أن الكلي يفتقر الى سبب ، اذ لا وجود للكلي مستقلا عن الافراد .

ومثلا ـ يتألف البيت من الحيطان والسقف ، ومعنى افتقار الحيطان والسقف الى الباني أن البيت يفتقر اليه بالبديهة .

ثانيا : أن التفصيل بين الحدث الكلي والحدث الجزئي خطأ ظاهر . لان قانون السببية عقلي والقوانين العقلية لا تقبل التخصيص والاستثناء، وانما تقبله القوانين الوضعية ، ـ مثلا ـ لنا ان نضع قانونا ينص على أن كل من يخالف السير يعاقب بكذا الا اذا كان غريبا عن الوطن ، وليس لنا ان نقول بان المساويين الثالث متساويان الا اذا كانا من خشب [1] .

---

(١) تكلمنا مفصلا في هذا الموضوع في كتاب « الله والعقل » .

الفصل الثامن عشر

صفات الخالق

تنقسم صفات الخالق الى ثبوتية ، وسلبية ، والسلبية هي التي تنفي عنه ما لا يليق به ، كالقدم والبقاء والوحدانية ، فان معنى القدم انه لا اول له ، ومعنى البقاء انه لا آخر له ، ومعنى الوحدانية انه لا ند له ، أما الصفات الثبوتية فهي تثبت ما يليق بذاته كالقدرة والعلم والكلام ، وما الى ذاك . وفيما يلي نشير الى صفاته تعالى التي ذكرها الفلاسفة وعلماء الكلام غير معتمدين الترتيب الذي جاء في كتبهم .

القدرة :

معنى القادر هو الذي ان شاء فعل . وان لم يشأ لم يفعل ، اي لا شيء من الفعل والترك ضروري للفاعل . والى هذا ذهب المتكلمون،وأهل الاديان ، قالوا : ان الله اوجد الكون على نظامه الحالي بمشيئته ، ولو لم يشأ لم يكن . وقال الفلاسفة : ان ايجاد الكون من لوازم ذات الله بحيث يستحيل انفكاكه عنه بحال . واما قول المتكلمين : « لو لم يشأ » فخطأ بزعم الفلاسفة ، لانه لا بد ان يشاء ايجاد الكون ، ولا يمكن الا ان يشاء ، أي مشيئة الفعل لازمة لذاته قهرا ، لان الفعل فيض ، والفيض كمال كالعلم ، وعدمه نقصان كالجهل ، والله منزه عن النقصان .

ورد المتكلمون على الفلاسفة بانه يلزمهم على هذا سلب القدرة عن الله ، وان يكون الله موجبا غير مختار يصدر منه الفعل قهرا عنه ، تماما كما تصدر الحرارة عن النار ، ويلزمهم ايضا ان يكون العالم قديما بقدم الله ، لاستحالة تخلف الاثر عن المؤثر ، والمعلول عن علته . وأجاب الفلاسفة بانه ليس معنى القادر ان يتقدم على الفعل ، وأن يتأخر الفعل عنه ، بل معناه ان يصدر الفعل عنه بارادة واختيار ، سواء أكان الفعل مقارنا لوجود الفاعل في الزمان ، او متأخرا عنه . وما دام الكون صادرا عن مشيئة الله سبحانه فيكون الله ، والحال هذه ، قادرا غير عاجز .

القدرة على القبيح :

قال الاشاعرة والامامية واكثر المعتزلة : ان قدرة الله تعم جميع المقدورات حسنة كانت او قبيحة ، لان المقتضي للقدرة هي ذات الله ، والمصحح لايجاد الفعل هو امكان وجوده ، ونسبة قدرته الى فعل القبيح كنسبتها الى فعل الحسن . الا ان الاشاعرة قالوا بان الله لا يقبح منه شيء ، فكل ما يفعله هو حسن . وقال الامامية واكثر المعتزلة ان لله داعيا الى فعل الحسن ، وليس له صارف عنه ، وله صارف عن فعل القبيح ، وليس له داع اليه . وهو قادر ، ومع وجود القدرة والداعي يجب الفعل ، ومع عدم الداعي لا يجب . وعليه يكون فعل القبيح بالنسبة اليه ممكنا بالذات ، لقدرته عليه ، ممتنعا بالعرض لعدم الداعي اليه .

وقال النظام من المعتزلة « المتوفى سنة ٢٢١ هـ » : ان الله لا يقدر على القبيح ، لانه مع العلم بالقبح يكون الفعل سفها ، ومع الجهل يكون نقصا ، وكلاهما محال على الله . ويعرف الجواب مما سبق ، وهو ان دل هذا على شيء فانما يدل على عدم صدور القبيح من الله ، ولا دلالة فيه على عدم قدرته عليه .

الحكمة والغرض :

اختلفوا : هل يفعل الله لغرض وحكمة ، او يفعل دون اي موجب للفعل ؟

قال الاشاعرة : يستحيل ان تكون افعال الله معللة بالاغراض والمقاصد .

واستدلوا ـ اولا ـ بان الله لا يجب عليه شيء ، ولا يقبح منه شيء ، اذن لا يجب ان يكون لفعله غرض ، كما انه لا يقبح منه الفعل بلا غرض ـ ثانيا ـ انه لو فعل لغرض ، من جلب مصلحة او دفع مفسدة لكان محتاجا الى استكمال ذاته بتحصيل الغرض ، والله سبحانه يستحيل عليه الاحتياج .

وقال الامامية والمعتزلة : ان كل فعل لا يقع لغرض فهو عبث ، والله منزه عن العبث واللغو . اما قول الاشاعرة بان الفعل لغرض يستدعي الاحتياج والنقصان فجوابه ان هذا يتم لو كان الغرض والنفع عائدا الى الله ، أما اذا عاد الى العبد ، ونظام الكائنات حسبما تقتضيه المصلحة ـ فلا يلزم شيء من ذلك ، وقد جاء في الآية ١٦ من سورة الانبياء : « وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين » .

التشبيه والتجسيم :

ان الله سبحانه ليس بجسم ، ولا بجوهر ، ولا عرض ، ولا في جهة ، او زمان ، او مكان ، ولا يتحد بغيره ولا يحل في شيء ، اذ لو كان جسما لكان حادثا ، ولافتقر الى حيّز . ولو كان في مكان او زمان او جهة للزم قدم المكان والزمان والجهة ، مع انه لا قديم سواه .. هذا بالاضافة الى انه يكون مفتقرا الى الغير . ولو كان جوهرا لكان وجوده غير ماهيته مع

ان وجوده عين الماهية كما تقدم . ولـو كان عرضا لكان قائما بغـيره ، ومحتاجا الى سواه . ولو اتحد بغيره لصار الاثنان واحدا . ولو حل في شيء لكان في حاجة الى المحل الذي حل فيه ، وكل محتاج حادث وممكن.

وقال الظاهرية اتباع داوود الظاهري «المتوفى ٢٧٠ هـ» وغيرهم من المجسّمة كالحنابلة والكرامية ، ويجمع هؤلاء اسم المشبّهة، حيث شبهوا الخالق بالمخلوق ، والكل من الفرق الاسلامية ، قالوا : ان الله جسم ، ثم اختلفوا فيما بينهم في تركيبه وشكله ومكانه ، فمنهم من قال بأنه مركب من لحم ودم ، وانه على صورة شاب أمرد ، وقال آخرون : بل هو شيخ أشمط ، ومنهم من قال بان طوله سبعة اشبار بشبر نفسه ، وانـه يجلس على العرش ، ويئط العرش من تحتـه أطيطا ـ أي يحن حنينا ـ ، وانه يفضُل على العرش من كل جهة اربعة اصابع ، وانه ينتقل من مكان الـى مكان . ومنهم من قال بانه يسكن في جهة الفوق، لانها اشرف ، وقال قائل منهم بأنه يركب حمارا ، وينزل الى الارض كل ليلة جمعة ينادي هل مـن تائب ؟ هل من مستغفر ؟ وقال داوود الظاهري : ان الله بكى على طوفان نوح حتى رمدت عيناه ، وعادته الملائكة .. الى غير ذلك مـن الهذيـان والافتراء على الله بغير علم .

وأغرب ما قرأت في هذا الباب ما نقله الدكتور محمد يوسف موسى في كتاب « القرآن والفلسفة » عن فخر الدين الرازي انه قال : « ان بدء ظهور التشبيه في الاسلام كان من الروافض » .

والحقيقة ان فكرة التجسيم عند بعض الفئات الاسلامية ترجع الى ظاهر القرآن والحديث قبل ان ترجع لاي شيء آخر ، فقد جاء في القرآن الكريم : « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية .. وجا بك والملك صفا صفا .. هل ينظرون الا ان يأتيهم الله في ظلل من الغمام .. يد الله

فوق ايديهم •• ويبقى وجه ربك » الى غير ذلك من الآيات • وجاء في صحيح البخاري ج٤ ص ٢٤١ عن ابي هريرة ان رسول الله قال : «يتنزل ربنا كل ليلة الى سماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الاخير ، فيقول : من يدعوني فاستجيب له ، من يسألني فاعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له •

اذن ارجاع التجسيم الى الشيعة تماما كنسبة دم يوسف الى الذئب• وصدق المعري حيث يقول : كذب الناس على الله ، ثم كذبوا على الملائكة، ثم كذبوا على الانبياء ، ثم كذب بعضهم على بعض •

ومنذ وجد الشيعة حتى اليوم لم يقل واحد منهم بالتجسيم ، وقد ألف علماؤهم مئات الكتب في تنزيه الخالق عن التشبيه ، والظلم ، وارادة المعاصي ، وفعل القبيح ، والتكليف بما لا يطاق ، وما الى ذلك مما اجازه الاشاعرة • قال الآغا رضا الهمداني ، وهو الحجة الكبرى عند الشيعة الامامية في كتاب « مصباح الفقيه » ـ باب الطهارة صفحة ٥٥ طبعة ١٣٥٣ هـ • قال : حكم جماعة من علمائنا بكفر المجسِّمة ، وجاء عن الامام الرضا : من قال بالتجسيم والجبر فهو كافر •

ومهما يكن ، فان الامامية والمعتزلة والاشاعرة [١] ينكرون التجسيم اشد الانكار ، ويؤولون اليد في الآيات بالقدرة ، والعرش بالاستيلاء ، والوجه بالذات ، ومجيء الله بمجيء أمره ؛ وما الى ذلك من التأويلات التي يتقبلها الذوق ، ولا يأباها العقل [٢] •

---

(١) الاشاعرة يقولون ان اله يدا ولا كالايادي .. انظر ابو زهرة ـ فصل الاشاعرة .

(٢) المصادر : المواقف للايجي ، ودلائل الصدق ـ الشيخ المظفر ، والقرآن والفلسفة لمحمد يوسف موسى .

الرؤيـة :

اختلفوا في امكان رؤية الله تعالى ، فقال الاشاعرة : ان رؤية اللـه في الدنيا والآخرة جائزة عقلا ، واستدلوا بان الله موجود ؛ وكل موجود يمكن رؤيته ، وبقوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة ، الى ربها ناظرة » .

وانكر المعتزلة والامامية هذا القول ، وجزموا بامتنـاع الرؤية في الدنيا والآخرة ، لان عدم رؤيته تعالى نتيجة منطقية لعدم كونه جسما ولا حالا في جسم ولا في جهة ولا مكان ولا حيز ـ كما يعترف بذلك الاشاعرة انفسهم . ومن نفى عنه التجسيم . واثبت الرؤية فقد ناقض نفسه بنفسه، وأنكر النتيجة بعد ان سلم بمقدماتها .

وقال سبحانه في محكم كتابـه : « لا تدركه الابصار ، وهو يدرك الابصار . وهو اللطيف الخبير » وقال : « فقد سألوا موسى أكبر مـن ذلك . فقالوا : أرنا الله جهرة » .

اما قوله تعالى : « الى ربها ناظرة » فالمراد به النظر بالعقل والبصيرة لا بالعين والبصر . واما قول الاشاعرة بأن الله موجود ، وكل موجـود يرى فجوابه ان الكيفيات النفسية موجودة كالعلم والشجاعة واللذة والالم ومع ذلك لا ترى عيانا .

الوحدانيـة :

حارب الاسلام والمسلمون كافة عقيدة الشرك بكل سلاح . بالبيان والسنان . وأكد القرآن والحديث ، والفلاسفة والمتكلمون مبدأ التوحيد بكل اسلوب . ونادوا جميعا بالايمان بإله واحد لا جنس له ولا نوع ولا فصل . إله واحد من كل وجه في الواقع وفي الذهن ، وفي الخلق والقدرة

وفي الذات ؛ لا ندّ له ؛ ولا ضد ولا شريك . ولا معبود الا هو . ولا وجود تام الا له ؛ واستدلوا على ذلك بأدلة :

١ ــ ان ذات الإله بنفسها تستدعي التفرد بالقوة والسلطان والايجاد ، والا امتنع وصفها بالالوهية [١] .

٢ ــ لو وجد إلهان فاما ان يكون احدهما كافيا في تدبير العالم ، واما ان لا يكون ، فان كان كافيا كان وجود الآخر عبثا ، وان لم يكف كان عاجزا .. وكلاهما نقص ، والناقص لا يكون إلها .

٣ ــ لو افترضنا وجود إلهين لوجب ان يكون كل واحد منهما مركبا من امرين : من الصفة التي تشاركا فيها ، ومن الصفة التي امتاز بها احدهما عن صاحبه ، وكل مركب مفتقر الى جزئه ، والمفتقر ممكن وليس بواجب .

الى غير ذلك من الادلة التي بلغت اربعة عشر دليلا [٢] وقيل للامام جعفر الصادق : ما الدليل على ان الله واحد ؟ فقال : ما بالخلق من حاجة الى أكثر .

سميع بصير :

ان الله سميع بصير ، ولكن لا بآلة ولا جارحة ، ومعنى سمعه وبصره انه محيط بما يصلح ان يُسمع ويبصر ، وعليه ترجع صفة العلم والبصر الى علمه تعالى ، فهما تعبير ثان عن انه لا تخفى عليه خافية .

---

(١) استخرج الدكتور احمد زكي في كتابه « الله في السماء » من تنسيق الكون وتنظيمه دليلا على وجود الله ، ومن جري التنسيق والتنظيم على اسلوب واحد في جميع انحاء الكون على ان الله واحد

(١) راجع تفسير الرازي سورة الانبياء ، آية ٢٢ « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » .

حي ومريد :

ان الله حي ، وليس معنى حياته ان فيه قوة تستطيع النمو والاعتدال كما هي الحال في الحيوان والنبات ، بل معناها انه لا يستحيل ان يكون قادرا عالما ، وقد ثبت علمه وقدرته فيكون حيا بالضرورة . أما ارادته تعالى فليست من نوع الشوق والرغبة ، وانما هي الداعي لايجاد المعدوم، وداعيه تعالى نفس علمه بالخير والنظام المقتضي للفعل والايجاد .

الدوام والبقاء :

الله قديم أزلي لا اول كان قبله ، وباق أبدي لا آخر يكون بعده ، ولولا انه باق لجاز عليه العدم ، وبالتالي يكون ممكنا لا واجبا لذاته .

الفصل التاسع عشر

كلام الله

ان مسألة كلام الله سبحانه اتخذت مظهـرا عنيفا بين المسلمين ، وسالت من أجلها الدماء في عصر العباسيين ، ولاهميتها سمي علم الكلام باسمها .

وقد اتفق الجميع على انه تعالى متكلم ، حيث يقولون : أمر الله بكذا ، ونهى عن كذا ، وأخبـر بكذا ، واتفقـوا ايضا ـ ما عدا قليلا منهم ـ على أن هذه الكلمات الموجودة في التوراة والانجيل والقرآن ، والتي تتألف من الحروف هي حادثة ، لان للتلفظ بها بدءا ونهاية ، واولا وآخرا ، فلا تكون ، والحال هذه ، قديمة ، وكذلك الاصوات التـي ترددها الافواه .

واختلفوا أهل هناك أمر آخر وراء هذه الالفاظ يسمى كلاما حقيقيا أو ان الكلام الحقيقي هو هذا اللفظ ، وكفى ، قال الاشاعرة :

ان الكلام الموجود في الكتب السماوية ليس بكلام الله حقيقة ، بل كلامه قديم قائم بذاته تعالى ، تماما كالعلم والقدرة والارادة ، ولكنه

غير العلم والارادة ، وهذه الكلمات المسطورة التي نتلفظ بها نحن تعبر عن الكلام الحقيقي القائم بذات الله .

وشطح بعض الحنابلة ، وزاد في الغلو ، وقال بان جـلد المصحف والغلاف الذي يوضع فيه ، والحبر الذي كتب به ، كل ذلك صار قديما بعد ان كان حادثا !..

ومما استدل به الاشاعرة على قدم كلامه بأن اللفظ اذا لم يعبر عن صفة في النفس يكون لفظا مجردا أشبه بلفظ الببغاء ، وبأن كلام الله صفة له ، وكل ما هو صفة له فهو قديم ، فكلامه قديم .

وقال المعتزلة والامامية : ان كل من يوجد كلاما يدل على معنى فهو متكلم ، ولا دخل للمعنى القائم في النفس في وضع الالفاظ ، ودلالتها ، وعلى هذا يكون كلام الله هو نفس الكلمات الموجودة في التوراة والانجيل والقرآن وهي حادثة ، ولا يلزم من القول بحدوثها أن يكون الله محلا للحوادث ، لانه سبحانه يخلق الكلام في الشجرة واللوح المحفوظ ، وعلى لسان جبرائيل ، كما يخلـق سائر الكائنات ، وبكلمة ثانية : ان التكلم من صفات الله الاضافية ، كالخلق والرزق ، لا من الصفات الذاتيـة القديمة ، كالعلم والقدرة والحياة ، وبهذا يتبين الخطأ في قول الاشاعرة « ان كلام الله صفة له ، وكل ما هو صفة له فهو قديم » .

وبالتالي ، ينبغي ان ننبه الى ان الخلاف بين الاشاعرة من جهة ، والمعتزلة والامامية من جهة ــ يعود الى ان الكلام بمعناه الحقيقي هـل يطلق على ذات اللفظ الدال على معنى ، أو على المعنى القائم في النفس وان صفة الكلام بالنسبة اليه تعالى هل هي صفة اضافية حادثة ، كايجاد الكائنات ،كما يقول المعتزلة والامامية ، أو انها صفة ذاتية قديمة كالعلم والقدرة ، كما يقول الاشاعرة .

واذا رجعنا الى عقولنا نجد ان كلام الله محدث ، وليس بأزلي ، لانه مركب من الحروف ، وكل مركب مسبوق بأجزائه التي يتألف منها ومفتقر اليها .. والمسبوق بغيره حادث ، والمفتقر الى سواه ممكن ، فكلام الله اذن حادث ، وبهذا نطق القرآن الكريم :

« وما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون — سورة الانبياء » .

ومهما يكن ، فان هذه المسألة ليست من اصول الدين ولا من فروعه انما هي نظرية فلسفية ، ومشكلة فكرية لا تمت الى العقيدة بسبب،حيث لم يرد عن الرسول الاعظم بان كلام الله قديم أو حادث ، ويكفي الاعتقاد بأن الله منزه عما يشين ، متصف بجميع صفات الكمال والجلال .

ومن الخير ان نشير بهذه المناسبة الى ان الله سبحانه يتصل بأنبيائه ورسله بأحد طرق ثلاثة : (١) الوحي ، وهو أن يلقي المعنى في نفس النبي بغير واسطة (٢) أن يكلمه من وراء حجاب كأن يخلق الكلام في جسم من الجوامد ، كالشجرة (٣) أن يرسل اليه رسولا . والى هذه الطرق اشارت الآية ٥١ من سورة الشورى : « وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا او من وراء حجاب أو يرسل رسولا » .

وقال ابن رشد : قد يكون من كلام الله أيضا اقوال العلماء العارفين لانهم ورثة الانبياء .

الفصل العشرون

علم الله

الله عالم :

ان الله يعلم ذاته . ويعلم الكون بما فيه من احداث كلية وجزئية ولا يتقيد علمه بزمان ولا مكان ، كما ان علمه بالجزئيات كعلمه بالكليات لا يبدل شيئا من تفرده ووحدانيته . ولا ذاته وصفاته .

الدليل :

استدل المتكلمون على علمه تعالى بأنه اوجد الموجودات على اصلح الوجوه وأنفعها ، ونظمها تنظيما تاما محكما ، وأعطى كل شيء خلقه . ولا شيء أدل على العلم من الاحكام والاتقان ، فهو البرهان الملموس الذي لا يقبل التشكيك والتأويل .

واستدل الفلاسفة بان كل شيء سوى الله ممكن ، وكل ممكن مستند اليه تعالى ، اما ابتداء واما بالوسائط . فذاته اذن ، علة لكل شيء وهو يعلم ذاته بالضرورة والعلم بالعلة يستلزم العلم بالمعلول .

اشكال وحل :

اما الاشكال فتقريره ان الله لا يمكن أن يعلم الجزئيات والحوادث

الفردية ، ولا يمكن ان يجهلها ايضا ، لان الجهل نقصان ، والله منزه عنه. والعلم بها يستدعي محذورين : المحذور الاول انه لو علم بالجزئيات لصار الممكن واجبا ، لان علمه لا ينفك بحال عن المعلوم ، فاذا علم بوجود شيء فلا بد ان يوجد ، والا انقلب علمه خطأ وجهلا ، والله منزه عنهما . المحذور الثاني ان الجزئيات تتغير وتتبدل ، حيث توجد بعد ان تكون معدومة ، وتعدم بعد وجودها ، فهي في تغير دائم . ولو علم الله بها للزم ان يتغير علمه ويتبدل تبعا لتغير الجزئيات وتبدلها ، لان العلم صورة مطابقة للمعلوم ، مع ان علم الله ثابت على وتيرة واحدة ، وليست له حال متجددة . وعليه يستحيل علمه بالجزئيات ابتداء .

وفرارا من هذين المحذورين قال الفلاسفة : ان الله لا يعلم الجزئيات المتغيرة ابتداء وبلا توسط ، وانما يعلمها عن طريق أسبابها وعللها ، لانه يعلم ذاته والعلم بذاته علم بكل شيء ، لانها هي العلة الاولى والمرجع لجميع الاشياء ، اما ابتداء واما بتوسط العلل الثانوية . والعلم بالعلة ــ كما اسلفنا ــ يستلزم العلم بالمعلول . وبهذا جمع الفلاسفة بين تنزيه علم الخالق عن التغير والحدوث ، وبين نفي النقص والجهل عنه .

وقال المتكلمون : ان الله يعلم الجزئيات بذاتها وبأسبابها ، كما يعلم الكليات . ودفعوا محذور التغير في علم الله بأن معنى علمه بالجزئيات المتغيرة هو ان يضاف الجزئي اذا وجد الى علمه ، فاذا انتفى انتفت معه الاضافة الى العلم ، اما العلم نفسه فباق كما هو . مثال ذلك ان زيدا اذا وجد نسب وجوده الى علم الله ، واذا عدم انتفت النسبة الى العلم ولم ينتف نفس العلم . تماما كقدرتك على الحديث مع صاحبك: تتحقق اذا وجد الصاحب ، وينتفي الحديث اذا لم يوجد ، اما قدرتك على الحديث فباقية على ما هي . أو قل : ان صفة العلم بالجزئيات ترجع الى صفة الخلق والايجاد ، اي ان الله خلقها وأوجدها . ويأتي في الفصل التالي ان الايجاد صفة اضافية حادثة وزائدة عن ذات الله .

ودفعوا محذور انقلاب الممكن الى واجب بأن علم الله تعلق بالممكن بما هو ممكن ، اي بما هو قابل للوجود في قبالة الممتنع الذي يستحيل وجوده . وهذا لا يستدعي خروجه عن طبيعة الامكان ، وانما يستوجب وجوده في الخارج لوجود سببه ، وعليه يكون وجوبه لاحقا لا سابقا ، وهذا لا يتنافى مع الامكان الذاتي ، لان كل موجـود ممكن بالذات ، واجب بالعرض ، ولذا قيل ان الشيء ما لم يجب لم يوجد .

وبالتالي فان الله يعلم الكليات والجزئيات بذواتها واسبابها ، ويعلم الجواهر القائمة بغيرها ، ويعلم الموجودات الخارجية والذهنية ويعلم اعدام الممكنة والممتنعة : « عالم الغيب لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض ولا اصغر من ذلك ولا اكبر الا في كتاب مبين ــ سبأ ٣ » « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلـم ما في البر والبحـر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتـاب مبين ــ الانعام ٩ » . « ولقد خلقنـا الانسان ونعلـم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد ــ ١٦ ق » .

الفصل الحادي والعشرون

الصفات والذات [1]

بعد ان اتفقوا على ثبوت صفات الكمال لله سبحانه اختلفوا في انها عين ذاته ، او غيرها وزائدة عليها . وليتضح محل الخلاف فيما بينهم نمهد بما يلي :

ان صفات الخالق على نوعين : نوع لا ينفك عن الذات بحال لم يزل عنها ، ولا يمكن ان يزول بحيث يكون ثبوت الوصف عين ثبوت الذات ، وثبوت الذات عين ثبوت الوصف ، كالحياة والقدرة والعلم ، وما الى ذلك من الصفات الثبوتية . ونوع ينفك ، وهي صفات الافعال التي تتجدد ، وتوجد بعد عدمها ، وهذه حادثة ومتأخرة عن الذات ، لان اتصاف الله بأنه خالق انما يكون بعد وجود المخلوق . وكذا اتصافه بالرازق والمالك لا يصح الا بعد وجود المرزوق والمملوك . وهذا النوع خارج عن محل الخلاف بين أهل المعقول ، ولا يمكن أن يكون محلا لتعدد الاقوال ، لان القول بأن الصفات الاضافية الحادثة هي عين الذات يستلزم القول بأن الله حادث . كما ان القول بأنها غير الذات ، ولكن

---

(1) قال الامام : لم يطلع العقول على تحديد صفته ، ولم يحجبها عن واجب معرفته .

الذات محل لها يستلزم ، ان يكو ناالله محلا للحوادث ، ولم يدّع ذلك احد . لذا اتفق الجميع على ان الصفات الاضافية هي غير الذات وزائدة عليها . وكذلك يخرج عن محل النزاع الصفات المجازية : مثل مريد وكاره ، وغضبان ومبغض ، ومحب وراض ، وسميع وبصير ومدرك ، لان معنى مريد انه يعلم بالمصلحة ـ كما تقدم ـ ومعنى كاره انه يعلم بالمفسدة ، ومعنى غضبان ومبغض انه يعاقب ، ومعنى محب وراض انه يثيب ، ومعنى مدرك وسميع وبصير انه عالم ، كما أسلفنا .

وهذه الصفات المجازية منها ما يرجع في حقيقته الى النوع الاول كالسميع والبصير (١) ومنها ما يرجع الى النوع الثاني ، كالرازق والخالق والمثيب .

اذا تمهد هذا ، تبين معنا ان محل الخلاف ينحصر في النوع الاول، وهي الصفات الذاتية ، كالعلم والقدرة والحياة ، اما النوع الثاني ، وهي الصفات الاضافية فمحل وفاق على أنها غير الذات وزائدة عليها .

قال الامامية واكثر المعتزلة : ان صفاته عين ذاته ، فالله قادر بالذات لا بقدرة زائدة ، وعالم بالذات لا بعلم زائد ، وحيّ بالذات لا بغيرها ، وعلى هذا قياس سائر الصفات الذاتية . واستدلوا بأن القديم واحد لا غير ، وانه ليس في الازل الا الله ، وكل ما عداه ممكن ، وكل ممكن حادث . ولو افترض ان صفات الله غير ذاته فاما ان تكون قديمة ، واما حادثة . وعلى الاول يلزم تعدد القديم ، وعلى الثاني يلزم ان يكون الله قد وجد في الازل بدون علم ولا حياة ولا قدرة ، ولا شيء ابدا ، لان

---

(١) قال شارح المواقف: ان الصفات التي وقع فيها الخلاف سبع : الحياة والعلم والقدرة والارادة والسمع والبصر والكلام . وهذا يتم اذا لم ترجع صفة السمع والبصر الى العلم ، وهو خلاف الصواب والتحقيق .

المفروض ان هذه الصفات قد حدثت بعده ، وكلاهما محال • فتعين ان صفاته عين ذاته ، ونفس حقيقته ، و شيء زائد عليها وقائم بها •

وقال الاشاعرة : ان صفاته قديمة زائدة على ذاته ، وانه عالم بعلم، وقادر بقدرة • واستدلوا بقياس الغائب ، وهو الله ، على الشاهد ، وهو الانسان ، قالوا : لقد رأينا ان العالِم هو الذي يقوم به العلم ، فكذا تكون الحال بالنسبة اليه تعالى •

واجيبوا :

١ ــ ان قياس شيء على شيء انما يصح مع وجود علة مشتركة بين القيس والمقيس عليه ، والله ليس كمثله شيء ، فقياس الانسان عليه قياس مع الفارق •

٢ ــ يلزم ان يكون الله مفتقرا الى شيء هو العلم ، ولولاه لم يكنْ عالما ، وان يكون مفتقرا الى القدرة ، ولولاها لم يكن قادرا ، وعلى هذا القياس •• مع ان الله غني لا يحتاج الى شيء ، ويحتاج اليه كل شيء • هذا الى انه يكون مركبا من اجزاء ، وكل مركب ممكن •

٣ ــ يلزم ما قدمنا من تعدد القديم ، ومن أجل ذلك قال فخر الدين الرازي :

ان النصارى اثبتوا ثلاثة قدماء واصحابنا اثبتوا تسعة •

وخير ما قرأته في هذا الباب هو قول ابن رشد في كتاب « مناهج الادلة في عقائد الملة » الخصه فيما يلي :

قال : من البدع التي حدثت البحث عن صفات الله ، وانها عين ذاته او زائدة عليها • ان الله لم يكلفنا من أمر صفاته الا الاعتراف

بوجودها دون تفصيل ، وليس في قوة صناعة الكلام ان تكون حكمة جدلية لا برهانية ، وليس في قوة الجدل الوقوف على الحق .

وبالتالي ، فان العقول مهما سمت فهي اعجزُ من ان تحيط بحقيقة الله ، وعظمته ، وكيفية اتصافه بصفاته ، وان اقصى ما تستطيع ادراكه هو ان الله موجود وانه ليس كمثله شيء ، وخالق كل شيء ، واليه المرجع والمصير ، وهو أقرب الينا من حبل الوريد ، وان ما من صفة من صفات الجلال والكمال يمكن ان يتصف بها الا هي ثابتة له بالفعل . واذ كنا نجهل حقيقة أنفسنا وما فينا من خواص ، بل نجهل النملة والذبابة فكيف نعرف حقيقة الخالق عز وجل ؟! لذا قيل : لا يعرف الله الا الله « لا تدركه الابصار ، وهو يدرك الابصار ، وهو اللطيف الخبير ــ الانعام ١٠٣ » .

الفصل الثاني والعشرون

حرية الانسان

ان مسألة حرية الانسان في أفعـاله ليست من نوع الجدل المنطقي الذي لا يمت الى الواقع بسبب ، بل هي متصلة بحيـاة الانسان ومآله ومصيره ، ومن اجل هذا شغلت عقول النـاس جميعا منذ أقدم العصور الفلاسفة وغير الفلاسفة . وقد تشعبت فيها الاقـوال وتعددت ، ولكنها تركت واهملت [1] ما عدا قول الإمامية والمعتزلة ، وقول الاشاعرة .

مذهب المعتزلة والإمامية :

قال المعتزلة والامامية : ان افعال العبد نوعـان : نوع تتعلـق به ارادة واختيار ، كالذهاب والاياب ، والكتابة والقراءة . ونوع لا ارادة للعبد فيه ولا اختيار ، كالتنفس والنمـو والحركة الدموية . والانسان مخير غير مسير في النوع الاول ، ومسير غير مخير في النوع الثاني .

(١) منها قول معبد الجهمي « ت ١١٧ هـ » ان الانسان هو الـذي يقدر افعاله ويوجدها ، ولا دخل لله فيها من قريب او بعيد ، واتباع هذا المذهب يسمون القدرية . ومنها قول جهم بن صفوان « ١١٨ هـ » ان الله خلـق فعل العبد كما خلق جسمه وشكله ، وليس للعبد تأثير ابدا ، واتبـاع هذا المذهب يسمون الجبرية . ومنها ان الله والعبد قد اشتركا معا فـي ايجاد الافعال .

ادلة القائلين بالحرية :

استدل الإمامية والمعتزلة بأدلة منها :

١ ـ كل انسان يشعر من نفسه أنه يؤدي أعماله اليومية باختياره، كالذهاب الى المكتب او الحقل او المصنع او السوق ، وما الى ذلك من الافعال التي ان شاء فعلها ، وان شاء تركها .

٢ ـ لو كنا مكرهين على كل فعل لم يبق فرق بين من احسن وأساء مع ان الطفل يميز بين من يعطيه الحلوى ومن يؤلمه ، وينفر من هذا ويقرب من ذاك . ولو كانت الافعال كلها من الله لكانت على نسق واحد لا اساءة فيها ولا احسان ، ولا خير ولا شر .

٣ ـ لو كانت الافعال صادرة من الله لقبح منه التكليف ، ولانسدّ باب الامر والنهي ، والثواب والعقاب .

٤ ـ لو لم نكن فاعلين لكان الله ظالما للعباد ، يخلق فيهم المعاصي ثم يعاقبهم عليها !..

مذهب الاشاعرة :

قال الاشاعرة : ان الله هو الموجد لافعال العبد بأجمعها الاختيارية والاضطرارية ، وليس لقدرة الانسان اي تأثير او دخل في وجودها سوى انه محل لها ، ومع ذلك فهو مكتسب لافعاله ، ومن اجل هذا الكسب يستحق الثواب والعقاب . وهذا ينسجم تماما مع انكارهم الاسباب والمسببات الحقيقية وادعائهم بأن الله يوجد الشيء ابتداء وبلا واسطة عند وجود علته .. حتى امتلاء البطن بعد الاكل فانه من الله لا من الطعام ، وحتى المعرفة فانها ليست نتيجة الدرس والتجربة ، بل من الله وحده .

معنى الكسب :

ومعنى الكسب عند الاشاعرة أن للانسان قدرة على الفعل من دون شك ، اذ نرى بالوجدان والعيان فرقا بين المتكلم والاخرس ، ولكن توجد الى جانب قدرة الانسان هذه قدرة الله سبحانه ، لانه قادر على كل مقدور . وبما انه لا يجتمع قادران على مقدور واحد فلا بد ان يستند الفعل الى احدى القدرتين : اما الى قدرة الله وحدها ، واما قدرة العبد وحدها . ولما كانت قدرة الله اقدم واعم واقوى اسند اليها الفعل. واسناد الفعل الى قدرة الله لا يستلزم انتفاء قدرة العبد عليه ، بل هي موجودة ومقارنة لقدرته تعالى . وهذا الاقتران بالذات يقال له الكسب، وبه يصح التكليف والثواب والعقاب ، والمدح والذم ، وبه ينزه الله عن الظلم ، لان قدرة العبد على الفعل متحققة في نفس الامر والواقع . وأجيبوا بأن وجود قدرة العبد كعدمها ، ما دامت غير صالحة للتأثير ، ومغلوبة بقدرة الله . لذا قال ابن رشد : لا فرق بين القول بالكسب وقول الجبرية الا باللفظ ، والاختلاف باللفظ لا يوجب اختلاف المعنى .

ادلة القائلين بسلب الحرية :

واستدل الاشاعرة بأدلة منها :

١ ـ ان فعل العبد مقدور لله ، لان قدرته تشمل كل شيء ، وكل مقدور لله فهو خالقه ، ينتج ان الله خلق فعل العبد . واجيبوا بأن قدرة الله على الفعل شيء وخلقه له شيء آخر ، فليس كل ما يقدر عليه الله لا بد أن يفعله ، فهو قادر على أن يهلك الاشاعرة قبل ان ينطقوا بهذا الدليل ولكنه لم يفعل .. اذن مجرد الاقتدار والامكان لا يستلزم وجود الفعل .

٢ ـ لو كان العبد فاعلا مختارا لكان شريكا مع الله ، وهو

محال . واجيبوا بأن الفعل لم يسند الى قدرة الله وقدرة العبد معا ، كي تكون هناك شراكة ، بل اسند الى قدرة العبد فقط . وكون قدرة العبد من الله لا يستلزم ان يكون الله شريكا للعبد .. فالذي يبيعك سكينا تصلح للمطبخ والقتل ، ثم استعملتها انت في القتل لا يعد شريكا لك في الجريمة .

٣ ـ ان الله يعلم وقوع الفعل من العبد ، وعلمه لا ينفك عن المعلوم والا لزم انقلاب علمه جهلا . وهو محال . واجيبوا بأن الله يعلم ان العبد سيختار هذا الفعل بارادته ومشيئته ، تماما كما تعلم أنت بأن الشمس ستشرق في الصباح ، وكما يعلم الاستاذ بأن لهذا التلميذ النجيب مستقبلا زاهرا ، فالعلم هنا حكاية عما سيقع في الغد ، وليس مؤثرا في الفعل .

الحقيقة :

واذا رجعنا الى أنفسنا، وصرفنا النظر عن الاقوال وأدلتها والردود عليها فانا نجد أن الاختيار ضرورة انسانية ، وحقيقة بديهية ، فنحن نختار الطعام الذي نريد ، والثوب الذي نشاء ، والعلم الذي ندرس ، وان لنا في تصرفاتنا هذه وما اليها الحرية التامة ، والارادة الكاملة .. وبهذه الحرية والارادة نكون مسؤولين امام الله والناس ، ونستحق الثواب والعقاب ، والمدح والذم . وبها يكون الانسان انسانا ، له قيمته وشخصيته . واي شيء يبقى للانسان لو سلبناه الحرية والاختيار ؟! وأي فرق بينه وبين الآلة الصماء ؟! وفي أي عمل نجد الخير والشر ما دامت الاعمال كلها ضرورية قهرية ؟!

واذا أردنا أن نفلسف هذه البديهة نقول :

ان الله أقدر الخلقَ على أعمالهم ، ومكنهم من أفعالهم ، ثم أمرهم

بالخير . ونهاهم عن الشر ، ووعدهم بالثـواب على الاول ، وتوعدهـم بالعقاب على الثاني . فاذا فعل العبـد الخير نـسب الى الله حيث أقدره عليه وأمره به ، وينسب ايضا الى العبد حيث اختاره على الشر . اما اذا فعل الشر فانه ينسب الى العبد فقط ، لانه وان فعله بقدرة من الله الا ان الله نهاه عنه ولم يرض بصدوره منه . وعلى هذا يكون الخير الذي يفعله العبد من الله والعبد معا ، اي ينسب اليهما ، اما الشر فلا ينسب الا الى العبد فقط .

ورب قـائل يقـول : لماذا أقـدر الانسانَ على الشر مع انه لم يرض به ؟..

والجواب ان الله أقدره على الشر حذرا من الالجاء ، لان المعصية اذا لم تكن مقدورة للعبد ، وكان مجبرا على تركها لم يستحق ثوابا ولا مدحا « ليبلوكم أيكم أحسن عملا » .

ومما قدمنا تبين معنا انه لا جبر بالمعنى الذي تقول به الجبريـة ، ولا تفويض بالمعنى الذي تقول به القدريـة ، وانما أمر بين أمرين [1] . وبهذا وحده يسلم لله سلطانه وعظمتـه ، وللانسان اختياره وحريته . ولا ينكر هذه البديهة عاقل الا لجهل ، او لهدف غير نبيل ، وليس ببعيد أن تكون السياسة هي السبب لترويج القول بسلب الحرية عن الانسان، لترفع المسؤولية عن حكام الجور ، وتلقيها على الله وحده . تعالى الله عما يقول الجاهلون والظالمون علوا كبيرا .

---

(1) من اراد التوسع في هذا الموضوع فليرجع الى كتاب « انقاذ البشر من الجبر والقدر » للسيد المرتضى .

الفصل الثالث والعشرون

الحسن والقبح

ان مسألة الحسن والقبح لا تقل أهمية عن المسألة السابقة ، وهي حرية الانسان ، لانها ترتبط ارتباطا قويا بنظرية الخير والشر ، وتحديد مقاييسهما . ويدل على هذا الارتباط أن من الفلاسفة من قال ان مقياس الخير خارج عن طبيعة العقل، تماما كما تقول الاشاعرة في الحسن والقبح، وذهب آخرون الى ان المنفعة واللذة هي مقياس الخير ، فأشبهوا بهذا المعتزلة والامامية .

وعلى اي الاحوال فان صفة الحسن والقبح تطلق على انواع ثلاثة :

١ ـ صفة الكمال والنقص ، فالعلم حسن لانه كمال ، والجهل قبيح لانه نقص .

٢ ـ ملاءمة الغرض ومنافرته ، فالصحة حسنة لانها تتفق مع ما نريد ، والمرض قبيح لانه يتنافى مع هدفنا .

٣ ـ ان يناط قبح الفعل باستحقاق فاعله العقاب والذم ، ويناط

حسنه بعدم استحقاقه عقابا وذما . والاولان محل وفاق على ان الحكم فيهما بالحسن والقبح عقليّ ، لا يحتاج الى الشرع ووقع النزاع بالمعنى الاخير ، وهو ان افعال الناس التي تقوم بها في كل يوم هل يحكم العقل بأن منها حسن ، ومنها قبيح ، او انه لا شيء من الافعال يتصف بحسن او قبح في نظر العقل ، وان الحكم بحسن شيء يتوقف على أمر الشرع به ، والحكم بقبحه يحتاج الى نهيه عنه ؟..

قال الاشاعرة : ان الفعل في نفسه ، وبصرف النظر عن الشرع لا يقتضي حسنا ولا قبحا ، لا خيرا ولا شرا ، لا حقا ولا باطلا، ولا مسؤولية على فاعله لا مدح ولا ذم ولا شيء أبدا ـ عدا ما استثني من الصورتين ـ مهما كان نوعه ، وانما الحسن ما أسقط الشرع العقاب عن فاعله ، والقبيح ما علق العقاب بفعله . وبالتالي فكل ما امر به الشرع فهو حسن ، وكل ما نهى عنه فهو قبيح ، ولا دخل للعقل في شيء من ذلك . ولو أمر الشرع بما نهى عنه لصار حسنا بعد أن كان قبيحا ، أو نهى عما أمر به لصار قبيحا بعد أن كان حسنا . واستدلوا بأن الافعال كلها من نوع واحد ليس شيء منها في نفسه يقتضي مدح فاعله وثوابه ، ولا ذمه وعقابه ، وانما صارت كذلك بواسطة امر الشرع ونهيه (١) .

وقال المعتزلة والامامية : ان الافعال منها ما هو حسن بحكم العقل لا باعتبار حكم الشرع ، كالصدق النافع وما اليه ، ومنها ما هو قبيح

---

(١) ومن الطريف ما استدل به بعض الاشاعرة من انه لو حكم العقل بالحسن والقبح للزم ان يكون الشيء الواحد حسنا وقبيحا في آن واحد ، وهو محال ، بيان ذلك لو قال قائل : سأكذب غدا! وافترض ان الصدق حسن ، والكذب قبيح عقلا ، فاما ان يفي بما قال ، واما ان لا يفي ، فان وفى يفعل حسنا لصدقه فيما قاله بالامس، ويفعل قبيحا من اجل الكذب، وان لم يف فكذلك يفعل حسنا لترك الكذب ، ويفعل قبيحا لعدم الوفاء ، وعلى اي الاحوال يلزم ان يكون الشيء الواحد حسنا وقبيحا في آن واحد، وهو محال . اذن لا حسن ولا قبح .

كذلك ، كالكذب الضار ، ومنها ما لا يستقل العقل بالحكم عليه سلبا او ايجابا ، فنحتاج حينئذ الى الشرع ، كوجوب الوفاء بعقد البيع ، واكل لحم الميتة • وما كان من النوع الاول يعبرون عنه بالحسن او القبح العقلي ، والنوع الثاني ينعتونه بالشرعي • وقد حددوا الحسن العقلي بأن فاعله لا يستحق الذم ، والقبح العقلي هو الذي يستحق فاعله الذم• اما الحسن الشرعي فهو الذي لا يستحق فاعله العقاب ، والقبح الشرعي هو الذي يستحق فاعله العقاب •• وعليه يندرج تحت الحسن : الواجب والمندوب والمباح والمكروه ، اذ لا عقاب على شيء منها ولا ذم [1] • اما القبيح فينحصر بالحرام فقط •

واستدل القائلون بالحسن والقبح بأدلة منها :

١ ــ البديهة ، فان كل انسان يشعر بفطرته ان الظلم قبيح ، والعدل حسن ، وقد رأينا اناسا ينكرون الاديان والشرائع ، ومع ذلك يحكمون بالحسن والقبح مستندين الى ضرورة العقل • وقال العلامة الحلي في كتاب « نهج الحق » لو افترض ان انسانا لم يسمع بالشرائع ، ولا يعرف شيئا عن الاحكام ، ثم خير بين أن يصدق ، ويأخذ دينارا ، وبين ان يكذب ويأخذ دينارا ايضا ، ولا ضرر عليه فيهما لاختار الصدق، وقبح الكذب لما فرق بينهما •

٢ ــ لو لم يستقل العقل بالحسن والقبح لجاز أن يظهر الله المعجزة على يد الكاذب المدعي للنبوة ، وعليه لم يبق فرق بين النبي الصادق ، والمتنبي الكاذب •

٣ ــ لو كان الحسن والقبح شرعيين لحسن من الله تعالى أن يأمر

---

(١) الفرق بين الذم والعقاب ان الذم هو اللوم والتأنيب من الناس ، والعقاب هو عذاب الله يوم الحساب .

بالكفر ، وتكذيب الانبياء ، وتعظيم الاصنام ، والمواظبة على الزنا، والنهي عن العبادة والصدق ، لانها غير قبيحة في أنفسها . فان امر الله بها صارت حسنة ، اذ لا فرق بينها وبين الامر بالطاعة ، فان شكر المنعم ورد الوديعة والصدق ليست حسنة في انفسها ، ولو نهى الله عنها كانت قبيحة [1] .

ومن خير ما قرأته في هذا الباب ما جاء في رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ، أقتطف منه الكلمات التالية :

هل يمكن لعاقل ان لا يقول في الافعال الاختيارية ، كما قال في الموجودات الكونية من ان فيها حسنا وقبيحا ، فمن الافعال الاختيارية ما هو حسن في نفسه تجد النفس منه ما تجد من جمال الخلق ، كالحركات العسكرية ، ومنها ما هو قبيح في نفسه ، كتخبط ضعفاء النفوس عند الجزع ، وولولة النائحات . ومنها ما هو حسن لا في نفسه ، بل لما يجلب من لذة ، او يدفع من ألم ، كالاكل على الجوع ، والشرب على العطش ، ومنها ما هو قبيح لما يحدثه من ألم ، كالضرب والجرح . وقلما يختلف تمييز الانسان للحسن والقبح من الافعال عن تمييز الحيوانات ، لانها من الاوليات البديهية ، وهذا التفريق هو منبت التمييز بين الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة .

---

(١) دلائل الصدق ج ١ ص ٢١٩ .

الفصل الرابع والعشرون

النبوة

أولا وقبل كل شيء ينبغي التنبيه على ان مبدأ التسليم بوجود الخالق فرض ضروري للكلام عن النبوة لان وجود الرسول [1] فرع عن وجود المرسل .

في القديم كان يظهر على تعاقب الاجيال والقرون فرد من الناس يعيش كما يعيشون ، يأكل الطعام ، ويمشي في الاسواق ، يخاطب أهل المعمورة في المشرق والمغرب ، ويقول : أنا ومن اتبعني على حق ، وكل من خالفني على باطل كائنا من كان ، انا وحدي لا غير في عصركم ينزل عليّ الوحي من الله ، ويخبركم بالحق والواقع دون خطأ ولا كذب ، ولا سهو فيما اقوله عن الله ، وانا ومن صدقني في الجنة والنعيم الخالد، وكل من عدانا في النار والعذاب الدائم ، ثم لا يكتفي بهذا ، بل يعلن القدح والطعن في دينهم واعظم مقدساتهم ، وفي كبارهم وعظمائهم من الاجداد والآباء ، الاموات منهم والاحياء .

---

(١) الفرق بين الرسول والنبي ان الاول يؤمر بتبليغ الرسالة ، والثاني ينزل عليه الوحي اعم من ان يؤمر بالتبليغ اولا .
لقائل ان يقول : ان النبوة هي تبليغ احكام ، وعليه تكون من التشريع لا من الفلسفة . الجواب انها من الفلسفة لان الوحي احد طرق المعرفة .

وغريبة الغرائب ان الذي جابه العالم بهذا القول ، وادّعى هذه الدعوى كان فقيرا بائسا لا يملك مالا ولا عقارا ولا سلاحا ولا جاها ، وليس له انصار ، ولا هو فيلسوف او متعلم او منجم — بل فرد عادي وكادح من الكادحين . فمن الطبيعي اذن ، ان يقول له الناس في بدء الامر : انت مجنون او ساحر مشعوذ ، تماما كما اقول انا وانت لمن يدعي مثل هذه الدعوى اليوم ، وطبيعي أيضا ان يكون صاحب الدعوى مضطهدا من قومه يلاقي انواع الآلام والتنكيل .

ولكن حبل الكذب قصير ، وان طال كما يقولون ، والمرائي لا بد ان ينكشف عاجلا او آجلا ، واذا استطاع التمويه على الناس ، وتلبيس الحق بالباطل فالى أمد ، والزمان كفيل باظهار الحقيقة . وقد اثبت الزمان حقيقة الانبياء ، وانها اعظم كسب للانسانية ، بل أثبت ان الانسان لولاهم لكان اشبه بحيوان الغاب . وما على طالب المعرفة بهذه الحقيقة الا ان يقرأ التاريخ، فسيجد الشواهد والارقام على ان الانبياء ارتفعوا بالانسانية الى اسمى مراتبها العقلية والخلقية ، وليس وراء الارقام الا التسليم بصدقهم ونبوّتهم ، والا الايمان بكل ما قالوه واخبروا به من عند الله .

أجل ، لم يبق علينا وعلى العلماء والفلاسفة الا الاذعان فقط ، ولا مجال للاقوال والجدال ، ولا للمنطق والاقيسة مع الواقع الملموس المحسوس . وهل يطلب ممن بنى ناطحات السحاب ، وشيّد المدن والعواصم على احسن ما يمكن ، هل يطلب من هذا شهادة من جامعة ، وورقة من مهندس تثبت معرفته بفن البناء ؟! وهذي هي الحال بالضبط مع محمد وعيسى . فاذا طلبنا الدليل على نبوتهما بعدما أتيا بما أتيا به فقد اشبهنا من يطلب ورقة من الباني العظيم تنص على علمه ومعرفته بعد ان انتهى من اقامة الصروح . وبالتالي ، فان نسبة اقوال الفلاسفة في النبوة الى هذه الحقيقة تماما كنسبة الورقة الى الصروح التي أقامها الباني .

هذا ما نشعر ونؤمن به .. ولكن طلاب الفلسفة يهتمون بمعرفة اقوال الفلاسفة وطريقة استدلالهم أكثر من كل شيء ، ومعهم كل الحق ، لان علامات الامتحان تعطى لمن حفظ الاقوال ، ولو بدون هضم ووعي . لذلك نلخّص ما قاله الفلاسفة المسلمون في المسائل التالية :

فكرة البعثة :

هل يجيز العقل ان يرسل الله الى الناس رسولا منهم يتكلم بلسانه، ويبلغهم كلمته بحيث يكون واسطة التبليغ بينه وبين عباده ؟ قال أهل الاديان جميعا ، ومنهم المتكلمون والفلاسفة المسلمون : ان بعثة الانبياء جائزة عقلا ، بل هي حسنة في نفسها ، لانها تهدي الناس الى الحق وطريقه القويم ، وتعاضد العقل واحكامه ، وترشد الى الحسن والقبيح اللذين لا يستقل العقل بمعرفتهما ، وما الى ذلك مما يحصل به اللطف للمكلف . والمراد باللطف كل ما يقرب العبد الى الخير والطاعة ، ويبعده عن الشر والمعصية .

وبعد ان اتفقوا على ان البعثة جائزة اختلفوا هل يحكم العقل بوجوبها على الله ؟

قال الاشاعرة : لا يجب على الله شيء ، ولا يقبح منه شيء ، فيجوز ان يترك الناس سدى بلا هاد ودليل ، كما يجوز ان يعذبهم بلا بيان وعصيان !..

وقال الفلاسفة والمعتزلة والمتكلمون : ان البعثة واجبة ، لان النظام الاكمل والمصلحة الشاملة الكاملة التي تستدعيها العناية الالهية ــ لا تتم الا بوجود النبي المبلغ لقوانين العدل ، فيكون وجوده واجبا ، لان ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب . ولان « التكاليف السمعية ألطاف في

التكاليف العقلية ، واللطف واجب فالتكليف السمعي واجب » • ومعنى هذا ان اوامر النبي ونواهيه المعبر عنها بالتكاليف السمعية والشرعية هي تأكيد لاوامر العقل ونواهيه ، ومن اقوى البواعث على امتثالها والعمل بها ، وعليه تكون التكاليف الشرعية سببا لقرب العبد من احكام العقل ، وكل ما كان كذلك فهو واجب ، فتكون البعثة واجبة •

شبهة البراهمة :

قال البراهمة : لا تجب البعثة ، بل لا داعي اليها لان النبي ان أتى بما يوافق العقل لم يكن اليه حاجة ، وان جاء بما يخالف وجب رده ، واجيبوا باننا لا نشك بان العقل يدرك حسن بعض الافعال ، كالصدق النافع والامانة ، وقبح بعضها ، كالكذب الضار والخيانة •• ولكن، هناك امور كثيرة لا يدركها العقل ، كشكل العبادات ، والوفاء بالعقود والموجبات ، وتقسيم الميراث ، وحقوق الزوجين والوالد والولد ، وما الى ذلك مما لا يبلغه الاحصاء • والاحكام الشرعية ان كانت من النوع الاول تكون مؤكدة لحكم العقل ، ولطفا يقرّب العبد من الطاعة ، وان كانت من النوع الثاني تكون مؤسسة لا يمكن الاستغناء عنها بحال •

علامة الرسول :

ما هي العلامة التي تدل على الرسول ؟ أو ما هي الحجة التي يجب ان يقيمها الرسول على انه موفد من الله ، ويلزم الناس بها بحيث يعد من خالفها مكابرا ومعاندا ؟•

قال المتكلمون : تعرف رسالة الرسول بامور ثلاثة :

١ ــ ان لا يقرر ما يخالف العقل والواقع ، كتعدد الآلهة ، وان الارض ليست كروية ، وان تتفق تعاليمه مع الفطرة ، وتتنافى مع الطبيعة البشرية ، كتحريم الزواج وذم العلم ، وما الى ذلك •

٢ ـ ان تكون دعوته طاعة لله ، وخيرا للانسانية .

٣ ـ أن يظهر على يده معجزة تثبت صدق دعواه . وقالوا في تعريف المعجزة : انها ثبوت ما ليس بمعتاد ، كانقلاب العصا حية ، أو نفي ما هو معتاد ، كمنع القوي عن رفع اخف الاشياء ، كالريشة . وفرّقوا بين المعجزة التي تظهر على يد الانبياء ، والكرامة التي تظهر على يد الاولياء ، بأن الاولى يشترط فيها التحدي كأن يقول النبي لمن بعث اليهم: ان لم تقبلوا قولي فافعلوا مثل فعلي هذا ، اما الثانية ، وهي الكرامة فلا يشترط فيها التحدي ، كقصة السيدة مريم وحملها بالسيد المسيح بلا دنس .

ومن أعظم المعجزات على الاطلاق الدالة على رسالة محمد القرآن الكريم . وسر اعجازه هو في اسلوبه واخباره بالمغيبات ، وفي علومه ونظامه . ومن معجزات محمد مجيئه بشريعة جمعت ، واستوعبت كل ما فيه الخير والصلاح للانسانية مع انه غير متعلم ، ومن امة امية . وقد أطلنا في ايراد الشواهد والارقام على الحقيقة في كتاب « النبوة والعقل » .

ولم يرتض ابن رشد الطريق الذي سلكه المتكلمون لاثبات رسالة الرسول ، وبعد ان رد عليهم في كتاب « الكشف عن مناهج الادلة » سلك سبيلا آخر ، نلخصه مع الرد فيما يلي :

ان الحكم بان كل من تظهر على يديه المعجزة فهو نبي لا يبتني على دليل ، لان هذا الحكم لا يخلو ان يدرك بالشرع او بالعقل ، وكلاهما محال ، لان الشرع لم يثبت بعد ، فالاستناد اليه لاثبات النبوة تصحيح للشيء بنفسه ، واثبات للدعوى بالدعوى ذاتها . ولا سبيل الى الاستشهاد بالعقل ، لانه لا يحكم حكما كليا بان كل من ظهر على يديه المعجز فهو رسول الا بعد ان يشاهد المعجزات تظهر على ايدي الرسل دون غيرهم ،

وحينئذ تكون المعجزة علامة قاطعة على تمييز من هو رسول من عند الله ممن ليس برسول • والمفروض ان العقل لم يشاهد شيئا بعد ، لان الكلام ما زال في أصل الفكرة ، وليس حكمه بالمعجز كحكمه بأن الكل أكبر من الجزء ، لا يفتقر الى المشاهدة والتجربة • اجل ، ان العقل يحكم بامكان ظهور المعجز على يد الرسول دون غيره ، اما ان هذا موجود ومتحقق بالفعل فيحتاج الى دليل • والمتكلمون ذهب عليهم هذا المعنى ، واختفت عنهم هذه الحقيقة ، حيث اقاموا الامكان مقام الفعل والوجود ، فبدلا من ان يقولوا ، من الممكن ان يظهر المعجز على يد الرسول دون غيره قالوا • كل من ظهر المعجز على يده فهو رسول •

ومن اجل هذا عدل ابن رشد عن طريق المتكلمين ، وسلك سبيلا آخر ، يتحصل بأننا لا نعرف نبيا من الانبياء دعا احدا من الناس ، او امة من الامم الى الايمان برسالته ، وقدم بين يدي دعواه خارقا من خوارق الافعال ، مثل قلب عين الى عين اخرى ، كقلب الشجر حيوانا والانسان حجرا ، وأي شأن للانبياء بتحويل الحقائق الى حقائق مباينة ، وبالمشي على الماء ، والطيران الى السماء ؟! ان شيئا من ذلك لا يدخل في اختصاصهم ، ولا يجب عليهم ان يحاولوه لو طلب منهم ، لان مهمتهم تنحصر في تبليغ الوحي ، والهداية الى ما ينفع الناس • وقد نطق القرآن بهذا : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا ، او تكون لنا جنة من نخيل وعنب فتفجّر الانهار خلالها تفجيرا ، او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا او تأتي بالله والملائكة قبيلا ، او يكون لك بيت من زخرف او ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزّل علينا كتابا نقرأه قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا ـ الاسراء ٩٣ » •

ثم ضرب ابن رشد مثلا يوضح هذه الحقيقة قال : لو ان شخصين ادعيا المعرفة بفن الطب فقال احدهما : الدليل على مهارتي اني اسير على

الماء وقال الآخر : أما انا فدليلي اني ابرىء المرضى • ثم مشى الاول على الماء ، وابرأ الثاني المرضى مستندا الى برهان قطعي يقتنع بـه الخـاص والعام ، أما المشي على الماء فيقتنع به الجهال ، لان منطقهم ان من يقـدر على المشي على الماء الذي ليس من صنع البشر فبالاحرى ان يقـدر على الابراء الذي هو من صنع البشر ، أما اهل الوعي والمعرفة فيقولون : لا دخل للمشي على الماء بفن الطب • وهكذا تكون الحال في انقلاب عين الى عين اخرى ، فان دلالة ذلك على النبوة كدلالة المشي على الماء على الطب، اما نزول الوحي على مدعي النبوة فانه يدل عليها ، كما يدل الابراء على الطب •

واذا كان الامر كذلك تكون العلامة الدالة على نبوة النبي هي ان يبلغ الناس الشريعة والتعاليم النافعة ، على ان تكون بوحي من اللـه لا بتعلم انساني • وعليه فالرسول من جـاء بالوحـي من عند الله ، لا من ظهرت على يده الخوارق فقط ، اجل ، ان الخوارق اذا اقترنت بالوحـي تعززه وتؤيده ، اما اذا اتت منفردة فلا تدل على النبوة ، وبهذا يتبـين معنا ان الوحي هو الدليـل الصحيح ، والعلامة الصادقـة ، وان المعجز الخارق هو شاهد ومعزز للوحي ، وليس بدليل مستقل •

وهنا سؤال يفرض نفسه ، وهو : اذا كانت علامة النبوة الوحي ، فما هي علامة الوحي ؟ ومن اين لنا ان نعلم ان الشريعة التي اتى بها مدعي النبوة هي وحي من الله ؟

الجواب :

ان علامة الوحي كالوحي لا تخطىء ابدا ، وهي أن تكون تعاليـم النبي وما امر به ، او نهى عنه من الافعـال ، وما نبه اليه من العلوم ، كل ذلك خير وحق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، واذا اخبر بشيء لم يوجد بعد فانه يخرج الى الوجود على الصفة التي أخبر بها •

ثم قدم ابن رشد مثالا على ذلك « القرآن وشريعة الاسلام » فقد حويا من العلوم والفوائد ما لا يمكن ان يكتسب بغير الوحي ، وبخاصة القرآن فانه أخبر بالمغيبات ، فجاءت كما اخبر ، وتحدى المعاندين على أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا ، لان نظمه خارج عن النظم المألوف عند البلغاء المتكلمين بلسان العرب ، سواء من تكلم منهم بتعلّم وصناعة ، أو تكلم بفطرة وسليقة . ثم قال ابن رشد :

« من أين يعرف ان الشريعة العلمية والعملية هي بوحي من الله فقد تكون من كلام عارف قدير ، لا من كلام الله » .

قلنا : يتوقف هذا على ان معرفة وضع الشرائع لا تنال الا بعد المعرفة بالله وبالسعادة الانسانية ، والشقاء الانساني ، وبالامور والاراديات التي يتوصل بها الى السعادة ، وهي الخيرات والحسنات ، والامور التي تعوق الانسان وتورث الشقاء الاخروي ، وهي الشرور والسيئات .

ومعرفة السعادة الانسانية ، والشقاء الانساني تستدعي معرفة ما هي النفس ؟ وما جوهرها ؟ وهل لها سعادة اخروية ، وشقاء اخروي ام لا ؟ وان كان فما مقدار هذه السعادة وهذا الشقاء ؟ وبأي مقدار تكون الحسنات سببا للسعادة ، فكما ان الاغذية لا تكون سببا للصحة في كل حال ومقدار ، وفي أي وقت استعملت ، بل بمقدار مخصوص ، ووقت مخصوص ، كذلك الامر في الحسنات والسيئات ، ولذلك نجد هذه كلها محدودة في الشرائع . وهذا كله لا يُعرف الا بوحي .

وأيضا ان معرفة الله على التمام انما تحصل بعد المعرفة بالموجودات .. كل ذلك ـ أي معرفة الله واسباب السعادة والشقاء ـ ليس يدرى بتعلم ، ولا بصناعة وحكمة . ولما وجدت هذه كلها في الكتاب العزيز على أتم ما يمكن عُلم ان ذلك بوحي من عند الله ، وانه كلام من عند

الله ، كلام ألقاه على لسان نبيه ، ولذلك قال تعالى : « لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله » . ويتأكد هذا المعنى ، بل يصير الى حد القطع واليقين التام اذا عُلم ان محمدا (ص) كان اميا نشأ في امة امية ، عامية بدوية ، لم يمارسوا العلوم قط ، ولا نُسب اليهم علم ، ولا تداولوا الفحص عن الموجودات ، كما جرت عادة اليونانيين وغيرهم من الامم الذين كملت الحكمة فيهم في الاحقاب الطويلة . والى هذا اشار الله بقوله : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذن لارتاب المبطلون » وقال ايضا : « هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم » وقال : « الذين يتبعون الرسول الامي » . اهـ .

وبالتالي ، فان اتيان محمد بالقرآن الذي حوى من كنوز العلوم ما لم يحوه سفر ، ومجيئه بشريعة تعلو على كل شريعة ودستور قديم وحديث ، مع انه امي في تربيته وبيته لاعظم بكثير من المشي على الماء ، والطيران الى السماء ، بل أعظم من تحول الحجر الى انسان ، وهنا مكان الاعجاز الخارق لكل ما هو مألوف ومعتاد [1] .

واخترت قول ابن رشد في هذا الباب دون غيره من الفلاسفة والمتكلمين ، لانه يتفق مع افهام اهل العصر ، ولانه حق لولا قوله : « ان الخوارق لا تدخل في اختصاص الانبياء ، وان مهمتهم تنحصر باتيان شريعة صالحة » اذ يمكن ان يلاحظ عليه بأن اكثر الناس جهال لا يعلمون، ولا يميزون بين سقيم الشرائع وعظيمها ، ولا يفهمون شيئا الا بلغة المعجزات وخوارق العادات ، وعليه تكون الخوارق واجبة ، وضرورة

---

(١) مما قلته في كتاب « النبوة والعقل » : ان كل من اعترف بمبدا النبوة من حيث هو ، وآمن بنبوة نبي واحد كائنا من كان يلزمه قهرا ان يؤمن بنبوة محمد ، لان ما من صفة او معجزة كانت لنبي الا كان لمحمد مثلها او اعظم منها ، ومن انكر نبوة محمد يلزمه ان ينكر نبوة جميع الانبياء دون استثناء .

لازمة في كثير من الاحيان . انها تلزم لا لاقناع الصفوة من الناس . بل لهذا السواد الاعظم . وغير بعيد ان يكون ابن رشد مريدا لهذا المعنى . كما يشعر به قوله : « لا تكفي الخوارق منفردة » .

ومهما يكن ، فان الخوارق التي جاءت على أيدي الانبياء قد نقلت الى الاجيال بالتواتر ، وعرفنا بها ، كما عرفنا وجود افلاطون وارسطو . ودلت عليها الارقام والآثار العلمية . ولاثبات هذه الحقيقة انقل هنا ما ذكرته في كتابي « الاسلام مع الحياة » بعنوان العلم الحديث ورد الشمس :

١ ـ جاء في قصص الانبياء ان يوشع بن نون كان في معركة مع اعداء الله ، وكادت تغرب الشمس قبل ان ينتهي القتال ، فخشي ان يعجزوه اذا امتد القتال الى اليوم التالي . فقال للشمس أنت في طاعة الله ، وانا في طاعته ، فأسألك ان تقفي حتى ينتقم الله من اعدائه قبل الغروب ، فاستجاب الله الدعاء ، ووقفت الشمس . وزيد في النهار حتى تم النصر ليوشع .

٢ ـ قال الله تعالى في الآية ٦٣ من سورة الشعراء « فأوحينا الى موسى ان اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم » قال المفسرون : ان موسى (ع) ومن معه هربوا من فرعون خوف القتل، ولما انتهوا الى البحر ، ولم يجدوا سبيلا الى ركوبه اوحى الله الى موسى أن يضرب البحر بعصاه ، وحينما امتثل ما امر به تجمع الماء على الطرفين بعضه فوق بعض ، حتى صار كالجبل ، وخرج منه موسى وانصاره . وتبعهم فرعون وقومه في نفس الطريق فأغرقهم الله ، وكان البحر يبسا في حق موسى ، وماء في حق فرعون .

وكذب الكافرون كلا من المعجزتين او الحادثتين . أولا : لانها خرق لقوانين الطبيعة . وثانيا : لو صحت لجاء ذكرها في غير الكتب الدينية ، لانها من الاحداث العالمية العجيبة .

وقرأت في جريدة الجمهورية المصرية عدد ١٣ ــ ١٢ ــ ٥٧ ان كتابا في علوم الطبيعة صدر حديثا ، وقد أثار ضجة كبرى في الاوساط العلمية ولدى المؤرخين ، حيث أثبت بالارقام المحسوسة واقعة انشقاق البحر ووقوف الشمس في كبد السماء .

أما المؤلف فهو عالم روسي من علماء الطبيعة اسمه « ايمانويل فليكوفسكي » درس العلوم الطبيعية في جامعة أدنبورج ، ودرس التاريخ والقانون والطب في جامعة موسكو ، ودرس علم الاحياء في برلين وفي زيورخ ، ودرس الطب النفسي في فينا ، لقد خرج المؤلف من ابحاثه التي استمرت اكثر من عشر سنوات الى استنتاجات علمية تؤيد بدون قصد ما جاء في القرآن الكريم وسيرة الانبياء (ع) .

وقد رأيت أن انقل الى القراء مقتطفات من الكتاب كما ترجمتها ونشرتها جريدة الجمهورية .

قالت الجريدة : يقول المؤلف : « ان نيزكا هائلا مر الى جوار الكرة الارضية في عهد يوشع خليفة موسى (ع) ، ثم عادت هذه الظاهرة الى الوجود بعد ذلك بسبعمئة عام . وهذه الظواهر الكونية الهائلة التي تسيرها قوى خارقة غير مرئية تفسر المعجزات التي جاء ذكرها في الكتب السماوية التوراة والانجيل والقرآن .

ان اقتراب كوكب او نيزك كبير من الارض يحدث ظواهر متعددة منها ان دوران الارض حول نفسها يقل او يقف حتى يخيل الى الناس أن الشمس قد وقفت في كبد السماء ، ومنها انشقاق البحر ، وانعقاد أعمدة من الغمام في النهار والليل ، ولقد مر كوكب في عهد الفراعنة فأمطر الارض سيلا أحمر صبغ الارض والنيل والبحر بلون الدم » .

وهذا يؤيد ما جاء في الآية ١٣٢ من سورة الاعراف « وأرسلنا

الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم » . وقد تساقط هذا التراب الاحمر في جهات متفرقة من الارض . ان المعرفة التي تخرق كل قوانين الفلك والطبيعة لا تصنعها سوى قدرة الخالق وحده . لقد تمت المعجزة حين هرب موسى من اضطهاد فرعون مصر ، فتابعه فرعون بجيوشه ، ولكن البحر انشق فمر موسى ومن معه بسلام ، حتى اذا اتبعهم فرعون وجنده عاد البحر الى سيرته الاولى فانطبق على المطاردين وابتلع الرجال والفرسان ، ولم ينج منهم أحد .

ويقول المؤلف : « انه في العهد الذي يقابل عهد موسى يقول المؤرخون الصينيون : ان الشمس آنذاك لم تغرب حتى لقد احترقت الغابات ، وذاب الجليد . وهكذا لبثت الارض ساكنة كأن قوة جبارة قد صنعتها ، ولا يعرف على وجه كم استمر وقوفها قبل ان تتابع دورانها حول نفسها مرة اخرى .

ولكن هل تابعت الارض دورانها في نفس الاتجاه ؟ ان الارض الآن تدور من الغرب الى الشرق فهل كانت هكذا دائما ، اذا رجعنا في الاجابة على هذا السؤال الى الخرائط القديمة فان الاجابة هي لا ، لان الخرائط التي رسمها القدماء المصريون في سقف احد المعابد تدل على ان الارض كانت تدور قبل وقوفها من الشرق الى الغرب ، وهذا ما اكده افلاطون في حواره عن السياسة حين قال : « ان الشمس من قبل كانت تغيب حيث نراها تشرق الآن » .

وهذا يفسر الآية الكريمة ١٧ من سورة الرحمن (رب المشرقين ورب المغربين) فلقد حار المفسرون بالمشرقين والمغربين واولوهما تارة بمشرق الصيف والشتاء واخرى بمشرق الشمس والقمر ، وجاء العلم اليوم يظهر الحقيقة ، ويبين مشرقها ، الاول الغربي والثاني الشرقي ورضي الله عن ابن عباس حيث قال : « لا تفسروا القرآن . الزمان يفسره » .

الفصل الخامس والعشرون

عصمة الأنبياء (1)

المعصوم هو الذي لا يترك واجبا ، ولا يفعل محرما ، ولا يصدر عنه شيء يؤاخذ عليه لا عمدا ولا سهوا ، بحيث يكون قوله وفعله حجة يعتمد عليه .

وقد تكلم علماء الكلام في العصمة ونقلوا اقوال الفرق في وجوبها للانبياء .

قال المعتزلة : تجوز على الانبياء الكبائر والصغائر (2) قبل النبوة ، اي قبل ان ينزل عليهم الوحي ، اما بعد الوحي فتجوز عليهم الصغائر دون الكبائر .. وقال الاشاعرة : تجوز الكبائر والصغائر قبل النبوة ، أما بعدها فلا يجوز عليهم الكفر ولا تعمد الكذب . وتجوز الصغائر عمدا وسهوا ، والكبائر سهوا لا عمدا .

---

(1) فسر بعضهم العصمة بالعلم الكامل الذي يمنع صاحبه من المعصية .

(2) الكبائر اصطلاح خاص لفقهاء المسلمين ومتكلميهم ؛ يريدون ما يريده المشترعون الجدد من لفظ جنايات كالقتل والسرقة ، اما الصغائر فأشبه بالجنح كالنظر الى الاجنبية ، بريبة . وقال البعض : ان الذنوب كلها كبائر فمعصية الله كبيرة مهما كان نوعها ، وجعل الوصف بالكبر والصغر نسبيا ، فالقبلة كبيرة بالقياس الى النظر وصغيرة الى الزنا .

وقال الامامية : الانبياء معصومون عن الذنوب كبيرها وصغيرها . قبل النبوة وبعدها . ولا يصدر عنهم ما يشين لا عمدا ولا سهوا ، وأنهم منزهون عن دناءة الآباء وعهر الامهات . وعن الفظاظة والغلظة ، وعن الامراض المنفرة كالبرص والجذام ، بل وعن كثير من الاعمال المباحة المنافية للتعظيم والتوقير ، كالاكل في الطريق ونحوه [1] .

واستدل القائلون بوجوب العصمة للانبياء بأن الغرض من البعثة عدم وقوع المعصية . واطاعة الله ، فلو عصوا او اخطأوا في تبليغ الاحكام لم يحصل الغرض . ولصدق على الانبياء قول القائل : « حاميها حراميها » هذا الى أن صدور الذنوب عنهم يوجب سقوط هيبتهم عن القلوب . وانحطاطهم في اعين الناس . فلا ينقاد اليهم احد . وقد روي أن امرأة أتت النبي بولدها ، وقالت له : يا رسول الله ان ولدي هذا ارمد العين ، ولم يرتدع عن اكل التمر ، فأمره انت لعله يقبل منك . فقال لها : آتني به غدا ، لاني اليوم أكلت تمرا ، فلا يؤثر فيه قولي .

أما الآيات التي وردت في القرآن ، ويوهم ظاهرها صدور الذنب عن الانبياء، كقوله تعالى : « وعصى آدم ربه فغوى » وما الى ذاك فقد فسرها كل فريق حسب مذهبه ، فالذين قالوا بجواز الذنوب قبل البعثة حملوها على ان الانبياء أذنبوا قبل ان يوحى اليهم . والذين منعوا عنهم الكبائر دون الصغائر ، فسروها بالصغائر . والذين جوزوا صدور الكبائر سهوا ، والصغائر عمدا اولوها بذلك . والذين نفوا عنهم الكبائر

---

(١) لا دليل على هذا كله الا التشدد في تنزيه الانبياء ، وصيانة مقامهم حذرا من ان تنفر منهم الطباع . والا فأي دخل لهم في ذنوب الآباء والامهات، وقد قال الله على لسانهم : « ولا تزر وازرة وزر اخرى » .

والصغائر عمدا وسهوا قبل البعثة وبعدها ، كالامامية قالوا : ان الانبيـاء فعلوا خلاف الاولى والارجح ، لا انهم فعلوا محرما ، وان الله عاتبهم على عدم اختيار الاولى والاحسن ، لان الانسب لمقامهم لو خيّروا بين أشياء مباحة ان يختاروا الاحسن على الحسن ، والاولى على غيره .

الفصل انسادس والعشرون

الامامة

قبل ان نبين معنى الامامة والاقوال فيها نمهد بما يلي :

١ ـ تنقسم الامور الدينية الى اصول وفروع . والاصول هي : الايمان بالله والرسول واليوم الآخر ، ويعبر عنها بالاعتقاد ، والعلم الذي يبحث فيها يقال له علم التوحيد ، أو علم الكلام • والفروع تشمل العبادة كالصيام والصلاة ، وتشمل المعاملات ، كالبيع والاجارة ، والاحوال الشخصية ، كالزواج والطلاق . والعلم الذي يبحث فيها يسمى الفقه . والتشريع •

٢ ـ اختلف المسلمون الى مذاهب عديدة في الاصول والفروع . ويلاحظ ان اختلافهم في كلا النوعين لم يكن جوهريا ، فلم يختلفوا في الله ووحدانيته ، بل في صفاته وانها عين الذات او غيرها ، ولا في رسالة محمد وعصمته ، بل في ان العصمة هل هي ثابتة قبل النبوة وبعدها ، أو بعدها فقط ؟ ولا في نزول القرآن من عند الله ، بل اختلفوا في قدمه وحدوثه ، ولا في وقوع الحشر والنشر ، بل هل تحشر الارواح دون الاجسام ، أو يحشران معا •• وهكذا الفروع ، فلم يختلفوا في وجوب الصلاة ، بل فيما يجب على المصلي أن يقرأ فيها ، ولا في وجوب الصيام ،

وانه في رمضان دون شوال ، وفي النهار لا في الليل ، بل اختلفوا هل الاكتحال يفسده او لا ؟ ولا في تحريم شرب الخمر واكل لحم الخنزير ، ولا في تشريع الزواج والطلاق ، بل في اعتبار بعض الشروط ، الى غير ذلك مما لا يتناول لب الدين وجوهره .

٣ ــ ان اختلاف الفرق والمذاهب في الاصول والعقائد ، وانقسامها الى أشاعرة وامامية ومعتزلة لا يستلزم اختلافها في الفروع والفقه ، كما ان اتفاق فرقة في العقائد لا يستدعي أن تتفق في جميع المسائل الفقهية ، فلقد انقسم الاشاعرة الى مذاهب فقهية عديدة .

واختلف علماء الامامية في كثير من مسائل الفقه حتى لا تجد اثنين منهم متفقين في كل المسائل ، وكذلك علماء كل مذهب من هذه المذاهب يختلف بعضهم مع بعض مع انهم متفقون في الاصول . وكثيرا ما يلتقي علماء الامامية مع علماء الاشاعرة الاربعة في مسائل التشريع على ما بينهم من التباين والتباعد في الاصول . وبهذا يتبين ان تعدد المذاهب والفرق في الفلسفة وعلم الكلام انما هو على اساس عقائدي ولا علاقة له بالتشريع أما تعدد المذاهب الفقهية فعلى أساس تشريعي فقط .

٤ ــ يلاحظ ان مسألة الامامة قد زادت في عدد الفرق الاسلامية ، وباعدت فيما بينها أكثر من أية مسألة اخرى ، فلقد وضع فيها كل من السنّة والشيعة عشرات المجلدات ، والسر انها ترتبط بالسياسة والحاكم والمحكوم ارتباطا مباشرا .

معنى الإمامة :

الامامة ترادف الخلافة ، فاللفظتان تعبران عن معنى واحد ، وهو « الرياسة العامة في امور الدين والدنيا نيابة عن الرسول » . والتسمية

بالامامة ، لان الناس يسيرون وراء الامام ، كما يسيرون وراء من يـؤمهم للصلاة ، والتسمية بالخليفة ، لانه يخلف النبي في امته . وادارة شؤونها . فالخليفة عند المسلمين له عليهم من الولاية والسلطان مـا للرسول دون استثناء . وقد جمع علي عبد الرزاق في كتاب « الاسلام واصول الحكم » ما قاله علماء المسلمين في تحديد الخليفة وسلطته بما لا يدع مجالا لمتكلم، لذا ننقله بالحرف مع المصادر التي أشار اليها في التعليق ، قال :

« للخليفة عند المسلمين حق القيام على دينهم ، فيقيم فيهم حدوده . وينفذ شرائعه ، وله بالاولى حق القيام على شؤون دنياهم ايضا، وعليهم ان يحبوه بالكرامة كلها ، لانه نائب رسول الله صلى الله عليه وسلـم ، وليس عند المسلمين مقام اشرف من مقام الرسول ، فمن سما الى مقامـه فقد بلغ الغاية التي لا مجال فوقها لمخلوق من البشر . عليهم ان يحترموه لاضافته الى الرسول ولانه القائم على دين الله ، والمهيمن عليه ، والامين على حفظه . والدين عند المسلمين أعز ما يعرفون في هذا الكون ، فمن ولي أمره فقد ولي أعز شيء في الحياة واشرفه .

عليهم ان يسمعوا له ويطيعوا ظاهرا وباطنا [١] لان طاعة الائمة من طاعة الله ، وعصيانهم من عصيانه [٢] .

فنصح الامام ولزوم طاعتـه فرض واجب ، وامر لازم ، ولا يتـم ايمان الا به ، ويثبت اسلام الا عليه [٣] .

وجملة القول ان السلطان خليفة الرسول صلى الله عليه وسلـم ،

---

(١) حاشية الباجوري على الجوهري .
(٢) روي ذلك عن ابي هريرة . راجع العقد الفريد لابن عبد ربه ج ١ ص ٥ مطبعة الشيخ عثمان عبد الرازق بمصر ١٣٠٢ هـ .
(٣) منه ايضا .

وهو أيضا حمى الله (٤) في بلاده ، وظله الممدود على عباده ، ومن كان ظل الله في أرضه ، وخليفة الرسول فولايته عامة ومطلقة ، كولاية الله تعالى ، وولاية رسوله الكريم ، ولا غرو حينئذ ان يكون له حق التصرف في رقاب الناس واموالهم وابضاعهم (١) .

وان يكون له وحده الامر والنهي ، وبيده وحده زمام الامة، وتدبير ما جل من شؤونها وما صغر ، كل ولاية دونه فهي مستمدة منه ، وكل وظيفة تحته فهي مندرجة في سلطانه ، وكل خطة دينية او دنيوية فهي متفرعة عن منصبه ، لاشتمال منصب الخلافة على الدين والدنيا (٢) فكأنها الامام الكبير ، والاصل الجامع ، وهذه كلها متفرعة عنها ، وداخلة فيها ، لعموم نظر الخلافة ، وتصرفها في سائر احول الملة الدينية والدنيوية ، وتنفيذ احكام الشرع فيها على العموم (٣) .

وليس للخليفة شريك في ولايته ، ولا لغيره ولاية على المسلمين الا ولاية مستمدة من مقام الخلافة ، وبطريق الوكالة عن الخليفة ، فعمال الدولة الاسلامية وكل من يلي شيئا من امور المسلمين في دينهم او دنياهم من وزير او قاض او وال او محتسب او غيرهم ــ كل اولئك وكلاء للسلطان ونواب عنه ، وهو وحده صاحب الرأي في اختيارهم وعزلهم ، وفي افاضة الولاية عليهم ، واعطائهم من السلطة بالقدر الذي يرى ، وفي الحد الذي يختار » .

---

(١) وفي خطبة المنصور بمكة قال : ايها الناس انما انا سلطان الله في ارضه ، أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده وحارسه على ماله ، اعمل فيه بمشيئته وارادته ، واعطيه باذنه ، فقد جعلني الله عليه قفلا ان شاء ان يفتحني فتحني لاعطائكم ، وقسم ارزاقكم ، وان شاء ان يقفلني عليها .. الخ . راجع العقد الفريد ج ٢ ص ١٧٩ .
(٢) طوالع الانوار وشرحه مطالع الانظار ص ٤٧٠ .
(٣) ابن خلدون ص ٢٢٣ .
(٤) ابن خلدون ص ٢٠٧ .

ملاحظة علي عبد الرازق :

وبعد ان نقل علي عبد الرزاق هذا التحديد للخليفة عند المسلمين ناقشهم بما يتحصل : ان اعطاء هذه السلطات كلها لخليفة الرسول متفرع عن ثبوتها للرسول ، فينبغي اولا ان تثبت ان للرسول كل هذه السلطات ثم تتكلم في ثبوتها لخليفته ، لان ثبوت شيء لشيء فرع ثبوت المثبت له، والفرع لا يزيد على الاصل • ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم لا تشمل السلطة الدينية والدنيوية ، وانما هي كرسالة عيسى وموسى وغيرهما من اخوانه الانبياء روحية فقط تعتمد على الاقناع والوعظ ، وايمان القلب وخضوعه ، لا على القوة والبطش ، واخضاع الجسم• ومن اين لنا ان تثبت ان الله اعطى لمحمد ولاية النبي الروحية ، وولاية الحاكم الزمنية ؟! أما الاعمال التي قام بها الرسول مما تشبه اعمال الحاكم والسلطان ، كتنفيذ الاحكام بالقوة ، ونصب بعض القضاة والولاة ، وما الى ذلك — فلا علاقة لها بمقام الرسالة ، ولا تدخل في اختصاصها من قريب أو بعيد ، لانها « لم تكن في سبيل الدعوة الى الدين ، بل في سبيل الملك وتكوين الحكومة الاسلامية ، ولا تقوم حكومة الا على السيف وبحكم القهر والغلبة » أي ان ما اتى به محمد مما يعود الى الشؤون الدنيوية والسياسية انما كان بصفته رئيس دولة لا بصفته نبيا • واذا كانت ولاية النبي على المؤمنين دينية فقط غير مشوبة بالحكم والسلطان فولاية خليفته تكون كذلك •

الجواب :

وليس من شك ان الشباب يعجبهم هذا القول ، ويتقبلونه بمجرد سماعه وبخاصة أنصار النظرية القائلة بفصل الدين عن السياسة ، ولكن تقبل الفكرة لميول النفس شيء ، وكونها صحيحة على مبدأ اسلامي ، وأساس قرآني شيء آخر • ان صاحب « الاسلام واصول الحكم » يتكلم

في كتابه هذا عن الرسالة كما هـي في الاسلام ، لا كما يريدها هـو ان تكون ، فكان عليه ، والحال هذه ، ان يعتمد على الكتـاب والسنّة ، لا على ما يحسه ويشعر به •

واذا استنطقنا الكتاب والسنة نجد معنى الرسالة شاملا السلطـات الدنيوية والدينية من الذرة الى الذروة ، فقد نصت الآيـة ٦ من سورة الاحزاب على ان « النبي اولى بالمؤمنين مـن أنفسهم » والآية ٣٦ مـن السورة نفسها : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امرا ان يكون لهم الخيرة من امرهم » ومن السنة قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : « انا اولى بكل مؤمن من نفسه » وقوله في حديث غدير خم: « ألست أولى بكم من أنفسكم ؟! قالوا بلى • قال : من كنت مولاه فعلي مولاه » • والولاية في الآية والحديث شاملة لجميع الامور دينيـة كانت أو دنيوية ، لانها لو كانت خاصة لوجب ذكر الخاص بالذات ، وحيث لم يذكر نوع خاص من الولاية يكون المراد منها العموم • وقد تقرر في علم البيان واصول الفقه ان عدم ذكر المتعلق يدل على العموم ، فاذا قلت : ما أكلت ، ولم تذكر نوع المأكول دل قولك على انك لم تأكل شيئا لانك لو أردت نوعا خاصا لذكرت المتعلق ، وقلت : ما اكلت كذا •

أما الآية الكريمة « لا اكراه في الدين » التي استدل بهـا المؤلف فليس المراد منها عدم تنفيذ الاحكام بالقوة ، وانما ان الانسان فـي أمر دينه مخيّر غير مسيّر ، وان الكفر والايمان من فعل العبد ، لا من فعـل الله ، وان الحق قد ظهر من الباطـل ، والرشد من الغي بكثرة الحجـج واقامة البراهين ، وبالتالي ، تكون رياسة الخليفة نيابة عن الرسول عامة لامور الدين والدنيا ، لان رياسة الرسول كذلك •

الفصل السابع والعشرون

نصب الامام

بعد ان اتفقوا على ان الامامة رياسة عامة في امور الدين والدنيا نيابة عن النبي اختلفوا في أن نصب الامام هل هو واجب او لا ؟ وعلى افتراض وجوبه فهل يجب على الله ان يعين الامام ، وينص عليه . أم يجب على المسلمين ان يختاروا اماما منهم ؟ وفي حالة وجوبه على المسلمين فهل يجب عليهم عقلا او شرعا ؟

قال الخوارج ، وحاتم الاصم من المعتزلة « توفي ٢٣٧ هـ » : لا يجب نصب الامام لا على الله ولا على المسلمين ، لا عقلا ولا شرعا « ضربة واحدة » ، واحتج الخوارج ــ اولا ــ ان وجود الامام في كل عصر تتوافر فيه الشروط المطلوبة متعذر ــ ثانيا ــ ان آراء الناس مختلفة، واهواءهم متباينة ، وأحزابهم متعددة ، فاذا ارادوا نصب امام مال كل حزب مع هواه ، وهذا يستدعي اثارة الفتن والحروب ، وان التجربة تشهد بذلك ، فالاولى سد الباب ، على انه اذا امكن ان تتفق الكلمة على تعيين من تستجمع فيه الشروط كاملة ، فيجوز ان ينصبوه اماما لهم . اما الوجوب فلا ، مهما كانت الظروف .

وقال المعتزلة والزيدية [1] : يجب على المسلمين ان ينصبوا اماما عليهم بحكم العقل ، لا بدليل من الشرع ، واحتجوا بان عدم نصب الامام ضرر على العباد ، اذ بوجوده ترتفع الفوضى والفساد ، ودفع الضرر واجب عقلا ، كالابتعاد عن الطعام ، وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب .

وقال الامامية : ان نصب الامام يجب [2] على الله بحكم العقل ؛ لان الامام لطف من الله يقرب الناس من الطاعات ، ويبعدهم عن المعاصي، فأشبه وجوده بايجاد الاسباب الداعية لعمل الخير وترك الشر « فان من دعا غيره الى طعام ، وعلم انه لا يجيبه الا اذا فعل معه نوعا من التأدب فلو لم يفعله كان ناقضا لغرضه » [3] واذا كان نصب الامام لطفا من الله، واللطف واجب ، فنصب الامام واجب .

واعترض الاشاعرة على دليل الامامية هذا بان اللطف الذي ذكرتموه انما يتحقق بوجود امام ظاهر ، يرجى ثوابه ، ويخشى عقابه ، يدعو الناس

---

(١) الزيدية هم القائلون بامامة علي بن ابي طالب وولديه الحسن والحسين بالنص من الرسول ، ولذا لم يشترطوا في الحسن والحسين قيامهما بالسيف لقول جدّهما : « ولداي هذان امامان قاما او قعدا » ولم يقولوا بامامة زين العابدين علي بن الحسين ، لانه لم يقم بالسيف ، وقالوا بامامة ولده زيد ، لانه ثار على الباطل . وهم لا يشترطون العصمة في الامام ، ويجوز عندهم قيام امامين في بقعتين متباعدتين ، وكل من جمع خمسة شروط فهو امام (١) ان يكون ولد من فاطمة بنت الرسول (٢) ان يكون عالما بالشريعة (٣) ان يكون زاهدا (٤) ان يكون شجاعا (٥) ان يدعو الى دين الله بالسيف . واكثرهم يأخذ بفقه ابي حنيفة الا في مسائل قليلة . والزيدية هم الذين نعتوا باقي الشيعة بالروافض ، وليس السنة ، كما يظن ، وسبب ذلك ان باقي الشيعة لم يوافقوا الزيدية على امامة زيد بن علي بن الحسين. « قواعد العقائد للمحقق الطوسي » .

(٢) لا يعتبر الامامية راي الاكثرية لقوله تعالى : « لقد جئناكم بالحق ، ولكن اكثركم للحق كارهون » الزخرف ٧٨ وقوله : « بل جاءهم بالحق واكثرهم للحق كارهون » المؤمنون ٧٠ وقوله : « لو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السموات والارض » المؤمنون ٧١ راجع تفسير الميزان للطباطبائي ج ٤ ص ١٠٩ .

(٣) العلامة الحلي « كشف الفوائد » .

الى الطاعات ، ويزجرهم عن المعاصي • واين يوجد الامام الموصوف بهذا الوصف ؟! ولو وجب نصبه على الله لوجد في هذا الزمان وفي كل زمان. ولفعل الناس الطاعات ، وتركوا المعاصي ، مع ان الامام المطلوب غير موجود ، والموجود غير مطلوب •

واجاب الامامية عن هذا الاعتراض باننا لا نقول ان الله يوجد الامام ، ويفرضه على الناس فرضا وقهرا ، وانما نقول ان الله يخلق الامام المتصف بالمؤهلات ، وينص عليه بواسطة نبي او امام ، وعلى الامام ان يرشد ويعلم ، وعلى الناس ان تسمع وتطيع ، وقد فعل الله ما يجب عليه من خلق الامام والنص عليه ، والامام على استعداد للقيام بمهمته ، لو توفرت له الاسباب ، ولكن الناس قد اخافوه ، وتركوا نصرته ، ولذلك امتنع وجوده من بينهم ، فكان منع اللطف منهم لا من الله ولا من الامام•

وقال الاشاعرة : لا يجب نصب الامام على الله لا عقلا ولا شرعا ، لانه لا يجب على الله شيء ، ولا يقبح منه شيء ، ولكنهم أوجبوا على المسلمين نصبه شرعا لا عقلا ، فاذا تركوه أثموا اجمعين • واستدلوا باجماع الصحابة والتابعين ، لان الاصحاب عند وفاة الرسول بادروا الى بيعة ابي بكر ، وتسليم النظر اليه في امورهم ، وكذا فعلوا في كل عصر ، وهذا اجماع محقق دال على وجوب نصب الامام •

وقال صاحب كتاب « الاسلام واصول الحكم » بقول الخوارج من انه لا يجب نصب الامام على الله ، ولا على الناس لا شرعا ولا عقلا ، وأطال الكلام في الرد على الاشاعرة ، ونقتطف من اقواله ما يكفي للتعبير عما يريد ، قال :

« لم نجد في مباحث العلماء الذين زعموا ان اقامة الامام فرض من حاول ان يقيم الدليل على فرضيته بآية من كتاب الله ، او حديث من سنة

نبيه . ولو كان في كتاب الله او السنة دليل واحد ، او ما يشبه الدليل على وجوب الامامة لما انصرف عنه العلماء المنصفون الى دعوى الاجماع تارة ، وأقيسة المنطق تارة اخرى ، ولقدّموا دليل الكتاب والسنة على دعوى الاجماع في هذه المسألة ، كما هو شأنهم في جميع المسائل ، على ان الاجماع المزعوم لا عين له ولا اثر ، وانما هو مجرد دعوى . فلا الصحابة اجمعوا على الخلافة ، ولا التابعون ، ولا غيرهم من علماء المسلمين ، لان الاصل في الخلافة عند المسلمين ان تقوم على اساس المبايعة الاختيارية ورضا الناس ، ورغبة اهل الحل والعقد ، مع ان التاريخ يثبت بالارقام ان كل خلافة وجدت بعد الرسول قامت على القوة والرهبة، وعلى اساس المادة المسلحة ، فلم يكن للخليفة ما يحيط مقامه الا الرماح والسيوف . واذا لم يوجد للمسلمين خلافة واحدة قامت على الرضا والحرية والاختيار ، فكيف يستدل بعمل الاصحاب والتابعين وعلماء المسلمين في كل عصر ، واجماعهم على وجوب الخلافة (١) ؟! ان زعامة النبي كانت دينية جاءت عن طريق الرسالة لا غير ، وقد انتهت الرسالة بموته فانتهت الزعامة ايضا ، وما كان لاحد ان يخلفه في زعامته ، كما لم يكن لاحد ان يخلفه في رسالته ... واذا وجدت زعامة بعد الرسول بين اتباعه فهي زعامة مدنية سياسية ، زعامة سلطان وحكومة ، لا زعامة دين ووحي .

شروط الإمامة :

اتفقوا على ان الامام يجب ان يكون مسلما ذكرا (٢) بالغا ، عادلا ،

---

(١) ان هذا الاجماع المزعوم اشبه بالانتخابات التي يجريها المستعمرون في الاقطار الواقعة تحت سيطرتهم .

(٢) نقل صاحب كتاب الملل والنحل ان ابن حزم قال بنبوة ام موسى، ومريم ، وام اسحق زوجة ابراهيم . وعليه فلا يشترط الذكورية في النبوة، وبطريق اولى عدم اشتراطها في الامامة .

عالما عاقلا ذا بصيرة يدبر الامور بحكمة في السلم والحرب ، شجاعا يذب عن البلاد ، ويحمي حوزة الدين ، ويصمد عند الشدائد واختلفوا في الشروط التالية :

الانتساب الى قريش :

١ ــ قال الخوارج وبعض المعتزلة : لا يشترط ان يكون الامام من قريش •

وقال الاشاعرة واكثر المعتزلة : لا يجوز ان يكون من غير قريش . لقول النبي (ص) : « الائمة من قريش » • وقال الامامية الاثنا عشرية : ان الامامة لعلي وولديه الحسن والحسين ومن بعده لولد الحسين خاصة دون ولد الحسن • وقال الزيدية : هي في ولد فاطمة من غير فرق بين ولد الحسين والحسن •

العصمة :

٢ ــ ذكرنا معنى العصمة في فصل النبوة ، وقد اتفقوا جميعا ما عدا الامامية والاسماعيلية على عدم وجوب العصمة للامام بدليل ان ابا بكر لا تجب عصمته مع ثبوت امامته •

وذهب الامامية الى ان الائمة كالانبياء في وجوب العصمة عن جميع القبائح والفواحش من الصغر الى الموت ، عمدا وسهوا • وبعد ان انكروا خلافة ابي بكر استدلوا على شرط العصمة بامور [١] :

(١) هذه ادلة نظرية على العصمة ، اما الدليل العملي الملموس فهو سيرة الامام علي بن ابي طالب واعماله التي عبر عنها بقوله : « اللهم انك تعلم لو اني اعلم ان رضاك في ان اضع ظبة سيفي في بطني ، ثم انحني حتى يخرج من ظهري لفعلت » . وقوله : « والله لو اعطيت الاقاليم السبعة بما تحت افلاكها على ان اعصي الله في نملة اسلبها جلب شعيرة ما فعلت » . والكل يعلم ان افعال الامام تنسجم كل الانسجام مع اقواله .

اولا : ان الائمة حفظة الشرع والقوامون به ، حالهم في ذلك كحال النبي ، ولان الحاجة الى الامام انما هي للانتصاف للمظلوم من الظالم ، ورفع الفساد ، وحسم مادة الفتن ، وان الامام لطف يمنع القاهر من التعدي ، ويحمل الناس على فعل الطاعات ، واجتناب المحرمات ، ويقيم الحدود والفرائض ، ويؤاخذ الفساق ، ويعزر من يستحق التعزير ، فلو جازت عليه المعصية ، وصدرت منه ــ لانتفت هذه الفوائد ، وافتقر الى امام آخر ، وتسلسل .

ثانيا : ان الامام لو عصى لوجب الانكار عليه من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والانكار عليه يتنافى مع وجوب طاعته التي فرضها الله على العباد بقوله : « أطيعوا الله والرسول واولي الامر منكم » .

ثالثا : لو صدرت عنه المعصية لسقط محله من القلوب فلا تنقاد لطاعته .

رابعا : لو عصى لكان أسوأ من اقل افراد الرعية ، لان الهفوة الصغيرة من الكبير اعظم من اكبر الكبائر من غيره .

خامسا : قوله تعالى لابراهيم : « اني جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين » . دلت الآية على ان الامام لا يكون ظالما ، وكل عاص فهو ظالم (١) .

افضل الرعية :

قال الامامية : يجب ان يكون الامام افضل من رعيته في جميع صفات الكمال ، فهو اعلم الجميع ، وأكرمهم ، واشجعهم ، وازهدهم .

---

(١) اول الجزء الثاني من كتاب دلائل الصدق للشيخ محمد حسن المظفر .

رغالفهم في بعض ذلك سائر الفرق ٠

واستدل الامامية بالعقل ، والنقل ، اما العقل فلأنه يحكم بقبح تقديم المفضول على الفاضل ، وغير الاعلم على الاعلم ، واما النقل فقوله تعالى في سورة يونس الآية ٣٥ : « أفمن يهدي الى الحق احق ان يُتَّبع ام من لا يهدي الا ان يهدى فما لكم كيف تحكمون »٠ قالوا : ان الآية انكرت على من لا يتبع الافضل ، ولا يقول بانه أحق بالاتباع من غيره ٠

الحاكم الجائر :

ومهما اختلف المسلمون في شروط الحاكم فانهم متفقون على انه يجب ان يكون عادلا ، ولكن الاشاعرة بعد ان اعتبروا العدالة شرطا في الحاكم ذهبوا الى وجوب الصبر على جوره اذا خرج عن حدود العدالة ، قال الشيخ ابو زهرة في كتاب « المذاهب الاسلامية » ص ١٥٥ الطبعة الاولى : « اما أهل السنة فقالوا : الاختيار ان يكون الامام فاضلا عادلا محسنا ، فان لم يكن ، فالصبر على طاعة الجائر اولى من الخروج عليه ، لما فيه استبدال الخوف بالامن ، واهراق الدماء وشن الغارات والفساد ، وذلك اعظم من الصبر على جوره وفسقه ٠٠ وقد صرح الامام احمد بوجوب الصبر عند الجور ، ونهى عن الخروج نهيا صريحا ، وهذا هو المنقول عن أئمة اهل السنة : مالك ، والشافعي ، واحمد ، وهو المشهور » ٠

وقال الخوارج والامامية واكثر المعتزلة : يجب منازعة الجائر بكل وسيلة، ولا يجوز السكوت عنه، والدماء ترخص في سبيل العدالة والحق، والا انسد باب الجهاد ، وهو أصل عظيم من اصول الاسلام ، وركن قويم من أركان الدين ، حث عليه القرآن والحديث بشتى الاساليب « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن اوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ذلك هو الفوز العظيم ـ التوبة ١١١ » ٠

الفصل الثامن والعشرون

السنة والشيعة

نقلنا فيما تقدم أقوال المذاهب في صفات الله ، والجبر والاختيار . والحسن والقبح، وفي عصمة الانبياء ، وفيما يتعلق بالامامة ، ونشير الآن الى الفرق بين لفظتي السنّة والشيعة ، وما يندرج من المذاهب تحت كل لفظة . والمسألة الاساسية التي باعدت بين الطائفتين هي هذه : هل نص النبي على علي بالخلافة بعده،او ترك الامر للمسلمين يختارون من يريدون؟ فكل من قال بوجود هذا النص فهو شيعي . وكل من أنكره فهو سني ؛ فالاشاعرة والمعتزلة والمرجئة وغيرهم ممن انكر النص جميعهم سنة على ما بينهم من التباعد في كثير من المسائل . والامامية والزيدية والاسماعيلية كلهم شيعة على اختلافهم في عدد الأئمة ، لانهم يؤمنون بوجود النص . أما الغلاة فليسوا من الشيعة ولا من السنّة ، لان من اعطى صفة من صفات الالوهية لاي مخلوق كان ، أو اعطى غير النبي جميع صفات النبي فهو خارج عن الاسلام باتفاق الجميع . وما نجده في بعض الكتب من نسبة الغلاة الى مذهب التشيع فهو جهل ، أو دس بقصد التشنيع على الشيعة بغاية سياسية [1] .

---

(١) اطلنا الكلام في ذلك بكتاب « مع الشيعة الامامية » وكتاب « اهل البيت » .

عليّ وابو بكر :

والخلاف بين السّنة والشيعة في وجود النص على علي بالخلافة ، أو عدم وجوده ، يرجع في حقيقته الى الخلاف في ان امامة ابي بكر هل هي حق أو لا ، فاذا ثبت النص يكون ابو بكر مغتصبا للخلافة ، وكذلك عمر بن الخطاب . وعثمان بن عفان ، لان هذا الثالث تولى الخلافة بسبب الثاني ، والثاني تولاها بالنص عليه من الاول ، والمبني على الفاسد، فاسد وتكون النتيجة ان عليا واولاده هم الأئمة دون غيرهم ، لان النبي نص على علي ، ثم نص كل امام على من بعده بالذات ، وبالتالي يثبت ما قاله الشيعة .

واذا لم يثبت النص تنعكس الآية ، وتبطل امامة علي واولاده ، وتصح امامة ابي بكر ومن بعده ، ويتم ما قاله السنّة . اذن نقطة الارتكاز بين السنة والشيعة هي امامة ابي بكر . ومن هنا كثر حولها الجدل والنقاش ، وقد وضع علماء الشيعة المجلدات الطوال في الخلافة وانها حق لعلي ، وان ابا بكر اغتصبها بالقهر والغلبة، ورد عليهم علماء السنة، والف بعضهم كتبا خاصة في ذلك.وطبيعي ان يبذل الشيعة جهودا أعظم،ويضعوا كتبا أكثر ، لان أئمة الشيعة هم الذين قُتلوا وشُردوا فكان اعتماد اولئك على الحكم والسلطان ، ولا شيء لهؤلاء غير المنطق والبيان . ونقدم طرفا من اقوال كل من الطائفتين تمثل وجهات النظر في تعيين الامام عند السنة والشيعة .

احتج السنة على صحة خلافة ابي بكر باجماع (١) أهل الحل والعقد:

(١) جاء في كتاب المواقف للايجي (ت ٧٥٦ هـ) وشرحه للجرجاني (٨١٦ هـ) ج ٨ ص ٣٥٢ و ٣٥٣ « ان البيعة لا تفتقر الى الاجماع بل تصلح من الواحد والاثنين بدليل ان أبا بكر عقد لعمر ، وعبد الرحمن عقد لعثمان ، ولا يشترط اجماع من في المدينة فضلا عن اجماع الامة ، وعلى الاكتفاء بالواحد انطوت الاعصار الى وقتنا هذا » ومعنى ذلك ان صوتا واحدا يقوم على جمع اصوات الامة ويفرض عليها فرضا ، وان بيعة معاوية ليزيد صحيحة وكذا بيعة كل حاكم لولده .

وعلى خلافة عمر بنص ابي بكر عليه ، وعلى خلافة عثمان بنص عمر على ستة هو أحدهم [1] . ورد الشيعة هذا الدليل بأن الاجماع لم يتم على بيعة ابي بكر ، لان عليا وبني هاشم وسعد بن عبادة زعيم الخزرج واتباعه والزبير والمقداد لم يبايعوا ، وكذلك غيرهم من خيار الصحابة بايعوا بالقهر والغلبة ، كأبي ذر وسلمان الفارسي وعمار وحذيفة وبريدة وغيرهم. وقد أيد هذا القول علي عبدالرزاق في كتاب « الاسلام واصول الحكم » قال :

« حين قبض (ص) اخذوا يتشاورون في أمر تلك الدولة السياسية التي لم يكن لهم مناص من ان يبنوها على أساس وحدتهم الدينية التي خلفها فيهم رسول الله وما كانت نبوة الا تناسخها ملوك جبرية . وكانوا يومئذ انما يتشاورون في أمر مملكة تقام ، ودولة تشاد ، وحكومة تنشأ ، ولذلك جرى على لسانهم يومئذ ذكر الامارة والامراء ، والوزارة والوزراء وتذاكروا القوة والسيف ، والعزة والثروة ، والبأس والنجدة ، وما كان كل ذلك الا خوضا في الملك ، وقياما بالدولة . وكان من اثر ذلك ما كان من تنافس المهاجرين والانصار ، وكبار الصحابة بعضهم مع بعض حتى تمت البيعة لابي بكر ، فكان اول ملك في الاسلام . واذ رأيت كيف تمت البيعة لابي بكر ، واستقام له الامر تبين لك انها كانت بيعة سياسية ملكية

(١) حين دنا أجل عمر اوكل امر الخلافة الى ستة ، وهم علي وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن ابي وقاص ، وكان في نفس سعد شيء على علي ، وكان عبد الرحمن متزوجا اخت عثمان ، وكان طلحة ميالا لعثمان لعلاقات خاصة بينهما ، وقال عمر : على هؤلاء ان يختاروا واحدا منهم للخلافة في امد لا يتجاوز ثلاثة ايام ، وقال : اذا كان خلاف فكونوا مع الفريق الذي فيه عبد الرحمن ، ولما اجتمع الستة أقبل عبدالرحمن على علي ، وقال له : عليك عهد الله لتعملن بكتاب الله وسنة النبي وسيرة الخليفتين . قال علي : اعمل بكتاب الله وسنة النبي ، وارجو أن افعل على مبلغ علمي وطاقتي . فدعا عبد الرحمن عثمان ، وقال له مثل ذلك ، فأجابه ، وتمت له البيعة .

عليها كل طوابع الدولة المحدثـة ، وانها انما قامت كما تقوم الحكومات على اساس القوة والسيف » .

وقال الشيعة : ان مالك بن نويرة كان مسلما لم يكفر ولم يرتدّ عن الاسلام ، ولكنه منع الزكاة عن ابي بكر ، فأنفذ خالد بن الوليد ، فقتل مالكا ، وضاجع امرأته من ليلتـه ، وترك اقامة الحـد عليه ، وقد أنكر عمر بن الخطاب ذلك، وقال لابي بكر : اقتلْ خالدا ، فانه قتل مؤمنا[1] .

وأيد علي عبد الرازق هذا القـول في كتـاب « الاسلام واصول الحكم » قال :

« ولعل الذين رفضوا طاعة ابي بكر لم يكونوا جميعهم مرتدين ، بل كان فيهم من بقي على اسلامه ، ولكنــه رفض ان ينضم الى وحـدة ابي بكر ، لسبب ما ، من غير ان يرى في ذلك حرجـا عليه ، ولا غضاضة في دينـه ، وما كان هؤلاء من غير شك مرتدين ، وما كانت محاربتهـم لتكون باسم الديـن ، فان كان ولا بد من حربهـم فانما هي السياسة ، والدفاع عن وحدة العرب ، والذود عن دولتهم .

ولعل بعض اولئك الذين حاربهـم ابو بكر لأنهم رفضوا ان يؤدوا اليه الزكاة لم يكونوا يريدون بذلك ان يرفضوا الدين ، ولكنهم لا غير رفضوا الاذعان لحكومة ابي بكر ، ، كما رفض غيرهم من جلة المسلمين ، فكان بديهيا ان يمنعوا الزكاة عنه ، لانهم لا يعترفون به ، ولا يخضعون لسلطانه وحكومته .

وهذا حوار خالد بن الوليد مع مالك بن نويرة احد اولئك الذين سموهم مرتدّين ، وهو الذي امر خالد فضُربت عنقه ، ثم أُخذت رأسه

---

(١) الجزء الثاني من كتاب « الشافي » للشريف المرتضى ، المتوفى سنة ٤٣٦ هـ .

بعد ذلك فجعلت أثفية لقدر . يعلن مالك في صراحة الى خالد انه لا يزال على الاسلام ، ولكنه لا يؤدي الزكاة الى ابي بكر . كان ذلك اذن ، نزاعا غير ديني ، كان نزاعا بين المسلم الثابت على دينه ، وبين ابي بكر الناهض بدولة عربية ، كان نزاعا في ملوكية ملك لا في قواعد دين ولا في اصول ايمان . وليس مالك هو وحده الذي يشهد لنفسه بالاسلام ، بل يشهد له به ايضا عمر بن الخطاب ، اذ يقول لابي بكر : « ان خالدا قتل مسلما فاقتله » بل يشهد له بالاسلام ايضا ابو بكر ، اذ يجيب ما كنت اقتله ، فانه تأول فأخطأ » .

ومن يقرأ ما قاله الشيعة فيما يتعلق بخلافة ابي بكر ، ثم يقرأ ما قاله علي عبد الرازق خريج الازهر لا يرى ادنى فرق بين قوله وقول الشيعة ، وليس من الضروري ان يطلع علي عبد الرازق على قولهم ليرى هذا الرأي ، فمن الجائز ان يكون لمجرد التلاقي والاتفاق في وجهات النظر ، ونتيجة البحث والتأمل .

واستدل الشيعة على ان الإمام بعد الرسول هو علي بن ابي طالب بدليل العقل والنقل ، وقرروا دليل العقل بوجوه :

الاول : ان الإمام يجب ان يكون معصوما ، وغير علي لم يكن معصوما بالاجماع ، فتعين ان يكون هو الامام .

الثاني : ان من شرط الإمام ان لا تسبق منه معصية ، وابو بكر كان يعبد الاصنام في الجاهلية فتعين علي للامامة ، لانه لم يعبد صنما ولم يعص الله طرفة عين .

الثالث : يجب ان يكون الإمام افضل من رعيته ، وغير علي لم يكن كذلك فتعين علي ، لانه افضل الرعية .

وأجاب السنّة عن هذه الادلة بأنه لا يشترط في الإمام ان يكون معصوما ، ولا ان تسبق منه معصية ، ولا ان يكون افضل من رعيته .

اما النقل الذي اعتمد عليه الشيعة فنصوص من القرآن والحديث ، ونكتفي منها بحديث الموالاة ، لأهميته عندهم ، وشهرته عند جميع الفرق الاسلامية (١) .

بعد ان رجع النبي من آخر حجة حجها الى بيت الله الحرام مرّ في طريقه بمكان يدعى غدير خم ، وكان معه جمع عظيم من المسلمين ، فقام فيهم خطيبا ، وقال : ألست أولى بكم من أنفسكم ؟ فقالوا : اللهم نعم ، فأخذ بيد علي ، وقال : من كنت مولاه فهذا علي مولاه ، اللهم والِ من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله .

فقام الاصحاب يهنئون عليا ، حتى ان عمر قال له : بخٍ بخٍ لك يا علي أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة .

وقد فسر الشيعة الولاية في هذا الحديث بالحكم والسلطان ، وفسرها السنّة بالحب والمودة ، وقالوا : ان النبي أوصى في حديثه هذا بحب علي ومودته ، ولم يوص له بالخلافة . وأجابهم الشيعة بأن أول كلام الرسول ، هو ألست أولى بكم من أنفسكم يفسر آخره ، وهو من كنت مولاه فعلي مولاه . والمراد من الولاية في مقدمة الكلام الحكم والتصرف فكذلك في آخره . هذا ، الى ان تهنئة عمر وغيره لعلي يدل على ان المراد هو الخلافة لان التهنئة انما تكون بمنصب جديد يستأهل العناية والتكريم ، وأي عاقل يقول لآخر : اهنئك بحبي لك ؟!

---

(١) الف الشيخ عبد الحسين الاميني في هذا الحديث كتابا اسماه حديث الغدير بلغ ١٢ مجلدا ضخما .

فرق الشيعة :

الموجود الآن من فرق الشيعة ثلاث :

الاولى : الزيدية ، وتقدمت الاشارة اليهم ، وهم اكثر اهل اليمن .

الثانية : الاسماعيلية . وهم غير اتباع آغا خان ، وأئمتهم سبعة : علي والحسن والحسين وولده علي ، وولده محمد الباقر ، وولده جعفر الصادق ، وولده اسماعيل وهم يقيمون في باكستان .

الثالثة : الإمامية الاثنا عشرية وهم اكثر عددا وانتشارا من الزيدية والاسماعيلية ، ويقرب عددهم من سبعين مليونا منتشرين في ايران والعراق والهند وباكستان وروسيا وتركستان ، وبخارى وافغان ولبنان. وقليل منهم في سورية والحجاز واليمن ، ومنهم في الصين والتيبت والصومال وجاوا والألبان وتركيا والبحرين والكويت والاحساء والقطيف .

وأئمتهم ١٢ هم : علي ، ثم ولده الحسن ، ثم أخوه الحسين ، ثم ابنه زين العابدين ، ثم ابنه محمد الباقر ، ثم ابنه جعفر الصادق ، ثم ابنه موسى الكاظم ، ثم ابنه علي الرضا ، ثم ابنه محمد الجواد ، ثم ابنه علي الهادي ، ثم ابنه الحسن العسكري ، ثم ابنه محمد المهدي المنتظر .

وقالوا : ان الدليل على إمامة الاحد عشر بعد علي هو نفس الدليل على امامة علي . نص الرسول على امامة علي . بل نص على امامة الحسن والحسين ايضا بقوله : ولداي هذان إمامان قاما او قعدا . ويدل ايضا على امامة الاثني عشر ما رواه السنة في صحيح البخاري وصحيح مسلم : لا يزال أمر الناس ماضيا ما وليهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش .

المهدي المنتظـر :

لقد كثر الكلام في المهدي ، وحيكت حولـه القصص والروايات . ونسب المفتـرون الى الاماميـة ما ليس لهم به من علم . والحقيقـة ان الإمامية يعتقدون بأن المهدي حي . وانه موجـود في مكان لا يعلمه الا الله ، ولا يتصل به احد من النـاس ، وانه سيخرج في يوم من الايام . فيملأ الارض عدلا كما ملئت جورا . هذه هي عقيدة الامامية بالمهـدي دون زيادة ، او نقصان ، وما عدا ذلك كقصة السرداب وما اليه فلا يمت الى العقيدة بسبب قريب او بعيد ، كما ان من عقيدة الامامية ان من أنكر وجود المهدي ، او امامة علي بن ابي طالب ، او احد اولاده ، وكان مؤمنا بالله والرسول واليـوم الآخر فهو مسلـم ، له ما للمسلمين ، وعليه ما عليهم . وقد سألني احد رجالات السنة عن فكرة المهدي كما اعتقدها أنا بالـذات بصرف النظـر عما تدين به الإماميـة . فقلت له : ليست لي شخصيتان احداهما بصفتي مفكرا ، واخرى بصفتي اماميا ، ان تفكيري عين عقيدتي . وعقيدتي نفس تفكيري ، فأنا إمامي تفكيرا وعقيدة . وكان هذا السؤال باعثا لي على نشر مقـالي في العرفـان عدد شباط ١٩٥٩ ، جاء فيه :

من اصول الشيعة الإمامية وغيرهم من المذاهب الاسلامية ان كل ما ثبت عن الرسول (ص) فهو كالقرآن الكريم من حيث الصدق ووجـوب العمل . وقد ثبت عن الرسول الإخبار عن المهدي .. اذن ، فالاماميـة ملزمون كمؤمنين بالنبي وأقواله أن يصدقوا بالمهـدي ، والا كانوا كمن أنكر النبوة ، لان انكار الحديث مع العلم بثبوته انكار للنبوة بالذات . وبكلمة ان التصديق بالنبي يستدعي قهرا التصديق بالمهدي بعد العلم انه أخبر عنه ، ويستحيل الانفكاك والانفصال . ومن هنا لا نجد مجـالا للكلام في المهدي الا في نطـاق الحديث الشريف عن الرسول ، كما هو

الشأن في كثير من القضايا الدينية • ولو اهملنا حديث الرسول لما كـان للاسلام هذا الصرح الشامـخ في شتى ميادين العلـوم الاسلامية • اما الدليل على العمل بحديث الرسول فهو نفس الدليل على نبوته وثبـوت رسالته ، وعلى هذا اذا سألنا عن المهدي سائل لا يؤمن بالحديث صرفناه برفق من حيث يشعر او لا يشعر الى وجهة اخرى ، لانه لا طريق لنا الى العلم سوى النقل عمن لا ينطق عن الهوى ، وقد جـاء في صحاح السنة والشيعة من الاخبار عن المهدي ما لا يبلغه الاحصاء •

الفصل التاسع والعشرون

المعـــاد

المعاد ، هو اعادة الخلائق بعد الموت في عالم غير عالمنا هذا . ويقع الكلام في مسائل :

امكان المعـــاد :

١ ـ هل يمكن عقلا وجود عالم آخر لهذا العالم اولا ؟. ليس من شك ان العقل يحكم بالامكان ، لانه لا يفـرق بين المتساويين . ويقيس امكان وجود احدهما المساوي على الموجود بالفعل ـ مثلا ـ اذا أوجد الباني بيتا نحكم بأنه يستطيع أن يبني مثله متى شاء ، من باب قيـاس احد المتماثلين على الآخـر . وقد أوجد اللـه دنيانا هذه من لا شيء ، فبالاحرى ان يوجـد مثلها من شيء او من لا شيء . والى هذا أشارت الآية الكريمة : « أوليس الذي خلق السموات والارض بقـادر على ان يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم » .

وبعد ان اثبتوا حكم العقل بامكان المعـاد استدلوا على وقوعـه بأدلة ثلاثة :

اولا :

ان النبي المتصف بجميع صفات الكمـال والجلال ، المعصوم عن

الخطأ والكذب قد اخبر بوقوعه . فيجب التصديق ، تماما كما لو اخبرك الثقة الامين بوقوع حادثة لا يمنع العقل من وقوعها .

ثانيا :

ان الله وعد المطيع بالثواب : وتوعد العاصي بالعقاب ، مع انهما قد فارقا هذه الدنيا قبل ان يجازى كل بعمله ، فوجبت الاعادة ، ليحصل الوفاء بوعده ووعيده .

ثالثا :

ان الله قد كلف العباد ، وفعل بهم الالم ، وهذا يستلزم الثواب والعوض ، والا كان ظالما تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، والثواب والعوض انما يصلان للمكلف في الآخرة ، لانتفائهما في الدنيا [1] .

هل المعاد روحاني او جسماني ؟

قال الملاحدة والدهرية : لا حشر للارواح ، ولا للاجسام بعد الموت ، لان من مات فات .

وقال الفلاسفة : المعاد للروح فقط دون الجسم لان الجسم ينعدم بصورته وأعراضه فلا يمكن اعادته ، والروح جوهر بسيط مجرد فلا سبيل الى فنائه .

وقال جماعة من المتكلمين والفقهاء : المعاد للجسم فقط دون الروح، لان الروح بزعمهم جسم لطيف سارٍ في البدن سريان النار في الحطب ،

---

(١) شرح التجريد للعلامة الحلي ، باب المعاد . وقد اطلنا الكلام في ذلك في كتاب « الآخرة والعقل » .

والماء في النبات ، والزيت في الزيتون [١] .

وقال كثير من المتكلمين وغيرهم ، منهم الاشعري كالغزالي ، ومنهم الإمامي كالطوسي ، قالوا : ان المعاد للروح والبدن معا ، ثم اختلف هؤلاء فمنهم من قال : ان المُعاد هو بدن الانسان الذي كان في الدنيا بعينه . ومنهم من قال : ان المعاد جسم يماثله ، وليس هو بالذات .

شبهة الآكل والمأكول :

واشكلوا على من قال باعادة الجسم بعينه بأننا نفرض ان زيدا مات واستحال جسمه الى تراب ، ثم استحال التراب الى نبات ، فاغتذى عمرو بذلك النبات ، فيستحيل جسم زيد الى جسم عمرو ، وحينئذ يقال : ان اعيد عمرو الآكل لم يكن زيد المأكول معادا ، وعليه تنتفي الاعادة بالنسبة الى احدهما لا محالة ، وهذه الشبهة تعرف بشبهة الآكل والمأكول . وقررها بعض الفلاسفة باسلوب آخر . قال : اذا اكل انسان انسانا آخر فان كان الآكل كافرا ، والمأكول مؤمنا لزم تعذيب المؤمن ، لانه استحال الى بدن الكافر ، والكافر معذب ، وان كان الآكل مؤمنا لزم ان يكون الكافر منعما ، لانه استحال الى جسم المؤمن ، والمؤمن منعم .

وأجاب المتكلمون عن هذه الشبهة بأن للانسان أجزاء أصلية ، واخرى عرضية ، والتي تستحيل الى بدن آخر هي الاجزاء العرضية ، اما الاصلية فلا تصير جزءا من غيرها ، بل تبقى على حقيقتها من أول

---

(١) هذا عين ما يقوله الماديون الذين لا يعترفون بشيء وراء المادة ، ولكن الفرق ان الماديين لا يقولون بالعودة ثانية في عالم آخر ، وهؤلاء الماديون المؤمنون يقولون بحشر المادة ونشرها . وقال صدر المتألهين في كتاب « المبدا والمعاد » الفن الثاني في الطبيعيات : « ان اكثر الاسلاميين يرون ويعتقدون بأن الانسان ليس سوى هذه البنية المحسوسة ، اعني الجسد المركب من اللحم والدم والعظم والعروق ، وما شاكلها التي كلها اجسام ».

العمر الى آخره ، ومن هذا الجواب يتضح ان معنى الموت عند المتكلمين هو تفريق أجزاء الجسم ، ومعنى الحياة بعد المـوت جمع تلك الاجزاء وتأليفها مرة ثانية .

وأجاب الفلاسفة عن شبهة الآكل والمأكول بأن حقيقة الانسان هي نفسه ، لا بدنه ، والأكل انما وقع على البدن لا على النفس التي يكون الانسان بها انسانا .

وقال ابن رشد في كتاب « الكشف عن مناهج الأدلة » : ان على الانسان ان يعتقد بوجود المعاد ، وانه واقع لا محالة ، اما كيفيته : وهل هو بالجسم ، او بالروح ، او بهما معا فيؤمـن بما أدى اليه نظره ، على شريطة ان لا يفضي اجتهاده الى انكار المعاد من الاصل .

عذاب القبر :

قال اكثر أئمة المسلمين : ان كل ما نطق به القرآن الكريم ، وثبت في السنة النبوية فيما يرجع الى ما بعد الموت من عذاب القبر الى الحشر والنشر ، والحساب والعقاب . وما الى ذلك ــ كله حقيقـة بلا تأويل ، ومن أول شيئا من ذلك زاعما انه لا وجود له فقد خالف الاسلام ، لان كل ما قاله القرآن ممكن في نفسه ، وليس في وقوعه محال في نظر العقـل ، فيجب التصديق .. ولو قلنا ، ان ما أخبر به القرآن والسنّة لا وجود له للزم ان يكون الدين تضليلا وغواية ، لا ارشادا وهداية .

وبالتالي . نقول مع الفيلسوف الكبير الملقب بصدر المتألهين « ان مسألة المعاد من أغمض المسائل دقة ، وأعظمهـا شرفا ورتبة ، وقلّ من يهتـدي اليها من كبار الحكمـاء ، ومن يرَشد الى اتقانها من عمظـاء الفضلاء » (١) .

---

(١) المبدأ والمعاد باب الفن الثاني في الطبيعيات .

الفصل الثلاثون

الامامية بين الأشاعرة والمعتزلة

لاحظت ، وانا اتتبع كتب الفلسفة وعلم الكلام امرا غريبا دفعني من حيث اريد او لا اريد الى كتابة هذا الفصل ، لاحظت ان كثيرا من الذين كتبوا ــ من غير الإمامية ــ في الفرِق ومذاهبها يعتبرون الإمامية اتباعا للمعتزلة في تفكيرهم ، فمن هؤلاء من يقول ــ اذا حرر مسألة خلافية ــ : قال الاشاعرة : كذا . وقال المعتزلة واتباعهم الامامية : كذا. وبعضهم يقتصر على رأي الاشاعرة ، والمعتزلة ، ويهمل الإمامية كلية ، وكأنه يدرج الإمامية في عداد المعتزلة ، كما تدرج الماتريدية في عداد الاشاعرة [1] .

وقد اطلع على هذا القول بعض الغربيين فآمن به جهلا وتقليدا ، ورد اصول التفكير الإمامي الى المعتزلة .. قال آدم متز في كتاب :

---

(١) شرح المواقف ج ٤ ص ١٢٣ طبعة ١٩٧٠ . والماتدرية نسبة لمحمد ابن محمد بن محمود المعروف بأبي منصور الماتدري ، ولربما تريد ، وهي محلة بسمرقند فيما وراء النهر . توفي سنة ٣٣٣ هـ قالوا : ان آراءابي‌حنيفة هي الاصل الذي تفرعت منه آراء الماتدري . « المذاهب الاسلامية » لابي زهرة ص ٢٨٧ وما بعدها .

الحضارة الاسلامية : « ان الشيعة ورثة المعتزلة » . ورأى بعض الشباب المثقف كلام المستشرقين فأخذه على علاته ، كما هو المألوف والمعروف من ثقافة هذا الجيل الصاعد ... قال الاستاذ عبد الرحمن الشرقاوي في مجلة الغد عدد ٢ سنة ١٩٥٣ : « ان الشيعة التقطوا كثيرا من افكار المعتزلة ». هكذا أخذ المستشرقون عن بعض القدامى دون تتبع وتمحيص ، وأخذ شبابنا عن المستشرقين حتى كأنهم المصدر الذي لا يبقى معه الشك ، ولا يقبل التشكيك ، وماذا يكون الشأن في من قلد المقلدين ؟!..

والحقيقة ان الشيعة أسبق من الاشاعرة والمعتزلة ، بل أسبق المذاهب الاسلامية على الاطلاق ، كما يأتي عن الشيخ ابي زهرة ، فان لهم آراء مستقلة استقوها من الكتاب والسنّة . وقد يلتقون في بعضها مع الاشاعرة وفي البعض الآخر مع المعتزلة . ويستقلون بأشياء كثيرة عن كل من الفريقين .

فلقد سبق الإمام علي وأولاده الناس الى الكلام عن الايمان وعقيدة الاسلام ، واهتموا بفلسفتها ، والذب عنها بمنطق العقل قبل ان يخلق واصل بن عطاء . فهذه تعاليم أهل البيت مشحونة بالمبادىء العقلية والنقاش المنطقي للدفاع عن العقيدة الاسلامية ، ورد الشبهات عن نصوص الكتاب والسنّة . وقد صيغت تعاليمهم هذه في قضايا فلسفية طغت على قول الكثيرين من علماء الكلام وفلاسفة المسلمين ، فرددوها على ألسنتهم ، ودونوها في أسفارهم ، واتخذوها أساسا لفلسفتهم من حيث يقصدون او لا يقصدون .

ان أئمة الفرق والمذاهب ابتدأوا بعلم الكلام حيث انتهى منه أهل بيت النبي (ص) . قال ابن ابي الحديد في شرح النهج ج ٢ ص ١٢٨ : « ان اصحابنا المعتزلة ينتمون الى واصل بن عطاء ، وواصل تلميذ

ابي هاشم بن محمد بن الحنفية ، وابو هاشم تلميذ أبيه محمد ، ومحمد تلميذ أبيه علي عليه السلام » .

وذكر هذه الحقيقة التاريخية السيد المرتضى في أماليه ج١ ص١٦٥ ، والشهرستاني في المِلل والنِّحل ص ٢٦ وتتلمذ أحد شيوخ المعتزلة على هشام بن الحكم تلميذ الإمام جعفر الصادق [1] . وقال الشيخ ابو زهرة في كتابه « المذاهب الاسلامية » ص ٥١ : « الشيعة أقدم المذاهب السياسية الاسلامية ، وقد ظهروا بمذهبهم في عصر عثمان ، ونما وترعرع في عهد علي ، اذ كلما اختلط بالناس ازدادوا اعجابا بمواهبه وقوة دينه وعلمه » .

وعلى هذا يصح القول بأن المعتزلة هم اتباع الامامية ، وليس الامامية أتباعا للمعتزلة ...

نقول هذا ـ جدلا ـ والزاما لمن قال بأن الامامية هم اتباع المعتزلة ، اما الحقيقة التي نؤمن بها فهي ان كلاً من الامامية والمعتزلة والاشاعرة فرقة من الفرق الاسلامية تستقل بمبادئها وتعاليمها ، وقد تلتقي في شيء من هذه التعاليم مع اخواتها من الفرق ، وتفترق عنها في شيء . وفيما يلي نذكر طرفا من المسائل التي اختص بها الامامية دون الاشاعرة والمعتزلة ، وبعض المسائل التي اتفقوا عليها مع الاشاعرة ضد المعتزلة .

الشفاعة :

١ ـ أجمع المسلمون كافة على ثبوت اصل الشفاعة ، وانها تُقبل من الرسول الاعظم (ص) ، واختلفوا في تعيين المشفوع له ، فقال الامامية

---

(١) انظر كتاب « هشام بن الحكم » الشيخ عبدالله نعمة .

والاشاعرة : ان النبي (ص) يشفع لاهل الكبائر باسقاط العقاب عنهم . وقال المعتزلة : لا يشفع الا للمطيعين المستحقين للثواب ، ومعنى شفاعته للمؤمن المطيع ان يطلب له من الله زيادة الثواب وتضاعف الحسنات . وابطل المحقق الطوسي في كتاب التجريد هذا القول بأنه لو كانت الشفاعة في زيادة المنافع لجاز ان نشفع نحن في النبي ، ونطلب له علو الدرجات ، وهو باطل ، لان الشافع أعلى من المشفوع فيه . واما الآيات الدالة على نفي الشفاعة ، كقوله : « فما تنفعهم شفاعة الشافعين » فمتأولة بالجاحدين، جمعا بينها وبين ما دلّ على قبول الشفاعة .

الجنة والنار :

٢ ــ قال الامامية والاشاعرة : ان الجنة والنار مخلوقتان الآن ، بدلالة الشرع على ذلك . وقال اكثر المعتزلة : انهما غير موجودتين الآن، وستخلقان غدا يوم الجزاء .

مرتكب الكبيرة :

٣ ــ قال الامامية والاشاعرة : ان مرتكب الكبيرة مؤمن فاسق يجب اقامة الحد الشرعي عليه اذا سرق أو شرب أو زنا . وقال الخوارج : هو كافر . وقال المعتزلة : لا مؤمن ولا كافر ، وأثبتوا المنزلة بين المنزلتين، وهذه المسألة هي السبب لافتراق واصل عن استاذه الحسن البصري ، وانشاء فرقة الاعتزال .

الامر بالمعروف :

٤ ــ اتفق المسلمون كافة على وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واختلفوا : هل يجبان بالسمع أو بالعقل ؟ . فقال الامامية والاشاعرة : يجبان بالسمع ، بنص الكتاب والسنة ، ولولا وجود النص

الشرعي لم يكن باعث على الوجوب • وقال المعتزلة : يجبان بالعقل ، أما الشرع فيؤكد حكم العقل ويقره ، وعليه فان الوجوب ثابت ، حتى ولو لم يرد النص الشرعي •

الإحباط :

٥ ــ قال جمهور المعتزلة : ان المؤمن المطيع يسقط ثوابه المتقدم بكامله اذا صدرت منه معصية متأخرة « حتى ان من عبد الله طول عمره، ثم شرب جرعة من خمر فهو كمن لم يعبد الله ابدا » ، وكذا الطاعة المتأخرة تسقط الذنوب المتقدمة ، وهذا هو معنى الاحباط • واتفق الامامية والاشاعرة على بطلان الاحباط ، وقالوا : ان لكل عمل حسابه الخاص ، ولا ترتبط الطاعات بالمعاصي ، ولا المعاصي بالطاعات ، والاحباط يختص بالجاحدين الذين لا يؤمنون بالله ولا بالرسول واليوم الآخر ، كما دلت الآية الكريمة : « لئن أشركت ليحبطن عملك ، ولتكونن من الخاسرين » لان الجحود سيئة لا تقبل معه حسنة ، وليس بعد الشرك الا العذاب ، اما من أساء وأذنب ، وهو يؤمن بالله فيوازن بين حسناته وسيئاته ، فان كانت الاساءة أكثر كان كمن لم يحسن ، وان كان الاحسان أكثر كان كمن لم يسيء ، اذ الاكثر ينفي الاقل • وان تساويا كان كمن لم يصدر عنه شيء • وقال صاحب المواقف : ان الذي تتساوى حسناته مع سيئاته يجوز أن يثاب ، ترجيحا لجانب الثواب على العقاب •

ثبوت الحال :

٦ ــ اثبت المعتزلة الواسطة بين الوجود والعدم ، وقالوا بثبوت الحال وهو عندهم عبارة عن صفة الشيء ، ولكنه لا يوصف بالوجود ولا بالعدم ، ولا بالمعلوم ولا بالمجهول ، ولا بشيء ابدا • وأنكره الامامية والاشاعرة ، وقالوا : لا شيء سوى الوجود والعدم •

الشرع والعقل :

٧ ـ اسرف المعتزلة في تمسكهم بالعقل ، وغالى أهل الظاهر في جمودهم على ظاهر النص ، فوقف الإمامية وكثير من الاشاعرة موقفا وسطا بين الفريقين ، والتزموا تأويل كل ظاهر للكتاب والسنة مخالف لبديهة العقل ، وأعرض المعتزلة عن هذه المحاولة • ومن الخير ان ننقل ما ذكره الدكتور توفيق الطويل في كتابه « اسس الفلسفة » ص ٢٨٩ ، قال :

« ان اصطناع العقل قد طوح بفرق المتكلمين حتى أدى ببعضها الى الشطط ، من ذلك أن بعض الخوارج ، وهم يشبهون المعتزلة العقليين في بعض المسائل ، قد رفضوا ان تكون السنن المأثورة مرجعا للأحكام•• بل غالت احدى فرق الخوارج غلوا أدى بها الى الطعن في بعض سور القرآن فالميمونية أنكرت سورة يوسف ••• لانها قصة عشق ••• والى مثل هذا الشطط ذهب بعض المعتزلة ، فرأوا أن الآيات التي حملت على خصوم النبي مثل « تَبَّتْ يَدا أبي لَهب » لا يعقل أن تكون من القرآن ، لانها لا تتمشى مع قوله تعالى : « بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ » •

هذا طرف مما اتفق عليه الإمامية والاشاعرة ضد المعتزلة ، وفيما يلي بعض ما تفرد به الإمامية دون الفريقين •

الخلافة :

٨ ـ قال الامامية : ان النبي قبل وفاته نص على خليفته بالذات • وقالت سائر الفرق الاسلامية : بل سكت ، وترك الامر شورى بين المسلمين •

عصمة الإمام :

٩ ـ قال الإمامية : ان الإمام يجب أن يكون معصوما عن الخطأ

والسهو في بيان الاحكام الشرعية ، وقال غيرهم : لا تجب له العصمة في شيء . بل ذكر الشيخ محمد ابو زهرة في كتاب « المذاهب الاسلامية » ص ١٥٥ : « وجوب الصبر على ظلم الحاكم الجائر، وعدم جواز الخروج عليه » ثم قال : هذا هو المشهور ، والمنقول عن أئمة أهل السنة ، ونقل عن ابن تيمية أن الخليفة اذا اختير على انه عادل ، ثم تبين انه فاسق فالارجح عند الجمهور وجوب الاستمرار في طاعته .

عصمة الأنبياء :

١٠ ــ قال الإمامية : الانبياء معصومون عن الذنوب كبيرها وصغيرها قبل النبوة وبعدها . وقال المعتزلة : تجوز عليهم الصغائر والكبائر قبل الوحي ، اي قبل ان يصبحوا أنبياء ، اما بعد الوحي فتجوز عليهم الصغائر من الذنوب دون الكبائر . وقال الاشاعرة : تجوز الكبائر والصغائر قبل النبوة ، اما بعدها فلا يجوز عليهم الكفر ، ولا تعمد الكذب ، وتجوز عليهم الصغائر عمدا او سهوا ، والكبائر سهوا لا عمدا .

الوعد والوعيد :

١ ــ اختلفت الامة في مسألة الوعد بالثواب ، والوعيد بالعقاب : هل يجب على الله الوفاء بهما او لا ؟ قال الاشاعرة : لا يجب على الله شيء ، وله ان يعاقب المطيع ، ويثيب العاصي . وهذا ما قاله الغزالي بالحرف : « ان الله لا يبالي لو غفر لجميع الكافرين ، وعاقب جميع المؤمنين » . واستدلوا على ذلك بأن الله مالك كل شيء وللمالك أن يتصرف في ملكه كيف شاء ، تماما كما تتصرف نحن بالحمل . وقال المعتزلة : ان ثواب المطيع ، وعقاب العاصي ، ان مات بلا توبة ــ واجبان على الله ، والا كان ما أخبر به كذبا ، والكذب محال عليه سبحانه . واستدلوا بقوله تعالى : « وما انا بظلام للعبيد » .

وقال الامامية : يجب على الله الوفاء بالوعد ، وهو ثواب المطيع ، لانه مقتضى العدل والانصاف ، ولا يجب عليه الوفاء بالوعيد ، أي عقاب العاصي ، لان العقاب حق لله ، فيجوز له اسقاطه ، تماما كما لو كان لانسان دَين في ذمتك فيجب عليك أن تؤديه غير منقوص ، اما لو كان الدين لك فأنت بالخيار ، ان شئت ان تسمح ، وان شئت استوفيته كاملا . وبهذا وقف الامامية موقفا وسطا ، حيث وافقوا المعتزلة في الوعد ، وخالفوهم في الوعيد ، ووافقوا الاشاعرة في الوعيد ، وخالفوهم بالوعد . وبالتالي ، فأين ما يبرر القول بأن الامامية هم أتباع المعتزلة ؟!. وكيف تنسب الامامية الى المعتزلة ، وقد رووا عن الإمام جعفر الصادق قوله : « لعن الله المعتزلة أرادت أن توحد فألحدت ، ورامت عن أن ترفع التشبيه فأثبتت » [1] . وهذا ما قالته الاشاعرة عن المعتزلة بالحرف الواحد .

(أهم مصادر هذا الفصل أربعة كتب في علم الكلام ، كتابان للسنة : المواقف للايجي ، وشرح التجريد للقوشجي ، وكتابان للشيعة شرح التجريد وكشف الفوائد المتن للمحقق الطوسي ، والشرح للعلامة الحلي) .

---

(١) كتاب « كنز الفوائد » لمحمد بن علي الكراجكي من شيوخ الامامية وثقاتهم ، توفي سنة ٤٤٩ هـ .

الفصل الحادي والثلاثون

مصطلحات فلسفية

أيس ــ هو الوجود • ضد « ليس » النفي • ومن تعابير الكندي « مؤيس الأيسات عن ليس » أي موجد الموجودات عن لا شيء •

الحال ــ هو عند المعتزلة واسطة بين الوجود والعدم ، ويعنون به صفة الشيء ولكن هذه الصفة ليست بالوجود ولا بالعدم ولا بالمعلومة ولا المجهولة !

الخلاء ــ هو خلو المكان عن الشاغل حتى عن الهواء ، اثبته المتكلمون ونفاه الفلاسفة •

الرواقيون ــ نسبة الى الرواق المزخرف الذي نشأ فيه زينون القبرصي (٢٦٤ ق•م•) وفلسفتهم ترتكز على البحث « كيف أعيش » •

الاشراقيون ــ هم القائلون بأن النفس اذا خلصت من الشوائب والموانع امكنها الاتصال بالعقل الفعال[1]، وهي اذا قابلت الشيء يحدث

---

(١) العقل الهيولاني مجرد قابلية النفس للادراك ، وسمي بذلك تشبيها بالهيولى الاولى الخالية عن جميع الصور ، ولكن تقبلها كالطفل القابل بطبعه للكتابة .

العقل بالملكة هو الاستعداد لتحصيل النظريات بعد الحصول على الضروريات ، كالرجل المستعد لتعلم الكتابة .

العقل الفعال استحصال النظريات متى شاء من غير افتقار الى كسب جديد كالذي تعلم الكتابة فانه يكتب متى اراد .

العقل المستفاد هو الذي استحضر النظريات فعلا كالكاتب حين يكتب .

لها عند المقابلة اشراق على الشيء فتراه كما هو •

الطفرة ــ هي أن ينتقل المتحرك من الجزء الاول الى الجزء الثالث دون ان يمر بالجزء الثاني •• ارجــع الى فصل « الجواهر والاعراض » من هذا الكتاب •

القضية الحقيقية ــ هو ما كان الحكم فيها على الطبيعــة الشاملة للافراد الموجودة فعلا ، وللافراد التي ستوجد فيما بعد ، كما لو قيل : كل من بلــغ سن الثامنــة عشرة فهو مالك لأمره ، ولا ولي عليه ، واما القضيــة الخارجية فانها تختص بالافراد الموجودة بالفعل ، كما لو قيل : مات من في السيارة •

القول الشارح ــ هو الكلام الموجب الى التصور دون التصديق ، والحجة توصل التصور والتصديق •

الكمون ــ هو القوة الموجودة في الشيء ، كالنــار في العود قبــل ان يحترق •

المشّاءون ــ كان افلاطون يعلّم الفلسفــة ، وهو ماشٍ فسميت فرقته بالمشائين •

القسم الثاني

نظرات في التصوف
والكرامات

الفصل الأول

التصوف والرهبنة

ما هو التصـوف ؟ وما هي الغـاية المقصـودة منه ؟ وهل هو من الموضوعات الاسلامية الخالصة ، او ان تاريخه يمتد الى ما قبل الاسلام ؟ وبالتالي ، هل الرهبانية هي التصوف بالذات ، او شيء آخر لا يمت الى التصوف بصلة .

ما هو التصوف ؟ :

قد يُظن أن التصوف طريقة تدعو الى ترويض النفس على الفقـر والمسكنة ، ولبس المرقعات ، وحمـل المسابـح ، وترك الكسب والعمل لتحصيل العلم والعيش ، والاقبال على ذكر الله في الخلوات والحلقات .

ولا مصدر لمن فسر التصوف بذلك الا انه رأى فئـة من الكسالى تحترف العيش عن هذه السبيل ، ثم تتستر بذكر الله ، واسم التصوف ، فتخيل ان هذا هو المعنى الحقيقي للتصوف . وبديهة ان الحق لا يُعرف بالرجال ، بل العكس هو الصحيح . ولو أخذنا معنى التصوف من بعض المتنسبين اليه ، والمتسمّين بِسِمَتـِه ، لكنّا كمن يأخذ المسيحيـة عن مقلنَس ، والاسلامَ عن معمم ، ويدَع القرآن والانجيل ، وما فيهما من

تعاليم وأحكام وفرائض .

ولا شيء أدل على ان التصـوف غير الزهـد من ان معنى الزهـد يتحقق بمجرد الاعراض عن الدنيا ومتاعهـا ، اما التصوف فقد اخذ في مفهومه مجاهدة النفس وترويضها ، أجـل ان الزهد ثمرة من ثمـرات التصوف ، وليس هو التصوف بالذات . على ان ابن عربي ، وهو احد شيوخ الصوفية ، قد فسر هذا الحديث القدسي حكاية عن الله سبحانه : « انا الرحمن خلقت الرحم ، وشققت لها اسما من اسمي ، فمن وصلهـا وصلته ، ومن قطعها قطعته » فسّره بأن العمـل في هذه الحياة ضرورة لأزمة لكل انسان صوفيـا كان او غير صوفي . ويتلخص شرحـه لهذا الحديث بأن الله أراد من الرحم الطبيعـة ، فكما ان الرحم تضم الطفـل وتغذيه ، وتحفظ له الحياة كذلك الطبيعة تضم الانسان وتطعمه ، وفيها ينمو ويكبر . اما صلة الانسان للطبيعة فهو ان يجدّ فيها ويعمل ، ومعنى قطعه لها ان يكسل ويهمـل . وقال الشيخ ابن عربي : من بخس حـق الطبيعة فقد بخس حق الله ، وجهل ما فيها من اسرار .

هذا ، الى ان ما يحصل للانسان من الثـواب والنعيم في الآخرة ، وبعد الموت ـ هو من نتائج العمـل في هذه الحيـاة ، فليس الكمـال الاخروي الا من ثمـرات العمل في الطبيعـة نفسهـا ، وهذا معنى قوله تعالى : « وأنْ ليس للانسان الا ما سعى » ومعنى قول الامـام علي : « اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمـل » . وحملُ المسابح ولبس المرقعـات وعقد الحلقات ليس في شيء من العمـل عند الله وعند الناس .

اذن التصوف شيء ، والزهد شيء آخر . وايضا ليس التصوف من الشعائر والعقائد الدينية ، ولا من التقاليد السائدة والنظم الاجتماعية ،

ولا هو حقيقة طبيعية تفرض نفسها فرضا ، وانما هو بأساليب التربية أشبه .. نقول ، مع العلم بأن التصوف بمعناه الشامل لكل فئة تتسم به، وتنتمي اليه ـ لا يجمعه حد ولا رسم ، لان المتصوفة على انواع ، فمنهم من هام بحب الله ، ومنهم من يدعي الاتصال المباشر بالله ، ومنهم القائل بالاتحاد مع الله ، وآخر قال بحلول الله فيه وفي غيره . ومنهم من يقول بالكشف والاشراق ، وما الى ذلك . فالتصوف اذن بمعناه الشامل لجميع النزعات والاتجاهات ليس مذهبا محدود المعالم والمقاصد ، وبالتالي فلا يمكن الاشارة اليه بحد جامع مانع .

وقد ذُكر له تعاريف شتى أنهاها بعضهم الى نيف وسبعين تعريفا . ومهما يكن فنحن نشير اليه بأنه الانتصار على النفس ، والتغلب على ميولها وأهوائها عن طريق التدريب والتهذيب ، تماما كترويض الحيوان المفترس على الوداعة ، فيصبح وادعا مسالما بعد ان كان شريرا مخاصما.

الغاية من التصوف :

اما الغاية المقصودة من التصوف فتختلف تبعا لانظار المتصوفين ، فمن اعتبره سببا من اسباب المعرفة تكون الغاية عنده ثقافية ، ومن رآه طريقا الى الكمال تكون الغاية عنده أخلاقية . ومن اتخذه وسيلة للخلاص من عذاب الآخرة فتكون دينية . وبعضهم يرى التصوف سببا لهذه مجتمعة .

تاريخ التصوف :

ان التصوف بمعناه الشامل لجميع انواعه وصوره ، وكما تبحثه كتب الفلسفة ـ ليس من المسائل والموضوعات الاسلامية الخالصة التي يرجع فيها الى القرآن والحديث النبوي ، بل ان التصوف بمعنى الاتحاد والحلول ووحدة الوجود ينكره الاسلام ، وينفيه نفيا قاطعا . وتاريخ

التصوف يمتـد الى ما قبل الاسلام ، وقد تسرب الى الفكر الاسلامي ، واندمج به كغيره من الافكار الاجنبية • فوحـدة الوجود والحلول قد جاءا من الفلسفة الهندية والافلاطونية الحديثـة ، كما ان البوذية ترتكز تعاليمها على تهذيب النفس وتحريم الملذات •

وقال الباحثون في التصوف : ان الصوفيـة لمسلمين كانوا في اول أمرهم يتلون القرآن ، ويكثرون من العبادة وذكر الله ، ثم تكلم ابو يزيد البسطامي في الفناء بالله ، وهذه الفكرة توجـد في البوذية ، وتسمى « نرفانا » • وقال الباحثون ايضا : ان النصرانية احد منابع التصوف ، وعنها اُخذ لبس الصـوف ، اذ كان كثير من الرهبـان يلبسونه ، والى النصرانية يسند الكلام في حب الله •

الرهبانية والتصوف :

قال بعض المستشرقين : ان الرهبانية المسيحية احد منابع التصوف الاسلامي وتبعه على ذلك جماعة من المصريين ، منهم الدكتور زكي مبارك قال في الجزء الثاني من كتاب : التصوف الاسلامي : « ان المسلمين كانوا يرون المسيح قدوة في الشؤون الروحية ، فانهم عرفوا الانجيل منذ زمن بعيد ، وقد ترجموه ترجمة فصيحة جدا ، ومن تلك الترجمة الفصيحـة شواهد كثيرة في كتب الادب والتصـوف ، كالذي نراه في كتاب عيون الاخبار لابن قتيبة ، وكتاب « الإحياء » للغزالي • والتشابـه كبير جدا بين مذاهب الصوفية في التعبد ، فالنصراني المتبتل يدخـل الكنيسة وفي جيبه كتاب يشتمـل على طوائف من الادعيـة والصلـوات ، والصوفي المخلص يدخل المسجد وفي يده كتاب يشتمل على طوائف الاستغاثـات والاحزاب والاوراد » •

ونحن لا ننكر الرهبانية المسيحية ، كيف ، وقد نص عليها القرآن

الكريم في الآية ٢٨ من سورة الحديد : « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء مرضاة الله ، فما رعوها حق رعايتها » ، كما أثنت الآية ٨٦ على الرهبان والقسيسين : « ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون » •

ولكن تتساءل : هل الرهبانية هي التصوف ؟ وهل القسيسون والرهبان من المتصوفة حقا او انهم رجالُ دينٍ يعيشون معيشة خاصة ، ويتزيون بزي خاص ، يعبدون الله ويقومون بمهمة الدفاع عن العقيدة ، وتعليمها للناس بالوعظ والارشاد ؟

اما نحن فنميل الى ان الرهبانية غير التصوف ، وان رجال الدين شيء فيما المتصوفة شيء آخر ، وبخاصة التصوف النظري الذي هو احد اسباب المعرفة • ومهما يكن ، فلا يمكن الباحث المنصف ان يرجع التصوف بمعناه المتشعب الى اصل واحد محدود •

أجل ، يمكن ان نُرجع الى المسيحية الحب الالهي عند المتصوفة المسلمين ، على أن القرآن الكريم قد صرح به في اكثر من آية ، ولكنه أراد الحب بمعنى الطاعة والانقياد لله والجهاد في سبيله ، لا بمعنى الوجد والشوق •

التصوف والاسلام :

والآن ، ما هو موقف الاسلام من التصوف ؟ هل ينكره او يقره ؟ لقد أشرنا فيما سبق الى أقسام التصوف وأنواعه ، فما كان من نوع مجاهدة النفس ومراقبتها ، والاقبال على الله وعمل الحق ــ فهو من صميم الاسلام ، بل سماه النبي بالجهاد الاكبر ، وسمى الجهاد بالسيف الجهادَ الاصغر •

وما كان بمعنى الاتصال بالله مباشرة وبلا واسطة ، او الاتحاد والحلول فهو كفر والحاد .

وما كان من نوع الشعوذة والمراء ، وادعاء السحر ، وعلم الغيب والكرامات ــ فهو فسق ونفاق . وقد جاء من طرق الشيعة أحاديث كثيرة في ذم التصوف والمتصوفين بهذا المعنى ، والمعنى الذي قبله . وان الصوفية « قطاع طريق المؤمنين ، والدعاة الى نحلة الملحدين ، وانهم حلفاء الشيطان ، ومخربو قواعد الدين ، يتزهدون لراحة الاجسام ، ويتهجدون لصيد الانام ؛ ولا يتبعهم الا السفهاء ؛ ولا يعتقد بهم الا الحمقاء » .

اما أن يكون التصوف سببا من اسباب المعرفة ، وطريقا لبعض المجهولات ؛ اما ان يُلهم القلب الزكي بنوع من الحقائق ــ فله مصدر واضح في الاسلام . ويسمى هذا التصوف بالتصوف النظري . وبعلم القلب . ولعلاقته بالمعرفة دخل في الفلسفة ، وكان بابا من أبوابها ؛ وموضوعا من موضوعاتها . ويشهد لهذا الارتباط قول الرسول الاعظم : « من علم وعمل أورثه الله علم ما لم يعلم » حيث جعل العمل سببا للعلم، تماما كالعلم الذي هو سبب معد للعمل . ويتفق هذا الحديث مع النظرية القائلة ان المعرفة تخضع للنشاط العلمي . كما يخضع العمل للمعرفة ــ مثلا ــ اذا تعلمت مهنة وباشرت العمل بنفسك ، ومضيت مستمرا في ممارستها تفتحت آفاق جديدة تدعوك الى عمل جديد ، واذا تابعت حصلت لك معرفة اخرى ؛ وهكذا الى ما لا نهاية . فالعلم والعمل أشبه برجل يسير في ظلمة حالكة وفي يده مصباح .. فالمصباح يضيء له الجزء الاول من الطريق ، فيقطعه الرجل بسلام . فاذا انتهى منه يصير المشي سببا لاضاءة الجزء الثاني ، فيقطعه الرجل ، كما قطع الجزء الاول . وهكذا يحصل التفاعل بين متابعة السير والاضاءة ، حتى النهاية ، فكل

منهما سبب ومسبب . وفاعل ومنفعل . فالضوء فاعل لانه يهييء للسير على الطريق ، ومنفعل لان المشي يهييء لاضاءة الجزء التالي منه .

وقال الامام علي مشيرا الى ربط المعرفة بالتصوف : « ان الله جعل الذِكر جلاءً للقلوب ، تسمع به بعد الوقرة ، وتبصر به العَشوة ، وتنقاد به بعد المعاندة » . وقال : « ان من أحبِّ عباد الله اليه عبدا أعانه الله على نفسه ، فاستشعر الحزن ، وتجلبب الخوف ، فزهر مصباح الهدى في قلبه » فقد جعل اتصالا بين طاعة الله ، وبين المعرفة . كما ربط بين المعصية ، وبين الجهل في قوله : « من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود اليه أبدا » ، الى غير ذلك من تعاليمه التي تربط بين كل صفة وما يناسبها من الصفات . فالفضائل عند الامام متآخية متشابكة يدعو بعضها الى بعض ، ويطرد كلٌ خلق شريف ما يضاده من الاخلاق الرذيلة ، تماما كالجسم القوي السليم يقاوم الاسقام ، ويزداد قوة ونشاطا . وجاء في القرآن الكريم آية ١٧ من سورة محمد : « والذين اهتدوا زادهم هدى » .

اما الرذائل فهي كأمراض الجسم ، يؤدي بعضها الى بعض ، قال تعالى في الآية ١٢٦ من سورة التوبة : « واما الذين في قلوبهم مرض فزادهم رجسا الى رجسهم » ولما كانت تعاليم الامام متخمة بالحث على الزهد والتقوى ، وتربط بين المعرفة ومجاهدة النفس ، وكانت الدنيا عنده أحقر من عفطة عنز — كما قال — فقد اجتذبته الى نفسها كل فرقة من فرق التصوف ، وانتسبت اليه مدعيةً انها تستقي من مَعينه ، وتستمد من تعاليمه .

قال المستشرق جولد تسهير في كتاب « العقيدة والشريعة » : « ان تقديس علي اصبح عقيدة تحمس لها عدد من البيئات الصوفية ، حتى تغلغلت أحيانا في ثنايا مذهبهم وتعاليمهم » .

اما المعرفة التي يؤدي اليها التصوف فهي معرفة السبب الاول لهذا الكون وأوصافه وأفعاله ، ومعرفة اسرار العالم ، والحكمة المودعة في نظامه وجميع أشيائه ، بخاصة معرفة حقيقة الانسان والغاية من وجوده ، والوجهة التي يجب عليه ان يتجه اليها في حركاته وسكناته (١) .

التوفيق بين الدين والتصوف :

وقد وُجد بين المتصوفين فئة حاولت التوفيق بين التصوف والظواهر الدينية ، كابن عربي ، وعبد الرازق القاساني ، وابن فهد ، وغيرهم . ومن الامثلة على هذا التوفيق قول ابن عربي بان دين الاسلام وغيره من الاديان امرٌ بالحب والإخاء ، والحب يستدعي رفع الحواجز بين الناس، كل الناس ، دون فرق بين المسلم والمسيحي ، والوثني وغيره ، واعلن ابن عربي هذا الرأي :

لقد صار قلبي قابلا كل صورة ... فمرعى لغزلان ودَير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف ... والواح توراة ومصحف قرآن
أدينُ بدين الحب انّى توجهت ... ركائبه ، فالحب ديني وإيماني

وشطح بعض الصوفية القائلين بالاتحاد ، ولم يقف عند حد ، والف بين الكفر والايمان ، واعتبرهما سواء عند الله ، واعطانا هذه الصورة الشعرية ، قال : الكفر والايمان كصفار البيضة وبياضها ، يقوم بينهما حاجز لا يتجاوزانه ، وحين طوى ذو الجلال البيضة تحت جناحيه اختفى الكفر والايمان ، واتحدا في طائر واحد ذي جناحين (٢) .

---

(١) هذا قول الصوفية ، اما نحن فنؤمن بأن التجرد عن الاهواء والاغراض ، والاخلاص لله قوة وعملا يجر الانسان تلقائيا الى الايمان بالله، والى الحكمة التي وصف الله بها الانبياء والصالحين ، وهي معرفة الخير والعمل به ، ومعرفة الشر ، والابتعاد عنه . واليه اشارت الآية : « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا » .

(٢) ان المساواة بين الكفر والالحاد تبتني على وحدة الوجود ، فكل من قال بوحدة الوجود لا يرى فرقا بين الاديان ، ولا بينهما وبين الالحاد .

واذا صرفنا النظر عن النصوص الدينية ، وافترضنا انها لا تؤيد ولا تفنـد التصوف ، ونظرنا الى اهتمـام الامم به منذ أقـدم العصور ، كالبراهمة والصابئة والبوذية والمانوية والمسيحية ـ لو فعلنا هذا لألفينا التصوف شرعة عالمية ، وفلسفة انسانيـة .. وهذا يدعونا الى الظن ان لمجاهدة النفس وتزكية القلب اثرا معقولا ، ونوعا من الارتباط بينه وبين المعرفـة وكشف الحجب . فمن الحمـق والجهـل ان ننفـي هذا الاثر والارتباط « ضربة واحدة » وندّعي بطلانه جملة وتفصيلا ، بخاصة ان العلم لا يقر الاحكام النهائية المطلقة سلبية كانت او ايجابية .

لا تسنن ولا تشيع في التصوف :

ليس التصوف علما كالفقه ، كي ينقسم المختلفون فيه الى مذاهب، كما هو الشأن في اختلاف الاحناف والشافعية والمالكيـة والحنابلة ، ولا هو اصل من اصول العقيدة ، حتى تتعدد الفرق على اساس الاختـلاف فيه . ان الفارق الوحيد بين السنّة والشيعة هو نص النبي بالخلافة على الامام علي ، فمن اثبته فهو شيعي ، ومن نفـاه فهو سني ، ولا علاقـة للتصوف بشتى معانيه بذلك . فالشيعة منهم المتصوف، وكذلك السنّة. والمتصوفون منهم السني ، ومنهم الشيعي ، ولكن متصوفي السنّة اكثر من متصوفي الشيعة. فقد نقل المستشرق نيكلسون عن عبدالله الانصاري انه قال : كان من الفي شيخ صوفي عرفتهم شيعيان اثنان لا غير .

وبهذا يتبين مكان الخطأ فيما نقـل عن ابي المظفر الاسفراييني من ان التصوف مذهب من مذاهب اهل السنّة ، كما يتبين الخطأ في قول من عد المتصوفة فرقة مستقلة عن سائر الفرق الاسلامية . فقد كان الغزالي صوفيا اشعريـا ، وابن سينا صوفيا اماميا ، وغيرهما صوفيا معتزليا ، وكان ابن عربي يدين بالحب الذي يشمل جميع الاديان . وقد اسلفنا ان التصوف وجد في جميع الاديان منذ اقدم العصور . اجل ، ان طريـق

الصوفية واسلوبهم في الاستدلال ، واكتساب المعارف ـ يختلف عن طريق الفلاسفة والمتكلمين ، اما عقائدهم فقد تتفق معهم ، وقد تختلف .

واذا كانت حياة التصوف حياة المجاهدة والتقوى والتأمل فان الشيعة اغنى الناس جميعا في هذا التراث ، فقد رووا عن أئمتهم من المواعظ والحكم والادعية والمناجاة ما لا يبلغه الاحصاء ، وننقل منها قطعة للامام زين العابدين تصور موقفه مع خالقه سبحانه ، ودفاعه عن نفسه اذا أراد اللهعقابه وعذابه . ولسنا نجد في كلمات الصوفية على كثرتها وتنوعها ما يشبه كلام هذا الامام العظيم . فان كلمات الصوفية كلها او جلها من نوع الحب والوجد وبث الاشواق ، او الغزليات والخمريات ، او الاعراض عن الحياة والملذات ، و الترنيم والتنغيم ، او الالغاز والطلاسم ، الى غير ذلك .

اما كلمات الامام زين العابدين فانها تفيض بمعانٍ لم يهتد اليها الصوفيون ولم تخطر لهم على بال ، ولم يبلغه احد من قبل ومن بعد ، قال مخاطبا ربه اذا اراد حسابه وعقابه :

« إلهي ، وعزتك وجلالك لئن طالبتني بذنوبي لاطالبنك بعفوك ، ولئن طالبتني بلؤمي لاطالبنك بكرمك ، ولئن ادخلتني النار لاخبرنّ اهلها بحبي لك ..

إلهي ، ان كنت لا تغفر الا لأوليائك واهل طاعتك ، فالى من يفزع المذنبون ، وان كنت لا تكرم الا اهل الوفاء بك ، فبمن يستغيث المسيئون ..

إلهي ، انك انزلت في كتابك العفو وامرتنا ان نعفو عمن ظلمنا ، وقد ظلمنا انفسنا فاعف عنا ، فانك اولى بذلك مناء

وامرتنا ان لا نرد سائلا عن ابوابنا ، وقد جئتك سائلا فلا تردني عن بابك . وامرتنا بالاحسان الى ما ملكت ايماننا ونحن ارقاؤك ، فاعتق رقابنا من النار ... » .

ثم قال مدافعا باسلوب آخر :

« إلهي ، اني امرؤ حقير ، وخطري يسير ، وليس عذابي مما يزيد في ملكك مثقال ذرة . ولو ان عذابي مما يزيد في ملكك لأحببتُ ان يكون ذلك لك ، ولكن سلطانك اعظم ، وملكك ادوم من ان تزيده طاعة المطيعين ، او تنقصه معصية المذنبين ... » .

أرأيت دفاعا اقوى من هذا الدفاع ! او حجة ابلغ من هذه الحجة ؟! ماذا يصنع الله بعقاب الناس ما دام العفو لا ينقص من ملكه ، والعذاب لا يزيد من سلطانه ؟!.. وقد احتج الامام بنفس الشريعة التي كتبها الله على نفسه وعلى الناس اجمعين ، حيث قال عز من قائل : « كتب ربكم على نفسه الرحمة ... يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . ان الله يغفر الذنوب جميعا . انه غفور رحيم » . ونحن معاشرَ المذنبين لا نطلب من الله الا الرحمة والغفران .. لقد وضع الامام زين العابدين النقاط على الحروف ، وقدم الارقام للحاكم العظيم مع التقديس . واذا كان قول الله حقا وصدقا فان احتجاج الامام جاء وفقا لهذا الحق . وما ابعد ما بين هذا الاسلوب الذي يفتح للناس باب الرجاء ، وبين طريقة مالك بن دينار الصوفي الذي يسد باب الرحمة والرجاء !.

قال له قوم وقد انقطع عنهم الغيث : ادع لنا ربك يسقينا . فقال : انكم تستبطئون المطر ، واستبطىء الحجارة !.

نحن والتصوف :

وتتساءل : هل في هذا التراث الضخم الذي بين ايدينا من التصوف ما يسهل لنا الطريق الى ما نبتغيه من الخير والصلاح ؟ هل باستطاعتنا ان نستنتج من التصوف ما يحمينا من الانحرافات والعثرات ؟

الجواب :

ان التصوف يعتني عناية خاصة بالسلوك العلمي ، ويهتم بتهذيب النفس وصلة الانسان بخالقه ، ويتجه به وجهة روحية ، ويدفعه الى عمل الخير لوجه الخير ، لا رغبة في مال او جاه ، والى ترك الشر للشر ، لا خوفا من السوط والسيف .. ومعنى هذا ان مبدأ التصوف يقر بوجود الفضيلة كحقيقة واقعة لها وجود مستقل عن المشاعر والاستحسانات والرغبات . ومعناه ايضا ان التصوف من مقومات الثقافة والحضارة التي عاشها الاجداد والآباء ، فعلينا ، والحال هذه ، ان ندرسه على اسس جديدة بجد وعناية ، ونقيمه فوق النظريات والافكار التي ترشدنا الى الطريق القويم ، وتسير بنا الى الامام .

واذا كان البعض لا يؤمن كالصوفية بالحدس والكشف ، فنحن نؤمن بأننا في أشد الحاجة الى الحب والاخاء ، والى الشعور بالمسؤولية، وتطبيق القيم الروحية ، ونبغي التوصل الى ذلك بكل وسيلة ، بالقصة والمسرحية والموسيقى والسينما ، والوعظ والارشاد ، وما الى ذلك من المؤثرات الدينية ، والوسائل الفنية التي تتخذ منها رادعا عن الموبقات والانحرافات . ان التصوف اجدى وانفع من هذه الاجهزة ، وأي شيء أبلغ في الايمان والتقوى من قول الامام علي : « اعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » ؟!

وأي قول اوقع في النفس من قول ابن عربي : «أدين بدين الحب» ،

وقول جلال الدين الرومي : « ليس حب الناس الا نتيجة لحب الله » ؟!
وأي شيء اقوى في الشعور بالمسؤولية من قول اويس القرني الذي كان يتصدق بما يزيد عن مأكله وملبسه ، ثم يخاطب الله بقوله : « اللهم من مات جوعا ، فلا تؤاخذني به ، ومن مات عريانا فلا تؤاخذني به » [1] .

اما الذين لا يشعرون بالمسؤولية ، ولا يقولون ويفعلون الا بدافع الربح والتجارة ، اما هؤلاء فدواؤهم ان يجاهدوا انفسهم ، ويراقبوها ، حتى تصبح مأمورة غير آمرة ، وتابعة غير متبوعة ، وان يوقنوا عمليا لا نظريا بانهم مسؤولون امام الله ، ومحاسبون على كل كبيرة وصغيرة ، ومجزيون باعمالهم ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشر . والتصوف كفيل بذلك كله ، كفيل بان يزيل من النفوس والاذهان الفكرة الشخصية ، ويحل مكانها فكرة القانون والعدالة . لقد اعتدنا ان نقول : فلان عظيم، لانه وزير او نائب او مدير ، ولانه يوظف ويعزل ، ويرفع ويضع .. ولا بد للمصلحين ان يبذلوا كافة الجهود لازالة هذه الفكرة ، واستبدالها بفكرة العدالة والكفاءة ، وانهم لواجدون في التصوف خير الوسائل وأجداها الى هذه الغاية .

وبالتالي ، فاذا كانت التربية نظريات وافكارا ، فان التصوف بمعناه الصحيح تطبيق وعمل .

---

(١) شهد له رسول الله بالجنة دون ان يراه ، وقال يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومضر ، وقال له عمر : امر النبي أن نبلغك سلامه . حضر اويس مع الامام في صفين ، واستشهد بين يديه ، وهو من كبار التابعين .

الفصل الثاني
الافلاطونية الحديثة

الحب الآلهي :

قال أحمد امين في الجزء الرابع من ظهر الاسلام ص ١٥٠ : «للتصوف ركنان : الزهادة ، وحب الله » .

وقد اسلفنا ان الزهد [1] غير التصوف ، حيث يعتبر في التصوف مجاهدة النفس ، وترويضها دون الزهد ، فانه يتحقق بمجرد الاعراض عن الدنيا وملذاتها . أما الحب الالهي فقد وجد من بين الصوفية المسلمين من ادعاه ، ودعا اليه ، وعرفه بعضهم بانه الميل الدائم بالقلب الهائم. وقال آخر : انه ايثار المحبوب على جميع المصحوب . وقال ثالث : انه محو المحب بصفاته ، واثبات المحبوب بذاته . ورابع : انه هتك الاستار ، وكشف الاسرار . وخامس : انه لذة في المخلوق واستهلاك في الخالق . وسادس : انه أغصان تنبت في القلب ، وما اشبه ذلك .

وأعترف بأني لم أفهم شيئا من حب الله بهذا المعنى ، اما حبه بمعنى

---

(١) فرق ابن سينا في كتاب «الاشارات» بين الزاهد والعابد والعارف، فالزاهد يترك الدنيا طلبا للآخرة ، والعابد يعمل في الدنيا من اجل الآخرة ، فغاية كل منهما واحدة الا ان الزاهد سلبي ، والعابد ايجابي ، اما العارف فانه يجاهد نفسه ويروضها طلبا للكمال .

طاعته والانقياد له فمعقول ومقبول ، وقد نص عليه القرآن الكريم في الآية ٥٣ من سورة المائدة :

« فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » ولكن الحب بهذا المعنى يرجع الى مجاهدة النفس ، وتحلّيها بالكمال والفضيلة، وعليه فلا يكون قسما من التصوف ، ولا ركنا له .

وقرأت كثيرا مما كتب في هذا الموضوع قديما وحديثا ، واطلعت اخيرا على كتاب « الحب الالهي في التصوف الاسلامي » رقم ٢٤، نشرته المكتبة الثقافية في القاهرة التابعة لوزارة الثقافة والارشاد القومي ، وقد بلغت صفحاته ١٣٧ صفحة ، ورجعت اليه أكثر من مرة آملا ان اخرج منه بمحصّل يمدّني فيما اكتب لهذا الفصل ، ولكني لم احصل على جدوى، ولا شيء اصعب عليّ من ان اكتب في موضوع لا اعقله ولا ادركه ، لذا صرفت الكلام عن الحب الى الافلاطونية الحديثة ، لانها احد منابع التصوف .

ونمهد للافلاطونية الحديثة بالاشارة الى نظرية المُثل عند افلاطون استاذ المعلم الاول ، فقد نسب اليه القول بأن للموجودات صورا مجردة في عالم الإله ، وتسمى هذه الصور بالمثل الالهية ، ومن خصائصها انها لا تفسد ولا تندثر ، فهي أبدية ازلية ، والذي يفسد ويندثر هو هذه الكائنات المشاهدة . وقد فسرت هذه المثل بتفاسير شتى متناقضة متضاربة ، نختار منها تفسير الفيلسوف الشهير محمد بن ابراهيم المعروف بالملا صدرا، هذا مع الاعتراف بان اختيارنا لتفسيره لا يستند الى دراسة وافية ، ثم المقارنة بين ما قيل حولها ، واختيار الاصح والارجح . وانما اخترنا قول هذا الفيلسوف لشهرته ، والثقة بمكانته ، وتبحره في هذا الفن ، فنحن في

مسألة المثل الافلاطونية مقلّدون لا مجتهـدون • وتتلخص اقوال المـلا صدرا ، كما جاءت في الجزء الثاني من السّفر الاول من كتاب الاسفار :

ـ بأن لكل نوع من انواع الكائنات افرادا عديدة ، منهـا هـذه الافراد المشاهدة التي يعرض لها الفساد والعدم ، ومنها فرد واحد تـام كامل يوجد في عالم الجبروت والابداع ، اي عالم ما وراء المادة • وهذا الفرد الكامل لا يفتقر الى شيء ، ولا يتغير ولا يتبدل ، وهو الاصل والمبدأ لسائر افراد النوع التي تفسد وتزول •

وان قال قائل : كيف يكون للنـوع فردان : احدهما كامل قائـم بنفسه ، والآخر ناقص قائم بغيره ؟! وهل يمكن وجود قاسم مشترك يجمع بين شيئين متناقضين ؟

قال صاحب الاسفار في جوابه : لا مانع ابدا ان يصدق العام عـلى أفراد تتفاوت نقصا وكمالا ما دام الكمال في الحقيقة والجوهر ، والنقص في العرض والنسبة الى المحل •

الافلاطونية الحديثة :

في القرن الثاني والثالث الميلادي وجد فلاسفة شرقيون،اسكندريون وسوريون كان همهم واهتمامهم ان يكوّنوا دينا مفلسفا بآراء افلاطون، فالدين من عندهم ، وفلسفته من افلاطون الذي لا يعرف عن هذا الدين كثيرا ولا قليلا • واشهر هؤلاء افلوطين المصري (ت ٢٦٩ م) وتتلخص فلسفته بان وراء المادة موجودا اولا واحدا من جميع جهاته ، وعن هـذا الموجود الواحد صدر قهرا العقل الكلي ، وهذا العقل يحوي في ذاتـه مثل جميع الموجودات • ثم صدر عن العقل الكلي النفس الكلية، وعنها صدرت جميع الموجودات بواسطة النفوس الجزئية وفقا للمثل الموجـودة في العقل الكلي • وهذه الاربعة ، اي الاول الواحد ، والعقل الكلـي ، والنفس الكلية ، والموجودات ـ متشابكة مترابطة متراصة تشترك فـي

جميع الخصائص • ومن هنا كان افلوطين مسوقا الى وحدة الوجود ، أراد ذلك ، او لم يرد • ويؤيد ذلك ما نسب اليه من ان الموجودات المادية تتحول في النهاية الى الوجود الاول ، وتفنى فيه ، تماما كالبخار الذي تحول من الماء ، ثم يتحول اليه •

والمعرفة عند افلوطين تنحصر بالذوق والكشف ، أي بالمعرفة القلبية، ولا قيمة لغيرها مهما كان نوعها • ومن اقواله « يجب عليّ ان ادخل في نفسي ، ومن هنا استيقظ ، وبهذه اليقظة اتحد بالله » ، وقال : « يجب أن أحجب عن نفسي النور الخارجي ، لكي أحيا وحدي في النور الداخلي » وقال ايضا : « اني ربما خلوت الى نفسي ، وجعلت بدني جانبا ، وصرت كأني جوهر مجرد بلا بدن ، فأكون داخلا في ذاتي راجعا اليها خارجا من سائر الاشياء ، فأكون العلم والعالم والمعلوم جميعا » •

ولما كان صدور العالم عن الاول بالطبع لا بالارادة فلا يسمى هذا الصدور فعلا ، بل اشعاعا ، وانبثاقا وفيضا مهما شئت فعبِّر ، تماما كما يشع ضوء الشمس من الشمس ، وكما يبعث اللهيب الضوء والنور (١) •

وقال فورفوريوس (ت ٣٠٤م) ، وهو تلميذ افلوطين : « ان الغاية من الفلسفة هي الخلاص من الشرور بمجاهدة النفس ، والقضاء على شهواتها وبهذه المجاهدة تتوصل الى معرفة الله » •

واذا تأملنا ما تحويه الافلاطونية الحديثة من وحدة الوجود الاول، ومجاهدة النفس ، ثم الكشف والمعرفة القلبية ـ ظهر لنا جليا ان هذه الافلاطونية من اهم المنابع للتصوف الاسلامي •

---

(١) قال يوسف كرم في تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٢٩٧ الطبعة الرابعة : « ترجمت بعض رسائل افلوطين الى القرن الرابع ، فوجد فيها القديس اوغسطين عونا كبيرا ، ووضع الافلاطونية المسيحية » اي ان الافلاطونية الحديثة مصدر للافلاطونية المسيحية .

الفصل الثالث

التأويل

التأويل هو تفسير اللفظ بمعنى لا يدل عليه الظاهر ، بحيث يدل اللفظ على شيء ، ويفسر بشيء آخر ، كتفسير الاسلام بالدار ، لانه جامع لاهله ، والجنة بالمأدبة ، لان فيها ما تشتهي الانفس ، فقد جاء في الحديث الشريف « ان الله سبحانه جعل الاسلام دارا ، والجنة مأدبة ، والداعي اليها محمد » .

وبعد ان اتفق المسلمون كلمة واحدة على وجوب العمل بالكتاب والسنة اختلفوا : في انه هل يجب الوقوف عند ظواهر النصوص الواردة فيهما ، أو يجوز تأويل اللفظ بما يخالف الظاهر ؟ فمنهم من قال بوجوب الوقوف عند ظاهر اللفظ مطلقا ، حتى ولو خالف حكم العقل ، ومنهم من قال بجواز التأويل ، بل بوجوبه في بعض الحالات ، وذلك اذا تصادم الظاهر مع العقل ، ومنهم من قال بجواز التأويل مطلقا ، ولو كان الظاهر موافقا لحكم العقل ، وهؤلاء جماعة من الصوفية ، ومن اجلهم عقدنا هذا البحث .

الوقوف عند الظاهر :

ان الذين أوجبوا الوقوف عند ظواهر النصوص ذهبوا الى ان

الحسن والقبح . ومعرفة الله ــ كل ذلك يجب بالشرع لا بالعقل. وقالوا ايضا : ان الانسان مسير لا مخير اهمالا لحكم العقل ، واخذا بظاهر الآية ٩٦ من الصافات : « الله خلقكم وما تعملون » والآية ١٦ من الرعد: « الله خالق كل شيء » ، واتفقوا ايضا على ان الله يُرى بالمشاهدة ، وان له سمعا وبصرا لظاهر الآية ١١ من الشورى · « وهو السميع البصير » .

ثم اختلف هؤلاء الظاهريون فيما بينهم ، فمنهم ، وهم السنيون الحرفيون ويعبر عنهم بالحشوية ، وبأهل السلف قالوا : ان لله سمعا وبصرا ، تماما كسمعنا وبصرنا ، وانه يشاهد بالعيان في الدنيا والآخرة . ومنهم ، وهم السنيون الاشاعرة قالوا : ان الله يرى في الآخرة ، لا في الدنيا ، وان سمعه وبصره يليقان بذاته ، وليسا كسمعنا وبصرنا .

ومهما يكن ، فان كلا من الحشوية والاشاعرة يثبت لله جميع الصفات ، كما وردت في ظاهر القرآن والسنة دون تأويل وتصرف ، واذا اختلفا في شيء ففي الاسلوب فقط ، أما عند ظاهر النص فمحل وفاق بينهم . ونقل عن الاشاعرة « ان مذهبهم يعتمد على الوحي أكثر من اعتماده على العقل ، بل صرح الاشعري بان النظر العقلي المستقل عن الوحي لا يجوز أن يؤخذ طريقا الى العلم بالشؤون الالهية ، وهو ــ أي الاشعري ــ وان رأى ان العقل في وسعه ان يدرك الله الا ان هذا العقل عنده ليس الا اداة للادراك ، اما الطريق الوحيد لمعرفة الله فهو الوحي ، ومن هنا قيل : ان الاشعري لم يكن مجددا مبتكرا بقدر ما كان جامعا للآراء موفقا بينها .. بل ان العقل عند الاشاعرة لا يوجب شيئا من المعارف ، ولا يقتضي تحسينا ولا تقبيحا ، ومعرفة الله بالعقل تحصل ، وبالسمع تجب » (١) .

ومع الشواهد على ان الاشاعرة لا يعتبرون العقل نرى انهم يجيزون

---

(١) كتاب « اسس الفلسفة » لتوفيق الطويل ص ٣٩٥ طبعة ١٩٥٥ .

على الله أن يأمر بما لا يريد ، وينهى عما يريد ــ مستندين في ذلك الى انه تعالى نهى آدم أن يأكل من الشجرة ، ثم قضى عليه ان يأكل منها، وأمر ابليس ان يسجد لآدم ، ثم حال بينه وبين السجود [1] .

واختصارا ان العقل لا شأن له ولا وزن عند السنة الحرفيين والسنة الاشاعرة ، فهو لا يدرك الخير والشر ، والحسن والقبح ولا الاسباب بين الاحداث الطبيعية ، ويخير أن يرى الله عيانا ، وان يأمر بما يكره ، وينهى عما يحب ، وان يكلف بما لا يطاق ، وان يعذب المؤمن الطيب ، ويثيب الكافر الخبيث ، وما الى ذلك ، من الاقوال والآراء التي تدل بصراحة ووضوح على الفصل بين العقل والشرع .

تقديم العقل على الظاهر :

قال المعتزلة : اذا تعارض ظاهر النص مع العقل وجب تأويله بما يتفق مع منطق العقل ، وعلى هذه السبيل قالوا : ان الحسن والقبح يُدركان بالعقل لا بالشرع ، وان الانسان مخيَّر لا مسير ، وان الله يرى بالبصيرة لا بالبصر ، وان سمعه وبصره كناية عن علمه تعالى ، وان معرفة الله تجب عقلا لا شرعا .

وقول المعتزلة هذا يتفق كل الاتفاق مع قول الامامية بأن الشرع والعقل لا يتصادمان بحال ، لان العقل شرع من الداخل والشرع عقل من الخارج ، والعقل يهتدي بالشرع ، والشرع يُعرف بالعقل ، فهما ابدا ودائما متحالفان متآزران ، كل منهما يحكم بما يحكم به الآخر . وقد روى الشيعة عن أئمتهم ان من لا دين له لا عقل له ، وانه ما عبدالله احد

---

(١) « المذاهب الاسلامية » لابي زهرة ص ١٩١ .

بشيء مثل العقل [1] وكيف يطيع الانسان اوامر الله ونواهيه بدون العقل؟! ثم كيف يتنافى العقل مع الدين ويفصل بينهما ، وقد امر الدين باتباع العقل قال الله تعالى : « فاعتبروا يا اولي الالباب » وقال : « ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » وقال في آيات كثيرة : ألا يعقلون ؟!.. ألا يتفكرون . وما الى ذلك من الآيات والاحاديث التي تعتبر العقل اساسا للدين . قال محسن الفيض [2] في كتاب « عين اليقين: « العقل كالاساس ، والشرع كالبناء ، ولن يثبت بناء ما لم يكن اساس ، ولم يغن اساس ما لم يكن بناء » . واشترطوا لصحة التأويل شرطين اساسيين : الاول ان لا يستقيم المعنى لو بقي الظاهر ، كما هو . الثاني أن يكون بين المعنى الظاهر ، والمعنى الذي يؤول به اللفظ مناسبة وموافقة، ومثاله تفسير اليد بالقدرة في قوله تعالى : « يد الله فوق ايديهم » لان اليد مظهر للقدرة .

الظاهر والباطن :

قال جماعة من الصوفية : ان للنصوص الشرعية ظاهرا ، وباطنا ، والظاهر هو النص الجلي الواضح ، تماما كالصورة المحسوسة الملموسة، والنص الخفي هو الدقيق الغامض كالارواح المحجوبة عن العيان ، وقد جاء في الاحاديث النبوية ان للقرآن ظهرا وبطنا ، وان لبطنه سبعة أبطن ، وفي حديث آخر سبعين بطنا ، اما السبب لتعدد البطون فهو ان احوال الناس مختلفة متباينة . وعلى الحكيم ان يخاطب المستمعين حسب افهامهم

---

(1) نقل الدكتور توفيق الطويل في كتاب « اسس الفلسفة » ص ٢٩٠ عن « كارادي فو » ما نصه بالحرف الواحد « التشيع رد فعل لفكر حر طليق يقاوم جمودا عقليا بدا في مذهب اهل السنة» قال ثم قال الدكتور : «كان للشيعة فضل ملحوظ في اغناء المضمون الروحي للاسلام ، فان بمثل حركاتهم الجامحة تأمن الاديان التحجر في قوالب جامدة » .

(2) من علماء الامامية ، وله مؤلفات كثيرة في الفلسفة والاخلاق والمناقب وغيرها ، توفي سنة ١٠٩١ هـ.

وواقعهم ، فمنهم من يخاطب بالظاهر فقط ، لانه لا يفهم سواه . ومنهم من يخاطب بالباطن ، لانه يدركه ويفهمه . ثم ان اهل الباطن على مراتب في عمق الفهم وبعد الادراك ، فمنهم من يخترق ادراكه حجابا واحدا ، ومنهم من يخترق أكثر من حجاب الى سبعين . والمدير الحكيم يخاطب كلا حسب ما بلغ اليه من درجات الفهم والادراك .

وايضا ان الله سبحانه خلق عالمين : عالم الشهادة . وهو عالمنا هذا الذي نحياه ، ونعيش فيه ، وعالم الغيب ، وهو عالم ما وراء الطبيعة . وكل شيء في عالم الشهادة ، له اصل في عالم الغيب . وهذا الاصل هو الروح والحقيقة واللب الموجود في عالم الشهادة ، فيما هذا الموجود هو قشر لذلك اللب ، وجسد لتلك الروح . وكما ان القشر ظاهر ، واللب باطن . كذلك الموجودات في هذا العالم هي ظواهر واشارات الى الباطن الذي هو اللب والحقيقة ، ومن اجل هذا قيل : ان الدنيا طريق الآخرة .

الجواب :

ان هذا الزعم لا يستند الى دليل . فان الله سبحانه قد كلف الناس جميعا بتكليف واحد ولم يفرق بين فئة وفئة ولا بين فرد وفرد ، وخاطب الجميع بالقرآن الكريم وأوجب عليهم العمل به ، ومحال ان يأمرهم بأشياء لا يفهمونها ولا يهتدون اليها ، كيف وقد وصف الله القرآن بأنه عربي مبين ؟! قال في الآية ١٠٣ من النحل : « وهذا لسان عربي مبين » وفي الآية ٢٨ من الزمر ، « قرآنا عربيا غير ذي عوج » الى غير ذلك من الآيات. هذا الى ان في القرآن آيات لا يمكن ان يكون وراء الظاهر شيء كقوله تعالى « محمد رسول الله » وقوله : « قل هو الله احد » .

ومن مزاعم هؤلاء ان ظاهر الشرع لعامة الناس ، وباطنه للخواص العارفين ، فالعبادة كالصوم والصلاة لا تجب على الصوفي العارف ، وانما

تجب على العامة ، لان الغايـة من العبادة هـي الوصول ، ومتى وصل العارف فقد بلغ الغاية . وانتهى كل شيء . ولم يبق للوسيلة مـن أثر . فالدين ليس عقيدة يعتقدها الناس . ولا شعيرة يؤدونها بين مجموعة من الاحجار تسمى معبدا . وانما العقيدة هي الاعتقاد الحق بالله الذي يستلزم الانصراف الكامل عن الخلق . والمعبد الحق هو القائم في القلب المقدس .

عظة وعبرة :

ولهم في اشارات الظاهر الى الباطن أقوال لا تخلو من عظة وعبرة . منها هذا الحوار الطريف الذي دار بين الجنيد [1] وبين حاج فرغ مـن حجه :

قال الجنيد للحاج : هل رحلت عن جميع ذنوبك حين رحلت عـن دارك قاصدا بيت الله الحرام ؟.

الحاج : لا .

الجنيد : اذن انت لم ترحل . ثم قال له :

وحين لبست ثوب الاحرام ، هل خلعت صفات البشرية عنك ، وأنت تخلع ثيابك ؟

الحاج : لا .

الجنيد : اذن انت لم تـُحرم . ثم قال له :

وحين وقفت بعرفة ، هل عرفت الله حقا ؟

الحاج : لا .

الجنيد : أنت لم تقف بعرفة . ثم قال :

---

(١) احد ائمة الصوفية . توفي سنة ٢٩٧ هـ.

وحين أفضت الى المزدلفة ، هل رفضت جميع الاغراض الجسدية ؟
الحاج : لا .
الجنيد : أنت لم تفض الى مزدلفة . ثم قال :
وحين طفت بالبيت ، هل ادركت الجمال الالهي في بيت الطُّهر ؟
الحاج : لا .
الجنيد : أنت لم تطف بالبيت . ثم قال :
وحين سعيت بين الصفا والمروة ، هل ادركت الصفا والمروة ؟
الحاج : لا .
الجنيد : أنت لم تسع . ثم قال :
وحين جئت الى منى ، هل ذهبت عنك جميع المُنى ؟
الحاج : لا .
الجنيد : أنت لم تزر منى . ثم قال :
وحين نحرت القربان ، هل نحرت الشهوات والغايات ؟
الحاج : لا .
الجنيد : أنت لم تنحر . ثم قال :
وحين رميت الجمار ، وبالتالي ، هل رميت أفكارك السوداء ؟
الحاج : لا .
الجنيد : أنت لم ترم الجمار . وبالتالي ، أنت لم تفعل شيئا .

ولست اخفي على القـارىء ان هذا الحوار قد ترك في نفسي اثرا بالغا ، من حيث لا اريد ولا اشعر . على الرغم اني من المؤمنين بـوجوب

الحج تعبدا على من استطاع اليه سبيلا ، وان لم يتعظ من الله بواعظ ، ويزدجر منه بزاجر ، ولكنني من المؤمنين بقوله عز من قائل :

« يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم — ٨٩ الشعراء » وهكذا سائر العبادات ، فان لكل ظاهر منها باطنا يقابله ، فالصلاة ظاهرها الركوع والسجود ، وباطنها الجذب والمعراج الى الله . وحفظ القلب عمن سواه ، وتذلل له لا لغيره . والطهارة ظاهرها غسل الاعضاء ، وباطنها التطهير بالعلم ، وما يستدعيه من الكمال ، حتى قوله تعالى : « وثيابك فطهر » معناه وقلبك فطهر .

للتسلية :

وهنالك تأويلات واشارات نذكرها للتسلية ، مثل قولهم بأن الالف في « الم اشارة الى الله ، واللام الى جبريل ، والميم الى محمد، وان قصة موسى وفرعون في القرآن تشير الى صراع النفس التي ترمز اليها لفظة فرعون ، والنفس المطمئنة التي عبر عنها بلفظة موسى، وان معنى يذبحون ابناءكم ، يذبحون فيكم الصفات الحميدة ، ومعنى يستحيون نساءكم يستبقون الشهوات الحيوانية ، وقالوا في تفسير قوله : « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » : ان الانسان قبل ان يوجد كان صائما عن الاهواء وبعد ان وجد كتب عليه ان يكون بعد وجوده ، كما كان قبل وجوده !..

اما قول الرسول (ص) صوموا للرؤية ، وافطروا للرؤية فمعناه امسكوا العقول عما يصرفها عن الله ، فاذا رأت الله فلا يضركم ان تأكلوا وتشربوا . وفسروا قوله تعالى : « انزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا » فسروا الماء بالعلم، والاودية بالقلوب، والزبد بالضلال ، الى غير ذلك من الاوهام والتخيلات .

وقد يستحسن القارىء شيئا من هذا التفسير والتأويل ، حيث يسمو بالانسان عن الظواهر والاشكال ، ويكشف له عن اشياء جديدة وعميقة ، ولكن الاستحسان شيء ، ودلالة اللفظ شيء آخر ، فقولك : النظام خير من الفوضى حق وحسن في نفسه ، ولكن لفظة حجر وحديد لا تدل عليه من قريب او بعيد .

العبادة تجارة :

وقال قائل منهم : يجب الغاء العبادات كلها من الاساس ، فلا صيام ولا صلاة ، ولا حج ، ولا شيء على احد ابدا ايا كان من الخاصة او العامة ، لان هذه سبيل النفاق والرياء يتحذها المرتزقة وسيلة للعيش ، واداة للكسب وشبكة للصيد !.. سمع هذا القائل ، او من هو على شاكلته مؤذنا يصيح على المئذنة ، فقال له : سم الموت .

وفي الوقت نفسه سمع كلبا ينبح ، فقال : لبيك وسعديك .. ولما سئل عن السبب قال : ان المؤذن ذكر الله بنفس ملوثة ، واخذ الاجر على الأذان ، ولولاه لم يتعرف على الله ، ولم يذكره بشيء . اما الكلب فانه سبح بحمد الله لا للاجرة ، وبنفس طاهرة صافية . وسمع مرة اسم آدم، فقال : ومن آدم ؟! هذا الذي باع ربه بلقمة !.. وبعضهم كان يعطف على إبليس وفرعون ، ويعتذر عنهما .

وليس من شك ان الكثير ممن عرفنا ، وممن لم نعرف قد اتخذوا من الدين والعبادة حانوتا للتجارة (١) ولكن هذا ليس نقصا في العبادة

(١) في جريدة الجمهورية المصرية عدد ١٧ شباط سنة ٦١ ان الولايات المتحدة جمعت اللصوص المجرمين ، وسلمتهم للقسيسين والرهبان ، واعطتهم الاموال باسم اغاثة اللاجئين ، وتعليم الدين واوعزت الى رجال الدين ان يدلوهم على عمليات التخريب حتى اذا اتقنوها ارسلتهم الولايات المتحدة الى كوبا . ليحدثوا الفوضى والاضطراب !.. واني اعرف «رجالا» يلبسون ثوب الدين ، ويتلقون اوامر شيطانية من المتزعمين ، ويعملون في الخفاء لما يلعنهم به اهل الارض والسماء .

كحقيقة دينية ، وانما النقص في الذين يتاجرون بالدين .. تماما كالذين يسيئون استعمال الحرية والسلطة والقانون والطب والادب ، وما الى ذلك ، فان وجودهم لا يستدعي الغاء التطبيب ، واهمال الادب ، ولا يبرر الديكتاتورية والفوضى . ان المشكلة ليست مشكلة العبادة والمعابد ، بل مشكلة المحترفين بها ، ففيهم يكمن الداء ، لا في العبادة ، فيجب القضاء عليهم ، لا عليها ، والمريض لا يداوى بالقضاء عليه ، بل بالقضاء على المرض .

الفصل الرابع

التنسك

الانبياء والاولياء :

جاء في كتب التفسير والمواعظ ان موسى كليم الله (ع) كان غالب قوته من نبـات الارض ، واوراق الشجر ، وقد هزل حتى دق عظمه ، وانهضم لحمه ، وحتى بانت الخضرة من ظـاهر بطنه ، وحتى ناجى ربه سائلا متضرعـا : « ربّ اني لما انزلت الي من خير فقير » قال الإمـام علي بن ابي طالب (ع) : والله ما سأله الا خبزا يأكله .

وان عيسى روح الله (ع) كان يفترش الارض ، ويتوسد الحجر ، ويقتات النبات ، ويقول : دابتي رجـلاي ، وخادمي يـداي ، وفراشي الارض ، ووسادي الحجر ، وسراجي القمر ، ودفئـي مشارق الارض ، وادامي الجوع ، وشعاري الخوف ، وليس لي ولد يمـوت ، ولا امرأة تحزن ، ولا بيت يخرب ، ولا مال يتلف ، أبيت وليس لي شيء ، واصبح وليس لي شيء ، فانا اغنى ولد آدم .

وان محمدا رسول الله (ص) لم يشبع هو واهل بيته غدوة الا جاعوا عشية ، ولم يشبعوا عشية الا جاعوا غدوة ، قالت عائشة ، كان يأتي علينا

اربعون ليلة لا نوقـد في بيت رسول الله نارا ولا مصباحا • فقيل لها : فبِم كنتم تعيشون ؟• قالت : بالاسودين . التمر والماء • ودخل عمر على رسول الله (ص) فوجده على حصير قد اثر في جنبه ، فكلمه في ذلك • فقال : مهلا يا عمر ، اتظنها كِسروية ؟!•

اما علي بن طالب فكان كما قال عبد الله بن عباس : كانت الدنيـا اهون عليه من شلح نعله ، وكانت نعله من ليف لا تساوي كسر درهم ، قال ابن عباس : دخلت على امير المؤمنين ، وهو خليفة ، فوجدته يصلح نعله • فقلت له : ماذا تصنع ؟!• دعنا من هذه ، فلم يكلمني حتى فرغ ، ثم ضمهما ، وقال : قوّمهما • قلت لا قيمة لهما • قال قومهما على ذلك • قلت : كسر درهم • قال : والله لهي احب الي من امركم هذا الا ان اقيم حقا ، او ادفع باطلا • وقال سويد بن غفلـة : دخلت على امير المؤمنين بعدما بويع بالخلافة ، فوجدته جالسا على حصير صغير ، وليس في البيت غيره • وكان يأتيه المال فيوزعه على الناس ، ولا يبقـي لنفسه شيئا ، ثم يحمل مسحاتَه ، وينطلق بها الى العمل في الارض ، وكذا زهد في الدنيا جماعة من الاصحاب والتابعين واكابر الدين •

تساؤل :

ونتساءل : لماذا تنسّك الانبياء ، ومن سار على سننهم من الائمـة والاولياء ؟ لماذا زهدوا في الدنيا ، ورضوا منها بالكفاف ، او بما دونه ؟ هل لان التنسك حسن وخلق كريم ، يُطلَب لذاته كغاية لا كوسيلة الى غيره ؟ او ان الانبياء والاولياء تنسكوا ، لان الدنيـا ليست بالشيء ، ما دامت ممرا لا مقرا ، او «كمنزل راكبٍ اناخ عشيا وهو في الصبح راحل» فهي ، وهذه حالها ، لا تستأهل العناية والاهتمام ، او انهم تنسكوا لان التنسك يفتح لهم ابواب المعرفة الى حقائق الغيب وعالم الملكوت ، كما

يقول اصحاب التصوف النظـري ، او لانهم ارادوا ان يقدّروا انفسهم بالضعفاء والبؤساء ؟..

وبديهة ان افعال الانبياء ليست كأفعـال النـاس تفتقر الى ادلـة تبررها ، بل هي بنفسها الحجة والدليل والمقياس الذي تقاس به الحقائق، ويعرف الخطأ من الصواب ، هي الهدي والنور الذي يهـدي للّتي هي اقوَم .

الجواب :

ان الزهد والتنسك غير مطلوب ولا محبوب في ذاته ، فقد نهى الله سبحانه عن حرمان النفس مع القدرة والاستطاعـة ، فقال عز من قائل : « ولا تنس نصيبك من الدنيـا » وقال : « لا تحرّموا طيبـات ما احل الله » وقال : « قل من حرَّم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبـات من الرزق » وقد تعوذ النبي (ص) من الفقر ، كما تعوذ من الشيطان ، وقال علي (ع) لولده محمد : يا بني اني اخاف عليك الفقر ، فاستعذ بالله منه. ولا شيء ادل على ان الزهد ليس بالمكانة القصوى عند أئمة العلم والدين من قول الإمام الباقر : « أعلى مراتب الزهد ادنى مراتب الورع » .

واما وصف الدنيا بأنها حلم وممر فلا يستدعي اهمالها وعدم العناية بها ، واذا كانت حلما فلتكن حلما عذبا لا عذابـا ، وممرا سهلا لا عسر فيه ، واذا كانت لا تعادل عند الله شيئا ، لانه في غنى عنها ، فنحن في اشد الحاجة اليها ، لاننا منها ، وهي منا . ومن هنا كان لاغاثة الملهوف وعمل المبرات والخيرات المنزلة الاولى عند الله، وكان اهل المعروف في الدنيا هم اهل المعروف في الآخرة. ان في الانسان، اي انسان ـ ولو كان معصوما ـ رغبة ذاتية في الاستمتاع بالحياة وملذاتهـا .. نقل صاحب « سفينـة البحار » في مادة « كبد » عن كتاب « مصباح الانوار » ان امير المؤمنين

علياً اشتهى كبدا مشوية في خبزة لينة ، فذكر ذلك لولده الحسن . فصنعها له ، وكان صائما ، فلما اراد ان يفطر قدمها اليه . وما ان مد يده، حتى وقف سائل في الباب ، فقال : يا بني احملها اليه • ومن ذا الذي لا يريد ان تكون له زوجة شابة جميلة عفيفة موافقة ، تقدم له طبقا فيه ما لذ وطاب ؟!• ان هذا وما اليه ليس محظورا ، ولا مكروها ، وانما المحظور ان تأخذ ما ليس لك بحق ، وان تتنعم على حساب غيرك •

واما ان الانبياء تنسكوا توصلا الى معرفة الحقائق فبعيد عن الصواب ، لانهم في غنى عن ذلك ما دام الوحي ينزل عليهم من السماء تلقائيا بدون عملية التفكير ، ولا رياضة النفس ، التي ان انتجت فلا تنتج يقينا كالوحي الذي لا يقبل الشك والريب •

فلم يبقَ لزهدهم وتنسكهم من سبب الا الرغبة في المساواة بينهم وبين المستضعفين والمحرومين ، والا الثورة على الذين لا يَعبأون بأي قيد من قيود الدين والاخلاق • ان الانسان يندفع بفطرته نحو السعادة بشتى معانيها ، سواء في ذلك العارف المخلص وغير المخلص ، والفارق الوحيد بين الاثنين ان المخلص يحترم هذا الدافع والشعور عند غيره ، ويفسح له مجال العمل ، والسعي لتحقيق هذه السعادة ــ بل يجاهد ، ويكافح ليحقق الخير للجميع بدرجة متساوية بين الناس جميعا• فالسعادة في نظره امر عام لا خاص ، فاذا لم تتحقق بمعناها الشامل الكامل انصرف عن الاهتمام بنفسه ، وساوى الضعفاء في بؤسهم وشقائهم • اما الانتهازي المحترف فعلى العكس ، لا يرى السعادة الا في الاستئثار والاحتكار •

وبعبارة ثانية ان الخيِّرين ينظرون الى جميع الناس كاسرة واحدة في بيت واحد ، يستوون في الهناء والشقاء ، فان استطاعوا ان يحققوا السعادة للجميع فذاك ما يبتغون ، والا قدروا انفسهم بالضعفاء • قال

العلاء بن زياد الحارثي للامام علي (ع) ، وكان من اصحابه ، قال له : اشكو اليك اخي عاصما . قال : ما له ؟ قال : لبس العباءة ، وتخلى عن الدنيا . قال : عليّ به . فلما جاء ، قال له : يا عدو نفسه ، لقد استهام بك الشيطان ، اما رحمتَ اهلك وولدك ؟! اترى الله احلّ لك الطيبات، وهو يكره ان تأخذها ؟! انت اهوَن على الله من ذلك .

قال عاصم : يا امير المؤمنين هذا انت في خشونة ملبسك ، وجشوبة مأكلك ! قال : ويحك ، اني لست كأنت . ان الله فرض على أئمة العدل ان يقدروا انفسهم بضعفة الناس ، كيلا يتبيّغ بالفقير فقره ، ان يهيج به ألم الفقر فيهلكه . وقول الامام « استهام بك الشيطان » يدل على ان التنسك مكروه الا لغاية حميدة ، كالمساواة وما اليها .

هذي هي فلسفة الزهد المرغوب فيه ، انه نظام المساواة يطبقه المخلصون على انفسهم بالافعال قبل الاقوال . وهو في الوقت نفسه رد فعل لترف المترفين ، واحتجاج على من يتنعمون على حساب المظلومين . كان أُويس القرني ، وهو إمام الصوفية وسيدهم ـ يتصدق بما يزيد عن مأكله وملبسه ، ثم يخاطب الله بقوله : « اللهم من مات جوعا فلا تؤاخذني به . ومن مات عريانا فلا تؤاخذني به » .

وليس عمل أُويس هذا تضحية ، وكفى ،بل وحجة دامغة تدين المحتكرين بقتل من يموت جوعا وعُريا.. وكان اويس من التابعين ادرك الصحابي الجليل أبا ذرٍّ الذي ثار على تصرفات عثمان في اموال المسلمين، واسراف معاوية في البذخ ، وبناء الدور والقصور . وبهذا يتبين ان التصوف الاسلامي نشأ اول ما نشأ احتجاجا على الاثرياء الذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها في سبيل الله ، ثم تطور مع الزمن الى تصوف نظري ، جعلوه سببا من اسباب المعرفة ، ثم الى الاتحاد والحلول،

ثم الى حلقات الذِكر ، ولبُس المرقعات ، والاستجداء ، وشرب الافيون وما الى ذلك .

الشواهد :

ومن الشواهد على ان التصوف كان عند الصفوة والاخيار ثورة على حكام الجور والطبقة المستغلة جهاد ابي ذر وكفاحه ضد الحاكمين في عهده . ومنها ما جاء في ترجمة الجنيد انه « كان اللواء الذي ارتفع لتنتظم حوله كتائب المؤمنين المناضلين ضد الانحلال والتخاذل والمادية التي بدأت تطغَى على المجتمع الاسلامي » (١) . ومنها وصايا الصوفية « لا تأخذ اكثر مما تحتاج » . ومنها ان هارون الرشيد كان يسير ، وبين يديه الاحمال والخدم والعبيد ، فصاح صوفي ، قائلا : يا هارون أتبعتَ الناس والبهائم . وقال له صوفي آخر : ان كل واحد من الناس مسؤول عن نفسه ، وانت مسؤول عن جميع الناس .

ومنها ان المأمون اشرف يوما من قصره ، فرأى فقيرا بيده فحمة يكتب بها على حائط القصر الذي يقيم به المأمون هذين البيتين :

يا قصر جُمّع فيك الشؤم واللؤم
متى يعشش في أركانك البوم
يوماً يعشش فيك البوم من فرحي
اكون اولَ من يرعاك مرعوم

فقال له المأمون : ما حمَلَك على هذا ؟! فقال : لقد حوى قصرك من خزائن الاموال والحلي والحلل ما لا يعد ولا يحصى ، والناس تموت جوعا حتى كأن الدنيا لك دون سواك ، ثم انشد :

(١) شخصيات صوفية لطه سرور ص ١١٩ طبعة ١٩٤٨ .

اذا لم يكن للمرء في دولة امرىء
نصيب ولا حظ تمنى زوالها

الى غير ذلك من مواقفهم التي لا يبلغها الاحصاء .

وكان الصوفية يسلكون في تقريع الحكام وتأنيبهم شتى الطرق والاساليب . قال ابن السماك للرشيد : لو حُبست عنك شربة ماء اكنت تفديها بمُلْكك ؟ قال : نعم قال : لو حبس عنك خروجها اكنت تفديها بملكك ؟ قال : نعم . قال : ما خير ملكٍ لا يساوي شربة ولا بولة ؟.

وحاول الساسة ان يشتروا من الصوفية دينهم وضمائرهم . وان يدفعوا ثمن السكوت عن ظلمهم ومساوئهم بالغا ما بلغ ، بل حاول الكثير منهم ان يتخذوا من الزهاد والعبّاد اداة لبث الدعاية ، ونشر ما يحبون ان يتّصفوا به من العدل والايمان فرفض المخلصون ، واستجاب المحترفون . قال زكي مبارك في كتاب « التصوف الاسلامي » ج ٢ طبعة ١٩٥٤ ص٣٣٨ : «والشعراني نفسه استخدمه حكام عصره في تجميل سمعتهم بين الناس . ودفعوا ثمن ذلك بالسكوت عن اوقاف زاويته ، وكانت تحيط بها شبهات » . ومبارك نقل هذا عن صاحب الدرر المنظمة في الخطط التوفيقية جزء ١٤ صفحة ١٠٩ .

وبالتالي ، فان الحوادث والارقام تدل بصراحة على ان التصوف في صدر الاسلام لم يكن مقصودا لذاته ، وانما جاء نتيجة لامر غير مقصود ، نتيجة للاوضاع الفاسدة التي كان عليها المجتمع ، ولكن هذه النتيجة لم تحل المشكلة ، ولم تصلح شيئا من الفساد ، كما انها لم تستمر الى النهاية خالصة لوجه الله ، كما كانت في البداية .

الفصل الخامس

التصوف ونظرية المعرفة

ما هي المعرفة ؟ وما هي مصادرها ومنابعها ؟ ما هو القياس الصحيح العام الواضح الذي نميز به صحيح الاشياء من باطلها ؟ وبالتالي هل من الممكن ان يكون حدس القلب سببا من اسباب المعرفة ؟

المعرفة :

اذا كنت « واقعيا » ومن الذين يقولون ويؤمنون بان للعالم وجودا مستقلا عن الادراك فيمكنك ان ترسم المعرفة بأنها صورة الشيء عند العقل كما هو في الواقع ، وترسم هذه الصورة في العقل بواسطة آلات البدن ، كالسمع والبصر والذوق واللمس والشم ؛ او بواسطة الفكر والتأمل .

وان كنت « مثاليا » ومن الذين يرون ان العالم لا وجود له في الخارج ، وانما الموجود هو ادراك الاشياء ، لا الاشياء نفسها ، فالمعرفة على هذا هي نفس الادراك لا صورة الشيء الموجود ، اذ لا حقيقةللوجود الخارجي ابدا على هذا الافتراض .

اسباب المعرفة واقسامها :

تنقسم المعرفة باعتبار اسبابها الى اربعة اقسام :

١ ـ المعرفة بالحس : كتصور الحرارة والنور والطعم والصوت، والرائحة .

٢ ـ المعرفة بالعقل : كمعرفة الحقائق الحسابية والهندسية .

٣ ـ المعرفة بالوحي : كمعرفة وجوب الصوم والصلاة ، وما الى ذلك مما يؤخذ من كتاب سماوي ، او حديث نبوي ، ويسمى مصدر هذه المعرفة بدليل السمع والنقل تمييزا له عن دليل العقل .

٤ ـ المعرفة بالقلب : وهي ظاهرة فريدة وغريبة عن اذهاننا لانها لا تنشأ من الحس والتجربة ، ولا من العقل وأقيسته المنطقية ، ولا من الوحي والاحاديث النبوية ، لا من كتاب ولا استاذ ، لا من شيء سوى الهام القلب وحدسه واشراقه ، وتنبئه الصادق . وهذه هي طريقة اهل التصوف ، حيث قالوا : العلم علمان : علم الكسب ، وعلم الوهب . والاول يأتي من الحس والتجربة والعقل ، ويختص بالعلوم الدنيوية ، كالعلوم الطبيعية والرياضية ، والثاني يأتي من الالهام، والالقاء في القلب، ولا يحصل هذا الالقاء الا للصفوة الخلّص ، ويختص بالعلوم الدينية وما يتصل بها ، كمعرفة الله وصفاته ، وحقيقة النبوة والوحي والرسالة ، والحياة الآخرة ، وصفات الجنة والنار ، واسرار العالم وخلقه من بدايته الى نهايته ، ومعرفة الخير والشر ، وحقيقة الانسان والغاية من وجوده . وهذه الحقائق على ما هي عليه في علم الله تعرف بالقلب لا بالعقل ، لامور :

١ ـ ان اقرب الحقائق الى الانسان هي نفسه التي بين جنبيه ، وهو عاجز عن ادراكها ، فكيف يقدر على معرفة الحقائق البعيدة عنه ، وعن الطبيعة بكاملها ؟!

٢ ـ ان نظر العقل يتبع استعداد الناظر ، ويختلف باختلاف

ظروفه وملابساته • ومن هنا قيل : ان الانسان عين ما يأكل ويشرب ويلبس ، وينظر ويلمس •• وبديهة ان لكل انسان ظروفا تباين ظروف سواه ، ومتى تناقضت الآراء وتضاربت استحال الاعتماد عليها جميعا . كما انه لا يجوز الأخذ بأحدها دون الآخر ، لانه ترجيح الاعتماد بلا مرجح ، ولأن احتمال البطلان عارض على الجميع •

٣ ـ ان الناظر كثيرا ما يعتقد بصحة شيء ، ويبقى على ذلك امدا مديدا ، ثم يتبين له الفساد ، فيتبدل رأيه واعتقاده ، مع العلم بأن السبب الثاني الذي دعاه للعدول ليس بأقوى من الاول ، ولا اقل من الشك ، فالاثنان اذن لا يؤخذ بهما [١] •

ومن هذه الادلة ، وما اليها يتبين معنا انه لا يمكن الاتكال على شيء من نظر العقل ، فيتعين الرجوع الى القلب •

الحس الصائب :

ولكن الحس الصائب لا يحصل للقلب الا بعد رحلة طويلة وخطيرة، وهي أن يجاهد الانسان نفسه ، ويروضها على التوجه الى الله وحده ، والالتجاء اليه في جميع الامور ، والابتعاد بها عن النقائص والرذائل ، حتى تحصل لها طهارة اللسان بالتعبير عن الصدق والعدل ، وطهارة الفرج عما حرّم الله ، وطهارة اليد عن العدوان ، وطهارة العين عن النظر بريبة وسوء نية ، وطهارة السمع عن الكذب والغيبة ، وطهارة العقل عن الجهل والتقليد ، وطهارة القلب عن الحسد والحقد ، وطهارة الخيال عن الاماني والافكار السوداء • ومتى تم للانسان هذه الفضائل ألقى الله النور في قلبه ، واصبح صادقا في حدسه ، كأنه الوحي لا يقبل الشك والريب •

---

(١) هذه الادلة جاءت في كتاب « مصباح الانس » للقونوي تلميذ الشيخ ابن عربي •

نحن والتصوف :

لا اريد أن افاضل بين القلب والعقل ، كوسيلتين للمعرفة والكشف عن الحقيقة ــ فان هذه المفاضلة أشكل واخطر القضايا الفلسفية على الاطلاق ، وانما اريد التعبير عما شعرت به ، وانا ابحث وانقب في كتب التصوف ، وأتأمل وافكر في كلمات المتصوفة . فلقد كنت قبلا اسخر من التصوف ، وممن يراه شيئا مذكورا . لكني بعد ان تفهمته على حقيقته آمنت بأنه يستأهل العناية ، وان اهتمام الاولين والآخرين به لم يكن عبثا . وان من يسيطر على نفسه ، ويسير بها في سبيل النبل والرفعة ، ويتقي الله حق تقاته ويتخلق بأخلاقه الفاضلة ــ لا بد ان يؤيده الله بروح منه ، ويبلغ به الى المعرفة بعظمة الله ، وبالحكمة التي منحها الله للانبياء والاولياء ، والتي يميز بها المرء بين الخير والشر ، والحق والباطل. والقبح والجمال .

ان الفضائل متآخية متشابكة يدعو بعضها الى بعض ، وكل خلق كريم يطرد خلقا لئيما ، تماما كالجسم القوي المنيع يقاوم الاسقام ، ويزداد قوة ونشاطا ، وقد جاء في القرآن : « والذين اهتدوا زدناهم هدى » .

اما الرذائل فهي كأمراض الجسم يؤدي بعضها الى بعض ويصدق عليهم : ان الذين في قلوبهم مرض .. يظلّون يُضيفون رجسا الى رجسهم . ومن هنا تسود الفضيلة حيث يوجد النظام والايمان ، وتسود الرذيلة في بيئة الفوضى والالحاد .

الفصل السادس

الى الذين يزكون أنفسهم

قال الإمام علي (ع) : «وايم الله يميناء استثني بمشيئة الله، لاروضن نفسي رياضة تهش معها الى القرص اذا قدرت عليه مطعوما ، وتقنع بالملح مأدوما » .

ان رضى النفس بقرص الشعير والملح مع قدرتها على لباب القمح ، والعسل المصفى فضيلة في نفسه ، وبالقياس الى غير الامام ، اما بالقياس الى من عف وكف عن ابن العاص الذي قاد الجيوش الى حربه والقضاء عليه ، وصفح عن مروان بن الحكم ، وابن أرطاة — اما بالقياس الى من سقى اعداءه الماء بعد ان منعوه منه ، وحاولوا قتله عطشا ، وأوصى بقاتله خيرا ، وقال لابنائه : « وأن تعفوا أقرب للتقوى » ، أما بالقياس الى علي بن ابي طالب — فان الرضى بالقرص لا يعد شيئا مذكورا .

والحقيقة اني لم أفهم معنى لقول الامام : « لاروضن نفسي » وقوله : « وانما هي نفسي أروضها بالتقوى » الا على سبيل التنازل والتواضع . وهل تميل نفسه الى غير التقوى حتى تحتاج الترويض والتمرين ؟! ان نفسه هي رفيقة التقوى وميزان الحق ، والصراط القويم الى الله وكتابه وشريعته . انها نفس محمد (ص) بالذات الا انه لا نبي بعد خاتم الانبياء وسيدهم .

ان قلت : ان هذا لا يتفق مع قول الامـام : « وخدعتني الدنيـا بغرورها ، ونفسي بخيانتها . وقوله : اللهم لا تعاجلني بالعقوبة على مـا عملته في خلواتي من سوء فعلـي واساءتي ، ودوام تفريطي وجهـالتي ، وكثرة شهواتي وغفلتي » ، وقوله ايضا : « الهي ومولاي ، اجريت علـي حكما اتبعت فيه هوى نفسي ، ولم احترس فيه من تزيين عدوي » ـ كما يتنافى ايضا مع قول الامـام زين العابدين : مالي كلما قلت : قد صلحت سريرتي وقرب من مجالس التوابين مجلسي عرضت لي بلية ازالت قدمي، وحالت بيني وبين خدمتك » فان هذا اعتراف صريح بأن الامام مغلـوب لا غالب للدنيا وكثرة الشهوات !..

الجواب :

أولا ـ ان هذا اعتراف بالعبودية لله ، لا بالذنب ، وتعظيم وانكسار له ، والتجاء اليه ، وتوكل عليه ، وهو ضرب من عبادة الاصفياء ، بل من أعلى مراتب العبادة وانواعها .

ثانيا ـ ان السر لعظمة العظماء يكمن في تواضعهم واتهامهم لانفسهم، فهم في خوف دائم من التقصير وعـدم القيام بما يجب ، ومهما قدمـوا للانسانية من جليل الاعمال ، وقاموا لله بالعبادات والطاعات ، فلا يرونها شيئا في جنب الله ، ويطلبون مـن انفسهم المزيد من الجد والاجتهـاد ، انهم يعرفون جلال الله وقدرته ، وعزته وعظمته ، فلا يعظم شيء سواه في أعينهم ، وان عظم . قال الامام : « ان من حق من عظم جلال اللـه فـي نفسه، وجل موضعه من قلبه ان يصغر عنده لعظم ذلك كل ما سواه » هذا هو شأن العارفين المخلصين أصحاب الهمم والطمـوح ، وشأن الاحرار الذين يملكون أنفسهم ، ولا يملكهم شيء ، ويتطلعون دائما الى رحمـة الله ومرضاته .

ثالثـا ـ ان اهل الصدق والايمـان يسلكون في جميع اقوالهـم

وافعالهم طريق الحذر والاحتياط ، فاذا تحدثوا عن انفسهم انتقدوها . واتهموها بالتواني والكسل ، بل كثيرا ما يبلغ بهم الامر الى توبيخها وتأنيبها ، ولا شيء أثقل عليهم من المدح والاطراء . وقد جاء في الحديث : « احثوا في وجوه المداحين التراب » . ومدح امير المؤمنين قوم في وجهه، فقال : « اللهم انك اعلم بي من نفسي ، وانا اعلم بنفسي منهم ، اللهماجعلنا خيرا مما يظنون . واغفر لنا ما لا يعلمون » .

اما الذين يزكون انفسهم ، ويبرءونها من كل عيب فانهم لا يشعرون بواقعهم ، ولا يعرفون شيئا من داخلهم ، وهم الذين عناهم الله سبحانه بقوله : « قل هل انبئكم بالاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا » . قال احد علماء النفس في تعريف الانسان : « انه الحيوان الوحيد الذي يستطيع ان يكذب » . والاولى ان يقال في تعريفه : انه الحيوان الوحيد الذي تكذب عليه نفسه فيصدقها ، تقول له : انك صادق أمين ، وشجاع كريم ، وعالم عظيم ، فيقول : اجل انا كذلك وفوق ذلك . وصدق من قال : « ان في اعماق كل منا يكمن صحفي خداع يلفق الانباء ، ويموه الحقائق ، ويختلق الشائعات ، ويمزج الحق بالباطل » .

وبهذا يفترق الصوفي الحق عن غيره ، حيث لا يوجد في أعماقه صحفي خداع يلفق الانباء ، ويموه الحقائق . قال الرشيد لاحد الصوفية: ما احسن ما بلغني عنك !. فقال له : والله اني لخائف على نفسي من قلة الخوف عليها . وقال رجل للامام الصادق : أوصني يا ابن رسول الله . فقال له : من شتمك فقل له : ان كنت صادقا غفر الله لي ، وان كنت كاذبا غفر الله لك ، ومن قال لك : ان قلت كلمة سمعت عشرا ، فقل له : ان قلت عشرا لن تسمع واحدة .

الفصل السابع

التصوف وأهل البيت

اهتم اهل البيت (ع) اهتماما بالغا بالادعية ، والاوراد ، ووضعوا لها صيغا خاصة ، حفظها عنهم شيعتهم واتباعهم . والفوا فيها الكتب والمجلدات . قال زكي مبارك في المجلد الثاني من كتاب « التصوف الاسلامي » : « كانت ادعية زين العابدين مما اهتم به الشيعة اهتماما شديدا ، فصححوا رواياتهم ، ونقدوها ، وكتبوها بالذهب في كثير من البلدان .. والصوفية يعتقدون ان زين العابدين كان من اهل الاسرار » .

وتكلمت عن هذه الادعية والاوراد في كتبي : « مع الشيعة » و «اهل البيت » و « الاسلام مع الحياة » و « الآخرة والعقل » و « المجالس الحسينية » والآن اقتطف جملا من دعاء كان يدعو به الامام الشهيد الحسين بن علي في يوم عرفة :

القضاء والقدر :

« منه » : « الحمد لله الذي ليس لقضائه دافع ، ولا لعطائه مانع ، ولا لصنعه صانع » .

ينسب القضاء الى الله سبحانه ، والى غيره ، ونسبته اليه عز وجل

تأتي على معنيين : الاول على معنى الخلـق والتكوين . كقوله تعـالى : « فقضاهن سبع سموات » أي اوجدهن وكوّنهن • الثاني عـلى معنى الامر والحكم التشريعي، كقوله سبحانه فيالآية ١٧ من الاسراء : «وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا » اي امر بذلك ، وقال عز من قائل : «ان الحكم الا لله امر ان لا تعبدوا الا اياه ذلكالدين القيم ــ ٤٠ يوسف » •

واذا نسب القضاء الى الانسان يكون على معنى الحكم ، كقوله في الآيـة ٦٥ من النساء : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في نفسهم حرجا مما قضيت ويسلّموا تسليما » اي مما حكمت وامرت •

و « منه » : اللهم اجعلني اخشاك كأني اراك ، وأسعدني بتقواك ، ولا تشقني بمعصيتك •• وبارك لي في قدرك حتى لا اتعجل ما اخرت ، ولا اتأخر ما عجلت » •

كنت ، وما زلت أتساءل : هل الذين يعصون اللـه ، ويتجـاوزون حدوده يؤمنون بالله واليوم الآخر ، او انهـم يتظاهرون بالايمان ريـاء ونفاقا ؟•• وبكلمة هل يجتمع الايمان مع العصيان ؟

تساءلت عن ذلك ، ولم اجد الجواب المقنع لا عند نفسي ولا فيمـا سمعت وقرأت ، وربما يجاب عن هذا التساؤل :

أولا : بأن العاصين يؤمنون بالله ، ولكنهم يرجون عفوه ومغفرته ، ويعتمدون على قوله سبحانه : « ان الله لا يغفر أن يُشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » •

وبديهة ان الغفران لا يأتي جزافا ، بل لا بد له من سبب تقتضيـه

الحكمة الالهية ، والا لم يكن للتكليف وتشريع القوانين من فائدة ، وكان الطائع والعاصي ، والمحسن والمسيء سواء في نفي المسؤولية وعدم العقاب. وكلنا يعلم ان سبب الغفران هو التوبة والانابة ، والرجوع الى طاعة الله مع الندم والعزم على عدم العودة الى العصيان ، أما من اصر على الذنوب ، وبخاصة الكبائر منها فأمره عسير .

ثانيا : انهم مؤمنون، ولكن ايمانا ضعيفا لا يقوى على مقاومة العاطفة والمغريات ، فاذا اصطدم معها كان مغلوبا لا غالبا ، فكما ان ضعيف الجسم يتغلب عليه من هو اشد وأقوى كذلك ضعيف الايمان تصرعه الاهواء والشهوات .

ومهما يكن ، فان الايمان لا يتجزأ ، فاذا صلى الانسان وصام ، وهلل وكبر بدافع الدين ، فينبغي له ايضا ان يمتنع عن الكذب والرياء والدس والخيانة ، وما الى ذلك من المحرمات والموبقات ــ يمتنع عنها بهذا الدافع ، والا كان ايمانه تصورا وتخيلا ، أشبه بأريحية البخيل واهتزازه حين يستمع الى حديث الشجاعة . ان المؤمن حقا هو الذي يعمل وكأنه في يوم الحساب ينظر الى الخلائق ، وهم امام الله سبحانه يجازي كلا بأعماله ، تماما كما قال الحسين : « اللهم اجعلني اخشاك كأني اراك » وكما قال ابوه امير المؤمنين : « اعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » .

و « منه » اللهم اجعل غناي في نفسي ، واليقين في قلبي ، والاخلاص في عملي ، والنور في بصري ، والبصيرة في ديني » .

ان كل واحد من الناس كائنا من كان يحتاج الى الناس ومحال ان يتم المجتمع ويكتمل بدون التعاون ، فأنت متمم ما في غيرك من نقص ، وغيرك متمم ما فيك من نقص ، والكل يسيرون في طريق الاكتمال

الاجتماعي . واذ لم يكن الانسان كائنا مستقلا عن غيره ، فكيف سأل الحسين ربه سبحانه ان يجعله غنيا في نفسه ؟!

الجواب :

ان التعاون على الخير فضيلة من غير شك ، لانه ضرورة اجتماعية ، اما العيش على حساب الآخرين ، وبيع الدين والكرامة بالدنيا وحطامها فرذيلة ممقوتة يتعوذ منها كل مخلص كما يتعوذ من الشيطان ، والحسين(ع) سأل ربه الغنى عن كل موقف مشين يمس من دينه وكرامته ، سأله أن يكون غنيا في عمله وجده واجتهاده ، واثقا بالله دون غيره ، مفتقرا اليه دون سواه .

قال الامام الصادق (ع) : « اتقوا الله وصونوا أنفسكم بالورع .. والاستغناء بالله عن طلب الحوائج الى صاحب سلطان واعلموا ان من خضع لصاحب سلطان ، او لمن يخالفه على دينه طلبا لما في يده من دنياه أخمله الله ومقته عليه ، ووكله اليه ، فان هو غلب على شيء من دنياه فصار اليه منه شيء نزع الله البركة منه ، ولم يؤجره على شيء ينفقه في حج ، ولا عتق ، ولا بر . ونقل عن الشيخ البهائي انه عقب على هذا الحديث بقوله : « صدق الامام ، فقد جربنا ذلك ، وجربه المجربون قبلنا ، واتفقت الكلمة منا ومنهم على عدم البركة في تلك الاموال ، وسرعة نفادها واضمحلالها ، وهو أمر ظاهر محسوس يعرفه كل من حصل على شيء من تلك الاموال الملعونة » .

وجاء في الحديث الشريف عن الرسول الاعظم « اللهم ارزق محمدا وآل محمد ، ومن أحب محمداً وآل محمد الكفاف والعفاف » .

وقال الحسين : «اللهم حاجتي التي ان اعطيتنيها لم يضرني ما منعتني ، وان منعتنيها لم ينفعني ما أعطيتني ، أسألك فكاك رقبتي من النار » .

هذه هي امنية الابرار « النجاة من النار » ولا شيء سواها •• فان حصلوا عليها ، ثم فقدوا كل شيء حتى الماء والهواء ، وحتى لو قطعوا اربا اربا فهم الرابحون المنتصرون • وان فقدوها ، ثم ملكوا الكون بما فيه من ارضه الى سمائه فهم الخاسرون المغبونون •• وهذا معنى قول الحسين (ع) في هذا الدعاء الذي نحن بصدده مخاطبا ربه : « ماذا وجد من فقدك ؟! وما الذي فقد من وجدك ؟!• »

ولم تكن أقوال الحسين الا نبضا من اعماق قلبه يتمرّس بها ويحياها ، ولو جرت عليه الكوارث والخطوب ، فلقد قال ، والسيوف تنهال عليه من كل جانب : « هوّن عليَّ ما نزل بي انه يعين الله » • فالحسين يسر بالالم والمصاب ما دام لله فيه رضى ، فالحكمة والصلاح والخير هو ما يختاره الله . وان كان فيه ذهاب النفس والاهل والمال . فان حصل شيء من هذا في سبيل الله ، او حصلت مجتمعة لم تضطرب النفس ، ويتزعزع الايمان ، لانها هي المطلب والهدف •

هذا مبلغ أهل البيت من الدين واليقين بالله ، وهذه منزلتهم من العلم به سبحانه ، والتوجه اليه بالفعل قبل القول ، وهذا هو التجرد عن الدنيا وغاياتها ، والفناء في جنب الله عز وجل ، والانجذاب اليه ، وهذا هو التجلي والاشراق والنور والكشف ، وبلوغ الكمال • وماذا لاهل التصوف بعد قول الحسين : « ماذا وجد من فقدك ؟! وما الذي فقد من وجدك ! » •

وقال : « إلهي ان اختلاف تدبيرك ، وسرعة طواء مقاديرك منعا عبادك العارفين بك من السكون الى عطاء ، واليأس منك في بلاء » •

ليس للعارفين وأهل اليقين اطوار وحالات ، ولا شخصيات تتحول وتتبدل تبعا للظروف والملابسات ، فايمانهم بالله اقوى من ان تزعزعه

الحوادث . وثقتهم في السرّاء تماما كثقتهم في الضراء ، لا يبطرون عند الصحة والغنى ، ولا ييأسون عند المرض والفقر ، لان الحالين في طريق الزوال . قيل لبعض الحكماء : ما لنا لا نراك فرحا ولا حزينا ؟ فقال : لان الغائب لا يتلافى بالعبرة ، والآتي لا يستدام بالحيرة . وقال عز من قائل: « وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو ، وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء ــ ١٧ الانعام » . وما دام الامر الى مقادير الله سبحانه ترفع الوضيع ، وتغني الفقير ، وتفقر الغني، وتمرض السليم، وتشفي السقيم فعلام السكون الى العطاء ، واليأس في البلاء ؟!

وقال : « إلهي ، أمرت بالرجوع الى الآثار ، فارجعني اليك بكسوة الانوار وهداية الاستبصار ، حتى ارجع اليك منها ، مصون السر عن النظر اليها ، ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها ، انك على كل شيء قدير » .

يقول : إلهي انك خلقت الكائنات ، وهي تدل عليك من كبيرها الى صغيرها ، وامرتنا بالنظر فيما اودعته فيها من الحكمة وبدائع الصنع والتكوين ، لتحصل لنا المعرفة من طريقها بقدرتك وعظمتك ، ولكنا نسألك ان تهبنا نورا واستبصارا من عندك ، لنؤمن بك مباشرة دون ان نرجع الى الآثار من خلق السموات والارض ، حتى اذا رأيناها لم نزدد معرفة ويقينا بك ، بل يكون رجوعنا اليها كخروجنا منها ، لانها لم تفتح لنا ابوابا جديدة للايمان بك بعد ان زوّدت قلوبنا بالنور والسكينة .

وهذا هو سبيل الصوفية الذي ينتهي بالانسان الى الايمان بالله عن طريق القلب لا عن طريق العقل وأقيسته المنطقية .

الفصل الثامن

الاتحاد والحلول

وقع بعض المستشرقين في أخطاء جوهرية ،.وهم يكتبون عن التصوف في الاسلام ، وتبعهم من الكتاب من لا منطق له الا منطق الاجانب الاباعد .

بين الزهد والتصوف :

من تلك الاخطاء الخلط بين الزهد والتصوف ، واعتبارهما شيئا واحدا ، مع ان التصوف قد اخذ في مفهومه مجاهدة النفس وترويضها . أما الزهد فهو مجرد الاعراض عن الدنيا ومتاعها بأي نحو ، اجل ، ان الزهد ثمرة من ثمرات التصوف ، وليس التصوف بالذات .

الاتحاد والحلول :

ومنها الخلط وعدم التمييز بين الاتحاد ووحدة الوجود مع ان مفاهيمهما متباينة ، فالاتحاد هو ان تمّحي من الانسان كل صفة من صفات الجسم ، ويزول عنه كل ما هو غير روحاني . ومتى تم ذلك يتحد الانسان بالله ، ويصير علمه علم الله ، وقدرته قدرة الله ، وعظمته عظمة الله ، ونسب هذا الاتحاد الى ابي يزيد البسطامي المتوفى سنة ٢٦١ هـ .

اما الحلول فهو ان الله قد حل في الانسان وفي غيره من اجزاء هذا العالم ، ولكن هذا العالم المشاهد عدم زائل ، وشر محض ، فاذا تجرد الانسان عن كل اثر من آثاره ، وصفة من صفاته يذهب المحل ، وهو الجسم ، ويبقى الحال ، وهو الله . وعليه يكون الفرق بين الاتحاد والحلول اعتباريا لا جوهريا ، اذ على كلا التقديرين يتصف الانسان بالصفات الآلهية عندما يتجرد من المادة ، سوى ان هذه الصفات لا توجد في الانسان الا بعد التجرد بناء على الاتحاد ، وهي موجودة فيه قبل التجرد بناء على الحلول ، ولكنها محجوبة بصفات الجسم ، ومتى زالت هذه الصفات المادية ارتفع الحاجب ، وتجلى الله في الانسان بكامل صفاته . ونسب القول بالحلول الى الحلاّج الذي قتل سنة ٣٠٩ هـ .

وحدة الوجود :

اما وحدة الوجود فقد فسرت بتفاسير شتى ، ويمكن ارجاعها الى معنى واحد نستطيع فهمه وهضمه ، وهي نفي التعدد في الوجود ، وعدم الفرق بين حقيقة الوجودات والموجودات ، وانه لا يوجد شيئان احدهما واجب كامل ، وعلة موجودة للغير ، وآخر ممكن ناقص يستمد وجوده من الغير ، وانما الوجود واحد ، وهو واجب الوجود ، والابدي الازلي، الظاهر والباطن ، هو كل شيء سواه . وعلى هذا تكون وحدة الوجود في قبالة القول بتعدد الموجود ، وتقسيمه الى الواجب بذاته ، والممكن بذاته . ومهما يكن ، فان كلا من الاتحاد او الحلول يستدعي الاثنينية والتعدد ، ولا تعدد في وحدة الوجود . ونسب القول بوحدة الوجود الى ابن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ هـ [1] .

---

(١) براه من هذه النسبة صدر المتألهين . وعبر عنه في كتاب الاسفار بالشيخ العارف الموحد الرباني الصمداني، فهو في نظره موحد لله سبحانه لا الوجود بما هو وجود .

وينفق القول بوحدة الوجود مع المذهب المادي القائل بان مرجع كل شيء الى المادة • وانها توصف بجميع صفات الله من الابدية والازلية والقدرة ، وان كل ما توحيه قوانينها المعبر عنها بالقوانين الآلية الميكانيكية لا بد ان يتحقق ويكون ، لانه لا قوة قاهرة غالبة وراءها •

صدر المتألهين :

اما الفيلسوف الشهير محمد بن ابراهيم المعروف بصدر المتألهين فقد نفى عن أهل العرفان والتصوف الحق القول بالاتحاد والحلول ووحدة الوجود ، واطال الكلام في تبرئتهم من هذه التهمة في الجزء الثاني من السفر الاول من كتاب « الاسفار » ، وقال فيما قال : حاشاهم من ذلك ، ومن نسب اليهم شيئا منه فهو قاصر النظر والفهم •

وتتلخص اقواله بان اهل العرفان حين يقولون : ان الوجود واحد، فلا يريدون وحدة الوجود ، وما اليها مما يستدعي الكفر والجحود ، كيف ؟! وهم يقسمون الوجود الى واجب وممكن ! ولكن لما رأوا ان أصل الوجودات الممكنة واحد ، وهو واجب الوجود ، وان عللها مهما تعددت ، وتسلسلت فلا بد ان ترجع في النهاية اليه سبحانه ، وانها جميعا فانية ولا يبقى الا وجهه الكريم قالوا : ان الوجود حقيقة انما هو للواحد الدائم ، وارادوا بذلك ان جميع الممكنات تتفرع عنه وحده • ومن المفيد ان ننقل شطرا من اقواله في هذا الصدد ، قال في صفحة ٣٠٠ :

« المعلول لا حقيقة له ولا معنى غير كونه اثرا وتابعا من دون ذات تكون معروضة لهذا المعنى ، كما ان العلة المفيضة على الاطلاق انما كونها اصلا ومبدأ ومتبوعا هو عين ذاته ، فاذا ثبت تناهي سلسلة الموجودات من العلل والمعلولات الى ذات بسيطة الحقيقة النورية الوجودية متقدما عن شوب كثرة ونقصان ، وامكان وقصور وخفاء بريء الذات عن تعلق

بأمر زائد حال او محـــل ، خارج او داخل . وثبت انه بذاتـــه فيـــاض ، وبحقيقته ساطع ، وبهويته منور للسمـــوات والارض ، وبوجوده منشأ لعالم الخلق والامر ــ تبين وتحقق ان لجميع الموجودات اصلا واحدا هو الحقيقة والباقي شؤونه ، وهو الـــذات .. وغيره اسماؤه ونعوته ، وهو الاصل وما سواه اطواره ، وشؤونه ، وهو الموجـــود وما وراءه جهاته وحيثياته . ولا يتوهمن احد من هذه العبارات ان نسبة الممكنات الى ذات القيوم تعالى نسبة الحلول ، هيهات ان الحالية والمحلية يقتضيان الاثنينية في الوجود بين الحال والمحل ، وهاهنا عند طلوع شمس التحقيق ظهر ان لا ثاني للوجود الواحد الاحد الحق ، واضمحلت الكثرة الوهمية » .

وقال في مقـــام آخر من كتـــاب « الاسفار » : « ان الصديقين من الصوفية يفنون عن رؤية انفسهم ، ولا يرون الا الله .. انهم يصلون الى مقام الوحدة من غير شبهة الاتحاد » اي انهم موحدون ، وليسوا مـــن القائلين بوحدة الوجود .

وما ذهب اليه صاحب الاسفار من نفي الحلول والاتحاد عن كثـــير من الصوفية يتفق مع اصول الدين ومبدأ الشريعة القائل : « الحـــدود تدرأ بالشبهات » فمهما امكن تأويل كلامهم وحمله على ما لا يتنافى مـــع الدين فهو المتبع .

وذلك مثل قول الشـبلي : « ما رأيت شيئا الا رأيت الله معه » ، وقول الجنيد : « والآن ليس مع الله شيء » حين سمع الحديث الشريف : « كان الله ، ولم يكن معه شيء » .

وقال صوفي : « حججت للمرة الاولى فرأيت الكعبة ، ولم أر رب

الكعبة ، ولما حججت الثانيــة رأيت الكعبة ورب الكعبــة ، ولما حججت الثالثة رأيت رب الكعبة ، ولم أر الكعبة » .

والاولى حجــة الغافل الذاهل ، والثانية حجــة المتأمل والمفكر ، والثالثة حجة الفاني في الوجود .

الفصل التاسع

الانسان

مـا أعجب هذا الانسان الـذي يضع نفسه بنفسه موضع البحث والتحقيق !.. فيتكلم عن طبيعته وحقيقته ، وعن أصله ومآله ، واخلاقه وافعاله ، ونقصه وكماله ، ويصدر احكامه على ذاته بذاته ، كما يصدرها على اي كائن آخر ..

والآن تعال معي ايها الانسان ، لنستمع الى ما قيل عني وعنك .

أصل الانسان :

قالوا : ان هذا السيل المتدفق من افراد الانسان لم يتولد في الاصل من كائن يماثله ، بل تحول من طبيعة الى طبيعة ، ومن شكل الى شكـل ، حتى اصبح كما نراه الآن (١) .

---

(١) نقل المجلسي في الجزء الرابع عشر من بحار الانوار المعروف بالسماء والعالم ان المسلمين والنصارى واليهود اتفقوا على ان ابا البشر هو آدم ، وقال الفلاسفة : لا اول للانواع المتوالدة . وقال غيرهم : ان الاجسام كانت على طبيعة واحدة ثم تعددت العناصر بواسطة الحرارة التي احدثتها الحركة ، وبعد ان تعددت العناصر واختلطت وتحركت حصلت العفونة ، ومن العفونة تولد الانسان كما يتولد الدود في الفاكهة واللحم !.. لقد افرط هؤلاء دون ان يعتمدوا على دليل . وغالى المؤمنون بآدم ، حيث نسبوا اليه كتابين احدهما اسمه « سر الخفايا » والثاني اسمه « الملكوت » وموضوعهما في علم الحروف !.

وليس لهذا القول مدركا الا الحدس والظن ، فان مشكلة أصل الانسان ليست مجالا للعقل والفكر ، ولا يرجع فيها الى العلم والتجربة ، انها مشكلة غيبية لا يحلها الا الدين ، ولا تعرف الا بالوحي . واذا حل العلم مشكلة المواصلات والغذاء والكساء ، فليس معنى هذا انه على كل شيء قدير ، فهل يستطيع العلم ان يخبرنا عن كل ما حدث في الكون منذ وجوده، حتى اليوم بحيث لا يشذ عنه كبيرة ولا صغيرة في الارض والسماء ؟!

ان اصل الانسان محال ان يعرف بالعلم والعقل، فطريق معرفته منحصر بالوحي وغير الوحي لابد ان يقع في الاوهام والاخطاء، ويخبط خبط عشواء كما حدث لكل من تكلم عن اصل الانسان على اساس غير الدين والوحي . وقد جاء في القرآن الكريم الآية ٥٩ من آل عمران : « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب » . والآية ٣٧ من سورة الكهف : « أكفرت بالذي خلقك من تراب » والآية ٥ من سورة الحج : « فانا خلقناكم من تراب » والآية ٢٠ من سورة الروم : « ومن آياته ان خلقكم من تراب » والآية ١٣ من سورة الحجرات : « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى » الى غير ذلك من الآيات . وجاء في الحديث الشريف : « كلكم من آدم ، وآدم من تراب » .

تعريف الانسان :

لقد عرف الانسان نفسه بتعاريف شتى لا يشملها قاسم مشترك ، منها انه حيوان ناطق ، او ضاحك ، او إلهي ، او مدني بالطبع ، او فيه انطوى العالم الاكبر ، او افضل من الملائكة ، او اخبث من الشيطان ، وقال سارتر زعيم الوجوديين : ان وجود الانسان عبث زائد عن الحاجة. وقال آخر : انه الكائن الذي يستطيع ان يكذب . وقالت الملائكة : انه

يفسد في الارض ، ويسفك الدماء ، كما صرحت الآية ٣٩ من سورة البقرة .

وقال بعض الصوفية : ان الانسان خليفة الله في أرضه صورة ومعنى ، اما صورة فلان وجود الانسان يدل على وجود الباري ، كالبناء يدل على وجود الباني ، واما معنى فلأن وحدانية الانسان تخلف عن وحدانية الله ، وذاته عن ذاته ، وارادته عن ارادته ، وسمعه عن سمعه ، وبصره عن بصره ، وكلامه عن كلامه ، وعلمه عن علمه ، وليس لاحد من المخلوقات ان يخلف عن الله في شيء غير الانسان .

ثم قال هذا الصوفي : أما قول الملائكة بان الانسان يفسد في الارض فلأنهم نظروا اليه من جانب الشر الذي فيه ، ولم ينظروا الى جانب الخير الذي أشار الله اليه بقوله : « اني أعلم ما لا تعلمون »[1] .

وجاء في المجلد الرابع عشر من كتاب « بحار الانوار » للمجلسي ان المخلوقات تنقسم الى اربعة اقسام :

(١) فيه القوة العقلية دون الشهوانية ، وهم الملائكة .
(٢) فيه القوة الشهوانية دون العقلية ، وهو الحيوان .
(٣) ليس فيه ثمة شيء منهما وهو الجماد والنبات .
(٤) فيه الامران ، وهو الانسان .

وعلى هذا فالملائكة حين وصفوا الانسان بالفساد نظروا الى القوة الحيوانية ، واهملوا القوة العقلية الانسانية .

ومن المفيد ان نذكر ما جاء في كتاب « مصباح الانس » لابن حمزة في شرح « مفتاح الغيب » للقونوي ، قال في ص ٣١٥ :

---

(١) روح البيان للشيخ اسماعيل حقي ١ ص ٩٦ .

ان في الانسان خاصية المعادن ، وهي الكون والفساد ، وخاصية النبات ، وهي النمو والغذاء ، وخاصية الحيوان ، وهي الحس والحركة ، وخاصية الانسان ، وهي الفكر والادراك ، وخاصية الملائكة ، وهي الطاعة والحياة .

فالانسان يتملق كالكلب والهر ، ويحتال كالعنكبوت ، ويتسلح كالقنفذ ، ويهرب كالطير ، ويتحصن كالحشرات ، ويعدو كالغزال ، ويبطىء كالدب ، ويسرق كالفأرة [1] ، ويفتخر كالطاووس ، ويحقد كالجمل ، ويتحمل كالبقر ، ويشمس كالبغل ، ويغرد كالطير ، ويحرص كالخنزير ، ويصبر كالحمار ، وينفع كالنحل ، ويضر كالعقرب ، وهو شجاع كالاسد ، وجبان كالارنب ، وانيس كالحمام ، وخبيث كالثعلب ، وسليم كالحمل ، وابكم كالحوت ، وشؤم كالبوم .

ومرة ثانية نقول : ان معرفة اصل الانسان لا ترتبط بالحس ومشاهداته ولا بالعلم وتجربته ، ولا بالعقل ومناقشته ، ولا بفطرةالانسان وبديهته ، وانما ترتبط بالدين والوحي لا غير ، اما معرفة حقيقة الانسان كما هي ، ومن جميع جهاتها فمحال ، وانما نعرف بعض صفاته بالقياس الى ما يصدر عنه من افعال وآثار .

اما الاقوال المتضاربة في تعريف الانسان فان دلت على شيء فانما تدل على ان في طبيعته اسرار المنجيات والمهلكات بكاملها ، وان الاحاطة بها فوق المستطاع ، وعلى هذا يسوغ لنا ان نقول في تعريف الانسان : انه الذي يحاول ان يعرف نفسه على حقيقتها ، ولكن على غير جدوى .

---

(١) نقل ان نفس الحلاج كانت تعدو خلفه على صورة الفأر تارة ، وعلى صورة الثعلب اخرى ، وعلى صورة الكلب حينا ، وان محمد بن عليان الصوفي خرجت نفسه من حلقه على هيئة ثعلب صغير .

وقال الامــام علي : ان الانسان في بعض حالات يشارك السبــع الشدّاد اي الكون بكامله ، فكما ان الحيــاة تتوقف على هذا الكون كذلك تتوقف على الانسان نفسه .

وقال ابويزيد البسطامي : طلبت ذاتي في الكونين فما وجدتها ، أي ان ذاته فوق عالم الطبيعة ، وعالم المثال [1] .

---

(١) الاسفار للملا صدرا ، الجــزء الاول من السفــر الرابــع ص ٣١٢ طبعة ١٣٧٨ هـ .

الفصل العاشر

الشيطان وقلب الانسان

مهما اختلف الصوفية فيما بينهم فانهم متفقون كلمة واحدة على ان التصوف يبتدىء من التغلب على ميول النفس واهوائها • وليس هذا التغلب بالامر اليسير ، فقد استسلم وخضع للاهواء في ذلة وصغار الالوف من العلماء والفلاسفة ورجال الدين ، وقضوا حياتهم ، وليس لهم مع أمر الهوى أمر ، ولا مع حوله وقوته حول ولا قوة • ولكن اذا أنشبت الشهوة اظفارها بالملايين فليس معنى ذلك انها هي التي تحدد مصير الناس باجمعهم ، وان الانسان لا بد ان يقع اسيرا لها كائنا من كان، والا لم يكن للحرية والاختيار مكان ، ولا للخير والشر معنى ، ولا للقوانين والشرائع مبرر ، حيث لا تبعة ولا مسؤولية •

ان الانسان ، اي انسان ، مسؤول عن عمله مهما تكن الظروف والملابسات ، ما دام قادرا على ان يقف من البواعث والمغريات موقفا سلبيا ، وماذا لدى المغريات غير الدعوة والتحسين ؟! وهل تملك المومس الا التبرج ؟! وليس من شك في ان الموقف معها دقيق وحرج ، ولكنه المحك لقوة الارادة ، وتمييز الرجال من اشباه الرجال •

وفي هذا الموقف الحاد العسير يأتي دور المتصوف ، وجهاده مع

النفس الامّارة وميولها وكما ان البطل هو الـذي يصرع الخصم عنـد النزال كذلك الصوفي هو الذي يتغلب على ميول النفس ونزعاتهـا ، ولا يستجيب لاهوائها وشهواتها ، بل تكون اسيرة له يأمرها فتطيـع ، ولا يكون اسيرا لها تأمره فيطيع . فهذا التصوف لا يعني شيئا غـير الصبر وقوة الارادة والاجتهاد في مقاومة النفس اذا ارادت الانحراف والغواية. قال احد المؤلفين :

« ان الشيطان يقرع على باب قلبك ، ولكن ثق انه لم يقو من تلقاء نفسه على فتح الباب ، لانه رجل مهـذب لا يقترف جريمة هتك حرمـة مسكنك ، بل يكتفي بطلب الاذن بالدخـول ، فلا تأذن له ، وايـاك ان توارب الباب ، حتى ولا لترى من الطارق ؟ ان من يفتح الباب فقد هلك .. ان دقيقة واحدة مع الشيطان كافية لان توردك مورد التهلكة » .

وهذا صحيح نطق به القرآن الكريم حكاية عن الشيطان . الآيـة ٢٢ من سورة ابراهيم : « وقال الشيطان لما قضي الامر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فاخلفتكم وما كان لي عليكم الا ان دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا انفسكم ما انا بمصرخكم وما انتم بمصرخي اني كفرت بما اشركتموني من قبل ان الظالمين لهم عذاب اليم » فليس لابليس او الشهوات او الارادة الشريرة او المغريات الخارجية مهما شئت فعبر ، ليس لها الا الدعوة ، وما عليك الا الرفض اذا اردت ان تكون انسانـا كريما . وهذا ما اراده الامام علي (ع) من قولـه : « أعينوني بـورع واجتهاد ، وعفة وسداد » .

دعانا الامام ان نصبر ، ونعف ونكف اذا اعترضت سبيلنا المغريات، دعانا ان نقاوم ونجاهد ، ولا نستسلم للخطيئة ، لان من استسلم لها فقد تنازل عن شخصيته ، ومحا نفسه من الوجود ، وتركها للاهواء تفعل بـه ما تشاء ، لا ارادة له ولا ادراك ، ولا شيء ابدا . فهو اذ ينكر وجود الله

والفضائل ، ويحلل ويحرم فانما ينطق بلسان الدنيا والشيطان ، لا بلسان العقل والايمان . قال الامام مخاطبا الدنيا ، « فوالله لا اذل لك فتستذليني ، ولا اسلس لك فتقوديني » .

وقال حفيده الامام جعفر الصادق :

« الدنيا بمنزلة صورة ، رأسها الكبر ، وعينها الحرص ، واذنها الطمع ولسانها الرياء ، ويدها الشهوة ، ورجلها العجب ، وقلبها الغفلة ، وكونها الفناء ، وحاصلها الزوال ، فمن أحبها أورثته الكبر ، ومن استحسنها أورثته الحرص ، ومن طلبها أوردته الى الطمع ، ومن مدحها أكسبته الرياء ومن أرادها مكنته من العجب ، ومن اطمأن اليها اركبته الغفلة ، ومن اعجبه متاعها فتنته فيما لا يبقى ، ومن جمعها وبخل بها ردته الى مستقرها وهو النار » .

فالكبر والحرص والطمع والرياء والشهوة والعجب والغفلة — كل هذه وما اليها من المساوي تأتي كنتيجة طبيعية لحب الدنيا والميل مع الهوى . وكل واحدة منها تدع الانسان في ظلمات تعميه عن رؤية الله ومعرفة الحقيقة ، فكيف اذا تعاونت عليه مجتمعة ؟

اما اذا انصرف عن الموبقات وروض نفسه رياضة تجعل هواه ورضاه في طاعة الله وحده ، حتى ولو كان فيها البلاء والضراء ، فانه والحال هذه، يسير تلقائيا مع فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وينزع بطبعه الى الايمان بالواحد الاحد ، ولا يحتاج الى اقيسة الفلاسفة واستدلالاتهم المنطقية ، ونقاشهم وحوارهم ، فهذا الايمان يستند الى القلب وحده ، على شريطة ان يكون طاهرا نقيا من كل شائبة .

وعلى هذا السبيل نستطيع القول بان ما من احد انكر وجود الله

الا لانه اسير الاهواء والشهوات ، قال الامام الصادق : « ابعد ما يكون العبد من الله عز وجل اذا لم يهمه الا بطنه وفرجه» ، ولذا ينتشر الالحاد حيث ينتشر الفساد . وهـذا ما اراده الصوفيـة من الكشف ، اي ان الايمان بالله يحصل في القلب الزاكي تلقائيا بدون دراسة وبرهنة ، لان هذه لا تثمر غير الشك والارتياب اذا لم يكن القلب صافيا نقيا .

ولا شيء ادل على ذلك من اننا نجد في كل عصر افرادا يؤمنـون بفطرتهم ، فقد حدثنا التاريخ عن حنفاء في الجاهلية تركوا قومهم يعبدون الاصنام ، وعكفوا على عبادة الرحمن . ومهما شككتُ فاني على يقين بان طهارة القلب ، والخوف من الله سبحانه بترك المحرمات والموبقات ، وطاعته بفعل الواجبات والعبـادات ، والاخلاص له في جميـع الاقوال والاعمال ــ يكون سببا كافيا وافيا لمعرفة الله عز وجل ، وللحكمة ايضا . ولا اريد بالحكمة الحكمة النظريـة ، والعلوم الطبيعيـة ، وانما اردت الحكمة التي وصف الله بها الانبياء واهل الخير والمعرفـة ، واشار اليها بقولـه : ومن يؤتَ الحكمة فقد أُوتي خيرا كثيرا » ، اردت الحكمـة التي جاءت على لسان الامام علي بن طالب ، ولسان لقمان الحكيم ، وهي التي تقربنا من الخير والهداية ، وتبتعد بنا عن الشر والضلالة . وقد جاء في الحديث الشريف « رأس الحكمة مخافة الله » اي ان الخوف مصدر الحكمـة ، وقال الإمام الصادق (ع) : « الحكمة ميزان التقوى ، وثمرة الصدق » .

الفصل الحادي عشر

المستشرقون والتصوف

كان المستشرقون ، وما زالوا الرائد الناصح للاستعمار ــ الا قليلا منهم ــ ولم تكن بحوثهم في الاسلام وتاريخ العرب والمسلمين وتراثهم الا للتحريف والتزييف ، والا للدس واحداث الثغرات في الصفوف . وما تكلموا عن شيء يتصل بالاسلام والمسلمين الا بهذا القصد ، اما العلم والتماس الحقيقة الذي تذرعوا به فكذب وخداع واحتيال . وفي كتاب « الشيعة والحاكمون » قدمت ارقاما على هذه الحقيقة ، والآن وبمناسبة الكلام عن التصوف اذكر امثلة من آراء بعضهم في التصوف الاسلامي ، كشاهد على العداء والكيد للاسلام ونبي الاسلام .

قال المستشرق نيكلسون في كتاب « الصوفية في الاسلام » تعريب نور الدين شريبة ص ٩٠ طبعة ١٩٥١ :

« المتصوفون قد أدوا دون ريب عملا جليلا للاسلام ، فهم بنبذهم قشور الدين ، واصرارهم على تحصيل لبابه بتنمية المشاعر الروحية ، وتطهير البواطن ، لا بالعمل الظاهري ــ قد مكنوا ملايين الناس من حياة غنية عميقة » .

والقشور في نظر هذا المستشرق هي الصلاة ، وبناء المساجد ، والتفرقة بين الكفر والاسلام . وقد قال في صفحة ٨٨ : « والصوفي الكبير ابو سعيد بن ابي الخير حين يتحدث بلسان القلندرية يعبر عن قواعدهم في تحطيم هذه الاوثان في شجاعة تأخذ بالالباب حين يقول : لن نؤدي ما فُرض علينا من واجب مقدس ما لم نَدَ رْ كل مسجد تشرق عليه الشمس حطاما ، ولن يظهر المسلم حق المسلم ما لم يصر عنده الايمان والكفر واحدا » .

لقد روّج نيكلسون لهذه الفكرة ، ونعتها بالشجاعة لا لشيء الا لانها جرأة على الله والرسول ، ان معنى هدم المساجد ومساواة الكفر والاسلام انكار صريح للقرآن ، والسنة النبوية ، والشريعة الاسلامية ، وهذي هي امنيته وامنية امثاله من المستشرقين ...

وقال في ص ٦ : « القارئون للقرآن من الاوروبيين لا تعوزهم الدهشة من اضطراب مؤلفه ، وعدم تماسكه في معالجة كبار المعضلات ، وهو نفسه لم يكن على علم بهذه المتعارضات » .

فالقرآن بزعمه ألّفه محمد (ص) ، وهو مضطرب يناقض بعضه بعضا ، ولم يدرك محمد نفسه هذا التضارب والتناقض ...

هذا هو الاستشراق عند اكثر المستشرقين : دس وتشويه وتهجم على الاسلام ومقدساته .. قال طه عبد الباقي سرور في كتاب «شخصيات صوفية » ص ٥٤ـ٥٦ : « لبعض المستشرقين غرام بالشك ، ولبعضهم ولع ملح بالتجريح الخفي للتراث الاسلامي ، والثقافة المحمدية ، فجاءت دراستهم للتصوف الاسلامي مطبوعة بطابع الشك ، مرسومة بالتجريح ، مرقومة بالهوى .. وكان اقرب رجال الاستشراق الى الانصاف هو المستشرق العالم نيكلسون » .

واذا كان نيكلسون الذي نقلنا طرفا من اقواله هو اقرب المستشرقين الى الانصاف فكيف بغيره ؟!

وبالتالي ، فعلينا نحن العــرب والمسلمين ، وعلى كل باحث ينشد الحقيقة ان يربط بين اقوال هؤلاء المستشرقين ، وبين الاستعمار ، وينظر اليها كوسيلة من وسائله ، وأداة من ادواته . علينا ان ننظر الى ما يكتبون وينشرون بيقظة وحذر ، ولا ننخدع بشيء مما يُضفونه على بحوثهم من ألوان التحقيق والتدقيق ، فانها ستار للدسائس والمؤامرات .

الفصل الثاني عشر

كرامات الأولياء

بين المحال والتعجب :

فرق بعيد بين ما يحيله العقل ويجزم بعدم وقوعه ، وبين الذي يتعجب منه بعد وقوعه ـ مثلا ـ اذا قال لك قائل : الاسود ابيض ، والموجود معدوم ، والواحد اكثر من الاثنين ، والعشرة اقل من الواحد ، فان عقلك يرفض هذا بمجرد سماعه ، وبدون توقف ، لانه محال في نفسه ، ممتنع في ذاته . اما اذا سمعت رجلا يخبر بالمغيّبات ، او يقرأ الافكار على واقعها فانك لا تنكر عليه ولكنك تتعجب منه ، لانه أتى بغير المعتاد والمألوف .

القرآن والمعجزات :

لقد اكبر القرآنُ العقلَ ، وأجلّه اي اجلال ، واعتبره اساسا للتفكير بخلق الانسان ، والسموات والارض ، ودليلا للايمان بالله وكتبه ورسله ، وفي الوقت نفسه ذكر للانبياء معجزات خارقة للعادة ، كقصة العُزير الذي احياه الله بعد ان اماته مئة عام ، وابقى طعامه على ما كان لم تغيره السنون ، وحكاية ابراهيم الخليل مع الطيور الاربعة ،

وكيف أتت اليه سعيا بعد ان قطّعهن وفرق اجزاءهن على الجبال ، وكعصا موسى التي انقلبت حية تسعى ، وكإبراء عيسى الاكمه والابرص والاعمى ، واحيائه الموتى ، وكمحاربة الملائكة مع الرسول الاعظم خاتم النبيين ، ورميه الحصى والتراب في وجوه المشركين ، حيث كانت الرمية سببا لهزيمتهم وانتصار المسلمين عليهم . وذكر القرآن ايضا كرامات للاولياء ، كحمل السيدة مريم بلا دنس ، وقصة اهل الكهف ، وقصة آصف بن برخيا مع سليمان في عرش بلقيس ، وقوله : انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرْفك ، وما الى هذه من خوارق العادات التي جاء ذكرها في الكتب السماوية ، ولو كان محالاً لم يخبر القرآن عن وقوعها ، ولم تتقبلها عقول الملايين عبر القرون والاجيال .

بل ان القرآن قد اثبت السحر : « واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ، يعلّمون الناس السحر وما انزل على الملكَين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من احد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرق بين المرء وزوجه وما هم بضائرين من احد الا باذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ـ ١٠٢ البقرة » .

الكرامات :

وعلى هذا فان حصول الكرامات على ايدي الاولياء امر ممكن يقره الدين ولا يأباه العقل ، وقد فرّق علماء الكلام بين المعجزة والكرامة بأن يشترط فيها التحدي ، كأن يقول النبي لمن بُعث اليهم : ان لم تقبلوا قولي فافعلوا مثل هذا ، اما الثانية ، وهي الكرامة فلا يشترط فيها التحدي .

اعتراض :

وقد يعترض البعض بأن الحوادث المحسوسة لا بد ان تخضع

لاسباب مادية ، وعلل طبيعية، ومعجزات الانبياء وكرامات الاولياء تتنافى مع قانون الطبيعة ومبدأ العلية القائل : ان لكل حادثة سببا ، واذا انتقض هذا المبدأ فلا يمكن الاعتماد على اية نظرية فلسفية ، وقانون علمي ، لان كلا من الفلسفة والعلوم يرتكز على نظـام العلة والمعلـول الطبيعيين ، وبالتالي يثبت القول بالاتفاق والصدفة التي ابطلها العلم ورفضها العقل، وعليه يكون القول بالمعجزات والكرامات باطل من الاساس .

الجـواب :

ان القول بالصدفة باطل من غير شك ، ومبدأ العلية والسببية حق لا ريب فيه ، ولا يمكن نقضه في حال من الحالات ، ولكن الحـوادث الطبيعية لا يجب ان تكون عللها واسبابها ابدا ودائما طبيعية ، كيف وعلة الطبيعة بمجموعها قوة تكمن وراء الطبيعـة ، وقدرة تتصرف فيها كيف تشاء متى تشاء ؟! وارادة الله سبحانه قد تعلقت بالمعجزة والكرامة ابتداء وبلا توسط سبب طبيعي ،وبهذا كانت خارقة للمعتاد .

وقد جاء في الكتاب : « انما أمـره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون ــ ٨٢ يس » ، « واذا سألك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداعي اذا دعاني ــ ١٨٦ البقرة » . واستجابة الدعاء قد تكون بتهيئـة الاسباب العادية ، وقد تكون لمجرد الارادة القدسية بحيث يكون السبب الاول والاخير هو ارادة الله وحدها . وجاء في الحديث الشريف : « ان لله عبادا متى ارادوا اراد » .

وقد شاهدنا افرادا اصيبوا بداء اجمع الاخصائيون على انه مميت لا علاج له ، ثم برأوا فجأة بدون تطبيب . وسمعنا عمن اصيب بضربات قاتلة ، ومع ذلك بقي سالما معـافى ! ولا سبب الا مشيئـة الله . فكما يوجِدُ الله الاشياء باسبابها الطبيعية فانه قد يوجد شيئا لمجرد الارادة،

وبدون سبب ظاهر لحكمة يعلمها هو ، ونجهلها نحن . وحتى السبب الطبيعي لا يؤثر اثره الا بارادته تعالى ، فالنار سبب للاحراق ، والسقوط من شاهق سبب للهلاك ، ولكن بشرط ان لا يريد الله عكس ذلك . وبتعبير ثان : ان الاسباب الطبيعية تقتضي التأثير اذا ارادها الله كذلك . فاذا انتفت ارادته انتفى التأثير قهرا .

وبالتالي ، فان كل من يعترف بوجود قوة مدبرة وراء الطبيعة يلزمه حتما ان يعترف بالمعجزات والكرامات ، لان من اوجد الطبيعة بكاملها بدون سبب طبيعي فأولى ان يوجد بعض اشيائها ، كذلك . اما من ينكر الخالق الحكيم فلا كلام لنا معه ــ هنا ــ ونحيله على كتابنا « الله والعقل » .

وبعد هذا التمهيد نعرض مجموعة من الكرامات التي نسبت الى الصالحين وشيوخ الصوفية ، نعرضها ، ونحن على علم اليقين بأن بعضها نسب الى رجال لا عهد لهم بها ولا عِلم ، وبعضها الآخر انتحله مدلّسون للتمويه على البسطاء والبلهاء .

السيد البدوي :

جاء في « حاشية الشيخ الباجوري على شرح الغزّي على متن ابي شجاع » باب تغسيل الجنائز «ان الميت لو غسل نفسه لا يحتاج الى من يغسله ثانية ، كما وقع ذلك للسيد احمد البدوي ، اي ان السيد البدوي بعد ان مات قام فغسل نفسه ، وبعد انتهائه من الغسل مات ثانية » وهذا النوع من الكرامة لم يتفق لاحد ، حتى للسيد المسيح ، لان السيد المسيح كان حيا حين احيا الموتى ، اما السيد البدوي فقد احيا نفسه وهو ميت .

البطائحي :

في الجزء الاول من « لواقح الانوار في طبقات الاخيار » للشعراني ص ١٣٢ : « ان ابا بكر البطائحي كان نائمـا فرأى في نومه ان ابا بكر الصديق ألبسه ثوبا وطاقية ، فاستيقظ فوجدهما عليه .. ونقل صاحب الكتاب المذكور ان البطائحي هذا مات ، وان جسمه استحال الى تراب ، وان ترابه استحال الى نبات ، وان الحيوان الذي أكل من هذا النبات لم تؤثر به النار ، ولم ينضج ابدا » .

وليس من شك ان كل من قرأ هذا لا بد ان يتساءل كيف تميـز تراب البطائحي عن تراب غـيره ؟! وعلى افتراض حصـول هذا التميز وامكانه كيف تميزت نبتة ترابه عن غيرها من النباتات ؟! وفي حالة امكان هذا التميز ووقوعه كيف تميز الحيوان الذي اكل هذه النبتة عن غيره ؟!

الجيلاني :

وفي الكتاب السابق الذكر ص ١٢٦ ان عبد القـادر الجيلاني كان وهو طفل رضيع يمسك عن الرضاع في نهار رمضان لانه صائم ، وصادف ان غـُم الهلال على الناس في آخر الشهر ، فسألـوا أ ُم عبد القادر : هل رضع اليوم ؟ فقالت : نعم . فعلموا انه العيـد .. ومن كراماته انه بقي سنة يأكل ولا يشرب ، وسنة يشرب ولا يأكل ، وسنة لا يأكل ولا يشرب ولا ينام .. واذا اقتضت حكمة الله خلاص انسان ونجاته من التهلكـة على الرغم من وجود اسبابها ، فاية حكمة في بقاء عبد القادر سنة كاملة بلا اكل ولا شراب ولا نوم ؟!

قضيب البان :

قال الشيخ يوسف النبهاني في كتـاب « جامع الكرامات » ج ١

ص ٣٦٠ : « ان رجلا دخل على الشيخ قضيب البان في بيته فرأى جسده يملأ البيت بكامله ، فهاله ما رأى من هذا النمو الخارق ، فخرج الرجل ثم عاد ، فرآه قد صغر حتى اصبح كالعصفور ، فخـرج ثم عاد ، فرآه كعادته .

وقال عبد الله اليافعي في كتـاب « نشر المحاسن الغاليـة في فضل الصوفية اصحاب المقامات العالية » : لقد اشتهر عن الصوفية انهم يقلبون الحصى جوهرا ، والحطب ذهبا ، ونشارة الخشب دقيقا ، والرمل سكرا ، وماء البحر سمنا ، ونقل ان صوفيا مات في سفينة فجف ماء البحر ، حتى لم يبق منه قطرة ، فنزل الركاب من السفينة ، وحفروا للصوفي ودفنوه ، ولما فرغوا من دفنه استوى الماء ، وارتفعت السفينة ، فركبوا وساروا ..

وقد وضع القدامى العديد من المجلدات الضخمة في امثال هـذه « الكرامات » واكثرها مطبوع ، وكان انتشار هذه « الكرامات » عاملا قويـا في القضاء على التصوف والمتصوفين ، فلقد كان لهم مكانـة في القلـوب ، ووجاهة عند النـاس ، ثم انتكسوا وضعف امرهم ، حيث انتسب اليهم الادعياء الذين تجاوزوا كل حد في الكـذب والتدليس . فبعد ان كانت الكرامات معقولة مقبولـة ، كاستجابة الدعاء في شفـاء مريض ، والنجاة من بعض المخـاطر ، وما الى ذلك مما يتفق للصالحين وغيرهم من ذوي النوايا الحسنة ، اصبحت من النوع الذي ينفر منـه السمع ، ويأباه الطبع .

ومن الاسباب التي عجلت بانقراض الصوفية انغماس المنتمين اليهم في المحرمات والشهوات ، وظهور امثـال القلندرية ، حتى لم يبق معنى للتصوف عند هـؤلاء ومن اليهـم الا التكـدّي واستعمـال البنـج والافيون (١) .

---

(١) انظر الجزء الخامس من كتاب « الميزان في تفسير القرآن » للسيد محمد حسين الطباطبائي ص ٣٠٤ والجزء السادس ص ٢٠٤ .

الفصل الثالث عشر

مصدر المعرفة وحقيقة الكشف عند الغزالي[1]

كانت ابرز ظاهرة في كلام المحاضرين والمعلقين هي فكرة التصوف بعامة ، وتصوف الغزالي بخاصة ، وليس ذلك بعجيب ولا بغريب ، فلقد كان للتصوف اثره البالغ في الفلسفة والاخلاق والآداب عند العرب والمسلمين ، كما كان الهدف الاول لبحوث الغزالي ومحور اهتمامه ، وبه عرف واشتهر ، وتبوأ المكان الاسمى ، وبسببه اقيم هذا المهرجان شعرنا بذلك ام لم نشعر .

وبما ان بعض الزملاء قد نفى فكرة التصوف عن الاسلام والبعض الآخر اثبتها كان لزاما عليَّ بصفتي الدينية ان أُبيّن ما هو الحق ، مستندا الى كتاب الله ، وسنة نبيه ، لا الى قول امام ، او قياس .

ان لفظ التصوف بالذات لم يرد في الكتاب ولا في السنة ، فما من آية او رواية نصت على ان التصوف خير محبوب ، او شر مكروه ، ولكن الله ورسوله قد امرا بالتقوى والصدق والاخلاص ، ونهيا عن النفاق والرياء والخيانة . اذن ، فكل ما ينطبق عليه الصدق والاخلاص

(١) تليت في مهرجان الغزالي الذي اشرنا اليه في المقدمة .

فهو من الاسلام في الصميم ، وكل ما ينطبق عليه الرياء والنفاق فليس من الاسلام في شيء . وبهذا المقياس وحده يجب ان نقيس التصوف وكل موضوع حديث من الوجهة الدينية .

وبما ان تصوف الغزالي وامثاله هو التقوى والحب والاخلاص للانسانية كان حقا وهداية ، اما تصوف المرائين والمنافقين فبدعة وضلالة. وبهذا نوفق بين اقوال الطرفين المتنازعين ، فمن اثبتَ فكرة التصوف في الاسلام نظر الى المتصوفين المخلصين ، ومن نفاها عن الاسلام نظر الى تصوف الدجالين والانتهازيين .. فالنزاع اذن ناشىء عن سوء التفاهم ، والاشتباه في القصد والمرام .

ولما كان في ربط المعرفة بالتصوف الكثير من العمق والدقة والغموض فقد ركزت كلمتي هذه على امكانه في ذاته بصرف النظر عن التفاصيل ، واوردت الادلة على ان الكشف الصوفي او الحدس ، او الذوق مهما شئت فعبر ـ ليس محالا ولا ممتنعا . اما وجوده وتحققه في الخارج فاترك اثباته لغيري .

موضوع النقاش :

لقد دارت مناقشات حادة بين الفلاسفة القدامى والجدد حول مصادر المعرفة الانسانية واسبابها ، اما الهدف من تلك المناقشات فهو تحديد الموازين والمقاييس التي يعرف بها خطأ الفكر البشري من صوابه، والحقائق من الاوهام ، ولا يمكن القيام باية دراسة الا في ضوء مبدأ يعتبر المقياس الصحيح للقضايا التي تكون محلا للاختلاف والاخذ والرد مهما كان نوعها ولونها .

والآن ، ما هي مصادر المعرفة عند ابي حامد ؟ ما هو المقياس

الصحيح الواضح عنده لمعرفة الفكر الصائب ؟ وهل وجهة نظره في ذلك تختلف عن وجهات انظار الفلاسفة والمتكلمين ؟

لقد شك الغزالي في اشياء كثيرة ، ولكن لم يكن شكه ناشئا عن شذوذ في طبعه ، ولا عن اضطراب في اعصابه ، كما زعم البعض ، وانما السبب الاول والاخير تمرده على المجتمع وتقاليده — وبهذا كان اشبه بالحنفاء الذين تركوا قومهم يعبدون الاصنام ، وعكفوا على عبادة الواحد الاحد . اما الامور التي شك فيها ابو حامد فهي آراء الفلاسفة ، وطريقة المتكلمين والصوفية، ومعتقدات اهل الباطن. فقد رآهم يعتمدون على الحواس والعقل ، فهما الشاهدان العدلان عندهم . ولكن الغزالي رأى ان احد الشاهدين يكذب صاحبه ، فالعين ترى الكوكب بمقدار الدينار ، والعقل يراه اكبر من الارض ، واذا كذبت الحواس فبالاحرى ان يكذب العقل ، وعليه فلا يمكن الاعتماد على واحد منهما ، وبالتالي يتم مذهب السفسطة ، ويصدق قول السفسطائيين من انه لا يوجد دليل على شيء يركن اليه .

ولكن السفسطة كاسمها ليس لها من واقع ، فمحال ان تمر على الإمام ابي حامد بسلام ، وما كان الله ليدعها تفسد ما استصلحه بوحيه ورسله فقذف النور في قلب عبده المخلص ، وبصره بالحق بعد الغشوة ، وناجاه في عقله ، فاستصبح بنور اليقظة في بصره وبصيرته ، فرأى ان البصر وما اليه من الحواس الظاهرة تصدق فيما لا يكذبها به العقل ، كما لو رأت العين الجبال والاشجار . وتكذب فيما يكذبها به كرؤيتها الكوكب بمقدا رالدينار . ان العقل يصدق فيما لا يكذبه الوحي ، كحكمه بأن العالم قديم وان الله يعلم الكليات ، ولا يعلم الجزئيات مباشرة ، بل بالواسطة ، لانه يعلم ذاته التي هي سبب الاسباب ، وان الاجسام لا تحشر كما زعم الفلاسفة .

وبهذا حدد الغزالي اسباب المعرفة كلا في دائرة اختصاصه ؛ فالحواس مصدر المعرفة، ولكن فيموارد دون اخرى• ولو اعتمدناها في جميع الموارد لوجب ان نرفض كل فكرة لا يدرك واقعها بأحد الحواس، وهذا تقويض للكيان العلمي من الاساس • وكذا العقل فهو مصدر المعرفة في بعض الموارد دون بعض ، ولو اتخذناه مصدرا في كل مورد لاهملنا الكثير من حقائق الوحي والدين • وعلى هذه السبيل خطّأ الغزالي الفلاسفة ، لانهم اعتمدوا العقل في كل شيء ، ورد على المتكلمين لانهم قلدوا خصومهم الفلاسفة في كثير من المسائل ، ونعى على بعض الفرق الصوفية ، لانهم غابوا عن حواسهم وعقولهم ، وزعموا انهم يشاهدون في احوالهم الخاصة اشياء تناقض المحسوسات والمعقولات في امور لا يكذب فيها العقل والحس •

اذن الغزالي لا يسقط العقل عن الاعتبار والدلالة على الحق ، كيف وهو يؤمن بالوحي اكثر من ايمانه بنفسه ، وقد بالغ الوحي في قدرة العقل على الهداية والرشاد ، واعتبره المناصر الاكبر لاحكامه وتعاليمه : وانما ينكر الغزالي ان يكون العقل هو السبيل المطلق الى جميع الحقائق، حتى حقائق الوحي ودقائقه • وبهذا نعلم مكان الخطأ فيما جاء في الكتب الحديثة من ان الغزالي ناقض نفسه بنفسه ، حيث اعتمد منطق العقل في رده على الباطنية وغيرهم ، بينما نعى على الفلاسفة نهج العقل • كلا لا تناقض ولا تهافت ، فلقد رد الغزالي على الفلاسفة ، حيث اعتمدوا العقل فيما لا يخصه ولا يعنيه من معضلات الوحي ، ورد على الباطنية بالعقل فيما هو من شؤونه ومنطقه •

اهم اسباب المعرفة :

ان اهم اسباب المعرفة بعد الوحي عند الغزالي هو الكشف ومن اجله اخترت هذاالبحث ، وما اشرت اليه من الحواس والعقل انما هو

للتوطئة والتمهيد • وقد استعصى معنـى الكشف الذي عتبره الغزالي مفتاحا لاكثر المعارف ، استعصى على افهام الكثير، لان الناس انما تدرك وتتفهم الشيء المألوف لديهم ، وما يحسونه في انفسهم ، ويرونه عيانا في غيرهم ، اما ما لا عهد لهم بمثلـه فهم في ريب من وجـوده ، ومرية من لقائه •

وقد دارت حول الغزالي معـارك وآراء متضاربـة من اجل هذا الكشف فمنهم من عده من اهل البدع والضلالات ، وبعض المعاصرين له وضع رسالة في تكفيره• والاكثر الاغلب اعتبروه اماما في العلم والتحقيق، والتدقيق ، وحجة الاسلام على المسلمين في الاخلاق وامور الدين • بل ان هذا الوصف ،وهو حجة الاسلام قد صار عَلَماً عليه بالذات • وممن دافـع عنه ، وانتصر له الفيلسوف الشهير محمد بن ابراهيم الشيرازي صاحب كتاب الاسفـار ، والمعروف بصدر المتألهين [1] • ومهما يكن ، فان اختلاف الآراء حول شخصية الغزالي لبرهان ساطع قاطع على عظمته وعلو شأنه ، وقد حظيت آراؤه باهتمـام الفلاسفة في الشرق والغرب ، وحلت مؤلفاتـه محل الصدارة عند اهل العلـم وطلابه ، وقـادة الدين واصحابه على تباين مللهم ، واختلاف نحلهم •

حقيقة الكشف :

والآن ، فما هو الكشف الذي عناه الغزالي ، واعتبره مصدرا هاما من مصادر المعرفـة ، وبه صار في عداد الصوفيـة ؟ هل هو الاتصال ، والرواية عن الله بالمشاهدة ، كما يروي فلان عن فلان ، او هو اتحـاد

(١) واعتذر عن تكفيره الفلاسفة بأنه فعل ذلك غيرة على الدين وحرصا على الاسلام ، مع العلم بأن صدر المتألهين شيعي جعفري ، وحجة الاسلام سني شافعي ، ولكن لا سنة ولا شيعة في الفلسفة ولا في العلم ولا في الدين. ومن تتبع كتب السير والتاريخ يلاحظ أن الصلة بين علماء السنة والشيعة كانت فيما مضى أقوى مما هي عليه الآن .

الانسان بالله ، كما نسب الى ابي يزيد البسطامي ، او حلول الله بالانسان وجميع المخلوقات ، كما نقل الحلاج ؟

والجواب :

ان الغزالي قد بيّن معنى الكشف بأنه نور يقذفه الله في القلب ، ولكن هذا النور يحتاج الى توضيح وتحديد ، لان تفسير الكشف بالنور ، والنور بالكشف اشبه بتفسير الماء بالماء . وبديهة ان الحوادث والوقائع الملموسة هي التي توضح المفاهيم وتظهرها جلية على حقيقتها ، تماما كحوادث الكنغو [1] التي اوضحت معنى الاستعمار ، وكشفت الغطاء عن جميع اسراره . وليس لدي اية حادثة استشهد بها ، لان الكشف الصوفي من الامور التي لا تعرف الا من قبل الانسان نفسه . والذي فهمته من مطاوي كلمات الغزالي المتفرقة في آثاره هنا وهناك ، والمعنى الذي اتسم في ذهني من حيث لا اشعر ــ هو ان الغزالي اراد من الكشف والنور شهادةالقلب الطيب بما يراه ويحسه، وان ما يراه ويحسه هو عين اليقين ، اما القلب الخبيث فشهادته كشهادة الفاسق الفاجر يجب ردها وعدم الاعتماد عليها .

وهنا سؤال يفرض نفسه : هل من الممكن ان يرى القلب الشيء على حقيقته بحيث يكون معصوما عن الخطأ والاشتباه ؟ هل في القلب من المؤهلات ما تبلغ به مرتبة العلم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟

ولا استطيع انا بالخصوص ان اجيب بالايجاب على هذا السؤال اذا طلب مني الارقام والامثلة من الحوادث والوقائع المحسوسة

(١) اثارت الولايات المتحدة الاميركية وبلجيكا وبريطانيا المشاكل ضد تحرير الكنغو من باب احتقار الشعوب غير البيضاء المسيحية ، وانكار حق الحياة على تلك الشعوب .

والملموسة . ولديّ الجواب الكافي والشافي على ان هذا العلم ممكن في حد ذاته ، وغير مستحيل في طبيعته ، ومتى اثبتنا الامكان يصبح الوقوع سهلا يسيرا . والعقل لا يرى اية استحالة في هذا الكشف ، لان المحال في نظر العقل هو مبدأ التناقض ، اي ان يتصف الشيء بصفة ونقيضها في آن واحد . والكشف لا يستدعي شيئا من ذلك . وقد قال ابن سينا : كل ما قرع سمعك فذره في بقعة الامكان حتى يذودك عنه واضح البرهان . ومجرد الاستبعاد لا يصلح برهانا على شيء ، فان الانسان لو لم ير الراديو لنفاه واستنكره . والقلب السليم اشبه بالراديو السليم . فكما ان الراديو يلتقط الصوت كما هو دون تغيير وتبديل في كلمة او حرف او نقطة او حركة ، وكما ان آلة التصوير ترسم مناظر الطبيعة دون تحريف وتزييف اذا كانت صحيحة ــ فمن الممكن ان يشاهد الطاهر الزكي الواقع على ما هو عليه في حقيقته دون زيادة او نقصان . ومن هنا قال الامام علي بن ابي طالب : لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا .

وكما ان الراديو لا يلتقط الصوت الا بعد اجراءات ، وتوافر جميع الشروط ، بحيث اذا حصل له ادنى خلل توقف عن الالتقاط ــ كذلك القلب لا يشاهد الحقيقة الا بعد الجهد والاجتهاد من اجل صفائه وخلاصه من كل شائبة تقف حاجزا بينه وبين رؤية الحق . فاذا ما تدنس بالرذائل والارجاس احتجب عنه نور الحق . قال الامام علي بن ابي طالب : من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود اليه ابدا .

ولا غرابة في هذا التشبيه ، تشبيه القلب بالآلة اللاقطة ، فاذا كانت هذه الآلة الصماء قد أتت بالعجب العجيب فبالاحرى ان يصدر عن القلب ما هو اعجب واغرب :

وتحسب انك جرم صغير وفيك انطوى العالم الاكبر

وقد رأينا نوعا من الحيوانات كالخلد ، ليس له عينان ولا اذنان ، رأيناه يحس بما يُرى بالعين ، ويُسمع بالاذن ، وقد اثبتت التجارب ان الكثير من الكفيفين يقومون باعمال المبصرين دون ان يقع اي حادث وان بعضهم يحس بوجود الجدار والشجرة على بعد عشرة امتار او اكثر .

هذا هو الكشف الذي اراده الغزالي ، انه علم القلب الصادق ، وحدسه الصائب ، ويقظة الذات الامينة ، وشهادتها العادلة . وبهذا ، بحكاية القلب للواقع حكاية المرآة للوجه - كانت الذات هي الواقع ، وكان الواقع هو الذات ، لا فرق بين اكتشافها ما وراء الطبيعة بنور الاخلاص والايمان وبين معرفتها باشياء الطبيعة بالتجربة والعيان ، كلاهما عين اليقين . وليس لرجل العلم ان يتنكر لهذا الكشف ، ويرفضه بقول مطلق ما دام العلم نفسه لا يقر شيئا من الاحكام النهائية المطلقة .

ولا نجد عذرا لمن استبعد هذا الكشف ، وانكره على الغزالي الا انه قاس الغير على نفسه ، واتخذ من واقعه ميزانا للناس . ولو تم وجه الشبه بيننا وبين الغزالي لكان للقياس وجه ، اما ان نغرق في المادة الى ما فوق الآذان ، ثم نقيس انفسنا بأهل الطهر والايمان فانه قياس مع الفارق وتشبيه للضد بالضد . اما تصوف الغزالي فهو النسك والزهد في الدنيا بعد ان اقبلت عليه ، تصوف يحده الايمان بالله والعمل المنزه عن كل غاية من الغايات المشينة ، لا تصوف الذين تظاهروا بالزهد في الدنيا بعد ان زهدت بهم ، ولبسوا الخرق والمرقعات ، وتشبهوا بالاولياء ، ليتبرك بهم البلهاء .

لماذا اتجه الغزالي الى القلب ؟ :

بقي ان نتساءل : لماذا اتجه الغزالي الى القلب . واتخذ منه محورا لاهتمامه ؟

الجواب ان الغزالي اتجه الى القلب لاسباب :

(١) ان في قلب كل انسان استعدادا لان يكون اديبا ، ولان يكون تاجرا ، فان تغلبت الشهوات على القلب كان شيطانا ، واذا تغلب القلب عليها كان ملاكا ، ونرمز بالملاك الى سيطرة الفضيلة على الرذيلة ، وبالشيطان الى استبداد الرذيلة وتحكمها . فاجتهد الغزالي ان يكون القلب هو الغالب والمنتصر . ومتى انتصر القلب على الكذب والطمع والرياء ، وما الى ذلك من امهات الرذائل كان ما يحس به ويشعر حقا وصدقا .

(٢) ان اكثر اعمال الانسان الاعتيادية التي تحدث اثناء حياته اليومية مصدرها القلب لا العقل ، لانها تنبعث عن الرضا والغضب ، واليأس والرجاء ، والامن والخوف ، وكل هذه من صفات القلب . اما العقل فهو اصل القضايا الفنية ، والمخترعات العلمية . واذا كان له من شأن واثر في غير قضايا العلم فهذا الاثر العقلي لا يتعدى تزيين الالفاظ ، ونظم الاقيسة ، وتنميق الخطب للتأثير على السامعين ، ولو الى حين الانتهاء من الالقاء . وان ابيت الا ان تجعل اثرا ما للعقل في غير قضايا العلم فنؤكد لك ان هذا الاثر يقف عند النظريات ، ولا يتجاوزها الى الاعمال الاعتيادية والخلقية ، تماما كسلطة التشريع بالقياس الى سلطة التنفيذ . فالعقل هو المشرع ، والعاطفة هي المنفذ . فان استجابت للعقل، كان . والا فنظرياته صرخة في واد .

والدلالة الصادقة الواضحة على هذه الحقيقة اننا نؤمن نظريا بان هذا الشيء حق ، ثم نهمله ونتجاهله ، ونعتقد نظريا بان ذاك باطل ، ثم نفعله ونقدسه . والسر ان الانسان خاضع في اعماله لمنطق العاطفة لا لمنطق العقل ، ولا لمنطق الدين ، الا اذا تحول الدين الى العاطفة . اجل ، ان الانسان او العديد من افراد الانسان يتخيلون انهم يسيرون فياعمالهم

بوحي العقل والدين ، ولكنهم في الواقع مسيرون باملاء الهوى والغرض، وفي نفس الوقت يفسرون اعمالهم العاطفية بأوهامهم العقلية ، ويخلطون بين حقيقة الدين ، وبين ما يتراءى لهم انه من الدين • وتتجلى هذه الظاهرة ، ظاهرة الخلط بين انواع المنطق ـ تتجلى عند الباطنية اكثر من اية طائفة اخرى •

ومن اجل هذا ، ومن اجل ان القلب مصدر الاعمال التي يسببها الغضب والرضا ، والامن والخوف ، واليأس والرجاء اتجه الغزالي الى القلب ، حيث تكمن الادواء والاوباء ، واولاه كل رعاية وعناية •

(٣) ان للوحي واقعا في ذاته ، ولكن ما هو الطريق لمعرفة هذا الواقع ؟ هل نعرفه بالوحي ، وكلنا يعلم ان الشيء لا يثبت نفسه ، او نثبته بالعقل ، وهو عاجز عن حل المعضلات الالهية ! وقد رأينا آراء ارباب العقول متضاربة متباينة في هذا الميدان • فلم يبق الا القلب •• فهو المصدر الوحيد للايمان بالله وكتبه ورسله •

نوابغ الفكر الحديث :

ولهذا الرأي ، وهو الرجوع الى القلب في الالهيات انصار كثيرون من نوابغ الفكر الحديث ، منهم الفيلسوف الشهير « كانت » والكاتب الانكليزي هكسلي ، والالماني وانز ، والفرنسي رومان ، وغيرهم • وهكذا نرى الإمام الغزالي يسبق هؤلاء النوابغ بمئات السنين •

الانقاذ من الضلال :

لقد رجع الغزالي الى القلب لينقذ هذا الدين من المفاهيم الفاسدة، والافكار الخاطئة التي هددته بخطر بالغ •• لقد اراد الغزالي هذا الدين خالصا من تأويلات اهل الباطن ، وامعانهم في التعسف والتكلف ومن

جهل اهل الظاهر وجمودهم على الالفـاظ ، ومن شطحات الصوفية التي تجاوزت كل حد ، ومن اوهام الفلاسفة وتخيلاتهم التي اعتبرت حقـائق الوحي في مرتبة أدنى من اقيسة ارسطو وتصوراته .

وبهذا كان الغزالي مجددا عظيما ، ومصلحا كبيرا ، وإماما خالدا . ولو ان قادة الدين ساروا على سبيله هذه ، وبنوا الحياة الدينيـة على اساسه ، اساس الكتاب والسنة واطمئنـان القلب ، وتركـوا التمحلات والتعسفات ـ لو فعلوا هذا لاستراحوا واراحوا ، ولما وجد في المسلمين شاب متحذلق ، وآخر متزندق . ولما اضطـر الحريصون على الدين ان يضعوا المؤلفات الطوال في الدفـاع عنه ، ونفي الافكار الدخيلة عليه ، وكنا واياهم في غنى عن الكتب التي تحمل اسم الاشتراكية في الاسلام ، والسلم والاسلام ، والعدالـة الاجتماعيـة في الاسلام ، وما الى ذلك . اقول هذا ، مع ايماني بان اصحابها كتبـوا ونشروا بدافـع الغيرة على الاسلام ، والاخلاص للمسلمين ، وبأننا اليوم في اشد الحاجة الى هذه المؤلفات ، ومع احترامي الفـائق ، وتقـديري البالغ لجهودهم الطيبـة المثمرة .

وبالتالي ، فاذا نحن عظمنا وكرّمنا الإمام حجـة الاسلام الغزالي فانما نعظم ونكرم فيه الانسانية والعلم والدين . فلقد عاش الإمامالغزالي للناس لا لنفسه ، وعمل للدين لا للاتجـار به ، وجاهد في سبيل العلـم للعلم ، لذا سيبقى حيا مـا بقي الانسان والعلـم والدين « وذلك جزاء المحسنين » .

فلسفة المبدأ والمعاد

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على محمد واهل بيته الطاهرين ، ومن استن بسنته من الاصحاب والتابعين .

وبعد :

فان ابحاث هذا الكتاب تدور حول قول الله عز وجل : « وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو اهون عليه وله المثل الاعلى في السموات والارض وهو العزيز الحكيم » .

اما الفكرة التي ساقتني الى تأليفه فهي اني لاحظت اقبال الشباب على السلسلة الدينية « الله والعقل » و « النبوة والعقل » و « الآخرة والعقل » و « علي والقرآن » و « مفاهيم انسانية في كلمات الامام جعفر الصادق » ، لاحظت ان في النفس الانسانية ايمانا بالله يحدوها من وقت لآخر الى الاصغاء بلهفة وشوق للحديث عن هذا الايمان ، وما يتصل به من قريب او بعيد .

واذا اقبل الشباب على كتب التطرف والشهوات فليس معنى هذا انهم يعزفون عن كتب الدين ، حتى ولو كانت بالاسلوب الذي اعتادوه وألفوه .

ان الثقافة ــ اليوم ــ لا تقتصر على الدين ، والبحث عن الفرق

ومعتقداتها ، كما كانت بالامس ، بل تعـدت ذلك الى موضوعات شتى ليس بينها وبين الدين نسب ولا سبب ، لقد كانت الثقافـة الدينية هي السائدة والمسيطرة على العقول ، وكان رجال الدين يوم زمان في غنى عن سواها اذا ارادوا الارشاد والتبشير ، اما اليوم فتقتصر هذه الثقافـة على قلة خاصة ، فاذا ارادت هذه القلة أن تبلغ الغاية من دعوتها فعليها ان تمتد الى ابعد مما كان عليه السلف ، ولو في طريقة العرض والاسلوب ، ولقد بذلتُ جهد المستطاع مستعينا بالله سبحانه ان يستسيغ شبابنا ما سطرته في هذه الصفحات .

بقي شيء لا بد من التنبيه اليه ، وهو اني قد استعنت كثيرا بآراء الفيلسوف الكبير الشهير محمد بن ابراهيم الشيرازي المعـروف بصدر المتألهين ، بخاصة كتابه « المبدأ والمعاد » فلقد اعتمدت على هذا العظيم الذي يحرص كل الحرص على ان يقدم للنـاس خير ما يمكن ان يقدمه فيلسوف تجرد للحق والواقع .. هو فيلسوف ، ولكنه يرفض في فلسفته طائفة من آراء الفلاسفة ، ويصحح اخطاءهم في مسائل ، نذكر منها على سبيل المثال : قولهم بالمعاد الروحانـي دون الجسماني ، وقولهم بان الله يعلم الكليات دون الجزئيات ، كما يرفض قول جمهور المتكلمين باعـادة البدن دون الروح ، ويعتقـد باعادتهمـا معا ، على عكس ما ذهب اليه الفلاسفة والمتكلمون جميعا .

اما مكانته من العلم فلا تقل عن مكانتـه من الفلسفة ، فمن تتبع اقواله في كتاب « الاسفار » وكتاب « المبدأ والمعاد » يجد في مطاويهـا جذور نظرية الجاذبية ، ونظرية التطور بأكمل معانيها ، والحركة الطبيعية في المادة بشتى انواعها ..

قال في كتاب « المبدأ والمعاد » ص ٢٩٠ طبعـة ايران بالحجر سنة ١٣١٤ هـ. ما نصه بالحرف : « ليس من شرط الارض ان تكون صورتها

هذه الصورة الارضية ـ الحالية ـ بل يجوز انقلابها من الارضية الى صورة اخرى » . اي ان الارض يمكن ان تتطور الى حالات شتى ، وهذه بعينها النظرية الحديثة القائلة بان المادة مؤلفة من ذرات منثورة في فراغ . وبين ذرة واخرى مسافة كبيرة ، بحيث اذا امكن كبس الارض يصبح بالامكان ان توضع في كيس متوسط الحجم .

وغريبة الغرائب ان لا يكون لهذا العظيم في كتب المستشرقين وغيرهم ممن كتب في الفلسفة وتاريخها ما لغيره من الذين هم دونه خطرا ، واقل اثرا .

وبالتالي . فاني اقر واعترف بانه لولا ان يتاح لي الاطلاع على آثار هذا العظيم ما كنت لاحاول وضع هذا الكتاب ، على الرغم من رغبتي الحارة في وضعه وتأليفه ، واخص بالذكر من آثاره كتاب « الاسفار » وكتاب « المبدأ والمعاد » وكتاب « المظاهر الإلهية » . والله سبحانه ولي التوفيق ، وهو المسؤول ان يحقق ما اردت من هذا المجهود . انه ارحم الراحمين .

البديهيات

العلم اما بديهـــي ، واما كسبي ، ولا يكون بديهيا بكامله والا لم نكن بحاجة الى البحث والدرس ، وكان الناس جميعهم علماء ، وايضا لا يكون نظريا باجمعه ، والا انسد باب العلـــم ، ولم يكن في الناس عالم واحد .

والبديهيات هي التي يصدقهـــا العقـــل ، ويجـــزم بها بمجـــرد ان يتصورها ، ويعقلها ، سواء اتصورها عن طريـــق الحواس الظـــاهرة ، كالطعم واللون والريح والحرارة والبرودة، او عن طريق المشاعر الباطنة، كالجوع والشبع ، والحب والبغض ، والفرح والحزن ، واللذة والالم ، فكل هذه وما اليها يصدق بها العقل بدون توقف وانتظار لاي شيء آخر، لان علة التصديق بها موجودة فيها بالذات .

فكل انسان عالما كان او جاهلا يدرك ان المثلث غير المربع ، والمربع غير المستدير ، وان الطويل غير القصير ، والشك غير اليقين ، والعلم غير الجهل ، والصحة خير من السقم والعدل خير من الجور ، والنور خير من الظلمة ، وما الى ذلك مما يندرج تحت مبـــدأ « عدم جواز التناقض » ومن البديهيات ايضا ادراك الانسان وجود نفسه .

وتعتمد الفلسفة ــ قبل كل شيء ــ على البديهيات ، اذ بها تبرهن على صحة النظريات ، وتعالج مشاكل الوجود .

العقل ومعرفة الحقيقة :

وهنا سؤال : ما الدليل على الركون الى العقل ، وعلى انه حجة متبعة في البديهيت وغيرها ؟ مع العلم بان فئة من الفلاسفة قالت باستحالة معرفة الحقائق وادراكها ، سواء منها البديهية والنظرية ، لان الحواس تخطىء ، والعقل ايضا يخطىء ، وعليه فلا يبقى من سبيل لمعرفة اي شيء من الحقائق .

الجواب :

ان الذين شككوا في حكم العقل ، واسقطوه عن الدلالة والاعتبار، قد استعملوا منهج العقل ، ونقدوا العقل بالعقل ؛ اي انهم انكروه نظريا، وآمنوا به عمليا من حيث لا يشعرون ، وقديما قيل :

« من انكر الفلسفة فقد تفلسف » .

هذا الى انه لو اسقطنا العقل ، لا يبقى اي مجال للفلسفة ، ولا للعلوم ، ولا الحضارات ، ولا لشأن من شؤون الانسان ، اذ يكون هو والحيوان سواء في القياس .

وبالتالي ، فان كفاءة العقل ثابتة بالبديهة ، تماما كبداهة ان العشر اكثر من الواحد ، اجل ، ان العقل لا يدرك جميع الحقائق بحيث يكون مصدرا لكل المعارف .

والحقيقة التي يدركها العقل لا تقبل التعديل ولا التأويل ، ولا يعرضها الشك مهما طال الزمن ؛ فاذا قلنا : اذا صدق قولنا كل انسان حيوان صدق بعض الحيوان انسان فهذا لا يمكن ان يقبل الشك بحال .

الوجود

ما معنى الوجود ، وهل يدرك بالبديهة ، وبدون حاجة لاعمال الفكر ، او انه لا يدرك الا بالاستدلال والاستنتاج ؟ وهل هو بسيط او مركب ؟ وهل ماهية الشيء عين وجوده ، او زائدة عنه ؟ وهل للوجود من سبب ؟. وبالتالي ، هل من الممكن ان يكون هناك وجود آخر وراء هذا الوجود الطبيعي ؟.

الوجود معروف :

لا يحتاج الوجود الى الحد والتعريف ، لفرط ظهوره ، ومن الذي لا يدرك وجود نفسه ــ على الاقل ــ ؟! ثم لو حاول انسان ان يعرف الوجود ، فبأي شيء يعرفه ؟ هل يعرفه بغير الوجود ، او بالوجود ؟ والاول محال ، لان التعريف لا بد ان يكون مساويا للمعرف ، والثاني تحصيل حاصل ، مضافا الى انه مستلزم للدور او التسلسل .

اجل ، اذا ذهل عنه ذاهل امكن ان ينبه اليه بلفظ مرادف له ، كالثابت والحاصل .

ديكارت :

يرى ديكارت [1] ان الوجود لا يدرك بالبديهة ، وانه لا سبيل

(١) من فلاسفة الفرنسيين في القرن السابع عشر .

الى معرفته الا بالنظر واعمال الفكر ، حتى وجود انفسنا لا يدرك الا بالاستنتاج العقلي المبني على مبدأ العلية ، ذلك ان ديكارت لا يؤمن بمعرفة الحواس الظاهرة ، ولايقطع بيقينها ، ولا بيقين غيرها من الحواس الباطنة الا اذا ايدها العقل ، فهو يشك بوجود كل شيء الا بوجود الفكر لانه وحده الذي لا يقبل الشك ، اذ به يحكم على الشيء بالصحة والبطلان ، ولو افترضنا عدم وجود الفكر لاستحال الحكم بحال من الاحوال ، ومن اجل هذا قال ديكارت : « انا افكر اذن انا موجود » فقد استدل بالفكر على وجود نفسه ، واستعمل لذلك الاستنتاج المبني على مبدأ العلية ، وعليه فلا يكون ادراك الوجود بديهيا بل نظريا .

الجواب :

اولا ــ ان هذا استدلال بوجود خاص على وجود خاص مثله ، وهو خارج عن محل الكلام ، لانه في الوجود المطلق .

ثانيا ــ اذا كان العلم بوجود الفكر بديهة لا يحتاج الى دليل كان اللازم منه العلم بالوجود ، لان الفكر وجود ، لا شيء آخر وبتعبير ثان ان الكلام في بداهة كنه الوجود الذي هو معنى مشترك بين جميع الموجودات فكرا كان الوجود ، او جسما ، فاذا ادركنا الفكر بالبداهة ، فقد ادركنا الوجود كذلك .

الوجود بسيط :

الوجود ابسط المعاني واعمها ، فلا جنس له ، لانه جنس الاجناس، وما لا جنس له لا فصل له ، وكل ما يعرض للوجود فهو وجود ، والشيء لا يكون جزءا لنفسه .

لا سبب للوجود :

والوجود بما هو وجود لا سبب له ، لان ما من شيء الا وهو

وجود ، والشيء لا يكون سببا لنفسه ، قال صدر المتألهين في الاسفار : « الوجود من حيث هو وجود لا فاعــل له ينشأ منه ، ولا مادة يستحيل اليها ، ولا موضوع يوجد فيه ، ولا صورة يتلبس بها ، ولا غاية يكون هولها ، بل هو فاعل الفواعل ، وصورة الصور ، وغاية الغايات » .

ليس له فاعل ، لان الشيء الواحد لا يكون فاعلا ومنفعلا من جهة واحدة ، ولا يستحيــل الى غيره لان الشيء لا يستحيل الى نفسه ، ولا يتلبس بها ، ولا يكون غاية لها ، وليس الوجود جوهرا فقط ، كي يكون موضوعــا لغيره ، ولا عرضا فقط ، كي يعــرض على غيره ، بل الجوهر وجود ، والعرض وجود ، وبالاختصار ان كل هذه الحــالات تستدعي الاثنينية وهي منتفية .

الماهية ووجودها :

ان وجود الشيء في الخارج عين ماهيته خارجا ووجوده في الذهن عين ماهيته ذهنا والتغاير بينهما اعتباري لا واقعي ، ولو قلنا : ان الوجود زائد على الماهية لكان الشيء مستقلا عن وجوده ، ووجوده مستقلا عنه ، وهو محال ، هذا ، الى ان الماهية بحد ذاتها ، ومع قطع النظر عن وجودها تكون عدما لا وجود لها خارجا وذهنا ، فاذا ضممنا اليهــا الوجود يلزم اجتماع النقيضين ، اي اتصاف الوجود بالعدم ، ومن هنا يتبين خطأ القول « بان الوجود والماهية شيئان متمايزان من حيث ان الماهية قد لا توجد » لان عدم وجود الماهية في الخارج والذهن لا يدل على انها غير الوجود ، بل هي والحالة هذه ، ليست بشيء ..

العلم والوجود :

كل علم يتناول في بحوثه نوعا خاصا من الجماد ، او النبات ، او الحيوان ، او الانسان ، اما الفلسفة فموضوعها الوجود المشترك بين

جميع الموجودات مجردا عن كل خصوصية وتعيين ، وبهذا يتبين معنا ان جميع العلوم تتصل بالوجود ، وتتعلق به تعلقا وثيقا ، ولولا الوجود لما امكن اثبات اية حقيقة من الحقائق ، وايضا تبين ان للفلسفة الرياسة الاولى على جميع العلوم ، وان كل حجة وبرهـان لا بد ان يستمـد اصله من الفلسفة بالذات ، ومن اجل ان الوجـود المطلـق موضوع للفلسفـة ، والوجودات الخاصة موضوعات لسائر العلوم، مهدنا ـ قبل كل شيء ـ بالاشارة الى معنى الوجود ووضوحه وبساطته وشموله •

العلم الإلهي :

قسموا العلوم الى ثلاثة انواع : طبيعـي ، وهو علم لا يتجرد عن المادة ذهنا وخارجا ، ورياضي وهو علم مجرد عن المادة ذهنا لا خارجا ، والهي وهو ما تجرد عن المادة ذهنا وخارجا •

والعلم الالهي علم فلسفي عـام بالقياس الى عموم موضوعه الذي هو الوجود المطلق ، والهدف الاول لهذا العلـم هو استكشاف العلـة الاولى للاشياء ، وتحديد صفات تلك العلـة ، واذا بحث العلـم الالهي المنطق ومبادىء المعرفـة ، والامور العامـة (١) فانما يبحثهـا كوسيلة لاستكشاف العلة الاولى ، لا كغاية •

العقل وما فوق الطبيعة :

هل الوجود نوع واحد منحصر في الطبيعة فقط ، او نوعان طبيعي، وآخر فوق الطبيعة ؟

سؤال ثان : وعلى افتراض ان هناك وجودا فوق الطبيعة ، فبـأي

---

(١) وهي التي تلحق الموجود من حيث انه موجـود بصرف النظـر عن كونه جسما او روحا ، مثل القوة والفعـل ، والكلي والجزئي ، والوجوب والامكان ، والعلة والمعلول ، وما الى ذلك .

شيء يدرك هذا الوجود ؟ هل يدرك بالعقل ، او بالقلب ، او بالوحي ، او لا يمكن ادراكه والوصول الى معرفته بطريق من الطرق ؟.

وينبغي عدم الخلط بين السؤالين ، كما فعل الماديون حيث نفوا وجود ما فوق الطبيعة بدعوى ان كل ما لا تتناوله الحواس والتجربة فليس بشيء ، وبديهة ان هذا ليس نفيا لوجود الله سبحانه ، وهو في حقيقته حصر لوسائل المعرفة بالحس والتجربة ، وهو محل النقاش والجدال .. فان هناك العقل كما يقول المشاءون ، والقلب كما تقول المتصوفة .

وايضا ينبغي عدم الخلط بين وجود المبدأ وهو الله سبحانه الذي لا يمكن اتصافه بالمادة ، ولا اتصافها به ، ولا نسبته اليها بحال ، وبين المعاني المجردة كالنفس والادراك ، وما اليه مما تتصف به المادة ، وتصح نسبته اليها ، فيقال : هذا الجسم متنفس ومدرك ، ولا يصح نسبة شيء من صفاته تعالى الى المادة ، ومن هنا كان النقض بوجود هذه المعاني على من انكر وجود الله نقضا في غير محله للفرق البعيد بينهما ، اذ من الممكن ان يدعى ان النفس والادراك وما اليه شأن من شؤون المادة ، ولا يمكن بحال ان يدعى ذلك بالنسبة اليه عز وجل .

ومهما يكن ، فقد تعرض وجود ما فوق الطبيعة ، اي المبدأ الاول لهجمات كثيرة ، منها انه غير موجود اطلاقا ، ومنها ان الاستدلال عليه متعذر ، وغير ممكن ، لا من الحواس ، ولا من العقل ، ولا من القلب ، ولا من الوحي . اما العارفون فلا يرتابون بوجوده سبحانه، وان السبيل الى معرفته العقل وحده ، لان رؤيته بالحواس محال ، وبالقلب محل تأمل ، وبالوحي يلزم الدور ، فانحصر الطريق بالعقل .

وضابط الدليل العقلي يتلخص بهذه الكلمة :

ان نستكشف وجود الملزوم من وجود اللازم، وبالعكس، وانتفاءه

من انتفائه . اي ننتقل من العلم بحادثة واقعة الى العلم بحدوث واقعة اخرى تلزمها قهرا ، ولا تنفك عنها بحال ، كملازمة النار للاحتراق ، والفيضان للخراب ، والمكروب للمرض ، وهذه الكلمة الموجزة تغني عما ذكر في كتب الفلسفة من مبدأ العلية والاقيسة، وما لم يذكر فيها وبمنطق العقل نستدل على المبدأ الاول بالادلة التالية :

حدوث الممكن (١) :

يفترق الواجب عن الممكن بان وجود الواجب ضروري في الازل والابد ، فلا اول كان قبله ، ولا آخر يكون بعده ، اما الممكن فلا ضرورة لوجوده ولا لعدمه ، فقد يوجد ، وقد لا يوجد ، ولا يترجح وجوده على عدمه الا بمرجح ، ومن هنا احتاج الحكم على الممكن بالوجود الى ملاحظة شيء زائد عن ذاته ، بينما الحكم بوجود الواجب لا يحتاج الى اكثر من تصوره لان ذاته تستدعي الوجود بنفسها .

وليس من شك ان الكائنات الممكنة كثيرة الوجود بشهادة الحس والوجدان ، فانا وانت — ايها القارىء — من الكائنات الممكنة ، وكذا كل موجود يشبهنا من حيث التغير والانتقال من حال الى حال ، وكذا كل من وما سيوجد في المستقبل ، لانه لو كان وجودنا واجبا بالذات لوجدنا منذ الازل ، وبقينا الى الابد على وتيرة واحدة لان الواجب ثابت من جميع جهاته .

واذا كان الممكن موجودا بالفعل كانت علته موجودة كذلك ، لان

---

(١) الاستدلال تارة يكون بحدوث الممكن كما هو مقرر اعلاه ، وتارة بامكان الممكن ويقرر هكذا : كل ممكن يحتاج في ترجيح وجوده على عدمه الى موجب ، فان كان هذا الموجب واجبا فذاك ، والا دار او تسلسل ، ومهما يكن فنتيجة الاستدلال بحدوث الممكن ، او بامكان الممكن ، او بهما معا واحدة .

الممكن ما لم يجب لم يوجد ، اي لا يوجد الا بعد وجود علته التامة [1] فان كانت هذه العلة واجبة الوجود فذاك وان كانت ممكنة احتاجت الى علة فيلزم الدور او التسلسل ، فتعين وجوب العلة ، وعدم احتياجها الى مؤثر .

ويرد على هذا المسلك الذي يسمى بحدوث الممكن اشكالان :

الاشكال الاول : لا نسلم ان هذه الكائنات التي ظهرت للعيان ، والتي ستظهر هي من الكائنات الممكنة ، بل هي بموادها واجزائها واجبة ، فلقد كانت موجودة في الازل ، وستبقى الى الابد ، والذي يظهر ثم يختفي هو الصورة العارضة فالمادة التي يتكون منها الانسان وغير الانسان لم يسبقها العدم ولم يلحقها بحال ، وانما تتعاقب عليها الاشكال والهيئات فهي اشبه بعروض الالوان على الاجسام ، اما الجوهر والاصل فأزلي أبدي .

الجواب :

ان هذا اعتراف صريح بوجود الممكن ، لان الصورة حدثت للمادة بعد ان لم تكن ، وكل حادث لا بد له من محدث [1] فان كان هذا المحدث قديما فهو المطلوب ، وان كان حادثا احتاج الى محدث فيدور او يتسلسل ، هذا الى ان صور الاجسام اذا كانت حادثة ، فلا بد ان يكون

---

(١) قضى محمد بن ناماور المعروف بالخونجي (ت ٦٤٩ هـ) حياته مشتغلا بالمنطق درسا وتدريسا وتاليفا ، وعند موته قال : « ما علمت شيئا الا علمي بان الممكن يفتقر الى مؤثر » .

(٢) قال صدر المتألهين في الجزء الثاني من السفر الاول من « كتاب الاسفار لو ابطلنا هذه القاعدة لم يمكننا اثبات واجب الوجود » اقول : بل يبقى دليل النظام والادلة العلمية ، اي التجربة كما يأتي ، ودليل الحدس الذي اعتمده الصوفية فكل شيء يدل على الله لا هذه القاعدة وحدها .

معروضها حادثا ايضا ، لان القديم لا يكون محلا للحوادث ، ويأتي التفصيل .

الاشكال الثاني : ان حدوث الممكن ان دل على شيء فانما يدل على ثبوت واجب الوجود ، وكفى ، اما اثبات كونه مدبرا حكيما صانعا للعالم ــ كما هو المقصود ــ فلا .

الجواب :

ان المقصود من الاستدلال بحدوث الممكن هو اثبات الواجب فقط ، اما كونه صانعا وحكيما فله مسلك آخر يأتي عند الكلام على علم الله سبحانه وقدرته وحكمته ، وبكلمة ان هذا ليس باشكال وايراد ، وانما هو تقرير للمقصود والمراد .

دليل الحركة :

كل جسم طبيعي متحرك بالانتقال من مكان الى مكان ، او من القوة الى الفعل ، او بالتحويل من صورة الى صورة ، كصيرورة التراب نباتا ، والنبات دما ، والماء بخارا ، والبخار ماءا ، وما الى ذلك . ومحال ان يكون المتغير واجبا بالذات ، لان الواجب ثابت لا يتغير ، واذا كانت الحركة ممكنة فلا بد لها من محرك ثابت ، والا احتاج الى محرك ، فيدور او يتسلسل ، وهذا الدليل يرجع في حقيقته الى الدليل الاول ، او متمم له .

دليل النظام :

وهو ابين الادلة جميعا، ويتلخص بان هذا النظام البادي في الكون، وهذا التناسق بين اجزائه يستحيل ان يكون بالمصادفة ، لان المصادفة لا نظام لها ، ولا قوانين ، واذا ادت مرة واحدة الى النظام ، فلا تؤدي اليه

في كل مرة ، ولا تكـون السبب في استمـراره واطراده مدى القـرون والاجيال • ولو كان نظام الكون من باب المصادفة ، وعلى غير اساس من القوانين والسنن الثابتة لاستحال على العلمـاء ان يكتشفـوا شيئا ، او يتنبؤا بشيء ، مع ان كشوفهم تجـاوزت الاحصاء ، وتنبؤاتهم بلغت من الدقة قدرا استطاعوا معه ان يخبروا عن الكسوف والخسوف وغيرهما من الظواهر قبل وقوعها بمئات السنين •

هذي هي الادلة الفلسفية على وجـود الله سبحانه التي توارثهـا الفلاسفة وعلماء الكلام خلفا عن سلف وان لها من اليقين ما للمشاهدات التجريبية ، اما الشبهات التي اثارها المنكرون والمشككون فهي مجـرد سفسطة لا تبتني على اساس ، واذا نسخ العلم الحديث العلم القديم فانه ومعه الفلسفةالحديثة اعجز من ان ينـال من هذه الادلة • قال « ادوارد لوثر » الامريكـي استاذ علـم الاحيـاء ، ورئيس قسم بجامعـة سان فرنسيسكو : « ان البحث العلمي اضاف خلال السنـوات الاخيرة ادلة جديدة على وجود الله زيادة على الادلة الفلسفية التقليدية » •

الله يتجلى في عصر العلم

هذا العنوان اسم كتاب لمجموعة من المقالات ، كتبها طائفة من علماء الغرب ، واساتذة الجامعات المتخصصين في شتى فروع العلم ، كالكيمياء ، والفيزياء ، والاحياء ، والفلك ، والرياضيات ، والطب ، وغيرها ، وبلغت صفحات الكتاب ١٧٠ ، وقد حلق بي ـ وانا أقرأه ـ في جو انكشف فيه الغطاء عن ادلة على وجود الله سبحانه تكمن في كل نفس ، ولا يحول بينها وبين الانسان الا الذهول ، وعدم الانتباه ، والا امور طارئة كثيرا ما تقف حاجزا بين المرء ووجدانه ، وتعميه ، حتى عما يكمن في فطرته واعماقه ، ومن المفيد ان انقل طرفا من تلك الادلة ، وبعضها تلخيص بتصرف لمقال حواه الكتاب ، وبعضها من وحيه ، انتقلت اليه ، وانا امعن النظر في كلماته ، ومنها جمل مقتطفة من اقوال بعض العلماء تصلح بنفسها ان تكون دليلا مستقلا .

سبيل المعرفة الى الافلاك :

كثيرا ما يتفق لنا ان نمر بمكان لا اثر فيه لصانع من غرس او بناء ، وبعد برهة نمر به فنجد بناء شامخا تحيط به حديقة غناء ، فنجزم بالبداهة ، وعلى الفور ، وبدون التفات الى مبدأ العلية ، وضرورة التلازم بان عارفا بفن البناء والغرس قد بنى وغرس ، مع العلم باننا لم

نشاهد الغارس والباني حين العمل ، ولم نعرف عنهما شيئا من قبل [1] .

وبهذاالاسلوب نستدل على وجود الخالق، فان هذا الخلق والكون بالنسبة الى الخالق والمكوّن ، تماما كالبناء والغرس بالنسبة الى الباني والغارس ، وهذاالمنطق ــ كما ترى ــ سهل وبسيط للغاية ، ولكنه صادق لا ريب فيه ، بل هو الاسلوب الوحيد الذي قام عليه علم الفلك الذي هو من اقدم العلوم الطبيعية ، فنحن لا نستطيع ــ الآن ــ ان نخضع الكواكب والاجرام السماوية لحكم التجربة ، كيف وبيننا وبينها الوف الاميال ؟! ومع ذلك نعرف كثيرا من حقائقها بهذا الاسلوب السهل البسيط ، اي نعرفها بآثارها لا بذواتها ، وايضا بهذا الاسلوب درس علماء الذرة ، واستخدموا قوانين الكتلة والطاقة مع انهم لم يروا الذرة ، حتى الآن .

فكيف يسوغ التسليم بهذا المنطق ، منطق الاستدلال بالآثار ، ويستعمل في العلوم الطبيعية ، ثم يجحد في معرفة الله سبحانه ؟! وهل هذه التفرقة الا تفرقة بين الشيء ونفسه ؟!.

وهذا الاسلوب الفطري اصح واصدق الف مرة من التجربة التي يؤمن بها التجريبيون ، ولا يعترفون باي طريق سواها ، اصح واصدق لانه يؤدي الى اطمئنان النفس ويقينها تلقائيا دون ان يلتفت الانسان الى

---

(١) يقول سيد الشهداء الامام الحسين بن علي مخاطبا ربه تعالى : « متى غبت حتى تحتاج الى دليل يدل عليك ؟! ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل اليك ، عميت عين لا تراك عليها رقيبا » اي ان معرفته سبحانه فطرية بديهية لا تفتقر الى الاستدلال بالآثار . وما انكر من انكر وجود الله الا من كان بعيدا عن الله ، اما من يتجه اليه فانه يجده لا محالة .

مبدأ العلية ، وضرورة التلازم ، او الـى شيء آخر [1] فبمجرد ان نرى الكتابة نقطع بوجود الكاتب حتى الجاهل الذي لا يعرف شيئا عن مبدأ العلية يحصل له اليقين الذي لا يقبل التعديل والتبديل بحال من الاحوال، او زمان من الازمنة .

اما المبادىء والافكار التي تتلقاها من التجربة فانها اجتهادية ظنية وليست يقينية ، ومن هنا كانت عرضة للاخطاء ، وقابلة للزوال بالمرة ، او للتعديل على ايدي غيرنا ممن عاصرناه ، او من يأتي بعد عصرنا ، وقد رأينا العالم العارف اذا اهتدى الى نظرية يقول : هذا ما وصلت اليه الآن، وقد يستجد عند اعادة النظر لي او لغيري ما يوجب العكس .

وبالتالي ، فلا غنى للعلوم الطبيعية ، او للرياضيات ، ولا للفلسفة، ولا للدين والاخلاق والاجتماع ، ولا لغيره عن هذا المنطق وهو الاستدلال بالآثار ، لأنه بديهي فطري لا يقبل التخصيص والتشكيك .

العالم حادث :

من مقالات الكتاب مقال مطول بعنوان « النتيجة الحتمية » كتبه « جون كيفلاند كوتران » من علماء الكيمياء والرياضة ، ورئيس قسم العلوم الطبيعية بجامعة دولث ، جاء فيه :

« تدلنا الكيمياء على ان بعض المواد في سبيل الزوال والفناء، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة ، والآخر بسرعة ضئيلة . وعلى ذلك

(١) ينكر التجريبيون مبدا العلية وفكرة التلازم الضروري بين شيئين لان هذه الضرورة لا تنطبع على شبكة العين ، ولا تقرع طبلة الاذن ، وسواء اكان هذا القول خطأ او صوابا فانه اجنبي عما نحن بصدده ، لان الانسان كما قلنا يجزم تلقائيا بوجود الفاعل بمجرد ان يرى الفعل دون ان يلتفت الى مبدا العلية وضرورة التلازم .

فان المادة ليست ابدية ، ومعنى ذلك ايضا انها ليست ازلية ، لان لها بداية ، وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على ان بداية المادة لم تكن بطيئة او تدريجية ، بل وجدت بصورة فجائية ، وتستطيع العلوم ان تحدد لنا الوقت الذي نشأت فيه هذه المواد ، وعلى ذلك فان هذا العالم المادي لا بد ان يكون مخلوقا ، وهو منذ ان خلق يخضع لقوانين وسنن كونية محددة ليس لعنصر المصادفة بينها مكان » .

ومن مقال لـ « ادوارد لوثر كسبل » اخصائي في علم الحيوان والحشرات ورئيس قسم بجامعة سان فرانسيسكو :

« تثبت العلوم بكل وضوح ان هذا الكون لا يمكن ان يكون ابديا .. ولا تقتصر ما قدمته العلوم على اثبات ان لهذا الكون بداية ، فقد اثبتت فوق ذلك انه بدأ دفعة واحدة منذ ملايين السنين .. واليوم لا بد لمن يؤمن بنتائج العلوم ان يؤمن بفكرة الخلق ايضا .. وليس من المعقول ان يكون هناك خلق دون خالق هو الله » .

واذا انتهى كل من العلم والفلسفة الى ان العالم حادث قد اتصف بالوجود بعد العدم ثبت بالضرورة ان له محدثا قديما لم يسبق بالعدم ، وفي اتفاق العلم والفلسفة على حدوث العالم دلالة صريحة واضحة على احكام هذه النظرية ، وبداهتها ، وانها ابلغ في الصدق من اليقينيات التي تعتمد على المشاهدات التجريبية .

الارض :

الارض كرة معلقة في الهواء تدور حول نفسها مرة واحدة كل ٢٤ ساعة ، فيكون تتابع الليل والنهار ، وتسبح حول الشمس مرة كل عام ، فيكون تتابع الفصول الاربعة التي تزيد من تعدد النباتات وتنوعها اكثر

مما لو كانت الارض ساكنة ، ويحيط بالارض غلاف غازي يشتمل على الغازات اللازمة للحياة ، وتمتد حولها الى ارتفاع يزيد على ٥٠٠ ميل ، ويحول هذا الغلاف الجوي دون وصول الملايين من الشهب القاتلة المتساقطة يوميا من الكواكب الاخرى ، كما يحفظ هذا الغلاف درجة الحرارة المناسبة للحياة ويحمل بخار الماء من المحيطات الى مسافات بعيدة داخل القارات ، حيث يتكاثف مطر يحيي الارض بعد موتها ، ومن هنا نرى ان الجو والمحيطات الموجودة على سطح الارض تمثل عجلة التوازن .

ثم لو كان قطر الارض اصغر مما هو عليه لعجزت عن الاحتفاظ بالغلافين الجوي والمائي اللذين يحيطان بها ، ولصارت درجة الحرارة بالغة حد الموت . ولو كان قطرها اكبر مما هو لزادت جاذبيتها للاجسام ، وتؤثر هذه الزيادة ابلغ الاثر في الحياة على سطح الارض .

ولو بعدت الارض عن الشمس اكثر من المسافة الحالية لنقصت كمية الحرارة التي تتلقاها من الشمس . ولو قربت منها اكثر مما هي الان لزادت الحرارة ، وفي كلتا الحالين تتعذر الحياة على سطح الارض .

فكروية الارض ، والفراغ الذي يحيط بها ، ودورانها حول الشمس ، واحاطتها بالغلاف الجوي ، ووضعها في هذا المكان الخاص ، وكون قطرها بهذا المقدار الخاص ، كل اولئك تهيء للانسان اسباب الحياة على الارض ، والاستمتاع بها على النحو الذي نشاهده في حياتنا ، ولو فقد وصف واحد من هذه الاوصاف ، كما لو كانت الارض مسطحة او اصغر او اكبر ، او أبعد ، او أقرب الى الشمس ، او فقد الغلاف لاستحال على الانسان ان يكون ابن الارض بشهادة العلماء . وليس من المعقول ان يكون هذا النظام العجيب الدقيق مجرد مصادفة بل بحكمة حكيم ، وتدبير مدبر ، وتصميم سابق .

الدين والعلم :

لو قال قائل : ان خالق الكون قوة عمياء ، لا ارادة له ولا علم ، او قال : انه مريد ، ولكنه ليس بعالم ولا حكيم ، او هو عالم ، ولكنه يظلم ولا يعدل ، ويقسو ولا يرحم ، لا يجب عليه شيء ، ولا يقبح منه شيء ، لو ادعى مدع شيئا من ذلك لرفض العلم دعواه ، وجزم ببطلانها .

اما اذا قلنا ان الخالق قادر مريد ، وعالم حكيم ، وعادل رحيم فان العلم يرحب بهذا القول ويقره ، ذلك ان اثبات الخلق والقدرة والارادة والعدل والحكمة والتدبير لله سبحانه يعتمد طريقة الاستنباط ، وهي تلازم الطريقة العلمية ، وبدون الاستنباط لا يتم للعلم شيء ، فان العالم حين يجري تجاربه في المعمل ، ويلاحظ بعض الظواهر الطبيعية التي يقع عليها الاختبار يسلم ـ منذ البداية وقبل كل شيء ـ بان هذه الظواهر تخضع لقوانين ثابتة وسنن لا تتغير ولا تتبدل ، وبواسطتها يستكشف العالم قوى الطبيعة ، ويؤمن بالنتائج ، ولولا هذه السنن والقوانين لعجز عن التنبؤ باية نتيجة من النتائج ، وهذه هي طريقة الاستنباط التي استندت اليها فكرة الايمان بوجود إله قادر مريد وعليم حكيم .

وبكلمة ثانية ان العلم مهما تقدم فانه اعجز من ان يحيط بالكون ، او بنوع منه احاطة شاملة بحيث تستوعب جميع اجزائه ، وانما يختبر العالم جزءا ضئيلا من نوع واحد ، ويجري عليه تجاربه واختباراته في المعمل ، وبعد ان تتم ملاحظاته على هذا الجزء البسيط ، ويقيسها الى ملاحظات اخرى يؤمن بنظرية تشمل جميع الاجزاء ، فيثب من معرفته بهذا الجزء الى الحكم على سائر الاجزاء دون ان يشاهدها ، وما هذه الوثبة الا من وحي العقل واستنباطه الذي استند اليه الايمان بقدرة الخالق وارادته ، وعلمه وحكمته ، ومن هنا انتشر الايمان بالله بين رجال العلوم.

قال « جورج ايرل دافيز » ، وهو عالم من علماء الطبيعة ، ورئيس قسم البحوث الذرية بالبحرية الامريكية :

« يخطىء الذي يظن بان الالحاد منتشر بين رجال العلوم اكثر من انتشاره بين غيرهم ، فلقد لاحظنا فعلا شيوع الايمان بين جمهرة المشتغلين بالعلوم .. وكلما تقدم العلم كان ذلك اشد دلالة على وجود خالق مدبر وراء هذا الخلق » .

وقال « ايرفنج وليام » استاذ العلوم الطبيعية بجامعة ميتشيغان :

ان الايمان بالدين تدعمه الاكتشافات العلمية ، وقد أيدت العلوم فعلا كثيرا من النبوءات التي جاءت بها الكتب المقدسة ، ولا شك ان العلوم سوف تكشف في المستقبل عن صحة كثير من الكتب الاخرى التي وردت في تلك الكتب ، والتي لم يصل اليه علمنا بعد .

وقال « جورج هربرت بلونت » كبير المهندسين بقسم البحوث الهندسية بجامعة كاليفورنيا :

« ان الذي يدعو الانسان الى الاعتراف بوجود الله هو نفس الشيء الذي يدعوه الى الاعتراف بوجود صديقه » .

وقال « فرانسس بيكون » الفيلسوف الانكليزي :

« ان قليلا من الفلسفة يقرب الانسان من الالحاد ، اما التعمق في الفلسفة فيرده الى الدين » .

وقال « البرت ماكومب ونشتر » ، عميد اكاديمية العلوم بفلوريدا:
« درست العلوم المختلفة ، واشتغلت بها سنوات عديدة ، ولم يكن

في ذلك ما يزعزع ايماني بالله ، بل ان اشتغالي بالعلوم قد دعم ايماني بالله ، حتى صار اشد قوة وامتن اساسا مما كان عليه من قبل .

وبالتالي ، فان معرفة الله سبحانه تعتمد على الادلة العلمية ، تماما كما تعتمد على البراهين الفلسفية ، بالرغم من ان هذه المعرفة لا تقوم على التجربة والاختبار » .

هذي هي الادلة الاساسية بكاملها التي ارتكزت عليها اقوال العلماء في كتاب « الله يتجلى في عصر العلم » والتي دارت حولها آراؤهم ، وكرروها باساليب شتى ، واحسب اني لم ادع شيئا جوهريا يتصل بالموضوع ، ويلاحظ ان العلماء الذين اشتركوا في هذا الكتاب ، والبالغ عددهم ٣١ عالما ، يلاحظ انهم جميعا قد اولوا عناية خاصة لنظام الكون وسننه الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل ، واثبتوا بالطريقة العلمية ان التوافق والانسجام يشمل كل جزء من اجزاء الكون ، بل كل ذرة من ذراته ، بل كل ما هو دون الذرة ــ ان صح التعبير ــ منذ نشأته الاولى، وضربوا على ذلك كثيرا من الامثلة العلمية ، وقد تخطيتها عن عمد ، لان ما ذكروه من المصطلحات الفنية كالكلسيوم والسيتوبلازم وغيرهما بعيد عن فهمي وفهم كثير من القراء ، وان كان الغرض منها معلوما ، وهو التدبير والحكمة ، ثم انتهى العلماء من ذلك الى اليقين بوجود المدبر الحكيم ، وان دل هذا على شيء فانما يدل على ان برهان النظام والانسجام لا يقبل النقاش بحال من الاحوال .

الفطرة والفلسفة والعلم :

ومرة ثانية اعود الى قول العلماء والمخترعين في عصر الذرة والفضاء الذين عاشوا في المختبرات وبين الادوات وجزموا بقول قاطع لشهادة الحس والتجربة بان « كل جزء من اجزاء هذا الكون ، وكل ذرة من ذراته

تدل على الخالق » ، اعود الى هذه الجملة لامهد الى ان الشاعر العربي لبيد الذي عاش في الصحراء ، حيث لا شيء الا الجاهلية الجهلاء قد ادرك هذه الحقيقة بفطرته ، وعبر عنها بقوله :

وفي كل شيء له آيـة تـدل على انه واحـد
ولله في كل تحريكة وتسكينة ابـدا شاهد

ومن قبله سأل أفلاطون تلميذه المعلم الاول ارسطو : ما الدليل على وحدانية الله ؟. فقال : ليس شيء من خلقه بأدل عليه من شيء .

وهل بعد شهادة الفطرة بلسان اعرابي يعيش في الصحراء، وشهادة الفلسفة بلسان المعلم الاول ، وشهادة العلم والتجربة على لسان جماعة من علماء عصر الذرة والفضاء ، هل بعد هذه الشهادات قول لقائل،وعذر لجاحد ؟! وعلى اي شيء يعتمد المنكر اذا اعوزه الوجدان والعلم والفلسفة ؟!.

لقد فتح الله ابواب العلم بربوبيته لجميع خلقه على السواء ، لا فرق بين عالم وجاهل بعد ان جعل جميع الموجودات دلائل صدق على قدرته، وما انكر احد خالقه وموجده الا لانه منصرف عنه ، والا لان قلبه مملوء من غيره ، ولو اتجه الى الله لوجده لا محالة في نفسه ، وفي كل شيء ، ولكنها الغفلة ..

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « اذا رأيتم اهل البلاء فاسألوا الله العافية » .

فقيل لبعض العارفين : من عنى رسول الله باهل البلاء ؟.

فقال : اهل الغفلة عن الله .

واذا كان كل شيء يدل على وجود الله فان كل شيء يشعل اهـل الغفلة عن الله .

وبعد ، فلا ايمان بلا علم ، ولا علم مع الغفلة واللامبالاة ، كما هـو شأن الكثيرين من ابناء هذا الجيل « الصاعد » الى تحت ..

حقيقة الالوهية

علمنا من الادلة السابقة ان لهذا الكون علة اولى ، ينتهي اليها كل شيء ، ولا تنتهي الى شيء ، لانها واجبة الوجود بالذات ، ولا يجب غيرها الا بها ، وبدونها محال ان يوجد ، ويطلق على هذه العلة لفظ الله والخالق والمدبر ، وما الى ذلك من الالفاظ التي جاءت في كتاب الله وسنة نبيه ، ولكن تلك الادلة لا ترشد الى حقيقة الخالق وكنهه ، ولا يدل شيء منها على جواب السؤال بما هو . فهل هناك ادلة غيرها تكشف عن الذات الالهية ، وتبين لنا ما هي ، او انه لا سبيل الى هذه المعرفة بحال ، لعدم توافر الادلة على ذلك من جهة ، ولقصور العقل وعجزه عن ادراك الحقيقة من جهة اخرى ؟.

الجواب :

ان العقل قوة في الانسان تدرك الكليات ، وبها ينتقل من المعلوم الى المجهول لمكان الملازمة بين الاثنين ، حيث يوجد احدهما عند وجود الآخر قهرا ، وينتج من ذلك امران :

الاول ـ ان العقل يعرف المجهول بطريق الاستنباط لا بالمشاهدة والعيان ، فانت حين تشاهد هذا الكتاب تجزم استنتاجا بأنه صادر عن كاتب ، لضرورة الملازمة بين الكتاب والكاتب .

الثاني ـ ان حكم العقل يتناول الناحية التي دل عليها المعلوم خاصة دون زيادة او نقصان ـ مثلا ـ يحكم العقل بان لهذا الكتاب مؤلفا ، وكفى ، اما ان المؤلف اسود او ابيض ، طويل او قصير ، شاب او كهل فلا ، اذ لا شيء من الشاهد يدل على اكثر من الوجود ، وبديهة ان العلم باصل الوجود لا يفيد العلم باوصافه الخاصة .

واذا تمهد هذا ، وكنا به على علم عرفنا انه لا سبيل الى معرفة الالوهية بالكنه والحقيقة ، اذ لا شيء في خلق الله يدل على حقيقة الذات القدسية، وانما تدل آثاره على وجوده وقدرته وتدبيره ، وهذا شيء ، ومعرفته بالكنه والحقيقة شيء آخر .

يضاف الى ذلك ان الذات القدسية تسمو على جميع الموجودات ، حتى على عقول الانبياء والملائكة ، قال الرسول الاعظم : « ان الله احتجب عن العقول ـ اي بذاته وحقيقته ـ كما احتجب عن الابصار ، وان الملأ الاعلى يطلبونه كما تطلبونه انتم » وقال امير المؤمنين علي : « تكلموا في خلق الله ، ولا تكلموا في ذات الله » . وقال صدر المتألهين : « ان الاحساس انما يتعلق بما في عالم الخلق ، والتعقل انما يتعلق بما في عالم الامر ، فما هو فوق الخلق والامر يكون محتجبا عن الحس والعقل » اي ان سبيل المعرفة منحصر بالحواس والعقل ، والحواس تدرك الجزئيات ، والعقل يدرك الكليات ، والذات الآلهية فوق الحس والعقل ، وفوق ما يدرك بهما ، وعليه يمتنع ادراكها بواحد منهما ، وبالتالي يستحيل ادراكها بحال . ولذا قيل : لا يعرف الله الا الله .

وجاء في كتاب « المبدأ والمعاد » لصدر المتألهين ما محصله : ان واجب الوجود لا يوصف بانه جنس او فصل او نوع ، فما هو بالكلي لانه لا يصدق على الغير ، ولا بالجزئي لان الغير لا يصدق عليه ، وهو مستقل

بذاته ، متنزه عن جميع مخلوقاته لا يشبه شيئا ، ولا يشبهه شيء . واذا لم يكن لحقيقته شبيه ولا جنس ولا فصل ، فبأي شيء نحدها ؟! وبماذا نعرّفها ؟!٠

وبهذه النقطة ، وهي قصور العقل عن ادراك حقيقة الحق نلتقي – نحن المسلمين – مع بعض الاديان ومع الفلاسفة الذين قالوا بأن الدين فوق العقل ٠

واذا عجز العقل عن ادراك حقيقة الحق فانه[1] قادر، ولا ريب على ادراك وجوده والكثير من صفاته ، كالقدرة والعلم والحكمة والرحمة ، وما اليها ، لان هذه الصفات من لوازم الخلق والابداع ، فنستدل على وجود الواجب وقدرته من وجود الممكن – كما تقدم – وعلى علمه وحكمته بالنظام واتقان الصنع ، تماما كما نستدل بالبناء على وجود الباني، وباتقانه على مهارته ، وفي الفصل التالي اثبات الصفات بادلتها مرتبة كما جاءت في كتاب « المبدأ والمعاد » لصدر المتألهين ٠

(١) قال بعضهم : ان حقيقة الحق هي صورة علمه بنفسه . وهذا مجرد تخرص وتخريف ، والا فليدلنا هذا البعض على صورة علمه تعالى بنفسه ، وما هو الطريق الى معرفة هذه الصورة ؟. وقال آخر : ان الحق هو الوجود المحض . وهذا تعبير ثان عن وحدة الوجود . قال امير المؤمنين: كل ما يتصور في الاوهام فالله على خلافه .

الصفات القدسية

الصفات القدسية

تنقسم اسماء الله الحسنى الى طوائف ثلاثة :

الاولى : اسماء الذات ، وهي التي تدل على الذات مع صفة من صفاتها ، او فعل من افعالها ، او هما معا ؛ ولكن دلالتها على ذات الجلال اظهر وابين ، مثل الرب والظاهر والباطن ، والاول والآخر والصمد .

الثانية : ما كانت دلالتها على الصفة اظهر من دلالتها على ذات الجلال وفعلها ، مثل الكريم والرحمن والرحيم ، والعليم والخبير .

الثالثة : ما كانت دلالتها على الفعل اظهر من دلالتها على الذات وصفتها ، مثل المبدىء والمعيد والخالق والرازق ، والخافض والرافع .

وفي كتاب « مصباح الانس » لابن الفناري جدول لهذه الطوائف الثلاث نثبته فيما يلي :

اسماء الذات	اسماء الصفات	اسماء الافعال
اله الرب	الحي	المبدىء المعيد الوكيل
الملك القدوس	الشكور	الباعث المجيب
السلام المؤمن	القهار القاهر	الواسع الحسيب
الجبار المتكبر	المقتدر القوي	المقيت الحافظ
العلي العظيم	الكريم الغفور	الخالق البارىء
الظاهر الباطن	الرحمن الرحيم	المصور الوهاب
الكبير الجليل	الودود العليم الخبير	الرزاق الفتاح القابض
المجيد المحق	المحصي الحليم الرشيد	الباسط الخافض الرافع
الواحد الماجد	السميع البصير	المعز المذل الحكم العدل
الصمد الاول		اللطيف المحيي المميت
الآخر المتعالي		الوالي التواب المنتقم المقسط
الغني النور		الجامع المغني المانع الضار
الوارث		النافع الهادي البديع
ذو الجلال		
الرقيب		

ثم نقل ابن الفناري عن صاحب الجدول انه قال : ذكرنا هذه الاسماء على سبيل التمثيل دون الحصر ، واي اسم من الاسماء الحسنى لم يذكر في هذا الجدول يلحق بالاظهر •

تنزيه الواجب عن التركيب :

قد يراد من التركيب مزج الاجزاء المادية بعضها ببعض ، كتركيب الادوية ، وقد يكون بلا مزج ، بل يضم جزء الى جنب جزء ، كضم بعض اجزاء الكتاب الى بعض ، وبديهة ان كلا المعنيين محال في حقه تعالى •

وقد يراد من التركيب تركب الذات من وجود وماهية ، او من جنس وفصل ، او من جوهر وعرض ، او من المادة والصورة ، او من الجواهر المنفردة بناء على صحتها ، وكل اولئك غير جائز في حق الواجب لامور :

اولا ـ ان واجب الوجود هو المستغني عن الغير في الوجود ، ومقتضى ذلك انه لا تركيب فيه ، لانه لو كان مركبا لافتقر الى اجزائه ، والواجب لا يفتقر الى شيء ، ويفتقر اليه كل شيء •

ثانيا ـ ان الاجزاء التي تتألف منها ذات الواجب لا تخلو اما ان تكون واجبة بكاملها ، واما ممكنة كذلك ، واما بعضها ممكن وبعضها واجب ، وعلى الاول يجب ان يكون بين جزأي الواجب نحو ارتباط وعلاقة ، اذ لا يتصور تأليف الحقيقة الواحدة من امرين متباينين ، والواجبان لو افترض وجودهما لا يمكن ان يكون بينهما تلازم وارتباط ، لان هذا التلازم لا يتحقق الا اذا كان احدهما علة للآخر ، او هما معلولان لعلة ثالثة ، وكلاهما ممتنع بالقياس الى الواجب •

وعلى الثاني والثالث يلزم انقلاب الواجب بالذات الى الممكن بالذات ، كما يلزم ايضا ان يتقدم الممكن على الواجب تقدم الجزء على الكل ،

وبالتالي يلزم ان تتألف الحقيقة الواحدة من شيئين متباينين تباين الواجب للممكن ، والقديم للحادث ، والكل باطل لا يلتزم به عاقل ، فتعين ان العلة الاولى واجبة الوجود بسيطة من جميع الجهات [1] .

وكما ان الواجب لا جنس لـه ولا فصل كذلك ليس هـو بجنس لغيره ، ولا فصل ، لان الفصل يقسم الجنس الى نوعين ، كالناطق يقسم الحيوان اليه والى غيره ، ولا يوجد معنى عام يشمل الواجب والممكن كي يقسمه الواجب اليه والى غيره .

---

(١) اتفق الماديون والمؤمنون على ان واجب الوجود لذاته واحد وبسيط من جميع الجهات ، ولكن المؤمنين ذهبوا الى ان الواجب وراء المادة : وقال الماديون بل هو المادة بالذات ، ولا شيء وراءها ، وهي العلة الاولى ونقطة البدء لم يوجدها موجد ، ولم تنبثق عن شيء . وقد كذبهم العلم بعد ان اكتشف ان المادة تتألف من ذرات مختلفة متنوعة منذ البداية ، وهذا يتنافى مع شرط البساطة الذي قال به الماديون ، فانهم قد ناقضوا انفسهم بانفسهم ، حيث يشترطون البساطة في العلة الاولى ، وفي الوقت نفسه يزعمون بانها هي المادة التي اثبت العلم تركيبها .

الله واحد

الفرق بين الوحدانية والواحدية ان الاولى تعني عدم انقسامها الى متعدد ، والثانية تعني عدم وجود الشبيه .

والواجب واحد بكل ما في الوحدة من معنى ، فلا شبيه له ولا ند ، ولا ينقسم في ذاته الى اقسام ، ولا يتوقف تصوره على تصور العدد والكثرة (١) .

وخير ما قيل في هذا الباب ما جاء في كتاب « الاسفار » الجزء الاول من السفر الاول ، ويتلخص بما يلي :

ان لفظ واجب الوجود اسم لمعين مختص ــ منذ البداية وليس كما قيل من انه اسم جنس او نوع لمفهوم الواجب ، ثم انحصر في معين لاسباب خارجية ، كما زعم ذلك في لفظ الشمس ، بل ان تصور الواجب من اول الامر يمنع من تصور وقوع الشركة فيه ، فالناس حين يسمعون لفظ الاله والواجب يتبادر الى اذهانهم ــ حالا ــ معنى خاص لا رائحة فيه للعسوم والشمول ، ولكن تبادر التعيين لا يكفي لنفي الشريك واقعا، بل لا بد من البرهان ، وهو :

---

(١) قالوا : ان الوحدة قسمان : حقيقية ، وهي التي لا تتوقف على مقابلة الكثرة تصورا ووجودا . وعددية وهي التي تتوقف على مقابلةالكثرة تصورا ووجودا ، والعددية يعد بها الغير ، دون الحقيقية .

اولا ـ لو فرض وجود واجبين لكانا مشتركين من جهة ، ومختلفين من جهة ، لان اشتراكهما من جميع الجهات ينفي التعدد المفروض ، واختلافهما من كل وجه ينفي اشتراكهما في الوجوب ، وهو خلاف الفرض ، وعليه تتساءل : ما هو الوجه الذي اختلفا فيه ؟ هل هو تمام الحقيقة ، او جزء منها او شيء خارج عنها ؟

وعلى الاول يكون الواجبان مشتركين في الوجود مختلفين في الحقيقة ، ومعنى هذا ان الواجب شيء وحقيقته شيء آخر ، مع انهما شيء واحد .

وعلى الثاني يلزم تركيب الواجب ، لمكان الجزئية ، مع انه بسيط من كل الجهات .

وعلى الثالث يلزم اتصاف الواجب بعرض زائد عن ذاته يميزه عن غيره ، وهو محال .

ثانيا ـ قال صدر المتألهين في كتاب « المبدأ والمعاد » : حقيقة الواجب محض وجوده ، وكلما كان حقيقة الشيء محض الوجود كان متشخصا بنفس حقيقته ، فلا يكون تعدد ، وهو المطلوب اي ان الممكن قد يلحظ باعتبار حقيقته وماهيته المتقومة من جنس وفصل بقطع النظر عن وجوده وتشخصه ، وقد يلحظ باعتبار وجوده وتشخصه في فرد او اكثر، وهذا ممتنع في حق الواجب ، لان حقيقته عين وجوده ، فاعتبار احدهما عين اعتبار الآخر ، اذ لا عموم ولا انقسام ولا تعدد واقعا ولا اعتبارا ، ولا شيء زائد عن هذا الوجود الخاص المعين ، حتى يصدق باعتبار هذه الزيادة على غيره ، فالحقيقة واحدة والوجود واحد من كل الجهات والحيثيات والاعتبارات ، « لا إله الا الله وحده لا شريك له » اعتبارا وواقعا،وعقلا وشرعا .

وذكر صدر المتألهين ادلة اخرى ، وضرب امثلة كثيرة للدلالـة على الوحدانية ، منها هذا المثال الطريف الذي ننقله بالحرف الواحد : لانـه واضح لا يحتاج الى تفسير •

« وكما ان حركات الرقص وان وجدت متباينة متضادة ، كـالبسط والقبض في الاعضاء ، وكالتعويج والتقويم فيها ، والسرعة والبطء، ولكن لما كان مجموعهـا منتظم متناسب متحد ، مع مالها مـن النظم العجيـب والرصف الانيق الذي يسر الناظر اليه تدل على ان وحدتها التأليفية ظـل لوحدة طبيعية ولو لم يكن كذلك لما وجدت ملتئمـة ، بل كانت مختلفة النظم متعددة الوضع ، تنفر منهـا الطبائع كذلك جبلة العالم مـع تفنن حركاتها وتخالف اشكالها ، وتغير آثارها المتولدة من الاجسام العالية في الاجسام السافلة مؤسسة على الأئتلاف الطبيعي والرصف الحكمي دالة بوحدتها الطبيعية الاجتماعية على الوحدة الحقة الحقيقية » [1] •

ثالثا ــ لو وجد الإلهان ، فاما ان يكون احدهما قـادرا على تدبير العالم ، واما ان لا يكون ، فان كان قادرا كان وجود الثاني عبثا ولزوم ما لا يلزم ، وان لم يكن قادرا فلا يصلح للالوهية لعجزه وعدم الفائدة مـن وجوده •

رابعا ــ وهو خير الادلة كلها ما استدل به الله سبحانه على توحيد نفسه بنفسه ، حيث قال عز من قائل في سورة الانبياء آية ٢٢ : « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون » اي لو كان في السماء والارض آلهة سوى الله لما استقاما ، ولفسد من فيهما وما

---

(١) لو ان « شيخا » في هذا العصر ضرب مثالا من الرقص او الموسيقى على ما يتصل به سبحانه كما فعل هذا الحبـر لقامت عليه قيامـة الذين يرون الدين والايمان جهلا وجمودا ..

فيهما ، ولم ينتظم امر من الامور ، ذلك انه لو كان مع الله إله آخر لكانا قديسين ، لأن القدم من اخص الصفات الالهية ، والاشتراك في القدم يوجب التماثل ، فيجب ان يكونا قادرين عالمين حيين ، ومن حق القادر ان يكون مريدا ضد ما يريده الآخر من اماتة واحياء ، او تسكين ، وعليه فلا يخلو اما ان يحصل مرادهما معا فيلزم اجتماع النقيضين، واما ان لا يحصل فلا يكونا قادرين ، واما ان يحصل مراد احدهما دون الآخر ، فيكون هذا الآخر عاجزا ومغلوبا على امره ، وعليه فلا يكون إلها .

وفي سورة المؤمنون ٩١ : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله اذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون » اي لو تعددت الآلهة لانفرد كل إله بالذي خلق واستبد به ، ولكان كل خلق مباينا لخلق الآخر ، ولغلب بعضهم على بعض ، وحيث لا تمايز ولا تغالب علم انه إله واحد ، له الملك وهو على كل شيء قدير .

وقال امير المؤمنين لولده الحسن :

« واعلم يا بني انه لو كان لربك شريك لأتتك رسله ، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه ، ولعرفت افعاله وصفاته ، ولكنه إله واحد كما وصف نفسه ، لا يضاره في ملكه احد ، ولا يزول ابدا » .

وقيل للامام جعفر الصادق : ما الدليل على ان الله واحد !

فقال : ما بالخلق من حاجة الى اكثر .

حتى الواحد يجادلنا فيه المتحذلقون ..

وحدة الذات والصفات

تتصف ذات الحق بصفات الكمال ، كالعلم والقدرة والحياة وما اليها فهل هذه الصفات خصائص زائدة على ذات الحق ، بحيث يكون هناك شيء يقال ذات وشيء آخر يقال علم ، وان الذات تعلم بواسطة العلم . ولولاه لم تعلم ، وكذا بالقياس الى القدرة والحياة وغيرها ؛ وهذا معنى صفات الله غير ذاته الذي قال به الاشاعرة .

او انه لا شيء في الواقع سوى معنى واحد ، هو الذات والعلم والقدرة والحياة ، وانه لا تعدد ولا تغاير بين الصفات وبين الذات ، ولا بين بعض الصفات وبعضها الآخر ؛ بل ان ذاته بذاته ، ودون اي اعتبار هي علمه وهي قدرته وهي حياته ، وما يدركه ويفعله بصفة يدركه ويفعله بجميع الصفات ، بحيث يكون العلم عين المشيئة والمشيئة عين القدرة والقدرة عين الحياة فالانسان – مثلا – اذا اراد ولم يقدر لا يتحقق شيء لان الارادة فيه غير القدرة ، اما بالقياس اليه سبحانه اذا اراد تحقق المراد ، لان الارادة عين القدرة والقدرة عين الارادة ، قال الفارابي : « وجود كله وجوب كله ، علم كله ، قدرة كله حياة كله ، وليس شيء منه علما ؛ وشيء منه قدرة ؛ وشيء حياة » .

وهذا معنى صفات الله عين ذاته الذي قال به الامامية والمعتزلة والفلاسفة ، وهو الحق ، لان الزائد عن ذات الحق لا يخلو اما ان يكون

قديما ، واما حادثا . وعلى الاول يتعدد القديم ، وعلى الثاني يلزم محاذير شتى منها :

١ ــ ان تكون ذات الحق محلا للحوادث .

٢ ــ ان تتعدد الحيثيات والجهات في حقيقة الحق ، وسبق انها واحدة من جميع الجهات .

٣ ــ ان تتركب الذات من القديم والحادث ، وبديهة ان المركب مفتقر الى اجزائه ، والمفتقر لا يكون واجبا بنفسه .

٤ ــ لو كانت صفات الذات حادثة لاحتاجت الى محدث فان كان هذا المحدث غير الذات تعدد الواجب ، وان كان الذات يكون الشيء الواحد فاعلا وقابلا ، علة ومعلولا من جهة واحدة .

وقال صدر المتألهين في كتاب « المبدأ والمعاد » : الوجه عندي ان يستدل لاثبات عينية صفاته تعالى لذاته بوجوه :

الاول : « انها لو لم تكن كذلك يلزم التكثر في ذاته تعالى ، لاجل كثرة صفاته الموجبة لكثرة المقتضي ، مع انه احدي الذات بسيط الحقيقة » .

اي لو افترض تغاير الصفات للذات لكان لكل صفة مقتض لوجودها ، وعليه تتعدد المقتضيات بتعدد الصفات ، وتجتمع جهات الاقتضاء بكاملها في ذات الحق ، اذ لا شيء سواها يستدعي الوصف ، فتكون الذات محلا للكثرة والازدواج ، وهو خلاف الحق .

الثاني : « انها لو كانت زائدة على ذاته يلزم من ذلك ان يكون كما له بأمر زائد عليه ، فيلزم كونه ناقصا بحسب ذاته كاملا بغير ذاته » .

الثالث : « ان فيضانها من ذاته على ذاته يستدعي جهة اشرف مما عليها واجب الوجود بالذات ، فتكون ذاته اشرف من ذاته ، وهو محال ».

اي ان اتصاف الله بالعلم ـ مثلا ـ يكون علة لكماله ، وزيادة في شرفه ـ لو كان العلم غير الذات ـ والمفروض ان ذاته علة لعلمه، فيكون الله الذي هو سبب لعلمه اشرف من الله الذي ازداد شرفا بسبب علمه ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وقال الله سبحانه : « قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن ايا ما تدعوا فله الاسماء الحسنى » .

وقال الامام (ع) : « اول الدين معرفته ، وكمال معرفته التصديق به ، وكمال التصديق به توحيده ، وكمال توحيده الاخلاص له ، وكمال الاخلاص له نفي الصفات عنه ، لشهادة كل صفة انها غير الموصوف ، وشهادة كل موصوف انه غير الصفة ، فمن وصف الله فقد قرنه ، ومن قرنه فقد ثناه ، ومن ثناه فقد جزأه ، ومن جزأه فقد جهله » .

حدد الامام (ع) معنى العلم بالله بانه الايمان الكامل به ، وفسر الايمان الكامل بانه سلب الصفات عنه ، ويتضح ذلك بالنظر فيما يلي :

ليس من شك ان التصديق غير العلم ، لان العلم « هو الصورة الحاصلة من الشيء عند العقل » والتصديق هو الايمان الجازم ، فالعلم ـ اذن ـ من شؤون العقل ، والتصديق من شؤون القلب الا ان نسبة العلم الى الله سبحانه بمعنى الصورة الحاصلة منه عند العقل محال، لانه تبارك وتعالى لا يعرف بحقيقته ، بل بآثاره ، فتعين ان يكون معنى العلم به التصديق والايمان ، لا التصور والادراك بمعناه الصحيح ، وهذا معنى قوله (ع) كمال معرفته التصديق به .

ثم ان التصديق بالله انما يكون كاملا اذا كان خالصا من شائبة التعدد وزيادة اي شيء على الذات ، سواء أكانت من نوع الصفات او من غيرها . ويقابل هذا التصديق تصديق ناقص ، وهو الايمان بوجودصفات زائدة على الذات ، لان هذه الزيادة تستدعي التعدد وتأليف الذات من اجزاء ، كما اسلفنا ، وهذا معنى قوله (ع) وكمال التصديق به توحيده ، وكمال توحيده الاخلاص له الخ ..

اما قوله « فمن وصفه فقد قرنه » فمعناه ان من جعل الصفة زائدة على الذات فقد جعل مع الله شيئا آخر، ولازم ذلك ان لله شريكا، او انه ممكن مركب من اجزاء متعددة بتعدد الصفات ، وليس من شك ان من اعتقد هذا فهو جاهل بالله وعظمته .

تنبيــه :

تنقسم صفات الله الى طوائف :

١ ــ الصفات العينية الكمالية ، كالجود والقدرة والحياة والعلم ، وهذي هي التي تكلمنا عنها في الفصل السابق ، وقلنا : انها عين الذات عند الامامية والمعتزلة والفلاسفة ، وغيرها عند الاشاعرة .

٢ ــ الصفات الاضافية ، وهي التي تضاف الى ذات الحق ، لا تتحد معها ، كالخالق والرازق ، والمبدىء والمعيد، فان الرزق والخلق والاعادة من آثاره سبحانه ، ورشحات فيضه ، لا من اوصافه الذاتيــة ، وكيف يوصف القديم بالحادث ، والواجب بالممكن ؟!. وقد اتفق الجميع علـى انها غير الذات ، قال صدر المتألهين : « ولا يخل بوحدانيته كونها زائدة عليه ، فان الواجب تعالى ليس علوه ومجده بهذه الصفات الاضافيــة ، وانما علوه بذاته التي تنشأ عنها هذه الصفات » اي ان الاستقلال والكمال بشتى معانيه ثابت للذات الالهية بذاتها ، وبقطع النظر عما يصدر عنها من

الفيض والخلق ، وما دامت كذلك فلا مانع ان تكون صفة الخلق والابداع زائدة على الذات ، لان هذه الزيادة لا تتنافى مع الوحدانية ، ولا مع اية صفة من صفات الكمال والجلال .

٣ ـ الصفات السلبية المحضة ، وهي التي يرجع الاتصاف بها الى نفي النقص عنه تعالى ، كالوحدانية ، اي لا شريك له ولا شبيه ، والسرمدية ، اي لا قبل له ولا بعد ، وهذه الطائفة ليست من الصفات العينية ، ولا الاضافية ، لانها في الحقيقة سلب الامكان عن الذات الواجبة ، فهي ، والحال هذه ، اشبه بسلب التربيع عن المستدير، والموت عن الحياة ..

العلم

اثبتنا فيما تقدم « مبدأ اساسيا » وهو بساطة الواجب ووحدته من جميع الجهات ، فلا صفة تزيد على ذاته ، ولا تحدث فيه بعد ان كانت منتفية عنه .

ويرى كثير من الفلاسفة القدامى والجدد ان مبدأ الوحدةوالبساطة يستلزم حتما ، ويستتبع بذاته نفي العلم عن الواحد وعدم معرفته بشيء بالمرة ، او نفي العلم عنه ببعض الموجودات دون بعض ، وتنتهي الاقوال الى اربعة :

١ ـ انه تعالى لا يعلم شيئا ابدا ، لا ذاته ولا غيره ، سواء أكان ذلك الغير كليا او جزئيا ، ذهنيا او خارجيا ، لان العلم يستدعي التغاير بين العالم والمعلوم ، ولا مغايرة في واجب الوجود ، كما مر .

٢ ـ انه تعالى يعلم ذاته ، ولا يعلم غيره ، لان العلم ارتسام صورة المعلوم في ذات العالم ، وبديهة ان الموجودات متنوعة ، ولا حصر لها ، فيلزم من علم الواجب بها تجمع الصور الكثيرة المختلفة في ذاته .

٣ ـ انه تعالى يعلم الكليات بانفسها ، ويعلم الجزئيات بماهياتها لا بانفسها [1] لان الكليات ثابتة على طريقة واحدة لا تتغير ولا تتبدل ،

---

(١) انكر ابن رشد ان توصف معرفة الله بالكلية او الجزئية لانها وصف للمخلوق لا الخالق ، ولان العلم بالكلي علم بالقوة ، وعلم الله فعلي ، اما الجزئيات فلا نهاية ولا حصر لها فوجب ان يكون علمه تعالى من نوع آخر .

فالعلم بها كذلك لا يتغير ولا يتبدل ، بخلاف الجزئيات التي لا تستقرعلى حال ، والتي يتميز كل فرد منها باعراض وخصائص تميزه عن افراد نوعه، ولو علم الواجب بها لتغيرت ذاته من صفة الى اخرى .

٤ ــ انه تعالى يعلم ذاته ، وغيره كائنا من كان وما كان ذلك الغير، حتى حديث النفس ، وهذا هو الحق .

وقد استدلوا على ذلك بادلة كثيرة في كتب الفلسفة وعلم الكلام ، وخيرها جميعا ــ فيما نعتقد ــ ما ذكره العلامة الحلي في شرح التجريد ، وننقل كلامه بالحرف ، لانه واضح لا يحتاج الى تفسير :

« كل موجود سوى الله فهو ممكن مستند اليه ، فيكون عالما به ، سواء أكان جزئيا او كليا ، وسواء أكان موجودا قائما بذاته او عرضا قائما بغيره ، وسواء أكان موجودا في الاعيان او متعقلا في الاذهان ، لان وجود الصورة في الذهن من الممكنات ايضا ، فيستند اليه ، وسواء أكانت الصورة الذهنية صورة امر وجودي أو عدمي ممكن او ممتنع ، فلا يعزب عن علمه شيء من الممكنات ولا من الممتنعات ، وهذا برهان شريف قاطع » .

فواجب الوجود يفتقر اليه كل شيء ، ولا يفتقر هو الى شيء، وما دام سبحانه يخلق الاشياء فهو يعلمها على ما هي عليه وايضا يعلم ذاته بصفاتها .

وقال صدر المتألهين في كتاب « المبدأ والمعاد » :

« ان جميع الموجودات الكلية والجزئية فائضة عنه ، وهو مبدأ لكل وجود عقليا كان او حسيا ، ذهنيا كان او عينيا ، وفيضانها عنه لا ينفك عن انكشافها لديه ، كما مر ذكره ، فمن قال : ان الواجب تعالى لا يعلم

الجزئيات الا على وجه كلي فقد بعد عن الحق بعدا كثيرا ، وان لم يلزم تكفيره ، كما زعم البعض ـ يشير الى الغزالي ـ فانه ما نفى العلم عن الله بامر من الامور ، بل انما نفى عنه نحوا من انحاء العلم الذي هو العلم الحضوري ، وليس هذا من ضرورات الدين » .

اما الاقوال التي نفت العلم عن الواجب بالمرة ، او بالجزئيات فترتكز جميعها على نظرية فاسدة ، وهي ان علم الواجب سبحانه تماما كعلمنا لا يختلف عنه في شيء قياسا لصفات الغائب ، وهو الله تبارك وتعالى على صفات الشاهد ، وهو نحن وليس من شك ان قياس الغائب على الشاهد انما يصح اذا اثبتنا علة مشتركة بين المقيس والمقيس عليه ، واثبات ذلك دونه الف محال ومحال للبعد الشاسع الواسع بين القديم والحادث والواجب والممكن ، والخالق والمخلوق .

فعلمنا نحن يحصل بواسطة الحواس والعقل ، اما علمه سبحانه فعين ذاته ، وثانيا ان علمنا تابع لوجود المعلوم ، اي ان علمنا بالشيء ناشىء عن وجوده وتحققه ، اما بالقياس اليه تعالى فالمعلوم تابع لعلمه ، فعلمه سبب لوجود الشيء ، وعلمنا مسبب عنه . ثالثا ان علمنا بالاشياء عبارة عن ارتسام صورها في الذهن ، وعلمه بها عبارة عن حضورها عنده وانكشافها لديه ، اي ان علمه بالشيء عين ايجاده له كائنا ما كان ذلك الشيء كليا او جزئيا ، ذهنيا او خارجيا .

وقد أطال الفلاسفة الكلام والنقض والابرام في هذا الموضوع ، وجعلوه شاقا عسيرا [1] مع انه سهل يسير ، فكلنا يعلم علم اليقين ان ذات

---

(١) من ذلك ما قاله الفارابي فيرسالة زينون ، وابن سينا في الاشارات: ان الله عاقل ومعقول وعقل ، عاقل من حيث انه يعقل ذاته ، ومعقول من حيث ان ذاته معقولة له ، وعقل من حيث انه يعقل بلا واسطة امر خارج عن الذات . هذا مع العلم انهما صرحا بأنه ليس في الله سبحانه حيثيات حقيقية ولا اعتبارية .

الله سبحانه مصدر لكل شيء ، وان علمه عين ذاته ، وعليه تكون الموجودات بكاملها صادرة عن علمه ، وعلمه علة تامة لوجودها ، وما دامت الحال هكذا فلا يأتي الكلام في ان الله يعلم بها جميعا ، او لا يعلم بشيء ابدا ، او يعلم الكليات دون الجزئيات ؟ لان هذا التساؤل تماما كالتساؤل بان هذا الكتاب الذي الفه زيد ، هل صدر عن زيد او عن غيره ؟!.. وان هذا الرجل الذي يتكلم هل يتصف بالمتكلم او الصامت؟!.

اجل ، لو افترض ان الموجودات لم تصدر عن الله ، وانه لم يخلق شيئا ابدا تعالى عن ذلك علوا كبيرا لاتجه السؤال والاختلاف في انه عالم بها او غير عالم ، اما بعد التسليم والاذعان بانه خالق كل شيء وانه لا يتجدد له علم ، ولا يتعين في حقه امر دون امر ، ولا حكم دون حكم ، وانه فوق الزمان والمكان وما الى ذلك من صفات الكمال والجلال فلا مجال ولا موضوع لهذا البحث من الاساس بوجه من الوجوه، بل لا بد من الايمان بانه يعلم كل شيء ، لان كل شيء صادر عن علمه : « عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض ولا اصغر من ذلك ولا اكبر الا في كتاب مبين ــ ٣ سبأ » : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين ــ ٥٩ الانعام » : « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن اقرب اليه من حبل الوريد ــ ١٦ ق » .

القدرة

ان اخص صفات الالوهية القدرة ـــ ان صح التعبير ـــ قال الرازي: ان صفات الكمال تنحصر بالعلم والقدرة .

وهل يكون العاجز إلها ؟! وهل يوصف بالالوهية اذا لم يوجد الاشياء من لا شيء ، ويحول اللاوجود الى الوجود ؟! وأي فرق بينه وبين الباني والنجار وغيره من مخلوقاته اذا احتاج الى مادة وآلة وأداة ؟! ان الالوهية بذاتها تستدعي ان يكون الاله واحداً ، كان ولا شيء معه، قادر بالذات على كل شيء ، عالم كذلك بكل شيء ، ومن هنا كانت القدرة ، وسائر الصفات الذاتية ثابتة له بالفعل لا بالقوة ، لوجوب ثبوت الشيء لنفسه ، وبالوجوب لا بالامكان ، لامتناع سلب الشيء عن نفسه ، اما القدرة فينا فهي بالقوة لا بالفعل ، لانها عرضية لا ذاتية ، وممكنة لا واجبة.

ونذكر بالاجمال ما قاله صدر المتألهين في كتاب الاسفار في تفسير قدرته تعالى :

« ان الله سبحانه هو الموجود الاول بالذات ، كان ولم يكن معه شيء ، ولازم ذلك ان كل ما يحدث من الموجودات فهو من فيض وجوده ، ولكن هذا الفيض لم يكن ضروريا له سبحانه ، وبدون علم وارادة ، كضرورة الجاذبية للاجسام ، وفيض نور الشمس من الشمس ، وما الى ذلك من آثار القوى الطبيعية، بل تفيض عنه الموجودات بعلمه ومشيئته».

وقال قائل : ان القادر هو الذي يفعل تارة ، ولا يفعل اخرى ، امـا الذي يفعل دائما وابدا فيصح سلب القدرة عنه ، والمفروض ان الله يفعل دائما ، والفيض منه في استمرار لا ينقطع ، وعليه يكون ثبـوت الفعـل ضروريا ، وبالتالي يصح سلب القدرة عنه •

الجواب :

ان معنى القادر هو الذي ان شاء فعل ، وان شاء ترك ، فالمعول اذن على وجود المشيئة ، فلو فعل بمشيئته ابدا ودائما ، او ترك بالمرة كذلك تحققت القدرة بلا ريب ، وهذا معنى قول صدر المتألهين: «القادر من ان شاء فعل، وان لم يشأ لم يفعل، سواء أكان شاء ففعل دائما، او لم يشأفلم يفعل دائما» والفيض صادر عن مشيئةالله تعالى،حتى ولو استمرودام الى ما لا نهاية لعلمه بان الخير يتحقق في استمرار هذا الفيض ودوامه ، وفي الوقت نفسه لو شاء الله امسك، ولم يكن للعالم وجود ولا ظهور بالمرة ، وصدق الله العظيم : « ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعلـه ساكنا ــ ٤٥ الفرقان » وصدق رسوله الكريم : « ما شاء الله كان ، وان لم يشأ لم يكن » •

ثم ان وجود ما يوجد عنه تعالى لا يجلب له نفعا ، ولا يدفـع عنه ضرا ، ولا يزيده كرامة وكمالا ، لانه كامل بذاته ، غني بحقيقته ، والخلق والايجاد ثمرة من ثمرات قدسه وكماله ، واثر من آثار عظمته وجلالـه ، لان الايجاد سبب للكمال والعظمـة ، فاذا قلت : الله خالق الاشيـاء ، فمعنى ذلك ان الاشياء متعلقة بالله ، لا ان الله متعلق بالاشياء • وبكلمة ثانية انه سبحانه لم يخلق الكون ليصير به كاملا ، والا كان ناقصا بذاته كاملا بغيره تماما كما هو الشأن بالنسبة الى الانسان الذي يكمل بالكسب لا بالذات ، تعالى الله الذي ليس كمثله شيء •

سؤال :

انما يعرف اليوم ويمتاز عن الليلة بسبب طلوع الشمس وغروبها ، فقبل ان توجد الشمس والقمر لا وجود للايام ، كما صرحت الآية ٥ من سورة يونس : « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » •

اذن ما معنى قوله تعالى في سورة الاعراف الآية ٥٤ : « ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة ايام » مع العلم انه لا ايام حين خلق السموات التي من جملتها الشمس ؟ ثم خلق العالم في ستة ايام يتنافى مع ما نطقت به الآية ٥٠ من سورة القمر : « وما امرنا الا واحدة كلمح بالبصر » ومع قوله تعالى : « انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون » ولماذا الايام الستة وغير الستة ما دام سبحانه قادرا على الايجاد بلحظة واحدة ؟!•

الجواب :

اتفق المفسرون على ان المراد من الآية الكريمة انه تعالى خلق السموات والارض في أمد مقداره ستة ايام ، وليس المراد الايام حقيقة ، اما آية « كلمح البصر » فلا منافاة بينها وبين آية الايام الستة ، لان افعاله عز وعلا بالنسبة الى مخلوقاته على نوعين : نوع يوجد دفعة وبكلمة واحدة ، ونوع يوجد بالتدريج حسب ما تقتضيه الحكم والمصالح ، فاذا اوجد العالم بالامهال والتراخي فليس ذلك لعجز عن الايجاد دفعة ، واذا اوجد الشيء دفعة فلم يكن لعجز عن الايجاد بالامهال ، بل هو في الحالين القادر على فعل الضد ، ولكن اقتضت الحكمة ان تكون الدفعة او التدريج •

وبالتالي ، فان الله سبحانه فوق الزمان والمكان ، يستحيل في حقه القبل والبعد ، فعلمه بالاشياء قبل خلقها تماما كعلمه بعد خلقها ، وقدرته عليها قبل الايجاد كقدرته حين الايجاد وبعده ، فالزمان والمكـــان حالان ينسبان الى المعلوم والمقدور بعد وجودهما ، لا الى علمه وقدرته ، كيف وهو الازلي الابدي ، والواحد الاحد لا ثاني له ، ولا شيء معه ؟!

الارادة

ارادة الانسان :

الارادة فينا هي النزوع والميل الى الفعل مطابقا لما اعتقده المريد ، او ظنه ملائما له من جلب منفعة ، او دفع مفسدة ، فقبل كل شيء يتصور الانسان ملائمة الفعل له ، ثم تحدث فيه الارادة ، وبعدها يتجه ويندفع نحو الفعل ، فالفعل يستند الى الفاعل والغاية معا ، فلولا الغاية لم يتحرك الفاعل ، ولم يكن الفعل ، فالفعل ـ اذن ـ متوقف على الغاية ، وكذا يتوقف على الفاعل ، ولولاه لم يكن للغاية اي أثر ، ويتضح ذلك بالمثال القديم الموروث ، وهو صنع النجار للسرير الذي يستند الى النجار وفكرة الجلوس ، وعلى أية حال فان الغاية شيء ، والفاعل شيء آخر بالقياس الى غير الله سبحانه .

ارادة الواجب :

الارادة في الواجب هي علمه تعالى بما ينبغي ان يكون عليه نظام الكون من الكمال والتمام ، فالارادة بالقياس الينا حالة نفسية تقوى وتضعف ، وتتوقف على مبادىء ومعدات ، كتصور المراد والحاجة اليه ، وبديهة ان شيئا من ذلك غير جائز في حقه سبحانه ، فتعين ان تكون ارادته عين علمه بالخير ونظامه ، وقدمنا اكثر من مرة ان علمه عين ذاته ، ولما كان الله تعالى هو الفاعل والمبدأ الاعلى لجميع الموجودات استحال ان تكون

له اية غاية خارجة عن ذاته ، بل تكون الذات القدسية هي الفاعل والغاية في آن واحد ، ولو استند الفعل اليه والى غاية خارجة عنه لم يكن تاما في نفسه ، بل كان محتاجا الى الغير تعالى الله عن ذلك .

وحدة الفاعل والغاية :

بقي ان نعرف كيف يكون الواحد فاعلا وغاية في آن واحد ، مع ان الفاعل هو الذي يوجد الشيء ، والغاية ما لاجلها يكون الشيء ؟.

الجواب :

ان الفاعل على نوعين : تام ، وناقص ، والناقص هو الذي يفعل لداع يعود عليه بالنفع ، او ينفي عنه الضرر ، وفي الوقت نفسه يحتاج في عمله الى مادة وادوات ، اما الفاعل التام الكامل فهو الذي يوجد الشيء من لا شيء ، لا لاجل شيء يعود عليه نفعه ، ولا يحتاج الى اداة ، لانه لو احتاج في فعله الى غيره لسقط عن الكمال والتمام ، وبهذا يظهر التعدد والتغاير بين الغاية ، والفاعل والناقص ، وتظهر الوحدة من كل الوجوه بينها وبين الفاعل التام ، وعليه يكون الله سبحانه هو الفاعل من حيث ان ذاته علة تامة لوجود الفعل ، وهو الغاية ايضا من حيث انه لا غاية لفعله الا علمه بنظام الخير الذي هو عين ذاته .

ثم لو كان لفعل الله سبحانه غاية خارجة عنه للزم احد محذورين لانه لا يخلو اما ان يكون لتلك الغاية اثر في ايجاد الفعل ، واما ان لا يكون ، وعلى الاول لا يكون الله هو الفاعل بالذات ، وعلى الثاني يكون وجود الغاية لغوا وعبثا ، فتعين ان تكون ذات القدس هي الغاية والفاعل معا .

وقال صدر المتألهين : « الواجب يريد الاشياء لا لاجل ذواتها من حيث ذواتها ، بل من حيث انها صادرة عن ذاته » اي ان غاية الله سبحانه من ايجاد العالم هي نفس ذاته القدسية واذا اردت التفهم عن طريق التمثيل فانظر الى الكريم ، فانه يعطي لا لشيء الا للكرم الذي يتصف به.

الحكم والمصالح :

ويتجه هذا السؤال : وهو ان هذا يتنافى مع ما هو معروف ومسلم به من ان الغاية من افعاله سبحانه هي مصلحة العباد وخير المخلوقات .

واجاب عنه صدر المتألهين في كتاب « الاسفار » بأن افعاله تعالى لا تعلل بالاغراض والمنافع له ولا لغيره ، ولا بشيء غير ذاته ، ولكن لما كان الله سبحانه كاملا بذاته صدرت عنه الاشياء تامة كاملة كما ينبغي لما ينبغي ، واللازم من هذا الكمال ان يتحقق الخير والمصلحة للمخلوقات ، فمصلحة العباد لم تقصد بالذات ، وانما هي من لوازم الخلق والايجاد على الوجه الاكمل ، هذا مع العلم بان الله سبحانه يعلم بهذا اللازم ، ويرضى به .

وعقد فصلا خاصا في كتاب « المبدأ والمعاد » تكلم فيه عن حكمة الله ، جاء فيه ان الحكمة تطلق تارة على العلم بحقائق الاشياء ، واخرى على احكام الفعل ، وكمال صنعه ، وانه جامع لكل ما يحتاج اليه ، والله سبحانه حكيم بكلا المعنيين ، لانه عالم بالاشياء على ما هي عليه ، بل ان علمه اعظم واشرف من كل علم ، لانه علة الوجود ، وعلم غيره مسبب ومستفاد من الوجود ، اما افعاله فانه اوجد الموجودات على احكم الوجوه واكملها ، فاودع في كل جزء من اجزاء العالم نظاما وقوة تتجه به الى الغاية التي من اجلها وجد : « اعطى كل شيء خلقه ثم هدى ــ ٥٠ طه » .

وبالتالي ، فان الله سبحانه كامل في ذاته ، غني في افعاله لا يعلل شيء منها بشيء غير الذات ، فلا فاعل سواه ، ولا غاية وراءه ، اما المصالح والمنافع والخيرات فهي اثر لاحكام الصنع ، وثمرة من ثمراته .

العناية [1]

معنى عناية الله ان الموجودات بكاملها تفتقر اليه سبحانه في بقائها، كما تفتقر اليه في اصل وجودها ، وانه يحفظها ، ويمدها بالبقاء في كل لحظة من لحظات استمرارها في الوجود بحيث لو تخلى عنها طرفة عين فما دونها لم تكن شيئا مذكورا •

وانكر البعض هذه العناية ، ورأى انه لا صلة بين الله والعالم بعد انشائه ووجوده ، بحيث لو افترض عدم وجوده لما غيرت الحال ولبقيت كما لو كان موجودا •

والاول هو الصحيح ، فان حاجة العالم الى الله في البقاء كحاجته اليه في الحدوث بدون تفاوت ، والدليل عليه :

اولا ــ ان الموجودات لو استغنت في بقائها عن الله لتحولت طبيعتها من الامكان الى الوجوب ، وهو محال •

ثانيا ــ ان السبب الوحيد لاحتياج الممكن الى المؤثر هي صفة الامكان ، وهذه الصفة ثابتة للممكن بعد وجوده ، كما كانت ثابتة له قبل وجوده ، وما كان علة في الحدوث والابتداء فهو علة في البقاء والاستمرار •

---

(١) العلم بالله سبحانه على مراتب ثلاث : معرفة وجود الله ، ومعرفة صفاته الذاتية ، ومعرفة افعاله ، والعناية من النوع الاخير .

وقال المتكلمون : انما يحتاج الممكن الى المؤثر في اصل وجوده ، وخروجه من العدم ، اما اذا خرج من العدم الى الوجود فتزول الحاجة الى المؤثر ، لذا يبقى المعلول بعد زوال علته ، كبقاء البناء بعد موت الباني ، والثوب بعد فناء الحائك .

الجواب :

ان العلة على نوعين : علة موجدة ، وعلة معدة ، والاولى هي التي يستند اليها وجود الشيء حقيقة ، والثانية تهيىء لاوضاع مخصوصة ، كحركة يد الباني ، فهي تمهد لانضمام الاحجار بعضها الى بعض ، فعلة البناء هي تركيب الاحجار على هيئة خاصة والبناء باق ببقاء هذه الهيئة ، اما حركة الباني فليست بعلة حقيقية ، بل علة ممهدة ، فلا يضر عدمها بشيء من بقاء البناء واستمراره ، والله سبحانه اجل واعظم من ان يكون فعله اعدادا او تمهيدا ، وانما هو انشاء وتأسيس ، فعنايته تشمل جميع الموجودات بعد وجودها ، وهو الذي يستند اليه الدوام والاستمرار ، تماما كما استند اليه الابتداء واصل الوجود : « ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا ولئن زالتا ان امسكهما من احد من بعده انه كان حليما غفورا ــ ٤١ فاطر » ثم ان ذات الباري سبحانه تستدعي ان يوجد العالم على اكمل ما يكون بحيث لا يمكن ان يوجد عالم افضل واكمل منه ، واذا تصورنا نحن عالما اكمل يكون تصورنا مجرد وهم وخيال ، لان من كان كاملا في قدرته وعلمه وحكمته لا يترك الاكمل الى ما هو دونه كمالا .

قال صدر المتألهين في كتاب « المبدأ والمعاد » :

لقد حسن تدبيره تعالى ولطفه في نظم العالم ، وتأليف اجزائه على أتقن وجه واحكمه بحيث لا يتصور ــ تصورا صحيحا ــ ما هو اشرف

من هذا النظام الموجود ، ويعرف ذلك بالتأمل في الموجودات وترتيبها ، وارتباط العلويات بالسفليات على النحو الخاص ، وبالتدبر في منافع حركاتها ونسب كواكبها وفوائد اعضاء الحيوان واجزاء النبات وسائر العنصريات على سبيل الاجمال ، لعدم اقتدار الانسان على الاطلاع ومعرفة جميع المنافع والخصائص ، بل ما يعلمه الانسان من دقائق حكمة الله تعالى في ايجاد نفسه وبدنه شيء قليل ، لا نسبة له الى ما لا يعلمه من الحكم والمصالح التي روعيت في ايجادها ، فكيف الحال في معرفته غيره ؟! » .

ثم ذكر طرفا كبيرا من المنافع والمصالح ، واسرار الحكمة في وجود الانسان والحيوان والنبات والاجرام السماوية والاشياء الارضية .

وهنا سؤال يفرض نفسه : اذا كان الله علة لكل شيء ، وكان كاملا بالذات ، وكل ما في الوجود فيض من كماله ، وكان عالما بالخير يريده ولا يريد الشر فكيف ــ اذن ــ وجد الشر في العالم ؟! ثم كيف يصدر الخير والشر عن مبدأ واحد ؟! ومن هنا قال المزدكيون بوجود إلهين : إله صالح يخلق الخير ، وإله فاسد يخلق الشر .

الجواب :

قدمنا في الفصل السابق اننا نحن نريد ونفعل لغاية تلائمنا، فافعالنا معللة بالغايات والمصالح ، اما الباري تعالى فافعاله لا تعلل بشيء غيرذاته، انه يريد ويفعل ، لانه الله ، وكفى ، ولكن بعد ان وجد العالم تفاعلت اجزاؤه بعضها مع بعض ، ولولا هذا التفاعل لم يكن العالم عالما ، وقد ترتب على هذا التفاعل آثار لا تنفك عنه بحال ، وهذه الآثار متباينة متناقضة كالفساد والكمال ، والصحة والمرض ، والقوة والضعف ، وهل يتصور طبيعة لا تناقض فيها ؟! وعالم مادي لا شر فيه ؟! وهل يكون

الحادث الذي له بداية ونهاية كاملا من جميع الوجوه ؟! ، ان الشر الذي نراه كالزلزال والوباء والفيضان ليس من آثار الخالق مباشرة ، وانما هو من لوازم الوجود ، لا من فعل الموجد .

قال الفارابي في رسالة « التعليقات » : « الاول تام القدرة والحكمة والعلم ، كامل في جميع افعاله لا يدخل في فعله خلل البتة ، ولا يلحقه عجز ولا قصور ، والآفات والعاهات التي تدخل على الاشياء الطبيعية انما هي تابعة للضرورات ، ولعجز المادة عن قبول النظام التام » . فلا بد اذن للمادة من فساد وزوال ، ولا يمكن تفاديه بحال الا بعدم الخلق والايجاد. وهل من الخير ان لا يوجد عالم بالمرة ، ونحرم من جميع خيراته التي لا يبلغها الاحصاء تفاديا لبعض الشر ؟! وهل على الله ان يحبس خيرا كثيرا تحرزا عن شر قليل ؟! وهل كان من الواجب ان لا توجد الشمس ، لانها ضربت طفلا بحرارتها ؟!

ثم ان الآلام كثيرا ما تدفعنا الى بحوث واختراعات لم تكن لتتسنى لنا لولاها ، وقديما قيل : الحاجة ام الاختراع ، هذا ، الى انه لولا الباطل والقبح والشقاء لما عرفنا الحق والخير والجمال والسعادة .

وبتعبير ثان ان الشر منه طبيعي ، ومنه خلقي ، والخلقي هو الذي يسببه الانسان لنفسه من جراء طمعه وحسده واتباع شهواته، والمسؤول عن هذا النوع هو الانسان دون سواه ، اما الطبيعي فمنه ما هو بارادة الله سبحانه ومقصود له بالذات ، كاغراق آل نوح وفرعون ، وهلاك قوم هود وصالح ، وهذا خير بالقياس الى نتائجه ، فهو اشبه باستعمال العنف للقضاء على العنف ، ومنه ما يتولد من وجود الطبيعة قهرا ، وهذا غير مقصود لله بالذات ، بل تابع لوجود الطبيعة كما اشرنا .

وبالتالي ، فان افعالنا نحن انما تكون حقا اذا وافقت ارادة اللـه ومرضاته ، اما اقوال الله وافعاله فهي الحكمة والخير والمصلحة،والمقياس الاول للحق مهما كان فعله ويكون موتا او حياة ، جدبا او خصباء مرضا او صحة : « وهو الذي خلق السموات والارض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك ــ ٧٣ الانعام » •

تجريد النفس[1]

نبحث في هذا الفصل : هل في الانسان معنى وراء جسمه هذا الذي نلمسه باليد ، ونراه بالعين ؟ وبكلمة ثانية : هل هو جسم فقط ، او جسم وروح تغاير المادة في حقيقتها وآثارها ؟! ولا ينكر احد لا في القديم ولا في الحديث ان الانسان يشعر ويدرك ويغضب ويرضى ، ويرجو ويخاف ، ويحب ويكره ، ويتصور ويصدق ، ويحكم بان هذا حق ، وذاك باطل ، وهذا خير ، وذاك شر ، وهنا جمال ، وهناك قبح ، ويدعم حكمه بالحجة والمنطق ، لا ينكر احد ان هذه من خصائص الانسان وحده دون غيره من الكائنات ، كيف ؟! والشاهد العيان ، والبديهة والوجدان .

وانما وقع النزاع والخلاف بين الماديين وغيرهم في ان هذه الصفات في الانسان : هل هي من عوارض جسمه وتوابعه ، بحيث توجد بوجوده ، وتعدم بعدمه ، او انها اثر لمعنى قائم بذاته مجرد عن المادة ، تخالف حقيقته حقيقتها ، وحكمه حكمها ؟ وان كانت مرتبطة به ارتباط تدبير واشراف .

ذهب الماديون الى الاول ، وقالوا : ان الادراك والشعور في الانسان جاء نتيجة لتناسب عناصره ، وتركيب اعضائه ، فالمخ يفرز الافكار ، تماما كما تفرز المعدة الفضلات ، والكبد الصفراء ، وعليه تكون النفس من توابع البدن تفنى بفنائه ، وتفسد بفساده .

---

(١) معنى تجريد النفس انها ليست متحيزة ، ولا عارضة لمتحيز .

ولو صح هذا القول لتساوى جميع افراد الانسان من انشتين [1] الى راعي الابل في البادية ، ولاستحال على الانسان ان يرى شيئا ، ثم يعدل عنه ، ما دام المصدر واحدا لم يطرأ عليه اي تعديل او تبديل ، وبالتالي يلزم على قول الماديين ان يكون الانسان والحيوان من فصيلة واحدة ، يسلك طريقا واحدا منذ يومه الاول الى آخر حياته ، لا تطور ولا حضارة ولا شيء سوى الجمود والركود .

ولو طرح سائل هذه الاسئلة : كيف حلق الانسان في الجو ، وبلغ ما لم تبلغه الطيور ، مع انه بدون اجنحة ؟! وكيف يعوم على الماء، ويقطع البحار ، وهو حيوان بري لا مائي ؟! وكيف يحفر الانفاق ويخترق الارض، وهو بدون مخالب ؟! وكيف يقتل ملايين الاحياء مع انه لا ينفث السموم كالافاعي ؟! لو طرح احد هذه الاسئلة ، وما اليها فبماذا يجيب الماديون؟! واذا كانت هذه الصفات لمجرد تركيب الجسم على هيئة خاصة فلماذا عجزت انا وانت ــ ايها القارىء ــ عما يفعله المخترعون وعباقرة العلم مع ان الاجسام واحدة في الجميع ؟!

كل شيء عند الماديين سببه المادة ، لانها واجبة الوجود بالذات والعلة الاولى لجميع الظواهر ، فالافكار والعبقرية ، والعشق والاريحية، والوفاء والتضحية ، والايمان والعقيدة ، والدين والاخلاق ، كل اولئك ترجع الى المادة ، اما الروح فحديث خرافة لا يصدقه الا البسطاء ..

وليس بغريب على من انكر خالق النفس ، ان ينكر النفس [2] ..

---

(١) اوصى انشتين ان يحلل دماغه بعد الموت في المختبرات العلمية ، ولدى البحث والتحليل لم يجد العلماء اي فرق بينه وبين سائر الادمغة .

(٢) ذكرت في كتاب « معالم الفلسفة الاسلامية » ان كثيرا من الاوائل كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وفي الوقت نفسه يؤمنون بان الفكر جوهر مادي ، ولكن الماديين في هذا العصر ينطلقون من مادية النفس الى انكار الخالق ، وكلامهم صريح في ذلك . اما القدماء فكانوا لا يرون الملازمة بين انكار الخالق ، وانكار المجردات عقولا كانت او نفوسا .

ان آثارها ليست بشيء بالقياس الى آثاره تبارك وتعالى ، ومع ذلك فقد عمي عنها الماديون ، فبالاحرى ان لا يروا آثار النفس، وصدق الله العلي العظيم : « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم انفسهم اولئك هم الفاسقون ــ ١٩ الحشر » وفي الآية دلالة واضحة على ان نسيان النفس منوط بنسيان خالقها ، ومعرفتها بمعرفته .

واستدل القائلون بتجريد النفس وقيامها بذاتها كغيرها من الموجودات بأدلة ، منها :

١ ــ ان كل انسان عالما كان او جاهلا ، كبيرا او صغيرا حين يعبر عن نفسه بأنا ، ويخاطب غيره بأنت لا يريد هذا الجسم المؤلف من الرأس واليدين والرجلين ، وانما يقصد معنى وراء الاعضاء بدليل انه لو قطعت يداه ورجلاه ، وما اليهما يقول : انا الذي فعلوا بي ما فعلوا ، ولو كانت النفس هي الاعضاء بعينها لكان قوله هذا كذبا او مجازا .

٢ ــ ان الشعور والادراك لو كانا من لوازم الجسم ، وتنظيمه على هيئة خاصة من حيث هو جسم لوجب ان يكون كل جسم يحس ويدرك.

واذا قال المادي : ان الادراك من لوازم تنظيم الجسم على هذه الهيئة ، لا من لوازم الجسم كيف اتفق ، وعلى اية صورة وجد . قلنا في جوابه لو صح هذا لاستطاع العلماء ان يصنعوا في معاملهم انسانا ، له ما للانسان من الخصائص والصفات .. ونحن مع الماديين ان استطاع علماء الشرق والغرب ان يخلقوا ذبابا لا انسانا : « ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ــ ٧٣ الحج » . هذا الى ان الميت كان قبل لحظة يشعر ويدرك ، والآن اصبح جمادا بلا احساس، مع ان اعضاءه هي هي لم يطرأ عليها تبديل او تعديل .

٣ ــ ان الانسان قد يذهل ــ احيانا ــ عن اعضائه وينساها بالمرة، ولكنه لا يذهل ابدا عن نفسه ؛ ولو كانت النفس هي الاعضاء بالذات لكان الانسان ذاهلا عن نفسه ، وملتفتا اليها في آن واحد .. ثم اننا ندرك ــ مثلا ــ ان الارض تدور حول الشمس ، وهذا الادراك لم يأت عن طريق السمع ولا البصر ولا الشم ولا اللمس ، ولا عن طريق المخ بما هو مركب من ذرات وجزئيات ، لان الذرات بما هي لا تدرك شيئا فلا صلة ــ اذن ــ للاعضاء بالادراك في معرفة الجزئيات المحسوسة ، كاللون والصوت والطعم والرائحة والحرارة والبرودة لانها تحس ، فتحتاج معرفتها الى الاعضاء والحواس ، اما الامور التي لا تحس بحال فهي في غنى عن الحواس .

٤ ــ ان الانسان يدرك الكليات ، كماهية الانسان والحيوان ، ويدرك الغايات ، ويرجع المسببات الى اسبابها ، ويضع الامور في نصابها، ويتنبأ بحوادث المستقبل ، وبديهة ان الكليات لا وجود لها في الخارج ، لان كل ما يوجد خارجا يتشخص به ، ولا يصدق على كثيرين ، فيصبح جزئيا لا كليا ؛ فوجب ان يكون ادراك الكليات فكريا لا ماديا .

وبكلمة ثانية : اننا ندرك مفاهيم كلية لا وجود لها الا في الذهن ، كالجنس والنوع والفصل ، وما اليه من المعاني المجردة التي لا يشار اليها بالحس ، ولا تنقسم الى الابعاد الثلاثة ، ومعلوم ان المادة لا تدرك غير المادة ؛ والمنقسم لا يدرك اللامنقسم [1] ، والى هذا اشار صدر المتألهين بقوله : « لا يجوز ان تكون قوة جسمية تدرك صورة عقلية ، فان كل قوة تكون ذاتها جسمانية تكون افعالها وانفعالاتها ايضا جسمانية » .

وقال « رامون دولا » : « ان التأثير الارادي ، والتلقين العقلي لا

(١) كل محسوس متحيز ينقسم الى الجهات الست : يمين ويسار وامام وخلف وفوق وتحت ، والادراك والشعور لا يتأتى فيهما ذلك .

يمكن ان يعزى الى المادة الجسمية ، ولا الى التفاعلات الكيمائية ، ولا الى الحركات الميكانيكية ، بل الى الفكرة »[1] .

ورب قائل بان الفكرة لا توجد بدون المخ كما لا توجد الجاذبية بدون الجسم الثقيل ، وعليه تكون الفكرة من لوازم الجسم وعوارضه كلية كانت او جزئية ، تماما كالجاذبية للاجسام .

قلنا في جوابه : ان تشبيه شيء بشيء يستدعي وجود الشبه بينهما ، والا كان قياسا مع الفارق ، واي شبه بين الادراك وبين الجاذبية العمياء التي لا شعور لها ولا حياة ، وهذا شأن الماديين والجاحدين يقيسون الضد على ضده ، والنقيض على نقيضه ، ويشبهون العقل الذي اكتشف الجاذبية بالجاذبية ، والروح التي تحرك الاوتار بالانغام التي تولدت منها .. ان الخلاف بين الماديين وغيرهم حصل في ان الادراك : هل يفسر بالمادة او بغيرها ، فقولهم بانه كالجاذبية عين الدعوى يحتاج الى دليل يثبته ، وما اشبه دعواهم هذه بقول من قال : ان المريخ مسامت للقمر ، لان كلا منهما في السماء .. ولو تتبع اشياع الماديين أدلة ساداتهم وأئمتهم لالفوها لا تختلف عن هذا المنطق في شيء .

٥ ــ ان الانسان يعرف ذاته ، ويعرف غيره ، وان معرفته تتسع للمتناقضات والمنافيات في وقت واحد ، فهو يدرك المتضادين ، ويحكم بينهما بالتضاد ، ويدرك المستحيلات ، ومعرفة التضاد والاستحالة لا يمكن ان تعزى الى الجسم لان الجسم بما هو مادي لا يقبل الا المادة ــ اذن ــ لا بد ان يكون وراء هذا الجسم جوهر روحاني لا يشبه المادة في شيء ، ولا تشبهه في شيء .

ومما قلت في « معالم الفلسفة » :

(١) كتاب « وحي الموت » لقراءة ص ٦٠ .

« ان للجسم خصائص ، اظهرها اذا قبل شكلا من الاشكال كالتثليث ـ مثلا ـ فلا يقبل غيره من التربيع والتدوير الا بعد زوال الشكل الاول [1] .

.. اما النفس فتتراكم فيها الانطباعات المختلفة ، والصور المتنوعة من المحسوسات والمعقولات دون ان تمحى الاولى ، بل تبقى كاملة، وتزداد قوة ، لان الانسان يزداد فهما كلما ازداد علما ، وهذه صفة مضادةلصفات الاجسام التي يلحقها الفتور والكلل كلما تكدست عليها الاثقال » .

٦ ـ جاء في كلمات الامام الصادق (ع) انالطفل يكونيوم ولادتهاشبه بقطعة لحم لا تدله الحواس على شيء يسمع او يبصر او يذاق او يشم ، ومع ذلك فهو يطلب اللبن ، ويضحك اذا رآه ، ويبكي اذا جاع ، ولو لم تكن فيه قوة وراء الحواس والاعضاء تهيج به الى طلب اللبن والضحك والبكاء لكان كسائر الجمادات . قال الفارابي في رسالة « التعليقات » : « ان نفس الطفل مستعدة لان تحصل لها الاوائل والمبادىء ، وهي تحصل له من غير استعانة بالحواس » وليس من شك ان حصول هذه الاوائل لو كانت من لوازم الحواس لما وجدت في مثل هذه الحال ، لان لازمالشيء لا ينفك عنه .

٧ ـ قال افلاطون : ان المادة ساكنة بطبعها ، فلا بد لها من مبدأ يحركها ، وهذا المبدأ هو النفس ، ولا يمكن ان يقال : ان النفس عبارة عن توافق الاخلاط ، او العناصر المؤلفة من البدن ، لان التوافق نتيجة التركيب ، والنفس تدير البدن ، وتديره بالارادة ، فلا بد ان تكون شيئا

---

(١) ثم ان العين تبصر ، ولا تشم وتسمع ، والاذن تسمع ولا ترى وتشم، والانف يشم ، ولا يسمع ويبصر ، اما العقل فيدرك في آن واحد رائحة الشيء ولونه وطعمه وحجمه وحرارته . فثبت بهذا ان حقيقة العقل تختلف مع حقيقة الحواس .

متمايزا عنه . وقد تبنى ديكارت هذا الدليل ، حيث عرّف الانسان بانه « جوهر مفكر » وان له نفسا تامة قائمة بذاتها [1] .

هذا بعض ما استدلوا به على تجريد النفس . وهو كاف لاثبات المطلوب ، ومن اراد التطويل والتفصيل فعليه بالجزء الاول من السفر الرابع لصدر المتألهين .

والخلاصة انه اذا كان لكل فعل فاعل ، ولكل ظاهرة مصدر وجب ان يكون لآثار الكائن الحي وظواهره مصدر ، ولا يمكن ان يكون جسما ، والا كان كل جسم له آثار الحياة وظواهرها ، اما ما ذهب اليه الماديون من ذرات المخ وافرازه . والجهاز العصبي وتركيبه ، وما الى ذاك من التعليلات والتفسيرات المادية ، فلا تصلح مصدرا لعبقرية الانسان وعظمته . ولا لشيء من آثار الحياة .

---

(1) « الطبيعة وما بعد الطبيعة » ليوسف كرم ص ٥٢ و ٥٤ . طبعة ١٩٥٩ .

علاقة النفس بالبدن

ان علاقة النفس بالجسم مسألة عسيرة الحل ، ذلك اننا لا نـدرك النفس في ذاتها وحقيقتها ، وانما ندركها بظواهرها وافعالها [1] بـل قال جماعة من المفسرين وعلماء الكلام : ان النفس شيء استأثره الله بعلمه ، ولم يطلع عليه احدا من خلقه، حتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعليه لا يجوز لاحد البحث عنها باكثر من القول بانها موجودة وكفى •

وقـال صدر المتألهين : في كتاب « الاسفـار » ان النفس لا تعرف بالحد ، لان الحد مركب من الجنس والفصل ، ولا جنس وفصل للنفس لانها جـوهر بسيط ولكنه انكر اشد الانكار على مـن زعم ان علمهـا محجوب عن الرسول الاعظـم ، لان جهله بحقيقتها يتنافى مـع منصب النبوة •

قال في كتاب « المظاهر الالهية » ما نصه بالحرف :

« لا تظنن ان النبي لم يكن عالمـا بالروح ، وكيف يكون برهانـا ومظهرا لجميع الصفات • وقد توهم جماعة ان الله أبهم علم الروح عـلى

---

(١) قال ارسطو : في كتاب « النفس » انها كمال اول لجسم طبيعي آلي، ويريد بالالي انه ذو اعضاء ، وان لكل عضو وظيفة تخصه ، وهـذا تعريف بالآثار ، تماما كتعريف البيت بانه ملجأ يحمي من اضرار الرياح والامطـار ، ويحجز بين اهله واعين النظار .

الخلق ، واستأثره لنفسه ، حتى قالوا لفرط جهلهم بمنصب النبوة : ان النبي لم يكن عالما به ، جل منصب حبيب الله ان يكون جاهلا بالروح ، وقد منّ الله عليه بقوله « علمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ـ ١١٣ النساء » .. وقوله تعالى : « وما يعقلها الا العالمون ـ ٤٣ العنكبوت » .

وذهب القائلون بتجريد النفس وقيامها بذاتها الى ان تعلقها بالبدن هو تعلق التدبير والتصرف من غير ان تكون داخلة فيه دخول الجزء في الكل ، ولا حالة فيه حلول الماء في الاناء .

قال الشريف الجرجاني في الجز السابع من « شرح المواقف » ص ٢٥٣ :

« ان تعلق النفس بالبدن ليس تعلقا ضعيفا يسهل زواله بادنى سبب مع بقاء المتعلق بحاله ، كتعلق الجسم بمكانه ، والا تمكنت النفس من مفارقة البدن بمجرد المشيئة من غير حاجة الى امر آخر ، وليس ايضا تعلقا في غاية القوة ، بحيث اذا زال التعلق بطل المتعلق مثل تعلق الاعراض والصور المادية بحالها ، لما عرفت من انها متجردة بذاتها غنية عما تحل فيه . بل هو تعلق متوسط بين بين ، كتعلق الصانع بالآلات التي يحتاج اليها في افعاله المختلفة » .

ويدلنا تشبيه النفس بالصانع ، والجسم بآلاته ان النفس هي المبدأ والمصدر للافعال الحيوية بشتى انواعها ، وان الجسم ما هو الا اداة ووسيلة لفعل النفس وانفعالها ، فهي التي تبصر الالوان ، والعين واسطة، وهي التي تشم الروائح ، وتسمع الاصوات ، وتخاف وتتألم ، وتفرح وترجو ، وتكتب وتخطب وتزرع وتتاجر ، وتتعلم وتعلم وتخترع ، وتحارب وتسالم ، كل اولئك ، وما اليها من فعل النفس ، اما الجسم

فوسيلة تماما كما يصنع النجار الخزانة ، اما المنشار فآلة . وكفى . ولو كانت العين تبصر بطبيعتها ، والاذن تسمع بذاتها . والانف يشم . واليد تعمل بدون النفس لادى كل عضو وظيفته بعد مفارقة الروح للجسم. كما كان يؤديها قبل الموت .

ورب قائل : كما ان العين لا تبصر . والاذن لا تسمع . والانف لا يشم بدون النفس كذلك النفس لا تعرف الالوان والاصوات والروائح بدون العين والاذن والانف ، ولذا قيل : من فقد حسا فقد علما . اذن ، القول بان النفس ترى بواسطة العين ليس باولى من القول بان العين ترى بواسطة النفس ، اولا اقل من اسناد الاحساس اليهما معا ، واعتبارهما جزأين لجوهر واحد ، يتحدان اتحاد الهيولى والصورة .

الجواب :

ان النفس هي التي تتصرف بالجسم واعضائه ، ولا عكس فانت بنفسك ان شئت نظرت وشممت وسمعت ولمست وفعلت وان لم تشأ لم يكن من ذلك شيء ، فالسلطان للنفس على الاعضاء ولا سلطان للاعضاء على النفس بحال .

ومن هنا كانت هي الفاعل حقيقة ، وكان الجسم آلة واداة لا غير ، تماما كما هي الحال في النجار وآلاته ، والفرق بينهما ان تعلق النفس بالبدن طبيعي ذاتي ، وتعلق النجار بآلاته عرضي خارجي .

وبهذا يتبين معنا ان تعلق النفس بالبدن تعلق التدبير والتصرف من غير ان تكون جزءا منها ، او يكونا جزأين لكل . اما القول الشائع من ان الانسان مركب من جسم وروح فلا يحمل على حقيقته ، وانما المراد منه ان للانسان روحا قائمة بذاتها . وتعرف بآثارها ، كما ان له جسما نعرفه بالمشاهدة والعيان .

اشرنا في فصل « تجريد النفس » الى قول الماديين ، وذكرنا ما يرد على قولهم من المحاذير ، والادلة التي تثبت وجود النفس وتجردها عن المادة ، ونعود الآن لنستقبل آراءهم مرة ثانية ، ونشير الى ما فيها بتجرد ليكون المشايعون لهم على بينة من اخطائهم واوهامهم .

قال هوبس وهيوم ، وغيرهما من ائمة الماديين واقطابهم : « ان الادراك ينشأ من حركة ذرات الجسم » ومعنى هذا ان كل فكرة ايا كان نوعها فهي وليدة تجمع الذرات وجذبها ودفعها ، واستدلوا بانه لو حصل مانع من تجمع هذه الذرات وتركيبها وتفاعلها لذهب الفكر او اضطرب ، كالراديو لا يلتقط الصوت اذا عطب ، ووقع فيه ادنى خلل . وهذا الدليل هو العمدة ، وما عداه يرجع اليه ، او اضعف منه .

الجواب :

اولا اننا نتساءل : لماذا تخطر للعالم افكار نافعة دون الجاهل ، مع ان تفاعل الذرات متحقق في الدماغين ؟! ثم لماذا يحتاج اكتشاف النظريات الى تفكير عميق ، وانتباه حاد ، وبراعة في التحليل ، وانصراف عن كل شاغل ، مع ان تجمع الذرات وتفاعلها ، والجهاز العصبي هو هو لم يطرأ عليه شيء في جميع الحالات ، ولو كان هو الاصل للتفكير لما احتاج الامر الى ذلك ، ولما اختلفت حال عن حال ؟!

وبعد هذا التساؤل نجيب بان تأثير الافكار والشعور على البدن اقوى بكثير من تأثير البدن على الفكر ، فلقد رأينا ان المجهود العقلي ، والتفكير المتواصل يضعف الاعضاء وتسوء معه الصحة . قال الاطباء : ان العمل العقلي مع الجهد قد يؤدي الى تعطيل الدماغ ، او اضطرابه، وذلك بتوارد الدم اليه ، ورأينا ان للحزن والخوف تأثيرا كبيرا على البدن ، كما

اننا بالارادة نكبح الكثير من غرائزنا ، ونخضع البدن الى مقتضيات الكمال ، ونضحي به في سبيل المبادىء والعقائد .

ان تدبير الفكر للبدن ، وتحكم الارادة به يدلان بوضوح على اصالة الفكر ، وانه ليس فرعا عن البدن ، لان الفرع لا يسير الاصل ولا يتحكم به ؛ اما العلاقة بين الظواهر الفكرية ، والحياة البدنية ، فان دلت على شيء ، فانما تدل على ان الثانية شرط للاولى لا علة لها ، لان البدن يتأثر بالفكر كما قدمنا ، ومعلوم ان العلة لا تتأثر بالمعلول ، بل العكس هو الصحيح ، ومن هنا قال « ليبنتز » :

« اننا مضطرون للاقرار بان الادراك وما يتعلق به لا يفسر باسباب مادية » [1] .

وبالتالي لو قلنا : ان المادة اصل الظواهر الفكرية لصدق قول القائل بأن علم النفس بلا نفس ، وعلم الحياة بلا حياة .

---

(١) يوسف كرم « الطبيعة وما بعد الطبيعة » ص ٧٠ .

النفس والموت

الموت حادث طبيعي لا بد منه ولا مفر عنه ، ولا بقاء الا لمن خلق الموت والحياة ، فهو وحده الحي الذي لا يموت ، واليه المصير ، ولكن ما هو الموت ؟ هل هو مفارقة النفس للبدن ، وقطع العلاقة بينه وبينها ، وانتقالها عنه مع بقائها سالمة كاملة ، او انها تفسد بفساده ، وتنحل بانحلاله ، ولا يبقى لها بعد الموت عين ولا اثر ، تماما كما ينطفىء النور في المصباح .

وبديهة ان هذا التساؤل لا يهم الماديين في شيء ، لانهم ينكرون الروح اطلاقا ، بل انكر ابيقور الموت بالمرة ، حيث قال : « ما دمنا احياء فلا موت ، واذا متنا فلا حياة » وانما يخص هذا التساؤل القائلين بتجرد النفس مستقلة بحقيقتها وافعالها كغيرها من الموجودات . والحق الذي نؤمن به وندين انها لا تموت بموت البدن ، ولا تفسد بفساده ، وانما تتركه الى عالم آخر ، ولكن من اين تتبين ذلك ؟ هل تتبينه بالعقل والقياس المنطقي ، او بالوحي من كتاب او سنة ثابتة ؟. وعلى افتراض ان الدليل المعتمد هو العقل ، فهل يحكم العقل ببقاء النفس ابتداء كما يحكم بثبوت الصانع ، او ان حكمه منوط بفكرة الثواب والعقاب ، او الميل الغريزي الى البقاء والخلود ذهب الى كل فريق ، واليك أدلة الجميع :

قال الذين اعتمدوا الوحي : ان فساد البدن لا يوجب فساد النفس،

اما تدبيرها له ، وتصرفها فيه فلا يستدعي الملازمة بينهما نفيا ولا اثباتا ، وعليه فلا بد لاثبات البقاء من دليل ، ولا دليل سوى نصوص الكتاب والسنة واجماع الامة ، وهي من الكثرة ما لا يبلغه الاحصاء ، من ذلك قوله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون ــ ١٦٩ آل عمران » . وقوله : « يا ايتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية ــ ٢٧ و٢٨ الفجر » .

وجاء في السيرة ان النبي نادى قتلى بدر من المشركين رجلا رجلا ، وخاطبهم قائلا : هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ فاني وجدت ما وعدني ربي حقا ، بئس القوم كنتم لنبيكم ، كذبتموني وصدقني الناس ، واخرجتموني وآواني الناس ، وقاتلتموني ونصرني الناس . فقال له اصحابه : يا رسول الله أتنادي قوما قد ماتوا ؟! فقال : ما انتم بأسمع منهم لما اقول ، ولكنهم لا يستطيعون الجواب .

اما الذين اعتبروا حكم العقل وثيق الصلة بفكرة الثواب والعقاب ، او حب الخلود فيتلخص دليلهم بما يلي :

١ ــ ان الله سبحانه قد اودع في طبيعة الانسان محبة الوجود والخلود، وكراهية العدم والفناء، وبديهة انه لا بقاء في هذه الحياة فلا بد ــ اذن ــ من حياة ثانية يتم فيها الخلود ، ولو لم توجد هذه الحياة لكانت غريزة الميل الى البقاء عبثا والله منزه عن العبث .

ويلاحظ على هذا الدليل ان الخلود لا يتحقق لمجرد الرغبة فيه ، والا تحقق كل ما هو مراد ومحبوب . والحكمة من حب البقاء هي الاستمرار في العمل ، تماما كالحكمة من الامل .

٢ ــ قد رأينا ظالما لا تنتصف منه الطبيعة ، والعدالة البشرية ،

ومظلوما يذهب حقه هدرا في هذه الحياة ، اذن لا بد من حياة اخرى تقو فيها العدالة الآلهية .

وهذا الدليل يرجع في حقيقته الى قدرة الله وعدالته تعالى ، وفيما سبق عقدنا لكل منهما فصلا مستقلا ، ويأتي في بحث المعاد ما يتصل بهما.

وقال الفلاسفة الذين لا يربطون بقاء الروح بالجزاء ولا بالحب ولا باية فكرة ، قالوا : « ان النفس بسيطة غير مركبة من اجزاء ، كي تفسد بالانحلال ، ولا هي عرض قائم بغيره ، كي تذهب بذهاب المحل الذي قامت فيه ، وعرضت له ، وانما هـي الحياة بطبيعتها وعليه فـلا تكون قابلـة للفساد بحال وبكلمة ان النفس ليست كما ولا كيفا ، وانما هـي جوهر بسيط قائم بذاته ، وما كان كذلك لا يقبل الفساد والانحـلال اطلاقا ، فهي اذن خالدة .

ويعتمد هذا الدليل على منطق العقل ، والتأمل النظري ، وعليه فلا يكون الايمان بخلود النفس ايمانا دينيا ، بل يقينا فلسفيا يقره الـدين ويباركه .

ومما استدل به صدر المتألهين في كتاب « المبدأ والمعاد » عـلى ان النفس لا تموت بموت البدن انه لا تعلق ذاتي بينهما ، ولا ارتباط عقلي، بل معية ومصاحبة ليس الا ، لان احدهما ليس بعلة حقيقية لـلآخر ، ولا هما معلولان لعلة ثالثة فلا يوجب فساد احدهما فساد الآخر . ثم قال : « ومما يدل على بقاء النفس بعد فساد البدن اتفاق اصحاب الشرائع والملل على ذلك ، اذ ما من ملة الا وفيها وعد ووعيد اخرويان في الافعال والاعمال الحسنة والقبيحة وايضا يدل على فعل الانبياء (ص) وخلفائهم ، ومن يرى مثل رأيهم من الفلاسفة والبراهمة ، لانهم يتهاونون بامر الاجساد، ويرون

ان هذه الابدان المظلمة الكثيفة هي حبس للنفوس ، او حجاب لها، وانها بمنزلة البيضة للفرخ وبيت الرحم للجنين » .

ايضا مع الماديين

نعود الى الماديين في كل مناسبة ، ونكرر اقوالهم ، وما فيها من اخطاء في كل فصل من الفصول او في اكثر الفصول ، لانهم الهدف الاول والاخير لتأليف هذا الكتاب .

قالوا : ان الانسان مادة بلا روح ، وان القوانين الطبيعية تتحكم به تماما كما تتحكم بالمادة الجامدة .. وان ما فيه من ظواهر الحزن والفرح والخوف والرجاء ، وما الى ذلك ان هي الا لتأثره بالظروف والبيئة المحيطة به ..

ونجيب : لماذا استعد الانسان وتقبل هذه الظواهر وتفاعل مع الظروف والبيئة دون غيره او استعد لها اكثر من بقية الكائنات ، مع انه لا فرق بينه وبينها في شيء ؟!

قال بسكال : « ان خلايا النحل لم تكن اقل ضبطا ، او ادنى دقة منذ آلاف السنين عما هي عليه الآن » . اما الانسان فقد دخل في الف طور وطور ، ألا يدل هذا على ان فيه معنى وراء المادة ، ووراءالحيوانية؟!

ونحن لا ننكر ابدا ان الانسان جزء من الطبيعة بوصفه جسما ، ولكنا نقول : انه فوق الطبيعة بوصفه عقلا ، يتحكم بها وبقوانينها ، ويستوعب كل شيء ولا يستوعبه شيء سوى خالقه . ولذا قال امير المؤمنين علي : « الانسان يشارك السبع الشداد » وقال غيره : « الانسان مركز الكون » .

وغريب الغرائب ان يقول الماديون : ان الكون بارضه وسمائه ،

وجميع اشيائه ملك للانسان يتصرف فيه ما شاء ، ويضفون عليه جميع الصفات الالهية ، حتى قال امام من ائمتهم وهو فورباخ : « ان إله الانسان هو الانسان » قالوا هذا ، وفي الوقت نفسه زعموا ان الانسان جسم بلا روح ، وانه تراب يتحرك « تماما كالهوام والحشرات !! .. اما العلم والارادة والحرية ، اما التضحية والانسانية والعبقرية ، اما الابداع والابتكار ، اما حب الحق والخير والجمال فكلام فارغ ..

ونحن لا نجانب الصواب اذا قلنا هذا الكلام فارغ ، تماما كأدمغة الجاحدين .. ثم نسأل الماديين : هل انكرتم الروح بوصفكم ارواحا او بوصفكم اشباحا ؟ فان قالوا بالاول ناقضوا انفسهم بانفسهم ، وان قالوا بالثاني اعدنا السؤال : هل تشك الاشباح وتنكر ؟!. وصدق الله العلي العظيم ، حيث وصف المنافقين بقوله : « واذا رأيتهم تعجبك اجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة ـ ٤ المنافقون » .

وايضا هل يوجد كائن غير الانسان يتفلسف ، ويتخذ نفسه بنفسه محلا للبحث والدرس والنزاع والصراع في انه مادة بلا روح ، او روح بلا مادة ، او هما معا ، او هو شيء لا تعرف حقيقته ؟! [1] ثم لماذا يغضب الماديون اذا شبهوا بالحيوانات ما داموا لا يمتازون عنها الا في الشكل والهيئة ؟! ولماذا يحاولون تبرير اقوالهم بمنطق العقل مع انه لا وجود للعقل بزعمهم ؟! وبماذا يميزون بين الصدق والكذب ، والحق والباطل ، والعلم والجهل ما داموا اشباحا بلا ارواح [2] واجساما بلا عقول ؟!

قال العلماء : ان الحيوان يعيش في اللحظة التي هو فيها ، ولا ينظر

---

(١) الاول قول الماديين ، والثاني قول المثاليين ، والثالث قول العارفين والرابع قول اللاادريين .

(٢) فرق بعضهم بين الروح والنفس من جهات ، وجعل السمع والبصر، وما اليهما من لوازم الاولى ، وقوة الغضب والشهوة من لوازم الثانية ، اما نحن فنستعملهما في معنى واحد .

الى المستقبل ، ولا يتأثر في سلوكه باصداء الماضي [1] وقال الماديون : ان الانسان كالحيوان ، ولا الفرق بينهما الا ان هذا يمشي على اربع ، وذاك على رجلين . كلا ، ثم كلا ، ان الانسان يعلو على الحيـوان ، ويسخره لصالحه بدليل انه يحتج بالمنطق السليم على من ساوى بين الاثنين ، امـا الحيوان فلا علم لديه ولا هدى ولا كتاب منير .

---

(1) يشترك الانسان والحيـوان في الاستجابة لمؤثرات البيئة ، ولكـن الحيوان لا يستطيع ان يستنبط ويستنتج ، النظريات والنتائج من الاسباب والمقدمات ، كما دلت تجربة العلماء . قال كوهلر في كتاب « ذكـاء القردة العليا » : لا يملك الحيوان تصور الماضي ولا المستقبل ، وابسط مثال على ذلك ان القرد ـ وهو اقرب الحيوانات الى الانسان ـ اذا راى في آن ونظرة واحدة ثمرة معلقة وعصا ، فانه لا يلبث ان يستعين بالعصا على انزالها، اما اذا راى الثمرة اولا ، ثم راى العصا ، او راى العصا ، ثم راى الثمرة فانه لا يفكر في العصا حين يرى الثمرة ، ولا في الثمرة حـين يرى العصا ، لان صورة الماضي لا تستقر في ذهنه لحظة فما دونها « كتاب مشكلـة الانسان لزكريا ابراهيم » .

مصدر النفس

اثبتنا في الفصول الثلاثة السابقة تجريد النفس ، وقيامها بذاتها ، كغيرها من الموجودات ، وبقاءها بعد انحلال البدن وبيّنا جهة اتصالها به ، لقد بسطنا القول في هذه البحوث ، لانها تتصل اتصالا وثيقا بالمعاد، وتكلمنا عن التناسخ في كتاب « معالم الفلسفة » اما البحث عن حدوث النفس ، وما اليه مما اطنب فيه الفلاسفة فلا حاجة بنا اليه ، او انها ليست ملحة كالحاجة الى تجريد النفس وبقائها ، على ان الكلام في حدوثها يدخل في مبحث حدوث العالم الذي اشرنا اليه في الفصول الاولى من هذا الكتاب .

واخيرا نقصد من هذا الفصل ان ننظر الى النفس من حيث مصدرها ، او بالاصح من حيث هي نظرة اجمالية لا تبتني على الاقيسة ومقدماتها ، بل على شيء ادل واقوى منها ومن الحواس والتجربة في أي شيء آخر ، وذلك بالقاء اسئلة تكمن في اعماق النفس ، ويتطلب الجواب عنها كل من يملك الاحساس والادراك ، وهذا طرف منها :

اين كانت الروح قبل اتصالها بالبدن ؟ والى اين تذهب بعد انحلاله؟ ومن الذي اعطاها له ، ثم سلبها منه ؟ وكيف حوت طاقات جبارة تستوعب ادراك الكون ، وترقى بها الى اقصى الكواكب ، وتكتشف المجهول ، وتتذكر الماضي ، وتضع تصميم المستقبل ؟ وكيف اتصلت بالطبيعة وانفصلت

عنها في آن واحد ؟ [1] الى عشرات الاسئلة التي لا تجد لها جوابا ولا حلا اذ لم يفترض وجود خالق مدبر لهذا الكون ، قادر على ما لا يقدر عليه احد سواه ، تماما كما تفترض وجود كاتب لرسالة ارسلها اليك مجهول لا تعرف هويته ، ولا شيئا عنه من قبل .

ونحن مع الماديين اذا استطاعوا ان يجيبوا عن هذه الاسئلة ، او عن واحد منها جوابا صحيحا معقولا ، دون ان يفترضوا وجود الله سبحانه ، وكيف يفترضون وجوده ، وهم يتوجسون خيفة لمجرد ذكره ، لا لشيء الا لانه اسم سحيق عريق في القدم يردده الانسان منذ وجد على ظهر هذا الكوكب ، وكفى بهذا مبررا للجحود والانكار في منطقهم ..

ان جميع الحلول والتفاسير لمصدر الروح والكون لا تزودنا بنظرية صحيحة اذا لم نفترض وجود سبب اول ينبثق عنه كل موجود ، ويرجع اليه كل شيء ، وحيثما وجد النقص والخلل في التفسير والتعليل لمصدر الروح يوجد التمام والكمال في هذا السبب .

واحتار بعض الباحثين في امر النفس وواقعها ، ولم يدر ماذا يصنع؟ فقد رأى ان ارجعها الى المادة وحتميتها المحضة ازداد الامر غموضا وتعقيدا ، وان ارجعها الى الله ناقض نفسه ، لانه لا يؤمن بغير المادة، على الرغم من انها لا تقدم الحلول ، ولا تكتفي بذاتها ، وانها في حاجة الى الحل والتفسير ، فكان من نتيجة الحاده ان تخبط في ظلمات الشك والحيرة .

---

(1) قال صدر المتألهين : ان الله قد جمع في الانسان قوى العالم، واوجده بعد وجود الاشياء التي جمعت فيه : « الذي احسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين ـ ٧ السجدة » فلقد اوجد الله فيه بسائط العالم ومركباته وروحانيته ومبدعاته ومكوناته ، فالانسان من حيث جمع فيه قوى العالم ، كالمختصر من الكتاب الذي لفظه قليل ومعناه كاف واف ، كالزبدة من المخيض . والدهن من السمسم ، والزيت من الزيتون .

وقال آخر : « الخير في ان لا نفكر في نفوسنا اطلاقا تفاديا للاصطدامات » .

اجل ، ونحن مع هذا القائل لو ان نفوسنا هي غيرنا لا تتصل بنا من قريب او بعيد . وهذي حال من حاد عن الحق يناقض نفسه بنفسه من حيث لا يحس ولا يشعر .

ولعل قائلا : اذا كان الحل لمشكلة الروح يحتم الايمان بوجود مبدأ اول مغاير للمادة ، فلماذا ــ اذن ــ كل هذا التطويل والقال والقيل ؟ .

الجواب :

ان التطويل أتى من الماديين الذين افترضوا عدم وجود الخالق سلفا دون ان يقدموا دليلا ، او اثارة من علم ، وقد رأينا لهم ــ في هذا العصر ــ اشياعا واتباعا ، فاضطررنا الى نقاشهم ، ورد شبهاتهم ، وبيان ما في اقوالهم من مفاسد واخطاء .. وان ردودنا على الماديين ، وان تكن سلبية في ظاهرها فانها تؤلف في واقعها دليلا ايجابيا يوقفنا على الحقيقة، وينتقل بنا من المعلوم الى المجهول ، لان الاختلاف بيننا وبين الماديين يدور بين السلب والايجاب ، بين الوجود واللاوجود ، فاذا ابطلنا قول الماديين ثبت قهرا القول الثاني ، بناء على بطلان التناقض الذي هو خير وسيلة لفصل الخصومات . اذن لا فرق بين ان نتجه الى مزاعم الماديين فنبطلها ، او نتجاهلهم بالمرة ، ونثبت ما نقول ابتداء ، لا فرق الا في الخطة والاسلوب، [1] هذا ، الى ما قدمنا من البراهين الايجابية على تجريد النفس ، وبقائها بعد فساد البدن .

---

(١) الدليل الجدلي هو ما يقصد منه افحام الخصم بالحق او الباطل ، وذلك بان ينقض عليه باشياء مسلمة عنده ، او عند الناس ، ولكن اذا افحم بما هو حق وصدق في الواقع لا عنده او عند الناس فحسب شكل الرد عليه برهانا ايجابيا مستقلا بنفسه .

سارتر والمذهب المادي

جان بول سارتر هو امام الوجودية ، واحد ائمة الثقافــة في العصر الحديث ، وصاحب المواقف النبيلة الشهيرة ضد المذابح الفرنسيةالهمجية في الجزائر ، وله مؤلفات ومقالات عديدة ، والذي يهمنا منهــا بحث [1] نقد فيه المذهب المادي ، واثبت بالارقام تناقضات الماديين ، والزمهم بنفس المحاذير التي الزموا بها خصومهم المثاليين وزيادة •

وقد رأيت من المفيد ان اقتطف من هذا البحث ما ينسجم مع موضوع كتابي هذا ، رجاء ان ينتفع به الــذين يحسبون الماديــين على شيء ، ان سارتر لا يدين بما ادين ، غير اني اكتفي منه بان يفضح الماديين ، ويضعهم في مأزق لا يستطيعون الخلاص منه ، فمن اقواله في نقد مذهبهم :

« شباب هذه الايام ليسوا من امرهم في راحة ، انهم لا يعترفــون لانفسهم بمالهم من حق في ان يكونوا شبابا ، لكأن سن الشباب ليست مرحلة من مراحل الحياة ، بل ظاهرة طبقية ، وطفولة امتدت اكثر مما يحق ان تمتد •

---

(١) ترجم هذا البحث الى العربيــة الاستاذان سامي الدروبي وجمــال الاتاسي في كتاب « المذهب المادي والثورة » لسارتر ، نشرت الكتــاب دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر في دمشــق ، واتمنى لو يقرأ هــذا الكتاب القيم كل مثقف .

انهم يدورون في انفسهم دون انتهاء الى قرار ، فـاذا قرروا قرروا وعيونهم مغلقة ، ووثبوا الى الماء عن نفاذ صبر » .

وبعـد ان يخاطب الشباب بكـلام طويل ، ويقابل بين افكارهـم المتضاربة ، ويثبت انهم يخدمون فلسفة يكرهـونها ، ويعتنقون عقيـدة يعجزون عن اثبات صحتها بالمنطق يلتفت الى الماديين ، ويقول لهم :

« انكم اذ تنكرون وجود الله تسترسلون في الميتافيزيك ، تمامـا كالمثاليين الذين يسلمون بوجود الله (١) وأسأل المادي الذي يعترض على المثالي لانه يعتمد على الميتافيزيك ـ اي الغيب ـ أسأله بأية معجزة تعفى انت من الميتافيزيك حين ترد الفكر الى المادة ؟!.. ان التجربة لا تقـول شيئا في تأييد المذهب المثالي الذي يؤمن بوجوده .. فاذا ادعى المـادي انه على يقين من مبادئه فان يقينه هذا يعتمد على نفس الدليل الذي اعتمده المثالي في يقينه ، واستنكره المادي نفسه ـ وعليه يكون المادي منـاقضا لنفسه بنفسه ـ

ان المادي يخرج مما هو انساني ، ويحل نفسه محل الله الذي يكفر به .. انه يعتبر نفسه نظرة موضوعية ـ اي انه هو العلم الـذي يصور الواقع كما هو ـ بدلا من ان يرى نفسه شيئا بين الاشياء تتدافعه حوادث الكون ..

انا أفهم ان الشعور الانساني يمكن ان يعبر عن الكون كما يعبر المعلول عن علته ، لا كما تعبر فكرة عن موضوعها ، فكيف يمكن لعقـل أسير ، تتحكم به الاشياء الخارجية ، وتسيره سلاسل من الاسباب العمياء

(١) لان كل ما يتصل بالله سبحانه من الاعتراف او الانكار فهو من شؤون الغيب ، فاذا كان المؤمن بوجود الله مؤمنا بالغيب فكذلـك المنكر لا سنـد لانكاره الا الغيب .

ان يظل عقلا ؟!.. ان المادية حين تؤكد ان الكون يولد الفكر لا تلبث ان تصير مثالية ، فهي تقرر باحدى يديها ما للعقل من حقوق ، وتنزع باليد الاخرى عن العقل هذه الحقوق ، انها تهدم المذهب الوضعي بمذهب عقلي . ثم تهدم هذا وذاك برأي ميتافيزيكي ، ثم تهدم هذا الرأي بنفيها الميتافيزيك من الاساس ، وهي تناهض الميتافيزيك بالعلم ، ثم تناهض العلم بالميتافيزيك ، فاذن نحن لا نرى الا ركاما ، فكيف استطيع ان اكون ماديا ؟!..

ان الذي يميز المادة عن غيرها انما هو عطالتها ، وعطالة المادة تعني انها عاجزة عن ان تخلق شيئا بذاتها ، انها قاطرة تحمل على ظهرها حركات وطاقة ، ولكن هذه الحركات ، وهذه الطاقة انما تأتيها دائما من خارجها .. ان المرء حين يقرأ افكار الماديين يتذكر حكاية الدب الذي اراد ان يخلص صاحبه من ذبابة حطت على انفه ، وهو نائم ، فحمل صخرة وهوى بها عليها ..

ولا بد ان نعترف بان المادية حين تدعي بأنها دياليكتيك تنزلق الى المثالية ، فكما ان الماركسيين يدعون انهم وضعيون ، ثم يحطمون نزعتهم الوضعية باستعمالهم الميتافيزيك ضمنا ، وكما انهم ينادون بأنهم عقليون، ثم يهدمون هذه النزعة العقلية بمفهومهم عن اصل التفكير ـ اي بقولهم ان التفكير انعكاس للمادة وعارض من عوارضها ـ كذلك فهم ينفون مبادئهم التي هي المادية منذ يقررونها ، وذلك برجوع مستتر الى المثالية، وهذا الاضطراب ينعكس في الموقف الذاتي الذي يقفه المادي من عقيدته نفسها ، فهو يدعي انه على يقين من مبادئه ، ولكنه يؤكد امورا اكثر من الامور التي يستطيع ان يبرهن عليها ..

ثم لماذا يسلم الماديون بأن الله غير موجود ، وان الروح انعكاس للمادة ، وان تطور العالم يتم بصراع بين قوى متناقضة ، وان ثمة حقيقة

موضوعية ، وان ليس في العالم اشياء يستحيل معرفتها ، بل اشياء لم تعرف بعد !!.. انهم لا يجيبوننا على سؤال واحد من هذه الاسئلة ..

ومع ذلك يريدونني على اختيار المادية ، وهي نظرية عجيبة تتبدل كما تشاء .. انها مظهر ضخم غامض متناقض .. انهم يريدونني ان اكون ماديا لكي اعرف ان تحرير الطبقة العاملة من الاستغلال امر حسن وواجب، وانا اعرف ذلك قبل ان اكون ماديا ، اعرفه بالبداهة ، وبمجرد النظر الى الواقع ، اعرف ان مصالح الفكر تتفق مع مصالح العمال ، ولكن اذا عرفت هذا فهل يجب ان اطلب من تفكيري ان يحطم نفسه بنفسه !! .. هل يجب ان اكرهه على التنازل عن معاييره ، واكرهه ايضا على التفكير تفكيرا متناقضا ، وعلى ان ينزلق بين النظريات التي لا ينسجم بعضها مع بعض ، وعلى ان يفقد حتى الشعور الواضح بذاته !!..

حول المعاد

حديث المعاد :

ان اثبات المعاد سهل يسير على من يؤمن بالله وقدرته ، وعلمه وحكمته ، وصعب على الكافرين غير يسير .. صعب ان يتصوروه فضلا عن التصديق بوقوعه ، وأشد صعوبة من تصورهم له اقناعهم بالمنطق ما داموا يرفضون سلفا الايمان بالله .

واذا اردت ان تقنع المعاند فبأية وسيلة تقنعه بعدالة الله ، وهو يكفر بذات الله ؟!.. وأي معنى لحديثك معه ، وقولك له : هذا حلال ، وذاك حرام ، والتحابب خير ، والتباغض شر ، والصدق فضيلة ، والكذب رذيلة، في الدين والشريعة ، وهو لا يؤمن بدين ولا شريعة ولا بخلق ولا فضيلة، ولا بشيء الا بذاته ، وما يحقق لها المنفعة واللذة ؟!..

الله والخير :

في الفصول الاولى أقمنا البراهين على وجود الله ، وقدرته وعلمه ، والآن ـ ونحن نقف مع منكري المعاد ـ نعود مرة اخرى الى التوحيد والعدل باسلوب اقرب واوضح ، لان اثبات المعاد يدور عليه ، ويتصل به اوثق اتصال ، ومن هنا رأينا القرآن الكريم يعود الى قدرة الله ، ويبالغ في كمالها كلما ذكر الدلائل على المعاد .

ولا ادري لماذا يأبى الجاحدون الاعتراف بالله ، ويتوجسون خيفة من ذكره ؟! مع ان الايمان بالله يفرض اول ما يفرض ان الله سبحانه قد وهب الانسان القدره على التمييز بين النجدين الخير والشر ، وانه مأمور بترك هذا وفعل ذاك ، ومسؤول عن اقواله واعماله امام اللـه والناس ، ومجازى عنهما ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشر ، ومطالب بأن يعيش مع غيره بالتحابب والتعاون. ان الايمان بالله هو الايمان بالانسانية. وليست العدالة الاجتماعية الا تطبيقا للعدالة الالهية ، ان الذين يكفرون بالله يكفرون بالحق والخير والعدالة ، وبالعلم والعقل من حيث لا يشعرون ولا يريدون . قال الفلاسفة الآلهيين : « ان الله هو العقل الاكبر » . وبديهة لا يصدر عن العقل الا ما كان معقولا .

حقيقة الـدين :

ونعلنها كلمة صريحة واضحة لا مجاز فيها ولا تأويل ان كل ما يأباه العقل يأباه الدين ، وكل ما يقره العقل يقره الدين ، وكل ما فيـه الخـير والصلاح فهو من الدين في الصميم ، واذا شذ بعض رجال الدين واللاهوت عن هذه القاعدة فانما يشذون عنها جهلا او نفاقا ، وقد خرجت من تتبعي لكلمات الملحدين ، وانا على بينة من انه لا سبب لنزعتهم الالحاديـة الا الجهل بالدين وحقيقته والا انهم رأوا من يحترف به ، ويتخذه وسيلـة للعيش ، فظنوا انه القائد الاوحد والمصدر الحق لكل ما يمت الى الـدين بسبب وما دروا انه اعدى اعداء الدين ، واضر عليه من الملحدين (١) .

---

(١) قال صدر المتألهين في كتاب « المبـدا والمعاد » : ان هؤلاء لم تصف قلوبهم ، ولم تخلص طوياتهم من الشهوات والاهواء ، ولا يفيدهم الذكـاء شيئا ما داموا متهالكين على الجاه والقرب من السلطان ، كما نراه من علماء هذا الزمان . توفي هذا العظيم ١٠٥٠ هـ . ولو كان في هذا العصر لوضـع كتابا خاصا بالمعممين واصحاب القلانس الذين يتسكعون على ابواب الزعماء، يضاهي كتاب الاسفار .

اني آمنت وأيقنت ان الحاد الملحدين لا سبب له الا فهمهم الخاطىء لمفهوم الدين ، ولا شيء ادل على ذلك من قولهم : ان الدين حجر عثرة في طريق التقدم ، فهم ينظرون الى الدين كوسيلة للجمود والركود ، والتقهقر والانحطاط ، واستكانة الضعف والفقر ، اما اذا تبينوا وتيقنوا انه قلب لعالم ينبض بالحياة والخيرات ، وروح تبعث الانسان على ان يعمل للدنيا كأنه يعيش ابدا ، وثورة على الجهل والمرض والفقر ، اما اذا تبينوا ذلك لعدّلوا موقفهم من الدين ، ولم ينطقوا بكلمة الجهل والكفر .

وكما تدل كلماتهم على الجهل بالدين واحكامه ومبادئه فانها تدل في الوقت نفسه على ايمان بعضهم بالقيم التي يدعو اليها الدين ، ولكنهم لا يشعرون ، ان نداء الحق والخير والكمال هو نداء الله بالذات ، وسمع هذا النداء حزمة من الماديين ، ولكنهم زعموا ان المنادي هو المادة الخرساء ، وهنا مكان التناقض والتخبط . قال غاندي : « ما من انسان يستطيع ان يعيش بغير ديانة ، ولكن هناك من يعلنون منساقين بانانية منطقهم بان لا علاقة لهم بالدين ، وان مثلهم في ذلك مثل الذي يقول : انه يتنفس ، ولكن ليس له انف » [1] وقال « بلوندل » : « لو نفذنا الى اعماق ظلمات الشعور الانساني لما وجدنا ملحدين بمعنى الكلمة » .

قانون العدالة :

لا بد ـ ايها القارىء ـ انك رأيت او قرأت او سمعت بجريمة ارتكبها مجرم آثم ، وانك احسست بقشعريرة في بدنك ، واشمئزاز في نفسك ، ورعدة في فرائصك ، وتمنيت من صميم قلبك ان يلقى الآثم جزاء عمله ، فما هو السر لهذا ـ يا ترى ـ ؟ هل في اعماق كل منا حاسة مبهمة تبعثنا على الايمان بأن لكل جريمة عقابا ، وانه لو اعفي المجرم من العقوبة والقصاص لم يكن للعدالة عين ولا أثر ، لا في الارض ولا في السماء ؟!.

---

(١) قصة حياتي لنهرو .

ان فطرة الناس ، كل الناس ، لا تحتمل وجودا بلا عدالة ، ولا تقبل ضمائرهم ان يمزق القوي الضعيف تمزيقا ، دون ان يحاسب او يعاقب ، ودون ان يسأل عن شيء . اذن لا بد من يوم يجتمع فيه الناس لدى حاكم عادل يفصل بينهم بالحق ، وهم لا يظلمون ، لا بد من محكمة يقف فيها الجميع ، كي تتفق الفطرة مع الواقع ، ومع قانون العدالة ، والا انتفت الحكمة من وجود هذه الفطرة الصافية ، وكان المحسن اسوأ حالا من المسيء ، والظالم افضل من العادل ، والرجس خيرا من الطهر ، وكانت شريعة الغاب قسطا وعدلا ، وما عداها من الشرائع ظلما وجورا . قال افلاطون : « لو لم يكن لنا معاد نرجو فيه الخير لكانت الدنيا فرصة الاشرار » .

وبالتالي يكون الوجود محض الشر ، والعدم محض الخير ، وهذا عين ما يقوله الجاحدون ، او هو لازم قهري لما يقولون .. وصدق الله العظيم الذي انزل على نبيه الكريم : « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فانساهم انفسهم اولئك هم الفاسقون ، لا يستوي اصحاب النار واصحاب الجنة اصحاب الجنة هم الفائزون ـ ١٩ و ٢٠ الحشر » .

امكان المعاد

الوقوع فرع الامكان :

اذا قال لك قائل : رأيت في بعض البلاد نباتا يتكلم اللغة العربية الفصحى ، او قال : انه رأى اعمى يميز بين الالوان ، فانك لا تتردد في رد قوله هذا دون ان تطلب الدليل على صدقه ، اذ ليس من شأن النبات ان يتكلم ، ولا من شأن الاعمى ان يبصر ، اما اذا حدثك عما يمكن وقوعه ، كما لو قال : قطعت المسافة بين بيروت وباريس في ست ساعات فانك لا تجد أية غرابة في ذلك ، لانه جائز وممكن في ذاته ، فمرحلة الوقوع والحدوث خارجا تتوقف على مرحلة الامكان ، فاذا سمعنا بحادثة ينبغي ان ننظر اولا هل حدوثها ممكن ؟ فان رأيناه كذلك ، انتقلنا الى المرحلة الثانية ، ونظرنا هل هي واقعة ؟ اي هل هناك دلائل تدل على الوقوع ؟ فان كانت آمنا بوجودها ، والا لم نحكم بشيء لا ايجابا ولا سلبا . ونظير ذلك ما قاله الفقهاء في باب القضاء من ان لسماع الدعوى شروطا ، منها ان يكون المدعى به ممكن الوقوع ، اما اذا كان محالا ، فلا يقبل من المدعي ان يثبت المحال ، مثال ذلك ان يدعي شخص على آخر انه يستحق عليه اجرة ثلاثين يوما ، لانه عمل عنده من اول شهر شباط الى آخره ، فلا يقبل منه ، والحال هذه ، ان يثبت ان شهر شباط ثلاثون يوما ، فالاصل في تصديق اية قضية من القضايا دينية كانت او زمنية ان تكون ممكنة في ذاتها والا فلا تقبل ولا ينظر في صحتها من الاساس .

والآن ، وبعد هذا التمهيد يتبين معنا ان اثبات المعاد يتوقف ـ اولا ـ على امكانه في ذاته ، وجواز وقوعه في نظر العقل ، فاذا اثبتنا ذلك هان امر الوقوع ، وكان اثباته سهلا يسيرا ، اما ان كان المعاد ممتنعا ومستحيلا في ذاته رفضت الفكرة من البداية ، ولم ينظر في صحتها بحال من الاحوال . لذا نحصر البحث في هذه النقطة ، وهي امكان المعاد في نظر العقل ، فان لم نجد مانعا عقليا من الامكان انتقلنا الى الكلام عن الوقوع .

دليل الامكان :

ان معنى المعاد هو ايجاد عالم آخر مماثل لعالمنا هذا ، يجتمع فيه الناس من الانسان الاول الى آخر انسان ، وعقدنا هذا الفصل للنظر في المعاد بهذا المعنى هل هو ممكن الوقوع ، او ممتنع بحيث لا يمكن ان يقع بحال ؟.

واذا رجعنا الى فطرة الله التي فطر الناس عليها وجدنا ان اثبات الامكان بهذا المعنى لا يحتاج الى تجشم وتكلف ، ولا الى التطويل والاطناب بذكر المقدمات والتمهيدات ، فيكفي ان نلقي نظرة الى خلق هذا الكون ، وفي ضوئها ننظر الى امكان المعاد . وليس من شك انعالمنا هذا موجود ، وحاصل بالفعل وبديهة ان الوقوع فرع الامكان ، اذ لو كان ممتنعا لما وجد ، واذا كان هذا العالم ممكنا فايجاد عالم مماثل له يكون ممكنا ايضا بالضرورة ، لان وجود احد المتماثلين يدل على امكان وجود المماثل الآخر ، والا لم يكن مماثلا ، وهو خلاف المفروض ، ولو سألنا انسانا عاديا : هل يستطيع باني هذه الدار ان يبني مثلها لاستغرب هذا السؤال ، لان جوابه معه ، ويدل عليه بنفسه ..

وبالتالي ، فان امكان الشيء في ذاته ، اي جواز وقوعه وحدوثه في

الخارج يعلم من وجوده في الخارج ، أو من وجود نظيره ، أو من وجود ما هو ابعد عن القدرة منه ، فاذا كان الابعد ممكنا فالاقرب اولى ، لان من بنى قصرا يكون بناء الكوخ عليه ايسر ، وايجاد عالم آخر اما نظير ، واما ايسر ، وعليه يكون ممكنا وهو المطلوب .

الماديون :

وقد يقال : يصح هذا المنطق عند من يرى العقل اساس المعرفة ، ويفرق بين الموجود الى ما هو بالقوة وما هو بالفعل ، ويقسم الوجود الى الوجوب والامتناع والامكان ، لان العقل يقر هذه الافكار ، ويحكم بصدقها ، وان لم تستند الى الحس والتجربة ، اما الماديون الذين يقيسون صحة الفكرة بالانطباعات الحسية ، وبالصورة عن الشيء الموجود بالفعل ، فلا حجة عليهم في تصورات العقل ، وادراكه بان هذا الشيء لا مانع من حدوثه فيما بعد .

الجواب :

ان الاختلاف بيننا وبين الماديين في وجود المبدأ الاول للكون ، وفي امر المعاد ، وغيرهما من القضايا الدينية ينحصر في هذه النقطة : هل التجربة هي السبيل الوحيد للمعرفة ، او يوجد سبيل آخر لها ؟

وقد تخلى الماديون عن ابسط القواعد الاولية واوضحها ، وانكروا كل ما لا يدرك بالطعم والشم والسمع والنظر واللمس ولا تناله آلات المعامل والمختبرات .. فالله بزعمهم غير موجود .. وان قام على وجوده الف برهان عقلي ودليل منطقي ، لان اجزاءه واعضاءه لا تحلل في المختبر والمصنع . والمعاد باطل لانه لم يوجد في الماضي ، ولا هو موجود في الحاضر .. وبكلمة كيف يؤمن الماديون بالجنة ونعيمها ، ولم يذوقوا لها

طعما ؟! وكيف يعتقدون بجهنم ، ولم تصلهم بعد بنارها ؟! [1] .

وفيما سبق قدمنا الاجوبة المقنعة ، ونعود هنا مرة اخرى كعادتنا مع الماديين لنلقي عليهم هذه الاسئلة :

هل انكاركم لله والمعاد ، وللعقل واحكامه يستند الى التجربة في المختبرات ؟! واذا كان الايمان بالله واليوم الآخر وهم زائف ، لانه لا يستند الى التجربة والتحليل في المختبرات والمصانع ؟! فهل ايمانكم بأن التجربة هي السبيل الوحيد الى المعرفة يستند الى التجربة او الى العقل ؟.. وعلى الاول يلزم ان تفتقر التجربة الى التجربة ، وتسلسل الى ما لا نهاية ... وعلى الثاني يبطل قولكم بان لا سبيل الا التجربة .

ان المعرفة ـ ايا كان مصدرها ، سواء اكانت التجربة ، او المشاهدة ، او الوحي ، او الاجماع ـ لا بد ان تنتهي الى بديهة العقل ، والا كانت جهلا وتضليلا ... ان جميع ادوات المعرفة تستعين بالعقل ، ولا تستغني عنه بحال ، ولولاه لم تكن شيئا ، اما العقل فيستغني عن غيره ، في احكامه العقلية المحضة ، كحكمه بان الواحد لا يكون قديما وحادثا وان النقيضين اذا صدق احدهما كذب الآخر ، وان الاثنين اكثر من الواحد ، وما الى ذلك من الحقائق التي لا تمت الى الحواس والتجربة بسبب .. نقول هذا ، مع العلم بان حديثنا هذا لا يجدي الماديين شيئا ، لانه حديث العقل ، والعقل بزعمهم غير موجود اولا اثر لوجوده ، لانه ليس موضوعا من الموضوعات التجريبية ..

اجل ، ان المعاد لم يقع بعد ، بل لا ندري متى يكون [2] ، ولكن

---

(١) واجابهم البعض بان انكاركم هذا كانكار الطفل لذة الجماع الذي لم يباشره بعد .

(٢) يثبت العقل ان المعاد ممكن الوجود في نفسه ، اما تعيين وقته فلا يمكن اثباته عن طريق العقل ، فان وجد دليل السمع اخذنا به ، والا يبقى علمه عند ربي . والآية الكريمة التي نصت على انه قريب يراد بها الوقوع الاكيد ، لان كل آت قريب .

اهل العقول النيرة قد اجازوا وقوعه ، بل استعدوا له . واتخذوا جميع الاحتياطات من اجله ، تماما كما تستعد الدول المتحضرة ، وتتخذ جميع الاحتياطات تجنبا لما يمكن ان يحدث من الكوارث ، كالزلازل وما اليها من ظواهر الطبيعة .

القرآن والجاحدون :

وهذا الدليل العقلي الذي اعتمدناه لامكان المعاد نص عليه القرآن الكريم بآيات ، عليها طابع النقاش والجدل العلمي مع منكري البعث والنشور ، فبعد ان ذكر الكتاب العزيز شبهة الجاحدين ، والادلة التي استندوا اليها في جحودهم رد عليهم بمنطق العقل والواقع : « قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها اول مرة»وهذا تعبير ثان عن طريقة النجفيين والازهريين ، حيث يسردون جميع الآراء ، ثم يمحصونها باسلوب « ان قلت .. قلت .. » .

وليس من شك انهم اقتبسوا اسلوبهم هذا من كتاب الله الذي يجادل بالحكمة والموعظة الحسنة . ونكتفي هنا بآية من تلك الآيات التي تتصل بالمعاد ، وجادلت الجاحدين بالنظر وتأمل العقل ، قال تعالى مشيرا الى شبهة القوم : « وقالوا أإذا كنا ترابا ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقا جديدا ــ ٤٩ الإسراء » اي ان الانسان اذا مات جفت اعضاؤه وتفرقت ، واختلطت بغيرها من اجزاء العالم ، فكيف يعقل ، والحال هذه ان تجتمع ثانية باعيانها ، وتعود اليها الحياة ؟!.

واجاب سبحانه عن هذه الشبهة بقوله : « قل كونوا حجارة او حديدا او خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم اول مرة فسينغضون اليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى ان يكون قريبا ــ ٥٠ و ٥١ الإسراء » .

والمعنى انكم ــ ايها الجاحدون ــ مهما استبعدتم الحياة بعد الموت فان الامر هين يسير ، حتى ولو كنتم حجارة او حديدا لا ترابا او رفاتا ، بل حتى ولو كنتم «خلقا مما يكبر في صدوركم» اي اشد وأصلب من الحجارة والحديد فانكم معادون بعد الموت لا محالة ، فان الذي قدر على انشائكم اول مرة ، واوجدكم من لا شيء فهو على اعادتكم أقدر .

رأى الجاحدون تلف الابدان ، فانكروا الاعادة ، فقطع الله سبحانه حجتهم بالبرهان ، فلم يبق لديهم الا السخرية وهز الرؤوس ، والا ان يرددوا اسئلة لا تتصل بموضوع البحث من قريب او بعيد . قال الرازي : « ان سؤالهم متى هو فاسد ، لان الكلام في امكان المعاد ، لا في زمان وقوعه » .. وهذا شأن من يعاند الحق ، يتهرب من الحجة ومنطق الواقع الى السفسطة والمغالطة .

العلم والمعاد :

لقد اكتشف العلماء حقائق كانت ــ الى زمن قريب ــ ابعد من المعاد ، فاصبحت اليوم من الضرورات الاولية عندهم وعند غيرهم ، من ذلك تحول المادة الى الطاقة ، والطاقة الى المادة ؛ اي ان الاشياء المادية المحسوسة تستحيل الى امور معنوية ؛ وبالعكس [1] . قال « جايمس ب. كوننت » في كتاب « غدنا والذرة » ترجمة عفيف بعلبكي : « ان ابادة هيروشيما انما كانت نتيجة لابادة مقدار صغير من المادة حولت الى طاقة حولت مدينة بكاملها الى انقاض .. ان اهم تبدل في المشهد العلمي هو قبول تحول المادة والطاقة » .

---

(١) حاول مالك بن نبي في كتاب « الظاهرة القرآنية » ص ١٩٠ ان يبطل بهذه النظرية القائلة : « لا شيء يوجد من العدم ، ولا شيء موجود يدخل في العدم » . ونحن وان كنا نؤمن بوجود شيء من لا شيء ، وانه لا سبب للمبدأ والمعاد الا قوله تعالى : « كن فيكون » الا اننا لا نوافق مالكا على ان الطاقة عدم محض ، بل هي نحو من انحاء الوجود بدليل انها تؤثر بالشيء الموجود ، وبديهة ان العدم لا يتأثر ولا يؤثر .

و « منها » ان العلماء كانوا يرون ان المادة متماسكة الاجزاء ، ولا فراغ في داخلها ، ثم تبين لهم بالتجربة ان اشد المواد صلابة ، كالحديد مؤلف من ملايين الذرات المنثورة في فراغ اثيري ، وان بين كل ذرة وذرة مسافة كبيرة من الخلاء، بل حتى الذرة نفسها مؤلفة من هباء مخلخل، تدور حولها كهارب في فلك اثيري خلو من اي شيء .. وقالوا ـ اي العلماء ـ : لو امكن كبس الكرة الارضية وضغطها لاصبح بالامكان ان توضع الارض بكاملها في كيس متوسط الحجم « يحمله الانسان » .

ونحن لا ندعي ان نهاية العالم واعادته سوف يكون بتحويل المادة الى الطاقة ، ثم تحويل الطاقة الى المادة ، ولا بالضغط عليه حتى يصغر حجمه ، ثم ينتشر ، كلا ، ثم كلا ، فان علم ذلك عند خالق الكون وحده، وانما غايتنا الاولى والاخيرة ان تثبت امكان المعاد بوجود الاشياء والنظائر ، وان نقول للجاحد الذي لا يملك غير الاستبعاد والاستغراب : ان المعاد اهون بكثير من تحويل المادة الى طاقة ، وتحويل الطاقة الى المادة ، وايضا اهون من جعل الارض في كيس متوسط الحجم ، دون ان ينقص منها شيء [1] .. ومن يدري ؟ فقد يثبت العلم في المستقبل القريب او البعيد امكان الضغط على الارض بطريق من الطرق ، حتى تصير بحجم البيضة ، او دونه ، بحيث يمكن ادخال الارض في البيضة بيسر وسهولة ..

---

(١) هذه احدث نظرية اكتشفها الغرب ، وقد جاءت الاشارة اليها عرضا واستطرادا في كتاب « المبدأ والمعاد » لصدر المتألهين ص ٢٩٠ طبعة ايران بالحجر سنة ١٣١٤ هـ. قال ما نصه بالحرف : « ليس من شرط الارض ان تكون صورتها هذه الصورة الارضية ـ اي الحالية ـ بل يجوز انقلابها من الارضية الى اجسام اخر » . اي ان بقاء الارض على ما هي الآن ليس ضروريا ، بل من الجائز ان تتغير وتتبدل ، فتتسع او تضيق ، وتتطور الى حالات شتى . وقد بلغ هذا الفيلسوف العظيم بنظرية التطور التي طبقها على الارض بمجموعها الى اقصى حد ، بل لم يقف بها عند حد ، بينما حصرها دارون في اضيق نطاق ، حيث خصها بالعضويات فقط .

وقوع المعاد

كل ما هو ممكن الوجود في نظر العقل ، واخبر التنزيل الإلهي ، والاحاديث النبوية بوقوعه فهو واقع حتما ، لان الوحي منزه عن الخطأ ، وكل ما هو منزه عن الخطأ يثبت به الواقع ، كما يثبت بالبراهين الرياضية ، والمشاهدات العينية [1] وفي الفصل السابق اثبتنا امكان المعاد ، والآن نتكلم عن وقوعه ، وقد نصت عليه الكتب السماوية بآيات لا تقبل التأويل ، واخبر عنه جميع الانبياء باحاديث متواترة لا يمكن ردها ، وقال به اهل الملل والاديان منذ اقدم العصور ، فلم يبق امام العقل الا الاذعان والتسليم بالوقوع بعد ان حكم بالامكان وعدم الامتناع .

واختلف المؤمنون بالمعاد فيما بينهم : هل هو جسماني فقط ، او روحاني فقط ، او هما معا الى اقوال :

---

(١) وضع العلماء قديما وحديثا عشرات الكتب في اعجاز القرآن وصدقه ، ونبوة الانبياء وعصمتهم ، وعقد الفلاسفة وعلماء الكلام فصولا مطولة في كتبهم لهذه الغاية ، ووضعت كتاب « الله والعقل » و « النبوة والعقل » و « الآخرة والعقل » لبيان الادلة المثبتة لصحة الايمان بالله والرسول واليوم الآخر ، وتعرضت لذلك في كتاب « الاسلام مع الحياة » و « معالم الفلسفة الاسلامية » ونلفت نظر القارىء الى كتاب « الهدى الى دين المصطفى » للشيخ « جواد البلاغي » وكتاب « الظاهرة القرآنية » لمالك بن نبي و « المعجزة الخالدة » لهبة الدين الشهرستاني .

١ ــ جسماني فقط ، لان النفس جسم لطيف سار في البدن سريان النار في الفحم ، والماء في الورد ، والزيت في الزيتون ، وهو قول جمهور علماء الكلام ، وعامة الفقهاء المسلمين ، واهل الحديث . بل قال الرازي : ان المعاد الجسماني دون الروحاني هو قول اكثر اهل الاسلام [1] . ثم اختلف هؤلاء (الجسمانيون) الى ثلاثة اقوال : الاول ان البدن ينعدم ويفنى كلية . ثم يعاد بنفسه بعد المعاد . الثاني ان البدن تتفرق اجزاؤه ، ثم تجمع ثانية . الثالث ان الاول ينعدم . ولا يبقى له من اثر ، ويكون المعاد لبدن آخر مثله .

٢ ــ روحاني فقط ، وهو قول اكثر الفلاسفة الالهيين ، ومعنى المعاد الروحاني ان ترجع الروح بعد مفارقة البدن الى عالم التجريد ، والانقطاع عن المادة ، وان يكون ثوابها باللذة الروحية ، وهي الشعور بالكمال للقرب من الله والتمتع بمرضاته . وعقابها بالالم الروحي ، لشعورها بالنقص والبعد عن الحضرة الإلهية . اما ما جاء في الكتاب والسنة في وصف الجنة والنار فالمقصود منه ضرب الامثال ، والتقريب الى الافهام ، لان افهام العامة تقصر عن ادراك اللذة الروحية واستيعابها .

٣ ــ روحاني وجسماني معا ، وهو قول جماعة من الفلاسفة وعلماء الكلام والفقهاء ، واقطاب الامامية ، كالمفيد والمرتضى والشيخ ابي جعفر والمحقق الطوسي وصاحب البحار وصدر المتألهين ، ثم اختلف هؤلاء في تعيين البدن المعاد مع النفس ، كما اختلف القائلون بالمعاد الجسماني فيما

---

(١) كتاب « البحار » المجلد الثالث . وكتاب « المبدا والمعاد » لصدر المتألهين . وننبه للمرة الثانية الى ان الايمان بأن النفس جسم . وليست جوهرا مجردا عن المادة لا يوجب بذاته الكفر الا اذا رجع الى الاعتقاد بأن المادة هي كل شيء . ولا شيء وراءها . كما يعتقد الماديون . وكيف يكفر من قال بجسمية النفس ومادتها . وهو يؤمن باعادتها . وبالحساب والثواب والعقاب ؟!

بينهم ، فمنهم من قال : انه البدن الاول بعينه . ومنهم من قال : المعاد مثله لا عينه .

والحق ان المعاد للنفس والبدن معا ، اما اعادة النفس ـ ان صح التعبير فلانها لم تفن ، وانما فارقت البدن بعد اتصالها به ، وكيف تفنى وهي الحياة بطبيعتها ؟! هذا ، الى ان المعاد لا يفهم بدونها ، وان الانسان انسان بنفسه لا بجسمه ، وقد اثبتنا فيما سبق تجريدها وبساطتها ، وعدم فسادها بفساد البدن .

اما اعادة البدن فلانه ممكن عقلا ، وقد ورد الشرع به ، فيجب التصديق على وفقه ، واذا أوّلنا الآيات الدالة على المكان والجهة واليد والعين بالنسبة الى الله سبحانه لاستحالة ذلك في حقه ، فلا يمكن بحال أن نؤول الآيات الدالة على امور الآخرة ، ونحملها على المعاد الروحاني فقط ، لان المعاد الجسماني ليس بمحال في نظر العقل ، فيجب ، والحال هذه ، اجراء الآيات الدالة عليه على ظاهرها ، هذا ، الى ان ما دل على المعاد الجسماني في القرآن الكريم قد بلغ مبلغا من الكثرة وقوة الظهور بحيث لا يجوز معه التأويل بحال ، من ذلك وعلى سبيل المثال :

قوله تعالى يصف اهل الجنة في سورة الكهف الآية ٣١ : « اولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الانهار يحلون فيها من اساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الارائك » . وقوله : في سورة الحج الآية ٢٣ : « يحلون فيها من اساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير » . وقوله يصف اهل النار في سورة النساء الآية ٥٦ : « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها » . وقوله في سورة ابراهيم الآية ١٦ : « من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد » . وفي سورة الحج الآية ٢١ : « ولهم مقامع من حديد » . وفي سورة غافر الآية ٧١ : « اذ الاغلال في اعناقهم والسلاسل يسحبون » .

وفي سورة ابراهيم الآية ٥٠ : « سرابيلهم من قطران ، وتغشى وجوههم النار » . فهذه الآيات وما اليها ظاهرة في المعاد الجسماني ، لان اللباس والشراب والطعام ، والسحب بالسلاسل والضرب بالمقامع من صفات الاجسام ولوازمها ، لا من صفات الارواح .

لقد اخبر الوحي ان الانسان يعاد روحا وبدنا ، وهو لا يقبل التأويل ، فيجب ـ اذن ـ التصديق بالمعادين تماما كما يجب التصديق بتنزيل القرآن ، ونبوة محمد ، ومن انكرهما معا ، او انكر احدهما فقد انكر ضرورة من ضرورات الدين .

هذا ما يجب الاعتقاد به ، والعمل له ، اما الاعتقاد بان المعاد هو هذا البدن بجميع اجزائه ومشخصاته ، وملامحه وتخطيطاته ، او ان المعاد هو خصوص الاجزاء الاصلية التي يبتدىء منها خلق الانسان ، او مادة هذا البدن التي تحفظ بها هيئة الانسان وصورته الفعلية ، بحيث اذا رآه راء قال : هذا فلان ، اما الاجزاء العرضية التي لا يضر عدمها في حفظ الهيئة وبقائها فلا يجب اعادتها [1] ، اما هذه التفصيلات التي قال بكل منها قائل فلا يجب الاعتقاد بشيء منها ، لانها لم تثبت بالشرع ، والثابت به ان الانسان معاد روحا وبدنا ، وانه مجازى بعمله ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشر ، فيجب الاعتقاد بهذا فحسب ، ولا تجب معرفة التفاصيل ، بل هي متروكة لعلم الله وحكمته ، والخوض فيها قد يؤدي الى الباطل ، فلا يجوز لنا بحال ان تؤلف قضايا من عندياتنا ، ثم نصفها بالعقل ، ونحمل

---

(١) ذهب الى هذا القول صدر المتألهين ، حيث قسم اجزاء بدن الانسان الى نوعين : نوع به قوام الهيئة التي يتميز بها الفرد عن غيره . ونوع لا دخل له في هذا التمييز ، كالعوارض التي تعرض له في حال الصحة والمرض . والصغر والكبر ، فان الهيئة في هذه الحالات هي هي ، على الرغم من التبدل والتغير والزيادة والنقصان ، كالشارب واللحية والسمن والهزال ، الى غير ذلك ، فما كان من النوع الاول يعاد ، وما كان من النوع الثاني فلا .

عليها الدين والشرع ، فالله سبحانه هو الذي يقضي على العقل ، ولا يقضي هو عليه ، بل يسلم ويستسلم دون قيد او شرط في مثل هذه الموضوعات التي لا سبيل الى معرفتها الا عن طريق الشرع ، ان العقل هنا يذعن ويستسلم ، لانه يدرك ان الله عليم حكيم ، لا يفعل الا لحكمة ، وقد ينتهي العقل الى معرفتها ، وقد يقف دون ادراكها ، ولكنه لو اطلع عليها، وعرف الاسباب حق المعرفة لوجدها على أتم الوجوه واكملها .

ومن الخير ان نختم هذا الفصل بوصية لعبد الرحمن بن الجوزي ، ذكرها في كتاب « صيد الخاطر » : « الله الله يا من يريد حفظ دينه ويوقن بالآخرة .. اياك والتأويلات الفاسدة ، والاهواء الغالبة ، فانك ان ترخصت بالدخول في بعضها جرك الامر الى الباقي ، ولم تقدر على الخروج » .

بين الدنيا والآخرة

العيش قصير في هذه الحياة ، وان طال ، ومر ، وان عذب ، ولهو ، وان كان واقعا ، هذه حقيقة يحس بها ويشعر كل انسان ، تماما كما يحس ويشعر بوجوده ما دام على يقين من الموت وسكراته ، وفي صراع مع الزمان ونكباته ، لذا يتشوق في لهفة وحرارة الى معرفة الحياة الثانية : هل هي تعب بلا راحة ، او راحة بلا تعب ؟. وقد تصورها الانسان منذ اقدم العصور بصور شتى ، واشكال متباينة ، وان دل ايمانه بها على شيء فانما يدل على ان في نفس الانسان غريزة عميقة الجذور ، تربط بين حياته في هذه الدار ، وحياته في الدار الآخرة ، ولكن تصوره لنوع الحياة الثانية جاء صدى لحياته الاولى ، وانعكاسا لظروفه الخاصة .

ونحن نتكلم في هذا الفصل عن الفروق بين الحياتين معتمدين على كتاب الله ، وسنة نبيه ، او على قول من نثق بدينه ومعرفته مؤمنين بانه لا يستمد اقواله الا من هذين المصدرين :

١ ــ ان الدنيا زائلة فانية ، والآخرة خالدة باقية ببقاء الله سبحانه ، قال امير المؤمنين الدنيا دار فناء ، والآخرة دار بقاء فخذوا من ممركم لمقركم .

٢ ــ لا تعاون ولا تآزر في الحياة الثانية ، اذ لا زراعة ولا صناعة

ولا تجارة ولا معاهد ولا حاكم ومحكوم ، ولا حقد وكذب ولا شيء الا الاقبال على الله عز وجل .

فلا الناس بالناس الذين عهدتهم ولا الدار بالدار التي كنت اعرف

٣ ــ ان الملذات الدنيوية قد تصرف عن طاعة الله ، وتؤدي الى ما لا تحمد عقباه ، اما ملذات الآخرة فلا تستدعي شيئا من ذلك ؛ بل هي خير لا شر معه ابدا ، وفي الوقت نفسه لا تفنى ابدا .

٤ ــ ان جسم الانسان في هذه الحياة يحتوي على عناصر شتى ، تجعله عرضة للتغيرات والآفات ، اما جسمه في الآخرة فيختلف في طبيعته عن هذا الجسم كل الاختلاف ، ويستحيل عليه التغير والتبدل من حال الى حال . قال الله سبحانه : « لا يمسهم فيها نصب ولا يمسهم فيها لغوب » . وقال ابن الجوزي في كتاب « صيد الخاطر » :

« والله اني لأتخايل دخول الجنة ، ودوام الاقامة فيها من غير مرض ولا بصاق ولا نوم ،ولا آفة تطرأ ، بل صحة دائمة واغراض متصلة لا يعتورها منغص في نعيم متجدد كل لحظة الى زيادة لا تنتهي ، فاطيش ، ويكاد الطبع يضيق عن تصديق ذلك لولا ان الشرع قد ضمنه » .. ومعلوم ان تلك المنازل انما تكون على قدر الاجتهاد هنا . فواعجبا من مضيع لحظة يقع فيها ..

٥ ــ قد يرتفع شأن الانسان في هذه الحياة بالانساب والاموالويبلغ ما يريد بالخداع والاحتيال . اما خير الآخرة فلا سبيل اليه الا التقوى والعمل الصالح : « يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم وازلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين ــ الشعراء الآية ٨٨ الى ٩١ » .

٦ ـ لا يوجد في الآخرة ظاهر وباطن ، وسر وعلانية ، فكل شيء يظهر على حقيقته ، فالغيب هو الشهادة ، والخبر هو العيان .

٧ ـ ان الانسان في الآخرة اذا كان من اهل الخير تتحقق جميع ارادته بمجرد ان يريد وبدون عناء ومشقة ، فالارادة والفعل شيء واحد .

٨ ـ جاء في الحديث : « ان الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » . وقيل في تفسيره : ان المؤمن في هذه الحياة بائس فقير ، والكافر غني منعم ، وهذا مخالف لمنطق الواقع ، فقد رأينا من المؤمنين أغنياء منعمين ، ومن الكافرين فقراء بائسين ، والصحيح ان المؤمن في هذه الحياة ، وان كان غنياً منعما فهو في سجن بالنسبة الى ما اعد له من ثواب الآخرة ، والكافر ، وان كان فقيرا بائسا في هذه الحياة فهو في جنة بالقياس الى ما اعد له من عذاب الآخرة .

وهناك فروق اخرى ذكرها بعض الفلاسفة والمفسرين تركناها لبعدها عن الاذهان .

الموت :

قيل للامام علي بن الحسين : ما الموت ؟

قال : للمؤمن كنزع ثياب وسخة ، وفك قيود واغلال ، الى افخر الثياب ، وآنس المنازل ، وللكافر كخلع ثياب فاخرة الى اوسخها واخشنها ، ومن المنازل الانيسة الى اوحشها واعظم العذاب .

وقيل للامام محمد الباقر : ما الموت ؟

قال : هو النوم الذي يأتيكم في كل ليلة الا انه طويل مدته .

وقيل لابي ذر : ما لنا نكره الموت ؟

قال : لانكم عمرتم الدنيا ، وخربتم الآخرة ، فتكرهون ان تنتقلوا من عمران الى خراب .

وقال رجل للامام الصادق : أصحيح من احب لقاء الله احب الله لقاءه ، ومن ابغض لقاء الله ابغض لقاءه ؟.

قال : نعم .

قال الرجل : والله انا لنكره الموت .

قال الامام : ليس ذلك حيث تذهب ، ان المؤمن ـ حين النزع ـ يرى ما اعد له من الثواب فيحب ان يقدم عليه ، وغير المؤمن يرى ما يكره من العذاب فيبغض لقاء الله .

لذا قال امير المؤمنين حين ضربه ابن ملجم : « فزت ورب الكعبة » . لانه انتقل من تعب هذه الحياة ، الى راحة دائمة . ومن اقواله : موت الابرار راحة لانفسهم ، وموت الفجار راحة للعالم .

وقد كثرت الاقوال وتضاربت في معنى الموت ، فقيل : هو اشد من النشر بالمناشير ، والقرض بالمقاريض ، والرضخ بالحجارة ، وقيل : بل لا شيء اهون منه ، فانه كنسمة الصبح ، ينعس الانسان لرقتها وطيبها .

والحقيقة ان الاعتبار بحال الميت ، فان كان صالحا فلا خوف ولا شدة عليه في جميع الحالات ، والا فهو من المعذبين حال النزع ، وفي البرزخ ، ويوم الحساب . قال رسول الله (ص) : « لا بد لك من قرين يدفن معك ، وهو حي ، فان كان كريما اكرمك ، وان كان لئيما اسلمك ، ثم لا يحشر الا معك ، ولا تسأل الا عنه ، فلا تجعله الا صالحا ، فان صلح انست به ، وان فسد لا تستوحش الا منه » .

البرزخ :

البرزخ في اللغة هو الفصل بين شيئين ، والمراد به هنا الحالة التي يكون عليها الانسان بين الموت والبعث ، فللانسان بعد موته وجودان :

الوجود الاول يمتد من ساعة موته الى قيام الساعة ، وهذا هو البرزخ ، واليه اشارت الآية ١٠١ من سورة المؤمنون : « ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون » . وفي هذا الوجود يعرف الانسان منزلته عند الله . وانه من اهل الثواب او العقاب . ولا يشمل الحساب في هذه الحال الناس جميعا ، بل يختص كما جاء عن اهل البيت بمن هم على الايمان المحض او الكفر المحض ، اما الذين هم بين بين كالمستضعفين فترد اليهم الحياة ، ولكن يلهى عنهم ، ولا يحاسبون قبل يوم القيامة ، فعن الشيخ المفيد انه ثبت عن اهل البيت (ع) « لا يعذب في القبر كل ميت ، وانما يعذب من محض الكفر محضا ، وينعم من محض الايمان محضا ، وما سوى هذين يلهى عنه ولا يسأل عن شيء الى يوم البعث والنشور » .

الوجود الثاني يوم البعث الذي تبدل فيه السماء غير السماء ، والارض غير الارض ، ويحاسب الجميع في هذا اليوم دون استثناء .

الكبائر

الـذنب :

ما هو الذنب الذي يعاقب الله الانسان على اساسه ؟. وهل في الكتاب والسنة تحديد عام شامل لجميع انواعه ، او لا اثر فيهما لهذا التحديد ، وانما الثابت هو النهي عن كل محرم بالخصوص ، كالنهي عن الزنا والخمر والكذب ، وما اشبه ؟.

لم يرد في الكتاب والسنة ما يشعر بهذا التحديد من قريب او بعيد الا ما كان من نوع الامر بالطاعة ، والنهي عن المعصية ، كقوله تعالى : « ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » .. « وذروا ظاهر الاثم وباطنه » . اما تحريم الخبائث في الآية ١٥٦ من سورة الاعراف : « ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث » فلا تشمل كل محرم ، حتى الكذب والحسد . لان الخبيث في اللغة ضد الطيب ، وهو الرديء المستكره، وقد استدل الفقهاء بالآية على تحريم ما يأوي تحت الارض من الحشرات وصغار الدواب ، كالنمل والحية والفأر والصراصير ، وامثالها ، اذن ينحصر الذنب بفعل الحرام المنهي عنه بالذات ، او ترك الواجب المأمور به ، ويدل عليه الحديث المتفق على صحته : « ما احل الله في كتابه فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو » فالمبدأ الذي يقره الاسلام ان كل شيء حلال ، حتى تعلم انه حرام ، ويتفق هذا مع القوانين

الحديثة القائلة : « لا جريمة ولا عقوبة بغير نص » [1] .

الكبائر والصغائر :

قسم القرآن الذنوب والمعاصي الى نوعين : كبائر وصغائر . قال تعالى : « الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم ـ النجم ٣٢ » واللمم هي الصغائر ، وقال : « ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ـ النساء ٣١ » . ولكن الكتاب العزيز لم يضع حدا فاصلا بين الكبيرة والصغيرة ، ولذا اختلف الفقهاء في معنى الكبيرة، فمنهم من قال : ان الكبيرة ما نص على عقوبتها ، دون الصغيرة ، ومنهم من قال: كل ما يشعر باستخفاف الفاعل بالدين ، وعدم اكتراثه فهو ذنب كبير ، ومنهم من قال : ان المحرمات كلها كبائر ، لان في ارتكابها معصية لله ، ولا تكون المعصية الا كبيرة ، اما تقسيم الذنوب الى كبائر وصغائر فانما هو بقياس بعض الذنوب الى بعض ، ـ مثلا ـ النظر الى الاجنبية بريبة ذنب كبير في نفسه ، صغير بالقياس الى القبلة ، والقبلة صغيرة بالقياس الى غيرها .. وكذا الاكل على مائدة عليها خمر كبير في نفسه ، صغير بالقياس الى شرب الخمر ، وهناك اقوال اخرى نقلها الطباطبائي في الجزء الرابع من كتابه النفيس « الميزان في تفسير القرآن » واكثرها ينظر الى الفعل ، ويهمل شخصية الفاعل ما عدا نيته وقصده الذي يفرق به بين الخطأ والعمد ، مع ان قول الرسول الاعظم : « لا صغيرة مع اصرار ، ولا كبيرة مع استغفار » يدل صراحة على ان لذات الفاعل اعظم الاثر في معنى الكبيرة والصغيرة ، وقد اعطت الشرائع الحديثة اهمية كبرى لسوابق الفاعل وظروفه ودوافعه ، اذن ، علينا قبل ان نضفي على الذنب صفة الشدة والضعف ان ننظر الى الفاعل ، وهل فعل ما فعل لعدم فطنته وضعف

---

(١) جاء هذا النص في تشريع الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ ، وتبنته من بعدها جميع الشرائع الحديثة ، وسبق الاسلام الثورة الفرنسية باكثر من الف سنة .

ارادته ، كما لو لبس عليه غاو اثيم ، لا يعرف طويته ، او فعله لظرف خاص ، وسبب معين يوجب التخفيف ، او ان الفاعل ارتكب الذنب ، لانه مولع بالاساءة الى الناس ، ولان الاجرام والفساد مهنة له ، كما هو شأن الكثيرين في هذا الزمان ، وكل زمان .

وقد تواتر في الحديث « انما الاعمال بالنيات ، ولكل امرىء ما نوى » وقال الامام الصادق : « انما خلد اهل النار في النار ، لان نياتهم كانت في الدنيا ان يعصوا الله ابدا لو خلدوا فيها ، وانما خلد اهل الجنة في الجنة ، لان نياتهم ان يطيعوا الله ابدا ، فبالنيات خلد هؤلاء وهؤلاء ، ثم تلا : « كل يعمل على شاكلته » اي على نيته . وقال صدر المتألهين في كتاب « المبدأ والمعاد » : ان اخلاق الانسان وملكاته النفسية في حياته هذه تتمثل في الآخرة في صورة مجسمة محسوسة ، فان كانت طيبة تمثلت له في صورة الجنان والحور ، وما الى ذلك مما لا عين رأت ولا اذن سمعت ، وان كانت خبيثة تمثلت له في صورة الحيات والعقارب والجحيم الذي دونه كل عذاب . ومن الخير ان نذكر خبرا يعدد انواع الكبائر .

قال الامام الجواد : دخل عمرو بن عبيد على الامام الصادق ، وسأله عن الكبائر في كتاب الله تعالى ، فقال :

اكبر الكبائر الشرك بالله ، لقوله عز وجل : « ان الله لا يغفر ان يشرك به » وقال « ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار » .

وبعده اليأس من روح الله ، لان الله يقول : « ولا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » .

ثم الامن من مكر الله ، لان الله يقول : « ولا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون » .

ومنها عقوق الوالدين ، لان الله تعالى جعل العاق جبارا شقيا في قوله : « وبرا بوالدي ولم يجعلني جبارا شقيا » .

ومنها قتل النفس التي حرم الله الا بالحق ، لانه يقول : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها » .

وقذف المحصنات ، لان الله يقول : « ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم » .

واكل مال اليتيم ، لقوله : « ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما انما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا » .

والفرار من الزحف ، لان الله يقول : « ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » .

وأكل الربا ، لان الله يقول : « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخطبه الشيطان من المس » ويقول : « فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله » .

والسحر ، لان الله يقول : « ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق » .

والزنا ، لان الله يقول : « ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيها مهانا » .

واليمين الغموس [1] لان الله يقول : « ان الذين يشترون بعهد الله وايمانهم ثمنا قليلا اولئك لاخلاق لهم في الآخرة » .

والغلول [2] قال الله : « ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة » .

---

(١) اليمين الغموس هي الكاذبة التي تغمس صاحبها في النار .
(٢) الغلول ذو الحقد والغش .

ومنع الزكاة ، لان الله يقول : « يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » .

وشهادة الزور ، وكتمان الشهادة ، لان الله يقول : « ومن يكتمها فانه آثم قلبه » .

وشرب الخمر ، لان الله عدل بها عبادة الاوثان .

وترك الصلاة متعمدا او شيئا مما فرض الله ، لان رسول الله (ص) يقول :

من ترك الصلاة متعمدا فقد بريء من ذمة الله وذمة رسوله .

ونقض العهد ، وقطيعة الرحم ، لان الله يقول : اولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار » .

فخرج عمرو بن عبيد ، وله صراخ من بكائه ، وهو يقول . « هلك من قال برأيه ، ونازعكم في الفضل والعلم » .

هل العقوبة تسقط العقاب ؟

فرق بعض الفقهاء بين العقوبة والعقاب بان العقوبة ما كان في الدنيا، والعقاب ما كان في الآخرة ، واختلفوا : هل العقوبة تسقط العقاب ؟ فاذا جلد الزاني ، وقطعت يد السارق ، وقتل القاتل ، فهل يعذب ثانية في الآخرة ، او يكتفى بالعقوبة الدنيوية ؟.

ذهب جماعة الى ان المجرم اذا حد ، او اقتص منه في الدنيا لا يعذب في الآخرة ، واستدلوا بما نسب الى الرسول (ص) : « من اذنب ذنبا فعوقب به في الدنيا لم يعاقب به في الآخرة » . وبما نسب الى امير المؤمنين: « من اصاب حدا فعجل عقوبته في الدنيا فالله اعدل من ان يثني على عبده

في الآخرة » . واختار هذا القول الشيخ المفيد ، حيث قال في كتاب «اوائل المقالات» :

« من قتل مؤمنا على وجه التحريم لدمه دون استحلال ، ثم تاب مما فعل ، فعليه ان يسلم نفسه الى اولياء المقتول ، فان شاءوا استقادوا منه ، وان شاءوا ألزموه الدية ، او عفوا عنه ، وان لم يفعل ذلك لم تقبل توبته ، وان فعل كانت توبته مقبولة ، وسقط عنه بها عقاب ما جناه، وبهذا نطق القرآن ، وعليه انعقد الاجماع » [1] .

وذهب آخرون الى ان العقوبة في الدنيا لا تسقط عقاب الآخرة ، واستدلوا بان ابن عباس سئل عمن قتل مؤمنا متعمدا ، ثم تاب واهتدى . فقال : انى له التوبة ؟! سمعت رسول الله يقول : يجيء المقتول متعلقا بالقاتل تشخب اوداجه دما ، فيقول : ربي . سل هذا فيم قتلني ؟ » .

المعقول :

والمعقول ان الحد عن حقوق الله سبحانه يسقط العذاب الاخروي، كمن حد على ترك الصلاة او الصيام ، وعزر [2] على الكذب وما اليه ،

---

(١) الاجماع على فرض وجوده وانما يكون حجة في الفروع لا في الاصول، وآيات التوبة كلها مخصصة بآية تخليد القاتل ، والله اعظم من ان يضيع دم مؤمن هدرا، واذا كان لا بد من العفو عن القاتل لثبوته في النصوص والاستفادة منها فلا مناص من ان تنخفض منزلته وترتفع منزلة المقتول ظلما .

(٢) الفرق بين الحد والتعزير ان العقوبة المقدرة في الشرع تسمى حدا ، واذا لم يقدرها الشرع وترك امرها الى الحاكم تسمى تعزيرا ، كمن قال لآخر : يا كلب او يا خنزير ، واتفق الشيعة والسنة على ان الشرع نص على ست عقوبات : وهي قطع اليد في السرقة ، والجلد او الرجم في الزنا ، و ٨٠ جلدة في شرب الخمر ، ومثلها في القذف ، وقطع الايدي والارجل من خلاف في قطع الطريق ، والقتل في المرتد عن الاسلام ، وزاد الشيعة ثلاثا على هده الست (١) اللواط وحده القتل بالسيف او الرجم او الاحراق بالنار (٢) المساحقة مئة جلدة . (٣) القيادة ٧٥ .

وكذا من عاقب بمثل ما عوقب ، كما لو رد الضربة الى ضاربها ، قال تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين ــ البقرة ١٩٤ » وقوله : « وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ــ النحل ١٢٦ » . فاذا اقتص المعتدى عليه بالذات بقدر ما وقع عليه سقط حقه ، وكذا اذا حد السارق ورد المسروق ، اما مجرد الحد او التوبة ، بدون الرد فانه يسقط حق الله دون حق الناس .

اما من قتل نفسا بغير حق ، وسعى في الارض فسادا ، واهلك الحرث والنسل فلا يسقط العذاب عنه ، ولو قتل الف مرة ــ ان صح التعبير ــ لان قتله لا يحيي المقتولين ، ولا يرد ظلامة المظلومين ، وانما تعود منفعة القتل على سائر الاحياء ، ليتناهى الناس عن القتل « ولكم في القصاص حياة يا أولي الالباب » وقد دلت الآية ٩٣ من سورة النساء على ذلك : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه واعد له عذابا عظيما » اجل ، ان قتل القاتل قد يخفف عنه وطأة العذاب ، والله اعلم .

وقال السيد الطباطبائي في كتاب « الميزان » : ان آية « يغفر الذنوب جميعا » وآية « ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » تصلحان لتقييد آية « تخليد القاتل في جهنم » وتكون النتيجة ان الله يغفر له جريمة القتل بالتوبة .

ويرد هذا انه يتنافى وقواعد الاصول ، لان دليل غفران الذنوب جميعا عام ، ودليل تخليد القاتل في النار خاص ، والخاص مقدم على العام بالاتفاق ، وصاحب الميزان عكس الآية فقدم العام ، وألغى الخاص [1] .

---

(١) واعتذر بعض الفضلاء عنه بان أدلة التوبة حاكمة على الادلة التي اثبتت العقاب على الذنب ، ومنها آية تخليد القاتل . واجبته بان دليل الحاكم ينفي الحكم في مقام التشريع لا انه يرفعه بعد اثباته ، كما نحن فيه ، فان استحقاق العقاب متحقق ، والتوبة ترفعه ، فهو بالنسخ اشبه ، ولا يمت الى الحكومة بسبب .

والخلاصة ان عقوبة الدنيا والتوبة تسقطان العذاب الاخروي الا في قتل المؤمن عمدا ، والسعي في الفساد فان عذابهما لا يسقط بحال ، وقد يخفف بالتوبة النصوحة وقتل القاتل والمفسد .

وقد شدد الاسلام على الظالمين والمعتدين على حقوق الناس ، قال تعالى : « وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون » وفي الحديث الظلم ثلاثة : ظلم لا يغفره الله ، وهو الشرك . وظلم يغفره ، وهو ظلم الانسان نفسه بينه وبين ربه ، وظلم لا يدعه ، وهو حقوق الناس وفي آخر لا توبة لظالم ، حتى يؤدي لكل ذي حق حقه . وقال الامام الصادق : ان الملائكة اقعدوا رجلا من الاخيار في قبره وقالوا له : انا جالدوك مئة جلدة من عذاب . فقال : لا اطيقها . فلم يزالوا به ، حتى انتهوا الى جلدة واحدة ، فقال : وما هو ذنبي ؟ قالوا : انك مررت بضعيف فلم تنصره . فجلدوه جلدة من عذاب الله ، فامتلأ قبره نارا .

واذا عذب لعدم نجدته وانتصاره للمظلوم ، فبالاحرى ان يعذب لو باشر الظلم والاعتداء بنفسه .

حساب القبر

ان الحديث عن عودة الحياة في القبر حديث عن الغيب ، تماما كالحديث عن القيامة ، واحوالها لا يعرف الا من الوحي والاخبار الإلهي، وقد جاءت الاحاديث عن النبي ، واهل بيته (ع) في سؤال الميت في قبره ، وثوابه وعقابه ، وتواترت بشتى الطرق ، وآمن بها العلماء ، حتى جرى الايمان بمبدأ الحساب في القبر مجرى الضرورة من الدين ، واصبح عقيدة من عقائد المسلمين .

ومهما شككنا وترددنا فانا لا نشك ولا نتردد ـ ما دمنا مؤمنين بالله ـ في ان احياء الموتى ممكن في ذاته ، وان الله سبحانه قادر عليه ، وعلى ان يجعل القبر روضة من رياض الجنان ، او حفرة من حفر النيران، فعلينا ـ اذن ـ ان نعد العدة ، ونتخذ جميع الاحتياطات لهذه الحفرة ، ونعمل للخلاص من آلامها واوصابها ، ونظرة واحدة الى القبر تقود العاقل الى التأمل والتفكير في ماله ومصيره ، واذا لم يكن على يقين من حساب القبر فلا اقل من الخوف والاحتمال ، واي عالم او عاقل يستطيع النفي بلسان القطع والجزم؟!.. اللهم الا اذا أنكر الله والغيب ، ولم يؤمن بشيء الا بما يلمس باليد ، ويرى بالعين ، وحينئذ ينتقل الحديث معه الى اسباب المعرفة ، وتنحصر الفلسفة بكاملها في هذه المسألة خاصة ، اي مسألة المعرفة .

ومهما يكن ، فان خوف الضرر في نفسه ومجرد احتمال وقوعه بقطع النظر عن اي شيء قد يكون منجزا ومستوجبا للاحتـياط ، والاحتراز ، تماما كالعلم ، فقد رأينا الدول تستعد للدفاع ، وتنفق المليارات تحسبا للطوارىء لمجرد الاحتمال ، وهي في امس الحاجة الى الانتاج السلمي ، ورأينا العقلاء اذا خافوا انقطاع نوع من القوت يدخرون منه الى سنوات، كما انهم يتحفظون في احاديثهم وكلامهم مع مـن يسيئون به الظن ، ولا يأتمنونه على اسرارهم ، وما ذاك الا لان خوف الضرر في نفسه يستدعي الحيطة والحذر في هذه الموارد وامثالها [1] فبالاولى ان يحتاطوا لما هـو اشد ضررا ، واعظم هولا .

وقال الامام (ع) : مهدوا للموت قبل حلوله ، واعدوا له قبل نزوله. فان الغاية القيامة ، وكفى بذلك واعظا لمن عقل ، ومعتبرا لمن جهل . وقال: حتى اذا انصرف المشيع ، ورجع المتفجع اقعد ــ اي الميت ــ في حفرتـه نجيا لبهتة السؤال ، وعثرة الامتحان ، واعظم ما هنالك بلية نزل الحميم، وتصلية جحيم ، وفورات السعير ، لا فترة مريحة ، ولا دعة مزيحة ، ولا قوة حاجزة ، ولا موتة ناجزة .

واذا بحثنا عن الاسباب التي دعت الى انكار من انكر الحياة بعـد الموت لم نجد اي سبب معقول سوى ان المنكر تصور في ذهنه ان لا شيء بعد الموت فقطع وجزم ذاهلا عن ان التصور شيء ، والوقوع شيء آخر ، وان باستطاعة اي انسان ان يتصور الحجر يتكلم ، وان الشمس كـانت فيما مضى فصا لخاتـم آنسة ، فسقطت منه ، وحلقـت في الجو ، حتى

---

(١) قال اهل الاصول والمعقول : ان الطريق المخوف لا يجوز سلوكه بحكم العقل بخاصة اذا كان مقطوعا او مظنونا ، وان الضرر الاخروي يجب دفعه ولو كان محتملا مع عدم وجود المؤمن . وقال الفقهاء من سلك طريقا مخوفا في سفره يكون عاصيا ، يجب ان يتم الصلاة ، حتى ولو تبين عـدم الضرر فيما بعد .

استقرت في مكانها الحالي .. ان هذا ، وما اليه ممكن التصور ، وقد تصورناه بالفعل ونحن نكتب هذه الكلمات ، ولكنا لا نؤمن بوقوعه، اما منكر الحساب والعقاب فقد آمن بذلك لا لشيء الا لانه تصوره في ذهنه، واليه اشارت الآية الكريمة : « وان انتم الا تخرصون » .

وقد يقول المنكرون : نحن نسلم بان احتمال الضرر يجب دفعه ، ولكن نحن لا نخاف فلا يجب علينا شيء ، وانما تجب الحيطة والحذر على الخائف .

ونجد الجواب في قوله تعالى : « أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله الا الخاسرون » وقوله : « انما يخشى الله من عباده العلماء » هذا ، الى ان العاقل لا يكون عاقلا ، حتى يكون خائفا راجيا ، ولا يكون خائفا راجيا . حتى يكون عاملا لما يخاف ويرجو [1] .

---

(١) هذا اللفظ للامام الصادق سوى انه قال ان المؤمن لا يكون مؤمنا . وجعلنا العاقل مكان المؤمن لقول الصادق من لا عقل له لا ايمان له ، ولان تعاليم الانبياء والائمة تبتني على الفطرة والعقل السليم بخاصة فيما يتعلق بالعمل والسلوك .

طريق الجنة

مـع الماديين :

اذا قيل للذين ينكرون وجود الله واليوم الآخر : « هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » قالوا : لا وجود ولا حقائق ولا معرفة وراء التجربة والحس ..

واذا قيل لهم : واين العقل الذي أنعم الله به على الانسان ، وبه تميز عن غيره ؟!. قالوا : نحن حسيون لا عقليون [1] اي انهم لا يؤمنون بوجود العقل كلية ، وعلى افتراض وجوده فانه أداة غير صالحة للمعرفة، وان ما يسمى عقلا ليس الا مجموعة افعال الحواس ، وبكلمة انهم يزعمون ان الانسان والحيوان سواء ، كل منهما لا يدرك شيئا الا عن طريق النظر واللمس .

ولا نريد ان نطيل الكلام معهم ، ونثبت وجود العقل بمغايرة افعاله وآثاره لافعال الحواس وآثارها ، بل نكتفي بالاشارة الى ان انكارهم وجود الله واليوم الآخر يرتكز اولا واخيرا على ان العقل غير موجود ، او انه موجود ، ولكنه اداة غير صالحة للادراك والمعرفة ، وهم يعترفون بوجود الله واليوم الآخر لو كان العقل موجودا او كان صالحا للمعرفة .

---

(١) يسمى هؤلاء بالحسيين او التجريبيين متى دار الحديث على المعرفة، وبالماديين متى دار على الوجود ، اما الذين يؤمنون بمنهج العقل ، ويقولون بأن الوجود يشمل المادة وما وراءها فيسمون العقليين .

لقد رأى هؤلاء ان الاعتراف بوجود العقل ، او بأحكامه يلزمه حتما الاعتراف بوجود الله فانكروا العقل من الاساس .. وليس غريبا على من انكر العقل ان ينكر وجود الله واليوم الآخر ...

ايمان وبرهان :

لو قال قائل : هل تؤمن باليوم الآخر عن طريق العقل او الدين ؟.

قلنا له : نؤمن به بحكم العقل والدين معا ، فلقد قام برهان العقل على وجود الله ، وثبت دليل النقل عن الله في اليوم الآخر ،فيكون الايمان به عقلا ، لانتهائه الى العقل ، ونقلا ، لان الوحي دل عليه مباشرة .

واذا قال : نحن ننكر وجود العقل من الاساس ، او نعترف به ، وننكر احكامه ، او نعترف به وباحكامه ، وننكر دلالته على وجود الله .

قلنا له : ليس كل ما تنكرونه باطلا ، وليس كل ما تعترفون به حقا، واذا زعمتم انه لا حجة لنا عليكم فيما نثبت قلنا : لا حجة لكم علينا فيما تنكرون .

العمل الصالح :

كل من قال بالحياة والحساب بعد الموت قال : ان طاعة الله طريق الجنة ، ومعصيته طريق النار ، وقال المؤمنون بالوحي : ان الله لا يأمر الا بما فيه الخير والصلاح للناس ، ولا ينهى الا عما فيه الشر والفساد ، وان خير الاعمال واصلحها خدمة الانسان ، والعمل الصالح العام ، وان تمجيد الله وتقديسه يتحقق بالتضحية من اجل الانسان ومنافعه ، وان التعدي على حقوقه تعد على الله بالذات ، وان خيانته خيانة لله .

وقد هدد الله الظالمين وتوعدهم باشد العقوبات بخاصة القادة

والحكام ، قال امير المؤمنين : « سمعت رسول الله يقول : يؤتى يوم القيامة بالامام الجائر ، وليس معه نصير ولا عاذر فيلقى في جهنم ، فيدور فيها كما تدور الرحى ، ثم يربط في قعرها » .

وكما دل كتاب الله وسنة نبيه على اليوم الآخر فقد دلا صراحة على الاتصال الوثيق بين حق الله وحق الانسان ، حتى العبادة فان فيها اشعارا بالمساواة امام الله وعدم تفوق انسان على انسان ، فلا الحج والزيارات ، ولا الصوم والصلاة ، ولا الخمس والزكاة ولا شيء بنافع غدا الا من اتى الله بقلب سليم ، لم يسيء الى احد ، ولم يعتد على حق .. وكذب من يزعم انه يحب الله ، وهو يبغض الناس ، وادعى انه يعبد الله، وهو يستعلي على الناس ، ومن يطلب مرضاة الله ، وهو يستغل الناس .

نحن عبيد الله وله علينا حق الشكر والسمع والطاعة ، ما في ذلك ريب، وقد شاء الله سبحانه ان يثيب ويعاقب، وان يدخل الجنة من اطاعه ولو كان عبدا حبشيا ، والنار من عصاه ولو كان سيدا قرشيا ، ولكن اظهر الطاعات واعظمها هي خدمة الانسان ، وكف الاذى عنه ، واقسم ان محمدا (ص) لم يقترن اسمه باسم الله الا لانه اخرج الناس من الظلمات الى النور ، من الجهل الى العلم ، من الهمجية الى الحضارة ، ومن الفقر الى الغنى .

طريق الجنة :

لقد ربط الدين نعيم الجنة بعمل الخير ، وعذاب النار بعمل الشر ، وليس من شك ان هذه الصلة تخلق في نفس الانسان وازعا الى الخير ، ورادعا عن الشر ، حتى في الظلام ، حيث لا رقيب ولا حسيب الا الله ، ففكرة الحياة بعد الموت والثواب والعقاب ترشد الانسان الى المثل العليا، وتتجه به الى صلاحه وصلاح مجتمعه ، والآن تعال معي لنقرأ ما ثبت من الاحاديث في هذا الباب :

قال الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله وسلم : ان الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا •• وقال : خيركم من يرجى خيره ، ويؤمن شره، وشركم من لا يرجى خيره ، ولا يؤمن شره •• وقال : يحشر الحاكرون وقتلة الانفس في درجة واحدة ، وقال : القيام بحوائج الناس خير من عامة الصلاة والصيام •

وقال الامام الصادق (ع) : اهل المعروف في الدنيا هم اهل المعروف في الآخرة •• ان في الجنة بابا يقال لـه المعروف لا يدخله الا من اصطنع المعروف في الحياة الدنيا •• وقال : ايما مؤمن سأله اخوه المؤمن حاجة ، وهو يقدر على قضائها ، ولم يقضها سلط الله عليه شجاعا ــ اي افعى ــ ينهشه في قبره •• وقال : ما آمن بالله ولا بمحمد ولا بعلي من اذا اتاه اخوه المؤمن في حاجة لم يضحك في وجهه ، فان كانت عنده سارع الى قضائها ، وان كانت عند غيره تكلف ، حتى يقضيها له ، وان لم يفعل فلا ولاية بيننا وبينه •

وقال السيد المسيح : طوبى للودعاء ، فانهم يرثون الارض ، طوبى للرحماء فانهم يرحمون • طوبى لانقياء القلب ، فانهم يعاينون الله طوبى لفاعلي السلام ، فانهم يدعون ابناء الله • طوبى للمضطهدين ، من اجل البر ، فان لهم ملكوت السموات •

فالذين يطلبون ملكوت الله والمنزلة العليا غدا لا يجدونها الا في الرحمة والتحابب والتعاطف ، والا في الوداعة وصفاء القلب والاحسان الى الناس ، والا في السلام ونشر لوائه ، والعمل للتعاون والتعايش •

ونختم الفصل بسؤال نوجهه الى الماديين :

اذا كانت فكرة اليوم الآخر خرافة وكلاما فارغا بالرغم من انها توجه

الانسان الى الله بقلب سليم ، واذا كان المبدأ القائل : « ليس للانسان الا ما سعى » سخفا وهراء ، واذا كان الانبياء والائمة والفلاسفة الذين آمنوا بالله والخلود مجانين او مشعوذين فماذا يبقى للانسانية غير الجهل والالحاد والفوضى والفساد !.. « وقالوا ان هي الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ولو ترى اذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ـ الانعام ٢٨ الى ٣٠ » .

في النبوة

بيئة الالحاد :

ماذا نرقب من شاب عاش في بيئة الكفر والالحاد ، لم يسمع لله اسما ، ولا لليوم الآخر ذكرا ، ولم ير الا المادة ومظاهرها ، ولم يفكر الا بالربح والملذات ، يسهر الليل ، حتى الصباح في مواخير الدعارة، وحفلات الرقص ، ومجالس الشراب ، واندية القمار ؟!..

هل نرقب من هذا ان يكون مؤمنا تقيا ، يحسن عنده ما يحسن عند الهادين المهديين ؟!.. وهل يسوغ لاحد ان يأخذ من اقواله وافعاله دليلا على انه لا مبدىء ولا معيد ، ولا حلال ولا حرام ؟!..

ان تفكير الانسان يقدر بيئته وتربيته في جميع الادوار .

بيئة الايمان :

وقد يقال : ان هذا بعينه جار في حق من نشأ في بيئة الدين والايمان، فأي شيء نرقب من شاب عاش في النجف الاشرف ــ مثلا ــ يسمع الاذان وآيات الله ، والتهليل والتكبير ، والتخويف من يوم الحساب وهوله صباح مساء ، ويرى العبادات والصلوات ، ومظاهر التقوى ، وشعائر الدين اينما اتجه ؟!.. هل نرقب من هذا غير الايمان بالله واليوم الآخر؟! .. واذا لم يصح الاستدلال بقول الاول على النفي فكذلك ايضا لا يصح

الاحتجاج بقــول الثاني على الاثبات ، لان مرد القولين الــى الظروف والتربية ، لا الى العقل ومنطق الواقع .

الجواب :

اجل ، ان اقوال الناس ومعتقداتهم لا تكشف عن الواقع ، ولا تكون طريقا لمعرفة الحقيقة ، لانها تأتي ـــ في الغالب ـــ انعكاسا على عــاداتهم وتقاليدهم التي ورثوها عن الاجداد ، واكتسبوها من المجتمع ، ومن هنا يحتم على من يتوخى الحقيقة ان يتجرد لها ، وان لا يدخل في حسابه شيئا من الاخلاق المعروفة والعادات المألوفة .

وليس هذا بالشيء العزيز ، فقد ترك نفر دين قومهم وآبائهم وأبت عقولهم ان يعبدوا غير الواحد الاحد ، وتحملوا في سبيل ذلك العــذاب والاضطهاد ، وقد عرفنا من هؤلاء سلمان الفارسي ، وورقة بــن نفيل ، وعبدالله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو ، فقد بحثوا عن الحقيقة وسط زحام مــن التقاليد والعادات ، ومنهم مــن لم يكتف باعتزال قومه وما يعبدون من دون الله ، فان زيد بن عمرو كان ينهى قريشا عن عبادة الاصنام والربا والكذب والظلم ، ويقول لهم : « يا معشر قريش والذي نفس زيد بيده ما اصبح منكم على دين ابراهيم غيري » ..

تصديق الانبياء :

عرضنا فيما سبق الادلة العقلية والشرعية على المعاد ، وذكرنــا ان العقل حجة على غيره ، ولا حجــة للغير عليه ، وانه حاكم غير محكوم ، ومتبوع غير تابع ، والآن نريد ان نثبت ان العقل هو الشاهد والدليل على تصديق الشرع ووجوب اتباعه .

ومعنى تصديق الشرع التسليم والانقياد للانبياء ، والاخذ باقوالهم

على انها الحق والصدق ، وانها فوق الشبهات والاخطاء ، تماما كأحكام العقل السليم ، ذلك انرسالة الانبياء تدعو الى الدعوة الى العقل فمحال اذن ان لا يسلم العقل بالشرع لانه لا يكذب نفسه بنفسه .

قال الرسول الاعظم (ص) : اصل ديني العقل . وفي الحديث القدسي ان الله خاطب العقل بقوله : بك آخذ ، وبك اعطي ، وبك اثيب ، وبك اعاقب . الى غير ذلك من الاحاديث التي يعجز عنها الحصر ، وقال الفارابي : « يتفرع الدين والفلسفة من اصل واحد يحوي المعرفة والحق ، وهو العقل » .

وقد يقال : ان دعوة الانبياء الى حكم العقل لا يحسم النزاع بينهم وبين المعاندين ، حيث يدعي كل فريق انهم على بينة من العقل ، كما حدث للرسول الاعظم مع مشركي قريش ، ومن سبقه من الانبياء مع قومهم ، كما دلت الآية ٤١ ــ ٤٣ من سورة الحج على ذلك : « وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ، وقوم ابراهيم وقوم لوط ، واصحاب مدين ، وكذب موسى » . اذن لا بد من دليل حسي يحسم النزاع ، ويفحم المعاندين ، ويثبت نبوة الانبياء .

الجواب :

اجل ، وهذا ما حدث بالفعل ، فقد اعطى الله سبحانه كل نبي معجزة تدل على نبوته ، وتشهد بانه المحق والصادق الامين . واتفقت كلمة المسلمين على ان معجزة محمد (ص) الخالدة التي تحدى بها الناس مجتمعين منظافرين في كل عصر ومصر هي القرآن الكريم ، واختلفوا في جهة الاعجاز هل هي البلاغة أو ما فيه من انباء الغيب ، ودقائق التشريع ، او ما حواه من اسرار الكون ، واخبار الامم الماضية ، او كل هذه مجتمعة ، وخير ما قرأته في هذا الباب ما كتبه الاستاذ محمود محمد شاكر في تقديم كتاب « الظاهرة القرآنية » للاستاذ مالك بن نبي ، قال ما محصله :

ان النبي لم يتحد قريشا بالقرآن من حيث التشريع ، ولا من حيث انباء الغيب ، ولا من حيث اخبار الامم السابقة ، لان هذه ــ وان دلت على ان القرآن من عند الله ــ الا ان التشريع ومعرفة اسرار الكون والانباء بالغيب ليست في شيء من اختصاص الذين تحداهم النبي بالقرآن .. ولا يصح بحال ان تتحدى من يجهل فن البناء ان يبني . ومن يجهل الكتابة ان يكتب ، وانما تحداهم القرآن في رصفه ونظمه ، ومباينة خصائصه للمعهود من كل نظام وبيان ، تحداهم بالبيان ، لانهم اهل القول واللسان ، وزعماء الفصاحة والبلاغة ، ولان لهم القدرة الكافية على الحكم والفصل بين ما هو من كلام البشر ، وما هو فوق كلام البشر .

وحدثنا التاريخ ان القرآن خير العرب ، فهو بلسان عربي مبين ، وفي الوقت نفسه مباين لهذا اللسان باسلوبه وخصائصه ، وبعد ان عجزوا عن ان يأتوا بسورة من مثله ، تمت عليهم الحجة ، وثبت انهم المبطلون ، وان محمدا المحق بحكم العقل .

واذا ثبتت النبوة بحكم العقل كان كل ما يصدر عنها ، وما تخبر به حقا وصدقا ، سواء اكان من شؤون الدنيا ، او شؤون الآخرة ، وهذا معنى قول علماء الكلام ان السمع لا يكون حجة الا اذا ثبتت نبوة النبي بدليل العقل .

إله محمد (ص) :

ما زال المفكرون في الشرق والغرب يضعون المجلدات في عظمة محمد ، وصدق رسالته ، ومسايرتها للعقل والفطرة ، وما اسدته للانسانية من خير [1] وآخر كتاب ، وليس الاخير كتاب « محمد رسول الحرية »

(١) ذكرت في كتاب « النبوة والعقل » جملة وافرة من هذه الكتب .

صدر حديثــا للاستاذ الكبير الاديب الشهير عبد الرحمن الشرقاوي ، نقتطف منه الجملة التالية ، وفيها الدلالة الكافية الوافية على ان الاسلام دين العقل والحياة :

قال محمد : ان الاصنام ضلال ، وانها لن تغني شيئا . وان الامر كله لإله واحد .. لا يحتــاج الى وسطاء .. إله واحد أحــد ، خالــد ابدا .. لم يلد ولم يولد ولا شيء بكفؤ له .. وهــذا الإله اكبر من ان يحده مكان الكعبة ، ولا حتى مكة نفسها ، فهو في كل مكان .. وليست له صورة ، وهو الذي خلق كل شيء ، وهو وحده الجدير بان يعبــد ، يستوي عنده العبيــد والاشراف .. الفقــراء والاغنياء .. الرجــال والنساء .. وهو الذي يحيي ويميت وسيبعث الناس في يوم معلوم بعــد الموت ليحاسبهم على ما صنعوا في الحياة الدنيا ، وما الحياة الدنيا الا لهو ولعب ومتاع وغرور ، وهي الى زوال .. وهذا الإلــه الواحد لا يرضى الزنا ، ولا الربا ، ولا القتــل ، ولا كبرياء سائر الاشيــاء .. وسيحرق اجساد الذين يعبثون بحقوق الآخرين ، ويستضعفونهم .

اما المساكين الذين يمتهنون اليوم فلهم شأن آخر بعد المــوت فقد اعدت لهم جنات فيها حدائق واعناب اذا هجروا الفواحش ، ولم يسرقوا ولم يكذبوا ، واذا هم ادوا الامانات الى اهلها، ونبذوا الاصنام وتحرروا من سلطانها على قلوبهم .. انه إله آخر غير ما عرفوا ، إله محمد لا يريد وساطة ولا مالا ولا قلائد ، ولا سبيل اليه بحسب او غنى .. فما للانسان عنده غير سيرته الصالحة ، غير صدقه وشجاعته ، وحسن معاملته ، وغير فضائله .. ذلك انه غني عن العالمين .. وانه ليس للانسان الا ما سعى ، وان سعيه سوف يرى .

من هنا وهناك

العلم والايمان :

الناس من حيث العلم والايمان على اربعة انواع :

١ ـ الذين رزقوا العلم والايمان جميعا ، وهم العلماء العاملون ، واليهم اشارت الآية ١١ من سورة المجادلة : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير » . وقال الامام الصادق (ع) : « اذا كان يوم القيامة جمع الله الناس في صعيد واحد ، ووضعت الموازين ، فتوزن دماء الشهداء مع مداد العلماء ، فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء » .

والسر ان العالم هو القائد المرشد ، والشهيد هو الجندي المنفذ ، وبمقدار التفاوت في المنزلة يكون التفاضل في الاجر والثواب ..

٢ ـ الذين حرموا العلم والايمان جميعا ، واليهم اشارت الآية ١٢ من سورة محمد : « يأكلون كما تأكل الانعام والنار مثوى لهم » . والآية ٣ من سورة الحجر : « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون » .

هؤلاء لا يهتمون بشيء الا بالتكاثر والتفاخر بالاموال ولبس الثياب الفاخرة وأكل الاطعمة المتنوعة وسكنى الدور الرفيعة وركوب

المراكب الفارهة ، وفي الحديث : « ثم يؤتى بهؤلاء مسودة وجوههم ، مغلولة ايديهم الى اعناقهم ، ثم يؤمر بهم الى النار وبئس القرار » .

٣ ــ الذين رزقوا الايمان دون العلم ، يفعلون ما امر الله به . ويتركون ما نهى عنه ، ولكنهم يعجزون عن الاستدلال واقامة البرهان على البعث والنشر ، والحلال والحرام ، وهؤلاء في امن وامان ، لانهم اقتدوا بالعلماء الاخيار واهل الاعمال الصالحة ، قال الامام زين العابدين (ع) : « اللهم ألحقني بصالح من مضى ، واجعلني من صالح من بقي ، وخذ بي سبيل الصالحين » .. وقال : « او لعلك فقدتني من مجالس العلماء فخذلتني » ومن اخذ بارشاد العلماء ، وسلك سبيل الصلحاء كان معهم ، وان لم يبلغ من العلوم والمعارف مكانتهم .

٤ ــ الذين رزقوا حظا من المعرفة ، ولم يرزقوا الايمان ، وهؤلاء اشد الناس عذابا ، لان علمهم حجة عليهم ، قال امير المؤمنين (ع) : « ايها الناس اذا علمتم فاعملوا ، فان العالم العامل بغير علمه كالجاهل الذي لا يستفيق من جهله ، بل الحجة عليه اعظم ، والحسرة له أدوم » . وقال رسول الله (ص) : « لا قول الا بعمل ، ولا قول ولا عمل الا بنية ، ولا نية الا باصابة السنة » حتى العمل ليس بشيء بدون نية اخلاص لله عز وجل ، ولا يتحقق الاخلاص الا بموافقة كتاب الله وسنة نبيه .

اهل النار :

جاء في الحديث ان فرحة اهل الجنة بالخلاص من الجحيم تزيدهم نعيما على نعيم ، وان حسرة اهل النار على ما فاتهم من النعيم تزيدهم عذابا على عذاب ، وهم يعلمون ان اهل الجنان في ثواب عظيم ، ونعيم مقيم ، ويأملون ان يطعموهم او يسقوهم ، كما جاء في الآية ٥٠ من سورة الاعراف : « ونادى اصحاب النار أصحاب الجنة ان افيضوا علينا من الماء او مما رزقكم الله» .فيجيبهم اهل الجنة : «ان الله حرمهما على الكافرين» .

وبعد اليأس من اهل الجنان يستغيث اهل النـار بخزنتها ، كمـا صرحت الآية ٤٩ من سورة المؤمن : « وقال الذين في النـار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب » • فيجيب الخزنة : « ألم تلك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين الا في ضلال » • وبعد اليـأس من اهل الجنـة وخزنة النـار يستغيثون برب العالمين ، وقد كان اهون شيء عندهم في الدنيا : « قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ظالمين • ربنا اخرجنـا منها فان عدنا فانا ظالمـون » • فيجيبهم الباري جل‌اسمه: «اخسئوا فيها ولا تكلمونـ١٠٨ المؤمنون»•

واذا قارنا بين هذه الاجوبة الثلاثة وجدنا كل جواب يتناسب مع مكانة قائله ، فجواب اهل الجنة اخف من جـواب الخزنة ، اما جواب الله سبحانه « اخسئوا فيها ولا تكلمون » فهو من كلام جبار السموات والارضين •

الخصماء :

قال الغزالي في الجزء الرابع من كتاب الاحياء : « اذا مات الانسان قبل ان يتوب ويؤدي حقوق الناس الادبيـة والمادية يحيط به خصماؤه غدا • فهذا يأخذ بيده • وهذا يقبض ناصيتهوهذا يقول ظلمتني • وهذا يقول شتمتني • وهذا يقول استهزأت بي وهذا يقول ذكرتني بالغيبـة بما يسوءني • وهذا يقول جاورتني فأسأت جواري • وهذا يقول عاملتني فغششتني ، وهذا يقول بايعتني فغبنتني ، واخفيت عني عيب سلعتـك ، وهذا يقول كذبت في سعر متاعك ، وهذا يقول رأيتني محتاجا ، وكنت غنيا فما اطعمتني ، وهذا يقول وجدتني مظلوما ، وكنت قادرا على دفع ظلامتي فداهنت الظالم وتركتنـي ، وبينما انت في هذه الحـال اذ قرع سمعك نداء الجبـار جل جلاله : « اليـوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم » •

ارض المحشر :

مما جاء في ارض المحشر وصفاتها : انها ارض بيضاء قاع صفصف، لا اشجار فيها ولا جبال ولا اودية ، ارض بيضاء كالفضة لم يسفك عليها دم ، ولم يعمل عليها خطيئة ، وتصبح السماء كالمهل ـ اي عكر الزيت ـ وتذهب شمسها وقمرها ونجومها ، وتصير الجبال كالعهن ـ اي الصوف المنفوش ـ وتشتبك الناس كالفراش المبثوث حفاة عراة مشاة ، قال رسول الله (ص) : « يبعث الناس حفاة عراة عزلا قد ألجمهم العرق ، وبلغ شحمة الآذان » .

اللهم انت الذي ، ييأس منه المجرمون ، لانك الرب الكريم والغفور الرحيم وصلى الله على محمد وآله الطاهرين .

علي والفلسفة

مقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين ، والصلاة على اشرف الخلق محمد وآلـه الطيبين .

وبعـد :

فقد سبق ان قدمت لقرائي ــ فيما قدمت ــ كتاب « علي والقرآن » وكتاب « فضائل الامام علي » ، وطبع الاول للمرة الثالثة ، والثانـي في طريقه ثانية الى المطبعة بعد ان اوشكت نسخه على النفاد. هذا بالاضافة الى ما كتبته عن الامام عليـه افضل الصلاة والسلام في كتاب « اهـل البيت » وكتاب « مع الشيعة الامامية » وكتاب « الشيعة والحاكمون » وغيره ، والى المقالات والمحاضرات في المحافل والاذاعة .

والآن اقدم هذه الصفحات ، وموضوعها « علي والفلسفة » .

وسنقرأ نحن او الاولاد والاحفاد كتاب « علي والسياسة » . و«علي والاخلاق» . و « علي والتشريع » . و « علي والعلم الحديث » . الـى

ما لا نهاية •• ولو اصدرت المطابع في كل يوم كتابا عنه لظلت الانسانية بحاجة الى من يتحدث عن شخصيته ، ويكشف للاجيال عن نواحي عظمته ، وسيجد كل جيل في آثار الامام بداية جديدة ، ولا ينتهي الكلام عن آثار علي وافكاره الا اذا انتهى العلم •

كتبت هذه الصفحات ، وانا على يقين ان ما فاتني لا يبلغه العد والاحصاء ، وان ما ذكرت ليس بشيء بالقياس الى ما تركت من اقواله فيما قبل الطبيعة وبعدها ، وفي الطبيعة واشيائها ، وفي الانسان ومصيره وملكاته ، وفي التشريع بشتى انواعه وجهاته •• ان الاحاطة بفلسفة الامام لا تتسنى لاي انسان بالغا ما بلغ من العلوم والمعارف •

وعلى الرغم من قلة بضاعتي فان الذي جرأني على اخراج هذه الصفحات شعوري بانها تشبه الكتاب الذي يُرسم فيه حروف التهجي لتعليم الاطفال في صف الحضانة راجيا ان تكون تمهيدا وتشجيعا لمن هو اقدر وابصر على ان يضع كتابا ارفع وأعلى • وبكلمة ، ان هذا الكتاب ينشد كتابا في فلسفة الامام اوسع واشمل •

وان قال قائل : حتى الف باء من فلسفة الامام لا يصدق على كتابك هذا •

قلت : اجل ، ولكنه بمجموعه تصدق عليه علامة الاستفهام عن هذه الفلسفة •• تاركا الجواب لاهله •• فليتكرموا به مأجورين • وايضا يصدق على هذا الكتاب انه في فضائل الامام ولكن من نوع جديد ، فضائل تثبت بالتجربة والعلم الحديث • بمختبراته وادواته ، « لا يقال ويقول » وبه تتم الحجة ، حتى على الملحدين الذين لا يؤمنون الا بالحس والتجربة ، حيث لا تفسير لعلوم الامام ، وما نطق به من الحقائق التي آمن بها اهل الشرق والغرب الا بالغيب والوحي الذي نزل على قلب محمد (ص) ولقنه لاخيه ووصيه وامينه على علمه وسره •

ومهما يكن ، فلقد خرجت من كتابي هذا بشعور اقرب الى الرضا والارتياح •• ولا ادري ما هو سبب هذا الشعور ، وعن اي شيء يعبر •• هل يعبر عن مزاجي الخاص : وميولي الشخصية ، او عن املي بـان هذه الصفحات ستبعث غيري على المزيد والتوسع ، او يعبر عما خيل اليّ بانها تعرّف القراء ــ ولو بعضهم ــ باشياء من فلسفة الامام كـانوا يجهلونها ، او ان شعوري بالرضا يمثل شيئاً من الحقيقة ؟•• والله اعلم ، وهو سبحانه المسؤول ان يخرج القارىء من هذا الكتاب بشعور الرضا والارتياح •

انه خير مسؤول ، والصلاة والسلام على صفوة الخلق محمد وآله •

في الفلسفة

نهج البلاغة

ان جل ما نقلناه من اقوال الامام في هذه الصفحات مصدره « نهج البلاغة » ، « والمستدرك » لجامعه الشيخ هادي كاشف الغطاء ، «ومنهاج البراعة في شرح نهج البلاغة » للسيد حبيب الله الخوئي .

وشك ابن خلكان ، ومن تبعه في نسبة نهج البلاغة الى الامام ، ونسبوه الى جامعه الشريف الرضي ، واستدلوا بامور اثبتنا بعدها عن الحقيقة في كتاب « فضائل الامام علي » بعنوان « نهج البلاغة » . والآن وبمناسبة الحديث عن فلسفة الامام نعود الى هذا الموضوع لنلم بما فاتنا ذكره في كتاب « الفضائل » .

واهم ما تشبث به الزاعمون امران :

الاول : ان ما جاء في « نهج البلاغة » من الاخبار بالمغيبات لا يصدر من عاقل .

الجواب :

ان كل ما اخبر به الامام من المغيبات اخبر به وبغيره النبي من قبله، واثبتها كل من البخاري ومسلم في صحيحه ، والامام احمد في مسنده

وغيره [1] بل روى مسلم ان « النبي حدث بما يكون الى قيام الساعة ، فحفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه » .

ومن جملة من حفظه امير المؤمنين صاحب الاذن الواعية ، وباب مدينة علم الرسول ، اذن ، جميع اخبار الامام عن المغيبات تستند الى الرسول ، وليس للامام منها الا الرواية ، فمن انكرها عليه فقد انكرها على الرسول بالذات .

الامر الثاني الذي تشبث به الزاعمون ان في نهج البلاغة افكارا سامية ، وحكما دقيقة لا تصح نسبتها الى عصر الامام ، ولا يسوغ بحال ان نحدد معارف انسان ، أي انسان مجردة ، عن عصره ومجتمعه ، وما يحيط به من الملابسات والمؤثرات .

الجواب :

اننا نصدق هذا المبدأ ، ونؤمن بأنه ينطبق كل الانطباق على الناس العاديين الذين يأخذون من الاوضاع ، ولا يعطونها ، ويتأثرون بالبيئات والافكار الشائعة ، ويتكيفون بالعادات والتقاليد .

أما العظماء ، أما علي الذي وجد قبل زمانه بالوف السنين لا بمئاتها ، فانه يعطي العصور ، ولا يأخذ منها ، ويؤثر بعقول الناس ولا يتأثر بها ، ويغير المفاهيم والظروف والاوضاع ، ولا تغيره الاوضاع والظروف ، لانه

---

(1) انظر البخاري ج ٤ باب علامات النبوة ، وباب قتال الروم ، وباب قتال اليهود ، وباب قتال الترك ، و ج ٩ بخاري ، كتاب الفتن فان فيه احاديث كثيرة عن المغيبات ، حتى بترول العراق ، و ج ٤ من صحيح مسلم باب اخبار النبي فيما يكون الى قيام الساعة ، ومسند احمد ج ١٢ وغيره من كتب الشيعة والسنة .

فوق الظروف والبيئات ، فوق العصور والفلاسفة مجتمعين • ان اشهر الفلاسفة اطلاقا سقراط وافلاطون وارسطو ، وما عرف عن احدهم انه اعلن الحقيقة التي اعلنها الامام بقوله : « ان آدم لم يلد عبدا ولا امة ، ان الناس كلهم احرار »[1] بل تكيفوا بمجتمعهم،واقروا الرق ، حتى قال افلاطون وارسطو : ان العبيد ليسوا مخلوقات انسانية •

ان عليا هو النور الساطع الذي يبدد الظلام ، والقائد الهادي الى موطن الحق والامان ، والغيث الذي يحيي الارض بعد موتها، لا الارض التي تموت عطشا ان لم تسق وترو ، انه القوة الدافعة بالانسانية في طريق الكمال ، انه المحرك الذي لا يحركه شيء الا الذي ليس كمثله شيء •

أجل ، ان لعلي بيئة قد تأثر بها ، ومحيطا استوحى منه وفنى فيه .. وهذه البيئة هي بيئة القرآن الذي فيه تبيان كل شيء ، هي روح محمد (ص) وايمانه وعلمه وجهاده ، وهذا المحيط هو بيت رسول الله ورسالته .. دخل علي الى هذا البيت منذ نعومة اظفاره ، وفيه نبت لحمه واشتد عظمه ، وبقي ملازما له ، حتى اطلع على جميع كنوزه واسراره ، وحتى اصبح علي صورة كاملة عن النبي ، وعن القرآن ، وحتى جاز له ان يقول: « ذاك القرآن الصامت ، وانا القرآن الناطق » • ان عظمة علي من عظمة محمد ، وعظمة محمد من عظمة الله سبحانه ، ومن انكر على علي تفوقه على عصره ، وسموه على مجتمعه فقد انكر ذلك على محمد والقرآن ، وعلى عيسى والانجيل ، وعلى موسى والتوراة •

ان قول علي : الارض متحركة ، وانها معلقة بالفضاء ، سابق للاكتشافات العلمية العصرية ، ما في ذلك ريب ، ولكن هذه الفكرة،وهذه

---

(١) منهاج البراعة ج ٤ ص ٧٩ طبعة دار الفكر بقم ، نقلا عن روضة الكافي .

الصورة عن الارض هي للغيب لا لعلي ، هي للذي سبق وجوده العقول والعلوم ، والكون بكامله ، وليس لعلي منها الا الاخبار عن النبي عن جبريل عن الله .

كان المسلمون في عصر الشريف الرضي يعتقدون بان الارض ساكنة، والشمس تدور حولها ، واخذوا ذلك عن اليونان ، وبصورة خاصة عن بطليموس ، ولم يكن احد في الشرق والغرب يرى ان الارض متحركة ، حتى ظهر « كوبرنيكوس » سنة ١٥٣٠ م ـ اذن ـ من أي مصدر استقى الشريف الرضي ما جاء في نهج البلاغة هذه الجملة « فسكنت الارض على حركتها » ؟.. ولو صح القول بأن نهج البلاغة من وضع الشريف لجاز لنا ان نقول : انه من وضع كوبرنيكوس البروسي .

والى هنا ندع الكلام في هذا الموضوع اتكالا على ما ذكرناه في كتاب الفضائل ، ونتمنى على القارىء الكريم ان يرجع اليه ، لان كلا منهما جزء متمم للآخر ، وغير بعيد ان نضيف اليهما اشياء اخرى في المستقبل القريب او البعيد ، لان طبيعة التطور كما تستدعي التغيير من الاساس فانها تقتضي ايضا التقليم والتطعيم .

ومن الخير ان نختم هذا الفصل بما ذكره الاستاذ فؤاد افرام البستاني رئيس الجامعة اللبنانية في العدد الاول من روائعه الخالدة الخاص بالامام ، قال : للامام علي .

أ ـ نهج البلاغة .

ب ـ الف كلمة

ذكرها ابن ابي الحديد في آخر شرحه لنهج البلاغة ـ طبعت وحدها في بيروت ، ١٣٢٩ هـ . (١٩١١) .

ج ـ نثر اللآلي .

مجموعــة حكم وامثال مرتبة على حروف الهجــاء ، عددها ٢٧٨ حكمــة .

د ـ غرر الحكم ودرر الكلم .

مجموعة حكم وامثــال ، جمعها ورتبهــا على حــروف الهجــاء عبد الواحد بن محمد بن عبد الواحد ، ذكر منها بالطبع ٥٣٧ حكمة .

هـ ـ بعض الامثال .

جمعها ابو الفضل احمد بن محمــد الميداني النيسابوري ، غــير مرتبة ، عددها ٤٨ مثلا ، ذُكر بعضها في « النهج » .

ـ ـ طفافة بعض الامثال .

ذكره شظاظا ورفعه الميدانــي المشهــور الى امير المؤمنين علي بن ابي طالب ـ عددها ١٧ مثلا مع شرحها للميداني .

وهذه الكتب الاربعة (ج، د، ه ، و) طبعها المستشرق كورنيليوس فان واينين Cornelius Van Waenen مع ترجمة وشروح لاتينية ، في مجلد واحد ، في اكسفورد سنة ١٨٠٦ بعنوان :

Sententiae Ali ebn Abi Talebi

وقد طبع منها « غرر الحكم ودرر الكلم » في مطبعة العرفــان ، صيدا ، سنة ١٣٤٩ هـ . (١٩٣٠) .

ز ـ دستور معالم الحكم ، ومأثور مكارم الشيم .

مجموعة خطب وحكم ، جمعها القاضي ابو عبدالله محمد بن سلامة القظاعي ـ طبع سنة ١٣٣٢ هـ. (١٩١٣) .

ح ـ كتاب المئة .

يحتوي على مائة كلمة اختارها امين نخلة من كلام علي ونُشرت في مطبعة العرفان ، صيدا ، سنة ١٣٤٩ هـ . (١٩٣٠) .

وقد نشر الاب لويس شيخو اليسوعي بعض حكم لعلي ، نقلا عن مخطوطة قديمة يرتقي عهدها الى سنة ٧٢٧ هـ . (١٣٢٧) ، في مجلة المشرق (٥ (١٩٠٢) ١٠) .

ونشر الشيخ احمد رضا خطبا ومواعظ واقوالا لعلي لم تنشر في « نهج البلاغة » او نشر بعضها ذنشر باقيها في مجلة العرفان (٨ (١٩٣٤) ١٠٨) .

وهناك كثير من خطب علي وأقواله ، متفرقة في كتب الادب « كالمخلاة » و « الكشكول » لبهاء الدين العاملي ، و « العقد الفريد » ، و « مروج الدهب » ، وغيرها .

هل كان الامام علي فيلسوفاً ؟

اذا جاز ان نطلق لقب فيلسوف على من يجمع مسائل الفلسفة ، ويرتبها ، وينظمها في كتاب مستقل ، أو على من يشرحها ، أو يعلّق عليها، أو يدرّسها لتلاميذه ، اذا جاز هذا فبالاحرى ان نطلق لقب سيد الفلاسفة [١] ومعلمهم الاول على الامام علي (ع) الذي سبق القرون والاجيال الى معرفة الكون واسراره •

وايضا اذا كان الفيلسوف هو الذي يعرف العالم ويعرفه للعالم فلسنا نعرف احدا أغزر علما ، وأعمق غورا ، وأصوب رأيا ، وأبعد صيتا، واوفر حظا بالاكبار بعد رسول الله من امير المؤمنين الذي قال في كل موقف ، وبشتى المناسبات « سلوني قبل ان تفقدوني » •

ان امره بسؤاله دون ان يحدد نوع المسؤول عنه بعلم خاص ، أو بباب خاص ، لدليل واضح على انه سيد الفلاسفة ، وامام الحكماء ، وانه العالم الاكبر بجميع العلوم ودقائقها واسرارها ، وانه صاحب ايضاحها وبيانها ، وانه بلغ فيها اقصى الغايات وابعدها من الآلهيات الى التفسير والقراءات الى الفقه والحديث والاخلاق والقضاء وفصل الخصومات ،

---

(١) نقول هذا على سبيل التجوز والتسامح ، لان كلمة فيلسوف ، وما يمت اليها بصلة انما تطلق على من يعرف الحقائق بالعقل والتجربة ، اما الامام الذي استمد علومه من الوحي بواسطة الرسول الاعظم (ص) فهو فوق الفلاسفة مجتمعين .

الى الفصاحة والبلاغة ، وسائر العلوم الادبية ، الى الرياضيات والطب ، والكيمياء ، الى المجادلة والمناظرة لاثبات الحق ، وافحام المعاندين والجاحدين .. واليك بعض الادلة والشواهد :

في الإلهيات :

سنعرض فيما يأتي من فصول الكتاب أقوال الامام في اثبات المبدأ الاول وصفاته ، وفي الوحي والنبوات ، والبعث والنشر ، والقضاء والقدر ، وما الى ذلك .. والغرض الذي نرمي اليه الآن هو بيان وجه الشبه بين منهج الامام ، ومنهج الفلاسفة المسلمين من الاعتماد على العقل ، والاستدلال بوجود اللازم والاثر على وجود الملزوم والمؤثر ، وبوجود احد الضدين على نفي ضده ، واستخراج النتائج من الاقيسة المنطقية ، فانه في أكثر كلامه يرتب القضايا ، ويؤلفها بلفظ واضح موجز، يحافظ فيها على الحد الاوسط ، تماما كما يفعل الفلاسفة وأهل المنطق .

من ذلك قوله في تمجيد الله والاستدلال على وجوده تعالى وقدمه: « الحمد لله الدالّ على وجوده بخلقه ، وبمحدَث خلقه على أزليته » .

وهذا استدلال بوجود الفعل على وجود الفاعل المعبر عنه باصطلاح الفلاسفة بالدليل الإني [1] . وقال : بصنع الله يستدل عليه ، وبالعقول تُعتقد معرفته ، وبالتفكير تثبت حجته ، معروف بالدلالات ، مشهور بالبينات .

وقوله في حدوث كلام الله : « لو كان قديما لكان إلها ثانيا » .

---

(١) ينقسم الاستدلال في عرف اهل المنطق الى قسمين : الاولالاستدلال اللمي ، وهو معرفة المعلول بواسطة العلة ، والثاني الاستدلال الاني ، وهو معرفة العلة بواسطة المعلول .

وهذا من باب القياس الاستثنائي ، وتتميم الكلام ، ولكنه ليس إلها ثانيا فهو ليس بقديم •

وقوله في ان الله غير قائم في محل : « وكل قائم في سواه معلول » • والله سبحانه غير معلول ، فهو اذن ــ غير قائم في شيء •

وقوله في نفي الصفات الزائدة على الذات : « من وصفه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه ، ومن عده فقد أبطل أزليته » •

أي من وصفه بصفات زائدة فقد حده وعرّفه بها ، وجعلها اجزاء له ، وعليه يكون واجب الوجود مركبا ، والمركب ممكن ، لافتقاره الى اجزائه ، وكل هذه اللوازم باطلة ، فالملزوم وهو زيادة الصفات على الذات باطل •• وهذي هي طريقة الفلاسفة بالذات ، الى غير ذلك من الاقيسة التي يستعملها أهل المنطق ، مثل قوله : اصدقاؤك ثلاثة ، واعداؤك ثلاثة : فاصدقاؤك صديقك ، وصديق صديقك ، وعدو عدوك •• واعداؤك عدوك ، وعدو صديقك ، وصديق عدوك •• ويرجع هذا الى قياس المساواة •

وانظر الى هذا الالزام المحكم مستدلا به على بطلان القياس ، « أما لو كان الدين بالقياس لكان باطن الرجلين أولى بالمسح من ظاهرهما » •

وهذا النوع من الجدل هو الذي يصطنعه الفلاسفة في النقض ، وابطال دعوى خصومهم • وبهذا يتبين معنا ان الامام هو الممثل الاول للنزعة العقلية في الاسلام ، والسابق الى الذب عنه بمنطق العقل ، وليس المعتزلة ــ كما قيل ــ فان المعتزلة ترسّموا خطاه ، وساروا على طريقه •

في الارض :

كان كثير من الناس يعتقدون ان الارض قائمة على قرن ثور، وقال

آخرون : انها عائمة على وجه الماء ، وانها مجوفة ، تماما كالسفينة .. وقال ثالث : ان للارض عمدا وقوائم ثابتة على جبـل قاف .. اما الامام فقد نطق بالحقيقة الناصعة التي نراها اليوم ضرورة اولية ، قال في بعض خطب النهج يوم لا علم ، ولا نظرية جاذبية [١] .

« وانشأ الارض فأمسكها من غير اشتغال ، وأرساها على غير قرار ، وأقامها بغير قوائم ، ورفعها بغير دعائم » .

وفي خطبة رواها الشيخ هادي كاشف الغطاء في المستدرك :

«ورفع السماء بغير عمد ، وبسط الارض على الهواء بغير اركان» .

ووصف في بعض خطب النهج ما يحيط بالارض من اجواء جعلـت طرقا للهواء الذي يحمل بخار الماء ، ويتحكم به مدا وجزرا :

« ثـم انشأ سبحانه فتق الاجـواء ، وشق الارجاء ، وسكائـك الهواء [٢] فأجرى فيها ماء متلاطما تياره ، متراكما زخاره على متن الريح العاصفة ، والزعزع القاصفة [٣] فأمرها برده ، وسلطها على شده » .

وهذا الكلام صريح بأن الهواء يحيط بالارض ، وان بينهـا وبين غيرها منطقة لا شيء فيها سوى الرياح والامطار والسحب والعواصف .

---

(١) نقل صدر المتألهين الشيرازي في تفسير قوله تعالى : « جعـل لكـم الارض فراشا » ، نقل ان بعض الفلاسفة قال : « ان الفلك يجذب الارض من جميع الجوانب على نسبة واحدة » والشيرازي المتوفى سنة ١٠٥٠ هـ متقدم على نيوتن الذي تنسب اليه نظرية الجاذبية بأكثر من مئتي سنة .

(٢) السكائك : جمع سكة ، وهي الطريق .

(٣) الزعزع : شديد الصوت .

وهذا عين ما جاء في الجزء الاول من كتاب «العلم في حياتنا اليومية» ص ٣٨ [1] .

« يحيط بالكرة الارضية غلاف من الهواء يسمى بالغـلاف الهوائي الجوي .. وينقسم المحيط الهوائي الى طبقات كبيرة بعضها فوق بعض ، وفي الطبقـة الاولى تحدث كل التغيرات الجويـة ، وتنشأ فيها الريـاح والامطار والسحب والعواصف » .

واذا لم يصرح الامام بأن الهواء طبقات بعضها فوق بعض فان قوله . سكائك الهواء ، أي طرقها يشعر بها ، ويمكن حمله عليها .

حركة الارض :

ألف الفيلسوف اليوناني بطليموس كتابا في سكون الارض ودورة الشمس عليها ، فشاع مذهبه ، وذاع ، واعتنقه فلاسفة الاسلام ، ونقلوه في كتبهم ، كالفارابي وابن سينا وغيرهما من العلماء والمفسرين والمحدثين، وساد هذا المذهب ، حتى ظهر « كوبرنيكوس » في القرن السادس عشر ، وأثبت ان الارض هي التي تدور حول الشمس ، فحكم عليه فـي مجمع كنيسة رومية بالزيغ والالحاد [2] ، اما الامام واحفـاد الامام فقد اعلنوا

---

(١) اعتمـدنا هذا الكتاب بالنظر لاهميته من الوجهة العلميـة ، فلقـد اشترك في تأليفه ثلاثـة من كبار علماء الغرب ، وهم : اوربـون ، وهيس ، ومنتجمري ، وترجمه اثنان : الدكتور احمد حماد الحسيني ، والدكتور صلاح الدين عبد السلام ، وراجعه الدكتور عبد الحليم منتصر ، ونشرتـه مكتبة النهضة المصرية بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين .

(٢) قال نصير الدين الطوسي المتوفى سنة ٦٧٢ هـ ، وبهاء الدين العاملي المتوفى سنة ١٣٠١ هـ ، قالا : (لا شيء يمنع من ان تكون الارض متحركة). الهيئة والاسلام للشهرستاني . واعجب من هذا ما نقله احمد امين المصري في كتاب يوم الاسلام ص ٨٩ طبعة ١٩٥٨ (ان الطوسي اسبق من اينشتين في فهم الزمنية) ، اي النظرية النسبية التي بني عليها تفتيت الذرة .

هذه الحقيقة قبل ان يخلق « كوبرنيكوس » بمئات السنين ، قال الامام في احدى خطب النهج يصف الارض :

«فسكنت على حركتها من ان تميد بأهلها ، أو تزول عن مواضعها» .

وفي خطبة ثانية : « وعدل حركتها بالراسيات من جلاميدها » .

وقال حفيده الامام الصادق كما جاء في احتجاج الطبرسي .

« ان الاشياء تدل على حدوثها ، من دوران الفلك بما فيه ، وهي سبعة افلاك ، وتحرك الارض ومن عليها ، وانقلاب الازمنة واختلاف الوقت » .

للارض حركات شتى ، انهاها بعض الفلكيين الى ١٤ حركة ، منها ما تستغرق ٢٦ الف سنة ، ومنها قرابة ثلاثة آلاف سنة ، ومنها تتم بـ ٢٤ ساعة ، وهي الحركة اليومية ، ومنها تتم بـ ٣٦٥ ، وهي الحركة السنوية واختلاف الفصول ، وهي الربيع والصيف والخريف والشتاء ، نتيجة الحركة السنوية ، واختلاف ساعات اليوم ، وهي الصبح ، والضحى ، والظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء والسحر ، نتيجة الحركة اليومية . واشارة الامام الى حركة الارض تشمل الجميع .

في الشمس :

جاء في احدى خطب النهج :

« وجعل شمسها آية مبصرة لنهارها ، وقمرها آية ممحوة من ليلها، واجراهما في مناقل مجراهما ، وقدر مسيرهما في مدارج درجهما ، ليميز بين الليل والنهار بهما ، وليعلم عدد السنين والحساب بمقاديرهما » .

قال الفلكيون الجدد : ان لكل من جرم الشمس والقمر حركة

خاصة به : كما ان للارض حركات تخصها ، وجاء في كتاب « الله والعلم الحديث » للاستاذ نوفل ص ١٧٠ أن « سيمون » العالم الفلكي الحجة قال :

« من اعظم الحقائق التي اكتشفها العقل البشري في كافة العصور هي حقيقة ان الشمس والكواكب السيارة واقمارها تجري في الفضاء نحو برج النسر » .

وحين أراد الامام المسير لبعض حروبه قال منجم : ان سرت في هذا الوقت لن تظفر بمرادك .

فقال الامام : ان النجوم لا تنفع ولا تضر ، وانما يهتدي بها المسافرون في بر او بحر .

خلق آخر :

سئل الامام الصادق الذي ينتهي علمه الى جده امير المؤمنين ، سئل :

ــ هل في السماء خلق ؟

قال ، اجل ، وفي الفضاء الذي بين سماء وسماء خلق (١) .

وقال الصادق في حديث آخر :

« ان لله عز وجل اثني عشر الف عالم كل عالم منهم اكبر من سبع سموات وسبع ارضين ، ما يرى عالم منهم ان لله عز وجل عالما غيرهم » .

والعارفون ــ اليوم ــ يعتقدون بأن في الكون عوالم لا يبلغها العدد

---

(١) البحار مجلد ١٤ ص ١١٣ طبعة ١٣٠٥ هـ .

والاحصاء ، وغير بعيد ان يكون قول الامام ١٢ الفا كناية عن الكثرة ، لا الحصر •

ونقل السيد الشهرستاني في كتاب « الهيئة والاسلام » ص ٢٧٨ طبعة ثانية عن المجلد الـ ١١ من مجلة الهلال المصرية ص ٧٨ ان هوف الاميركي ألقى خطابا أعرب فيه عن اعتقاده « بأن المريخ والزهرة [١] وعطارد آهلة بالناس ، وسائر الاحياء ، وان سكانها ارقى من سكان الارض بدنا وعقلا » •

ونقل الاستاذ نوفل في كتاب « القرآن والعلم الحديث » ص ١٧٧ طبعة اولى ، ان عالمين روسيين ، وهما اوبارين ، وفسنكوف ألفا كتابا عنوانه « الكون » قالا فيه : « ان هناك كثيرا من الكواكب مسكونة في هذا الكون » •

واذا استندت هذه الاقوال الى مجرد الاستنتاج فان العلم في المستقبل القريب او البعيد سيعبد الطريق للسفر عبر الفضاء من كوكب الى كوكب في اطباق طائرة ، ويجتمع ابناء ابينا آدم بأبناء عمومتهم في المريخ او عطارد •

وزن النور والظلمة والهواء :

نقل السيد هبة الدين الشهرستاني في كتاب « الهيئة والاسلام » عن الشيخ الحر العاملي في الصحيفة الثانية السجادية ، والسيد نعمة الله الجزائري في شرحه على تعليقات الصحيفة السجادية دعاء عن الامام زين العابدين (ع) جاء فيه :

---

(١) ان المعلومات التي تلقاها العلماء من صواريخ الفضاء دلت على ان درجة الحرارة على الزهرة تبلغ ٤٢٥ مئوية ، فالحياة عليها ــ اذن ــ محال.

« سبحانك تعلم وزن السموات ، سبحانك تعلم وزن الارضين ، سبحانك تعلم وزن الشمس والقمر ، سبحانك تعلم وزن النور والظلمة ، سبحانك تعلم وزن الفيء والهواء ، سبحانك تعلم وزن الريح كم هي من مثقال » .

وجاء في كتاب « العلم في حياتنا اليومية » ج ١ ص ٤١ و ٤٢ : « انفخ كرة قدم ، او كرة سلة بالهواء بواسطة منفاخ ، ثم ضعها على كفة ميزان ، وزنها ، ثم افرغها من الهواء ، وتأكد من اخراج كل الهواء منها ، ثم زنها ثانية .. فتعرف من هذه التجربة ان للهواء وزنا مهما » .

وفي كتاب «غدنا والذرة» تأليف «كوننت» ترجمة عفيف البعلبكي فصل « المشهد العلمي المتبدل » :

« ان القول بأن الضوء انما يبعث ، ويتسلم كما لو كان سيلا من الذرات ، وانه انما ينتقل كما لو كان مجموعة من الموجات ، ان هذا القول كان في نظر العلماء منذ اربعين سنة بمثابة القول ان صندوقا ما ممتلىء ، وفارغ في الوقت نفسه ، لقد كان من المستحيل على الضوء في اعتقادهم ان يكون جسميا وتمويجيا في وقت معا » .

أجل ، ان وزن الضوء كان محالا في نظر العلماء في اوائل القرن العشرين ، ولكنه بديهي عند آل الرسول منذ مئات السنين . أما وزن الفيء والظلمة فلم اطلع عليه في كتاب حديث ، ولا ادري : هل توصل اليه العلم اولا ، ولا بد ان يبلغه في يوم من الايام ..

الرياح والامطار :

وسأله سائل : ما الذاريات ذروا ؟ قال : الرياح . قال السائل : ما

الحاملات وقرا ؟ قال : السحاب . قال السائل : فالجاريات يسرا ؟ قال : السفن .

قال السائل : فالمقسمات امرا ؟ قال : الملائكة .

وقال : انما يكون السحاب ثقيل السير لامتلائه بالماء .

وسمع قائلا يقول : قوس قزح .

فقال الامام : لا تقولوا قوس قزح ، وقولوا : قوس الله ، وامان من الغرق .

أما وصف الامام الارض والسماء ، ونظام الكون واسراره وعجائب مخلوقاته ، كالطاووس والخفاش والنملة والنحلة والغراب والجرادة وما الى ذلك فان فيه من الصدق والعمق ، ودقة التصوير وبلاغة التعبير ما يرفعه فوق الفلاسفة والعلماء والادباء مجتمعين .

في الانسان :

قال مشيرا الى الادوار التي يمر بها الانسان : « ام هذا الذي أنشأه في ظلمات الارحام ، وشغف الاستار نطفة دهاقا ، وعلقة محاقا ، وجنينا وراضعا ، ووليدا يافعا ، ثم منحه قلبا حافظا ولسانا لافظا ، وبصرا لاحظا ، ليفهم معتبرا ، ويقصر مزدجرا » .

وقال : « علق بنياط [1] هذا الانسان بضعة هي اعجب منه ، وذلك القلب ، وله مواد من الحكمة واضداد من خلافها ، فان سنح له الرجاء اذله الطمع وان ، هاج به الطمع اهلكه الحرص ، وان ملكه اليأس قتله الاسف ، وان عرض له الغضب اشتد به الغيظ ، وان اسعده الرضى نسي

(١) النياط عرق متصل بالقلب .

التحفظ ، وان ناله الخوف شغله الحذر ، وان اتسع له الامن استلبته الغيرة ، وان افاد مالا اطغاه الغنى ، وان اصابته مصيبة فضحه الجزع ، وان عضته الفاقة شغله البلاء ، وان جهده الجوع قعد به الضعف ، وان افرط به الشبع كظته البطنة ، فكل تقصير به مضر ، وكل افراط له مفسد » [1] .

والقلب اول عضو يتحرك في بدن الانسان ، وآخر ما يسكن فيه ، وبسكونه تنتهي حياة صاحبه ، وله خواص وصفات متضاربة متناقضة ، شيطانية وانسانية ، وبهذه الخواص يختلف عما عداه من المخلوقات ، حيث لا نعرف شيئا واحدا تختلف آثاره وتتباين بالكنه والحقيقة ، كما هي الحال بالقياس الى القلب الذي يجمع بين بواعث الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ، ومن هنا كان الموقف بين هذه الدواعي والبواعث من احرج المواقف واخطرها ، لا يثبت فيه الا الحكيم العاقل الذي يستطيع الصمود ، والوقوف موقفا وسطا لا تقصير فيه ولا افراط .

وقال الامام مشيرا الى ضعف الانسان : ما لابن آدم والفخر ؟ أوله نطفة ، وآخره جيفة ، لا يرزق نفسه ، ولا يدفع حتفه .

وقال ايضا : مسكين ابن آدم ، مكتوم الاجل ، مكنون العلل ، محفوظ العمل ، تولمه البقة ، وتقتله الشرقة ، وتنتنه العرقة .

وقال مشيرا الى عظمة الانسان ومقدرته : « الانسان يشارك السبع

---

(١) وقد عبر عن هذا المعنى الاديب الفرنسي المعاصر (هنري لوفيفر) عبر عنه باسلوب آخر ، حيث قال : ان الانسان مجموعة من المتناقضات تماما كالمجتمع الذي يعيش فيه ، ويجب ان يحلل التركيب الفردي المتناقض ، كما يحلل المجتمع المتناقض الذي يعيش فيه الفرد . وقال بسكال : ان الانسان مخلوق شاذ غريب الخلقة لا سبيل الى فهمه .

الشداد » أي ان موهبته لا تقف عند حد الوضع الذي هو فيه •• بل تتعداه الى ما هو اسمى وارفع ، بل والى مشاركة القمر والزهرة والمريخ• وسائر الكواكب ، يسخرها لحاجاته واغراضه ••

اشار الامام الى ضعف الانسان ، كي لا يركن الى قوته ويغتر بها فيطغى ، واشار الى قوته ، كي لا يستسلم للضعف ان اصابه ، فينصرف عن الجهاد والعمل •• والعاقل من يناضل وهو على حذر من المخبآت والمفاجآت •

في الطب :

ومن اقواله في الطب : « امش بدائك ما مشى معك » أي اجتنب الدواء ما احتمل بدنك الداء ، فاذا لم يحتمل فعليك بالدواء • وقد أيد الطب الحديث هذه النظرية •

ومن وصيته لولده الامام الحسن : لا تجلس على الطعام الا وانت جائع ، ولا تقم عنه الا وانت تشتهيه ، وجوّد المضغ ، واذا نمت فاعرض نفسك على الخلاء •

فجلوسك على الطعام ، وانت تشتهيه معناه ان الطعام السابق قد هضم ، اما قيامك عنه ، وانت تشتهيه فالغاية منه عدم اضطراب المعدة وراحتها ، لتسهل عليها عملية الهضم ، أما تجويد المضغ فقد أوصى به جميع الاطباء قال الطبيب « اس• سلمون » في كتاب « الصحة والحياة ص ٢٩ طبعة ١٩٣٢ » : « لكي يتسنى للمعدة ان تقوم بوظيفتها جيدا ينبغي ان يطبخ الطعام ، ويمضغه مضغا تاما » • وقال الطبيبان الكيال والصواف في كتاب « علم التشريح » ص ٢٠٤ طبعة ١٩٤٧ :

« ان المضغ الجيد يسهل الاغذية ، اذ نعرف جيدا ان المضغ الناقص يحدث كثيرا من الآفات المعدية المعوية ، وسوء الهضم » .

وقال الامام : استجادة الحذاء وقاية للبدن .

وجاء في كتاب « جسم الانسان » للكيال والصواف والفرا ص ١٨٣ طبعة ١٩٤٥ : « وأهم شرط صحي في الحذاء ان لا يضغط على ناحية من نواحي القدم ، فتشوهها ، وتكوّن بعض الحؤلات الجلدية ، وان لا يكون ضيقا تتراكب الاصابع فيه » .

وقال الامام : انظروا من يرضع اولادكم اللبن ، فان الولد يشب عليه ، وما من لبن اعظم بركة على الصبي من لبن امه .

ولا يختلف طبيبان في ان لبن الام افضل الاغذية اطلاقا لوليدها ، وجاء في آخر صفحة من كتاب « علم وظائف الاعضاء » للطبيبين محمد طلعت ، واحمد حسن : « فالام التي تهمل ارضاع وليدها ترتكب في حق صحته خيانة لا تغتفر ، لانها تقدم اليه طعاما غير طبيعي بدلا من الطعام الذي يقدمه اليه الله سبحانه » .

وفي كتاب « الصحة والحياة » اذا تعذر على الام ارضاع طفلها بسبب مرض قد انتابها بعد الولادة ، فيحسن بها ان تعهد به الى حاضنة او مرضعة ، ويشرط في اختيارها ان تكون سليمة البنية خالية من الامراض المعدية .

وقال الامام : الحمى رائد الموت .

اشارة الى ارتفاع وجود الخطر عند ارتفاع درجة الحرارة .

وقال : اكسروا الحمى بالبنفسج والماء البارد .

قال الدكتور شريف عسيران في كتاب « علم الصحة » ج ١ ص ٢١٠

طبعة اولى عند كلامه على حمى التيفوس : « انها تعالج بالنظافة ، والهواء النقي ، ومسح جسم المريض بالماء البارد ، وحين ارتفاع الحرارة فوق الاربعين يلف المريض بشرشف مبلل بالماء البارد » .

وقال الامام : العقل في الدماغ ، والضحك في الكبد ، والرأفة في الطحال ، والصوت في الرئة .

والذي يلفت النظر ان الامام جعل للدماغ وظيفة تخصه ، كما ان للعين والاذن وبقية الاعضاء وظائف تخصها . وقد جاء في كتاب « علم التشريح » ص ١٢٢ : « المخ مقر الفكر والذكاء والارادة » .

وفي كتاب « الحكماء السبعة » تأليف « فان وسب » ص ١٨١ : ان العالم الانكليزي بل ، والفرنسي ماجندي ، والجرماني موللر اكتشفوا نوعين من الاعصاب : اعصاب الحس ، واعصاب الحركة ، فالرسالة التي تنقلها اعصاب الحس الى الدماغ ، يحيلها الدماغ بدوره الى العضلات المختصة بتأدية العمل بواسطة الحركة .

وقال له رجل : ان زوجتي شابة ، وهي عذراء ، ولكنها حامل في شهرها التاسع ، ولا اعلم منها الا خيرا ، وأنا شيخ كبير ما افترعتها (١) وانها على حالها .

قال له الامام : هل كنت تهريق على فرجها ؟.

قال : نعم .

قال الامام : لكل فرج ثقبين : ثقب يدخل فيه ماء الرجل ، وثقب يخرج منه البول ، والرحم تحت الثقب الذي يدخل منه ماء الرجل ، فاذا

---

(١) افترع البكر ازال بكارتها .

دخله ماء واحد حملت المرأة بولد واحد ، واذا دخل اثنين حملت باثنين ، واذا دخل ثلاث حملت بثلاثة ، واذا دخل اربعة حملت بأربعة ، وليس هناك غير ذلك ، وقد ألحقت بك ولدها [1] .

● يعيش الحمل لستة اشهر ، ولسبعة اشهر ، وتسعة اشهر ، ولا يعيش لثمانية اشهر .

● ينتهي طول الصبي لاحدى وعشرين سنة ، وينتهي عقله لثمان وعشرين الا التجارب .

● من أراد البقاء ولا بقاء فليباكر بالغداء ويقلل غشيان النساء .

● كم أكلة منعت أكلات ؟

● اعجبوا لهذا الانسان ينظر بشحم ، ويتكلم بلحم ، ويسمع بعظم، ويتنفس من خرم !.

● لا تميتوا القلب بكثرة الطعام والشراب ، فان القلب يموت كالزرع اذا كثر عليه الماء .

وقال بعض العارفين : « ان للامام علي أربع كلمات في الطب لو قالها بقراط لكان لها شأن أي شأن ، وهي : توقوا البرد في أوله ، وتلقوه في آخره ، فانه يفعل بالابدان كما يفعل بالاشجار ، أوله يحرق ، وآخره يورق » .

وتحاكمت اليه امرأتان ، ولدت احداهما ذكرا ، والثانية انثى في آن واحد في بيت واحد ، وادعت كل منهما انها ام الغلام ، فدفع الى احداهما قدحا ، وقال لها : احلبي فيه من ثديك ، حتى يمتلىء ، ففعلت كما أمرها،

(١) البحار للمجلسي مجلد السماء والعالم ص ٣٨١ . قال لي الدكتور فؤاد اديب خليفة : ان الحمل باربعة حصل كثيرا .

فوزن الحليب ، وافرغ القدح ، واعطاه للاخرى ، وأمرها كما أمر الاولى، ثم وزنه ، فكان احـد الحليبين اخف مـن الآخر ، فقال لصاحبـة اللبن الخفيف : خذي ابنتك ، ولصاحبة اللبن الثقيل : خذي ابنك .

وفي الجزء الاول من كتاب « علم وظائف الاعضاء » ص ٣٧٦ « ان الالبان تختلف باختلاف الصغار » أي المرتضعين ، وغير بعيد ؟ ان يكون ثقل حليب الذكر ، وخفة حليب الانثى هما السبب في انه اقوى منها بدنا واثبت جنانا .

في الرياضيات :

جلس رجلان يتغديان ، وكان مع احدهما خمسة أرغفة ، ومع الآخر ثلاثة ، فمر بهما رجل ، فقالا له : اجلس معنا للغداء . فأكل معهما ، ولما انتهى طرح ثمانية دراهم ، وقال : هذي عوضا عما أكلت .

قال صاحب الارغفة الخمسة لصاحبه : لي خمسة دراهم ، ولـك ثلاثة .

قال صاحب الثلاثة : لا ارضى الا ان تكون الدراهم بيننا نصفين .

ولما اشتد بينهما الخلاف تحاكما الى الامام ، وقصّا عليه القصة . فقالَ لصاحب الثلاثة : ارض بالثلاثة . فقال : لا والله الا بمر الحق .

فقال الامام : ليس لك بمر الحق الا درهم واحد .

قال صاحب الثلاثة : وكيف ؟

قال الامام : لك ثلاثة ارغفة ، ولصاحبك خمسة ، فالمجموع ثمانية تقسم الى ٢٤ ثلثا ، لك من هذه الاربعة والعشرين ٩ أثلاث ولصاحبـك ١٥ ثلثا ، وقد اكلت انت ٨ اثلاث فذهب منك ثلث واحد لا غير ، واكل

صاحبك ايضا ٨ أثلاث فذهب منه ٧ ، واكل الرجل الثالث ٨ دفع عوضها ٨ دراهم عن كل ثلث درهما ، فيكون لك درهم واحد عوضا عن ثلثك الواحد ، ولصاحب الارغفة الخمسة ٧ دراهم عوضا عن اثلاثه السبعة . وهذا هو مر الحق الذي تطلبه ، فرضي بالدرهم بعد ان رفض الثلاثة .

وجاءته امرأة ، وقالت : يا امير المؤمنين ان اخي مات ، وترك ستمئة دينار ، وقد دفعوا الي دينارا واحدا ، فأسألك انصافي .

فقال لها على البديهة : لعل اخاك ترك بنتين ، لهما الثلثان ٤٠٠ واما لها السدس ١٠٠ ، وزوجة لها الثمن ٧٥،١٢ و١٢ أخا لهم ٢٤ لكل واحد ديناران ولك درهم واحد .

فقالت : نعم [١] .

وله في هذا الباب الشيء الكثير تجده في كتاب « عجائب احكام امير المؤمنين » للسيد محسن الامين وفي آخر الجزء الثاني من كتاب « التكامل في الاسلام » لاحمد امين العراقي .

في الكيمياء :

جاء في الجزء الثاني من كتاب « منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة » ان الامام سئل عن الكيمياء ، فقال : ماء جامد ، وهواء راكد ، ونار جائلة وأرض سائلة . وسئل ثانية من اي شيء هي ؟ فقال : من الزئبق والاسرب والزاج والحديد وزنجار النحاس الاخضر [٢] .

---

(١) هذا التقسيم يصح على مذهب السنة القائلين بالتعصيب ، اما على مذهب الشيعة فلا ، لانهم لا يورثون الاخوة مع البنات ، ولا مع الام ؛ وفي هذه المسألة يعطون الثمن للزوجة ، والسدس للام ، والباقي للبنتين .

(٢) الاسرب الرصاص ، والزاج نوع من الملح .

وفي كتاب « عجائب الكيمياء » تأليف « اوت مكدوجل » ترجمة الدكتورين احمد رياض ويوسف صلاح الدين ، ان هذه الاشيـاء هي الاجسام الاولية ، والمواد الخام للكيمياء .

وقال الدكتور زكي نجيب محمـود في كتاب « جابر بن حيـان » الكيموي العالم صفحة ٤٦ : « نجد جابر بن حيان يصرح في اكثر مـن موضع ان مصدر علمه هو النبي وعلي بن أبي طالب وجعفر الصادق، وما بين هؤلاء جميعا من ابناء الاسرة الشريفة . فهو يقول : تأخذ من كتبي علم النبي وعلي وسيدي وما بينهم من أولاد منقولا نقلا مما كان وهـو كائن ، وما يكون من بعد الى ان تقوم الساعة » .

ومهما شككنا فانا لا نشك في ان جابر بن حيان هو كيموي العرب الاول ، وانه تلميذ الامام جعفر الصادق حفيـد الامام علي ، وان لجابر في هذا العلم اكثر من ٢٠٠ كتاب ، وان الكثير منها قد ترجم الى اللاتينية والالمانية ، وان الغرب قد استفاد منها الشيء الكثير .. ويصرح جـابر ويقسم بأنه لا كثير له ولا قليل من علم الكيمياء الا النقل عن الامام وابناء الامـام .

في النحـو :

اتفق العلماء على ان الامام هو الواضـع الاول لعلم النحو ، فعن أبي القاسم الزجاجي في أماليه عن ابي الاسود الدؤلي انه قال:«ألقى الامام الي صحيفة فيها بسم الله الرحمن الرحيم : الكلام اسم وفعـل وحرف ، والاسم ما انبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى ، والحرف ما انبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل .. واعـلم يا أبا الاسود ان الاشيـاء ثلاثة : ظاهر ومضمر ، وشيء ليس بظاهر ولا مضمر »[1] .

---

(١) قيل ان ما ليس بظاهر ولا مضمر هو اسم الاشارة . والصحيح انه الكلام المحذوف كقوله تعالى : و « جاء ربك » والمراد جاء امر ربك ، امـا اسم الاشارة فيعد من الظاهر .

في الاخلاق :

سنتكلم بشيء من التفصيل عن الاخلاق عند الامام ونكتفي هنا بالاشارة الى ما يراه من ان اخلاق الناس تتكيف وتختلف باختلاف البلاد والاوطان ، وهذا يتفق تماما مع النظرية القائلة بأن دراسة أي انسان دراسة حقة تستدعي دراسة بيئته وطبيعة الارض التي عاش فيها ، لانها تؤثر تأثيرا فعالا في اخلاقه وسيرته ، وتولد فيه شعورا خاصا يتجه به اتجاها معينا ، ومهما تباينت اخلاق سكان الارض الواحدة يظل بينهم قدر جامع ، وقاسم مشترك •

قال الامام : « انما فرق بينهم مبادىء وطنهم ، وذلك انهم كانوا فلقة من سبخ ارض وعذبها ، وحزن تربة وسهلها ، فهم على حسب قرب ارضهم يتقاربون ، وعلى قدر اختلافها يتفاوتون » •

في العلم والعلماء :

قال في تصنيف العلوم في زمانه ، وبيان موضوعاتها : الفقه للاديان، والطب للابدان ، والنحو للسان ، والنجوم لمعرفة الزمان •

أما العلماء فقسمهم الى ثلاثة اصناف :

١ ـ تعلم العلم للمراء والجدال •
٢ ـ تعلمه للاستطالة والحيل •
٣ ـ تعلمه للفقه والعمل •

أما الاول فانك تراه مماريا للرجال في اندية المقال ، قد تسربل بالتخشع ، وتخلى عن الورع ، فدق الله حيزومه ، وقطع منه خيشومه •

وأما الثاني فانه يستطيل على اشباهه من اشكاله ، ويتواضع للاغنياء

من دونهم ، فهو لحلوائهم هاضم ، ولدينه حاطم [1] فأعمى اللــه بصره ، ومحى من العلماء اثره .

وأما الثالث فتراه ذا كآبة وحزن ، قام الليل في حندسه ، وانحنى في برنسه ، يعمل ويخشى ، فشد الله اركانه ، واعطاه يوم القيامة امانه .

واقوال الامام في هذا الباب لا يبلغها الاحصاء ، والنية على ان نعقد لها فصلا مستقلا في هذا الكتاب ، كما سنعقد ان شاء الله فصولا لاقواله ونظرياتــه التي تتصل بالإلهــيات ، والامور الاخلاقيــة والسياسيــة والاجتماعية ... ولا غرض لنا من الامثلة التي ذكرناها في هذا الفصل سوى الاشارة الى ان الامام نظر الى الحياة واشيائها نظرة عامة شاملة ، تتحرى الاسباب والبواعث ، تماما كما ينظر اليها الفلاسفة ، على انه من الصعوبة بمكان تعداد جميع الجهات التي اشتمل عليها كلام الامام .

ويكفي للتدليل على ان عليا كان امام الفلاسفة ، ومرجعهم الاول ، ان كل فيلسوف مسلم يدعي انه اشار الى وجهة نظره .

قال الاستاذ العقاد في كتاب « عبقرية الامام » :

« ينفرد علي بخاصة لا يجاريه فيها امام غيره ، وهي اتصاله بكــل مذهب من مذاهب الفرق الاسلامية ، منذ وجدت في صدر الاسلام ، فهو منشيء هذه الفرق ، أو قطبها الذي تدور عليه ، وندرت فرقة في الاسلام لم يكن علي معلما لها منذ نشأتها ، أو لم يكن موضوعا لها ، ومحــورا

---

(١) ولا شيء ابلغ واوجز من وصفه لعالم السوء الذي آثر دنيــاه عــلى آخرته من قوله ، عليه افضل الصلاة والسلام : فهو لحلواء الاغنياء هاضم ، ولدينه حاطم .. وفي الوقت نفسه يستطيل على العلماء والفضلاء .. اعمى الله بصره ، ومحى من بين العلماء اثره .

لمباحثها ، تقول فيه ، وترد على القائلين . وقد اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الكلام والتوحيد ، كما اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الفقه والشريعة ، وعلماء الادب والبلاغة ، فهو استاذ هؤلاء جميعا بالسند الموصول » .

وقال ايضا :

« تبقى للامام الهداية الاولى في التوحيد الاسلامي ، والقضاء الاسلامي ، والفقه الاسلامي ، وعلم النحو العربي ، وفن الكتابة العربية، مما يجوز لنا أن نسميه اساسا صالحا لموسوعة المعارف الاسلامية في جميع العصور ، او يجوز لنا ان نسميه موسوعة المعارف الاسلامية كلها في الصدر الاول من الاسلام ، وتبقى له مع هذا فرائد الحكمة التي تسجل له ثقافة الامم عامة ، كما تسجل له في ثقافة الامة الاسلامية على تباين العصور » .

نظرية المعرفة عند الامام

هل المعرفة عند الامام مجرد صورة الشيء الحاصلة عند العقل ، سواء أأدت الى العمل ، او لا ، فمن علم ولم يعمل يقال له عالم ، لانجانب الاداء لم يؤخذ في مفهوم العلم ، او ان العمل جزء مقوم للمعرفة بحيث لا تتحقق اذا لم تقترن به : وتؤدي اليه ؟.

ثم ما هو مصدر المعرفة ؟ هل الحس والتجربة فقط ، او العقل فقط ، او هما معا ، او هما والوحي ؟ وبالتالي ، هل الحدس الصوفي من اسباب المعرفة عند الامام ؟.

طبيعة المعرفة :

قال الواقعيون ــ وهم الذين يؤمنون بوجود عالم مستقل عن الانسان وتفكيره ــ قالوا : « ان المعرفة بطبيعتها هي نفس الصورة الذهنية عن الشيء الموجود ، والفكرة الصحيحة المطابقة له ، ولا دخل للسلوك والعمل في معنى المعرفة » .

وقال المثاليون ــ وهم الذين لا يعترفون بوجود شيء خارج العقل ــ قالوا : « ان معرفة الشيء ووجوده شيء واحد ، وليس هناك اثنان ــ موجود في الخارج ، وصورة عقلية عنه ، بل كل ما في الوجود هو نفس الصورة العقلية ، ولا شيء سواها » .

وقال العمليون ـ المعبر عنهم في العصر الحديث بالبريجماتيين ـ ان المعرفة هي اداة للعمل ، فاية فكرة لا يترتب عليها محسوس فهي وهم، وليست بمعرفة سواء أطابقت الواقع ، او خالفته » . وعليه يكون العمل جزءا مقوما لطبيعة المعرفة عند هؤلاء . وبكلمة ان مقياس صواب الفكرة عند الواقعيين ان تحيا في الذهن مطابقة للواقع ، وان لم تخرج الى حيز العمل ، وعند البرجماتيين ان تكون بمثابة الجزء الاخير للعلة التامة التي لا ينفك عنها العمل بحال .

واشهر الفلاسفة الذين ناصروا هذه الفكرة ، واوضحوها هما الفيلسوفان الاميركيان وليم جميس (ت ١٩١٠) وجون ديوي (ت ١٩٥٢) وقد شاعت هذه الفكرة ، وعدت مع الاكتشافات الحديثة التي تعبر عن حضارة القرن العشرين [١] .

عند الامام :

اما رأي الامام فوسط بين الواقعيين ، وبين البرجماتيين ، لانه قائم على اساس تقسيم المعرفة الى قسمين : معرفة وضيعة لا خير فيها ، وهي التي لا يترتب على وجودها أي أثر ، ومعرفة رفيعة وهي التي تنتج الخير والصلاح ، قال : « أوضع العلم ما وقف على اللسان ، وارفعه ما ظهر في الجوارح والاركان » . وقال : « لا خير في علم لا ينفع » .

وهذا هو الحق الذي تشهد له البديهة والوجدان لانه بعد ان افترضنا وجود عالم مستقل عن الانسان ، ووجود صورة مطابقة للشيء الموجود ، فلا يجوز بحال ان تتجاهل هذه الصورة المتحققة في نفس الامر، اجل ، انها موجودة ما في ذلك ريب ، ولكن لا خير فيها ، تماما كوجود

---

(١) انظر كتاب « الحكماء السبعة » تأليف « فان وسب » سيرة وليم جميس ، وجون ديوي ، ومجلة العربي عدد حزيران ١٩٦٣ .

الكتاب الذي لا يفتحه قارىء ، والقلم الذي لا يكتب به كاتب ، فكل من الكتاب والقلم موجودان بالفعل ، ولكن وجودهما اشبه بعدمهما ، لا انهما غير موجودين من الاساس .

أجل ، ان الصورة عن الشيء الحاصلة في العقل تذهب مع الريح اذا تركت واهملت ، ويصبح صاحبها جاهلا بعد ان كان عالما ، كما لمسنا ذلك في كثير من خريجي الجامعات ، وهو المراد من قول الامام : « العلم مقرون بالعمل ، فمن علم عمل ، والعلم يهتف بالعمل ، فان أجابه والا ارتحل » .

مصدر المعرفة :

اختلف الفلاسفة منذ القديم ، وما زالوا مختلفين فيما بينهم في ان هذه الكائنات الموجودة : هل هي بكاملها روحية لا تمت الى المادة بسبب ، حتى الشمس والقمر والارض وغيرها فانها مظهر من مظاهر الروح ، او هي بكاملها مادية ، وما يخيل الينا انه روح يستقل في حقيقته عن المادة ، ان هو الا مظهر من مظاهرها ، فالمادة اصل ، والروح فرع ، او ان لكل من الروح والمادة وجودا مستقلا ، وطبيعة متميزة عن الاخرى؟.. ذهب الى كل فريق .

وطبيعي ان يحصر الروحيون سبب المعرفة بالعقل وحده ، اذ لا وجود عندهم للمادة ، لتكون المشاهدة والتجربة طريقا لمعرفتها ، وايضا من الطبيعي ان ينحصر سبب المعرفة عند الماديين بالمشاهدة والتجربة فقط، حيث لا وجود مستقل للعقل عن المادة ، يدرك به نفسه ، وما حوله من الاشياء ، وبالتالي يكون سببا مستقلا من اسباب العلم والمعرفة ، كما انه من الطبيعي عند الثنوية القائلين باصالة الروح والمادة ان يكون كل من العقل والمشاهدة وسيلة للمعرفة .

فالبحث العلمي عند الروحيين يبدأ وينتهي بالعقل ، وبه وحده تفسر الحقائق ، وعند الماديين يحدد بالمشاهدة والتجربة ، وعند الثنوية بهما معا .

أما أهل الاديان ، وفي طليعتهم الامام فانهم يؤمنون بمبادىء ثلاثة للوجود : الله ، والروح ، والمادة ، وكل واحد منها مستقل ، ومتميز عن الآخر ، رغم تعلق الروح بالمادة ، وافتقارهما الى الله الموجود بالذات ، وعليه فان طرق المعرفة عند الامام تتعدد بتعدد الموجودات الثلاثة ، كل في حدوده ، وضمن دائرته ، فطريق المعرفة الى اشياء الطبيعة التي نلمسها بالمشاهدة والتجربة ، والطريق الى معرفة ما وراء الطبيعة العقل ، ومتى اثبتناه بالعقل استطعنا ان نعتمد الوحي كسبيل الى معرفة الامور الدينية.

استدل الامام على وجود الله بوجود الارض والسماء ، وما فيهما من التدبير المتقن ، والنظام المحكم ، ومعنى هذا انه يؤمن بالوجود الموضوعي للكون الذي يدرك بالخبرة الحسية ، ويؤمن بالعقل الذي يدرك ما وراء الكون بالاستنتاج ، والانتقال من المعلوم الى المجهول ، ويؤمن بالله خالق الكون والعقل والحواس .

ومتى تأكدنا من ايمان الامام بهذه المبادىء الثلاثة ادركنا ما هي نظرية المعرفة عنده . وان شأن الحواس ان تدرك الظواهر والجزئيات فقط ، وشأن العقل ان يستكشف ما يكمن وراء هذه الظواهر عن طريق الخبرة الحسية ، وبالوحي ندرك ما تعجز الحواس عن مشاهدته، والعقل عن معرفته واستنتاجه ، حيث لا توجد وسيلة للمشاهدة ولا للاستنتاج ، فعلينا ان نميز بين كل واحد من هذه الاسباب الثلاثة ونضعه في مكانه فلا نثبت او ننفي بالحس ما وراء المادة ، او نستند الى العقل فيما يعجز عن اكتشافه ، أما الوحي فانه يحيط بكل شيء علما .

بقي سؤال ، وهو هل يعتبر الامام الحدس والاتصال المباشر وسيلة من وسائل الادراك التي يركن اليها ، كما هي الحال عند المتصوفة ؟

ويتضح الجواب عن هذا السؤال في الفصل التالي الذي نتحدث فيه عن التصوف •

مكان العقل :

ومن الخير ان نشير بهذه المناسبة الى سلطان العقل ومكانته عند الامام •• مع العلم بأنه ليس في كلامه ما يشعر بتقسيم العقول الى عشرة، ولا بأن النفس العاقلة واحدة في جميع البشر ، أو متعددة بتعدد الافراد ، كما جاء في كلام الفلاسفة وبحوثهم • أجل ، انه قسم العقل الى فطري ، وهو علم الضروريات ، والاستعداد لتفهم النظريات ، والى مستفاد، وهو الذي ينمو بالدراسة والتجربة ، قال :

رأيت العقل عقلين — فمسموع ومطبوع
ولا ينفع مطبوع — اذا لم يك مسموع
كما لا تنفع الشمس — وضوء العين ممنوع

وأراد بهذا القول الترغيب في العلم وطلبه ، وان العقل يزكو بالمعارف واكتساب الخبرات ، وان الفطرة بمجردها لا تجدي نفعا •• ومن اقواله في مدح العقل :

« لا غنى كالعقل ، ولا فقر كالجهل •• لا عدة انفع من العقل ، ولا عدو أضر من الجهل •• كفاك من عقلك ما اوضح لك سبيل غيك من رشدك » •

وقيل له : صف العاقل •

فقال : هو الذي يضع الاشياء في مواضعها •

فقالوا : صف لنا الجاهل •

قال : قد فعلت •

وحين عزم على المسير الى الخوارج قال له بعض اصحابه : يا امير المؤمنين ان سرت في هذا الوقت خشيت ان لا تظفر بمرادك من طريق علم النجوم •

فقال : تزعم انك تهدي الى الساعة التي من سار فيها صرف عنه السوء ، وتخوف الساعة التي من سار فيها حاق به الضر ؟•• من صدق بهدا فقد كذب القرآن •

الى ان قال : ايها الناس اياكم وتعلم النجوم الا ما يهتدى به في بر او بحر ، فانها تدعو الى الكهانة •• المنجم كالكاهن ، والكاهن كالساحر ، والساحر كالكافر والكافر في النار •

وقال دع ما يريبك الى ما لا يريبك • اي لا تعتمد الا على الجزم واليقين •

وقال : العقول أئمة الافكار ، والافكار أئمة القلوب ، والقلوب أئمة الحواس ، والحواس أئمة الاعضاء [1] •

وهو يرى ان العين اصدق من السمع ، وان العقل اصدق من العين، فقد سئل عن الفرق بين الحق والباطل ، فقال : « اما انه ليس بين الحق والباطل الا اربع اصابع » فسئل عن معنى قوله هذا ؟ فجمع اصابعه الاربع،

(١) شرحنا هذه الجملة شرحا مفصلا في كتاب (علي والقرآن) .

ووضعها بين اذنه وعينه ، وقال : « ان الباطل ان تقول : سمعت . والحق ان تقول : رأيت » اي ان ما تسمعه يحتاج الى الشاهد والدليل ، اما ما تراه فهو دليل بنفسه .

وقال قد تكذب العيون اهلها ، ولا يغش العقل من انتصحه .

وهذا عين ما قاله الجاحظ فيما بعد : فلا تذهب الى ما تريك العين، واذهب الى ما يريك العقل . وما قاله الغزالي في كتاب « المنقذ من الضلال » : من اين الثقة بالمحسوسات ، واقواها حاسة البصر ، وهي ترى الظل واقفا ، مع انه متحرك ، وترى الكوكب في مقدار الدينار ، مع انه اكبر من الارض . وما قاله العقليون : ان الحواس يحتمل فيها الخطأ، وانها تخدع صاحبها ، فتنقل اليه الشيء على غير صورته الحقيقية ، فكم مرة رأى المسافر عبر الصحراء ما ظنه ماء ، وهو سراب ، ورأت العين ما ظنه الرائي رجلا ، وهو ليس برجل .

وكفى شاهدا على عظمة العقل وخطره عند الامام قوله : عالم ينتفع بعلمه افضل من عبادة سبعين الف عابد وزاهد . وقوله : لو جعلت الدنيا لقمة لطالب العلم لكانت قليلة في حقه ، ولو اخذ الجاهل لقمة واحدة من الدنيا لكانت كثيرة في حقه .

وما اشاد الامام بالعقل والعلم هذه الاشادة ، ومجّده هذا التمجيد الا لانه السبيل الى سعادة الدارين .. وبديهة ان الغرب لم يسبق الشرق، ويسيطر عليه ، وعلى مقدراته ، لان لديه من الكنائس والقلانس اكثر مما عندنا من المساجد والعمائم ، ولا لان نسخ الانجيل المطبوعة تفوق نسخ القرآن .. وانما سبق وتقدم بالعقل والعلم .. ومن هنا كان فضل العلم والعقل عند الامام اعظم من الزهد والعبادة .

الف باب من العلم :

قال الامام : « ان رسول الله علمني الف باب من العلم يفتح لي كل باب الف باب » .

وهذا القول محل للتساؤل ، ومظنة للريبة عند كثيرين. كيف يكون العلم الواحد ، او الباب الواحد من العلم مفتاحا لكثير من العلوم ؟

ولكن هذا ما اعترف به العلم الحديث .. ان العلم ليس امرا مستقلا عن الانسان ، بل هو موجود في عقله وشعوره ، فاذا ما تهيأ لانسان عامل دؤوب اتخذ منه أداة للتوصل الى علوم اخرى . قال العالم الروسي المعاصر « لجاكوب » : « كما ان العلم يساهم في صنع الانسان ، كذلك الانسان يساهم في صنع العلم .. ان حقيقة العلم هي القوانين التي نراها خلال الواقع »[1] أي ان معرفتك بالواقع تقدم لك الدلالات والتفاصيل عن اشياء اخرى ، حتى اذا علمت بهذه الاشياء فتحت لك ابوابا لغيرها من المعلومات ، وهكذا الى ما لا نهاية ، على شريطة ان تتواصل النشاط العملي ، والا فان مجرد العلم بدون ممارسة لا يلبث ان يزول كما قدمنا .

وقال الفيلسوف الصيني « يولانج » في كتاب « النشاط العملي » تعريب الاستاذ محمد عيتاني : « ان النشاط العملي يمضي بنا الى المعرفة، ثم يكون لدينا مجددا النشاط العملي ، فالمعرفة ، وهذه الدورة مستمرة لا نهاية لها في تكرارها الدوري » .

وبالتالي ، فان الاستمرار في العمل والنضال يجعل من الانسان ينبوعا يتفجر بالحكمة والمعارف ، بخاصة بعد ان اثبتت التجارب ان الاشياء متشابكة ، يرتبط بعضها ببعض ، وان كل شيء فيه كل شيء .

---

(١) من مقال في مجلة العلوم البيروتية عدد حزيران سنة ١٩٦٣ بعنوان : « المعنى العام للعلم » .

التصوف :

تحدثت في كتاب « نظرات في التصوف والكرامات » عن الاتحاد والحلول ، ووحدة الوجود ، وعن الزهد ، وما الى ذلك•• والذي احاوله هنا هو الاشارة الى رأي الامام فيما يتصل بهذه المظاهر •

الاتحاد والحلول :

نفى الامام عن الله سبحانه الاتحاد والحلول ، وهو يعدد في خطبه صفات الجلال والكمال ، فمن اقواله : « ولا ان الاشياء تحويه ، أو ان شيئا يحمله فيميله او يعدله ، وليس في الاشياء بوالج ، ولا عنها بخارج •• مع كل شيء لا بمقارنة ، وغير كل شيء لا بمزايلة •• لم يقرب من الاشياء بالالتصاق ، ولم يبعد عنها بافتراق » •

وهذا رد صريح على من قال من الصوفية : ان الانسان يتحد بالله، او ان الله يحل بالانسان • ومعنى قوله : « مع كل شيء لا بمقارنة » انه تعالى عالم بكل شيء دون ان يكون مقارنا وملاصقا له ، لان المقارنة والملاصقة من صفات الاجسام ، والله منزه عنها ، ومعنى قوله « غير كل شيء لا بمزايلة » ان ذاته تعالى تغاير الاشياء ، ولكن لا كتغاير الاجسام التي اذا وجد احدها في حيّز زال منه الآخر ، لان الله ليس بجسم ، ولا يضاده شيء ولا يعانده شيء ، فهو غير الاشياء في حقيقته ، ومعها في علمه وعنايته ، وافتقارها اليه •

وحدة الوجود :

اما وحدة الوجود فهي ابعد شيء عن اقوال الامام ، لان معنى هذه الوحدة ــ كما فهمتها ــ ان الموجود واحد لا تعدد فيه ، ولا تقسيم الى واجب وممكن ، وقديم وحديث ، وعلة ومعلول ، ولا الى مادة وروح ،

ولا الى وجود طبيعي . ووجود خارج الطبيعة ، وانما هو واحد من جميع جهاته ، وهو ابدي ازلي لا يحول ولا يزول .. وبكلمة ، ان مذهب وحدة الوجود لا يميز بين الله والعالم ، ولا بين الخالق والمخلوق ، وهو اشنع المذاهب الالحادية على الاطلاق .. وقد اسلفنا ان مبادىء الوجود عند الامام ثلاثة : الله ، والروح ، والمادة .

الحدس :

قدمنا ان سبب المعرفة عند الماديين المشاهدة والتجربة ، وعند العقليين العقل ، وعند الثنوية هما معا ، وعند الامام الوحي ، والعقل ، والحس .

وقال المتصوفة : ان الله لا يعرف بالحس ، ولا بالعقل ، ولا بمعلم أو كتاب ، وانما يعرف بالحدس ، أي بشعور القلب شعورا مباشرا بدون حاجة الى القول : ان هذا الموجود له سبب ، ولسببه سبب ، الى ان تنتهي سلسلة الاسباب الى واجب الوجود بالذات ، وما الى ذلك من الاستنتاج والاقيسة ، لان شعور القلب يحل محل العقل وقياسه واستنتاجه .

ويزعم الصوفية ان هذه المعرفة تتولد في القلب تلقائيا ، أو يقذفها الله فيه قذفا بعد وصول الانسان الى حالة خاصة يبلغها بالرياضيات ، والتحرر من الاهواء والشهوات ، والاتجاه الى الحق وحده .

ولست ادري لماذا يذهب الصوفية الى هذه التمحلات ، مع العلم بأن الانسان يدرك وجود خالقه من نفسه ، ومن جميع ما حوله من الكائنات والمخلوقات ؟.. اللهم الا ان ينكروا مبدأ السببية من الاساس، وانه لا شيء يكون سببا لشيء ، أو مسببا عنه .

اقوال الامام :

وقول الامام : الحمد لله الدال على قدمه بحدوث خلقه ، وبحدوث خلقه على وجوده . وقوله هو الذي يشهد له اعلام الوجود ، وما الى ذاك ، ان قوله هذا يخالف كل المخالفة القائلين بالحدس والاتصال المباشر .. اجل ، ان صفات الفضيلة متكافل متضامن بعضها مع بعض ، فمن كان مخلصا في مقاصده ، صادقا في أقواله وافعاله شمله الله بعنايته ، وارشده الى سبيل الحق والهداية ، قال تعالى : « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ــ ١٧ محمد » .. « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ــ ١٩ العنكبوت » .. كما ان صفات الرذيلة يقود بعضها بعضا : « واما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم ــ ١٢٦ التوبة » .

سؤال :

ورب سائل : ما معنى قول من قال : ان علم الامام بالله يرجع الى فطرته التي فطره الله عليها ، لا الى الآثار واعلام الظهور ، وان استدلاله على وجود الله بوجود مخلوقاته انما كان لاقناع المشككين ، وهداية الجاهلين .. أليس هذا اعتراف بمبدأ الحدس الذي قال به الصوفية ؟

الجواب :

ان هذا رد ونقض لقول القائلين بالحدس ، فهو لهم لا عليهم ، لان الخلق والتكوين على الاعتراف بالفطرة شيء ، وقذف العلم بالقلب بعد المجاهدة الطويلة شيء آخر .. ان جميع النفوس قد فطرت على الايمان بالله ، لا نفس علي فحسب ، وانما انحرف عن هذه الفطرة من انحرف لعارض التربية والبيئة ، كما جاء في الحديث : « كل مولود يولد على الفطرة ، حتى يكون ابواه يهودانه او ينصرانه » .. وكما نطقت الآية

١٧١ من سورة الاعراف : « واذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم ألست بربكم قالوا بلى » •

والفرق بين الامام وغيره ان الامام بقي على فطرة الله متغلبا على جميع المغريات والمؤثرات ، حتى لقي ربه • اما غيره فقد كيفته الظروف وعوامل البيئة •• واين هذا من العلم الذي يقذفه الله في قلوب الخواص بعد ان يمروا بأدوار ومراحل ؟

الزهد :

لست احاول هنا التحدث عن زهد الامام فقد عقدت له فصلا مستقلا بعنوان « دنيا علي » في كتاب « فضائل الامام علي » وانما غرضي ان اذكر امورا ثلاثة هي : نظر الامام الى الدنيا ، ورأيه في بعض المتزهدين، وبعض فقرات من ادعيته ومناجاته مع تحليلها •

الدنيا :

ذم الامام الدنيا ، وزهّد فيها ، وحذر منها ، وأمر بالعمل للآخرة ، حتى كأننا نموت غدا ، وفي الوقت نفسه مدحها وأثنى عليها ، وأمر بالعمل فيها ، حتى كأننا نعيش ابدا •• والسر في ذلك ان الامام ، وان وصف الدنيا بأنها ممر ومجاز الا انها ليست كطريقنا هذا الذي نمر فيه الى البيت أو السوق او الحقل ، أو الى أي بلد ، ليست كهذا الطريق لا يغير شيئا مما ننتهي اليه ، ولا يمت الى حقيقته بصلة •• فان البيت هو هو على حاله وحقيقته ، سواء أكان الممر اليه ضيقا او واسعا ، سهلا او وعرا ، طويلا او قصيرا ، وسواء أفعلنا حين المرور الخير او الشر •• أما ممرنا في هذه الحياة الى الحياة الثانية فانه يؤثر كل التأثير في الحياة الاخرى التي ننتهي اليها ، فان سعادة الانسان ترتبط بكيفية سلوكه في هذا الطريق ،

وعلمه بالاحكام وعمله بها ، تماما كما لو نظم السير بقانون مع معاقبة المخالف ، فمن التزم نجا ، ومن خالف عوقب •

هذا من جهة النظرة الى الآخرة ، اما حث الامام على العمل في الدنيا فان الهدف منه الاحتفاظ بالنوع ، وسعادة المجتمع ، وان يعيش كل فرد من افراده عيشة راضية ، وان قصر الامد ، لان حياة البؤس والشقاء تقود الى المعاصي والآثام •• فالمراد – اذن – من الدنيا المذمومة هي التي تكون وسيلة للبلاء والويلات ، ومن الدنيا المحمودة التي تكون سبيلا للهناء والخيرات •

قال الامام وقد سمع رجلا يذم الدنيا :

« أيها الذام للدنيا المغتر بغرورها المخدوع بأباطيلها ، ثم تذمها ! أتغتر بالدنيا ، ثم تذمها ؟!•• انت المتجرم عليها ، أم هي المتجرمة عليك ؟ متى استهوتك ، أم متى غرتك ؟ أبمصارع آبائك من البلى ، أم بمضاجع امهاتك تحت الثرى ؟ كم عللت بكفيك ؟ وكم مرضت بيديك ؟ تبغي لهم الشفاء ، وتستوصف لهم الاطباء ، لم ينفع احدهم اشفاقك ولم تسعفه بطلبتك ، ولم تدفع عنه بقوتك ، قد مثلت لك به الدنيا نفسك، وبمصرعه مصرعك •

« ان الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار عافية لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزود منها ، ودار موعظة لمن اتعظ بها ، مسجد احباء الله، ومصلى ملائكة الله ، ومهبط وحي الله ، ومتّجر اولياء الله ، اكتسبوا فيها الرحمة ، وربحوا فيها الجنة ، فمن ذا يذمها ، وقد آذنت ببينها ، ونادت بفراقها ، ونعت نفسها واهلها ، فمثلت لهم ببلائها البلاء ، وشوقتهم بسرورها الى السرور ، راحت بعافية ، وابتكرت بفجيعة ، ترغيبا وترهيبا وتخويفا وتحذيرا ، فذمها رجال غداة الندامة ، وحمدها آخرون يوم القيامة ، ذكرتهم الدنيا فتذكروا ، وحدثتهم فصدقوا ، ووعظتهم فاتعظوا » •

وأقف قليلا عند قوله : « انت المتجرم عليها أم هي المتجرمة عليك؟» .

كلنا يعلم ان المجرم هو الذي يظهر في غير مخبره ، فيرائي ، وينافق، ويمكر ، ويخدع ، ويعطي من ظاهره ما يمنع من باطنه . والدنيا قد برزت على حقيقتها ، ولم تخف على احد صفة من صفاتها ، ففي كل لحظة تعطيك الف عظة وعظة ، وتقدم لك ألوانا من العبر ، وتحذرك بكل اسلوب، وأية عظة للدنيا ابلغ من ان تحفر فيها لاجسامنا المقابر والحفائر ؟..

بعض المتزهدين :

قال الامام يصف بعض من تظاهر بالزهد في الدنيا بعد ان زهدت فيه :

« ومنهم من اقعدته عن طلب الملك ضؤولة نفسه ، وانقطاع سببه ، فقصرت الحال عن حاله ، فتحلى باسم القناعة ، وتزين بلباس اهل الزهادة، وليس من ذلك في مراح ولا في مغدى » .

واذا لم يكن هذا القول بالشيء الجديد فان مكان العظة فيه ان نتثبت ، ولا نتعجل الحكم على الناس بالظواهر قبل البحث عن الدوافع والاسباب ، والا وقعنا في الخطأ والجهل ، والخلط بين الرذيلة والفضيلة، بين المنافق الذي طلب الدنيا بكل سبيل ، ولما يئس تعبد وتزهد ، وبين المخلص الذي اعرض عنها بقلبه ، ومحا أثرها من نفسه .. لقد اعتدنا ان نخدع بالظواهر ، ونتأثر بالالوان دون ان ننظر الى ما يكمن وراءها ، فنبهنا الامام بالاشارة الى مكان المرائين والمزيفين .

المناجاة :

قال الامام :

« إلهي ان كنت لا ترحم الا المجدّين في طاعتك فالى من يفزع

المقصرون ؟ وان كنت لا تقبل الا من المجتهدين فالى من يلتجيء المخطئون؟ وان كنت لا ترحم الا اهل الاحسان فكيف يصنع المسيئون ؟ أتدل على خيرك السائل ، ثم تمنعه ، وانت الكريم المحمود في كل ما تصنعه يا ذا الجلال والاكرام ؟ » .

ان وجود اليوم الآخر اثبت واقوى من وجود يومنا هذا ، ان هذا اليوم زائل كالامس ، اما يوم الحياة الثانية فثابت لا يزول ، ودائم لا يحول ، وليس فيه بيّن ومستتر ، وظاهر وباطن ، وكذب وصدق ، بل كل ما فيه معروف ومكشوف ، واذا استطاع اليوم ان يمكر المذنب المسيء ، ويخدع ويراوغ ، ويحلف الايمان ويقيم البينات ، ويجد من يحميه ويدافع عنه ، ويحابيه فان الحاكم غدا لا يقضي بالبينات والايمان، والمحاكم لا يجد محاميا ولا وسيلة الا الاعتراف والاستسلام ، حيث يبرز عمله للعيان على حقيقته ، تماما كمن يؤخذ بالجرم المشهود .

وهنا يتجه هذا السؤال : هل يترك هذا الضعيف وذنبه ، في حين لا يجد ملجأ ولا وسيلة الا الله ؟.. ان الله شديد العقاب ما في ذلك ريب .. والمذنب قد فعل ما فعل بسوء اختياره من غير شك ، ولكن هل اشتدت نقمة الله على هذا المسكين ، حتى بلغت مبلغا لا امل معه للعفو والصفح ، تماما كما تبلغ الحدة والعصبية بأحدنا حدا لا يملك معه نفسه وعقله؟... قولا بلا تشبيه ...

ويعطينا الامام الجواب الشافي عن هذا السؤال ، فان قوله « الى من يفزع المقصرون ؟. والى من يلتجيء المخطئون ؟ . » معناه ان المذنب بعد ان يبلغ الخوف منه كل مبلغ ، ويستشعر من نفسه الخزي والمذلة ، والبعد عن منزلة المقربين ، وان خصمه جبار الارض والسموات ، بعد هذا كله وما اليه لا يترك ابدا بدون ملجأ يلجأ اليه ، ومستجير يستجيره ..

والمفروض انه لا ملجأ ولا مجير الا الله ، فالنتيجة الحتمية ان الله يقبل المذنبين والمسيئين ، والا ظلوا بلا مجير ، وهو خلاف الغرض .. واوضح من هذا في الدلالة قوله عليه افضل الصلوات وازكى التحيات : « إلهي لو طبقت ذنوبي بين السماء والارض ، وخرقت النجوم ، وبلغت اسفل الثرى ، ما ردني اليأس عن توقع غفرانك ، ولا صرفني القنوط عن انتظار رضوانك » واذا كانت ارجى آية في القرآن الكريم الآية ٥٣ من سورة الزمر : « قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا » فان ارجى قول قاله نبي أو ولي عارف بالله واحكامه هو هذا القول .

ثم أية غرابة في ذلك ؟.. ألم يصف الله نفسه بالعفو ؟.. فاذا لم يعف ويصفح لا يبقى لهذا الوصف معنى يدل عليه .. والآن تعال لنقرأ معا هذه الحجة البالغة من الامام : « الهي ان قصرت بنا مساعينا عن استحقاق نظرك ، فما قصرت رحمتك بنا عن دفاع نقمتك » . أي ان المذنب من حيث هو مذنب لا يستحق النظر والعناية من الله ، ولكن الله من حيث انه الغفور الرحيم لا بد ان يشمل المذنب برحمته وغفرانه .. ولو تركه وشأنه ، وأوكله الى نفسه لحق لنا ان تتساءل ونقول : اين رحمة الله التي وسعت كل شيء ؟

ولنفترض ان رجلا اساء اليك ، ثم رأيته في حالة تكاد تودي بحياته، فتجاهلته ، وانت قادر على عونه ودفع الاذى عنه دون ان تمس بسوء انت او اهلك او مالك او كرامتك ، وفي الوقت نفسه تكون متفضلا ومحسنا عند الله والناس لو أعنته ... فهل تكون كريما لو تركته ، والحالة هذه ؟.. بل هل تكون انسانا ؟.. فكيف بالله الذي قال عنه النبي (ص) : « انه أرأف بعبده من الوالدة بولدها » ؟ وليس من شك ان الام لا تتهاون بولدها ، وان بلغ به العقوق ما بلغ ...

ثم ان الله سبحانه امرنا بالعرف والاحسان فكيف يحرمنا منـه ؟ قال الامام : « إلهي أمرت بالمعروف ، وانت أولى به من المأمورين » •

هذا ، الى ان الانسان لا يخلو ان يكون في واقعه إما مطيعا وإما عاصيا •• ومـن صفات الله سبحانه العـدل والرحمة ، وبعدلـه يكرم المطيعين • وبرحمته يعفو عن العاصين •

قال الامام :

« اللهم اجعلنـي عبدا لك ، إما طائعـا فاكرمتني ، وإما عاصيا فرحمتني » • وقال : « الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يؤيسهم من روح الله ، ولم يؤمنهم من مكر الله » •

وهنا تظهر مقدرة الفقيه الداعي الى الله •• فلقد حدده الإمام بهذا القول ، ووضعه على الخط الفاصل بين غضب الله ورحمته ، وأوقفه في أحرج المواقف وادقها ، تماما كمن يسير على صراط أدق مـن الشعرة ، وأحد من السيف ، ان انحرف قليلا يمنة او يسرة هلك وأهلك ••

ان الفقيه الخبير هو الذي يري الناس غضب الله بعين ، ويريهـم رحمتـه بالثانية ، يريهم غضب اللـه ليخشى ويتواضع المحسنون ، ولا يحبط العجب أعمالهم ، ولا يقف الغرور بهم ، حيث ما انتهـوا اليه من الاحسان ، ويريهم رحمـة الله ، ليرجع المسيئون عن اساءتهم ، ويتوبوا الى ربهم ، ولا يعيشوا في قلق واضطراب ، ولا يندفعـوا وراء المعاصي يائسين ، ومرددين مع القائل : انا الغريق فلا اخشى من البلل •

لقد كان الامام يرجو الله ويخافه في آن واحد •• كان يأمل ، وهو خائف ، ان يصرف الله عنه شر ما يخاف ، وكان يخاف ، وهو راج ، ان يقف فيما يحذر • قال : « إلهي ارجوك رجاء من يخافك ، وأخافك خوف من يرجوك •• إلهي انتظرت عفوك كما ينتظر المذنبون ، ولست آيسا من رحمتك التي يتوقعها المحسنون » •

وبهذا المبدأ ، مبدأ الجمع بين الخوف والرجاء ، نفسر اخلاص الامام وعظمته ، وتواضعه ، ونظره الى نفسه على انها ليست شيئا يستأهل الكرامة الا على اساس الخوف من الله سبحانه . قال : « إلهي ان أخطأت النظر لنفسي بما فيه كرامتها ، فقد اصبت طريق الفزع اليك بما فيه سلامتها » . فالمقياس الوحيد الذي تقاس به كرامة الانسان ، حتى الانبياء والاولياء ، هو الخوف من الله ، ولا شيء سواه ، حتى العلم والعمل فانهما ليسا بشيء اذا لم يكونا بهذا الدافع ، ولهذه الغاية .

وبالتالي ، فان تصوف الامام ــ ان صح التعبير ــ هو المعرفة بالله، والاخلاص له ، والخوف من عقابه ، ورجاء ثوابه ، والانقطاع اليه بالزهد والعبادة ، والايمان بأن الخير منه وبتوفيقه ، والشر بخذلانه وايكال المرء الى نفسه ، اما الحدس والكشف والفناء والاتحاد والحلول ، ووحدة الوجود ، وما الى ذلك من الشطحات فثرثرة فارغة ، وسفسطة جوفاء .

في الالهيات

الالهيات

تدور أقوال الامام على ما يهم الانسانية ويصلحها من دين واخلاق وعلم وسياسة واجتماع ، ويعتمد في أقواله اول ما يعتمد على العقل الذي أمر الله ورسوله باتباعه ، بخاصة في الالوهية التي عقدنا لها هذا الفصل •

المسلمون في عهد النبي :

لم ترو الرواة ان احدا من اصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم سأله عن ذات الله تعالى ، ومعنى صفاته •• وكيف يهتمون بتنزيه الخالق ، وبالامس كانوا يعبدون الاحجار ، ويخشونها ويتقونها •• فلقد اكتفوا بما قاله الرسول ، وما فهموه من ظاهر القرآن من ان الله جل وعلا واحد كريم ، وعادل حكيم ، وقادر رحيم ، اكتفوا وآمنوا من غير تعليل وتأويل •

ومن حاول التوسع ، وسأل عن شيء من المغيبات صرفه القرآن والرسول الى جهة ثانية ، كما دلت الآية الكريمة : « ويسألونك عن الروح قل هي من أمر ربي » ، لذا انصرفوا عن الحديث حول العقيدة ، وسألوا عن الاعمال ، كالجهاد وثوابه ، والصوم ومفطراته ، والحج واجزائه ، والصلاة وشروطها ، والزكاة ونصابها ، وما الى ذاك من الحلال والحرام•

وطبيعي ان يصرف النبي اصحابه عن الجدل في العقيدة ، لانهم امة امية حديثة عهد بالاسلام ، فالخوض في هذا المضمار يحيد بهم عن

القصد .. أما اهل الاديان الاخرى فقد جادلهم بالتي هي أحسن، وبقدر ما تستدعيه الحاجة والضرورة ، على انه كان يدع الجدال معهم بعد ان يقيم لهم الدليل ، وتلزمهم الحجة :

« وان جادلوك فقل الله اعلم بما تعملون ــ ٦٨ الحج » .. « فان حاجوك فقل أسلمت وجهي لله » .

ورأى النبي بعض اصحابه يتكلمون في القدر ، فقال : « انما هلك من كان قبلكم بخوضهم في هذا » .

ومن هنا كان اذا عرض لبعض المسلمين شيء من التشكيك والوسوسة ظن بنفسه الكفر والهلاك .

جاء في الحديث ان رجلا اتى النبي ، وقال : اني هلكت يا رسول الله. فقال له : اتاك الخبيث ــ اي الشيطان ــ فقال لك : من خلقك ؟ فقلت : الله . فقال : من خلق الله ؟ فقال الرجل : أي والذي بعثك بالحق هكذا قال .. فقال النبي : هذا والله محض الايمان . فان عرض لك مثل هذا فقل : آمنت بالله ورسوله ، ولا حول ولا قوة الا بالله . أي أمض على ايمانك ، واقبله معرضا عن كل ما يخطر لك .

المسلمون بعد النبي :

وبعد النبي كثر الجدل والتساؤل حول العقيدة ، وكان الامام المرجع الاول لحل جميع المشكلات والمعضلات ، والفيصل بين الحق والباطل ، فلقد كان يسأل ويجيب بالهدى والحق ، من ذلك ان سائلا سأله : هل رأيت ربك ؟ قال : ما اعبد ربا لم أره . قال : وكيف رأيته ؟ قال : لا تدركه العيون بمشاهدة الابصار ولكن رأته القلوب بحقائق الايمان .

وسأله آخر : هل عرفت الله بمحمد ، او عرفت محمدا بالله ؟

فقال : بل عرفت محمدا بالله عز وجل حين خلقه ، واحدث الحدود من طول وعرض .

وقال له ثالث : صف لنا الله ، حتى كأنا نراه . فخطب الخطبة المعروفة بخطبة الاشباح ، وقال عنها الشريف : هي من جلائل خطبه .

وغير بعيد ما قيل : ان هذه التساؤلات وما اليها تسربت الى المسلمين العرب بعد الفتوح الاسلامية ، واختلاطهم باهل الاديان ..

ومهما يكن ، فقد بدأت بعد الرسول الرغبة في التحقيق والتعليل ، والرجوع الى العقل فيما دل عليه القرآن والحديث .

الدفاع عن الدين بالعقل :

ورحب الامام بهذا الاتجاه الجديد ، وافسح المجال لكل سائل ومشكك بل كان يتنفس الصعداء ، ويتحرق اسفا حين لا يجد من يحمل عنه ، ويستفيد من علمه ، ويقول على المنبر : « سلوني ، فان بين جوانحي علما جما هاه هاه لا اجد من يحمله » .

وسأله سائل يوم الجمل : أتقول يا امير المؤمنين : ان الله واحد ؟ فحمل عليه الناس ، وقالوا : ألا ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسيم القلب ؟.. فقال : دعوه ، ان الذي يريده هو نريده نحن من القوم .. بهذا الاسلوب وما اليه كان يشجع الناس على البحث والسؤال ، ولا يخشى على الاسلام ما دام هو القائم على حفظه ، والمبين لحججه واحكامه، والذاب عن حوزته وكيانه بالبراهين العقلية ، والنظر المجرد .. فالامام اول من دافع عن الاسلام بمنطق العقل ، واول من رد شبهات المضللين ، واقوال المشككين ، واول من وفق بين النقل والفلسفة ، وأول الآيات المتشابهة بما يتفق مع العقل .

ولست ادري على اي شيء اعتمد من قال : ان المعتزلة هم الممثلون للنزعة العقلية في الاسلام ، وانهم الدعاة الاول الى تحرر العقل ، وحرية الفكر ، فان كان لهم شيء من هذا فالفضل يعود الى الامام وحده .. قال المعتزلي ابن ابي الحديد : « ان اصحابنا المعتزلة ينتمون الى واصل بن عطاء ، وهو تلميذ ابي هاشم بن محمد بن الحنفية ، وابو هاشم تلميذ ابيه محمد ، ومحمد تلميذ ابيه عليّ عليه السلام » .

الله :

توجد — في كل عصر — فئة قليلة تنكر وجود الله ، ولا تعترف به، وفئة اخرى تقف حائرة تطلب سواء السبيل ، لان معرفتها لم تبلغ الهداية والحق .

وفي كل عصر يقف الهداة العارفون لمناهضة اولئك ، ودفع شبهاتهم واضاليلهم ، ولارشاد هؤلاء الى المعرفة وخلاصهم من ظلمة الحيرة والجهل ، وخطب الامام سيد الموحدين ، ومواعظه كلها أوجلها تهدف الى هذه الغاية بالذات ، فان كلامه بالتوحيد والعدل يتضمن الرد على كل معاند ، والهداية لكل حائر يطلب المعرفة الى الله عز وجل .

ولم يقل الامام : ان الموجود ينقسم الى واجب وممكن ، وان الاول اصل ، والثاني فرع ، ولم يعدد صفات كل منهما ولوازمه باللفظ الذي عبر به الفلاسفة وعلماء الكلام .. ولكنه قال : « الحمدلله الواحد المتفرد الذي لا من شيء كان ، ولا من شيء خلق الا وهو خاضع له » .

أليس قوله هذا تقسيما للموجود الى خالق ومخلوق وتعبيرا ثانيا يرادف لفظ الواجب والممكن !.. ونفيا للزعم القائل ان الاشياء كلها قديمة ، وللزعم الآخر بانها حادثة .

وقال : كل شيء خاضع له ، وكل شيء قائم به ، اي يستمد وجوده من وجود الله سبحانه ، فهو الاصل ، وكل ما عداه فرع .

وقال الفلاسفة في تعريف الواجب الوجود انه الموجود بالذات، ولا يفتقر وجوده الى موجد ، وقالوا في تعريف الممكن ان ذاته لا تقتضي وجودا ولا عدما ، وانه لا يوجد الا بسبب موجب .

وقال الامام في وصف الممكن : « وبكلمة الله قامت السموات ، وقرت الارضون ، وثبتت الجبال الرواسي » .

فكلمة الله سبحانه وارادته سبب تام لايجاد هذه الكائنات ، اما هو فلا سبب له ، لانه واجب الوجود بالذات من جميع الجهات .

البراهين :

ان الهدف الاول للفيلسوف هو معرفة السبب البعيد ، وعلة العلل ، وبما ان السبيل الوحيد الى هذه المعرفة هو العقل لفت القرآن الكريم الناس الى الدلائل الكونية من خلق السموات والارض ، وما فيهما من عجائب المخلوقات ، وامرهم باعمال العقل فيها ، ليصلوا الى معرفة الخالق عز وعلا ، من ذلك قوله تعالى في سورة آل عمران آية ١٩٠ : « ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب » . وغيرها كثير ، وعبر ابن رشد عن هذا النوع من التدليل بدليل العناية

وقال اتباع الفلسفة اليونانية : ان الكون سلسلة من الحوادث ، وكل حادث لا بد له من محدث ، فللعالم ـ اذن ـ محدث ، وهو الله تبارك وتعالى .

هذي هي حجج القرآن ، وحجج اهل الكلام لا فرق بينهما الا في

الاسلوب ، اما النتيجة فواحدة ، ونجد الاسلوبين في كلام الامام ، فمن الاول قوله : « الحمد لله المتجلي لخلقه بخلقه ، والظاهر لقلوبهم بحجته » وقوله في وصف الطاووس :

« ترى بريشه الوانا كثيرة متسقة ، فالعجب والدهش ان الكل يتغذى من جسم واحد ، فما الذي اوجد كثرة تلك الالوان في ريشه بديع جمالها !.. فان شبهته بما انبتت الارض قلت : جنى من زهرة كل ربيع ، فهو كالازاهير المبثوثة ، واذا تصفحت شعرة من شعرات قصبه ارتك حمرة وردية ، وتارة خضرة زبرجدية ، واحيانا صفرة عسجدية » .

وفي قوله في وصف الجرادة : « خلق لها عينين حمراوين ، واسرج لها حدقتين قمراوين ، وجعل لها السمع الخفي ، وفتح لها الفم السوي ، وجعل لها الحس القوي ، ونابين بهما تقرض ، ومنجلين [1] بهما تقبض ، يرهبها الزراع في زرعهم ، ولو اجلبوا بجمعهم ، حتى ترد الحرث، وتقضي منه شهواتها ، فتبارك الله الذي يسجد له من في السموات والارض طوعا وكرها » .

وقال في وصف الخفافيش : « يقبضها الضياء الباسط لكل شيء ، ويبسطها الظلام القابض لكل حي ، وكيف عشيت أعينها عن ان تستمد من الشمس المضيئة نورا تهتدي به ؟.. فهي مسدلة الجفون بالنهار ، وجاعلة الليل سراجا .. فسبحان من جعل الليل لها نهارا ومعاشا، والنهار سكنا وقرارا ، وجعل لها أجنحة من لحمها ، تعرج بها عند الحاجة الى الطيران غير ذوات ريش الا انك ترى مواضع العروق بينة ، لها جناحان لم يرقّا فينشقا ، ولم يغلظا فيثقلا ، تطير وولدها لاصق بها ، يقع اذا وقعت لا يفارقها ، حتى تشتد اركانه ، ويحمله للنهوض جناحه ، ويعرف

---

(١) كنى بالمنجلين عن رجليها .

مذاهب عيشه ، ومصالح نفسه ، فسبحان البارىء لكل شيء على غير مثال خلا من غيره » .

ومن الاسلوب الثاني قوله : « زعموا ــ أي الملحدون ــ انهم كالنبات ما لهم زارع ، ولا لاختلاف صورهم صانع ، ولم يلجأوا الى حجة فيما ادعوا ، ولا تحقيق لما وعوا ، وهل يكون بناء من غير بان ، او جناية من غير جان ؟.. » .

ويستند هذا البرهان الى مقدمتين : صغرى يقرها الحس ، وهي ان هذا الكون بناء ، لما فيه من النظام ، واحكام الصنعة ، وكبرى تشتمل على مبدأ عام يقتضيه المنطق ، وهي لكل بناء بان ، فالنتيجة الحتمية ان لهذا الكون بانيا . وأسموا هذا البرهان بالعلة الفاعلة ، وينسب الى افلاطون .

ولهم برهان آخر ، أسموه برهان الحركة ، وينسب الى أرسطو وهذه صورته : ان في الكون حركة، ولكل متحرك محرك ــ اذن ــ لابد من وجود محرك لا يتحرك ، لاستحالة تسلسل العلل الى ما لا نهاية .

وهذا البرهان في واقعه توضيح لما تضمنه البرهان السابق ، ومهما يكن ، فقد اشار الامام الى هذا الدليل بطريق أوسع وأوضح ، حيث نفى عن الله سبحانه الحركة والسكون معا ، لانهما من صفات الاجسام ، قال :

« لا يجري عليه السكون والحركة ، وكيف يجري عليه ما هو اجراه ، ويعود فيه ما هو ابداه ، ويحدث فيه ما هو احدثه ؟.. » .

اذ لو حدث فيه شيء من ذلك لاحتاج الى محدث ، فيدور او يتسلسل ، هذا الى ان الحركة تستدعي الجهات كالوراء والامام ، وهي محال بالنسبة اليه تعالى .

ان اقوال الامام هذه ، وما اليها مما احتوت الدلالة على ان الله وحده هو الذي خلق العالم ، سماءه وارضه ، وأوجده من العدم، ورتبه على هذا النظام البديع المحكم ، ان اقواله هذه تهدف اول ما تهدف الى زجر المعاندين ، واقناع المشككين ، وهداية الجاهلين ، واقامة الحجة على كل ذي قلب ، والى دفع الشبهات عن الاسلام وكتابه ونبيه • اما علم الامام بالله ، وتوحيده واخلاصه فيرجع الى فطرته التي فطره الله عليها ، لا الى الآثار واعلام الظهور . ان هذه الآثار والدلائل لا تزيد الامام شيئا، ولا تفتح له بابا من ابواب المعرفة ، ومن هنا قال : « لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا » واذا رجع الامام الى الدلائل الكونية ، فانما يرجع اليها ليهدي بها الناس ، اما هو فلا ترجع معرفته بالله الى الاستدلال عليه بشيء من آثاره ، لانه عنده اظهر من كل شيء •

قال له قائل : بما عرفت ربك ؟•

قال : بما عرفني من نفسه •

قال الرجل : وكيف ذلك ؟•

قال الامام : لا تشبهه صورة ، ولا يحس بحواس ، ولا يقاس بالناس •

ان الامام يؤمن بالله ايمانا لا يشوبه شك ، وهذا الايمان لم يتسرب اليه من الحواس ، ولا من القياس ، بالناس ، لانه لم ير الله بذاته ، كي يؤمن به عن طريق الحس ، ولا يشبهه شيء كي يكون ايمانه ناشئا عن القياس والتمثيل ، فتعين ـ اذن ـ ان الله سبحانه هو الذي خلق الامام على فطرة الدين والتوحيد •

ويؤيد هذا المعنى قوله : الحمدلله الملهم عباده حمده ، الفاطر لهم

على ربوبيته . وقريب من هذا كلام الفيلسوف الفرنسي ديكارت الـذي استدل به على وجود الله ، حيث قال : لا نستدل بهذا العالم المرئي على وجود إله ، بل وجود الإله ضرورة للتدليل على وجود العالم الظاهر، لان هذا العالم يمكن التشكيك فيه ؛ للشك في معرفة الحواس ، اما وجـود فكرة واضحة عن الكامل المطلق ، فلا يمكن الشك فيها بحال ، بـل هي هي بديهية بداهة انا افكر فانا موجود [1] .

وبالتالي فان كل قول من اقوال الامام في هذا الباب يرجع الى كبرى تعبر عن مبدأ عام يدل عليه العقل ، وصغرى تعبر عن حادث محسوس ، ومن القضيتين يتألف قياس منطقي يلزمه لذاته قول آخر ، وهذه بعينهـا طريقة الفلاسفة واهل المنطق .

---

(1) قال ديكارت : ان معنى الكامل سابق في معرفتنا على معنى الناقص. واننا نكتسب معنى الكامل من مشاهدتنا للناقص ، فـان علمنا بشيء دون شيء نقص يستدعي وجود كامل يعلم كل شيء ؛ وقدرتنـا على شيء دون شيء نقص يستدعي وجود كامل قادر على كل شيء وهكذا .

صفات الله

لم يختلف الفلاسفة المسلمون وعلماء الكلام في وجود الله سبحانه ونفي التعدد والتركيب عنه ، ولا في عجز العقول عن ادراك ذاته ، ومعرفة حقيقته ، ولا في نسبة ما ورد في القرآن من الصفات اليه ، كالحياة والقدرة والعلم ، وما الى ذلك من صفات الجلال والكمال ، ولكنهم اختلفوا في ان هذه الصفات هل هي عين الذات او غيرها ، وان السمع والبصر واليد ، وما الى ذلك مما يشعر ظاهره بالتجسيم هل يثبت له بنحو الحقيقة او المجاز ، كما اختلفوا في ان كلام الله مخلوق او قديم ، وانه تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات ، او يعلمهما جميعا ، وان رؤيته ممكنة او محال، وان الانسان مختار او مجبور ، وان الانبياء معصومون قبل البعثة وبعدها ، او قبل البعثة فقط ، وان المعاد يكون بالروح والجسم ، او بالجسم خاصة ، الى غير ذلك .. ومن تتبع خطب الامام وحكمه ومواعظه التي اوردها مورد التمجيد والتنزيه لذات الله سبحانه يجد فيها الحل الصحيح لجميع هذه المشكلات ، ولكل معضلة فلسفية ، يجد حلها بالنظر المجرد والبراهين العقلية التي اعتمدها الفلاسفة وعلماء الكلام من بعده .

ورب قائل : كيف يتعرض الامام لهذه المشكلات وامثالها ، وهو القائل : « كل ما يتصور في الاوهام فالله تعالى على خلافه ! » .

قلنا في جوابه : اراد الامام بقوله هذا ان تصور ذات الله على حقيقتها

محال ، اما وصفه بالصفات التي ذكرها القرآن ، وكيفية نسبتها اليه سبحانه ، فلا ضير فيه ، قال حفيده الامام الباقر : تكلموا في خلق الله ، ولا تكلموا في الله ــ اي في ذاته ــ فان الكلام في الله لا يزداد صاحبه الا تحيرا . وقال الامام الصادق · من نظر في الله كيف هو هلك .

هل الصفات عين الذات ؟

يرى الامام والائمة من اولاده واحفاده انه لا تعدد ولا تغاير بين صفات الله ، وذاته القدسية ، فهو قادر لا بقدرة زائدة تكون واسطة او كالواسطة بها يخلق الاشياء ، وعالم لا بشيء زائد يعلم به ما كان ويكون. وبكلمة ، ان صفات الله سبحانه ليست اعراضا زائدة على الذات ، بحيث يكون هناك ذات وصفة تفتقر اليها الذات ، ولا تستطيع العمل بدونها ، كما هي الحال بالقياس الى الانسان الذي يفتقر عمله الى العلم والقدرة ؛ فكما ان الله سبحانه موجود لذاته كذلك هو قادر لذاته ، عالم لذاته،حي لذاته ، وبتعبير ثان ان ذاته هي وجود ، وهي علم ، وهي قدرة ، وهي حياة .

قال الامام الرضا : لا يجوز ان يكون الله خلق الاشياء بالقدرة لانك اذا قلت : خلق الاشياء بالقدرة فكأنك قد جعلت القدرة شيئا غيره . وجعلتها آلة خلق بها الاشياء وهذا شرك .

وقال الامام :

« اول الدين معرفته ، وكمال معرفته التصديق به ، وكمال التصديق به توحيده ، وكمال توحيده الاخلاص له ، وكمال الاخلاص له نفي الصفات عنه ، لشهادة كل صفة انها غير الموصوف ، وشهادة كل موصوف انه غير الصفة ، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ، ومن قرنه فقد ثناه ، ومن ثناه فقد جزأه ، ومن جزأه فقد جهله » .

والمحصل من هذه الفقرات ان معنى الدين طاعة الله وامتثال اوامره ونواهيه ، والطاعة فرع عن المعرفة ، حيث لا عمل مع الجهل ، والمعرفة على نوعين : ناقصة ، وهي ان تعرف الله ، ولا تعترف به ، ومعرفة كاملة ، وهي ان تعرف وتصدق قولا وعملا ، وايضا التصديق بالله على نوعين : ناقص وهو ان تعترف بان الله خالق الكون ، ولكن تثبت له النظير والشبيه ، وتصديق كامل ، وهو ان تؤمن بانه تعالى واحد لا شريك له . وايضا التوحيد على نوعين : ناقص وهو ان تؤمن بانه واحد لكنه جسم او غير ذلك مما لا يليق بعظمته تعالى وتام وهو الايمان بالوحدانية المنزهة عن الجسمية والصفات الزائدة على الذات . لان من وصف الله بصفة زائدة فقد قرنه بغيره في الوجود وضمه الى سواه . والضم يستدعي التثنية والتركيب من اجزاء . ومن جزأ الله فقد جهله لانه اعتقد خلاف الواقع .

وعلى الاجمال ان المعرفة شرط في الطاعة ، والتصديق شرط في كمال المعرفة ، والتوحيد شرط في كمال التصديق ، والاخلاص شرط في كمال التوحيد . وكمال الاخلاص لا يتحقق الا باعتقاد وحدة الصفات والذات . اذ لا تغاير بينهما ولا حقيقة ولا اعتبارا .

وقال الامام في التدليل على ان كلام الله مخلوق وليس بقديم : «انما كلامه سبحانه فعل منه انشأه ومثله . لم يكن من قبل ذلك كائنا . ولو كان قديما لكان إلها ثانيا » .

وقال في شمول علمه للكليات والجزئيات : « احاط بالاشياء كلها علمه . واتقنها صنعه . لم تغيره صروف الزمان . ولا يتكأده صنع شيء مهما كان .. قال لما شاء ان يكون فكان .. علمه بها قبل كونها كعلمه بها بعد تكوينها » .

قال الفلاسفة : ان الله يعلم الكليات فقط . لان الجزئيات تتغير

وتتبدل . ولو علم الله بها للزم ان يتغير علمه ويتبدل تبعا لها لان العلم صورة مطابقة للمعلوم . مع ان علم الله ثابت على وتيرة واحدة . وليست له حال متجددة . وعليه يكون علمه بالجزئيات محالا .

وقول الامام يصلح للرد على هؤلاء ، لان المحصل منه ان التغيير والتبديل انما هو بالمعلوم ، أي بالجزئيات[1] نفسها ، لا بالعلم بها ، لان الله سبحانه يعلم قبل وقوعها انها ستقع ، وانها تتغير وتتبدل ، فاذا حدثت فقد حدث ما كان معلوما في الازل ، لا ان العلم حصل حين الحدوث، كما هي الحال بالنسبة الينا نحن ، وعليه يكون علمه بالشيء قبل وجوده تماما كعلمه به حين يوجد .

ونقل الشيخ هادي كاشف الغطاء في « مستدرك نهج البلاغة » كلاما للامام يتضمن نفي الرؤية والتجسيم عن الله سبحانه ، والزمان والمكان والاحوال ، وانه كان قبل كل شيء ، وانه خلق الاشياء لا من شيء ، قال :

« ليس بشبح فيرى ، ولا بجسم فيتجزأ ، ولا بذي غاية فيتناهى ، كان ولا اما كن تحمله اكنافها ، ولا حملة ترفعه بقوتها ، وما كان بعد ان لم يكن ، بل حارت الاوهام ان تكيف المكيف للاشياء .. لا يدرك بالحواس ، ولا يقاس بالناس ، ولا تقدره العقول ، ولا تقع عليه الاوهام .. وابعد من الشبه من كل شبيه ، لم يخلق الاشياء من اصول ازلية ، ولا من اوائل كانت قبله ابدية » .

اي ان الله سبحانه ليس بشبح محسوس ، حتى يُرى بالحواس ، ولا بجسم حتى يحتاج الى مكان ، ولا بمتناه حتى يحد بزمان ، ولا مماثل له حتى تحيط به الافكار والاوهام ، ولا شيء كان قبله ، او معه ، حتى يخلق الاشياء منه ، وانما خلق وصور واتقن بقوله كن فيكون .

وبالتالي ، فان التوحيد في مذهب اهل البيت هو ان تصف الله

سبحانه بما وصف به نفسه ، وان تتورع عن تشبيهه بأي شيء ، وعن تحديده بأي حد ، لانه اجل واعظم من ان تبلغ كنهه العقول ، ولان الحد انما يكون للحقائق المركبة من الجنس والفصل .

وسأله سائل : اين ربك ؟.

فقال : ان الله عز وجل اين الاين ، فلا اين له .

وسأله آخر : متى كان ربك ؟.

فقال : ومتى لم يكن ، حتى يقال : متى كان .

وفي هذا المعنى ما رواه صاحب « الكافي » في باب التوحيد ان رجلا قال للنبي : اين ربك ؟. فقال : هو في كل مكان ، وليس في شيء من المكان المحدود . فقال الرجل : كيف هو ؟ قال : كيف اصف ربي بالكيف، والكيف مخلوق ؟. والله لا يوصف بخلقه .

هل الانسان مسير ام مخير ؟

لقد شغلت حرية الانسان الفلاسفة وأهل الاديان منذ اقدم العصور وابعدها ، وما زالت تشغلهم ، حتى اليوم ، فلقد اختلف فيها اليهودبعضهم مع بعض ، والمسيحيون فيما بينهم ، والمسلمون كذلك ، فذهبت فئة من كل اهل دين الى ان الانسان مغلوب على امره ، ولا حرية له في تصرفاته: ولا وجود لشيء من شخصيته ، وانما هو كريشة في مهب الريح .. واكدت فئة اخرى من الاديان الثلاثة الحرية التامة للانسان ، والمسؤولية الكاملة في جميع تصرفاته وافعاله .

وقال الامام بحرية الانسان مستدلا بانه « لو كان مسيرا لبطل الثواب والعقاب ، وسقط الوعد والوعيد ، والامر من الله والنهي ولم تكن لائمة لمذنب ، ولا محمدة لمحسن ، ولم يكن المحسن اولى بالمدح من المسيء ، ولا المسيء اولى بالذم من المحسن .. ان الله امر تخييرا ، ونهى تحذيرا ، وكلف يسيرا ، ولم يكلف عسيرا ، واعطى على القليل كثيرا ، ولم يعص مغلوبا ، ولم يطع مكرها ، ولم يرسل الرسل لعبا ، ولم ينزل الكتب للعباد عبثا ، ولم يخلق السموات والارض ، وما بينهما باطلا «ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار » .

يريد الامام ان الله سبحانه لم يقهر عباده على فعل الطاعة ، ولا على اجتناب المعصية ، ولو فعل ذلك لبطل الثواب والعقاب ، لان الفعل ، والحال هذه مستند الى الله لا الى العبد .

ومعنى قوله « امر تخييرا ، ونهى تحذيرا » ان الله اراد من عباده ان يفعلوا الواجب ، ويتركوا المحرم باختيارهم وارادتهم ، وحذرهم في النهي انهم متى عصوا وخالفوا عذبهم وعاقبهم •

ومعنى قوله « لم يُعص مغلوبا » ان العبد اذا خالف وعصى لم يكن هو غالبا والله مغلوبا ، لانه سبحانه قادر على صده عن المعصية ، ولكن تركه وشأنه ليكون قادرا مختارا ، وبالتالي مستحقا للعقاب ، وكذا اذا اطاع العبد وامتثل فانه عز وجل لم يكرهه على الطاعة بل تركه واختياره، ليستحق الثواب بجدارة •

وسأل الامام سائل عن معنى القضاء والقدر ، فقال :

« الامر بطاعة الله ، والنهي عن معصيته ، والتمكين من فعل الحسنة ، وترك المعصية ، والمعونة على القربة الى الله ، والخذلان لمن عصاه ، والوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، كل ذلك قضاء الله في افعالنا ، وقدره في اعمالنا » •

وعلى هذا يكون معنى القضاء الامر والنهي ، ومعنى القدر التمكين واعطاء القدرة على الفعل والترك معا ، اذ لو قدر العبد على احدهما دون الآخر لكان ملجأ لا يستحق ثوابا ولا عقابا •

وكتب الحجاج بن يوسف الى الحسن البصري ، وعمرو بن عبيد ، وواصل بن عطاء ، وعامر الشعبي ان يذكروا له ما عندهم من العلم بالقضاء والقدر •

فكتب اليه الحسن البصري : ان من احسن ما انتهى الينا ما سمعته من امير المؤمنين علي بن أبي طالب ، قال : أتظن ان الذي نهاك دهاك، انما

دهاك أسفلك واعلاك ، والله بريء من ذاك .. والمراد بأسفله واعلاه أقواله وافعاله .

وكتب اليه عمرو : احسن ما سمعت في القضاء والقدر قول امير المؤمنين علي بن ابي طالب . لو كان الوزر في الاصل محتوما كان الموزر في القصاص مظلوما .

وكتب اليه واصل بن عطاء : احسن ما سمعت في ذلك قول امير المؤمنين علي : أيدلك الله على الطريق ، ويأخذ عليك المضيق ؟

وكتب اليه الشعبي : احسن ما سمعت في ذلك قول امير المؤمنين علي : كل ما استغفرت الله منه فهو منك ، وكل ما حمدت الله عليه فهو منه تعالى [1] .

ومن اوضح واقرب الى الفهم والفطرة ما قرأته في هذا الباب قول الامام جعفر الصادق :

« ما استطعت ان تلوم العبد عليه فهو من فعله ، وما استطعت ان لا تلوم العبد عليه فهو من فعل الله .. يقول الله للعبد ، لم عصيت ؟ لم فسقت ؟ لم شربت الخمر ؟ لم زنيت ؟ فهذا هو فعل العبد . ولا يقول : لم مرضت ؟ لم قصرت ؟ لم أنت ابيض او اسود . لانه من فعل الله في العبد » .

هذا هو الدليل المباشر على وجود « حرية الانسان » وهو دليل البديهة والوجدان ، وواضح كل الوضوح .. بل لا يسمى هذا النوع دليلا ولا برهانا ، لانه يعتمد على المشاهدة والحس مباشرة بأن افعال

(١) تفسير صدر المتألهين باب الجبر والقدر .

الانسان على نوعين . « منها » ما يزن نتائجها بعقله ، ويفعلها بارادته ، ويستطيع تعجيلها الآن ، وارجاءها الى غد ، كسفره الى البلد الذي يريد، ولباسه للثوب الذي يشاء ، وأكله للطعام الذي يختار ، وما اشبه .

و « منها » ما لا يدخل في استطاعته وقدرته ، كتنفسه ومرضه ، وذكورية اولاده وانوثتهم ، وطول عمره او قصره ، وما الى ذاك . ويسأل العبد عن النوع الاول ، وعليه يستحق ثوابا او عقابا من الله سبحانه ، ومدحا او ذما من الناس ، بل كثيرا ما يعود الانسان على نفسه باللائمة ، لانه تعجل الامر ، ويتخذ من خيبته مرشدا وواعظا . والنوع الثاني نتيجة امور قهرية لا يسأل عنه الانسان ولا يؤخذ به .

وعلى هذا الرأي ــ اليوم ــ اكثر المفكرين واهل الاديان وكان عليه العارفون من السلف . وهو الحق الذي لا ريب فيه ، وكل ما يخالفه فهو نظريات فارغة ، واقيسة سفسطائية ، لانها تصادم الحس والمشاهدة .

سؤال :

ورب سائل : ماذا تصنع بقول الامام : « إلهي خلقت لي جسما وجعلت لي فيه آلات اطيعك بها واعصيك ، واغضبك بها ، وارضيك ، وجعلت لي من نفسي داعيا الى الشهوات ، واسكنتني دارا ملئت من الآفات ، وقلت لي : ازدجر ، فبك اعتصم ، وبك أحترز ، واستوفقك لما يرضيك ، وأسأل سؤال من لا يحفيك » .

ان ظاهر هذا القول يتفق مع المذهب الجبري القائل . ان الوجود بما فيه عبارة عن الحوادث التي يؤثر بعضها ببعض ، وعن علل ومعلولات مترابطة متلازمة ، لا ينفك شيء منها عن شيء ، والانسان بينها آلة خاضعة لمختلف المؤثرات الداخلية التي عبر عنها الامام « بالشهوات » والخارجية التي عبر عنها « بالآفات » .

الجواب :

أولا : ان معنى القول بحرية الانسان ان بعض افعاله يصدر بارادته واختياره ، وهذا ثابت بالحس ، ومتحقق بالوجدان ، كما أسلفنا . امــا ان يكون للارادة اسباب قهرية توجهها ، ودواع ضرورية تحدث عنهــا فخارج عما نحن فيه ، اذ الكلام في الفعل المعبر عن الارادة ، لا في الارادة نفسها ، وما دام الفعل صادرا عن ارادة الانسان فهو مريد ومخير ، وليس بمكره ومسير ، حتى ولو انتهت ارادته الى غير الاختيار .. ان كل ما في الكون لا بد ان ينتهي في سلسلة العلل والمعلولات الى الله سبحانه كائنا ما كان أو من كان .

ثانيا : ان العادات والتقاليد العامة ، والميول والشهوات الانسانية ليست عللا تامة للفعل ، ولا اسبابا ضرورية تلجىء الانسان الجاء اليه ، والا لما وجد في التاريخ عباقرة ونوابغ قاوموا بيئتهــم ، وتمردوا عــلى شهواتهم .. بل قد رأينا افرادا ــ ليسوا ابطالا ولا عباقرة ــ خالفــوا ميولهم وعادات مجتمعهم .. فالزواج ــ مثلا ــ تدعو اليــه الشهــوة والتقاليد الاجتماعية ، ومع ذلك رفضه من رفضه بملء ارادته واختياره. كما ان الذين اقدموا عليه اقدموا ، وهم مختارون . لانهــم لــو شاءوا احجموا عنه .

ثالثا : ان قول الامام « خلقت لي جسما وجعلت لي فيه آلات اطيعك بها واعصيك ، واغضبك وارضيــك الخ » يدل على مبدأ الحريــة لا الاكراه . وذلك ان في الكون خيرا وشرا ، وتكوين الانسان يساعده على عمل الخير والشر على حد سواء ، ولكن الله سبحانه امره بترك هــذا ، وفعل ذاك ، فاذا اطاع فقد اطاع ، وهو قادر على المعصية ، واذا عصى فقد عصى ، وهو قادر على الطاعة ، وبهذا الاعتبار يكون مستطيعا لا مجبورا .. اجل ، ان فعل الطاعات يحتاج الى توفيق الله وعنايته ، ولــكن هذا

التوفيق ، وهذه العناية لا تبلغ حد القسر والاضطرار ، ولذا سأل الامـام ربه تعالى ان يوفقه لما يرضيه ، حيث قال : « واستوفقك لما يرضيـك .. فان سؤالي لا يحيفك » اي انه هين عندك ، سهل لديك .

ورب قائل . لماذا اقدر الله سبحانه وتعالى على المعاصي ، وهو لا يرتضيها ؟.

الجواب : ان الله اقدر العبد عليها حذرا من الالجاء ، لان المعصية اذا لم تكن مقدورة ، وكان الانسان مجبورا على تركها لم يستحق ثوابـا ولا عقابا ، ولا كان للجهاد والنضال في سبيل تلافي النقص والشر اي اثر، ولا لتقسيم الانسان الى طيب وخبيث ومخطىء ومصيب اي معنى .. لان الناس جميعا ، والحال هذه ، كريشة في مهب الريح ، وخشبة في اليم .

الأنبيـاء

من هو النبي ؟

النبي بشر يعبر عن ارادة الله عز وجل . « وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى » . ومن انكر رسالته ورد عليه فقد انكر الوحـي ، ورد على الله ، والمؤمن الصالح هو الذي يصدق ما انزل اليه ، وينقـاد لامره ونهيه . « ومن يطع الله والرسول فقد فاز فوزا عظيما » .

مهمة النبي :

ومهمة النبي ان يرشد الناس الى ما فيه صلاحهم دنيـا وآخرة . « رسولا يتلو عليكم آيات اللـه مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملـوا الصالحات من الظلمات الى النور » وبالنبي تجب الحجة لله على خلقه ، ولا يبقى لهم مجال للاعتذار ، ولا للخروج عن المسؤولية سبيل .

طريق الوحي :

اما اتصال النبي بالله فمن طرق ثلاثـة : الوحي يلقى في روع النبي وقلبه ، والكلام يخلقه الله في الشجرة وما اليها ، والملك يحمل الرسالات من الله الى النبي ، فيبلغها النبي بدوره الى من ارسل اليهم ، وقد اشارت الآية ٥١ من سورة الشورى الى هذه المراتب الثلاث . « وما كان لنبي

ان يكلمه الله الا وحيا او من وراء حجاب او يرسل رسولا » • وقيل ان النبي الذي القى الله الوحي في روعه هو داوود ، والذي كلمه من وراء حجاب هو موسى ، اما محمد فقد ارسل اليه رسولا : « الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس ـ ٧٥ الحج » •

وكذلك رؤيا النبي فانها مرتبة من مراتب الوحي ؛ فلا يرى رؤيا الا جاءت كفلق الصبح •

الحاجة الى الانبياء :

يعتقد أهل الاديان كافة ان الناس يحتاجون الى الانبياء ، تماما كما يحتاجون الى المهندسين والاطباء ، ومن اليهم • اما الذين لا يدينون بدين فيسخرون من فكرة النبوة والوحي ، ويستبعدون ان يتصل بالسماء رجل مثلهم ، يأكل الطعام ، ويمشي في الاسواق • ورد الله على هؤلاء بقوله : « ولو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم ملكا رسولا ـ ٩٥ الاسراء » •

ومما استدل به انصار الوحي على وجوب البعثة وارسال الانبياء بانه بعد ان دلت البراهين على وجود خالق الكون ، وانه منزه عن كل شبيه ومثيل وانه حكيم عالم بالمصالح والمفاسد والخير والشر ، وان عقول الناس لا تساعدهم على معرفة ما يصلح معاشهم ومعادهم • لذا تحتم ان يرسل الله اليهم رسلا مبشرين ومنذرين ، آمرين بالخير ناهين عن الشر ، مرشدين الى الله تعالى ، وما يجب أن يُعرف من صفاته ، مبلغين اوامره ونواهيه ، ووعده ووعيده ، مبينين ما فرضه على الناس من عبادات، وقرره من معاملات • وما الى ذلك مما يتصل بمهمة الانبياء والمرسلين •

العصمة :

من الصفات الهامة في الانبياء العصمة . وهي صفة تصونهم عن الوقوع في الخطأ في تلقي الوحي ، بحيث يعونه كما هو ، وعن الخطأ في التبليغ . فيلقونه الى الناس تماما كما تلقوه عن الله . وتصونهم ايضا عن الوقوع في المعصية ليأتمروا بما امروا وينتهوا عما نهوا . ولولا العصمة هذه لقلّت الثقة بهم ، وانتفت الفائدة من بعثهم . وانتقض الغرض من ارشادهم .

وبكلمة ان النصوص الدينية بحد ذاتها جامدة لا حراك فيها وانما تحيا بتطبيقها والعمل بها . واذا لم يكن القائم على الدين والشريعة هو الدين والشريعة متجسمين في شخصه لم يتحقق الغرض المقصود . ومن هنا قال الامام : ذاك القرآن الصامت . وأنا القرآن الناطق .. ولا معنى للعصمة وراء ذلك .

المعجزة :

ولا بد لكل نبي من معجزة تدل على نبوته ، وتشهد له بالصدق والامانة . ومن شروط المعجزة التي تظهر على يد النبي ان تكون خارقة للعادة مقصودا بها التحدي . كمعجزة ابراهيم الذي لم تحرقه النار . وناقة صالح التي خرجت من الصخرة . وعصا موسى التي ابتلعت العصي والحبال . واحياء الموتى على يد عيسى . والقرآن الذي نزل على محمد .

عند الامام :

تكلم الامام عن الاسلام بعامة وعن محمد بخاصة في مواعظه التي حث فيها على التقوى والاعتبار بالماضين . وقد تضمنت هذه المواعظ

المبادىء التي ذكرناها . وغيرها مما يتصل بالرسول والرسالة فمن اقواله :

● واصطفى سبحانه من ولده ـ اي من ولد آدم ـ انبياء اخذ على الوحي ميثاقهم ، وعلى تبليغ الرسالة امانيهم .

● بعث رسله بما خصهم من وحيه ، وجعلهم حجة له على خلقه لئلا تجب الحجة لهم بترك الاعذار اليهم .

● اختار من خيار صفوته امناء على وحيه .

● لم يخل الله سبحانه خلقه من نبي مرسل . او كتاب منزل . او حجة لازمة . او محجة قائمة .

فالنبي بشر من ولد آدم اختاره الله من بين خلقه وائتمنه على وحيه ، وأمره تبليغ رسالته الى عباده لئلا يكون لهم على الله الحجة ، وبديهي ان هذه الحجة لا تتم الا مع العصمة عن الخطأ ، والا احتاج الرسول المخطىء الى رسول آخر يصحح خطأه ويردعه عنه ويتسلسل الى ما لا نهاية .

وما دام القصد القاء الحجة وجب قيامها في كل زمان . وليس من الضروري ان تتمثل بالنبي فحسب ، بل تتمثل ايضا بكتاب منزّل من السماء ، و « بحجة لازمة » وهي الامام الذي ينوب عن النبي ، او « بمحجة قائمة » اي طريق العدل . وهو هنا الشريعة الواضحة .

قدم النبوة :

ومن أقواله في هذا الباب : « على ذلك نسلت القرون ، ومضت الدهور ، وسلفت الآباء ، وخلفت الابناء » .

أي ان دعوة الانبياء وجدت منذ اقدم العصور ، وآمن بها ملايين الملايين قديما وحديثا وتوارث هذا الايمان الاجيال جيلا بعد جيل ، وحتى اليوم يؤمن أكثر سكان المعمورة بالانبياء وتعاليمهم ، وغير بعيد ان يأتي يوم تجتمع فيه كلمة الناس في الشرق والغرب على الايمان والعمل بالفضيلة والعدالة ، تماما كما دعا اليها الانبياء ، ونزلت بها كتب السماء .

طهارة الآباء والامهات :

اتفق المسلمون جميعا على ان النبي ، كل نبي ، يعلو بفطرته وعقله وعلمه وخلقه على جميع الناس في عصره ، بعيد كل البعد عما يشوه سمعته وسيرته ، سليم في بدنه عما تنبو عنه الابصار ، وتنفر منه الاذواق ، وزاد الشيعة شرطا آخر هو ان جميع آباء النبي يجب ان يكونوا مطهرين عن الشرك والعهر من لدن آدم الى الابوين الاخيرين ، واستدلوا بأدلة منها قول الرسول الاعظم «ص» : « نقلنا من الاصلاب الطاهرة الى الارحام الزكية » وقول الامام في بعض خطب نهج البلاغة :

« تناسختهم كرائم الاصلاب الى مطهرات الارحام ، كلما مضى منهم سلف قام منهم بدين الله خلف ، حتى أفضت كرامة الله سبحانه الى محمد «ص» فأخرجه من افضل المعادن منبتا ، واعز الارومات مغرسا ، من الشجرة التي صدع منها انبياءه ، وانتخب منها امناءه ، عترته خير العتر ، واسرته خير الاسر ، وشجرته خير الشجر » .

وقال في شأن محمد مع العرب : « ان الله بعث سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم نذيرا للعالمين ، وأمينا على التنزيل ، وانتم معشر العرب على شر دين ، تسفكون دماءكم ، وتقطعون ارحامكم : الاصنام فيكم

منصوبة ، والآثام فيكم معصوبة » أي ثابتة .

وكفى دليلا على جهل العرب ، وضلالهم قبل محمد ما سجله عليهم القرآن الكريم الذي يؤمنون به ايمانهم بالله وانفسهم ، حيث قال عز من قائل في الآية ٢ من سورة الجمعة : « وهو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » .

الحياة بعد الموت

ان مسألة حياة الانسان بعد موته شغلت البشرية منذ وجودها ؛ حتى اليوم .. فقد تكلم عنها ارباب الاديان كأصل من اصول الديـن والعقيدة ، وبحثها الفلاسفة كنظرية يرجع في اثباتها او نفيها الى العقل ؛ وأنكرها من انكرها ، مستبعدا ان يعود الانسان الى حالته الاولى ؛ بعد ان يصبح ترابا وعظاما .

ورد الله سبحانـه على من ينكـر البعث بقولـه : « ولقد علمتم النشأة الاولى فلو لا تذكرون .. قال من يحيي العظام وهي رميم قـل يحييها الذي أنشأها اول مرة .. وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهـو اهون عليه وله المثل الاعلى في السموات والارض وهو العزيز الحكيم » . الى غير هذه من الآيات .

وقال الامام الذي يستقي آراءه واقواله من الوحي :

« وليس فناء الدنيا بعد ابتداعها بأعجب من انشائها ، واختراعها ، وكيف ؟ ولو اجتمع جميع حيوانها من طيرها وبهائمهـا ، ومـا كان من مراحها وسوائمها ، واصناف اسناخها واجناسها ومتبلدة أممها واكياسها ، على احداث بعوضة ما قدرت على احداثهـا ، ولا عرفـت السبيل الى ايجادها .. ورجعت خاسئة حسيرة » .

وشرحت هذا الدليل في كتاب « فلسفة المبدأ والمعاد » شرحا مفصلا ، واشرحه هنا باسلوب آخر ، وهو ان الذين ارتابوا في البعث لا سبب لارتيابهم الا ان الطبيعة بذاتها عاجزة عن اعادة الانسان كما كان بعد ان صار رميما ، لان الطبيعة بما فيها من قوى غير مؤهلة لتحويل عظام الانسان وترابه الى ما كان عليه من قبل ، وانما هي مؤهلة الى تحويل ترابه الى نبات ، وما الى ذاك مما يتولد ويترتب على قواها .. وبكلمة ان الطبيعة ليست سببا لخلق الانسان من جديد بعد موته ، بل هي سبب لجعله ترابا او نباتا .

وهذا القول يصلح للرد على من يدعي بأن الطبيعة هي السبب الوحيد لاعادة الانسان دون غيرها . اما اذا قلنا : ان سبب الاعادة هو بالذات سبب الابتداء ، وان الذي أوجد الانسان من قبل ولم يكن شيئا هو الذي سيعيده الى الحياة ثانية . اما هذا القول فلا ينكره الا من كابر الحس وعاند الوجدان ، والا من ذهل حتى عن نفسه واصل وجوده .. ان اعادة الانسان بعد ان يصبح ترابا وعظاما اهون بكثير ــ ان صح التعبير ــ من ايجاده من لا شيء .

ومن هنا اكتفى الامام بهذه الاشارة للتدليل على ان اليوم الآخر آت لا ريب فيه . وأطال في وصف أحواله واهواله . ووجوب الاستعداد لحسابه ، والنجاة من عقابه .. فمن أقواله :

« واتقوا نارا حرها شديد ، وقعرها بعيد ، وحليتها حديد ، وشرابها صديد ، الا وان اللسان الصالح يجعله الله للمرء في الناس خيرا له من المال يورثه من لا يحمده » .

ومنها في تقسيم الناس يوم الحساب الى نوعين :

« فأما أهل طاعته فأثابهم بجواره ، وخلدهم في داره حيث يظعن النزال ، ولا تتغير بهم الحال ، ولا تنوبهم الافزاع ، ولا تنالهم الاسقام ولا تعرض لهم الاخطار ولا تشخصهم – اي تزعجهم – الاسفار .

« واما اهل المعصية فانزلهم شر دار ، وغل الايدي الى الاعناق ، وقرن النواصي بالاقدام ، وألبسهم سرابيل القطران ومقطعات النيران في عذاب قد اشتد حره وباب قد اطبق على اهله ، في نار لها كلب ولجب . ولهب ساطع وقصيف هائل ، لا يظعن مقيمها ولا يفادي اسيرها ولا تفصم كبولها » .

ومر على مقبرة فخاطب الاموات بقوله : « يا اهل الدار الموحشة . والمحال المقفرة . والقبور المظلمة . يا اهل التربة . يا اهل الغربة . يا اهل الوحدة . يا أهل الوحشة . انتم لنا فرط سابق . ونحن لكم تبع لاحق . أما الدور فقد سكنت . واما الازواج فقد نكحت . واما الاموال فقد قسمت ... هذا خبر ما عندنا . فما خبر ما عندكم ؟ »

ثم قال : « اما والله لو اذن لهم في الكلام لأخبروكم ان خير الزاد التقوى » .

وأقواله في هذا الباب لا يبلغها الاحصاء ، وهي تجمع بين منطق الوحي ، وزهد المسيح ، وبلاغة القرآن .

واذا عرفنا ان افعال الامام تنسجم مع اقواله ، كما صرح بذلك في قوله : «والله ما احثكم على طاعة الا واسبقكم اليها، ولا انهاكم عن معصية الا وأتناهى قبلكم عنها » اذا عرفنا ذلك عرفنا انه كان يزن جميع الاقوال والاعمال ، وكل ما يتصل بهذه الحياة ، يزنه في ميزان الآخرة ، وفي تقوى الله لا المنافع الخاصة ، حتى المصالح العامة هي خير لانها الوسيلة الى الله

سبحانه . فحياة الآخرة عند الامام ليست مسألة نظرية ، وصحة عقيدة . وكفى . بل هي عملية قبل كل شيء ، ووجودها أقوى وأتم واكمل من موجودات عالمنا هذا المحسوس ، وبالتالي فليس لدى الامام من علاج لادواء الافراد والمجتمعات الا التقوى والخوف من غضب الله وعقابه . اما الربح والكسب في هذه الحياة فليس بشيء والى هذا اشار بقوله : « واعلموا ان ما نقص من الدنيا ، وزاد في الآخرة خير مما نقص من الآخرة ، وزاد في الدنيا . فكم من منقوص رابح ، ومزيد خاسر ، ان الذي امرتم به اوسع من الذي نهيتم عنه . وما احل لكم اكثر مما حرم عليكم ، فذروا ما قل لما كثر ، وما ضاق لما اتسع ، قد تكفل لكم بالرزق وامرتم بالعمل » .

ورب قائل يقول : ان هذه نظرة قديس مؤمن ، لا نظرة فيلسوف عليم .

قلنا في جوابه : ان الفيلسوف هو الذي يبحث عن الاسباب ، ويميز بين ما يؤدي منها الى الخير ، وما يكون وسيلة الى الشر والويل ، ويحذر من هذه . ويرغب في تلك ، تماما كما يفعل الطبيب ، يبحث عن اسباب الداء ، ويأمر بالوقاية منها . وقد رأى الامام ان الانسان لو عرف نفسه ، واطاع ربه ، ووقف عند حده ، ولم يطمع بغيره لانتفى الشر من الأساس . واستؤصل الداء من الجذور ، وارتاح الناس من مشاكل الحياة .. وليس من شك ، في انه لو نظر الانسان ، كل انسان الى اشياء هذه الحياة كما نظر اليها الامام لعاش الناس في كل جيل اخوانا في الله ، عاملين في سبيله موقنين بعنايته وكفالته .

ولان هذه الدار ليست بشيء في نظر الامام الا مجازا او ممرا للآخرة ، فقد فلسف اللذة والالم بانهما انما وجدا في هذه الحياة للتعريف بنعيم الجنة ، وعذاب جهنم في اليوم الآخر . قال :

« ايها الناس ان الله تبارك وتعالى لما خلق خلقه اراد ان يكونوا على آداب رفيعة ، واخلاق شريفة ، فعلم انهم لم يكونوا كذلك الا بان يعرفهم ما لهم وما عليهم ، والتعريف لا يكون الا بالامر والنهي ، والامر والنهي لا يجتمعان الا بالوعد والوعيد ، والوعد لا يكون الا بالترغيب . والوعيد لا يكون الا بالترهيب ، والترغيب لا يكون الا بما تشتهيه انفسهم وتلذه اعينهم ، والترهيب لا يكون الا بضد ذلك .

ثم خلقهم في داره ، وأراهم طرفا من اللذات ، ليستدلوا به على ما وراءهم من اللذات الخالصة التي لا يشوبها ألم ، الا وهي الجنة ، وأراهم طرفا من الآلام ليستدلوا به على ما وراءهم من الالام الخالصة التي لا يشوبها لذة ، الا وهي النار ، فمن اجل ذلك ترون نعيم الدنيا مخلوطا بمحنها وسرورها ، ممزوجا بكدرها وغمومها » .

يؤمن الشيعة بأصل يعبرون عنه بقاعدة اللطف (1) وهي ان الله سبحانه بعد ان يأمر بالخير ، وينهى عن الشر ، يو جد شيئا آخر يقرب العبد من الطاعة ، ويبعده عن المعصية . على ان لا يحمل العبد على الفعل قهرا عنه ، بحيث يبلغ حد الالجاء . بل هو مشوق ومرغب في الطاعة والامتثال . وهذا المشوق هو وعد المطيع بالثواب ، ووعيد العاصي بالعقاب .

وكلام الامام صريح بذلك حيث قال : « ان الله سبحانه لم يوجه الامر والنهي لعباده . وكفى ... بل وعدهم بالثواب على الطاعة ، والعقاب

---

(1) رايت كلمة الفيلسوف الغربي « سبينوزا » هي تعبير ثان عن قاعدة اللطف التي قال بها الشيعة ، قال هذا الفيلسوف : ان غرض الدين ليس تلقين العلم فقط ، بل اخذ الناس بالطاعة وصالح الاعمال ، اي بالمعرفة والعلم « مقام العقل عند العرب » لطوقان ص ١٨٥ طبعة ١٩٦٠ .

على المعصية ، وفي الوعد تشويق وترغيب وباعث على عمل الخير ، وفي الوعيد ترهيب وزاجر عن عمل الشر . ولكي يعرفوا عظمة الثواب الذي يكافأ به الطيبون ، ووقع العذاب الذي يجزى به الخبيثون ، أراهم في حياتهم هذه طرفا من اللذات وطرفا من الآلام ليقيسوا الغائب على الشاهد. وبالتالي ، تتم لله عليهم الحجة من جميع الوجوه .

وكان اصحاب النبي يتسابقون للموت بين يديه حين يسمعون قوله تعالى : « وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض اعدت للمتقين » حتى ان عمير بن الحمام لما بشره النبي بالجنة يوم احد ، وكان يأكل ثمرات ، فالقاها من يده وقال : لئن انا حييت حتى آكل ثمراتي هذه ، انها لحياة طويلة وما زال يقاتل حتى قتل . وكان الوالد يقتل ولده ، والاخ اخاه من اجل رسول الله طمعا في الجنة ، وخوفا من العذاب .

في الانسان

الانسان

كان الانسان وما زال موضوعا للدين والعلم والتشريع والطب والادب والفن ، وللحياة بكاملها ، وكل اهل فن يتكلمون عن الناحية التي تدخل في اختصاصهم من الانسان .

اما الفلاسفة فقد بحثوا في حقيقته . هل هي من روح وبدن ، او من بدن فقط ؟.. وأطاعوا الكلام عن جوهر النفس وبساطتها وروحانيتها ، وعن كيفية علاقتها بالبدن ، وتكلموا عن مصدر الانسان ومآله . من اي شيء خلق وتكوّن ؟ وهل يحيا مرة ثانية بعد الموت ، او لا شيء سوى حياته الاولى ؟ وتحدثوا عن غرائزه وتنوعها ، وعن عقله ، وحواسه الظاهرة والباطنة . ثم هل هو مختار في افعاله . ام مسير الى غير ذلك .

اما كلام الامام عن الانسان ، او ما اطلعت انا عليه من كلامه ، فيتناول الجهات التالية :

١ ــ التعظيم من شأن العقل ، وانه السبب الاول للمعرفة ، وان اي طريق من طرقها لا يعتبر شيئا اذا لم يحكم العقل بصحته ، وان كل ما يتنافى معه ويأباه فهو باطل وضلال . ونقلنا طرفا من اقواله في ذلك في فصل « اسباب المعرفة عند الامام » .

٢ ـ ان الانسان اذا صقل عقله بالعلم شارك السبع الشداد ، واتى بالعجب العجاب ، وقال للشيء كن فيكون .

٣ ـ ان في الانسان من الصفات والغرائز المتضاربة ما تجعله مجمع الاضداد ، ومثال التناقض . فهو يقوى الى حد يجعل معه طيور السماء ووحوش الارض . وما فوقها وتحتها أطوع اليه من بنانه . ويضعف الى حد تؤلمه البقة ، وتقتله الشرقة ، وتنتنه العرقة . ونقلنا في فصل « هل كان الامام علي فيلسوفا ؟ » ما قاله في وصف القلب ، « ان سنح له الرجاء اذله الطمع . وان هاج به الطمع اهلكه الحرص الخ » .

٤ ـ ان الانسان هو الغاية الاخيرة لهذه الموجودات ، ومن اجله خلقت ووجدت . وعبر الامام عن ذلك بقطعة جاءت اروع وابلغ ما عرفته اللغات منذ وجودها : « فالله سبحانه قبل ان يخلق الانسان خلق الكون ، ورتبه احسن ترتيب . ونظمه اجمل تنظيم ، ومهد الارض . واتم مرافقها على اكمل الوجوه ، فخلق فيها الهواء الطلق ، واجرى فيها العيون والانهار ، واعد انواع الاطعمة والاشربة ، ومن كل الثمرات . وانبت فيها النبات والزهر مختلفا ألوانه . وزينها بزينة الكواكب مصابيح ترسل الاضواء والانوار . وبعد ان اتمها . وجمع فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين أخرج اليها الانسان واسكنه فيها على ان يكون خليفته في ارض يحيا في كنفها ، ويعيش في خيراتها . ويمضي في اقواله وافعاله ، ونواياه ومقاصده وفق احكام الله سبحانه وارادته تماما كرب الاسرة الذي يبني دارا واسعة شاسعة ، مع حدائقها وساحاتها ، وعيونها ، ويؤثثها بأفخر الاثاث واثمنه . ويملأها بالمؤونة الكافية الوافية . ثم يسكن فيها اهله وولده مطيعين شاكرين » . قال في احدى خطب النهج . وهي المعروفة بخطبة الاشباح :

« فجر ينابيع العيون من عرانين انوفها [1] وفرقها في سهوب بيدها واخاديدها . وعدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها .. وفسح بين الجو وبينها . واعدل الهواء متنسما لساكنها . واخرج اليها اهلها على اتم مرافقها ... في تبهج بزينة رياضها . وتزدهي بما ألبسته من ريط [2] ازاهيرها ، وحلية ما سمطت به انوارها [3] وجعل ذلك بلاغا للانام [4] ورزقا للانعام . وخرج الفجاج في آفاقها . واقام المنار للسالكين على جوادّ طرقها » .

ولا احد اشقى ممن يذهل عن هذه النعم التي يعجز عن شكرها واداء واجبها اعبد العابدين ، واطوع المطيعين .

٥ ـ القوى البدنية في الانسان . وانها كالقوى النفسية من حيث الحاجة اليها . والفوائد المترتبة عليها . فالسمع يعي الاصوات . والبصر يعرف السبل والالوان . والجسم يجمع الاعضاء الملائمة التي تسهل الحركة وتعين على بلوغ الغاية . والعقول لتدبير الارزاق والشؤون قال :

« جعل لكم اسماعا ، لتعي ما عناها ، وابصارا لتجلو عن عشاها ، واشلاء جامعة لاعضائها ، ملائمة لاحنائها ، في تركيب صورها ، ومدد عمرها . قائمة بارفاقها . وقلوب رائدة لارزاقها . في مجللات نعمه . وموجبات منته . وحواجز عافيته . وقدر لكم اعمارا سترها عنكم . وخلف لكم عبرا من الماضين قبلكم » .

---

(١) العرنين ما صلب من عظم الانف المراد به هنا اعالي الجبال .
(٢) الريط الثوب الرقيق .
(٣) السمط الخيط . اي ان الازاهير منتظمة ، حتى كأنها نظمت في خيط .
(٤) المراد بالبلاغ البلغة من القوت .

نبه الامام بقوله هـذا الى نعم الله تعالى على الانسان بعقلـه واعصائه . كما نبه من قبل على ما اوجد له من خيرات الارض والسماء . اما الفائدة من جهل الانسان بعمره ومدة حياته فلأنه لو علم ذلك لترك العمل . وترقب الموت وتحكم فيه اليأس . ولم يهنأ بعيش ، فكان الخير كل الخير ان يحجـب عنـه مبلغ عمره ، ومدى اقامته في هذه الدار .

٦ ـ لا صلة بين جسم الانسان وروحه من حيث الحسن والقبـح فقد يكون حسن المنظر ، ولكنه ناقص العقل . وطويل القامة ولكنـه قصير الهمة . وزاكي العمل ولكنه قبيح المنظر . ذلك ان الجسم يتكيف بحسب الارض التي عاش عليها ، وهي تختلف باختلاف البلدان والاوطان ولا يمكن تبديلها او تعديلها . فلا يمكن بحـال جعل القصير طويـلا ، والاسود ابيض . اما الروح فانهـا تنمو بالتربيـة والتعليم وتتهذب بالرياضيات والمجاهدات . قال الامام :

« انما فرق بينهم مبادىء اوطانهم ، وذلك انهم كانوا فلقة مـن سبخ الارض وعذبها وحزن تربتها وسهلها .. فتام الرواء ناقص العقل . وماد القامة قصير الهمة . وزاكي العمل قبيح المنظر . وقريب القعر بعيد السبر » .

وقال : « الناس ثلاثة : فعالم رباني .ومتعلم على سبيـل نجاة . وهمج رعاع اتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح . لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا الى ركن وثيق » . وقال : « اذا أرذل الله عبدا حظـر عليه العلم » فالاخلاق تتفاوت بسبب العلم والجهل ، والاجسام تختلف باختلاف الارض والتربة .

٧ ـ حياة الانسان بعد الموت ، وخلوده في الحياة الأخرى ، وانه

رهن بما كسبت يداه ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشر ، وذكرنا ذلك في الفصل السابق .

٨ ـ اطوار الانسان منذ بداية تكوينه حتى النفس الاخير . فأبو البشر خلق من الارض مباشرة . اما نسله فقد توالدوا من نطفة جميع موادها من الارض . ولكن الارض منها الطيب وغير الطيب ، والانسان خلق من جميع قواها وعناصرها . قال :

« ثم جمع سبحانه من حزن الارض وسهلها . وعذبها وسبخها تربة سنها بالماء ، حتى خلصت ، ولاطها بالبلة ، حتى لزبت . فجبل منها صورة ذات احناء ووصول . واعضاء وفصول . اجمدها حتى استمسكت . واصلدها حتى صلصلت . لوقت معدود . وامد معلوم . ثم نفخ فيها من روحه فمثلت انسانا ذا اذهان يجيلها . وفكر يتصرف بها . وجوارح يختدمها ، وادوات يقلبها ، ومعرفة يفرق بها بين الحق والباطل والاذواق والمشام والالوان والاجناس ، معجونا بطينة الالوان المختلفة ، والاشياء المؤتلفة ، والاضداد المتعادية ، والاخلاط المتباينة من الحر والبرد ، والبلة والجمود » .

اشار بهذا الى ان آدم ابا البشر جمع في ابتداء خلقه وتكوينه ، من عذب الارض ومالحها ، وغليظها وسهلها ، ثم اصبح طينا ، ثم على هيئة الانسان، له اعضاء ومفاصل، ثم صار الطين صلصالا يابسا كالفخار، ثم انسانا سويا ، له عقل يميز فيه بين الحق والباطل ، والضار والنافع ، وذوق وسمع وبصر ، وما الى ذلك ، وبالتالي ، كان مخلوقا عجيبا مؤلفا من عناصر متضاربة لا يجمعها جامع غير الانسان ، ولا يحويها احد سواه. ومن هنا خوطب الانسان بهذا البيت :

وتحسب انك جرم صغير وفيك انطوى العالم الاكبر

وقد نسب هذا البيت الى الامام ، واذا لم يكن هو قائله فقد اخذ من قوله .. ومهما يكن ، فانه يعبر عن حقيقة واقعة ، وهي ان هذا الجسم الصغير المحدود الضيق يحتوي على قوة تسع كل شيء ، ولا يسعها شيء ، وتستطيع ان تفعل كل شيء ، وتملك كل شيء في السموات والارض ، اما هي فلا يملكها سوى خالقها .

اما ابن آدم فقد تكوّن من النطفة التي مصدرها الارض ، ثم ارتقى الى علقة ، الى جنين ، الى رضيع ، الى وليد ، الى يافع ، الى رجل .

قال الامام :

« ام هذا الذي أنشأه في ظلمات الارحام ، وشغف الاستار ، نطفة دهاقا ، وعلقة محاقا ، وجنينا وراضعا ، ووليدا ويافعا ، ثم منحه قلبا حافظا ، ولسانا لافظا ، وبصرا لاحظا ، ليفهم معتبرا ، ويقصر مزدجرا »

ما دام في الرحم فهو جنين ، فاذا ولد فوليد ، وما دام يرضع فرضيع ، فاذا فطم ففطيم . فاذا مشى فدارج ، فاذا سقطت اسنانه فمثغور. فاذا نبتت من جديد فمثغر ، فاذا بلغ عشرا فمترعرع ، فاذا كاد يبلغ الحلم فمراهق ويافع ، فاذا احتلم فشاب الى الاربعين ، فاذا تجاوزها فكهل الى الستين ، وبعدها يكون شيخا (١) .

وهناك جهات اخرى تكلم عنها الامام ، سنعرض بعضها في الفصول

---

(١) قال الامام : « العمر الذي اعذر الله فيه الى ابن آدم ستون سنة » . وانا الآن في التاسعة والخمسين ، واكتب هذه الكلمات في الهواء الطلق ، والجو الهادىء الجميل بين الربيع وازهاره ، والى جانب النهر ، وتحت اشجار الحور في بلدة « شتورة » بلبنان يوم السبت ٦ نيسان سنة ١٩٦٣ .

التالية ، وعلى أية حال ، فان الامام يهتم اول ما يهتم بعمل الانسان . بما يكون به مرضيا ومقبولا عند الله ، قريبا من رحمته وجنته ، بعيدا عن عذابه ونقمته .. لانه سبحانه لم يكلف احدا البحث في كنهه ، ولا التعمق في ماهيته ، وانما كلفه بصالح الاعمال ، فان اراد احد الحديث عن الانسان نفسه ، فليقتصر على ما فيه عبرة وعظة ، كأن يفكر من اي شيء وجد ؟ وفي اية دار هو ؟ والى اي مدى يستمر ويبقى ؟ والى اية حفرة يسير ؟ وكيف يحاسب ؟ وبماذا يجازى ويكافأ ؟

وبالتالي ، فان الامام لم ينظر الى الانسان كما نظر اليه الفلاسفة من انه حيوان ناطق ، او روح وبدن ، وانما نظر اليه من الوجهة الاخلاقية العملية ، وترك الرأي والنظر الى سواه ، ورأى ان حقيقة الانسان وقيمته هي ما يحسنه من العلم والعمل ، لذا اهتم في بيان ما ينبغي ان يكون عليه، كمسؤول عن نفسه واسرته ومجتمعه ، وعن مصيره ومآله .

وهذا ما نجده في المؤلفات الجديدة ، ويدور على ألسنة وأقلام مفكري هذا العصر في الشرق والغرب ، قال « غايتان بيكون » في كتاب «الادب الفرنسي الجديد» ترجمة «نبيه صقر والاب الشمالي» : «لايكتب محاولو اليوم كما كان يكتب محاولو الامس عن معرفة الانسان لذاته ، واكتشاف طبيعته ، بل يكتبون عن مصير الانسان ، وكيف، يسعى الى صنع هذا المصير ..

ان مشاكل العمل هي التي يدور حولها الوجدان المعاصر ، وهذا الوجدان هو نقد وتتائج النشاط البشري ، وبحث عن القيم » .

المرأة

قال الامام :

● معاشر الناس ، ان النساء نواقص الايمان ، نواقص الحظوظ ، نواقص العقول ، فاما نقصان ايمانهن فقعودهن عن الصلاة والصيام في ايام حيضهن (١) ، واما نقصان حظوظهن فمواريثهن على الانصاف من مواريث الرجال ، واما نقصان عقولهن فشهادة امرأتين كشهادة الرجل الواحد ، فاتقوا شرار النساء ، وكونوا من خيارهن على حذر .

● المرأة شر كلها ، وشر ما فيها انه لا بد منها .

● المرأة عقرب حلوة اللسبة ، اي اللدغة .

● اياك ومشاورة النساء ، فان رأيهن الى افن ، وعزمهن الى وهن ، واكفف عليهن من ابصارهن بحجابك اياهن ، فان شدة الحجاب ابقى عليهن (٢) .

وقالت فئة لا نصيب لها من التحقيق والمحاكمة : « ان الامام نظر الى المرأة من خلال رأيه بعائشة صاحبة الجمل ، حيث عارضت حكمه وخلافته ، وألبت عليه الجموع ، وجيشت الجيوش .. ولولا موقفها منه

(١) واليوم تركن الصلاة والصيام ، حتى ايام طهرهن .
(٢) من وصية له لابنه الامام الحسن .

لم ينظر الى المرأة هذه النظرة التي تحط من شأنها وتنقص من قدرها » .

الجواب :

١ ــ ان معارضة عائشة وموقفها من الامام ليس بأعظم من موقف طلحة والزبير اللذين بايعا ، ثم نكثا البيعة ، وحرضا عائشة على الخروج ، واركباها الجمل الذي خلع اسمه على تلك الوقعة ، ولا بأعظم من موقف معاوية وابن العاص وغيرهما من القاسطين ، ولا بأعظم من موقف الخوارج المارقين . ولو صح تفسير رأي الامام في المرأة بكراهيته لعائشة التي فعلت ما فعلت .. لوجب ان يكون رأيه في الرجل ، تماما كرأيه في المرأة ، لان طلحة والزبير ومعاوية وابن العاص ومن لف لفهم فعلوا ما فعلت عائشة وزيادة .

٢ ــ جرت العادة ان يكره الانسان ويحقد على القوي دون الضعيف ، وعلى الغالب دون المغلوب ، وعائشة كانت اسيرة ذليلة بين يدي الامام ، حتى قالت نادمة آسفة : « ليتني لم اكن ولم اخلق » .

٣ ــ هل بلغ باب مدينة العلم من الغفلة والذهول حدا اصبح يقيس معه النوع على الفرد ، والكل على الجزء ، ويحكم على طبيعة المرأة ومواهبها من خلال رأيه بصاحبة الجمل ؟

٤ ــ متى كان لعلي الذي يدور معه الحق كيفما دار ، شهوات وميول تتنافى مع الواقع ، حتى يستمد آراءه منها ، وينطق بوحيها ؟.. أحين أكرم عائشة واطلقها بعد الاسر ، او حين تمكن سيفه ذو الفقار من رقبة ابن العاص وبسر بن ارطاة فعفا عنهما ، او حين سقا الماء لاعدائه بعد ان منعوه منه ؟..

أعلي بن ابي طالب ينظر الى المرأة ، ويحكم عليها او على غيرها من

خلال شخصيته ، وما يتصل بها من قريب او بعيد ، وهو القائل : « اولى الناس بالعفو اقدرهم على العقوبة .. العفو زكاة الظفر » والقائل : « احصد الشر من صدر غيرك بقلعه من صدرك » . والقائل : « متى اشفي غضبي اذا غضبت ؟.. احين اعجز عن الانتقال ، فيقال : لو صبرت ؟ او حين اقدر عليه ، فيقال : لو غفرت » ؟

وصدق الاستاذ جرداق حيث يقول :

« اذا كانت القوانين المتعارف عليها تسمح لابن ابي طالب بان يحارب المتآمرين به ، فانه لا يفعل الا بعد ان يراعي كل جوانب الحنان في نفسه وقلبه ، وبعد ان يستشير كل روابط الاخاء البشري في نفوس مقاتليه وقلوبهم ... وهو ان فعل في خاتمة الامر فانما يفعل مكرها لا مختارا ، حزينا باكيا لا فرحا ضاحكا ، فاذا شعوره بالنصر بعد القتال آلم من شعور مناوئيه بالهزيمة » .

٥ ـ اذا كان بغض عائشة او حبها ، يوحي بالنظرة العامة الى المرأة فان النبي كان يحب عائشة ـ على ما قيل ـ ، وعليه ينبغي ان يكون رأيه في المرأة حسنا وعلى غير رأي الامام ، مع انه نعتها بنفس الوصف الذي نعتها به الامام .. فقد جاء في الجزء الاول من صحيح البخاري كتاب الحيض ، باب ترك الحائض الصوم ما نصه بالحرف الواحد :

« خرج رسول الله في اضحى او فطر الى المصلى ، فمر على النساء، فقال : يا معشر النساء ، تصدقن فاني اريتكن اكثر اهل النار . فقلن : بم يا رسول الله ؟ قال : تكثرن اللعن ، وتكفرن العشيرة ، ما رأيت ناقصات عقل ودين اذهب للب الرجل الحازم من احداكن . قلن : وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله !؟ قال : أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل !. قلن : بلى . قال : فذلك من نقصان عقلها !. أليس اذا

حاضت لم تصل ، ولم تصم !. قلن : بلى . قال : ذاك من نقصان دينها » .

هذا رأي من قيل : انه كان يحب عائشة ، وهو تماما كرأي من قيل : انه كان يبغضها.. وكأن الامام قد نظر الى الذين يقعون فيهذه التناقضات، وما اليها ، فخاطبهم بقوله : « ان اكثر الحق فيما تنكرون ، واعذروا من لا حجة لكم عليه » .

وحاول البعض ان يعتذر عن الامام ، ويحمل كلامه في المرأة على ما يتمشى مع العصر بزعمه ، فأوله بأن الامام قال ما قال ، وهو لا يعني طبيعتها ومواهبها من حيث هي ، وانما اراد تلك المرأة التي كانت ايام زمان ، والتي اهملها الرجل ، ولم يعتن بشأنها وتهذيبها .. ولو افسح لها مجال العلم والعمل لم تفترق عنه في شيء ، ولا امتاز هو عنها في شيء .

ان الركيزة الاولى لرأي الامام في المرأة هو الاسلام بالذات ، ولا شيء سواه ، ونحن نعتقد ان الاسلام وصف المرأة من خلال سلوكها وتصرفاتها التي تصدر عن طبيعتها وفطرتها .

والآن نعرض ما جاء عن المرأة في الاسلام ، لتتضح نقطة البداية التي انطلقت منها اقوال الامام وآراؤه في المرأة ، كما هو شأنه في جميع اقواله وافكاره .

جاء في الآية ٢٨ من سورة يوسف : « ان كيدكن عظيم » وهذه الجملة وان كانت حكاية لقول العزيز الا انها تشعر بحقيقة المرأة، وبخاصة اذا لاحظنا قصة يوسف بمجموعها .

ومن الطريف قول بعضهم : ان كيد النساء اعظم من كيد الشيطان ، حيث وصف الله كيد الشيطان بقوله : « ان كيد الشيطان كان ضعيفا » ووصف كيد النساء بأنه عظيم ..

وجاء في الآية ٣٣ من سورة النساء : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من اموالهم » .

وفي الحديث : « شاوروهن وخالفوهن .. ما افلح قوم ولوا امرهم امرأة » ومر حديث ناقصات العقول والايمان عن صحيح البخاري .

هذا، الى ان فقهاء الاسلام قد افتوا مستندين الى المصادر الاسلامية بما يلي :

١ ــ ان دية المرأة نصف دية الرجل ، فمن قتل رجلا عمدا فدينه الف دينار ، ومن قتل امرأة فديتها ٥٠٠ (١) .

٢ ــ الطلاق بيد الزوج دون الزوجة .

٣ ــ ليس لها ان تمتنع عن الفراش ، ولا ان تخرج من بيته الا برضاه ، وله ان يفعل ما يشاء .

٤ ــ لا تجب عليها صلاة الجمعة ، حتى ولو تحققت الشروط الموجبة بالنسبة الى الرجال .

٥ ــ لا يجوز لها ان تتولى الامرة ولا القضاء .

٦ ــ لا يجوز ان تكون اماما في الصلاة للرجال ، ويجوز للرجل ان يكون إماما للنساء .

٧ ــ لا تقبل شهادتها في غير الاموال لا منفردة ، ولا منضمة الى

---

(١) الف دينار تبلغ ثلاث كيلوات ونصف و٢٩ غراما من الذهب الخالص وقدرها بعضهم بخمسمئة ليرة عثمانية .

الرجال الا في مسألة الولادة ، وتقبل في الاموال منضمة الى الرجال ، على ان تكون شهادة امرأتين بشهادة رجل واحد .

٨ ــ للانثى من الميراث سهم ، وللذكر سهمان .

٩ ــ عليها ان تستر عن الرجال الاجانب شعرها ، وجميع بدنها ما عدا الوجه والكفين ، ولا يجب على الرجل ان يستر عن النساء سوى القبل والدبر .

١٠ ــ لا جهاد عليها ، ولا جزية ، ولا تقتل في الحرب ما لم تقاتل . ولذا قال الشاعر :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

١١ ــ لا تشارك الام الاب في الولاية على وليدهما الصغير في الزواج ولا التصرف في امواله ويستقل هو في جميع ذلك .

١٢ ــ لا تصح معها المسابقة والرماية (١) .

١٣ ــ افتى الفقهاء بان من قتل انسانا عن خطأ لا عمد تحمل الدية عن القاتل من يتقرب اليه بالاب ، كالاخوة والاعمام واولادهم ، ويسمون هؤلاء بالعاقلة ، ولا تدخل المرأة معهم .

١٤ ــ اذا قتلت امرأة رجلا قتلت به بلا شرط ، واذا قتل رجل امرأة

---

(١) المسابقة ان يتسابق اثنان على الخيل او ما اليها على ان يكون للسابق جعل معين ؛ والرماية ان يرميا الى هدف معين على ان يأخذ الجعل من يصيب الهدف .

فلا يقتل بها الا بعد ان يدفع وليها نصف الدية لورثة القاتل .

وبعد ان اتضح بهذه الارقام مكانة المرأة في الاسلام فلا يبقى مجال المقول بان الامام نظر اليها من خلال معارضة عائشة له ، وموقفها منه .. ان اقوال الامام وآراءه وواقعه هو واقع الاسلام واقواله هي اقوال القرآن لا يفترقان ابدا ، حتى يرد الحوض على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما جاء في الحديث الشريف .

وبالتالي ، فان الامام لم يخلق لنفسه ، وانما وجد وخلق ليمثل الاسلام على حقيقته ، فاذا فكر ، او قال ، او فعل فلا يخرج في جميع ذلك عن دائرة الاسلام .

وليس من شك ان الاسلام حرر المرأة مما كانت فيه ، واعتبرها انسانا بعد ان كانت حيوانا او متاعا عند اكثر الامم او الكثير منها ، لا عند العرب فحسب .

قال الفيلسوف الانكليزي الشهير المعاصر « برتراند راسل » في كتاب « السلطان » ترجمة خيري حماد ص ٢٥٨ طبعة ١٩٦٢ : « يقول القديس بولس : « ان الرجل هو صورة الله ومجده ، واما المرأة فهي مجد الرجل ، لان الرجل ليس من المرأة ، بل المرأة من الرجل ، ولم يخلق الرجل لأجل المرأة ، بل المرأة خلقت لاجل الرجل ــ فصل ١١ ــ آية ٧ ــ ٩ » .

وقيل ان شريعة حمورابي هي افضل الشرائع السابقة وخيرها فيما يتعلق بالمرأة وحقوقها ، وقد نصت هذه الشريعة على ان الرجل لو ضرب ابنة رجل آخر ، وكانت حبلى ، فماتت من وقع الضربة تعدم ابنة الضارب .. ومعنى هذا ان البنت مجرد سلعة يملكها الاب ، وتنتزع منه عقوبة له

حين يرتكب نوعا من الجرائم .

ويكفي للتدليل على مكانة المرأة في الاسلام ان انصارها يلجأون دائما الى القرآن ، واحاديث الرسول ، ليعززوا اقوالهم ، ويفحموا خصومهم .. وكون المرأة انسانا لها مثل الذي عليها لا يمنع ابدا ان يكون الرجل حاميها وعائلها ، واعرف منها في كثير من امور الدين والدنيا . وأوفر نصيبا في بعض المواهب .

وأود ان اوجه للذين يدعون ان للمرأة كل ما للرجل من صفات خلقية ، اوجه اليهم هذين السؤالين :

لو خيرت المرأة — بوجه العموم — بين ان تكون محترمة ذات مكانة ووجاهة ، وبين ان تكون مثيرة للشهوات ، فايهما تختار ؟

ثم هل عانت البشرية في تاريخها الطويل من الرجل ، كما عانت من المرأة ؟ هل عرف التاريخ ان الرجل ، بما هو رجل، اثار الحروب والفتن والمفاسد لاسباب جنسية ، كما اثارتها المرأة ، بما هي امرأة ؟

فكم حطمت من عروش وأودت بصروح ، وأراقت من دماء ؟ لا لشيء الا من اجل شهواتها ، واشباع رغباتها ؟

انا الآن اكتب هذه الكلمات — ١٨/٦/١٩٦٣ — والصحف والاذاعات في شغل شاغل بعاهرة ظهرت في انكلترا تسمى « كريستين كيلر » اتصلت في آن واحد بوزير الحربية « جون بروفيومو » وبالملحق البحري الروسي ، وبثلاثة امراء من البيت المالك ، ويزيد دخلها في الشهر ٢٥ مرة عما يتقاضاه رئيس الوزراء ، و ٢٥٠ مرة عما يتقاضاه النائب ، و ٥٠٠ مرة عما يتقاضاه رجل الدين .. ، وحدثت بسببها مشكلة كبرى

هزت بريطانيا من اقصاها الى اقصاها ، وشغلت مجلس العموم اياما وأسابيع ، وأودت او كادت بوزارة ماكميلان ، رئيس وزراء بريطانيا ، اذ أظهرت الدلائل ان لعلاقاتها الغرامية بوزير الحربية والملحق الروسي في آن واحد اسبابا تتصل بأمن البلاد .

وقد اثبتت التجارب ان المرأة خير اداة للتجسس والتخريب ، وكسب المال الحرام ، والاغراء بالغدر والخيانة والفسق والفجور . ومن هنا عبر عنها الحديث الشريف بحبائل الشيطان ، وشبكة ابليس .

وبالتالي ، فان من تتبع المصادر الاسلامية يرى الاسلام نظر الى المرأة نظره الى الضعيف الذي يستوجب العطف والشفقة ، ولم ينظر اليها نظره الى الانسان القوي الذي يستطيع الدفاع عن نفسه ، ومن هنا شبهها بالقوارير ، واوصى الرجل ان يرحمها ويرفق بها .. هذي هي الحقيقة ، ومن نسب الى الاسلام غيرها فقد نسب اليه ما لا يعلم .. اما بقصد صالح ، واما انه يهدف الى حل مشكلات الشباب المراهقين عن طريق الاختلاط والماريات المائلات .

إحتجاج الامام علي خصومه

ذكرنا في فصل سابق مقام العقل عند الامام ، ونذكر هنا امثلة من اعتماده عليه في حجاجه ونقاشه مع خصومه السياسيين .

مع ابي بكر :

وهب رسول الله صلىالله عليهوآله وسلم ابنته فاطمة الزهراء فدكا، فاستثمرتها وتصرفت بها في حياته ، وبعد ان تمت البيعة لابي بكر انتزعها من ابنة الرسول مدعيا انها ملك للمسلمين .

فقالت له : لم تمنعني نحلة ابي ، وقد جعلها لي بأمر الله ؟

قال : هاتي شهودا على ذلك .

فقال الامام لابي بكر : هل تحكم فينا بغير حكم الله في المسلمين ؟

قال ابو بكر : لا .

قال الامام : ان كان في يد المسلمين شيء يملكونه ، وادعيته انا لنفسي ، فمن تسأل البينة ؟

قال ابو بكر : اياك أسأل .

قال الامام : اذن ، كيف سألت البينة من فاطمة على ما في يدها ، ولم تسأل المسلمين البينة ، كما سألتني على ما ادعيت ؟

فسكت ابو بكر ، وقال عمر : دعنا من كلامك يا علي ، فانا لا نقوى على حجتك .

وكيف يقوى على الحجة من يطلب البينة من شخص مدعيا كان او مدعى عليه ؟ ان الامام استدرج ابا بكر الى الاعتراف بان البينة على من ادعى على الغير ، ثم الزمه الحجة بانه طلبها من الامام المدعى عليه ، لا من الغير المدعي ..

وفي ذات يوم خلا ابو بكر بالامام ، وقال له : ما لك تضمر عليّ ما لا استحقه منك ؟.. فوالله ما كان الامر لرغبة مني فيه ، ولا لحرص عليه.

فقال له الامام : اذن ، ما الذي حملك عليه ما دمت لا ترغب فيه ، ولا تحرص عليه ؟

قال ابو بكر : اجتمعت الامة عليّ ، والرسول يقول : « لا تجتمع الامة على ضلال » .

قال الامام : ألست انا وسائر بني هاشم ، وسلمان وابو ذر وعمار والمقداد ، والزبير وسعد بن عبادة ومن معه من الانصار ، أليس هؤلاء جميعا من الامة ، وقد تخلفوا عن بيعتك ؟

فسكت ابو بكر ، ولم يجد الجواب .

يدعي ابو بكر انه خليفة الرسول ، والقائم الحافظ لشريعته ، واحتج لخلافته بالاجماع ، فأبطل الامام حجته بكلمة تفيض بالقوة والافحام ، حيث قال لابي بكر : كيف تدعي الاجماع ، وقد خالف كثير من الاصحاب ؟ وكيف تكون حافظا لشريعة محمد ، وهو القائل : البينة على المدعي ، وانت تطلبها من المدعى عليه ؟

مع الزبير :

قال الامام للزبير : ان اصحاب الجمل ملعونون على لسان محمد ،

وقد خاب من افترى .

قال الزبير : كيف نكون ملعونين ، ونحن من اصحاب الجنة ؟

قال الامام : لو علمت انكم منها ما قاتلتكم .

قال الزبير : روى سعيد بن عمرو بن نفيل عن رسول الله ان عشرة من قريش في الجنة .

قال الامام : ان سعيدا حدث بهذا عثمان ايام خلافته .. ثم سألـه من هم العشرة ؟

قال الزبير : ابو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن ابي وقاص وابو عبيدة وسعيد بن عمرو بن نفيل ، اي راوي الحديث .

قال الامام : هؤلاء تسعة ، فمن العاشر ؟

قال الزبير : انت .

قال الامام : لقد اقررت على نفسك بأني من اهل الجنة ، وهـذه حجتي عليك ... اما دعواك لنفسك فأنا بها من الجاحدين .

قال الزبير : اترى سعيدا كذب على رسول الله .

قال الامام : ما اراه كذب ، ولكنه والله اليقين . اذا قلت لآخـر « لك علي عشرة ، ولكن لي عليك مثلها » تؤخذ باقرارك على نفسك ، ويحكم عليك بأن تدفع العشرة . عملا بمبدأ اقرار العقلاء على انفسهم نافذ ، اما قولك ان لك عشرة فهو ادعاء ، وعلى المدعي البينة .

مع طلحة :

كان طلحة يحرض على قتل عثمان ، وبعد ان تحقق ما اراد خرج مع مروان بن الحكم مطالبا بدمه ليكيد للامام ، ويستر جريمته .. فاغتاله مروان . وهما يقاتلان عليا جنبا الى جنب ، لانه اعرف الناس بمقاصده وماضيه مع عثمان ، وقال الامام يرد على طلحة :

« والله ما استعجل متجردا المطلب بدم عثمان الا خوفا من ان يطالب بدمه لانه مظنته ، ولم يكن في القوم أحرص عليه منه – اي احرص على سفك دم عثمان – فأراد ان يغالط بما اجلب فيه ، ليلبس الامر ، ويقع الشك . ووالله ما صنع في امر عثمان واحدة من ثلاث ، لئن كان ابن عفان ظالما – كما كان يزعم – لقد كان ينبغي له ان يؤازر قاتليه ، او ينابذ ناصريه . ولئن كان مظلوما لقد كان ينبغي له ان يكون مع المنهنهين عنه ، والمعذورين فيه ، ولئن كان في شك من الخصلتين لقد كان ينبغي له ان يعتزله ، ويركد جانبا ، ويدع الناس معه ، فما فعل واحدة من الثلاث ، وجاء بأمر لا يعرف بابه ، ولم تسلم معاذيره » .

فطلحة لا يخلو من هذه الحالات الثلاث ، اما ان يكون معتقدا بأن عثمان ظالم ، واما مظلوم ، واما لا يعتقد هذا ولا ذاك ، ولا يعرف من امره كثيرا ولا قليلا .. وعلى الاول ينبغي لطلحة ان يعلن العداء لعثمان ، ولا يدس عليه الدسائس في الخفاء ، وعلى الثاني ينبغي له ان يدافع عنه ، وعلى الثالث ينبغي ان يقف محايدا لا معه ولا عليه ، وطلحة لم يفعل واحدة من هذه الثلاث ..

وليس هذا القول من الامام مجرد نقاش وجدل يهدف الى الزام طلحة وافحامه ، وانما هو حقيقة واقعية ، تماما كقولك اما ان يكون هذا الانسان بالذات عاقلا الآن ، واما ان لا يكون عاقلا ، الان ولا ثالث لهذين الفرضين .

مع معاوية :

اتهم معاوية الامام بدم عثمان ، فأجابه : لقد بذلت نصرتي لعثمان فرفضها ، وطلبها منك فخذلته ، وخليت بينه وبين الموت فمن هو المعتدي أنا او انت ؟.. قال :

« فأينا كان أعدى له ، واهدى الى مقالته ؟.. أمن بذل له نصرته . فاستقعده ، واستكفه ـ اي قال له : اقعد وكف ـ او من استنصره فتراخى عنه ؟.. »

وقال معاوية للامام فيما قال : ان الخلافة صرفت الى غيرك من المهاجرين ، فأجابه الامام :

« لما احتج المهاجرون على الانصار يوم السقيفة برسول الله . فلجوا عليهم ـ اي انتصروا ـ فان يكن الفلج به فالحق لنا دونكم ، وان يكن بغيره فالانصار على دعواهم » .

يشير الامام الى حجة الانصار حين طلبوا الخلافة ، وقالوا : نحن آوينا النبي وناصرناه . والى رد المهاجرين عليهم ، وقولهم : نحن قومه واقرباؤه .. وتتلخص حجة الامام على المهاجرين ومن ناصرهم بكلمة واحدة ، وهي انه اقرب الناس الى النبي ، ان تكن الخلافة بالقرابة ، والا فالمهاجرون والانصار وجميع المسلمين سواء .

وما زالت هذه الحجة حية ، حتى اليوم يحتج بها الشيعة في كل مناسبة ، ولا اعرف حقيقة تصدم المعاندين اكثر من هذه الحقيقة ، حيث لا يستطيعون لها ردا ولا جوابا .

مع الخوارج :

ظهر الخوارج في جيش الامام حين التجأ معاوية الى التحكيم بعد ان همّ بالفرار ، فرفضه الامام ، ولكن الخوارج حملوه عليه مضطرا لا مختارا ، ثم اعتبروا التحكيم جريمة كبرى ، وخرجوا على الامام من اجله ، وهم السبب ، وقطعوا الطريق ، واخافوا الناس ، وقتلوا عبد الله ابن خباب والمصحف في عنقه ، فقال الامام محتجا عليهم :

« فان أبيتم الا ان تزعموا اني اخطأت وضللت ، فلم تضللون عامة امة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بضلالي ، وتأخذونهم بخطأي ، وتكفرونهم بذنوبي ... سيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع البرء والسقم ، وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب ؟.. »

وكان شعار الخوارج : « لا حكم الا لله » ، فقال الامام :

« كلمة حق يراد بها باطل . نعم لا حكم الا لله ، ولكن هؤلاء يقولون : لا امرة الا لله .. وانه لا بد للناس من امير بر ، او فاجر ، يعمل في امرته المؤمن ، ويستمتع الكافر ، ويبلغ الله فيه الاجل » .

اما ان « لا حكم الا لله » كلمة حق فلأن احكام الله سبحانه لا تفوض لاحد من خلقه ، بخاصة اذا كان مثل ابي موسى الاشعري وابن العاص . فان تشريع الاحكام لله وحده ، واما ان الخوارج قد ارادوا بها باطلا فلأنهم يهدفون من ورائها الى نفي الامرة كلية التي يلزمها نفي ولاية الامام وامرته ، مع ان امور الناس لا تستقيم بحال دون امير عادل او فاجر ، اذ لا بد للناس من رادع يردعهم عن الاعتداء والاجرام ، والرادع واحد من اربعة ، العقل والدين والعجز والسلطان ، وقد رأينا

اكثر الناس لا يتعظون بعقل ولا دين ، فوجود السلطان الرادع ضروري اذن ، حتى ولو كان جائرا ، ومن هنا قيل :

ان الذين يرتدعون بالسلطان اكثر من الذين يرتدعون بالقرآن . وان ما يلتئم بالسنان لا يلتئم بالبرهان .

ان هذه الامثلة ، وما اليها تعطينا الدليل على مدى اعتماد الامام على منطق العقل في مناقشاته ، وسائر ادلته واقواله ، كما تدلنا على ان عقل الامام لا ينفصل عن الواقع ، وليس كغيره من العقول النظرية التي تخطىء وتصيب .

التأويل

العقل والوحي :

اتفق المسلمون بكلمة واحدة على ان ادلة الشرع والطرق الى معرفة احكامه تنحصر في الكتاب والسنة والاجماع والعقل . وايضا اتفق الكل او الجل على ان ما من شيء في الكتاب والسنة يتنافى مع قضية من قضايا العقل ، لان الجميع اسباب وطرق لمعرفة شيء واحد ، هو حكم الله سبحانه ، ومن هنا قال المحققون ان الشرع عقل من الخارج ، والعقل شرع من الداخل ، واستدلوا بقوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون ـ ٣٠ الروم » حيث سمى العقل دينا ، وفي آية اخرى « نور على نور » اي نور العقل ونور الشرع ، وهما من نور الله ، ويهدي الله لنوره من يشاء .

هذا ، الى اننا بالعقل نثبت صدق الوحي ، فلو جاء العقل على خلافه لكان الدين اسطورة من اساطير الاولين ، ويكفي دليلا على عدم مناهضة العقل للشرع ان العقل هو المصدر الاول للتكليف ، فاذا فقد ارتفع التكليف رأسا بشهادة الرسول الاعظم حيث قال : « رفع القلم عن الصبي ، حتى يكبر ، وعن المجنون ، حتى يفيق ، وعن النائم ، حتى يستيقظ » واشتهر على كل لسان : « اذا اخذ ما وهب سقط ما وجب » .

ظاهر الوحي :

جاء في القرآن آيات تتنافى بظاهرها مع العقل مباشره ، او بالواسطة ومن النوع الاول قوله تعالى : « وجاء ربك والملك صفاصفا » . وقوله : « الرحمن على العرش استوى » .. وقوله : « يد الله فوق ايديهم » ، وقوله : « كل شيء هالك الا وجهه » ، وما الى ذلك مما ظاهره التجسيم الذي نفاه العقل .

ومن النوع الثاني ، وهو ما يتنافى مع العقل بالواسطة قوله تعالى : « فيوم لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان ــ ٣٩ الرحمن » وقوله : « فوربك لنسألنهم اجمعين عما كانوا يفعلون ــ ٩٢ الحجر » فان كل آية من الآيتين بمفردها لا تناقض العقل في شيء ، ولكن اذا عطفنا احداهما على الاخرى حصل التناقض ، لان هذه تثبت السؤال والحساب ، وتلك تنفيه .. والتناقض باطل بحكم العقل .. فماذا نصنع ؟ هل نبقي اللفظ على ظاهره، ونلصق بالاسلام المعنى المفهوم منه ، حتى ولو ناقض العقل ، ونقول : ان لله يدا ووجها وعرشا ، وان الانسان غدا مسؤول وغير مسؤول في آن واحد ، او نصرف اللفظ عن معناه الى معنى آخر ، ونخرجه من دلالته الحقيقية التي رفضها العقل الى دلالته المجازية التي يقرها ولا يأباها ، من غير مخالفة للسان العرب ــ وهذا هو معنى التأويل ــ او نسكت عن التأويل ، ونقول : الله اعلم ؟

الاقوال :

قال قوم ، ومنهم الحنابلة ببقاء الظاهر على دلالته الحرفية ، وان خالف العقل والبديهة ، وغالى البعض ، حيث قال : ان الله جسم ذو اعضاء ، وان اعضاءه بكاملها تفنى وتهلك الا وجهه اخذا بظاهر قوله تعالى : « كل شيء هالك الا وجهه » . وقوله : « كل من عليها فان ويبقى

وجه ربك ذو الجلال والاكرام » (١) .

وذهب الشيعة الامامية والمعتزلة والأشاعرة الى وجوب التأويل بما يتفق مع العقل ، وان سلك كل في فهم الآيات وتأويلها طريقا يتفق مع مذهبه ، ولا يختلف عن طريق الآخر .

الفلاسفة :

وتكلم الفلاسفة المسلمون عن التأويل ، واعتبروه من جملة البحوث الفلسفية الهامة ، لانه من شؤون الوحي الذي هو احد طرق المعرفة من جهة ، وليقبل الناس فلسفتهم ، ويقابلوها بالتسامح من جهة اخرى ، وبتعبير ثان ان هؤلاء الفلاسفة يؤمنون بقدم العالم ، ونفي الجسمية ولوازمها عن الله سبحانه ، وبانه يعلم الكليات دون الجزئيات ، وان الانسان يحشر غدا بالروح دون الجسم ، وفي الوقت نفسه يؤمنون بنظرية الوحي والنبوة .. وقد رأوا ان كثيرا من الآيات القرآنية ، والاحاديث النبوية تدل بظاهرها على حدوث العالم ، ونسبة الجسمية الى الله والجزئيات الى علمه ، كما تدل على حشر الاجسام ، لذا اهتموا كل الاهتمام في ان يوفقوا بين العقل ، ويثبتوا للناس ان الوحي لا يعارض الفلسفة ، بل هما اخوان متآلفان ، ولازمان لا يفترقان .. لقد اهتم الفلاسفة بالتأويل اي اهتمام ، حتى قال بعض المستشرقين : ليس للمسلمين من فلسفة تذكر الا هذا التأويل والتوفيق .

---

(١) وما اشبه هذا القول بما ذهب اليه جماعة من علماء اللاهوت المسيحي ، حيث فصلوا بين ما يثبته العقل ، وما يقوله الوحي ، وجزموا بانه من الممكن للانسان ان يؤمن بامور يثبت العقل عكسها .. اما توما الاكويني اللاهوتي الكبير فقال : يجب ان يتفق العقل والوحي ، ولا يجوز بحال ان يعلم الوحي ما يأباه العقل ، ما دام كل منهما سبيلا الى الحقيقة .

السابق الى التاويل :

والسابق الاول الى هذا التأويل ، وتحكيم العقل في الدفاع عن مبادىء الاسلام والتوفيق بين العقل وظاهر الوحي ، هو الامام علي بن ابي طالب ، وتلميذه عبد الله بن عباس ، واولاد الامام واحفاده من بعده . واذا كان للمعتزلة نصيب من ذلك فقد اخذوه عن رئيسهم واصل ابن عطاء ، واخذه واصل من استاذه ابي هاشم بن محمد بن الحنفية . فقول القائل ان المعتزلة سبقوا الجميع الى تأويل النصوص الشرعية تبعا لما يقتضيه منطق العقل لا يرتكز على اساس من التحقيق والبحث المجرد .

ولدينا من تراث الامام في هذا الباب ما لو جمع لجاء في كتاب مستقل ، ونقدم في هذه الصفحات أمثلة من اقواله تعطينا الدليل القاطع على ان الامام كان القدوة والمثل الاعلى للمعتزلة وغيرهم في تقديس العقل ، ومنحه الحرية التامة في ان يقبل من ظاهر الوحي ما يبدو له ممكنا ويرفض ما يبدو له مستحيلا .

اهل التاويل :

لقد اول المعتزلة وغيرهم بعض النصوص الشرعية ، وحاولوا التوفيق بينها وبين العقل ، ولكنهم اعتمدوا على الاعتبار والاستحسان ، واجروا النصوص على عقولهم ، ومذاهبهم التي ورثوها عن الآباء ، او تلقوها من الاساتذة ، بخاصة المتصوفة الذين لا يملكون سوى الفاظ جوفاء يطلقونها على اشياء لا عين لها ولا اثر .. وبديهة ان دين الله لا يصاب بالعقول ، وان مراده عز وجل لا يكتشف بالاعتبار والاستحسان ، وانما يعرف من ظاهر كلامه فاذا تيقنا ان الظاهر غير مراد وجب التوقف والاحجام عن ابداء الرأي الا مع الدليل القاطع على مراده ، لان السكوت

على الجهل بخاصة في الامور الدينية اولى من الافتراء على الله سبحانه .

لذا قال ابو بكر حين سئل عن بعض الآيات : « اي سماء تظلني . وأي أرض تقلني اذا قلت في كتـاب الله ما لا اعلم ؟ » وجاء في الحديث الشريف : « من قال في القرآن برأيه فأصاب ، فقد اخطأ » . ولا يوجد هذا الدليل القاطع الا عند من احاط علمـا بالدين وحقائقه ، والعقـل ودقائقه ، كالامام علي بن ابي طالب الذي قال :

« سلوني قبل ان تفقدوني .. سلوني عن كتاب الله فو، مـا نزلت آية من كتاب الله عز وجل في ليل او نهار ، ولا مسير او مقام الا وقد أقرأنيها رسول الله (ص) وعلمني تأويلها ، فقال له قائل : « فما كان ينزل عليه ، وانت غائب ؟ » قال الامام : « كان يحفظ علي ما كان ينزل عليه من القرآن ، وانا غائب عنه ، حتى اقدم عليه ، فيقرئنيه ، ويقول لي: يا علي انزل الله عليّ بعدك كذا وكذا ، وتأويله كذا وكذا ، فيعلمني تأويله وتنزيله .. فوالذي برأ النسمة لو سألتموني عن اية آية .. ناسخها ومنسوخها ، ومحكمها ومتشابهها ، وتأويلها وتنزيلها لأخبرتكم » .

اذن ، فلا بدع ان يقول الامـام : « ذاك القـرآن الصامت ، وانا القرآن الناطق » وان نقول نحن : ان تأويل الامام هو تأويل النبي الذي نزل القرآن على قلبه ، وان عقله عين الواقع ، واليقين القاطع .

وبالتالي ، فان التأويل يتصل اتصالا وثيقا بالعقيـدة التي عليهـا مدار الكفر والايمان ، ومن ثم فلا يؤذن به الا الذين اوتوا الحكمـة وفصل الخطاب ، والا لذوي البصائر والالباب العارفين بالله ودينه وكتابه الذي فيه تبيان كل شيء ، وعلى هؤلاء العارفين ان يتمسكوا بظـاهر الشرع المقدس ، ولا يخرجوا عنه لقول فيلسوف ، ولا لقول الفلاسفة مجتمعين الا بعد القطع بالصحة ، فانهم اجمعـوا على صحة كثـير من

النظريات ، ثم اثبت الزمن خطأهم ، وبعدهم عن الواقع ، منها تأويلهم نبعض آيات القرآن الذي لا يعلم تأويله الا الراسخون .

قال الامام : ان في الكتاب تبيان كل شيء ، وهو يصدق بعضه بعضا ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ، وان ظاهره انيق ، وباطنه عميق ، لا تفنى عجائبه ، ولا تنقضي غرائبه ، ولا تنكشف الظلمات الا به .. وقال : « ان في القرآن ما لا يعرفه الا الله وامناؤه والراسخون في العلم » .

الأمثـــلة :

جاء في كتاب « الاحتجاج » للطبرسي حديث طويل أوّل فيه الامام عددا من الآيات المتشابهة . نذكر طرفا منها ، مع شيء من التصرف في الالفاظ ، لغاية التوضيح ، مع المحافظة التامة على المعنى . اما سبب الحديث فان رجلا قال للامام : لولا ما في قرآنكم من اختلاف وتناقض لدخلت في دينكم . فقال له الامام : واين هذا الاختلاف ؟ فسرد العديد من آي الذكر الحكيم تدل بظاهرها على دعواه .. وبعد ان بين له الامام أوجه التأويل الصحيح اقتنع ، وقال : شكر الله لك يا امير المؤمنين استنقاذي من عماية الجهل والشرك .

جـاء ربـك :

قال الرجل : ورد في القرآن ما يثبت لله المجيء والاتيان ، مع العلم بان ذلك لا يجوز عندكم من ذلك . « وجاء ربك والملك صفاصفا » .. « وهل ينظرون الا ان تأتيهم الملائكة او يأتي ربك » .

قال الامام : ان اتيان الله ومجيئه ليس كمجيئنا نحن ، ولا ذهابنا اليه كذهاب بعضنا الى بعض ، ولا قتاله لنا كقتالنا نحن ، ولا رميه

كرمينا ، والآيات التي دلت بظواهرها على هذه الصفات تجري على التأويل ، فقوله وجاء ربك معناه جاء امر ربك ، وقوله حكاية عن ابراهيم اني ذاهب الى ربي معناه اني مخلص له في أقوالي ، ومعنى قاتلهم الله انى يؤفكون لعنهم الله ، ومعنى ما رميت اذ رميت ولكن الله رمى از الله شاء ذلك واراده .

قال الرجل : وماذا اراد بقوله « الرحمن على العرش استوى » ؟..
قال الامام : ان الاستواء على العرش معناه علو امره وكلمته ، وتدبير الخلق بحكمته .

وما كان ربك نسيا :

قال الرجل : جاء في القرآن : « وما كان ربك نسيا » وجاء ايضا : « فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا » فنفى الله النسيان عن نفسه في الآية الاولى ، واثبته لنفسه في الثانية ، وهو تناقض ظاهر .

قال الامام : ان العصاة نسوا الله في دار الدنيا ، ولم يعملوا فيها بطاعته ، فأهملهم يوم القيامة ، ولم يجعل لهم نصيبا من ثوابه ، فكانوا منسيين من الخير ، وهذا اشبه بقول من قال : نسينا فلان اي لا يذكرنا بما نحب ، وعليه يكون المراد بالآية الاولى ان الله حفيظ عليم ، وبالثانية انه لا يثيب العاصين .

رؤية الله :

قال الرجل : اثبت القرآن جواز رؤية الله وامكانها بقوله : « وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة » وآية اخرى نفى امكان الرؤية بتاتا ، حيث قال : « لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار » وهذا هو التهافت بعينه .

قال الامام : ان المراد برؤية الله ان المؤمنين يرون ثوابه ورحمته حين يدخلون الجنة ، لا انهم يرون الله بالذات تعالى الله علوا كبيرا .

تخاصم اهل النار :

قال الرجل : يقول القرآن في بعض آياته : « ثم يوم القيامة يكفر بعضهم بعضا ويلعن بعضهم بعضا » اي المشركون . وقال ايضا : « ان دلك لحق تخاصم اهل النار » [1] ثم جاء في آية اخرى : « اليوم نختم على افواههم وتكلمنا ايديهم وتشهد ارجلهم بما كانوا يكسبون » فهذه تنفي الكلام عن المشركين ، وتلك تثبته .

قال الامام : ان ليوم القيامة مواقف شتى يؤذن في بعضها للمجرمين بالكلام ، فيتكلمون ويتخاصمون ، وفي بعضها يختم على افواههم ، ويعطى الكلام لايديهم وارجلهم ، تماما كما يقف الخصم امام الحاكم . يستمع له حينا ، ثم يأمره بالسكوت ، ويستمع للشهود دونه .

ثم قال الامام للرجل : واعلم انك قد تركت من السؤال اكثر مما يجب عليك ان تسأل عنه ، واني قد اقتصرت على اليسير من التفسير . لعدم حملة العلم ، وقلة الراغبين في التماسه .

وبعد ، فان الامام يعتمد على العقل في تفسير بعض الآيات وعلى العرف في البعض الآخر ، ذلك انه يأخذ بظاهر الدلالة الحرفية تماما كما يفصحها الناس اذا لم يصطدم هذا الظاهر مع العقل ويلجأ الى التأويل بما يتفق مع العقل اذا حصل التصادم ، لان كلا من العقل والشرع حق ، والحق لا يضاد الحق ، بل يوافقه ، ويشهد له ، وعلى هذا يكون التأويل اما محرما على العلماء وغيرهم ، كما الصورة الاولى ، واما واجبا على ان يتولاه اهل العلم والمعرفة فقط ، كما في الصورة الثانية .

---

(١) وقد راينا الاشرار في حياتنا هذه يتخاصمون ويتراشقون بالتهم فيما بينهم . وكل واحد يقول في صاحبه حقا وصدقا .

في الاخلاق

الاخـلاق

علم الاخلاق :

علم الاخلاق فرع من فروع الفلسفة ، وشعبة من شعبها ، وهـو يبحث في السلوك الانساني ، والمقياس الذي تقاس به الاعمال الخيريـة والشرية ، ليفعل الانسان ما ينبغي فعله ، ويترك ما ينبغي تركه .

والقضايا الاخلاقية عملية بكاملها ، لانها دراسة اعمال وافعال ، من حيث حسنها وقبحها ، لا دراسة آراء ومعتقدات ، من حيث صوابهـا وخطأها ، وبكلمة ان علم الاخـلاق يحل مشاكل عمليـة ، لا مشاكل فكرية (١) .

تمهيـد :

وقبل ان نذكر مقياس الاعمال الخيرية نمهد بما يلي :

لقد انكرت فئة من القدامى والمحدثين وجـود القيم الاخلاقية ، وقالت : ان اعمال الناس ، من حيث هي لا توصف بخير او شر ، ولا بحق او باطل ، ولا بحسن او قبح ، لانه لا شيء من هذه الالفاظ يدل على معنى موجود في نفس الشيء الذي وصف بالخير او بالشر ، فاذا قلت :

---

(١) اي ليست الغاية من علم الاخلاق معرفة الحقائق وكفى ، بـل معرفتها من اجل العمل .

هذا الفعل خير ، فان كلمة خير لا تدل على معنى تدركه الحواس في هذا الفعل ، وانما تدل على شيء آخر .. ثم اختلف هؤلاء في هذا المعنى الآخر الذي تدل عليه الفاظ القيم ، فمنهم من قال : انه مجرد شعور الانسان نحو الشيء ، فاذا قال القائل : هذا خير فانه ، والحال هذه ، يخلع من عنده صفة الخير على الفعل الذي يلائمه ، ويحقق ميوله دون ان يكون في ازاء هذا الوصف شيء في الخارج ، اي ان قوله هذا وصف لشعوره بالذات لا وصف للفعل الخارجي .

ومنهم من قال : ان الفاظ القيم تدل على عقيدة دينية ، وهي الايمان بأن الخير ما اراده الله وأمر به ، وان الشر ما كرهه ونهى عنه ، دون ان تقوم في طبائع الافعال صفة تستدعي الامر او النهي ، وقد ذهب الاشاعرة الى هذا ، وقالوا : ان الفعل في نفسه، وبصرف النظر عن الشرع لا يقتضي حسنا ، ولا قبحا ، وانما الحسن ما أمر به الشرع ، والقبيح ما نهى عنه .. ولو امر بما نهى لصار حسنا بعد ان كان قبيحا ، او نهى عما امر لصار قبيحا بعد ان كان حسنا .

ومنهم من قال : ان ألفاظ القيم اخترعها اصحاب المآرب ، ليتخذوا منها اداة لتحقيق مآربهم ومصالحهم ، فالزهد وضبط النفس والورع والترفع عن الشهوات ، ألفاظ صاغ منها السادة المسيطرون قيودا للمستضعفين ، ليحولوا بينهم وبين ما لهم من حق .. خاف اولئك من هؤلاء ان يثأروا لكرامتهم ، ويتحرروا من السيطرة والاستعباد ، فوضعوا هذه المصطلحات ، ليبقى المغلوبون على امرهم اداة طيعة في يد الغالبين .. وكذلك اخترع الضعفاء ألفاظ الحرية والعدالة والمساواة ، ليحدوا من سلطان الاقوياء ، ولا يستأثروا عليهم بشيء .

واقوى دليل استدل به هؤلاء قولهم : ان الظواهر الخلقية تختلف باختلاف الامم ، بل تختلف في الامة الواحدة باختلاف العصور ،

مما يكون خيرا في مجتمع ما قد يكون شرا في مجتمع آخر ، وما تعده امة فضيلة قد تعده غيرها رذيلة ، وما هذا الاختلاف الا نتيجة حتمية لنفي القيم الاخلاقية ، وعدم وجودها في الخارج .

ونحن نوجه الى هؤلاء هذه الاسئلة : اذا قال لكم قائـــل : لا تحكموا على شيء الا بعد ان تقدموا الأدلة الكافية الوافية على صحـة الحكم ، فهل قوله هذا خير أو شر ؟ وهل الحسد والغرور والكبرياء من نوع الفضيلة او الرذيلة ؟ وهل من الخـير ان يكون القوي في عـون الضعيف ، او ان يستغل القوي الضعيف لصالحه ؟

أما اختلاف الظواهر الاخلاقية لدى الامم فان دل على شيء فانما يدل على ان منطق الجموع لا يصلح مقياسا للخير والشر ، اما نفيهما من الاساس فلا . ويكفي للرد على هذا المذهب ان يكون الطيب والخبيث والمجرم والبريء لديه سواء .

واذا كانت ألفاظ القيم فارغة لا معنى لها كما زعموا ، فان قولهم هذا فارغ لا معنى له .. وقديما قيل : « من نفى الفلسفة فقد تفلســف .. ومن امتنع عن الاختيار فقد اختار » .

وقال الذين وقفوا بالمعرفة عند الاختبار والتجربة ، ولم يتجاوزوا بها الى ما وراء العين والاذن واليد ، قالوا : ان الخير كل الخير في العلم والآلة التي انتجت للانسان ما يأكل ، ويلبس ، ويســكن ، ويركب ، وارتفعت بالحضارة المادية الى عليين ، ثم ربطوا بين تقدم الآلة ، والسلوك الرفيع المهذب ، وقالوا : كلما كان الانسان اكثر اختراعا لها كان على مستوى اعلى من الاخلاق ، فالتقدمية والقيم الاخلاقية تكمن جميعها في التقدم الصناعي .

الجواب :

اولا ــ ان الغرب ابو الصناعات والاختراعات ، ومع ذلك هــو معدن الجرائم والمفاسد .

ثانيا ــ لا نعرف شيئا ضخَّم عملية الحرب ، كما ضخمتها الصناعة وتقدمها ، فهما وحدهما التي قسما العالم الى كتلتين تتسابقان في ميدان التسلح الذري وغير الذري ، حتى وجهتا الانتاج والمجهود البشري الى النار والحديد ، وتركتا مئات الملايين يموتون جوعا .

ثالثا ــ ان وفرة الانتاج الصناعي ادت بالعالم الرأسمالي الى ان يتخذ الحرب والاستعمار واحتكار الاسواق وسيلة لتصرفه واستهلاكه .

ان تقدم الصناعة لا يجــدي نفعا ما لم يكن الانســان تقدميا في انسانيته ، طيبا في نواياه ومقاصده ، خيِّرا في صفاته وغرائزه .. ان رسالة العلم انسانية ما في ذلك ريب ، لكن من المحال ان يؤديها كاملة الا اذا كان في ايدي الاخيار الطيبين .

عند الامام :

ويرى الامام ان القيم الاخلاقية صفات عينية قائمة في نفس الافعال وطبائعها ، ولا دخل في وجودها واصل تقررها لاوامر الدين ونواهيه ، ولا لتشريعات الدولة وقوانينها ، ولا لرغبات الناس وميولهم ، وعاداتهم وتقاليدهم . فالعمل الذي يحقق النفع الشامل والصالح العام يوصف حقيقة بالحسن والخير بغض النظر عن ارادة الخالق او المخلوق ، وكذلك يوصف بالشر كل فعل يعطل المصلحة العامة ، او يلحق ضررا بالجماعة ، او الفرد ، وبكلمة ان الخير هو فعل الخير ، والشر هو فعل الشر بالذات ، ولا تأثير للقوانين او التشريعات ، ولا للدوافع والغايات ، وعلى هذا الرأي سقراط وافلاطون وارسطو وديكارت ، وغــيرهم من فلاسفة الغرب .

اجل ، ان الامام يرى ان من يفعل الخير لا لوجه الخير ، بل لمآرب اخرى لا يعد من الطيبين الاخيار الذين يستحقون الاجر والثواب ، وتكلمنا عن ذلك مطولا في كتاب « الآخرة والعقل » .

من اقوال الامام :

وبعد ان اشرنا الى رأي الامام في الاخلاق ، وان قيمة كل فعل تكمن في باطنه نذكر طرفا من اقواله الدالة على هذه الحقيقة :

قال من وصية له لولده الحسن : « ان الله لم يأمرك الا بحسن ، ولم ينهك الا عن قبيح » .

ومعنى هذا ان حسن الفعل سابق على امر الله ، وقبحه متقدم على نهيه تقدم الموضوع على حكمه ، وعليه يصح القول : ان الله امر بهذا لانه حسن ، ونهى عن ذاك لانه قبيح ، ولا يصح القول ان هذا حسن ، لان الله امر به ، وذاك قبيح ، لان الله نهى عنه كما زعم الاشاعرة .

وقال : « لو لم يتوعد الله على المعصية لكان يجب ان لا يعصى شكرا لنعمه » اي ان قبح المعصية قائم فيها ، وهذا القبح يستدعي تركها . ولو لم ينه الله عنها ، ويتوعد على تركها .

وقال : « الايمان ان تؤثر الصدق ، حيث يضرك على الكذب ، حيث ينفعك » وهذا رد صريح على من قال : ان قوام الاخلاق بتحقق الميول والرغبات ، لا في نفس الافعال والاعمال ، وانه ان يكن هناك ما يسمى خيرا او شرا فان اللذة والمنفعة هي الخير الاسمى ، وان الالم والضرر هو الشر الأقصى .

وسئل الامام عن الفرقة والجماعة ، فقال : ان الفرقة اهل الباطل ،

وان كثروا ، والجماعة اهل الحق ، وان قلوا . وقال : يعرف الرجال بالحق ، ولا يعرف الحق بالرجال .

نفى الامام التلازم بين الحق والأكثرية ، وبين الباطل والاقلية ، ويرى ان هؤلاء قد يكونون محقين ، واولئك قد يكونون مبطلين ، ذلك ان للحق واقعا مستقلا في ذاته يصيبه من اصاب ، ويخطئه من أخطأ ، ولو كانت الاكثرية دائما على صواب ، والاقلية دائما على خطأ لم يبق للاصلاح والمصلحين اي مجال العمل ، ولا كان للانبياء عين ولا اثر ، ولوجب ابقاء ما كان على ما كان ، ولم يجز لاحد ان ينتقد عادة من عادات قومه ، وتقليدا من تقاليدهم ومعلوم ان اكثر الناس تسيرهم العواطف والاهواء ، وصدق الله العظيم ، حيث يقول : « ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن ـ ٧٢ المؤمنون » ، « بل جاءهم بالحق واكثرهم للحق كارهون ـ ٧٠ المؤمنون » .

سؤال :

ورب قائل : ان الاشياء على نوعين : نوع له وجود مقرر في الخارج، بغض النظر عن آراء الناس ومشاعرهم ، كوجود الجبال والانهار ، وما اليها من الكائنات الطبيعية التي لا دخل للانسان فيها ولا اثر له في وجودها ، وان كل ما يستطيعه بالقياس اليها هو ان يصفها ، ويعبر عنها ؛ فان جاءت اقواله مطابقة للواقع كانت صدقا وصوابا ، والا فهي كذب وخطأ .

ونوع آخر لا وجود له في الخارج ، ولا في ذاته ، وانما وجوده يرتبط باعتبار المعتبر ، وفرض الفارض ، كوصف اعطاء الفقير درهما بالاحسان ، فان هذا الوصف مجرد شعور ذاتي نحو الفقير ، ولا وجود له الا في نفس الواصف .

ومن الجائز ان يكون مراد الامام بقوله اهل الحق هم الذين يصفون الواقع الطبيعي بصفاته الحقيقية دون ان يضيفوا عليها شيئا ، او ينقصوا منها شيئا ، واهل الباطل هم الذين يصفون الواقع الطبيعي بغير ما هو عليه ، وما يقال في كلمات الامام يقال ايضا في الآيات القرآنية .

الجواب :

ان الامام اراد بالحق والباطل فعل الانسان الذي يوصف حقيقة بهذا الوصف، لا نفس الكائنات الطبيعية، والدليل على ذلك قوله لابي ذر حين نفاه عثمان : « لا يؤنسنك الا الحق ، ولا يوحشنك الا الباطل » . حيث وصف ثورة ابي ذر على كنز الاموال والاستئثار بها بالحق . ووصف تنكيل عثمان بأبي ذر وتشريده بالباطل .

ومن اقواله : « لا تزيدني كثرة الناس حولي عزة ، ولا تفرقهم عني وحشة ، ولو اسلمني الناس جميعا لم اكن متضرعا » . وليس من شك ان الحق لو كان مرتبطا بشعور الناس لاعتز الامام بتجمعهم حوله . واستوحش من تفرقهم عنه . هذا ، الى ما ذكره الامام من حق الوالد على الولد ، والراعي على الرعية ، والجار على جاره ، والقريب على قريبه ، والى قوله مشيرا الى حذائه البالية : « والله لهي احب اليّ من امرتكم الا ان اقيم حقا أو ادفع باطلا » ولو لم يكن للمثل الانسانية وجود مقرر في نفس الامر والواقع لم يكن لهذه الاقوال وجه ولا معنى .

وبالتالي ، فان الامام لا يعتمد لآرائه وافعاله على التقاليد والعادات، وآراء الجماعات ، مع العلم بأنه كان يحترم شعور الناس ، وتقاليدهم اذا لم تتناف مع الحق في شيء ، قال :

« لا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الامة ، واجتمعت بها الالفة ، وصلحت بها الرعية » .

وقال : « خالطوا الناس مخالطة ان متم معها بكوا عليكم ، وان عشتم حنوا اليكم » .

وقال : « مقاربة الناس في اخلاقهم أمن من غوائلهم » واذا عطفنا قوله هذا على قوله السابق وجب ان تكون المقاربة غير مناهضة للحق .

وليس معنى ثبوت كل من الخير والشر في ذاته ان الناس لا تدركهما ، ولا ترغب في فعل الخير ، وترك الشر اطلاقا ، بل معناه ان وجودهما في الواقع لا يتوقف على رغبات الناس وميولهم ، مع العلم بأن الكثير من هذه الرغبات تتفق تماما مع الخير ، فقد رأيناهم يمدحون الصدق والامانة والمسالمة والاخلاص والحرية والمساواة والتضحية والايثار ، ويذمون الكذب والخيانة والرياء والحرب والاستبداد ، والاستئثار ، ويكرمون الابطال الخيرين ، ويقيمون لهم التماثيل ، وحفلات التكريم ، وقديما قال الشاعر :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

ومع هذا ، فان من الناس من يسلك اساليب ملتوية ، فينفر من الخير ، ولا يميل اليه ، ويهوى الشر ، ويرغب فيه ، كما ان منهم من يعمل بقصد الخير ، فيأتي عمله شرا وضرا ، او يعمل بقصد الشر ، فيأتي عمله خيرا ونفعا .. وان دل هذا على شيء فانما يدل على ان منطق الناس ورغباتهم لا تصلح بحال ان تكون مقياسا نقيس به السلوك ، وقاعدة لاعمال الخير .

المقياس :

كان الانسان الاول ـ حيث يعيش منفردا بذاته في الغابات الكثيفة

والكهوف العارية ـ كان هـــذا الانسان يعبر عن مشاعره ومقاصـــده بالاشارة والصراخ والصفير ، وما الى ذاك ، تماما كما تفعل الطيـور والحيوانات ، وبعد ان عرف الحياة الاجتماعية احتاج الى اللغـة ، ثم الى قواعد عامة ترتكز عليها .

وما يصدق على اللغة يصدق بعينه على السلوك ، فلقد كان كل فرد من افراد الانسان المتوحش يعيش ، وكأنه امة برأسها بعيدا عن روح التأثر بالجماعة ، مستغنيا عن المقاييس والمبادىء ، اذ لا جماعات ، ولا علاقات انسانية ، ولا شيء سوى الفرد والطبيعة ، ولما جاء دور الحياة الاجتماعية اضطر ان يسلك سلوكا خاصا يحفظ به كيان هذه الحياة جيلا بعد جيل .. وجاء الدين والفلسفة بقواعد ومقاييس لتنظيم هذه الحياة . ويعبر عن هذه القواعد بالمقاييس الاخلاقية ، وهي ـ كما ترى ـ منبثقة من الحياة نفسها .

وضابطها ان كل ما يعود على الانسان بالنفع والصلاح فهو خير . وما يعود عليه بالضرر والفساد فهو شر ، سواء اكتشفنا ذلك عن طريق العقل ، والتجربة ، او العرف ، او الوحي .

وليس من الضرورة لان يكون العمل خيرا ـ في نظر الامام ـ ان تترتب عليه فائدة عامة فحسب ، بل قد تكون عامة ، وقد تكون خاصة . على شريطة ان لا تأتي على حساب الغير ، والاضرار به ، قال : لا خير في الدنيا الا لرجلين : رجل أذنب ذنوبا فهو يتداركها بالتوبة ، ورجل يسارع في الخيرات . وقال ايضا : افضل الاعمال ما اكرهت نفسك عليه .

فالتوبة من الذنوب والمعاصي خير ، سواء انتفع بها التائب وحده ، أو هو وسواه ، وكذلك العمل الذي تكره نفسك عليه ، فقد يكون خيرا للجماعة ، وقد يكون خيرا لك بالذات .

وقال : « اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » . فكل عمل يحقق لنا الحياة الطيبة في المستقبل كما يحققها في الحاضر ، ويحل مشاكلنا الآتية كما يحل مشاكلنا الحاضرة فهو خير ، وكل ما يقف عائقا في طريقها الآن ، او في المستقبل فهو شر . امـا قوله : « واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » فقد اراد به الاخلاص لله في العمل ، والتجرد عن الاهواء ، والبعد عن حب الظهور والرياء .

وبالتالي ، فان أي عمل يترتب عليه نفع عام ، او خاص ، لا يضر بالغير فهو خير وفضيلة ، واي عمل يترتب عليه ضرر عام او خاص فهو شر ورذيلة ، اللهم الا اذا تعارض الصالح الخاص مع الصالح العام ، فعندها يكون الخير في التضحية بالاول في سبيل الثاني (١) .

---

(١) وللامام كلمة تدل على ان جميع المصالح العامة تتضمن مصلحة خاصة حتى من يضحي بنفسه من اجل الصالح العام فان هذه التضحية خير للمضحي في الدرجة الاولى ، قال : « ما احسنت لاحد قط ، ومـا اسأت لاحد قط » ، فرفع الناس رؤوسهم تعجبا .. علي لم يسيء بالبديهة، اما انه لم يحسن ، وقد قام الاسلام على سيفه فعجب .. فقرا قوله تعالى: « ان احسنتم احسنتم لانفسكم ، وان اسأتم فلها » .

من فقه الاخلاق

بعد ان بينا منهج الامام في الاخلاق ، وانه منهج الاسلام بالذات ، نذكر طرفا من حكمه ومواعظه التي حث فيها على الخير ، وزجر عن الشر محاولين تحليلها وبيان ما فيها من دقائق واسرار .

النيـــة :

قال : تخليص النية من الفساد اشد على العاملين من طول الجهاد .

وقال : يا كحيل ليس الشأن ان تصلي وتصوم وتتصدق ، وانمـا الشأن ان تكون الصلاة بقلب نقي ، وعمل عند الله مرضي .

وقال : ان الله يدخل بصدق النية ، والسريرة الصالحة من يشاء من عباده الجنة .

حتى الذين نفوا الحقيقة المطلقة ، وقالوا : ان الحقائق بكاملهـا نسبية ، وانه لا سبيل لمعرفة اي شيء معرفة صحيحة مجردة عن الزمان والمكان وبقية الاشياء التي يتفاعل معها ، حتى هؤلاء استثنوا النيـة الصالحة والارادة الخيرة من قاعدتهم هذه ، وقالوا : انها الشيء الوحيد الذي يمكن اعتباره خيرا مطلقا يتخطى الزمان والمكان والاحوال ، وكذلك استثنى النية الصالحة الذين نفوا وجود الخير في ذاته ، وقالوا : انهـا خير في جميع الحالات .

ولكن هؤلاء يعتبرون الارادة كل شيء بالقياس الى الفاعل والى الفعل ، ويرون ان الفعل في ذاته ليس بشيء يوصف بخير او شر ، وانما ارادة الخير هي التي تجعل الفعل خيرا ، وارادة الشر تجعله شرا .

اما الامام فيحصر تأثير الارادة والنية في الفاعل لا في الفعل ، ويرى ان الرجل الصالح من يريد الخير ، ولو لم يهتد اليه ، والطالح من يريد الشر ، ولو اخطاه ، دون ان تغير الارادة والنية شيئا من طبيعة الفعل (1) وهذا هو مبدأ الاسلام بالذات ، حيث اعتبر فاعل الخير لا لوجه الله والخير مرائيا ، ونعت الرياء بالشرك الاصغر ، والشرك الخفي ، وعذر فاعل الشر بدون قصده ، ولم يعده مع القاسطين ، وجعل النية اساسا للهلاك ، او النجاة . قال تعالى : « يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم » . وقال : « ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله، ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله » .

وجاء في الحديث : « انما الاعمال بالنيات ، ولكل امرىء ما نوى .. يحشر الناس غدا على نياتهم .. من خرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله، فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها ، او امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه » . الى غير ذلك من الآيات والاحاديث. وقال الامام : كم من صائم ليس له من صيامه الا السهر والعناء ، حبذا نوم الاكياس وافطارهم ، نوم على يقين خير من صلاة على شك .

ومن طريف ما قرأت ان المرائي يحشر غدا على هيئة الحرباء اشعارا بما كان عليه في هذه الحياة .

---

(1) يستثنى من ذلك العبادات ، كالصوم والصلاة ، والحج والزكاة ، لان النية فيها ركن كالافعال تماما .

ونشير بهذه المناسبة الى الفرق بين الطيب العاقل ، وبين المغفل الأبله .. ورغم انهما يشتركان في سلامة القلب ، او في عدم نية السوء على الاصح ، فانهما يفترقان في أن لنية العاقل وزنا وتأثيرا في حمده او ذمه ، اما نية المغفل فليست بشيء يحمد او يذم ، لانه قاصر ناقص في جميع حالاته ، حتى حين يفعل الخير .

وبالتالي ، فان الانسان في نظر الامام مسؤول عن نواياه وبواعثه ومقاصده ، وتخليصها من الفساد ، تماما كما هو مسؤول عن افعاله وأقواله ، وان النية الخالصة لوجه الخير أفضل الف مرة من فعل الخير للظهور ، او لمآرب اخرى .

ومن هنا ينبغي ان لا ننظر الى الافعال ، وكفى ، اذا اردنا ان نعرف انسانا على حقيقته .. بل علينا ان نغوص الى اعماقه ، ونبحث عن نواياه ومقاصده ، حيث يكمن الخلق والدين .. ومحال ان نعرف احدا معرفة صحيحة اذا لم نقف امام ضميره وجها لوجه ، فانه وحده الذي يشهد له . او عليه .

ومن المفيد ان ننقل حوارا للفيلسوف « شافتسبري » دار بينه وبين سائل افترضه هو فرضا ، قال :

لو وجه اليّ رجل هذا السؤال : لماذا تتجنب القذارة ، وانت بعيد عن الناس ؟ لاقتنعت بأن صاحب هذا السؤال رجل قذر بطبيعته . ومع ان من العسير ان اقنعه بضرورة النظافة لذاتها ، فاني اقول : اجتنب القذارة عندما لم يرني احد ، لان لي انفاً يقوى على شم الروائح .

واذا عاد الى لجاجته ، وقال : لنفترض انك تفقد حاسة الشم . اقول له : اني اشعر بالارتياح اذا رأيت نفسي نظيفا .

واذا ألح وقال : هب انك في الظلام لا ترى احدا ، ولا يراك احد . قلت له : وفي هذه الحال يظل شعوري بالنفور من القذارة قائما ، لاني انفر بطبيعتي من القذارة ، والا كانت طبيعتي خسيسة فاسدة .

الادب :

قال : كفى ادبا لنفسك تجنبك ما تكرهه من غيرك .

وقال لولده الامام الحسن : يا بني اجعل نفسك ميزانا فيما بينك وبين غيرك ، فأحبب له ما تحبه لنفسك .

واذا جاء هذا القول في الكتب السماوية ، وعلى ألسنة الحكماء والعظماء الذين سبقوه في الزمن فليس من الضروري ان يكون الامام قد اخذ عنهم ، واقتبس منهم .. ان الامام ادرك هذه الحقيقة بفطرته الصافية ، وتأملاته الصائبة كما ادركها الانبياء والحكماء ، وتأثر بها ، تماما كما تأثروا .

ومهما يكن ، فان كل مبدأ او نظام ينظر اليه اليوم ، ويحاكم على أساس علاقة الانسان بالانسان ، وانه هل يحقق العدالة والحرية والامن والرفاهية ، ويشيع الحب والاخاء بين الناس ، أو يقسمهم الى آكل ومأكول ، وسيد ومسود ، ويشيع في النفوس الهلع والقلق والخوف ، والفساد والاحقاد ، فان ادى المبدأ والنظام الى هذه المفاسد او شيء منها فهو شر وظلام ، وان حقق الاماني الانسانية ورغباتها فهو حق ونور .

والامنية الاولى لكل فرد ان لا يستأثر ويمتاز عليه احدفي شيء..فان شرعت الشرائع ، ووضعت القوانين على هذا المبدأ انقاد اليها الانسان تلقائيا بفطرته ، وطبقها بارادته ، وكانت نفسه وحدها القوة التنفيذية لامتثالها واطاعتها . لذا امر الامام كل فرد اذا اراد ان يحقق امنيته هذه

ـ ان يتخذ من نفسه ميزانا لعلاقته مع غيره ، ايا كان هذا الغير ، فيحب له من العافية والمعرفة والعيش والمكانة ما يحبه لنفسه ، بلا تفاضل ولا محاباة ، ولا رجحان لكفة على كفة .. فاذا استأثر ، او احب ان يستأثر ويمتاز عن غيره في شيء كان وحده المسؤول عما يقـــع عليه من ظلم واجحاف ، وصدق عليه قول الامام « كما تدين تدان ، وكما تـــزرع تحصد » (١) .

وليس من شك ان هذا الميزان أعدل الموازين اطلاقا في هذه الحياة ، ولو استعملناه لقضى على الفساد بشتى صوره وأشكاله ، ولما وجد على الارض بائس او فاسد ، ولتحققت الوحدة الانسانية والدولية التي حلم بها المصلحون منذ القديم ، وما زالوا يحلمون بها ، حتى اليوم .

وقال قائل : ان الشر مقدر على هذه الحياة ، ومفروض عليها فرضا لا مفر منه .

ونقول في جوابه : اجل ، لا بد من عيش البؤس والفساد ، والخوف والعذاب ، ما دامت القوانين والانظمة التي تطبق على الناس تتجافى عن هذا الميزان العادل ، وتتجاهل المشاركة الوجدانية ، والحب الاخـــوي المنزه عن الاهواء والشهوات .

وبالتالي ، فان الفاضل الكامل في نظر الامام هو الذي يشعر بانـــه لا يمتاز عن غيره في شيء ، وان الذي له تماما مثل الذي عليه ، ويؤمن أن وجود اي فاصل بينه وبين أخيه الانسان معنـــاه وجـــود التعارض

(١) نلتقي نحن والماديين في القول بوجوب حب الانسان ، ونفترق عنهم باننا نحب الانسان من اجل الله ، وهم يحبونه من اجل الانسان ، لان اله الانسان عندهم هو الانسان ، وعلى قولنا يحاسب من يسيء الى الانسان امام قوة قاهرة ، وعلى قولهم هو في حل ، لا يحاسب غدا ، ولا يعاقب .

والتناقض بينه وبين نفسه ، بين كيانه وذاته .. وبهـذا الشعور والايمان تتقارب الناس ، وتتلاشى الطبقات واسباب الحروب والتقهقر .

المؤمـن :

تحدث الامام عن المؤمن وأطال ، وعرّفه بتعاريف شتى ، وذكر له كثيرا من العلامات والاوصاف .. وفي نهج البلاغة خطبة خاصة في وصف المتقين ، وهي التي صعق لها همام ، ومات عند سماعها .. ونقل الشيخ هادي كاشف الغطاء في مستدرك نهج البلاغة خطبـة تشبهها تماما ونكتفي هنا بالفقرة التالية :

قال يصف المؤمن : « كل سعي اخلص عنده من سعيه ، وكل نفس اصلح عنده من نفسه ، عالم بعيبه ، لا يثق بغير ربه » .

يتهم العالم الحق آراءه ومعارفه ، لانه يعلم علم اليقين ان كل نظرية تقبل الشك والتساؤل وانها مجرد فكرة عن الواقع تصـدق ان جـاءت انعكاسا عنه ، وان اخطأته فكاذبة ، وكذلك المؤمن يتهم نفسه ، ولا يثق بغير خالقه ، لانه يعلم ان نفسه تلبس الحق بالباطل ، وتصور له انه خير الناس وأفضلهم ، فيعاملها هو بعكس ما تريد ، وينظر الى غيره نظرة تقدير واحترام ، والى نفسه نظرة استخفاف وازدراء .

ولست اعرف تحديدا للمؤمن ادق واعمـق ، واقرب الى العقـل والقلب من هذا التحديد ، فانه نظر الى الاعماق ، الى قلب الحقيقة التي يكون بها المؤمن مؤمنا لا الى الاقوال والافعال التي يتقنها ويحسنهـا المراؤون اكثر من المخلصين .. والنتيجة الحتمية لهذا التحديد ان مـن يتعاظم ، ويرى نفسه شيئا مذكورا فهو ابعد الناس عن الدين والايمان ، قال بعض الفلاسفة : « لا اعرف احدا عرف نفسه » . اجل ، الا المؤمن

الذي يتهمها « ولا يثق بغير ربه » ، ويعتقد بأن الكمال الحق لله وحده . ومن اقواله (ع) : « من سرته الحسنة ، وساءته السيئة فهو مؤمن » .

المنــافق :

وكما أطال الامام في وصف المؤمن فقد اطال ايضا في وصف المنافق، وكما اقتصرنا هناك على فقرة واحدة ، نقتصر هنا على الفقرة التالية :

قال : « المنافق مظهر للايمان ، متصنع للاســلام ، لا يتأثم ولا يتحرج » .

كلنا يعلم ان المنافق هو الذي يظهر خلاف ما يبطن ، وانه في الدرك الأسفل من النار ، ولكن الكثير منا يجهل انه « لا يتأثم ولا يتحرج » اي لا يؤمن بقيم ونظام ، ولا بدين ووجدان ، ولا بسبب معقول لحقيقة من الحقائق .. ان حياة الانسان هي الطريق الى معرفة واقعه وحقيقته ، فان التزم الاستقامة والصدق دل التزامه هذا على انه رجــل المبادىء والاخلاص ، والا فهو فوضوي اباحي لا يؤمن بشريعة ولا منطــق الا بشريعته ومنطقه ويهزأ بينه وبين نفسه ممن يخاف الله ، ويعمل بوحي من الضمير والوجدان ، ويلتزم مبادىء التقى والشرف والخير ، لان هذه وما اليها اشياء تافهة في مفهومه .. وان الحق والفضيلة هي الرشوة والطمع والحرص والتنافس والمداهنة ، وكل ما يحقق المنافع والرغبات الخاصة .

واذا كان المنافق لا يثق بشيء ، فاولى ثم اولى ان ينبذ، والا يثق احد بشيء من اقواله وافعاله .

التعصــب :

ومن قرأ تاريخ الحروب الصليبية ، وما فعلته محاكم التفتيش في

اوروبا ، والتخاصم بين المسلمين والهندوس في الهند على ذبح البقرة ، من قرأ ذلك وما اليه علم ان التعصب عامل هام في اثارة الحروب ، واراقة الدماء ، وانه وباء قاتل ، تعرضت له عقليات مختلفة في شتى المجتمعات ، وايضا ، علم كذب النظرية القائلة : ان كل ما حدث ، ويحدث في تاريخ الانسان يرجع الى اعتبارات اقتصادية ، ودوافع مادية .

ونحن ، وان كنا نؤمن بأن الاعتبارات الاقتصادية قوية جدا ، وان لها تأثيرها البالغ في سير الحياة ، الا اننا نؤمن ايضا بانها ليست السبب الوحيد ، والباعث الاول لما كان ويكون .. ومحال ان يتجاهل اهل العقول التعصب كحافز على الاعمال الشريرة ، وكعامل ينطوي على كراهية المتعصب وحقده على من لا يشاطره التعصب لعرق او لون او شخص قديم او حديث .. وكم من بليد يملك المال والجاه يحقد على فقير مغمور ، ويضمر له العداء لا لشيء الا حسدا على ذكائه ومواهبه .. وما اكثر تنافس النساء على اشياء تافهة ، لا تمت الى الاقتصاد بسبب .

ومهما يكن ، فان المنصفين من رجال التشريع في هذا العصر يضعون القوانين على اساس التساهل والتسامح حيال الآراء والمعتقدات أيا كانت، ولا يجيزون الحساب والعقاب الا على اساس الاعمال الاجرامية .

وما عرف التاريخ احدا أرحم واكثر تسامحا وتساهلا مع خصومه السياسيين ، وغير السياسيين من علي امير المؤمنين ، فلقد عفا عن الذين برزوا في ساحة الوغى لقتله وقتاله ، وسقى الماء لمن قال له : « لا تذوق منه قطرة ، حتى تذوق الموت عطشا » ، واوصى بقاتله خيرا ، وترك لاصحابه الحرية في اعتزال القتال ، او اختيار اي الفريقين شاءوا ، وقال لهم حين سمعهم يشتمون معاوية ومن تابعه : اني اكره لكم ان تكونوا سبّابين ، واتخذ مبدأ لا يحيد عنه ، وهو الا يقاتل احدا كائنا من كان

الا « رجلين : رجلا ادعى ما ليس له ، وآخر منع الذي عليه » .. اذن ، فلا بدع ان ينهى الامام عن التعصب ، ويقول :

« فان كان لا بد من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال ، ومحامد الافعال ، ومحاسن الامور التي تفاضلت فيها المجداء والنجداء من بيوتات العرب ، ويعاسيب القبائل ، بالاخلاق الرغيبة ، والاحلام العظيمة ، والاخطار الجليلة ، والآثار المحمودة .

فتعصبوا لخلال الحمد . من الحفظ للجوار ، والوفاء بالذمام ، والطاعة للبر ، والمعصية للكبر ، والاخذ بالفضل ، والكف عن البغي ، والاعظام للقتل ، والانصاف للخلق ، والكظم للغيظ ، واجتناب الفساد في الارض » .

هذا هو الاسلام بروحه وجوهره ، تعصب لخلال الحمد ، بالكف عن البغي ، والاخذ بالفضل ، والانصاف للخلق ، واجتناب الفساد في الارض ، والتسامح مع كل رأي ومعتقد لا ينتهي الى الاجرام والفساد . قال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ـ ٨ الممتحنة » .

ومن غرائب التناقضات ان الذين لا يؤمنون بالله يدعون الى مبدأ التسامح ، ونبذ التعصب في الوقت الذي يعلنون فيه حربا لا هوادة فيها على الاديان ، ويحتمون ازالة الدين من الوجود ، اي دين كان ، حتى ولو تسامح ، ورفع الحياة الى اعلى الدرجات ، ولو اخذنا بمنطق هؤلاء لوجب القضاء عليهم قبل كل شيء ، لانهم اشد الناس تعصبا وتعنتا .

وبالتالي ، فان التعصب عن علم وبصيرة خير وفضيلة ، والتعصب عن جهل وهوى عمى ووباء .

الفـرق :

قال الامام : « فيا عجبا ، وما لي لا اعجب .. من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها في دينها ، لا يقتصون اثر نبي ، ولا يقتدون بعمل وصي ، لا يؤمنون بغيب ، ولا يعفون عن عيب ، يعملون في الشبهات ، ويسيرون في الشهوات ، المعروف فيهم ما عرفوا ، والمنكر عندهم مـا أنكروا ، مفزعهم في المعضلات الى انفسهم ، وتعويلهم في المبهمات على آرائهم ، كأن كل امرىء منهم امام نفسه ، قد اخذ منها فيما يرى بعرى وثيقات ، واسباب محكمات » .

وينطبق هذا القول على الفرق كل الانطباق ، والمحصل منه ان هذه الفرق المختلفة لو اتفقت على اصل صحيح واضح ترجع اليه ، وتتخذ منه مقياسا لأحكامها لما وقع بينها هذا النزاع والصراع الذي بلغ الى حـد تكفير بعضها بعضا .. ان كل فرقة تأبي الا ان تفرض الصدق للصور التي في ذهنها ، والا تثق بشيء الا بالعوامل العاطفية والشخصية ، فالحـق والمعروف ، والباطل والمنكر ما تراه هي لا ما يثبته العقل والتجارب ، واذا استشهدت بالسنّة والكتـاب ، والعقل وعمل الاصحاب ، فـلا تستشهد بها على انها مصادر لمعرفة الحق بما هو حق ، بل على انهـا وجدت لتشهد لها ولأقوالها بالحق والصدق ، حتى كأنها معصومة عـن الخطيئة والخطأ دون غيرها .. وبكلمة، انها تضفي الحق والباطل، والخير والشر ، والحل والتحريم من ذاتها على الاشياء ، حتى كأنه لا مصـدر سواها لمعرفة هذه القيم ، وما اليها ، وهذا معنى قول الامام « حتى كأن كل امرىء منهم امام نفسه » .

وتسأل : من هي الفرق التي عناها الامام ، مع العلم بانه لم يكن في عهده مرجئة ، ولا معتزلة واشاعرة ؟

وكلنا يعلم انه قبل ان يوارى النبي في قبره الشريف اختلفت امته شيعا واحزابا ، فمنهم من انحاز لابي بكر ، ومنهم من ايد سعد بن عبادة، ومنهم من تمسك بالامام ، ثم انقسموا مرة اخرى بعد مقتل عثمان . الاكثر مع الامام ، وجماعة مع عائشة وطلحة والزبير ، وثالثة مع معاوية ، ورابعة اعتزلت ، وامتنعت عن محاربة علي ومعاوية ، ومنهم سعد بن ابي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، واسامة بن زيد ، ثم انشق الخوارج من جماعة الامام ، اذن ، فاختلاف المسلمين يبتدىء من خلافة ابي بكر ، لا من وجود الاشاعرة والمعتزلة .

الشبهات :

الشبهة فكرة غامضة ، لها اكثر من وجه ، تشبه الحق من جهة ، والباطل من جهة ثانية ، وفيها تتفاوت مراتب العلماء ، وتظهر مقدرة العالم الألمعي الذي يقلب النظر في جميع الصفحات ، ويميز الأصيل من الدخيل، ويرجح الاقوى على غيره ، اما الصغار والمتشبهون بالعلماء فيلتبس عليهم الامر ، ويحسبون السقيم صحيحا ، والصحيح سقيما ، قال الامام :

« لو ان الباطل خلص من مزاج الحق لم يخف على المرتادين ، ولو ان الحق خلص من لبس الباطل لانقطعت عنه ألسن المعاندين ، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ، ومن هذا ضغث ، فيمزجان ، وهنالك يستولي الشيطان على اوليائه ، وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى » .

ومثال اخذ الضغث من هذا ، ومن ذاك قول من قال : الله موجود ، وكل موجود يرى ، فالله يرى ، ويشتمل هـذا القياس على مقدمتين : احداهما صحيحة ، وهي الله موجود ، وهي ضغث من الحق ، والثانية باطلة ، وهي كل موجود يرى ، وهي ضغث من الباطل ، اذ الموجود يرى ان كان ماديا ، ولا يرى ان كان غير مادي .

وهذا القياس وما اليه لا يأخذ به الا المتطفلون على العلم من الذين استحوذ عليهم الشيطان ، واما الراسخون في العلم فيعلمون انه زخرف وتضليل .

وفي كلام آخر للامام يقسم فيه الامور الى ثلاثة اقسام ، قال : « حلال بيّن وحرام بيّن ، وشبهات بين ذلك ، فمن ترك ما اشتبه عليه من الاثم فهو لما استبان له اترك ، والمعاصي حمى الله ، فمن يرتع حولها يوشك ان يدخلها . » واصل هذا القول الحديث المشهور عند السنة والشيعة « حلال بيّن ، وحرام بيّن » الخ . وما استبان لك من الحلال فأنت مخير في فعله وتركه ، وما استبان من الحرام فأنت ملزم بالاجتناب عنه ، وكذلك المشتبه ، لان الوقوع فيه يجر الى مواقعة الحرام البيّن ، ولو افترض ان الاقتحام في المشتبه لا يجر حتما الى الوقوع في الحرام فانه عمل بلا علم يتورع عنه اهل المعرفة والايمان .. ان العالم الحق هو الذي يقف موقف التحفظ والاحتياط ، ويتهم نفسه حتى مع قيام الدليل الواضح لديه ، ويخشى ان يكون مخطئا في التطبيق ، او يكون هناك معارض او ناسخ او مخصص قد خفي عليه ، فكيف اذا اشكل عليه الامر ، ولم يتبين له الرشد من الغي » (١) .

اشد البلاء وافضل النعم :

قال الامام : ان من البلاء الفاقة ، واشد من ذلك مرض البدن ؛ واشد من ذلك مرض القلب .

---

(١) ادع معي ايها القارىء ان يهدي الله الذين يكررون كلمة الاحوط في النجاسات وما اليها، ولا يتورعون عن اخذ الاموال من غير حل، ولا ينفقون الحقوق في وجوهها ، ويتزلفون للظالمين طمعا بالحطام :

قتل امرىء في غابة ... جريمـة لا تغتفـر
وقتل شعب آمـن ... مسألة فيهـا نظـر

وان من النعم سعة المال ، وافضل من ذلك صحة البدن ، وافضل من ذلك تقوى القلوب .

في هذه الحياه أنواع وألوان من المصائب والآلام لا تدخل في حصر وعد ، يتقاسمها ابناء الانسان جميعا الفقراء والاغنياء ، والمغمورون والوجهاء ، والجهال والعلماء .. فصحيح الجسم قد يكون فقيرا معدما، وصاحب الجاه والمال قد يعاني الاسقام والادواء ، والثري المعافى في بدنه يشكو خصومه الاقارب والاباعد ، أو تقتله المنافسة والحسد ، واي انسان تحقق له كل ما يريد ، ولم يفقد حبيبا او قريبا ؟ بل ، أي انسان جمع بين الاشياء الخمسة التي اشار اليها الامام بقوله : « من سعادة الرجل ان تكون له زوجة موافقة ، واولاد ابرار ، واخوان اتقياء ، وجيران صالحون ، ورزق في بلده ؟ »

قسم الامام البلاء الى مراتب ثلاث ، تأتي على الترتيب : الاولى الفقر ، ورغم انه الموت الاكبر ، كما نعته الامام فانه اخف وطأة من مرض الابدان ، لانه ينهك القوى ، ويسلب الراحة ، وأشد المصائب جميعا مرض القلب ، وهو انواع ، منها الشك في الدين والنفاق ، ومنها الحسد والحقد ، ومنها الكبر والغرور ، وما الى ذلك من الادواء والأوباء ، وانما كان مرض القلب اشد وأعظم من الفقر ومرض البدن لان صاحبه ــ وان لم يشعر به الآن ــ فانه مسؤول عنه ــ غدا ــ يحاسب عليه ويعاقب ، واقل عذاب من عذاب الآخرة يفوق آلام الدنيا مجتمعة . أما الفقر ومرض البدن فانهما الى نهاية ، ولو بالموت ، ولا حساب عليهما ولا عقاب ، بل اجر وثواب اذ امضى الفقير والمريض على الحق ، والتسليم لامر الله ، قال الامام :

« كنا مع رسول الله ، وان القتل ليدور بين الآباء والاخوان

والقرابات ، فما نزداد على كل مصيبة وشدة الا ايمانا ومضيا على الحق . وتسليما للامر ، وصبرا على مضض الجراح » .

وهنا يتميز المؤمن الحق من المزيف ، ويعرف الذي ينكر نفسه واهله وماله من اجل دينه وايمانه ، من الذي ينسى دينه وخالقه من اجل منافعه ومنافع ابنائه ، والصلاة والسلام على سيد الشهداء ، حيث قال : « اذا محصوا بالبلاء قل الديانون » .

ثم قسم الامام مراتب النعم الى ثلاث ايضا : الاولى سعة المال ، لان حاجات الانسان في هذه الحياة لا تقضى بدونه ، وخير منه صحة الابدان، حيث يبذل المال في سبيله ، او قل : ان الصحة غاية في نفسها ، اما المال فوسيلة لا غاية ، وافضل الجميع تقوى القلوب ، لان معنى التقوى الخوف من الله دون سواه ، واذا حل الخوف في القلوب طهرها من كل شائبة . ونكتفي بهذه الاشارة الى تحليل مراتب النعم الثلاث اعتمادا على ما ذكرناه في مراتب البلاء ، لان الاشياء تعرف بأضدادها ، كما تعرف بنظائرها .

ونختم هذه الفقرة بقول الامام عليه افضل الصلاة والسلام : « من عظّم صغار المصائب ابتلاه الله بكبارها .. ومن اصبح يشكو مصيبة فقد اصبح يشكو ربه » .

وهذه المصيبة التي عناها الامام لا يد للانسان فيها ولا اختيار ، كالمرض وما اليه ، اما المصيبة التي يولدها اللؤم والحقد ، كالقلق والاضطراب ، لان فلانا أذكى واعرف ، ويتمتع بمقام أعلى وأرفع ، أما من يشكو هذه المصيبة فلا يقال عنه : انه يشكو ربه ، لانها من وحي الشيطان ، لا من صنع الرحمن .

العلم والوعي :

قال الامام : اعقلوا الخبر اذا سمعتموه عقل رعاية ، لا عقل رواية . فان رواة العلم كثير ، ورعاته قليل .

وقال يصف اهل البيت : عقلوا عقل وعاية ورعاية ، لا عقل سماع ورواية ، فان رواة العلم كثير ، ورعاته قليل .

وقال : لا خير في علم ليس فيه تفهم ، ولا خير في قراءة ليس فيها تدبر ، ولا خير في صلاة ليس فيها تفقه .

وقال : من ترك قول لا ادري اصيبت مقاتله .

فرق كبير بين ان تحفظ ما قيل ، وبين ان تفهم ما قيل .. فان الحفظ بلا فهم اشبه بالتدوين على ورق ، او تسجيل الصوت في شريط او اسطوانة ، بل ان هذا أضبط وابعد عن الخطأ ، اما الفهم والوعي الكامل للشيء على حقيقته فهو العلم بكل ما في كلمته من معنى ، حتى ولو لم يحفظ الواعي الالفاظ والاقوال ، وهذا ما اراده الامام من عقل الوعاية والرعاية ، فالعقل الواعي هو الذي يهضم ويعلل ويحلل ، ويرجع المسببات الى أسبابها مستمدا تعليلاته من طبيعة الظروف والاحوال ، ومن كل ما له صلة وتأثير بالموضوع من قريب او بعيد .

وتلتقي ــ مع هذا القول ــ النظرية القائلة : ان مجرد الرواية وسرد الخبر لا ينتهي بنا الى الواقع ، ومعرفة الحقيقة ، وانه لا بد من الانتقاد والتمحيص بالرجوع الى العصر الذي عاش فيه كل من الراوي والمروي عنه ، ودرس حياته ومقوماتها ، وبالتالي ، النظر الى وجه الصلة بين هذه الحياة ، وبين الرواية ، وما تدل عليه من المعاني والافكار .

وكما ان الحفظ مجردا عن الوعي لا يجدي نفعا فان الوعي مجردا عن الخلق الكريم ضره اكثر من نفعه ، فعلى العالم ــ قبل كل شيء ــ ان يكون رحب الصدر ، وان يتقبل النقد ، ويرجع عن الخطأ متى تبين الصواب ، وان يقول : لا ادري اذا سئل عن شيء يجهله ، لانه ان قال بدون علم هلك وأهلك .

وقد اختلف العلماء في المراد من الراسخين في العلم في قوله تعالى : « وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم ــ ٧ آل عمران » . فمن قائل : انهم محمد وآله دون غيرهم ، وقائل : انهم كل من له قدم ثابت في العلم ، وقال الامام : هم الذين يحجمون عن القول بغير علم ، ويعترفون أن هناك حقائق لا تبلغها افهامهم ، ولا تصل اليها عقولهم ، قال :

« واعلم ان الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدود المضروبة دون الغيب الاقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب ، ومدح اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علما » .

عامل الزمن :

قال الامام : لا تكرهوا أولادكم على اخلاقكم ، فانهم خلقوا لزمان غير زمانكم .

وليس من شك ان الامام اراد غير الشعائر الدينية ، كالمهنة وما اليها من العلاقات الاجتماعية التي تختلف باختلاف الهيئات والاحوال .

وأود أن اشير بهذه المناسبة الى انه كما دخل الى مجتمعنا عادات غريبة عنه ، يرفضها الدين ، كالسفور وما اليه ، فقد دخل على الدين اشياء لا تمت اليه بسبب ، كالضرب بالسيوف والسلاسل يوم العاشر من المحرم في بلدة النبطية بجنوب لبنان ، وبعض بلدان العراق وايران .

الجهـــاد :

قال : الجهاد ثلاثة : جهاد بيد ، وجهاد بلسان ، وجهاد بقلب ، فأول ما يغلب عليه من الجهاد جهاد اليد ، ثم جهاد اللسان ، ثم جهاد القلب ، فاذا كان القلب لا يعرف معروفا ، ولا ينكر منكرا نكس ، وجعل اعلاه اسفله ، كما ينكس الجراب ، فينثر ما فيه .

ان عظمة الانسان بهذا القلب الذي يحس به ، ويشعر ، على ان يتجه هذا الاحساس الى احقاق الحق ، وابطال الباطل ، وتظهر آثاره بنحو من الانحاء ، والا فمن الأصلح للانسان ان لا يوجد . وقد عبر عن هذا بقوله : « نكس وجعل اعلاه اسفله » حيث يصبح فارغا لا يبقى فيــه شيء ، ولا يدخل فيه شيء .

وقال يصف الجهاد : « من تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء .. وسيم الخسف ، ومنع النصف » .

وجميع حوادث التاريخ تشهد بهذه الحقيقة ، فما قاوم الظلم انسان الا وجد فرجا ومخرجا ، اما من يرضى بالخسف والهوان فهو رق ما بقي الليل والنهار .

التــاجر :

قال : التاجر فاجر ، والفاجر في النار الا من اخذ الحق ، واعطى الحــق .

ان مهنة التاجر تدعوه بطبيعتها الا يعمل الا على اساس الربح ، وان لا يتفهم الا لغته ، وهي تجره من حيث يريد او لا يريد الى النفاق والغش والقسوة ، والايمان الكاذبة والاحتكار ، بل اثبتت التجارب ان

نوعا من الربح يؤدي الى الحروب والاستعمار ، والسيطرة على الحكام ، واذا دلت كلمة الامام في التاجر على شيء فانما تدل على عظمته ، وبعد نظره ، هذا ، مع العلم بأن عيوب التجارة ومآخذها لم تكن قد تكشفت في عهده كما هي الحال اليوم .. اما التجار الذين يأخذون حقا ، ويعطون حقا فهم أندر من الكبريت الاحمر ، بل اين هم ؟

كمال الرجل :

قال : كمال الرجل بست خصال : اصغريه ، وآكبريه ، وهيبته ، فأما اصغراه فقلبه ولسانه ، ان قاتل قاتل بجنان ، وان تكلم تكلم ببيان . وأما أكبراه فعقله وهمته . واما هيبتاه فماله وجماله .

ان قوة السواعد والجسم لا تجدي نفعا اذا لم يكن معها قلب لا يهاب الموت ، ومهما تكن الفكرة فانها تفقد مزيتها اذا لم يعبر عنها باسلوب يتغلغل بها الى اعماق النفوس .. وكم من عيوب للفكرة ذابت في جمال التعبير والتصوير ، وكم شوّه الاسلوب النابي من جمالها وجلالها .

بطانـة السوء :

قال : من فسدت بطانته كان كمن غص بالماء ، فانه لو غص بغـيره لأساغ الماء غصته .

ولا اعرف احدا ينطبق عليه هذا القول ـ اكثر مما ينطبـق على بطانة الرؤساء ، بخاصة رجال الدين الكبار .

الصديـق :

قال : لا يكون الصديق صديقا ، حتى يحفظ اخاه في ثلاث : في نكبته ، وغيبته ، ووفاته .

● حسد الصديق من سقم المودة .

● من اطاع الواشي ضيّع الصديق .

● ابذل لصديقك كل المودة ، ولا تبذل له كل الاطمئنان ، واعطه كل المساواة ، ولا تفض اليه بكل الاسرار .

● لا ترغبن فيمن زهد فيك ، ولا تزهد فيمن رغب فيك .

● اخوان الثقة كالكف ، والجناح ، والاهل ، والمال ، فاذا كنت من اخيك على ثقة فابذل له مالك ويدك ، وصاف من صافاه ، وعاد من عاداه ، واكتم سره ، وأعنه ، واظهر منه الحسن .

كل انسان يتمنى ان يكون له اخ يحفظه في نكبته وغيبته ، وكثير هم الذين ظنوا انهم وجدوا هذا الاخ ، ثم تبين لهم بمرور الزمن انهم كانوا على خطأ في ظنهم ، والعاقل من يحتاط لنفسه ، ولا يطمئن لاحد كائنا من كان تجنبا للنكسة ، والوقوع في الندامة .

ولا اريد ان اعلق على كلام الامام بأكثر من هذه الجملة ، لانه أجلى وأوضح من اي بيان ، وانما اريد ان اسجل بهذه المناسبة ايماني بالنتيجة التي انتهيت اليها من تجاربي الخاصة ، وهو ان على الانسان بما هو انسان ان يخلص لاصدقائه ، ويمحضهم صفو الود ، ويضحي في سبيلهم بما يستطيع حمله ، ولا بأس ان يؤثرهم بأشياء على نفسه ، وفي الوقت نفسه يجب عليه ان يعمل لهدفه دون ان يثق بأحد ، أو يتكل على احد الا جهاده واخلاصه ، حتى كأنه وحيد فريد على وجه هذه البسيطة ، او منسي من الناس كل الناس بما فيهم الاصدقاء والاقرباء . عليه ان يعمل ، وهو مؤمن بانه لا كف الا كفه ، ولا جناح الا جناحه ، ولا مال الا ماله ، لا شيء ابدا الا الله وهو ولا ثالث ، وبكلمة ، يتوجب على من

يتوخى النجاح ان يكون متشائما وشجاعا ومخلصا في وقت واحد ،فلا يشق بغير نفسه ، ولا يعتمد الا على عمله ، ولا يصغي لغير دينه وضميره .

وبالتالي ، فان الثقة بغير الله والنفس سذاجة وبله ، ومحال ان يكون الأبله شيئا مذكورا .

الوطن :

قال في تحديد الوطن : ليس بلد بأحق بك من بلدك ، خير البلاد ما حملك .

● الغنى في الغربة وطن ، والفقر في الوطن غربة .

ان وطن الانسان هو راحة الانسان وأمنه ، وحريته وكرامته ، وحقوقه ومصيره . فكل بلد يؤمن له ذلك هو وطنه الذي يخلص له ، ويستميت في سبيله ، سواء أكان بلد الآباء والاجداد او لم يكن ، اما الاسماء والالفاظ فوسيلة لا غاية .

القريب :

قال في تحديد القريب : « القريب من قرّبته الاخلاق » .

● « رب قريب ابعد من بعيد ، ورب بعيد أقرب من قريب » .

ولا شيء أدل على هذه الحقيقة من انك تطمئن الى ابعد الناس عنك نسبا ودينا وديارا ، وتأتمنه على نفسك ومالك وعرضك ، اذا كان أمينا مخلصا ، ولا تأتمن اخاك واقرب الناس اليك اذا كان خائنا مستهترا .

الكذب في الاحاديث المنسوبة للرسول (ص)

قال الامـام :

« ان في ايدي الناس حقا وباطـلا ، وصدقا وكذبا ، وناسخـا ومنسوخا ، وعاما وخاصا ، ومحكما ومتشابها ، وحفظا ووهما (١) ولقد كذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على عهده، حتى قام خطيبا وقال : « من كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » .

« وانما اتاك بالحديث اربعة رجال ليس لهم خامس » .

١ ــ رجل منافق ، مظهر للايمان ، متصنع بالاسلام ، لا يتأثم ولا يتحرّج ، يكذب على رسول الله متعمدا ، فلو علم الناس انه منافق كاذب لم يقبلوا منه ، ولم يصدقوا قوله ، ولكنهم قالوا : صاحب رسول الله رأى وسمع منه ، فيأخذون بقوله » .

وهذا يدل دلالة صحيحة واضحة على ان الصحابة ليسوا عـدولا

---

(١) المراد بالنسخ هنا رفع الحكم بعد ثبوته ، ومثاله القبلة في الصلاة ؛ فقد كانت في بدء الاسلام بيت المقدس ، ثم جعلت بيت الله الحرام ، والعام والخاص ، مثل كل انسان مدرك الا الطفل والمجنون ، فكل انسان عام ، والا الطفل والمجنون تخصيص له ، والمحكم هو الواضح ، والمتشابه هو المجمل الذي لم يتضح معناه، والحافظ هو الضابط لما يسمع، والواهم هو المخطىء.

بكاملهم ـ كما قيل ـ وانهم كغيرهم ، فيهم الصادق والكاذب ، والمنافق والمؤمن .

٢ ـ « رجل سمع من رسول الله شيئا لم يحفظه على وجهه ، فوهم فيه ، ولم يتعمد كذبا ، فهو في يديه ، ويرويه ، ويعمل به ، ويقول : انا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلو علم المسلمون انه وهم فيه لم يقبلوه منه ، ولو علم هو انه كذلك لرفضه » .

ولاجل هذا اتفق المسلمون على ان الراوي يجب ان يكون ضابطا. فاذا كان غير مميز ، او كان مغفلا لا يحسن ضبط ما يسمع فلا ثقة بقوله ، وان لم يكن فاسقا . وان كثيرا من المؤمنين تقبل شفاعتهم ، ولا تقبل شهادتهم ، ولا روايتهم .

٣ ـ « رجل سمع من رسول الله شيئا يأمر به ، ثم نهى عنه ، وهو لا يعلم ، فحفظ المنسوخ ، ولم يحفظ الناسخ ، فلو علم انه منسوخ لرفضه ، ولو علم المسلمون اذ سمعوا منه انه منسوخ لرفضوه » .

وتجنبا للوقوع في هذا الخطأ اتفق الفقهاء والاصوليون على انه لا يجوز العمل بالحديث الصحيح ، بل ولا بآية من آي الذكر الحكيم الا بعد التدقيق والبحث عن الناسخ والمخصص .

٤ ـ « وآخر لم يكذب على الله ، ولا على رسوله ، مبغض للكذب خوفا من الله ، وتعظيما لرسول الله ، ولم يهم ـ اي لم يخطىء ـ بل حفظ ما سمع على وجهه ، فجاء به على ما سمعه لم يزد فيه ، ولم ينقص منه ، فحفظ الناسخ فعمل به ، وحفظ المنسوخ فجنب عنه ، وعرف الخاص والعام ، فوضع كل شيء موضعه وعرف المتشابه ومحكمه » .

اخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حجة الوداع ان الكذابة كثرت

عليه في حياته ، وانهم سيكثرون بعد مماته ، وجاء في اخبار آله الاطهار انه ما من امام منهم يخلو من كذاب يكذب عليه .

ولما توفي النبي صلى الله عليه وآله وسلم اختلف اصحابه في جملة مما روي عنه ، فقد كذّب عمر وعائشة ابا هريرة ، وكذّبت هي ابن عمر في بعض ما نسبه الى الرسول الأعظم (١) ولما رأى عمر اختلاف الصحابة في الحديث قال لهم : « هذا ، وانتم اصحاب بدر اختلفتم ؟... فمن بعدكم اشد اختلافا » .

وتفرق اصحاب الرسول في الامصار يعلمون الناس الاسلام ، وكان كل صحابي يروي لأهل البلد الذي يصل اليه احاديث لا يروي بعضها رفيقه ، او يروي عكسها في البلد الآخر .. ومن هنا جاء اختلاف الامصار في كثير من امور الدين .

ثم جاء عصر التابعين ، فاتسعت هوة الخلاف فيما بينهم على كثير من الاحاديث ، ثم تفاقمت الحال بعد التابعين ، وبلغ الخلاف اقصاه بين الفقهاء كأبي حنيفة (٢) والاوزاعي وسفيان الثوري ، ومن اليهم .

---

(١) انظر صحيح مسلم ج ١ باب « حكم ضفائر المغتسلة » .

(٢) لم يثبت عند ابي حنيفة من الاحاديث سوى ١٧ حديثا . وقد جرى حوار بيني وبين شيخ حنفي ، فقلت له فيما قلت : هل انت مقلد لابي حنيفة ؟ قال : اجل . قلت : فما تقول بصحيح البخاري ؟ قال هو ثاني القرآن . قلت له : انت تناقض نفسك بنفسك .. فانت غير مقلد لابي حنيفة ، لانك تؤمن بصحيح البخاري الذي فيه مئات الاحاديث ، وانت لا تؤمن بصحيح البخاري لان امامك ابا حنيفة لم يصح عنده الا ١٧ حديثا .. ولا ارى لك شبيها الا من قال للامام : اني احبك واحب اعداءك . فقال له الامام : انت الآن اعور ، فاما ان تعمى ، واما ان تبصر .

ونفس الشيء حصل بين ارباب الفرق ، كالخوارج والمرجئة والسنة والشيعـــة .

وكان لا بد للامويين والعباسيين من الكذب والدس في الحديث . ليدعموا سلطانهم وسيطرتهم .. بل كان كل فقيه ، ومتكلم ، وقصاص . وصاحب فكرة أية فكرة ، ومن يحب ان يظهر بمظهر العالم العارف ، كل هؤلاء كانوا يستطيعون ان يضعوا ما شاءوا من الاحاديث ، ما داموا غير مسؤولين امام اية سلطة او جهة .

اما الذين تصدوا لنقد الحديث ، وتصحيحه فانهم لم يزيدوا شيئا على تقسيم الحديث ، وذكر شروط الاسناد الصحيح ، كنظرية عامة ، اما نقد الاحاديث وتمحيصها بالتحليل والتحقيق العلمي على الطريقـة المعروفة عند الغربيين اليوم من التغلغل في روح العصر الذي عاش فيـه الراوي ، ودراسة اوضاعه ، ومدى ارتباطها بأفكاره وروایاته ، اما هذا النحو من النقد فلم نجد احدا من علماء المسلمين اعتنى به عناية مباشرة أو تنبه اليه (١) وغاية ما نجده في كتب الرجال والرواة سرد الاقوال والشهادات بصدق الراوي ، او كذبه ، وعدالته او فسقه ، مجردا عن بيئته واحواله .. ومع علمنا بأن هذه الكتب لم تأخذ بأسباب العلم فاننا نرجع اليها ، ونعتمد عليها ، تماما كما نعتمد على القرآن الكريم ، وان دل هذا على شيء فانما يدل على ان علم الرجال ما زال كما كان منذ مئات السنين ، واننا لم نتقدم به خطوة الى الامام .

---

(١) لقد استفدت ــ فيما استفدت ــ من قراءتي وتتبعي الكتـــب الاجنبية المترجمة الى العربية اني عرفت طريق البحث والدراسة الحديثة ، ان الغربيين اذا تعرضوا لاديب او لعالم او فيلسوف او مؤرخ لم يكتفوا بسرد اقواله ومؤلفاته . بل يعتنون قبل كل شيء بدراسة عصره وبيئتـه واوضاعه ، ويقارنون بينه وبين اقرانه ، وبعد ذلك يحكمون له او عليه .

وبالتالي ، فان السنة النبوية طريق للاحكام الشرعية ، ومفتاح للقرآن الكريم ، فعلينا ان نقف موقف الحيطة والحذر من كل حديث ينسب الى الرسول الاعظم صلى‌الله عليه وآله وسلم، ولانسمع له ونطيع الا بعد العلم والجزم بصدوره من معدنه ، او الدليل القاطع على اننا معذورون على العمل به .

في الراعي والرعية

شروط الراعي

من هو الراعي ؟ وما هي الشروط التي يجب ان تتوافر فيه ؟

قال الامامية : يتعين الامام بالنص من رسول الله ، لا بالانتخاب ، ويشترط ان يكون اقرب الناس من النبي ، وان يكون معصوما ، واعلم اهل زمانه ، واشدهم في القيام بشؤون الرعية ، وجاء في كلام الامام ما يدل على هذه الصفات بكاملها ، قال فيما يتعلق بالنص :

« وفينا الوصية والوراثة ، وحجة الله عليكم في حجة الوداع يوم غدير خم » (١) .

يشير بهذا الى النص عليه بالخلافة من رسول الله ، حيث قال يوم غدير خم : من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله .

وقال في وصف آل البيت :

«لايقاس بآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم من هذه الامة احد، ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه ابدا ، هم اساس الدين ، وعماد اليقين ،

---

(١) مستدرك النهج لكاشف الغطاء ص ٥٤ منشورات مكتبة الاندلس بيروت .

اليهم يفيء الغالي ، وبهم يلحق التالي ، ولهم خصائص حــق الولاية . وفيهم الوصية والوراثة » .

ورب سائل يسأل : « انه قد جاء في بعض خطب النهج : « لئن كانت الامامة لا تنعقد ، حتى يحضرها عامة الناس ، فما الى ذلك سبيل ، ولكن اهلها يحكمون على من غاب عنها ، ثم ليس للشاهد ان يرجع ، ولا للغائب ان يختار » .

وهذا القول صريح بان الامــــامة تكون بالبيعة من الناس ، لا بنص النبي .

الجواب :

ان قوله هذا من نوع الجدل ، والمماشاة مع الخصم بدليل قــوله « لئن كانت الامــامة » الخ اي على فرض ان الامــامة بالانتخاب كما تزعمون فان الحجة قائمة على طلحة والزبير اللذين شهدا وبايعا ، ثم نكثا ، وايضا قائمة على معاوية ، وان لم يحضر ويشهد ، لانه لا ارادة للغائب مع ارادة الشاهد الحاضر .

واشار الامام الى شرط العصمة بقوله :

« الأئمة قوّام الله على خلقه ، وعرفاؤه على عباده » حيث دل على ان الامام يردع العاصي عن المعصية ، ويرجع المخطيء عن الخطأ ، وهذا يستدعي ان يكون الامام منزها عن الخطأ والمعصية ، اذ لو جاز عليه لاحتاج الى امام يرشده ، ويتسلسل الى ما لا نهاية .

اما بقية الشروط فأشار اليها بقوله : « ان اولى الناس بهذه الامة قديما وحديثا اقربها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واعلمها بكتاب

الله ، وافقهها بدين الله ، واولها اسلاما ، وافضلها جهادا ، واشدها بتحمل أمور الرعية » .

فالامام يجب ان يكون اقرب الناس الى النبي ، ومن اجل هـذا حصر الامامية الخلافة بعلي وابنائه ، لانهم آل النبي ، واحب الناس اليه، وقالت بقية الفرق ــ ما عدا الخوارج ــ : يجب ان يكـون قرشيا من الصميم ، علويا كان او غير علوي ، والخوارج يلغون هذا الشرط مـن الاساس ، ولا يفرقون بين القرشي والعبد الحبشي .

وأن يكون اعلم الناس بالدين ، واليه ذهب الامامية ، وقالوا بعدم جواز تقديم العالم على الأعلم ، واكتفى غيرهم بمجرد العلم ، اما الأعلمية فليست من الشروط .. بل قال صاحب كتاب « الآداب السلطانية » : روي عن الامام احمد ألفاظ تقتضي اسقاط اعتبار العدالة والعلم .

وان يكون اشد الناس واقواهم في القيام بشؤون الرعية التي فيها صلاح دينها ، وفي الوقت نفسه عليه ان يدعو الى سبيل ربه بالحكمـة والموعظة الحسنة ، اما السبق الى الاسلام والجهاد بين يدي الرسـول فمختص بمن يخلف النبي مباشرة .

وهنا تجدر الاشارة الى انه لم تشترط فرقة من المسلمين ، ولا احد من علمائهم ان يتصف الامام بالمكر والخديعة ، والنيات المطوية ، لان المكر والخداع يستدعي الكذب والغش والخيانة ، وما الى ذلك مـن تحريم ما أحل الله ، وتحليل ما حرم ، قال الامام :

« والله ما معاوية بأدهى مني ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس ، ولكن كل غدرة فجرة ، وكل فجرة كفرة، ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة » .

وقال : « انّ الوفاء توأم الصدق ، ولا اعلم جنة اوقى منه ، ولا يغدر من علم كيف المرجع ، ولقد اصبحنا في زمان قد اتخذ اكثر اهله الغدر كيسا ، ونسبهم اهل الجهل فيه الى حسن الحيلة ، ما لهم قاتلهم الله . قد يرى الحول القلب وجه الحيلة ، ودونه مانع من امر الله ونهيه ، فيدعها رأي عين بعد القدرة عليها ، ينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين » .

حق الرعية على الراعي

ينقسم الحاكم الى مستبد وغير مستبد ، والاول هو الذي يغتصب الحكم اغتصابا ، ويتولاه بلا نص من نبي ، او ممن نص عليه النبي ، وبلا برلمان ، او ببرلمان مزيف . ولا يهتم هذا الحاكم — في الغالب — الا بأهوائه وشهواته ، ولا يعرف الا الظلم والفساد ، ولا يعتقد الا بذكائه وآرائه . ولا يدع احدا يفعل او يقول او يقرأ او يكتب الا ما يعنيه ، ويبارك اقواله وافعاله ، واحسن ما قيل فيه : انه طاعون الامة ، وعلة انحطاطها .

وغير المستبد على نوعين : الاول من يتولى الحكم بالانتخاب . وعليه ان يعمل لصالح المنتخبين ، وينفذ ارادتهم ورغباتهم .

والثاني يتولى الحكم بأمر الله ، اي بالنص من النبي عليه ، او ممن نص عليه النبي ، وعليه ان ينفذ اوامر الله وتعاليم الدين ، ويلتقي هذا الحاكم مع الحاكم المنتخب فيما ذكره الامام من واجبات تجاه رعيته ، وهي ثلاثة : الامن ، والعمل على توفير العيش للجميع ما أمكن ، ونشر الثقافة والتعليم ، واشارة الامام الى المبدأ الاول بقوله :

« فان شغب شاغب استعتب (1) فان ابى قوتل .. الا واني اقاتل رجلين : رجلا ادعى ما ليس له ، وآخر منع الذي عليه » .

وأشار الى المبدأين الثاني والثالث بقوله :

---

(1) المشاغب من يخرج على القانون والآداب ، واستعتب ، اي طلب اليه الرجوع الى الحق والرضوخ له .

« ايها الناس ان لي عليكم حقا ، ولكم علي حق ، فأما حقكم عليّ فالنصيحة ـ اي الاخلاص ـ وتوفير فيئكم عليكم ، وتعليمكم كيلا تجهلوا ، وتأديبكم كيما تعلموا » [1] .

وتتحدث فيما يلي عن كل مبدأ من هذه الثلاثة على حدة :

الامـــن :

والمراد بالامن صيانة الحق الطبيعي لكل انسان ، والحق يطلق على ذات الله سبحانه ، وعلى الشيء الموجود ، وعلى القول والاعتقاد المطابقين للواقع ، وعلى ما للانسان من حق طبيعي ، كحرية التعبير عن رأيه ، والتصرف بماله ونفسه ، وحماية حياته وملكه ، وما الى ذلك . وعلى الحاكم ان يصون للرعية هذا النوع من الحق ، وان لا تأخذه فيه لومة لائم ، وهو المراد من قول الامام : « الذليل عندي عزيز ، حتى آخذ الحق له ، والقوي عندي ضعيف ، حتى آخذ الحق منه » .

وقد حدد الامام هذا الحق ، ولم يدعه لعقول الجاهلين ، وتفسير المنحرفين ، قال :

« الحق لا يجري لاحد الا جرى عليه ، ولا يجري عليه الا جرى له ، ولو كان لاحد ان يجري له ، ولا يجري عليه لكان ذلك خالصا لله سبحانه دون خلقه » .

لا نجد تحديدا أدق وأوضح وأبلغ في الاقناع من هذا التحديد ، انه معيار ثابت لا يتأثر بالاهواء والاغراض ، ولا يختلف باختلاف العقول والافهام ، ان المساواة فيما لك وعليك ترادف الحق ، ولا تفترق عنه

(١) الفيء هو الخراج ، وما يحويه بيت المال .

بحال .. فكل ما يجوز لغيرك يجوز لك ، وكل ما يحرم عليك يحرم على سواك كائنا من كان ، وليس لاحد ان ينفرد عنك ويمتاز في شيء الا الذي خلق كل شيء .

وليست هذه الكلمة الصغيرة الكبيرة معيارا للحق وكفى ، بل هي ايضا تحديد لحب الانسان لاخيه الانسان ، واساس للمجتمع الانساني المثالي ، ومقياس يقاس به عدل الشرائع والاحكام ، وصدق المبادىء والافكار .. فكل شريعة او حكم او مبدأ او قول فيه شائبة المحاباة والتمييز فهو فساد وظلام .

وقد حاول الامام ان يقيم حكمه على مبدئه هذا لا يجري الحق لأحد الا جرى عليه ، فتظاهر ضده اشرار قريش (١) ، وكان من الامر ما كان ، ولو تركوه يعمل لكان المجتمع الاسلامي في كل عصر مثلا يحتذيه كل من يتوخى السعادة والخير لشعبه وامته ، والى هذا اشار الامام بقوله :

« لو سلمتم الامر لأهله سلمتم ، ولو ابصرتم باب الهدى رشدتم، اللهم اني دللتهم على طريق الرحمة ، وحرصت على توفيقهم بالتنبيه والتذكرة » (٢) .

---

(١) عارض وحارب ابو سفيان وابناؤه وحزبه دعوة الرسول الاعظم، ثم استسلموا للقوة ، بعد ان جعل الله كلمة نبيه هي العليا ، وبعد وفاة الرسول تولى ابناء ابي سفيان اسمى المناصب ، فكان هذا في واقعه انقلابا ضد الاسلام ، ونبي الاسلام .

(٢) المستدرك جمع كاشف الغطاء ص ٥٤ « مكتبة الاندلس » .

الفــيء :

مضى على الناس حين من الدهر ، وهم لا يفهمون من واجبـات الحاكم الا انه يأمر وينهى ، ولا شيء للمحكومين الا ان يسمعوا ويطيعوا صاغرين ، ولم يدركوا ان الحاكم مسؤول امام رعيته عن حل مشكلة الفقر ، وتحقيق حياة اسعد وأرغد للرعية الا بعد ان حطم العلم جميـع القيود والحدود ، واصبح مشاعا للجميع ، وبعد ان خطـت البشرية في حياتها خطوات لا تقاس بقياس ، ولا تحد بحد .

اما الامام فقد ادرك هذه الحقيقة ، حيث لا مصانع ومعامل ، ولا خبراء ومواصلات ، كما ادرك ان زيادة الدخل يزيد مشكلة الفقر تعقيدا اذا لم تكن وسائل الانتاج ملكا للجميع ، قال : « عدل السلطان خير من خصب الزمان » (١) ، اي ان زيادة الانتاج والخصب لا يجدي نفعا اذا احتكرته الافراد والفئات ، ولم يوزع بالسوية على الجميع . ادرك الامام هذه الحقيقة ، وعمل لها منذ اليوم الاول الذي تولى فيه الحكم ، واذا لم تساعده الظروف على ان يؤمن سبيل العيش لكل مواطن فقد عمـل بالعدل ، وعلى تخفيف وطأة الفقر بتوفير الفيء وتوزيعه على الجميع بالسواء .

قال الرواة : حين تولى علي الخلافة حضره شيء من مال الخراج ، فخطب الناس ، وقال :

---

(١) وهذا يتفق مع ما نقل عن كنفشيوس حين سئل عما يحتاج اليه في ادارة الحكم ، واجاب يحتاج الى ثلاثة امور : الطعام ، والقوة العسكرية ، وثقة الشعب . فقيل له : اذا اضطررت الى ترك واحد من هذه الثلاثة . قال : استغني عن القوة العسكرية . فقيل له : واذا اضطررت الى الاستغناء عن اثنين واختيار واحد فقط . قال : اختار ثقة الشعب ، اذ يستحيل ان يستمر الشعب في الوجود بدون الثقة بحكومته .

« ان آدم لم يلد عبدا ولا أمة ، وان الناس كلهم احرار (١) ولكن الله خوّل بعضكم ، فمن كان له بلاء فصبر في الخير ، فلا يمنّ على الله عز وجل – اي من كانت له سابقة في الاسلام فأجره في الآخرة ، لا في هذه الحياة – الا وقد حضر شيء من المال ، ونحن مسوون فيه بين الاحمر والاسود » . (منهاج البراعة ج ٤ ص ٩٧) .

ثم قسم المال بالسوية ، فأصاب كل من طلحة والزبير ثلاثة كما اصاب غيرهما من الموالي ، فقال له رجل من الانصار : يا امير المؤمنين انك جعلتني والعبد الذي اعتقته بالامس سواء !.. فقال : اني نظرت في كتاب الله ، فلم اجد لولد اسماعيل على ولد اسحق فضلا .

واشارت على الامام طائفة من اصحابه ان يفضل آشراف العرب وقريش في العطاء على الموالي والعجم ، ويستميل من يخاف خلافه وفراره الى معاوية .

فقال اتأمرونني ان اطلب النصر بالجور .. لا والله لا افعل ما طلعت شمس ، وما لاح في السماء نجم . والله لو كان المال لي لساويت بينهم ، فكيف ، وانما هي اموالهم ؟.. ثم سكت طويلا واجما .. ثم قال : الامر اسرع من ذلك ، كررها ثلاثا ..

---

(١) وهذا صريح بانه لا رق ولا عبودية في الاسلام ، وتؤيده الآية الكريمة التي حددت الاسلام بدين الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، والفطرة تأبى تقسيم الناس الى سادة وعبيد ، اما الاحاديث التي دلت بظاهرها على الاعتراف بمبدأ الرق فانها آنية مقيدة بزمان خاص . قال الفيلسوف الاميركي جوديوس : «ولربما كانت العبودية هي الطريقة الوحيدة التي بواسطتها ارتقت الصناعة والحرف اليدوية بما كان يقدمه اولئك الأرقاء من حذق وجهد في ذلك السبيل » . « الحكماء السبعة » .

اجل ، يا سيد الكونين بعد الرسول ، كل شيء الى زوال ، ولا يبقى الا وجهه ، والرجل كل الرجل من يلقى الله بالحسنات لا بالسيئات .. قالوا : الدين افيون الشعوب . ونقول : الدنيا هي الافيون والطاعون .

الثقـــافة :

كان ينظر الى العلم من قبل على انه صفة من صفات الكمال ، تماما كالشعر وتدبيج الرسائل وزخرفتها ، قال شاعر الامس :

ليس الجمال بأثواب تزيننا   ان الجمال جمال العلم والادب

لذا لم يكن نشر الثقافة وظيفة من وظائف الدولة ، تنشىء له وزارة خاصة ، وتبذل في سبيله اموالا طائلة . اما الامام فقــد نظر الى العلم ــ وهو في عصر الجاهلية الجهلاء ــ على انه ضرورة لبناء الحياة وتطورها وتقدمها ، وادرك خطره واثره ، واعتبره خدمة عامة يجب على الدولة ان تؤديها ، كما يجب عليها ان تحفظ الامن وتوفر الدخل ، ولم يهتد العلماء وارباب الاختصاص الى هذه الحقيقة الا بعد الامام بأكثر من الف عام ، ولقد اهتدوا اليها بعد ان رأوا ما رأوا من آثار العلم ، وانشأوا وزارة للتربية والتعليم ، ولكنهم وجهوا التعليم لغرس الولاء لشخص معــين ، او عقيدة خاصة ، او حزب من الاحزاب ، ولم يوجهوه الى الغاية التي اشار اليها بقوله : « وتعليمكم كي لا تجهلوا ، وتأديبكم كيما تعلموا » اي لتكوين المواطن الصالح الذي ينتفع ، وينتفع به .

وبالاضافة الى ما ذكرناه من شروط الراعي ، وحق الرعية عليه ، فان الامام يحتم على الراعي ان يعيش في مأكله وملبسه ومسكنه عيش الضعفاء من الناس من رعيته، ويعتبر هذا اثرا من آثار شعوره بالمسؤولية، فاذا ميز نفسه بشيء عن ضعفة الناس دل ذلك على عدم كفاءته واهليته للحكم .

قال الامام لعاصم الحارثي حين شكاه اخوه العلاء له : « ان الله فرض على أئمة العدل ان يقدروا انفسهم بضعفة الناس ، كي لا يتبيغ بالفقير فقره » اي يهيج به الم الفقر فيهلكه .

ولا نعرف شريعة من شرائع الدول العصرية نصت على ذلك ، لا حاكما اخذ نفسه به ، وحملها عليه ، حتى حكام الدول الاشتراكية الذين يتغنون بالعدالة والمساواة فانهم يركبون السيارات الفارهة ، ويسكنون القصور العالية ، ويلبسون الثياب الفاخرة ، ويأكلون ما لذ وطاب ، ويقبضون العلاوات للترفيه ، ويقضون عطلهم في اجمل المتنزهات ، كل ذلك على حساب الشعب ، والنفقات العامة ، تماما كما هي حال امراء النفط في البلاد العربية ، وسكان وول ستريت في امريكا ، وداونتغ ستريت في انكلترا ، ولا فرق بينهم وبين الرأسماليين من حيث العيش والرفاهية الا بالاسم في ان الحاكم الاشتراكي لا يملك ، وغيره يملك ، اما النتيجة فواحدة ، وهي التمييز في العيش عن الانسان العادي .. وقد كان وما زال هذا التمييز المصدر الاول لكثير من الجرائم والمشاكل الاجتماعية .

ولو عمل الحكام بمبدأ الامام لما كانت هذه المشاكل ، ولما تكالب الناس على الحطام هذا التكالب ، وتهالكوا على حب الظهور هذا التهالك ، ولما أسرفوا وانفقوا الاموال الطائلة الهائلة على الزخارف والبهارج ، ولما كان هذا التحاسد والتباغض ، ولاستقام الموظف الكبير والصغير ، وادى مهمته على أكمل وجه ، ولم ينحرف الى الرشوة والخيانة ، وبالتالي ، يكون الراعي محلا لثقة الجميع .

حق الراعي على الرعية

ذكرنا في الفصل السابق حق الرعية ، ونذكر هنا حق الراعي على رعيته ، قال الامام :

« واما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة ، والنصيحة في المشهد والمغيب ، والاجابة حين ادعوكم ، والطاعة حين آمركم » .

وجاء في خطبة اخرى من خطب النهج :

« فليست تصلح الرعية الا بصلاح الولاة ، ولا تصلح الولاة الا باستقامة الرعية ، فاذا ادت الرعية الى الوالي حقه ، وادى الوالي اليها حقها عز الحق بينهم ، وقامت مناهج الدين ، واعتدلت معالم العدل ، وجرت على اذلالها السنن ، فصلح بذلك الزمان ، وطمع في بقاء الدولة ، ويئست مطامع الاعداء ، واذا غلبت الرعية واليها ، واجحف الوالي برعيته اختلفت هنالك الكلمة ، وظهرت معالم الجور ، وكثر الادغال في الدين ، وتركت محاج السنن ، فعمل بالهوى ، وعطلت الاحكام ، وكثرت علل النفوس ..

ولكن من واجب حقوق الله على العباد النصيحة بمبلغ جهدهم ، والتعاون على اقامة الحدود بينهم ، وليس امرؤ وان عظمت في الحق منزلته ، وتقدمت في الدين فضيلته بفوق ان يعاون على ما حمله الله من

حقه ، ولا امرؤ وان صغرته النفوس ، واقتحمته العيون بدون ان يعين على ذلك او يعان عليه » .

ونستخلص من هذه التوجيهات الامور التالية :

١ ــ ان المجتمع الصالح الذي يعز فيه الحق ، ولا يطمع فيه العدو يتقوم بأمرين : صلاح الراعي ، وصلاح الرعية ، اما صلاح الراعي فيتقوم بالنصح والاخلاص للراعي الصالح ، والتعاون على الخير والنفع العام ؛ فاذا قصر الراعي ، او تمردت الرعية فقد الامن ، وعم القلق والذعر ؛ وشلت الاعمال ، والى هذا اشار الامام بقوله : « فعمل بالهوى ، وعطلت الاحكام » . وقد اعتبر الاسلام التمرد على الحاكم تمردا على المجتمع ، وسمى الخارجين عليه بالساعين في الارض فساداً .

وينبغي الاشارة الى ان حق الرعية على الراعي ثابت مطلقا ، سواء أقامت الرعية بما عليها من حق الراعي ، او لم تقم .. اما حق الراعي على رعيته فمقيد بصلاح الراعي ، قيامه بما عليه من حق .. فان اهمل فلا تجب طاعته ، بل يجوز خلعه وعزله .

٢ ــ ان التعاون على الخير والامر بالمعروف حق الله على جميع المكلفين ، وان من ترك ذلك تهاونا فقد خان امانة الله عز وجل ، جاء في الحديث : « من رأى اخاه على امر يكرهه فلم يردعه عنه ، وهو يقدر عليه فقد خان » . وقال الامام لولده الحسن : امحض أخاك النصيحة حسنة كانت ام قبيحة .

٣ ــ ان الانسان مهما بلغت منزلته من العلم ، وعظمت مكانته في الدين يظل مفتقرا الى النصيحة والارشاد ، حتى من الاشخاص العاديين . اذ ربما كشفوا له عن شيء او اشياء لم يلتفت اليها ، ومن رأى نفسه

فوق النقد فقد ادعى انه بلغ الشوط الاخير ، وأحاط بكل شيء علما .. قال الامام في آخر الخطبة التي نقلنا منها القطعة السابقة :

« ولا تظنوا بي استثقالا في حق قيل لي ، ولا التماس اعظام لنفسي، فانه من استثقل الحق ان يقال له ، او العدل ان يعرض عليه ، كان العمل بهما اثقل عليه ، فلا تكفوا عن مقالة بحق ، او مشورة بعدل ، فاني لست بفوق ان اخطىء ، ولا آمن ذلك من فعلي الا ان يكفي الله من نفسي ما هو املك به مني ، فانما انا وانتم عبيد مملوكون لرب لا رب غيره » .

ونقدم هذا الدرس البليغ من باب مدينـــة العلم الى الذين يزكون انفسهم ، ويستنكفون عن الاصغاء الى النصيحة والارشاد .

ومهما شككت في شيء فاني لا اشك في ان من يدعي انــه اعلم الناس في زمانه لا يستطيع ان ينظر الى شيء بعين الواقع ، او يأتي بخير ما دام معتقدا بأن علمه بما هو ــ وبصرف النظر عن اي اثر ــ هو اعظم الاعمال واجلها . وانه يجب ان يكون المطلب الاخير للانسانية جمعاء ... ومن كانت هذه حاله فمحال ان يقبل النصح ، والتحــول عن رأيه ... فالاولى ان يترك وشأنه ، وتتجاهل مكانه .. واقسم اني ما نظرت الى واحد من المتعالين الذين عرفتهم الا شعرت بأني انظر الى خرافة القرن العشرين ، الى من خلع انسانيته ووجوده ، وذهل عن نفسه ، وعاش في عالم لا وجود له الا في وهمه ومخيلته .. وهنا تكمن الاعجوبة والخرافة.

من عهد الامام للأشتر

ذكرنا في الفصول السابقة شروط الراعي ، وحق الرعية عليه ، وحقه عليها ، وهي تتضمن المبادىء الاساسية العامة التي يجب ان يرتكز عليها التشريع السياسي والحربي والمالي والاداري وما الى ذاك . وكل ما جاء في عهد الامام للاشتر (١) يتفرع عن تلك المبادىء التي ذكرناها في الفصول الثلاثة المتقدمة .

ونورد في هذا الفصل بعض الامثلة من العهد المذكور تتعلق بالجيش واختيار القضاة والموظفين ، وغير ذلك .

في القضاء :

بعد ان أمر الامام الاشتر في عهد له ان يختار القضاة من اهل الكفاءة العلمية والخلقية قال :

« وافسح له — اي للقاضي — في البذل ما يزيد عليه ، وثقل معه حاجته الى الناس ، واعطه المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ؛ ليأمن بذلك اغتيال الرجال عندك » .

---

(١) شرح هذا العهد مفصلا الاستاذ توفيق الفكيكي في كتاب اسماه « الراعي والرعية » ، وقد تجاوزت صفحاته الـ ٣٠٠ بالقطع الوزيري . اطلعت عليه فوجدته وافيا بالغرض ، جديرا بالعناية ، فمن اراد التفصيل فليرجع اليه .

لا شيء أدق وأخطر من مهمة القاضي .. فانه يحكم على الشريف والوضيع بالموت والاعدام ، وبمصادرة الاموال وحجزها ، وبتحليل الفروج ، او تحريمها ، والدولة من وراء حكمه تنفذه بقوة السلاح دون سؤال وتردد ، حتى كأنه وحي منزل ، فاذا لم يكن القاضي عارفا بمواقع الحق ، امينا عليه لا تأخذه فيه لومة لائم هلك واهلك .. ومن هنا كان شرط العلم والعدالة فيمن يتولى منصب القضاء من الضرورات .

واذا كان على القاضي ان يكون نزيها متعففا فان من حقه ان يفسح له في العطاء ، ولا يضيق عليه في العيش ، وان يكون مستقلا في احكامه ، امينا على نفسه ومصدر عيشه من مداخلة المتزعمين ، ومعارضة المرتزقين، كي تلزمه الحجة ، ولا يبقى له من عذر يتشبث به ان حاد عن الحق .

في الجيش :

قال : « الجنود باذن الله حصون الرعية ، وزين الولاة ، وعز الدين، وسبل الامن ، فلا تقوم الرعية الا بهم .. فولّ جنودك انصحهم في نفسك لله ولرسوله ولامامك ، وانقاهم جيبا ، وافضلهم حلما ممن يبطىء عن الغضب ، ويستريح الى العذر ، ويرأف بالضعفاء ، وينبو عن الاقوياء ، وممن لا يثيره العنف ، ولا يقعد به الضعف » .

لا يحتاج هذا الكلام الى الشرح والتفصيل .. ولكن نقف قليلا عند قوله : « افضلهم حلما ، يبطىء عن الغضب ، ويرأف بالضعفاء ، وينبو عن الاقوياء » .

ان معنى اختيار شخص للجندية ان تمنحه الدولة هيبتها ، وتجعل في يده قوتها ، وتعطيه السلاح الذي لا يعطى لغيره ليصون الامن من الخارج والداخل ، ويكون قوة للضعيف المحق على القوي المبطل ، فلو

وضعت هذه الهيبة والقوة في غير مواضعها ، واستعملت في الغايات الخاصة من تخويف المستضعفين ، ومساندة المتزعمين لا تنفت الغاية من الجندية ، وكانت الدولة اداة فساد لا اصلاح . وقوة للهدم لا للبناء .. وبكلمة ان القوة يجب ان تمنح لمن يوجهها للخير والصالح العام ، لا للأهـــواء والشهوات . وعسى ان يدرك هذه الحقيقة . وينتفع بها وزراء الدفاع الذين يسخرون جنود الامة وحراسها لمنافعهم الشخصية ، واشباع غرورهم وكبريائهم .

في الصلح :

قال : ولا تدفعن صلحا دعاك اليه عدوك ، لله فيه رضا ، فان في الصلح دعة لجنودك ، وراحة من همومك ، وامنا لبلادك ، ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه ، فان العدو ربما قارب ليتغفل ، فخذ بالحزم ، واتهم في ذلك حسن الظن » .

للامام مبدأ لا يحيد عنه ، وهو حقن الدماء وصيانتها ما امكن ، وعلى اساسه رضخ للتحكيم بينه وبين جيش الشام ، ولو رفض لاستمرت الحرب بينه وبينهم من جهة ، ودارت بينه وبين جماعة من اصحابه مـــن جهة ثانية .. فآثر السلم حقنا للدماء ، والى هذا المبدأ اشار بقوله : « اذا طمعنا في خصلة يلم الله بها شعثنا ، ونتدانى بها الى البقية فيما بيننا رغبنا فيها ، وامسكنا عما سواها » .

ودلت وقائع التاريخ وحوادثه على ان الصلح بعد الحرب لا يمحو آثارها من النفوس ، وان المغلوب لا يسكن الا ليستعد للوثوب .. ومن هنا امر الامام بالحذر ، والاخذ بالحزم ، حتى مـــع الصلح وسكوت الخصم .. ولو ان الذين اتهموا الامام بعدم العلم بالسياسة تدبروا عهده للاشتر ، بخاصة هذه الفقرة لرجعوا عن رأيهم ان كانوا منصفين .

في الموظفين :

قال : « ثم انظر في امور عمالك ، فاستعملهم اختيارا ، ولا تولهم محاباة واثرة .. وتوخ منهم اهل التجربة والحياء من اهل البيوتات الصالحة .

ثم اسبغ عليهم الارزاق ، فان ذلك قوة لهم على استصلاح انفسهم، وغنى لهم عن تناول ما تحت ايديهم ، وحجة عليهم ان خالفوا أمرك .. ثم تفقد اعمالهم ، وابعث العيون من اهل الصدق والوفاء عليهم » .

فالكفاءة العلمية والخلقية هي الاساس لاختيار الموظفين ، والمبرر الوحيد لاسناد المناصب لمن يتصف بالمعرفة والامانة ، اما القرابة والصداقة فحقهما على القريب والصديق ، لا على الامة ومقدراتها .. ولو بحثنا عن سر تأخرنا نحن المسلمين والعرب ، وتقهقرنا يوما بعد يوم لوجدناه يكمن في المحاباة والاستئثار ، يكمن في تفضيل الاشرار على الاخيار ، وتقديم غير الاكفاء على الاكفاء .. هذا ابن مسؤول ، او « متزلف » له يعين مديرا او سفيرا ، وهو لا يصلح لشيء ، وهذا قاض يرأس محكمة عليا او دنيا ، وهو دون كاتبه علما واخلاصا .. وقد جرأت هذه الفوضى غير الاكفاء على ان يتطاولوا الى المناصب العالية ، ويزاحموا الأفذاذ من اهل المواهب والاختصاص .

أما مبدأ التفتيش على الموظفين كبارا وصغارا الذي اشار اليه الامام بقوله : « تفقد اعمالهم ، وابعث العيون عليهم » . اما هذا المبدأ فلم تعرف اهميته وفوائده الا بعد الامام بمئات السنين . والا بعد ان مرت الدول بتجارب طويلة .

في الوزراء الاشرار :

قال : ان شر وزرائك من كان قبلك للاشرار وزيـرا ، ومن شركهم في الآثام فلا يكونن الك بطانة .. وانت واجد منهم خير خلف .. والصق بأهل الورع والصدق . ثم رضهم على ان لا يطردوك ، ويبجحوك بباطل لم تفعله . فان كثرة الاطراء تحدث الزهو وتدني من الغرة » .

يتولى الحكم مستبد فاسد . فيهتف باسمه المرتزقة ، ويقيمون لـه المهرجانات ، وينصبون له التماثيل . وينعتونه بأسمى الالقاب .. ويتخذ هو منهم وزراء واعوانا يسلطهم على الابريـــاء والاشراف ويلقي اليهم بمقاليد الامور يعبثون ويفسدون .

فاذا دارت عليه دائرة السوء ، وانتقل الحكم الى غيره تحلقـوا حوله ، ومثلوا نفس الدور الذي مثلوه مع سلفه الذي تبرأوا منه ومـن أعماله ، وحملوه وحده جميع التبعات والسيئات ، وكالوا له السبـاب واللعنات .. فحذر الامام من هؤلاء .. ونصح الولاة باقصائهم ، والابتعاد عنهم ، لانهم يسيرون دائما بمن يصحبون في طريق الفساد والجور . حتى اذا جد الجد ، وجاءت ساعة الحق قـالوا ما قـاله الشيطان للانسان : (اني بريء منك اني اخاف الله رب العالمين) .

ولو ان ولاة العرب والمسلمين قبلوا مني هدية اختارها لهم لأهديت كلا منهم قطعة كتب عليها بالخط الطويل العريض : (ان شر وزرائـك من كان قبلك للأشرار وزيرا) ليعلقها في مكتبه ، ويكرر قراءتها هـو ومن يدخل عليه من الاشرار .

هذه امثلة يسيرة قليلة من ذاك التراث الخالد ، اوردناها للتذكير بكنوزه التي ما تزال مجمدة حتى الآن . ولو عني المسلمون بفقه معانيه ،

وتدبر ما فيه من كنوز ورموز لكانوا في غنى عما عند الغربيين من توجيهات وتشريعات .. ولو كان هذا العهد لغير العرب والمسلمين لكتبوه بالذهب ، ودرسوه في الجامعات ، ولتفرغ لشرحه ، وكشف اسراره اهل المعرفة والاختصاص . ولكنه لامير المؤمنين ، وامام المتقين علي بن ابي طالب عليه افضل الصلوات والتحيات .

الاسلام بنظرة عصرية

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين ، والصلاة على محمد وآله الاكرمين .

العالم

وبعد ، فان العالم حقا هو الذي تتوافر فيه الصفات التالية :

١ ــ أن يأخذ العلم من اهله ومعدنه ، ويسير على طريقه في مهل خطوة فخطوة ، فلا ينتقل الى الدرس اللاحق حتى يتفهم الدرس السابق على حقيقته ، لمكان التشابك والتلاحم بين دروس الكتاب الواحد في العلم الواحد تماما كالطوب والاحجار التي تشكل صرحا واحدا .. هذا ، الى ان العلم لا يأتي مسرعا الى طالبه ، ولا دفعة كالطوفان حتى ولو كان مبتغيه نبياً مرسلا ، قال سبحانه لنجيه الكريم : « ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضي اليك وحيه وقل رب زدني علما ــ ١١٤ طه » .

٢ ــ ان يتهم نفسه بالتقصير ، ويتوقع منها الخطأ ، ويقرر احكامه على سبيل التقريب ، لا على سبيل الجزم واليقين ، ويتقبل النقد برحابة صدر .. ومن أخذه العجب والغرور بعلمه فقد ابتعد عن العلم واهله .

قال رسول الله (ص) : « لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم ، فان ظن انه قد علم فقد جهل » ... وكفى بالمغرور ذماً وقبحا انه يكره كلمة الحق والصدق فيه ، ويغضب منها ، ويحب الاطراء الكاذب ، ويطرب له ... وفي الخطبة ٨٩ من خطب النهج فسر الامام (ع) الراسخين في العلم بأنهم الذين يميزون بين ما يعلمون وما لا يعلمون ، ويقفون عندما حجب عن علمهم ... وأيضاً قال الامام من جملة ما قال : « من ترك قول : لا ادري اصيبت مقاتله » .

٣ ــ ان يسعى وراء المعرفة ، ويستمر في طلبها حتى الموت . قال نبي العلم والرحمة : « اطلب العلم من المهد الى اللحد » . لان العلم نهر دائم الجريان ، يتصل التيار اللاحق بالتيار السابق ، فاذا ما وقف التيار اكتشفنا من وقوفه نضوب الينبوع ... وأعرف اكثر من واحد كانوا ، وهم في النجف من اهل العلم والتحصيل ، وحين عادوا الى لبنان هجروا الكتاب فهجرهم العلم الى غير رجعة ، وأصبحوا من الجاهلين .

٤ ــ ان يعمل بما يعلم ، وينفع الآخرين بعلمه ، وان لا يأكل به ، ويبتغي من ورائه المناصب والمكاسب .

واذن فمن الخطأ أن نقيس معرفة الانسان ونجاحه في العلم ــ بعدد السنوات التي أمضاها في المدرسة والمعهد ، فقد يقضي عشرات السنين في النجف ــ مثلا ــ ويحضر حلقات الدرس دون ان يعقل شيئاً ... وقد يفهم ويعقل ، ولكنه ينقطع عن العلم وممارسته ، فيعود .. ربي كما خلقتني ... وانما يقاس نجاح الانسان في العلم بما ينال منه ، بجده ونشاطه ووعيه وادراكه لكل ما قرأ ودرس ايام الدراسة مع استمراره في المطالعة والمراجعة .

التعليم علم :

التعليم في هذا العصر علم مستقل بنفسه ، له آصوله وقواعده ، ودوره ومعاهده ولا غنى عنه للاساتذة والمعلمين ، وبخاصة اذا ارادوا الدعوة الى مبدأ من المبادىء او نظام من الانظمة ، وبصورة أخص الدعوة الى الله ودينه .

والشرط الاول في الداعي والمبلغ ان يرفق بمن يبشره وينذره، ويقف منه موقف الناصح المخلص ، لا موقف الناقم الغاضب ، لان هذا تنفير لا تبشير ، وتبعيد لا تقريب . قال سبحانه لنبيـه الكريم : « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ــ ١٥٩ آل عمران » . فقد ربطت هذه الآية بين الخلق الكريم وبين نجاح الدعوة وانتشارها ، وانه يستحيل ان تجد لها مكاناً في القلوب الا اذا اقترنت بالرفق واللين .. وايضاً تومىء هذه الآية الى ان غلظة الداعي وقسوته تحول دون الاقناع بدعوته حتى ولو كانت وحياً من السماء .. وفي آية ثانية : « وجادلهم بالتي هي احسن ــ ١٢٥ النحل » . وفي ثالثة : « فبما رحمة من الله لنـت لهم ــ ١٥٩ آل عمران » .. الى كثير من الآيات والروايات التي أعرض عنها ونأى بعض الوعاظ الحمقى .

الشرط الثاني ان يتعمق الداعي المبلّغ في فهم الحياة وروح العصر الذي يعيش فيه ، وان يحيط بمصادر المعرفة الحديثة، والفلسفات المناقضة للاتجاهات الغيبية ، وينظر قبل كل شيء الى أفكار الذي يبشره وينذره ، والى المنهج الذي يحفظه ويؤمن به ويجـادل على اساسه ، ثم يخاطبه من خلال فلسفته ووجهة نظره .

ومن الحمق ان يعتمد الداعي عند الجدال والنقـاش على مجرد شعوره واحساسه بأن دعوته حق لا ريب فيه ، ويتجاهل معلومات الطرف

الثاني ومقاييسه ، لان الهدف من الدعوة أن يسلم بها الخصم عن قناعة وايمان ، أما مجرد افحامه واظهار عجزه فما هو بهدف لاهل العلم والمبادىء الا اذا كان الخصم من العتاة المعاندين .

سدنة الدين :

ونتنقل من هذا التمهيد الى سدنة الدين وأهل العلم به وطلابه الذين يدرسون كتابي الاسفار وشرح المقاصد والتجريد ، وأمثال ذلك من كتب الفلسفة وعلم الكلام ، ويحاولون البرهنة على عقيدة الاسلام بأصولها الثلاثة : الايمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، ويستدلون على صحتها بقول من أقوال « الملا صدرا » صاحب الاسفار ، وجملة من عبارة « القوشجي » في شرح التجريد – مثلا – ويؤلفون قياساً منطقياً من هذه وذاك ، ويثبتون به ما وراء الحس والطبيعة من المغيبات .

ننتقل الى هؤلاء لنسألهم : أين انتم ؟ واين علمكم هذا من تيار الزمن والفكر الحديث الذي جرف الاقيسة الارسطية وعلم الكلام، وحصر مصدر العلم والمعرفة بالتجربة وشهادة الحواس ، وما عدا ذلك فلا سبيل الى معرفته ... فلقد كان في سالف الأزمان للأقيسة التقليدية – شأنها ، ولعلم الكلام وزنه ومكانته يوم كانت الكلمة بذاتها علماً وثقافة ، بل نبوغاً وعبقرية . أما اليوم فالعلم والثقافة صواريخ موجهة ، وسفن فضاء ، وانابيب ومعامل ومصانع .

هذا ما تعتقده الأكثرية الغالبة من الشباب وغير الشباب في هذا العصر ... وعلى سدنة الدين وعلمائه أن يعرفوا هذه الحقيقة ، ويلموا بالاتجاهات الحديثة ، والفلسفة الشائعة ، وان يطردوا اسلوبهم في الدعوة والدعاية الى الاسلام على هدى من هذه الاتجاهات والتيارات ، حتى يتفاهموا مع شباب الجيل بمنطقهم ولغتهم .

لا حياة للحق بلا قوة :

بالأمس كان سدنة الفكر الاسلامي يكلمون الناس من اعلى وينظرون اليهم من شاهق ... ولا رصيد عندهم الا كلمة الاسلام وسلطانه ، واليوم تصدعت هيبتهم ، وفقدوا ذاك الجلال والاكرام ، وتلك الكرامة والحصانة .

وتعددت الاقوال والتفاسير في تحديد السبب الموجب لهذه النكسة. فقال قائل : كل شيء يتحرك في عصر الفضاء ، ويسرع كالبرق الى الامام ، ويأبى الشيوخ الا الجمود على سنة الاولين ، ومواجهة الجديد بالقديم ، ولو انهم واجهوا التيار الدافق من الغرب بنظرية اسلامية حديثة لما ضربت عليهم هذه الذلة والمسكنة ... والآتي أفدح وأقبح .

وقال آخر : لا سبب الا كثرة الادعياء والمتطفلين بين اهل العلم والدين . ورأى ثالث ان المحنة تكمن في الخلافات والانقسامات بين شيوخ المذاهب الاسلامية .. الى غير ذلك من الاقاويل والتعليلات .

وليس من شك ان في شيوخ الدين وسدنته الدعي والجامد والمنحرف ، ولكن السبب في هوانهم على الناس هو ان الاسلام في هذا العصر لا حول له ولا قوة رادعة تحمي ذماره ، وترعى امره ، وتنفذ شرعه وأحكامه في حين تظاهر عليه جميع قوى الكفر والشر في الشرق والغرب على ما بينهم من تناقضات ومشاحنات ، وأبعدوه عن التشريع والقضاء والسياسة والثقافة والاقتصاد ، وعن كل ميدان من ميادين الحياة ، وعملوا جاهدين على اذلال المسلمين واضعافهم وتفتيتهم الى قوميات ودويلات (١) .

---

(١) اقرا فصل « غزو الاسلام من الداخل والخارج » في هذا الكتاب .

ولنفترض ان علماء الاسلام في هذا العصر صفوة الصفوة علماً وتقى ، وان كلمتهم واحدة ظاهراً وواقعاً ، وانه لا دخيل فيهم ولا عليل ، وانهم يحيطون علماً بكل الفلسفات والاتجاهات الحديثة ، لنفترض هذا — وافتراض المحال ليس بمحال — فهل يستطيعون أن يعيدوا للاسلام سلطانه وللعالم الاسلامي كيانه في ظل أعداء الاسلام الحاليين وقوّتهم عدة وعدداً ، وعلماً وثراء ، وفي ظل هذه الأنظمة الوضعية العلمانية التي تنفذ بقوة السلاح على مئات الملايين من المسلمين .

واذن فليس الذنب ، ذنب الاسلام ولا علماء الاسلام ، ولا المحنة محنتهم ، وانما هي محنة الاسلام بالذات ، وقبل الاسلام قال نبي من أنبياء الله : « لو ان لي بكم قوة » . وقال سيد الخلق والمرسلين (ص) مخاطباً ربه : « اللهم أشكو اليك ضعفي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس » . ولو كان للاسلام قوة تنفذ أحكامه ، وتنظم الحياة والمجتمع على اساس مبادئه وتعاليمه ، ثم استهان المسلمون بعلماء الدين — لقلنا مع القائل : « ولو انّ اهل العلم صانوه صانهم » .. أبدا لا حياة للدين ولا للحق والعدل بلا قوة ترهب الطغاة والبغاة .. اجل ، ان الحق يصرع الباطل بالبرهان والحجة ، وفي سجلات التاريخ ، ويوم تقوم الساعة ، اما في الدنيا فلا يفل الحديد الا الحديد .. وما تحررت الشعوب المستضعفة من أغلالها الا بعد ان صنعت من ارواحها ودمائها ما تقاتل به .

لا قوة من غير اتحاد :

ومن العوامل التي نقضت قوة الاسلام وأضعفت كلمته — فئة أو حثالة اخذت على عاتقها ان تعمل بكل سبيل للتفرقة وشتات اهل القرآن والقبلة، وهم احوج ما يكونون الى توحيد القوى وجمع الصفوف لمواجهة العدو المشترك .. وكان القائد الاعلى في هذا العصر لبث النعرات وايقاظ

الفتنة في الامة الاسلامية هو صاحب الخطوط العريضة الذي اقدم على ما قدّم .

وقدّم الكثير من الخدمات لاعداء الله والاسلام ، وكافح طويلا مع المبشرين ضد محمد والقرآن ، وأمدهم بأقوى الاسلحة وأمضاها من حيث يريد او لا يريد ... ومنها ما نشره ضد الشيعة في مجلة الأزهر يوم كان مديرها ، ومنها خطوطها العريضة . ونقضتها بمقال طويل نشر في الصحف ثم أدرجته في كتاب « فضائل الامام علي » بعنوان : شيعة علي والمفترون.

ومنها نشره لكتاب « العواصم من القواصم » لأبي بكر بن العربي. ولقد نشر صاحب « الخطوط » هذا الكتاب العتيق القديم لا لشيء الا لانه يفرق ولا يؤلف ، ويعجب الحاقدين على القرآن وشريعته ومحمد (ص) وامته .

وابن العربي هذا كان ينال من مقام أئمة المذاهب الاسلامية ما عدا مالكاً ، لانه كان على مذهبه ... ومن ذلك قوله عن الامام الشافعي : « لم يذق طعم الفقه » وقوله عن الامام ابي حنيفة في شيء أفتى به : « هذا فقه ضعيف » (١) . واذا بلغ التعصب الجاهلي الأعمى بابن العربي هذا المبلغ ضد الشافعي وابي حنيفة ــ لانه مالكي لا شافعي ولا حنفي ــ فلا بدع اذا تعصب ضد الشيعة لانه مبغض . ولكن هل التعصب من شيمة العلماء ؟ وهل يجوز الاستماع لمتعصب ؟ واجاب ابن العربي نفسه في كتاب « العواصم » ص ١٥٠ طبعة ١٣٧٥ هـ ، اجاب بقوله : « كلام المتعصب لا يُسمع » .

أجل ، لا يسمع لمتعصب كلام ، لان التعصب يعمي صاحبه حتى عن

---

(١) انظر كتابه احكام القرآن ج ٢ ص ٢٣٩ طبعة ١٣٣١ هـ .

نفسه وواقعه ، الشاهد ان ابن العربي قد تعصب ضد الشافعي وابي حنيفة والشيعة ، ثم حكم على نفسه — من حيث لا يشعر — بأن كلامه لا يُسمع !.. وهكذا يفعل التعصب بصاحبه ، يعميه عن اسوائه وأخطائه .. ومن هنا ساوى الرسول الأعظم (ص) بين الكفر والتعصب في قوله : « من تعصب فقد خلع ربقة الايمان من عنقه .. من كان في قلبه حبة خردل من تعصب بعثه الله تعالى يوم القيامة مع أعراب الجاهلية » .

وبعد ، فما أحوجنا نحن المسلمين اليوم الى جمع الصفوف ووحدة الكلمة لمجابهة الحرب الصليبية والصهيونية ضد كلمة « لا اله الا الله محمد رسول الله » التي أماتت الحاقدين على الاسلام بغيظهم .. ولقد قرأت فيما قرأت لواحد من هؤلاء مقالا جاء فيه : « يجب ان تتخذ القرآن سلاحاً مشهوراً ضد الاسلام لنقضي عليه ، فيرى المسلمون ان الصحيح في القرآن ليس جديداً ، وان الجديد فيه ليس صحيحاً » .

فلنذكر هذا ، ونذكر معه ان جميع الفئات والعناصر الوطنية في كثير من الشعوب المستضعفة قد تحالفوا وتكاتفوا — على ما بينهم من تناقضات — ضد العدو المشترك ، وجاهدوا واستشهدوا جنباً الى جنب دفاعا عن الوطن .. وهكذا يجب ان يكون المسلمون سنّة وشيعة ، فينسوا الماضي بكل ما فيه ، ويعملوا مخلصين يداً واحدة لخير الاسلام ومصلحته ، ويستحيل ان يقوم للاسلام عمود ، ويخضر له عود ما دام المسلمون اشتاتاً متفرقين .

موجة الالحاد :

هذا فيما يعود الى الاسلام والمسلمين بالخصوص ، اما موجة الالحاد وطغيانها في هذا العصر على الايمان والأديان بوجه التعميم — فانها تعود الى سلسلة من الاسباب تنتهي بكاملها الى سبب واحد ... ومن حلقات هذه

السلسلة الجهل وسوء الفهم لحقيقة الدين واهدافه ، والاعتقاد بانه خرافة من اساطير الاولين ، تناقض العلم ومطالب الحياة وتقدمها .

والسبب الاول لهذا التصور الخاطىء عن كل دين هو موقف الكنيسة من العلم والعلماء ، حيث كان ساداتها في زمن مضى يعاقبون بالقتل والحرق كل من نزع الى جديد ، او كشف عن حقيقة من حقائق الطبيعة ، كان أرباب الكنيسة يفعلون ذلك تحت عنوان الهرطقة والخروج على الدين ... وتاريخ محاكم التفتيش يعرفها الجميع .

وأيضاً كان رجال الكنيسة من الاقطاعيين والرأسماليين ، يسجدون كل طاغ وباغ باسم الدين والسماء ، ويزعمون انهم يملكون مفاتيح الجنة والنار . (انظر فصل سلطان الكهنوت من كتاب السلطان «لبرتراند راسل» ، وكتاب الاسلام والنصرانية للشيخ محمد عبده) .

ومن هنا ، من سيرة اللاهوتيين ــ وعلى رأسهم البابوات ــ استوحى ماركس وانجلز وراسل وكثير غيرهم ، استوحوا الصورة المشوهة عن الدين وحقيقته ككل ، وقالوا : هو عدو العلم ، ولا تتسع طبيعته لمطالب الحياة ، وتبعهم في هذه الشبهة او الفرية كل مقلد مفتون بالغرب ومدنيته ... وكانت النتيجة ان دفعت الاديان كلها ثمن هذا الخطأ والتقليد الذي صرف معظم الشباب عن دين الآباء والاجداد .

وبعد ، لو ان ماركس ادرك حقيقة الدين واهدافه ، وفرّق بينه وبين المتسمين بسمته ــ ما نطق بكلمته الشائعة اللاذعة : « الدين أفيون الشعوب » . ولحصر الصراع بين العلم والذين يتخذون من الدين اداة للصوصية ... ومن طريف ما قرأت : ان الشاعر الخالد « اقبال » نظم قصيدة يقول فيها : ان لينين حين انتقل الى العالم الآخر ، ولقي الله سبحانه اعتذر اليه بأنه عجز عن رؤيته في عالم يسوده الاحتيال

والاستغلال (١) . وتجاوبت الهند كلها مع القصيدة ، وأثارت الجماهير والمثقفين ... نقل هذا الاستاذ محمد عودة في كلمة بعنوان « ثورة اقبال »، نشرتها جريدة الجمهورية المصرية بتاريخ ٢٧ ـ ٤ ـ ١٩٧٢ .

هذه الصفحات .

نحاول في هذه الصفحات ان نثبت بالشواهد الحسية ان الاسلام ليس مجرد نظرية في وجود العالم وخالقه ، بل هو ايضاً نهج للسلوك واسلوب للعمل على اساس خدمة الانسان ومصلحته ، وانه لا صراع ولا خصومة بينه وبين العلم ، بل العكس هو الصحيح ... فأي استكشاف يصل اليه العقل البشري فهو انتصار لدين محمد والقرآن ، واي عمل ينفع الناس بجهة من الجهات فهو من هذا الدين في الصميم ، لان الهدف الاول منه بل ومن العلم والفلسفة والادب والاخلاق هو خدمة الانسان ، وحمايته من الاستغلال والعدوان ، وما شرع الله حكماً لعباده وألزمهم بأي تكليف الا على اساس مصلحة الفرد والجماعة ... فان نسب اليه شيء لا يؤدي هذا الغرض فهو من جهل الجاهلين ، ودسائس الوضاعين ... واي انسان يترك أثراً مفيدا لاخيه الانسان فانه يلتقي بعمله هذا مع دين الله وارادته ... مهما كانت عقيدته ووجهته .

ونشكر الله شكرا يستوجب المزيد من فضله ، والصلاة على محمد والأطهار من آله ونسله .

---

(١) اقبال ضد الماركسية ، ومن اعظم المدافعين عن الاسلام والرسالة المحمدية .

تمحيص التجربة وحصر المعرفة بها

المعطيات الاولية :

كل من يدعو غيره الى التصديق والايمان بوجود شيء او نفيه [1] فعليه ان يقيم الدليل على ذلك . ويجب ان يكون هذا الدليل من المعطيات الاولية مباشرة او بالواسطة بحيث تنتهي سلسلة الأدلة النظرية الى مسلمات بديهية . واي شيء لا يمكن اقامة الدليل عليه من البديهة مباشرة او بالواسطة فهو غير مقبول ولا معقول .

والمعطيات الاولية هي التي يستدل بها على غيرها، ولا يستدل بغيرها عليها ؛ لانه لا شيء اكثر منها وضوحاً . ولذا يشترك في معرفتها العالم والجاهل.. ولو احتاج كل دليل الى دليل لتسلسل الى ما لا نهاية، ومعنى هذا ان يبقى الاستدلال طي الكتمان والعدم ، وينسد باب العلم حتى علم الانسان بوجوده وجوعه وعطشه ، بل وبعلمه انه لا يعلم .

والمعطيات الاولية على انواع ، منها ما يؤخذ من بديهة العقل والفطرة : كالعلم بأن الشيء الواحد لا يكون موجودا ومعدوما في آن واحد ، ومنها يستمد من الحس والخبرة اليومية كشروق الشمس صباحا،

---

(1) قد يقال : لا يحتاج النفي الى دليل ، لانه على مقتضى الاصل . ونجيب بان الاصل دليل .

وغيابها مساء . ومنها يثبت بالنقل المتواتر كوجود افلاطون وارسطو ، ومنها المبادىء القطعية كنظرية الجاذبية في علم الطبيعة ، ورفع الفاعل في علم النحو ، والانسان بريء حتى تثبت اداتته في علم الشريعة ... أبدا لا سبيل الى الشك في شيء من هذه المجموعة الضرورية على الاطلاق .

ابن تيمية والبديهيات :

وقال ابن تيمية في كتاب « الرد على المنطقيين » : ان البديهيات من الامور النسبية ، فقد يكون الشيء بديهياً عند زيد ، ونظريا عند عمرو . ومعنى هذا انه لا شيء من المسلمات عند جميع العقلاء .

الجواب :

اجل ، قد يكون شيء ما واضحـا عند هذا دون ذاك ، ولكن من المؤكد ان هناك اشياء لا يختلف فيها عاقلان ، كالأمثلة السابقة . ونعطف عليها ومثل المساويين لثالث متساويان ، والحرارة لا ترتفع وتنخفض في آن واحد ، والشمس غير الارض ، والاثر تابع للمؤثر وجودا وعدما .

وحصر التجريبيون مصدر المعرفة بالمشاهدة والخبرة الحسية . وقال غيرهم : للمعرفة اكثر من مصدر ، فقد تأتي من التأمل العقلي وحده ، ويكون الحس مجرد وسيلة ينطلق منها العقل الى التأمل . ويأتي البيان .

العلم الحديث :

يبتدىء تاريخ العلم الحديث بالقرن التاسع ، وتابع السير بسرعـة الصوت ، وبخاصة في النصف الاخير من قرننا العشرين حيث غيَّر الحياه بشتى جوانبها ، وضاعف طاقات الانســان آلاف المرات ، وقضى على الكثير من الافكار والنظريات التي كانت في سالف الازمان من المسلمات

الموروثة ــ وعلى الاقل ــ جعلها محل الشك واحتمال النقيض . وفيما يلي نشير الى بعض هذه الافكار .

لا اطلاق في الاحكام :

كان القدامى يتصورون للجزئيات المتشابهة طبيعة واحدة تضمها جميعاً في قياس واحد ، ويعتقدون ان هذه الطبيعة ثابتة وابدية ، وان التغيير والزوال يعرض لأفرادها . وتتألف هذه الطبيعة الابدية عندهم من جنس عام يشمل انواعا شتى ، ومن فصل خاص يميز النوع عن غيره من الانواع ــ مثلا ــ طبيعة الانسان تتكون من الحيوان والناطق ، والاول جنس يشمل الانسان والفرس ، والثاني فصل يميز الانسان عن سائر الحيوانات . وبعد هذه العملية او بعد ان تصوروا هذه الطبيعة الثابتة أرسلوا عليها احكاما مطلقة بلا قيد الزمان والمكان او اي شيء آخر ، لان ما بالذات لا يتغير على حد تعبيرهم .

أما الفلسفة الحديثة فانها تنفي فكرة الذات التي لا تتغير والجوهر الساكن الثابت ، وتقول هذه الفلسفة : كل شيء في الطبيعة يتغير ويتطور . وعليه فليس هناك جوهر وعرض ، وذات وخارج عن الذات ، وجواني وبراني ، بل هناك حركة دائبة ولا شيء سواها . واذن فلا يجوز ان نرسل احكاما مطلقة على اي شيء من اشياء الطبيعة ، ويجب تقييد الحكم عليه بزمانه ومكانه وبالحال التي هو عليها .

القياس الارسطي :

كان القدامى يتخذون من القياس الأرسطي طريقاً لمعرفة المجهول . ويتألف هذا القياس من مقدمتين : صغرى وكبرى ، ومثاله : سقراط انسان ، وكل انسان فانٍ ، فسقراط فان ، وقال الجدد : ان هذا القياس

لا ينتقل بنا من معلوم الى مجهول ، ومن شاهد الى غائب ، لأن المقدمة الكبرى ، وهي كل انسان فانٍ تتضمن النتيجة ، وهي سقراط فان ، وعليه يكون القياس الأرسطي تحصيل حاصل وتطويلا بلا طائل تماما مثل قول من قال :

كأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم ماء

وقال « بيكون » : المنطق يصلح للافحام ومجرد البرهنة بالكلام ، فهو اشبه بالعنكبوت تنسج خيوطاً من ذات نفسها نسجاً منتظماً بالغ الدقة ، ولكنه لا يعدو ان يكون اكثر من مصيدة . والدليل على ذلك ان القياس الارسطي لا يؤدي الى اية نتيجة حسية . وقال « ديوي » : ان هذا المنطق لا يمت الى الحياة اليومية بصلة سوى الاقناع او الافحام عند الجدال والنقاش .

وليس أكثر من الأمثلة لتأثير العلم الحديث على العقول ، وحمل الناس على الشك في كثير من المفاهيم التي كانوا يسلمون بها من قبل ولا يقبلون فيها جدلا ... وغرضنا من الاشارة الى القياس الأرسطي والاطلاق في الاحكام هو مجرد التمهيد لبيان القول الشائع الذائع بأن التجربة وحدها هي الطريق الى المعرفة... ولابد للمبلغ والداعي الى الله ان يكون على علم بهذا القول وخطره ، ولا يعذر اطلاقاً في جهله ، لانه — فيما اعلم — من اهم الاسباب لجحود من جحد بالله واليوم الآخر من الشباب المتعلم .

التجربة والتامل العقلي :

كان القدامى او معظمهم يؤمنون بقدرة العقل على الانتقال من شاهد محسوس الى غائب مجهول ، ويستدلون بالظاهر الجلي على الشيء الخفي.

وقال من لا يؤمن بوجود شيء حتى يراه مهما كانت طبيعة الكائن الموجود ، قال : ان العقل لا يستطيع الانتقال من شاهد الى غائب ، لانه يفقد هذه القدرة والطاقة ، وانما يستقي معرفته من المرئيات والمسموعات والروائح والمذاقات والملموسات فقط ، واذا تجاوزها واخبر بما وراءها فقد تجرأ وتطفل ، وقال بلا حجة ودليل — مثلا — قول الاعرابي : «البعرة تدل على البعير » لا يقوم على اساس من الواقع ، لان العين رأت البعرة دون البعير ، فعلى العقل ان يحكم بوجودها وكفى ، فاذا اتخذ منها دليلا على وجود البعير فقد تجاوز حده وقال بما لم تره العين . وبكلمة ان كلا من العقل والحواس جزء متمم للآخر ، فلا يقبل للعقل قول الا بشهادة الحواس ، ولا تقبل شهادة الحواس الا مع وجود العقل ، اذ لولاه لكانت صماء عمياء بغير معنى .

وقرأت في ملحق جريدة النهار البيروتية تاريخ ١٩ — ٢ — ١٩٦٧ كلمة لدكتور في الفلسفة قال فيها : انهم يدعون الى الايمان بالله . وكيف نؤمن بوجود كائن لا نراه ؟ وهذا الدكتور يدرس فلسفته هذه في احدى الجامعات الكبرى ، ويتخرج عليه أفواج التلاميذ ، وهو واحد من آلاف بالاضافة الى المؤلفات والمقالات في هذه الفلسفة ، ومن هنا سيطرت مثل هذه الفلسفة على عقول الأكثرية في هذا العصر من الشباب وغير الشباب.

الجواب :

١ — ما من عاقل على وجه الارض الا وينتقل من شاهد الى غائب ، ومن معلوم الى مجهول ، انه ينتقل كذلك تلقائياً ومن غير شعور ، فعالم الحفريات ينتقل من البقايا والآثار الى ما كان وجرى منذ آلاف السنين ، والطبيب يشخص الداء من اثر معين لجرثومة داء معينة دون ان يراها ، وكلنا يقول : هذا الشخص خائف، او حزين او مسرور من ملامح وجهه،

وما رأينا في داخله خوفاً أو ألماً أو أي شيء ، وعلماء الفلك يتنبأون بكسوف الشمس وخسوف القمر قبل حدوثهما بأمد طويل ، وتصدق تنبؤاتهم .

ومنذ ثلاث سنوات او اكثر قالوا : سوف يحدث للشمس كسوف في ١١ آب سنة ١٩٩٩ ـ نحن الآن في سنة ١٩٧٣ ـ ولو كان للصدفة من أثر لما تجرأ أحد على التنبؤ ، لانه لا قواعد لها ولا اصول علمية .. حتى الكلب البوليسي يدل على المجرم من اثر الجريمة عليه ، بل حتى النملة تهتدي الى طريقها من اثر سير النمل ، بل حتى الذي قال : كيف اؤمن بكائن لا اراه ، حتى هذا المتفلسف يؤمن بأن له عقلا لا يراه ، وذاكرة لا يعرف حقيقتها ، وايضا يؤمن بان في مخه امواجا تتدفق وتتلاطم وفي قلبه أحاسيس متضاربة متناقضة مع انه لم يرها او يلمسها او يسمعها او يتذوقها او يشمها .

وقرأت في مجلة « الفكر المعاصر » المصرية تاريخ حزيران سنة ١٩٦٥ : ان علماء الفلك في عام ١٨٤٦ حين لاحظوا حركة الكوكب « اورانوس » قالوا : هي نتيجة فعل جاذبية كوكب آخر مجهول يبعد عن اورانوس مسافة كذا وكذا وحددوا مكانه ، وبعد سنوات تم اكتشاف الكوكب المجهول في نفس المكان ، وفي كتاب « الاسلام يتحدى » : ان جامعة موسكو ابتكرت آلة نموذجية تلتقط اخبار الفيضانات قبل وقوعها بخمس عشرة ساعة .. فهل جاء تنبؤ هذه الآلة من رياح الصدفة ؟ وهل الصدفة تعلّم الآلة الصماء ما لم تعلم ؟ ولو استرسلت في ايراد الامثلة لملأت مئات الصفحات .

٢ ـ ان التجريبيين يؤمنون بالغيب في قرارة انفسهم ، ويعتمدون عليه في أعمالهم بشرط ان يكون هذا الغيب المجهول طبيعيا لا دينياً ، ومع

هذا ينكرونه بألسنتهم وثرثرتهم من حيث لا يشعرون ... ومن الشواهد على ذلك انهم قد اباحوا لأنفسهم ولغيرهم أن يستقرئوا حالات جزئية ويجروا عليها تجربتهم ، ثم يقفزوا منها الى قانون عام وحكم مطلق يشمل جميع الجزئيات والحالات ما كان منها في الماضي ، وما هو كائن الآن . وما يكون في المستقبل الى ما لا نهاية .

ـ مثلا ـ حللوا في المختبرات نقطة من الماء فتبين لهم ان هذه النقطة بالذات تتكون من اوكسيجين وهيدروجين ، فارسلوا الحكم بذلك على كل ماء كان من بدء الخليقة الى آخر يوم ، ومعنى هذا انهم ينتقلون من مقدمات جزئية الى نتيجة اعم منها ، وان الاستقراء التجريبي الذي هو من عالم الشهادة ـ طريق سليم الى الاستنباط العقلي الذي هو من عالم الغيب . اي انهم قاسوا الغائب على الحاضر ، والمجهول على المعلوم . تماما كما يفعل الذين يثبتون الحقائق الدينية . فكيف حرم هذا القياس على اهل الدين ، وحل للجاحدين والملحدين ؟ وهل من وجه او سبب سوى ان كلمة الدين تخيف وترعب وتغضب .

وان قال قائل منهم : نحن قسنا الغائب على الحاضر والمجهول على المعلوم بعد ان اختبرنا بعض الافراد ، واجرينا عليها التجربة من حيث هي أفراد للنوع وانطباق هذا النوع الكلي على جميع افراده ـ مثلا ـ اذا علمنا ان هذه النار الحاضرة محرقة علمنا كذلك ان النار الغائبة محرقة ما دامت هذه وتلك من نوع واحد وطبيعة واحدة . ان قال هذا قائل قلنا في جوابه :

هذا هو الاستنباط العقلي الذي نفاه أهل التجربة بألسنتهم لا بأعمالهم ، لان عملية الصعود من الادنى الى الاعلى ، ومن الخاص الى العام ـ هي من صنع العقل لا من صنع الحواس ، ومن الداخل لا من

الخارج ـ ومن هنا قال الفلاسفة المعاصرون : ان الكليات بشتى انواعها هي موضوعات الفكر والعقل وحده ، وانها تصدق على سبيل الاحتمال دون اليقين ، لان يد التجربة لا تنالها بحال .

وايضا قال الفلاسفة المعاصرون : أن هذا الصـدق وان كان على الاحتمال لا على اليقين فانه بينة متبعة وحجة قاطعة ، لان جميع قوانين العلوم الطبيعية صادقة على هذا النحو .. ولو كان اليقين شرطا لازما في هذه القوانين لوجب طرحها من الاساس ، لان هذا الشرط ممتنع بطبيعته. وفي المجلد الثالث العدد الرابع من مجلة عالم الفكر الكويتية ص ٢٥٢ : ان قوانين العلوم الطبيعية عند « فتجنشتين » كلها احتمالية لا ضرورة فيها ولا يقين .

٣ ـ لقد ثبت بالحس والتجربة وجود انواع من الكائنات لا يبلغها الاحصاء ، ومع هذا لا تجري عليها التجربة بحال ، ولا ترى بالمنظـار المكبر للشيء ملايين المرات . منهـا الالكترونيات التي لا حصر لها ؛ ومنها الجاذبية وموجات اللاسلكي والراديو ، ومنها الملكات والغرائز النفسية والتصورات والتصديقات والخيالات والاوهام التي لا ربط بينها ولا تناسب ... الى ما لا يبلغها الاحصاء . قال « راسل » في كتـاب « الفلسفة بنظرة علمية » : « القائلون بأن الادراك وحده كاف للكشف عن الحقائق واهمون وهماً لا بد من التخلص منه » . ونقل صاحب كتاب « الاسلام يتحدى » عن البروفسور « مانديز » انه قال : « هناك حقائق كثيرة لا سبيل الى معرفتها الا الاستنباط » .

وفي مجلة « عالم الفكر » الكويتية ج ٢ ع ٢ مقال بعنوان « ماخ وأينشتين » جاء فيه : « قال أينشتين : ان بناء اية نظرية او مذهب انما هو من عمل العقل ، اما التجربة فانها تؤكد وتبرر النظرية العقلية .. ان

اسباب المعرفة العلمية متصفة بصفة خيالية بحتة ... ان ما قاله الاقدمون من ان الفكر البحت يمكن ان يدرك الحقيقة هو امر صحيح » .

وبعد هذه الارقام نسأل من قال : لا طريق الى العلم والمعرفة الا التجربة ، نسأله : ما رأيك بأينشتين وراسل وغيرهما من الاقطاب الذين ثبت عندهم بالحس والتجربة ان طريق المعرفة لا ينحصر بالتجربة ؟

٤ ــ ايضا ثبت بالحس والتجربة ان عباقرة الفلسفة استطاعوا بالفراسة واللفتة الواعية ان يتنبأوا عن كثير من الحقائق الطبيعية بلا تجربة ومختبرات وليس اكثر من الشواهد على ذلك .

« منها » ان اريستاكوس الاغريقي اول من قال : الارض تدور حول الشمس ، وليست الشمس هي التي تدور حول الارض ، وبقيت هذه النظرية مدفونة ألفي سنة (١) .

و « منها » ان ديموقريطوس الاغريقي قال : المادة مؤلفة من ذرات صغيرة ، وبعد اكثر من الفي سنة تبين صدق هذه النظرية (٢) .

و « منها » ان الفيلسوف اليوناني « انكساجوراس » قال قبل الميلاد بخمسة قرون : « ان القمر مجرد جسم يشبه الارض » . وفي القرن الثالث قبل الميلاد قال بلوتارك : « في القمر اودية وتلال تماما كالارض » وهذا ما ثبت بالحس بعد أكثر من ألفي سنة (٣) .

هذا هو العقل في ابداعه واختراعه الذي وصفه التجريبيون بالعمى

---

(١) كتاب برتراند راسل يتحدث عن مشاكل العصر .
(٢) نفس المصدر .
(٣) مجلة عالم الفكر الكويتية ج ١ ع ٣ المقال الافتتاحي .

والتوكؤ على الحواس . قال « ودكرش » في كتاب الانسان الحديث : « ان الفلاسفة القدامى وجهوا اهتمامهم الى الانسان وما وراء الطبيعة ، ولو تحولوا بطاقاتهم العقلية الى عالم الطبيعة لأتوا بالمعجزات » .

ولا ينحصر العقل الكاشف والمخترع في الفلاسفة وعلماء الطبيعة ، بل هو مشاع بينهم وبين عباقرة الفن الذين تتجسد في قلوبهم وعقولهم حقيقة الحياة واسرارها وثمارها ، ثم يزجونها للناس بكلمة مثمرة جامعة، او برسم ناطق خالد ، او بلحن يهب النفس الحياة والنشاط ، او بتماثيل ناطقة من الصخور والاحجار .

٥ ـ ان التجربة والمشاهدة ليست بمعصومة عن الخطأ ، ولا هي أقل خطأ من سائر الطرق الى المعرفة ، فكم عالم من علماء الطبيعة شاهد واختبر ، واعتقد انه اصاب الحق ، وابصر الواقع ، ثم تبين له وللعلماء انه كان في غمرة الجهل والضلال . قال « راسل » في كتاب الفلسفة بنظرة علمية : « لا مندوحة لنا عن اطراح فكرتنا عن المادة بعد ان بددتها النظرية النسبية » ... حتى هذه النظرية عارضها علماء الطبيعة في بدء الامر وانكروها على أينشتين بغير تحفظ ... ثم صارت انجيلا عندهم ومقياساً للحقائق ... ومثلها كثير .

وايضا آمن علماء الطبيعة بأن قانون الجاذبية يشمل وينطبق على المادة اينما كانت وتكون ، وبعد رحلة الانسان في مركبة الفضاء تبين انه لا جاذبية في الابعاد الفلكية ، وان وزن الاجسام ينعدم كلية في عالم الفضاء وايضا تبين انه لا جاذبية في الذرة الصغيرة مع انها في المحيط الارضي الذي اكتشفت الجاذبية في اجرامه وابعاده .

واذا كان احتمال الخطأ قائما في كل تجربة فكيف تكون يقينية الصدق ؟ وهل يصح اعتبارها ـ وهذه هي الحال ـ من مصادر المعرفة

فضلا عن حصر المصدر بها ؟... واذا كان مجرد احتمال الصدق ورجحانه كافيا في صحة الطريق والثقة به فلا تكون المعرفة اذن وقفا على التجربة ، بل لها مصادر اخرى ، والتجربة احداها . ولكنها ليست الاقوى والاشمل، فان ما نعلمه من الحقائق والمبادىء عن طريق العقل اوسع واقل احتمالا للخطأ مما نعلمه من اشياء الطبيعة عن طريق المشاهدة والتجربة .

قال « جوستاس » في كتاب « مدخل الى الفلسفة » : « ان العلم التجريبي يعتبر جميع استنتاجاته وقتية مهما كان التثبت منها حسناً » .

مبدا العلية :

وبعد ، فان الانسان منذ بدء الخليقة حتى عهد المعمل الفضائي الطائر يسعى الى معرفة المجهول ، وقد عرف الكثير منه بالعديد من الاسباب ، منها المشاهدة والتجربة مما يدخل في نطاقها وعالمها ، ومنها مبدأ العلة والمعلول ، والاثر والمؤثر اللذين يستدل بوجود احدهما الحاضر على وجود الآخر الغائب . وقد فطر الانسان على الشعور بهذا المبدأ منذ ولادته .

والعلم الحديث هجر العديد من المبادىء والنظريات الا مبدأ العلية ، لان جميع ظواهر الطبيعة من الفيضانات الى الكسوف والخسوف، ومن تقلبات الجو الى تعاقب الليل والنهار، الى حالات الانسان والحيوان والنبات ، كل ذلك وما اليه يربطه العلماء قديما وحديثا بسبب او بآخر . وهذا هو بالذات مبدأ العلية .

ولا يهم ان يكون مصدر علمهم بالسبب هو وجود الارتباط الطبيعي بين السبب والنتيجة ، او مجرد الرؤية والعادة الفكرية المألوفة لتتابع الحوادث وتعاقبها ، كما قيل ، هذا لا يهم أبدا ما دام التعاقب ثابتا باطراد،

وتقوم دراسات العلوم وقواعدها على اساسه ، وما دام العقل ينفي الصدفة في النظام والاطراد ، ويسأل عن السبب الموجب ويبحث عنه .

ولو نفينا مبدأ العلية لما تمكن عالم من اجراء تجربة ، ولا طبيب من وصف دواء ، ولا كان للفن والفلسفة ولا للعلم بشتى انواعه ، ولا للمسؤولية وتحملها ـ عين ولا اثر ، بل ما كان في الوجود الا الفوضى والخراب .. كل هذه المحاذير وغيرها نتيجة حتمية للتعصب والاصرار على نفي مبدأ العلية .

اما السبب الموجب لهذا العناد والتعصب الاعمى فهو كلمة الدين.. انها صاعقة على قلوب الجاحدين ونفوسهم ، وبخاصة كلمة « لا اله الا الله » وقال قائل منهم ، كما في كتاب الاسلام يتحدى : « من المستحيل ان يوجد نظام بمحض الاتفاق ، بل لا بد انه وجد نتيجة لارادة مدبرة ، ولكن ذهني لم يكن على استعداد لتقبل هذه الفكرة » . ولا بدع فان الآذان الصم لم تكن على استعداد لسماع الصوت ، ولا العيون العمي لرؤية الطريق الواضح ، ولا الألسنة البكم للابانة والافصاح . وهل يعقل الاعمى اللون الاخضر اذا لم يكن قد رأى لونا واحدا طيلة حياته !

واغرب من هذا ان ماركس يؤمن بمبدأ العلية ، ومع ذلك ينكر وجود الخالق ! فقد جاء في كلمة نشرتها مجلة « عالم الفكر الكويتية » ج ٢ عدد ١ بعنوان : الطبيعة البشرية في فلسفة كارل ماركس : « قال ماركس : لا شيء الا وهو خاضع لدائرة العلية وللقوانين ، ولولا ذلك لما كان في وسعنا ان نتخذ تصميمات معينة ، او نحقق افعالا محددة » . من اين جاءت هذه القوانين التي هي مصدر العلوم والتخطيط والتصميم؟ هل جاءت من الطبيعة العمياء الصماء او من الصدفة ، او من قوة عليمة حكيمة ؟.. ان القواعد العلمية تقول : كلما حدث هذا حدث ذاك . فهل يصدق هذا الشمول والعموم على الصدفة ؟

الاسلام والحياة

دين الحياة :

قلنا فيما سبق : ان طريق المعرفة لا ينحصر بالتجربة ، ولا هي باقوى الطرق واصحها . واثبتنا بالحس والمشاهدة ان الدليـــل العقلي يسير مع الدليل الحسي جنباً إلى جنب من حيث الحجة والدلالة ، وانه لا شيء اقوى واخصب من العقل في الكشف عن المجهول ، وفي الابداع والاختراع .

ونتساءل هنا : هل يوجد دين بين الاديان يسمى بحق دين الحياة ، ويصلح ــ بحلاله وحرامه وبقيمه ومبادئه العامة ــ لكل فرد ومجتمع في كل زمـــان ومكان بحيث إذا وضع تشريع وقانون في شرق الارض وغربها يحلل ما حرم هذا الدين ، او يحرم ما حلل ــ يكون جهـــالة وضلالة ؟..

الجواب :

اجل ، ان هذا الدين موجود بالفعل، وهو الاسلام بعقيدته وشريعته. وما دام السؤال عن صلاحية الدين للحياة فنتحدث عن الاسلام هنا من هذه الزاوية ، أي من حيث آثاره ، ونعرض اولا الادلة من كتاب الله

بالذات على وجود الصلة بين الاسلام والحياة وقوتها وثباتها . ثم نشرع بذكر الامثلة وتحليلها واستخراج الشواهد منها .

القرآن والحياة :

بيّن سبحانه في الآية ٢٤ من الأنفال ان دعوته ودعوة نبيه الكريم انما تتجه الى العمل من اجل الحياة بشتى جوانبها وابعادها . قال ، عز من قائل : « يا ايها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه وانه اليه تحشرون »

وليس من شك ان الحياة الحقيقية هي التي يتوافر فيها الخصب والامن ، والعلم والحرية والعدالة والمساواة ، والتعاون والتجاوب بين القلوب والضمائر .. هذا ، الى ان الحياة بطبيعتها كفاح ونشاط ، وتقدم ونمو . وعليه فمعنى الآية ان دعوة محمد (ص) هي ان يحقق كل انسان وجوده عن طريق العمل والكفاح ، وعلى مستوى العلم والعدل والمساواة: « كلكم من آدم ، وآدم من تراب » كما قال نبي الهدى والرحمة .

وقرن سبحانه الدعوة الى الحياة بالسيطرة على القلب الذي لا سلطان لاحد عليه حتى لصاحبه وحامله ، قرن الدعوة بهذه السيطرة وبالحشر والنشر ليشير الى قدرته تعالى على احياء العظام وهي رميم ، والى ان الارض مرتبطة بالسماء ، والدنيا بالآخرة ، وان الانسان مسؤول امام الله ، ولن يفلت ابدا من الحساب والعذاب اذا استنكف عن العمل وتكبر ، او استغل واستأثر .

وفي آية ثانية : « والعمل الصالح يرفعه ــ ١٠ فاطر » . وصالح الاعمال عند الله ما كثر خيره ، وعم نفعه ، ومعنى «يرفعه » انه تعالى يرفع من شأن العامل بخير ، ويرتقي به على قدر ما بذل وعمل ، بل ويزيده من فضله .

وفي آية ثالثة : « هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشـوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور ــ ١٥ الملك » أي دونكم هــذه الارض فانها للجميع ، فعمروها بالزرع والغرس ، وبالمصانع والانابيب.. ازرعوا وكلوا شركاء كاخوة متماسكين لأب وأم ، وابنوا واسكنوا جميعا كجيران متساوين لا حسد بينهم وطبقات ، ولا احقاد وتناقضات . امـا الذين ينحرفون عن طريق الجماعة وصالحها ، ويسلكون طريق الوحوش الكاسرة ــ فلهم اللعنة ، ولهم سوء الدار .

وفي رابعة : « ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ــ ٩ الاسراء » اي الى الحياة الأقوم . ومن هذه الآية جاء التعبير الشائع الذائع « الحياة الافضل والاصلح والاكمل » وما اكثر آيات هذا الباب واحاديثه في كتاب الله وسنة نبيه .

الحياة عند الماركسيين والاميركيين :

وقال الرأسماليون والاميركيون : ان الهدف الاسمى من حيـاة الانسان وعمله هو ان يجمع المال ، ثم يصنع المـال مالا بغير توقف ، وهكذا دواليك الى ما لا نهاية .. يجمع ويصنع عن اي طريق كان ولو عن طريق الحرب والتخريب والافتراس ، وعلى حساب دمـاء البشريـة وأرواحها ، اما الهدف من تكديس المال وتركيمه فمجرد المضاهاة والمباهاة.

وقال الماركسيون بالخبز وحده يحيا الانسان ، ولا هدف مـن وجوده وحياته الا ان يعمل ويأكل ، لانه هو بالذات من عمل الطبيعة ، ولا صفة فيه تستدعي البعث والخـلود بعد المـوت تماما كالحشرة والشجرة ، فماهية الانسان الكاملة الفاضلة هي الكدح في يومه من اجل شرابه وطعامه ، على ان تفرض الدولة عليه نوع الكدح والعمل ، ولا يرتفع شأن الانسانية بحال الا بزيادة الانتاج .

وتلتقي الماركسية والامريكية في ان الانسان بهويته كائن مادي اقتصادي وكفى . وتفترقان من وجهين : الاول ، تذهب الماركسية الى ان الانسان يجب ان يعيش من خلال عمله الجماعي القهري ، وتقول النظرية الامريكية : له ان يعيش على حساب الآخرين حتى ولو لم يعمل شيئاً الا الاحتكار والتحكم بالاسعار . الوجه الثاني تذهب الماركسية الى ان الناس شركاء في الملك والعمل والانتاج ، وان على كل انسان ان يكيف حياته مع المجتمع ، لان جميع افراد الانسان هي كلٌ موحد .

والاسلام ينكر الاستغلال والاحتكار ، وايضا ينكر تذويب الفرد في الجماعة ، وكبت حريته ، والقضاء على كرامته ، ويترك امر الانسان لنفسه ، ولا يسيغ لاحد ان يفرض عليه نوع العمل ، ولكن يوجب عليه السعي لسد الخلة والحاجة ويحمله تبعة عمله .

وايضا لا ينظر الاسلام الى الانسان على انه مادي اقتصادي وكفى كما هو عند الامريكيين والماركسيين ، بل هو مخلوق شرفه الله وكرمه بالروح والمادة ، بالعقل والجسم على احسن صورة ، وربط كلا منهما بالآخر في كيان واحد . والانسان الكامل من يستجيب لمطالب الروح والجسم ، ويحفظ التوازن بينهما ولا يرجح احدهما على الآخر ، والذين يحسبون انه بالخبز وحده يحيا الانسان ، وبتكديس الاموال يعلو شأنه ويرتفع هم مخطئون . وايضا الذين يحسبون انه بالتقوى وحدها ينجو الانسان مخطئون . قال سبحانه : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ــ ٧٧ القصص » . وقال الرسول الاعظم (ص) : ليس خيركم من عمل لدنياه دون آخرته ، ولا من عمل لآخرته وترك الدنيا ... وانما خيركم من عمل لهذه وهذه . واشتهر عن الامام امير المؤمنين : اعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً .

وفي القرآن آيات بينات خاطب سبحانه بها البسطاء ، وعرفهم بذاته عن طريق التذكير بنعمه ، وحياتهم الاقتصادية ونوعها ، واعتبرها كدليل على وجوده تعالى وفضله واحسانه . من ذلك قوله لأهل الفلاحة والزراعة: « أرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ــ ٦٤ الواقعة » . وقوله لرعاة الابل في الصحراء : « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ــ ١٨ الغاشية » . وقوله لقريش ، وهي في واد غير ذي زرع : «فليعبدوا رب هذا البيت الذي اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .

وما اكثر الآيات التي اشارت الى اسباب الحياة ومقوماتها من الماء والزرع ، الى الماشية وألبانها وأصوافها ، الى الحديد وغيره من المعادن ، والى التجارة وغيرها . واقرأ معي هذا العموم والشمول في قوله تعالى : « وآتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ــ ٣٤ ابراهيم » . وهكذا يهتم الاسلام بالاقتصاد على انه احد الطرفين من حياة الانسان ، وليس الكل في الكل كما هو عند الشيوعيين والرأسماليين .

وبعد هذه الاشارة السريعة الى آي الذكر الحكيم وحياة الانسان ــ نشير الى مدى الصلة والعلاقة بين الحياة والاصول الثلاثة لعقيدة الاسلام ، وهي الايمان بالله ورسوله واليوم الآخر . ولك ان تضغط هذه الاصول في اصل واحد ، وتقول : الاسلام هو الايمان برسالة محمد (ص) .

الاصل الاول :

قد يظن أن اصول العقيدة الاسلامية ما هي الا مجرد تصورات ومعتقدات لا تمت الى أية حقيقة من حقائق الحياة .. وهذا ظن خاطىء وبعيد عن الواقع ، فما من اصل أو فرع من اصول الاسلام وفروعه

الا وله أثر ايجابي في اتجاه المسلم الحق وسلوكه ، واهتمامه بالمصالح الانسانية المشتركة . واليك البيان :

يبتدىء الاسلام بكلمة « لا اله الا الله » فهي حجر الاساس ، وأصل الاصول ، لان الله مصدر الوجود ، وأي كان سواه فهو فيض من كلمته وقدرته ... والاله الواحد في دعوة محمد والاسلام يعني من جملة ما يعني المعاني التالية :

١ ــ ان الله ليس رمزاً لقيمة من قيم الاخلاق كالحق والانصاف ، ولا روحاً تتصل بالاجسام والابدان ، ولا مادة تحس وتلمس وتنفعل وتتأثر .. كلا ، انه ذات عليا لها وجود حقيقي فوق الطبيعة ، وهو سبحانه حي ومريد ، وعالم وقادر يخضع له كل شيء ، ولا يخضع هو لشيء ، ويأمر وينهى ، ويثيب ويعاقب ، ويغفر ويرحم ، ويعطي ويمنع ويحيي ويميت ، وهو حي لا يموت ، ولا يقع شيء في الكون الا وله فيه قضاء وتدبير .

هذا هو إله العالمين في الاسلام ، ينفرد في جميع صفات الجلال والكمال ، فذاته تقترن بالغنى والدوام ، وعلمه بالثبات والشمول ، وارادته بالحكمة والتدبير ، وحكمته بالسيطرة والقدرة ، وقدرته باللطف والرحمة . ومن باب المثال على هذا اللطف وهذه الرحمة ــ نذكر حديثين نبويين :

سأل اعرابي النبي (ص) فقال : من يلي حساب الخلق يوم القيامة ؟ قال النبي (ص) : الله عز وجل . قال الاعرابي : هو بنفسه ؟ فقال النبي : نعم . فتبسم الاعرابي . وسأله النبي عن ذلك ؟ فقال : ان الكريم اذا قدر عفا ، واذا حاسب سامح . قال النبي : صدقت . الا ولا كريم أكرم من الله . ثم قال (ص) : فقه الاعرابي :

ورأى النبي (ص) اماً تضم طفلها الى صدرها في عطف بالغ وحنان ، فالتفت الى اصحابه وقال لهم : أترون هذه طارحة وليدها في النار ؟ قالوا : لا والله يا رسول الله قال : الله ارحم بعباده من هذه بولدها .

وهكذا يُبلّغ نبي الرحمة رسالة الحق الى الخلق، وبهذا الاسلوب الحكيم يدعوهم الى نبذ التعصب الممقوت والحقد الاسود ، ويحثهم على الاخاء والتسامح والتراحم . ومن دروسه : « اذا سمعتم الرجل يقول : هلك الناس فهو أهلكهم » . ولا شك في صحة هذا الحديث ، لمناسبة الحكم للموضوع . وعليه يكون الوعاظ الحمقى مع الهالكين ، بل أشدهم هلاكاً ... وساء ما يعظون .

ولمناسبة الاشارة الى صفات كماله سبحانه وجلاله نشير الى ان الفلاسفة وعلماء الكلام اختلفوا فيما بينهم : هل صفات الله سبحانه هي عين ذاته أو غيرها ، وأكثروا من النقض والابرام !.. وهذا البحث ـ كما نرى ـ لا نهتدي به في اعمالنا الى شيء ، وما علينا من حساب وعقاب اذا جهلناه أو تجاهلناه ، وحسبنا أن نؤمن بأن لله نعوت العظمة والجلال ، وانه تعالى عن الاضداد والانداد . ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير « ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه ـ ١٧٩ الاعراف » .

٢ ـ ان كلمة « لا اله الا الله » تجرد البشر من دعوى الالوهية وحق السيطرة والاستعلاء ، وتبطل مزاعم الذين يرون لانفسهم حقوقاً مقدسة على غيرهم ، وتضع الجميع على مستوى واحد في الحقوق والواجبات ، ولا تدع لأحد على أحد من فضل وامتياز في جنس ولون ، أو منصب ونسب ، أو جاه وثراء ، أو في أي شيء الا بما يقدمه الانسان لخدمة اخيه الانسان . وعندئذ يحق له ان يقول : انا عملت ونفعت فأنا

موجود . اما الافكار والتصورات التي يجترها المتفلسفون لا تهدي الى خير فهي مجرد أصوات تذهب مع الريح .

وألقى المفكر الفرنسي روجيه جارودي محاضرة في القاهرة ، نشرتها مجلة الطليعة بتاريخ ١ ــ ١٩٧٠ جاء فيها « ان تمسك الاسلام الشديد بالتوحيد يلغي أية وساطة بين الانسان والله كما يجعل النبي بشراً كسائر البشر ، جاء للناس بقواعد للسلوك استعداداً ليوم الحشر ، ولذا فهو لا يحتاج الى التصور على غرار صورة حياة المسيح أو حياة القديسين ، كما هو الشأن في العالم المسيحي » .

الشيخ عبده وتولستوي :

والخلاصة ان الايمان بلا اله الا الله ــ ينطوي على الايمان بالانسان وحقوقه ، ويدفع بالمؤمن الصادق المخلص الى العمل من أجل الانسان ، والمشاركة الايجابية في قضايا الانسان بصرف النظر عما يعتقد ويدين ، وخير مثال نقدمه لهذا المؤمن المخلص والمفكر الاسلامي علماً وعملا هو الشيخ محمد عبده . فقد جاهد وناضل الرجعية والظلم أينما كان ويكون ، ووقف مع المظلوم وناصره مسلماً كان أم غير مسلم .

كان الكاتب الروسي الشهير تولستوي ــ مسيحياً ، ولكنه كان بالمستضعفين رؤوفا رحيما فحاربته الكنيسة القيصرية ، وطردته وحرمته . فأرسل اليه الشيخ محمد عبده كتاباً يقول فيه :

« كما كنت بقولك هادياً للعقول كنت بعملك حاثاً للعزائم والهمم، وكما كانت آراؤك ضياء يهتدي به الضالون كان مثالك في العمل اماماً يقتدي به المسترشدون ، وكما كان وجودك توبيخاً من الله للاغنياء كان مدداً من عنايته للضعفاء والفقراء . وان أرفع مجد بلغته ، وأكبر جزاء

نلته على متاعبك في النصح والارشاد هو هذا الذي سماه الغافلون بالحرمان والابعاد ، فليس ما حصل لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم اعلنوه للناس بأنك لست من القوم الضالين » .

هذا المسلم العالم العامل يقول لتولستوي الروسي : « انك لست من القوم الضالين .. ورأيك ضياء يهتدي به الضالون .. وعملك امام يقتدي به المسترشدون » . كل هذا التبجيل والتقديس لشيء واحد هو ان تولستوي « كان قوة للضعفاء والفقراء ضد الاقوياء والاغنياء » . ومن هنا كان الشيخ محمد عبده هدفاً لنبال الطغاة والجاهلين ، فكفروه واعتقلوه ، ثم نفوه !.. واليوم أين منه هم ؟ انه العقل الواعي والهادي لكل مصلح ، والمثل الاعلى لكل ثائر على الظلم والبغي والرجعية والانتهازية ... وهوى خصومه الى الحضيض وبئس المصير .

ولم يأت الشيخ عبده بشيء من عنده ، وما كان عمله الا تجسيماً لمبادىء الاسلام وتعاليم نبي الرحمة والانسانية الذي قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن .. ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء » .

هذا هو المجتهد المجاهد ، لا يقف عند « العلم بالاحكام الشرعية الفرعية عن أدلتها التفصيلية » ويدخل في كل افق انساني نبيل ، يتجلى فيه الحق والعدل والرأفة والرحمة ، ويناصب العداء لكل طاغية وباغية وللجهل والرجعية حتى ولو هاجمه الدخلاء والأدعياء ، وكفروه واعتقلوه ونفوه . أما من يسمي نفسه عالماً ثم يتغاضى عن الظلم والفسادوالاعوجاج فما هو من العلماء وورثة الانبياء . ولا يتغمده الله برحمته اذا انتقل اليه، لان من لا يرحم لا يُرحم بشهادة نبي الرحمة .

٣ ــ ان كلمة « لا اله الا الله » هي تزيين لعقيدة الانسان ، وتكريم لشخصيته حتى ولو كان عبدا حبشيا .

من أدلة الجاحدين :

قلت فيما قدمت : ان حديثي هنا يختص بالاشارة الى مدى الصلة والعلاقة بين عقيدة الاسلام وحياة الانسان . ومع هذا فقد رأيت من المفيد ـ وأنا اتكلم عن كلمة التوحيد ـ ان اعرض بعض الامثلة من أقوال الزاعمين بأن الدين افيون الشعوب ، وان الايمان بالله وهم وخرافة، لان أقوالهم تحمل معها البرهان القاطع على ان الجحود بالله غرور وسفه وتصغير لعظمة الكون وآياته ، وابداعه ومعجزاته .

قال نيتشه فيلسوف الأقوى والاطغى : « لو كان في الوجود اله لكنت انا اياه .. وكيف استطيع ان لا اكون الها ؟!! واذن فليس ثمة اله (انظر كتاب السلطان للفيلسوف الانكليزي راسل ترجمة خيري حماد الطبعة الاولى سنة ١٩٦٢ ص ٢٩٠) .

وهكذا يرى من يرى نفسه عظيماً يصغر في بصره وبصيرته الكون العظيم وخالقه الأعظم .

وفي كتاب الفكر الاسلامي والمجتمع المعاصر للدكتور البهي ص ٢٦ طبعة سنة ١٩٧١ : « ان مذهب البراجماتزم يقول : اذا كان تصور الله يؤدي الى منفعة فهو موجود لا محالة والا فلا وجود له » .

وأشار سبحانه الى هؤلاء بقوله : « أرأيت من اتخذ الهه هواه ـ ٤٣ الفرقان » ... « أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون ـ ٤٣ يونس » .

وبعد ، فان الشعور والايمان بالله ، وانه لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء ، وانه يجزي من أحسن بالحسنى ، والذين أساءوا

بما عملوا ، ان هذا الايمان يدفع المؤمن الحق الى عمل ما أمر الله به من الخير والحق والعدل والمساواة ، واجتناب ما نهى عنه من الشر والباطل والبغي والمحاباة ، ويدفع التاجر ان لا يغش ، والقاضي ان لا يظلم ، والحاكم ان لا يجور ، والعامل ان لا يهمل ، والمؤتمن ان لا يخون ، والمعمم ان لا يتملق ، والمجاهد ان يثبت ويصبر على المشاق والمصاعب .. الى غير ذلك من مظاهر الاستقامة والكرامة . ومن هنا كان الايمان بالله دينا عالمياً لا قومياً أو اقليمياً .

فأين الأفيون والجهل والسموم ؟ واذا انحرف من يسمي نفسه مؤمناً فليس الذنب ذنب الايمان بالله ، بل ذنب المنحرف المتحرف .

الاصـل الثاني :

وهو الايمان بمحمد (ص) كخاتم النبيين ، لا كمصلح او نبي وكفى ... وعرضت الادلة التقليدية وغير التقليدية على وجوب البعثة والرسالة ومقياسها بوجه عام ، ثم عرضت الادلة الوافية على نبـوة محمد (ص) بالخصوص ، وان القرآن وحي من الله ، عرضت ذلك في كتاب النبـوة والعقل ، وكتاب فلسفة التوحيد والولاية ، ومعالم الفلسفة الاسلامية ، وفي ظلال نهج البلاغة ، والتفسير الكاشف ، وغير ذلك مما ألفت ونشرت، واشير هنا أولا الى وظيفة محمد (ص) ورسالته كما حددها سبحانه في كتابه المجيد ، ثم اشير بسرعة وايجاز الى مجموعة من مبادىء التشريع الاسلامي التي استقاها الفقهاء من كتاب الله وسنة نبيه .

القرآن ورسالة محمد :

قال سبحانه في تحديد الرسالة المحمدية : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ــ ٣٣ التوبة » . والمراد بالهدى في هذه الآية الارشاد

الى الوسائل التي تكفل وتضمن مطالب الانسان في حياته الروحية والمادية، والمراد بالحق هنا ما يجب ان يتبع في نظر العقلاء المنزهين عن الهوى والغرض ، كحق الانسان في ان يعيش ، وان يتزوج وينجب ، وان يتعلم ويعمل ، وان يحب ويكره ، وان يدافع عن نفسه وحريته وكرامته . وكحق الشعوب في تقرير مصيرها ، وفي اختيار الحاكم الذي تريد ... وما الى ذلك من الحقوق التي تتولد وتنشأ من الترابط والتلاحم بين الفرد والمجتمع ، وبين الافراد مع بعضهم البعض .

وفي آية ثانية : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين ــ ١٠٧ الانبياء » ونجد تفسير هذه الآية في قوله تعالى : « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم ــ ١٥٧ الاعراف » وفي قوله سبحانه : « يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ــ ٢ الجمعة » .. الى غير ذلك من آيات هذا الباب ، ومعناها مجتمعة ان رسالة محمد (ص) ليست مجرد طقوس وشعائر ، ولا أسرار وأحاجي ، ولا تصورات ومعتقدات وكفى ، ولا خوارق ومعجزات ، وانما هي رسالة الهية انسانية شاملة ، وموضوعها الحياة بكل جوانبها وابعادها في كل مصر وعصر ، وهدفها الهداية الى حال أحسن ، وعيش اسعد .

خالق الطبيعة هو واضع الشريعة :

خلق سبحانه الكون بما فيه على سنن وقوانين تحكمه وتسيره وهي ثابتة لا تتغير وتتحول كما قال سبحانه : « ولن تجد لسنة الله تحويلا ــ ٤٣ فاطر » ولو حدث التحويل والتغيير في نظام الكون ــ لعمت الفوضى ، وتعذرت الحياة ، وما خضع شيء لقانون ، ولا استطاع العلماء ان يضعوا أي تصميم ، او يحققوا أي شيء على الاطلاق ... وهذا النظام

الدقيق الثابت في الكون لا يمنع الافلاك من الحركة ، والحياة من النمو والتطور ، بل يحدث ذلك على اساس القوانين الثابتة ، والنظام الذي لا تحويل فيه ولا تبديل .

وكذلك المبادىء والاصول الرئيسية للفقه والتشريع الاسلامي . فيها صفة الشمول والعموم لحياة الانسان في كل البيئات والعصور ، وفي الوقت نفسه تتصف بالثبات والدوام ، ولكن لا بمعنى الجمود والتحجر ، بل بمعنى دوام الحركة والنمو ، واصالة الخير والصلاح الذي لا يزول عن طبيعـة تلك القيم والاصول . اما التغيير فهو في التفريع والتطبيق تبعا لأساليب المعيشة والحياة .

وعليه يكون معنى صلاح الشريعة الاسلامية لكل زمان ومكان ــ ان مبادئها واصولها الاساسية تصلح لان يتفرع عنها ويستخرج منهـا أحكام تنسجم وتتلاءم مع كل بيئة وعصر ، وان الخير والصلاح لا يمكن وجوده والبحث عنه خارج اطار مبادىء الشريعة الاسلامية واصولها .

اما تحديد هذه الاصول والمبادىء والعلم بها على حقيقتها ــ فلا مصدر له الا خالق الانسان . لانه تعالى اعلم بما يصلحه ويفسده ، وما يضره وينفعه ، وهو ، جلت عظمته ، لا يضل ولا ينسى . وهكذا مختـرع الآلة وصانعها أعرف من غيره بطريق استعمالها وبما يصلحها ويفسدها . واذن يجب ان يكون خالق الانسان والطبيـعة هو واضع الاحكـام والشريعة . قال سبحانه مخاطباً نبيه الكريم : « ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها ــ ١٨ الجاثية » .

وللفلاسفة وخبراء التشريع قديماً وحديثاً خلاف طويل عريض حول مبادىء التشريع وعناصره .. فمن قائل : هي الاخلاق ، وعبر عنهـا آخر بمبادىء قوانين الطبيعة وقواعد العدالة دون ان يحدد ويفصل هذا

أو ذاك ، المعنى المراد بكلمة الاخلاق والقوانين والقواعد . وقال ثالث : رجال الفكر وحدهم مصدر التشريع . وذهب رابع الى انه العمال دون غيرهم . وهتف المعاصرون وقالوا : لا مصدر الا الشعب ، ويعرف رأيه بالانتخاب . وهذا القول احدث الاقوال وأفضلها نسبياً ، وعليه العمل في البلاد الرأسمالية والاشتراكية .

وكل الناس يعرفون ان اكثر الانتخابات تجري بالضغط والتخويف، وبالتزييف والتحريف ، وبالرشوة والاخذ والعطاء ، وبكل اسلوب غير مشروع .. ومن ابرز الشواهد انتخاب نيكسون وقضية « ووترجيت » التي أقامت الولايات المتحدة ولم تقعدها .. حتى الانتخابات الحرة النزيهة لا يمثل نوابها جميع المواطنين ، بل معظمهم يعمل ضد الشعب ولصالح القراصنة ولحماية الشركات والاحتكارات . . وفوق ذاك ان النائب بعد انتخابه يصبح مستقلا عن الناخبين ، وما لواحد منهم عليه من سلطان حتى ولو باع الوطن للشيطان (١) .

ولا حل على الاطلاق الا بالتشريع الالهي المعصوم عن الخطأ والزلل. وبكلمة ، ان خالق اسباب الضر والنفع هو الذي يعلمها ويرشد اليها : « لا تدرون أيهم اقرب لكم نفعا ـ ١١ النساء » . ويأتي البيان في فقرة : من هو المشرع ؟

مبادىء التشريع ومصلحة الانسان :

تتجه المبادىء التشريعية في الاسلام دائماً الى مصلحة الانسان ودفع المضرة عنه ، فلا توجب عليه شيئاً أو تحرمه الا لان التجربة تدل على

---

(١) في مجلة روز اليوسف المصرية تاريخ ٦ آب سنة ١٩٧٣ : في عام واحد أدين بالرشوة سبعة من اعضاء الهيئة التشريعية في الولايات المتحدة. وهي الاولى والاعظم علما وحضارة في القرن العشرين .

أن ما أوجبته الشريعة الاسلامية يعود على فاعله بالحياة الطيبة ، وان ما حرمته يعود عليه بالضرر والشقاء .. ولا من سبيل هنا الى ذكر المبادىء الشرعية بكاملها ، والاحاطة بها من ألفها الى يائها ، ولكن الامثلة الجزئية تلقي بعض الاضواء على الحقيقة الكلية الشاملة لجميع الافراد .

وأول هذه المبادىء ان الله سبحانه لا يكلف نفساً الا وسعها كما في الآية ٢٣٣ من البقرة ، وانه تعالى يريد بالانسان اليسر ولا يريد به العسر كما في الآية ١٨٥ من السورة نفسها ، وان له حريته الكاملة يختار بها طريقه في الحياة دون ما قهر او اكراه . ومن هنا حث القرآن النبي الكريم على التذكير بالحسنى ، وبينات الاقناع : « فذكر انما انت مذكر لست عليهم بمصيطر ــ ٢١ الغاشية » .

ومن مبادىء التشريع الاسلامي مراعاة الاعذار ورفع التكليف مع الاضطرار : « فمن اضطر غير باغ ولا عادٍ فلا اثم عليه ــ ١٧٣ البقرة » ومنها التعايش السلمي : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها ــ ٦١ الانفال » وقد وصف سبحانه نفسه بكلمة السلام في الآية ٢٣ من سورة الحشر . ومنها عدم الاعتداء : « ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ــ ١٩٠ البقرة » .

ومنها عدم التدخل في شؤون الآخرين : « ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ــ ١٢ الحجرات » ومنها منع الاثراء غير المشروع : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ــ ١٨٨ البقرة » . ومنها تحريم الاحتكار وكنز الاموال ، لان الاول يستدعي غلاء الاسعار ، والثاني يحبس النشاط والنمو عن الحياة الاقتصادية : « كيلا يكون دولة بين الاغنياء منكم ــ ٧ الحشر » .

ومنها اقرار الملكية الخاصة ، شريطة أن لا يلقى العنان لغريزة

النملك بلا حد ، ولا للسيطرة المؤدية الى الظلم الاجتماعي واستغلال الاقلية لمقدرات الجماعة ، ومنها الجهاد ضد الطغاة ، واستماتة الانسان دفاعاً عن دينه ووطنه وحقه الخاص : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ـ ١٩٣ البقرة » . وقال الرسول الاعظم (ص) : « من مات دون عقال من ماله مات شهيداً » . وأوجب الاسلام القتال لنصرة المستضعفين والذب عنهم : « ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ـ ٧٥ النساء » وحرّم على المستضعفين ان يتحملوا الضيم ، ولم يقبل الله لهم عذرا في الاستسلام الى المذلة والمهانة . وألزمهم بالهجرة اذا تسلط عليهم الكبار والسادة ، ولم يجدوا حيلة ولا وسيلة للدفاع والجهاد : « الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ـ بقبول الضيم ـ قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض قالوا ألم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها فاولئك مأواهم جهنم ـ ٩٧ النساء » .

ومنها مساواة الجميع امام الله والحق : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ـ ١ النساء » . ومنها وجوب التعاون والتكامل بالزام الفرد بالجماعة ، والجماعة بالفرد : « وتعاونوا على البر والتقوى ـ ٢ المائدة » . ويسمى هذا التعاون على البر في لغة العصر ـ بالضمان الاجتماعي أو العدالة الاجتماعية .. الى غير ذلك من القواعد والمبادىء التي تحقق مصالح الناس ، وتكفل سعادة الفرد والمجتمع . ومن هنا اتفق فقهاء المذاهب على انه حيث تكون المصلحة فثم شرع الله وشريعته (١) .

---

(١) من درس الفقه الاسلامي عن أدلته ـ يلاحظ ان ادلة العبادات والزواج والطلاق ـ جاءت في كتاب الله وسنة نبيه مفصلة محددة لان احكام العبادة والزواج والطلاق والميراث لا تتغير وتتطور . اما ادلة المعاملات والجوانب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ـ فقد جاءت في مبادىء وكليات عامة لكي تستجيب لحاجات الحياة وتطورها على مدى الازمان .

ومن أجل هذه التعاليم وغيرها آمن بالاسلام كثير من الناس قديما وحديثا في مختلف انحاء العالم ، آمنوا به طوعا لا كرها ، واجتهادا لا تقليدا .. والذين اسلموا اليوم في اوروبا وامريكا وكندا ــ أمثلة واضحة ، وأدلة قاطعة على ان الاسلام هو دين الحياة لكل مجتمع وفي كل عصر .

وآخر ما قرأت في هذا الباب كلمة بعنوان مفكر اسلامي نمسوي ، نشرتها جريدة الجمهورية المصرية في عددها المؤرخ ٢٣ ــ ٥ ــ ١٩٧٣ جاء فيها : اسلم من النمسويين ٢٥ ألفاً ، ويقوم بتأمين مصالحهم الدينية واحد منهم ، وهو الدكتور باليتش ، وله مؤلفات باللغة الالمانية ، يدافع فيها عن الاسلام ونبيه ، ووضع كتابا خاصا في تفسير سورة يس . ومن أقواله : « ان الاسلام بوضوحه وبمبادئه العلمية الانسانية قد اعفى علماءه من الوقوع في البهلوانية ــ أي الشعوذة ــ التي صنعها جماعات دينية كثيرة في اوروبا ، واتخذوا منها نظاما متبعا . وهذا يؤدي آخر الامر الى رفض كامل للعقيدة الدينية » .

وهكذا ينتشر الاسلام في شرق الارض وغربها تلقائيا وبلا تبشير ومبشرين . ولو كان له جزء من ألف من جماعات الدعوة الى التنصير لدخل الناس في الاسلام بالملايين ... ولكنه يصمد للهجمات ، ويزحف الى الامام بقوته الذاتية وبلا سائق وشهيد الا من نفسه . ويقول الدكتور باليتش النمسوي المسلم : يجب اقامة جبهة اسلامية مستقرة واعية عن طريق تحسين تعليم الدين الاسلامي الى اعلى درجة ممكنة ، وتجديد الفكر الاسلامي ، ولا يكفي القول : ان الاسلام قادر لمجرد ما فيه من مزايا على مقاومة كل تهديد يوجه اليه .

واحسب ان الدكتور باليتش لا يعلم ان عندنا مجموعة تنتمي الى

الاسلام ، وهي أضر عليه من اعدائه المعروفين ، وأعني بهذه المجموعة الذين يحاربون الفكر والحرية ، والحرية ــ كما اشرت ــ من المبادىء الاساسية للاسلام ، ويوالون اعداء الله والوطن تكالباً على المال والمناصب ... واعجب من ذا وأغرب ان الدول الاسلامية أو اكثرها تنقل قوانينها عن الغرب ، وتهمل الشريعة الاسلامية مع العلم ان اكثر القوانين الغربية منقولة ــ بطريق او بآخر ــ عن الفقه الاسلامي (1) . وعلى فرض استقلالها عنه فان التشريع الاسلامي لا يدانيه أي دستور وقانون .

قال القانوني الكبير الشهير الدكتور السنهوري : « ان الشريعة الاسلامية مليئة بعناصر لو تولتها يد الصياغة لصاغت منها مبادىء تفوق اخطر النظريات الغربية » . ومن هنا حقق الاسلام حضارة عالمية لقرون طويلة .

من هو المشرع ؟

من شرحي لنهج البلاغة : (ثم ان هذا الاسلام دين الله الخ) .. نفترق الاسلام عن سائر الاديان بأن سلطة التشريع لله وحده ، وان خالق الطبيعة هو واضع الشريعة ، وان النبي ليس له منها الا التبليغ .. وفي كتب اصول الفقه للسنة بحث خاص في ان النبي هل له ان يجتهد ويحكم بما يرى ؟. فأجاز ذلك جماعة ، ومنعه آخرون . وقال الشيعة بكلمة واحدة : ان النبي لا يجتهد اطلاقا ، ولا ينطق بحكم من الاحكام الا عن الوحي بدليل ما رواه السنة والشيعة ان المسلمين كانوا يسألون النبي (ص) في كثير من الاحيان عن بعض امورهم ، فيقول : ما عندي بهذا علم من

---

(1) في كتاب اسلام بلا مذاهب للدكتور الشكعة طبعة رابعة ص ٤٦ : ان المشرعين الفرنسيين كانوا يستحضرون كتب الشريعة الاسلامية ويأخذون قانونهم من شريعة الاسلام .

الله ، ثم ينزل القرآن بالحكم ، فينبئهم النبي به . وكان يقول ويكرر : « ان اتبع الا ما يوحى الي ــ ١٥ يونس » .

ونعطف على ذلك ان القول بجواز الاجتهاد على النبي (ص) ــ يفتح لأعداء الاسلام الطعن والشك فيه ، وان بعضه من ظن الرسول واستحسانه !. وعليه يفلت الزمام ، ويهبط الاسلام من السماء الى الارض !. كلا ، ان الاسلام واحد لا يتجزأ ، انه رسالة السماء من ألفه الى يائه ، ولا شائبة فيه للارض واهل الارض : « ان هو الا وحي يوحى علمه شديد القوى ــ ٦ النجم » .

والاسلام حين يجرد البشرية كلها من حق التشريع يجرد في الوقت نفسه كل انسان من حق السيطرة والاستعلاء على غيره ، ويضع الجميع على مستوى واحد امام الله ، ولا يبقي لأحد فضلا وامتيازا على آخر الا بما يقدم من عمل صالح ، وبالتالي يبطل مزاعم الذين يرون لانفسهم حقوقا مقدسة . ومن بحث عن اسباب الآلام التي عانتها وتعانيها الان الانسانية ، وجدها أو وجد أكثرها يعود الى القوانين التي شرعها الانسان لمصلحته كفرد ، او لمصلحة مجموعة من الافراد يرتبط بهم المشرع بسبب من الاسباب .

أما الديانة المسيحية فانها ربطت الدين باصوله وفروعه ، ودعائمه وأحكامه ، ربطته بارادة الكنيسة ورجالها الذين خاطبهم انجيل متى الاصحاح ١٨ فقرة ١٨ ، وقال لهم : « كل ما تربطونه في الارض يكون مربوطاً في السماء ، وكل ما تحلونه على الارض يكون محلولا في السماء » . فالكنيسة هي تحلل وتحرم ، ثم تنسخ متى تشاء ما حللت وحرمت !.. ومن هنا جاء تجريد السيد المسيح من طبيعة الناسوت . والغفران والحرمان ، وبيع أذرع في السماء والجنة ، وتحريم زواج

الاكليروس . ولكن الكنيسة الانكليزية التي حرمت الزواج على رجال الدين أباحت اللواط ، كما ان بابا روما برأ اليهود من دم السيد المسيح ، وضرب بعرض الجدار النص الذي جاء في انجيل متى .. الى الكثير الكثير . وكله حق من عند الله !.. ولا أدري كيف ينسب « دين » الى الله ، وهو من اوهام الناس ؟

وكان من نتيجة هذه السلطة ثورة الملوك والاقوياء في اوروبا على الكنيسة لتدخلها في شؤونهم ، وانفصال السياسة عن الدين ، ولكن الثورة انتقلت من الحاكمين الى داخل الاكليروس انفسهم ، فمنذ بضع سنوات ثار جماعة منهم في هولندا على سلطة البابا . ومن مطالبهم الرئيسية السماح بالزواج لرجال الدين ، وقامت ثورة مماثلة في فرنسا وايطاليا وألمانيا . ويستحيل ان يحدث هذا بين المسلمين لاتفاق مذاهبهم على ان التشريع لله وحده : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ــ ٤٤ المائدة » .

الاصل الثالث :

وهو الايمان بحتمية البعث والنشر بعد الموت ، وقبل عيسى وموسى ونوح شعرت الانسانية بالحياة الثانية .. وكان لهذه الحياة وما زال فلسفة وأدلة ومؤلفات ، وقصص وروايات ، منها غفران المعري ، وجحيم دانتي . ولا سبيل الى اثبات البعث ومعرفته بالحس والتجربة الا بعد الموت ! وبه تنقطع الصلات بين الاحياء والاموات .

وللقرآن الكريم في اثبات البعث اسلوب واضح ، ومنطق بسيط يفهمه الامي والبدوي ، ولخصه الامام امير المؤمنين (ع) بقوله : « عجبت لمن انكر النشأة الاخرى ، وهو يرى النشأة الاولى » • وهذا تعبير وتفسير للآية ٢٧ من الروم : « وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو

أهون عليه » . وبتعبير النجفيين والأزهريين : ان البعث في ذاته ممكن عقلا ، وبعيد عادة ، لانه لم يحدث الآن ، ولكن عدم الحدوث لا يدل على عدم الامكان . فقد كان الناس يعتقدون بأن صعود الانسان على القمر من المستحيلات ، ثم حدث ذلك بالفعل ، وما دام البعث ممكنا عقلا ، وقد اراده الله سبحانه ، وهو فعال لما يريد ـ فان البعث واقع لا محالة .

وقال الفلاسفة وعلماء الكلام : البعث حتم بحكم العدالة الالهية . كي يلقى المحسن جزاء احسانه ، وينال المسيء جزاء اساءته (1) .

وعلى أية حال فان غرضي الاول هنا هو بيان الصلة بين الحياة الدنيا والايمان باليوم الآخر ، وقد اوضحت ذلك بكتاب «في ظلال نهج البلاغة» وانا اشرح قول الامام (ع) في الخطبة ٢٨ :

« فتزودوا من الدنيا ما تحرزون به انفسكم غداً » . قلت : يشير الامام (ع) بهذا الى العلاقة القوية الوثيقة والترابط المتين بين السعادة في الآخرة والصلاح والاصلاح في الحياة الدنيا .. وبين الشقاء في الحياة الثانية والفساد والافساد في حياتنا هذه .. يقول (ع) : خذوا من هذه

---

(1) قلت في التفسير الكاشف في معنى قوله تعالى : « يومئذ يصدر الناس اشتاتا ليروا اعمالهم ـ الزلزلة » قلت : ليروا جزاء اعمالهم على حذف مضاف . لاني ما تصورت اطلاقا ان الاعمال تتجسم مستقلة عن العامل .. ثم قرأت ان العلم الحديث كشف عن حقيقة مدهشة . وهي ان كل عمل يحدث في الفضاء صورة عنه طبق الاصل ، وان العلماء اخترعوا آلة تلتقط هذه الصورة بعد انتهاء العامل من عمله ، ولكن بعد ساعات قليلة ، وقد يخترعون آلة في المستقبل تلتقط الصورة بعد ايام . فسبحان من علم الانسان ما لم يعلم . وتجدر الاشارة ان بعض المفسرين قالوا بتجسيم الاعمال واستقلالها عن العامل يوم القيامة .

الحياة قبل ان يوافيكم الموت ، وتزودوا من خيرها الى الآخرة قبل الرحيل ، وكم فيها من خيرات .. فما من شيء يسهل العيش على الانسان الا وهو خير عند الله ، وما من عمل يحقق الامن والدعة للناس جميعا الا هو فضيلة في كتاب الله ، وما من نهضة تحرر الانسان من الجهل والعبودية والاستغلال الا هي حق في علم الله .. وكل ما يسير بالحياة الى الافضل في اية جهة فهو دين وايمان عند الله .

أرأيت الى هذا الترابط العضوي بين الدنيا والآخرة ، وهذا التكامل بين الشجرة والثمرة ؟ واذن اين مكان الريب في اليوم الآخر ؟ وما هي عيوب الايمان به وبالوقوف بين يدي عادل قدير لنقاش الحساب على ما فعل الانسان وترك ؟ أبالثواب والنعيم على ما احسن ، ام بالعقاب والجحيم على ما أساء ؟

هذي هي الآخرة عند الاسلام .. لا تنفك ولا تنفصم عن عمل الدنيا بحال كما قال عز من قائل : « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا – ٧٢ الاسراء » .. « ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين – ١٤٢ آل عمران » .. أبداً لا نظرية مجردة ، ولا عقيدة مستقلة عن العمل في الاسلام ، كيف وهو القائل : « وان ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى – ٤٠ النجم » . ومن هنا كان الاسلام دين العمل حقاً وواقعاً ، العمل من اجل حياة افضل في كل الميادين .

وحين كنت ادرس في دار التبليغ الاسلامي بمدينة قم سنة ١٩٧١ م – سألني احد الشيوخ : هل لديك دليل على البعث مقنع وقاطع للشك ؟ فذكرت له مبدأ جزاء المحسن باحسانه ، والمسيء باساءته ، وان العدل الالهي لا يساوي بين اعدائه واوليائه . فقال : اعرف هذا ، واريد

غيره . قلت : الآن لا يحضرني سواه ، ثم نسيت السؤال حتى كتابة هذه الاسطر ، فتذكرت وفكرت عسى ان اهتـدي الى ثانٍ وثالث ، فانتهيت الى ما يلي :

كل من آمن بالله يلزمه حتماً وعقلا أن يؤمن باليوم الآخر والا فقد سلب الكمال والجلال عن الله سبحانه ، وعطل اسماءه الحسنى وصفاته الجلى من حيث لا يحس ولا يشعر ، لان معنى الايمان بالله حقا وواقعا هو الايمان بكمال صفاته وسعتها من غير حدود ، والايمان بهذا المعنى لا يجتمع اطلاقا مع انكار البعث واليوم الآخر ، لان من أنكر هـذا اليوم فقد عطل ونفى عن الله الصفات التالية :

١ ـ القدرة وانه تعالى عاجز عن احياء الموتى كما زعم الجاحدون .

٢ ـ الحكمة وانه عابث في خلق الانسان حيث تركه سدى بعد ان أودع فيه ما اودع من الطاقات ومؤهلات الخلود بخاصة العقل الانساني الذي هو اعظم وأروع من الكون الخارجي بكامله .

٣ ـ النقص في ملكه تعالى وانه لا يتجاوز الحياة وحدودها .

٤ ـ العفو والرحمة حيث لا مسؤولية تستدعي شيئاً من ذلك .

٥ ـ العدل ، اذ لا يستقيم مع العدل الالهي ان يستوي الخبيث والطيب ، وان يفلت المسيء من العقاب ويحرم المحسن من الثواب . كما اشرنا في سطور سابقة .

وبهذا تبين معنا ان من جحد الآخرة فهو معطل لله سبحانه عـن افعاله وصفاته . كما تبين بالادلة والشواهد ان الاسلام يربط الارض بالسماء ، والدنيا بالآخرة .

الاسلام والفطرة

ان الدين عند الله الاسلام :

قال سبحانه : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ــ ٣٠ الروم » . والمراد بالدين هنا الاسلام لقوله تعالى : « ان الدين عند الله الاسلام ــ ١٩ آل عمران » ... أمر سبحانه نبيه الكريم ان يستقيم على الاسلام ، ولا يحيد عنه ، لان جميع مبادئه وتعاليمه ترتكز على ما فطر الله الناس عليه ، ولا تبديل لخلقه وشريعته .

ما هو المراد بالفطرة ؟

ليس المراد بالفطرة هنا الجبلة والطبيعة ، ولو كان الانسان مفطورا على الاسلام او التوحيد لكان كل الناس مسلمين أو موحدين ، وكان الامر بالتوحيد عبثاً وتحصيلا للحاصل ، وانما المراد بالفطرة التوجيهات والتعاليم التي تنسجم وتتلاءم مع طبيعة الانسان وحاجاته بما هو انسان بحيث يكون مطلوب الفرد ، أي فرد هو مطلوب جميع الافراد ــ مثلا ــ كل انسان تقياً كان أو شقيا يريد بطبعه وفطرته ان تصان حريته وكرامته، وان تحفظ حقوقه في شتى الميادين .

والاسلام يضمن له ذلك ، ويتعهد به ، اي يضع جميع احكامه

وقوانينه على هذا الاساس مع مراعاة العدل والمساواة ، ويقول لكل انسان : لك من الحقوق ما يرضيك ، وعليك من الواجبات مثل الذي لك .. ومن الظلم والاجحاف ان تطلب ما هو لك ، ولا تؤدي ما عليك .

فاذا كنت تطلب وتريد من كل الناس ان يستجيبوا لنداء الفطرة في عدم الاعتداء على حريتك وكرامتك ، وفي صيانة دمك ومالك ــ فعليك أيضا ان تستجيب بدورك لهذا النداء ، ولا تعتدي على حرية احدوكرامته، وان تصون دمه وماله .. أبداً لا تستقيم الحياة ، ولن تستقيم الا بالمساواة في الحقوق والواجبات .. ومن استهان بما عليه من واجب ، واخذ اكثر من حقه فهو ظالم ، بل وحش كاسر ، ومن أدى ما عليه من واجب ، ثم صد عن حقه فهو مظلوم .

هذا هو المراد بأن الاسلام دين الفطرة ، والفطرة دين الاسلام . ومن هنا صح القول : ان الاسلام يصلح لحياة الانسان اينما كان ويكون ما دام انساناً قلباً وقالباً ، اما من كان انسانا بهيئته ووحشا كاسرا بطبيعته، اما هذا فلا يصلحه شيء الا جزاء الخاسرين المتوحشين .

الرق :

وتسأل : اذا كان الاسلام دين الفطرة فلماذا لم يبت في الغاء الرق الذي هو لطخة عار في تاريخ الانسان ؟

الجواب :

ليس الرق من صنع الاسلام ، ولا أوجبه وأمر به ، ولكن الناس من قبله بآلاف السنين قد تبانوا عليه فيما بينهم حتى اصبح عندهم بديهة من البديهيات . وفي قاموس الكتاب المقدس مادة (ع ب د) : « يرجع

اصل العبودية الى أقدم أزمنة التاريخ المدون ، ولم تشذ عنها أمة من امم التاريخ القديم ، وان كان نظامها يختلف بين بلد وبلد » . ونقلوا عن القديس اوغسطين انه قال : « ان الله قد أدخل الرق في العالم كعقاب على الخطيئة ، وسيكون تمرداً على ارادة الله ان نحاول الغاء الرق » . وقال افلاطون في جمهوريته : من أكبر عيوب الديمقراطية ان يكون العبد مساوياً لسيده . وقال ارسطو في كتاب السياسة : الآلة على انواع منها جامد ، ومنها حي كالحارس والخادم .

وهذا دليل قاطع على ان رجال الفلسفة كانوا يرون أن فريقا من الناس خلقوا ليكونوا عبيداً . بل الانبياء بأسرهم قبل محمد (ص) أقروا مبدا الرق ، ولم يقف على الملونين وحدهم ، فكان جزاء القاتل حتى الابيض ان يكون عبدا لولي الدم ، وجزاء من يعجز عن وفاء دينه ان يصبح مملوكاً للدائن ، وكذلك السارق اذا ضبط عنده المتاع ، كما اشارت الآية ٧٥ من سورة يوسف : « قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين » .

واعلن الاسلام ثورة غاضبة على هذه العقوبات الجائرة ، وألغاها ونسخها ، ولكنه لم يجد الوسيلة لاستئصال الرق من الاساس ، فضيق دائرته ، وكبله بالعديد من القيود ؟ وفي الوقت نفسه فتح ابواباً كثيرة للعتق ذكرت في كتب الفقه والحديث .

وقال بعض الفلاسفة : كان الرق ضرورة لازمة للحياة الاجتماعية في مرحلة من مراحل التاريخ حيث لا آلة ولا حيوان يفيان بالعمل المطلوب للانتاج ، ولما تقدمت العلوم ووجدت الآلة ـ استقامت الحياة بدون الرق ، فألغاه الانسان ، والاسلام يقر ذلك ويباركه ، ما في ذلك ريب .

وفي كتاب روضة الكافي للكليني ج ١ ص ١٢٤ طبعة ١٣٨٢ هـ :

« ان الامام علياً (ع) قسم العطاء في ذات يوم ، فأعطى رجلا من الانصار ثلاثة دنانير ، وجاء بعده غلام اسود فأعطاه ثلاثة دنانير . فقال الانصاري : يا امير المؤمنين هذا غلام أعتقته بالامس تجعلني واياه سواء ؟ فقال الامام (ع) : اني نظرت في كتاب الله فلم أجد فضلا لولد اسماعيل على ولد اسحق .. ثم قال الامام : ان آدم لم يلد عبداً ولا أمة ، ان الناس كلهم احرار » .

أجل ، لا يستوي في حكم العقل والفطرة ان يكون احد الاخوين عبداً للآخر ، وأجمعت المذاهب الاسلامية قولا واحداً على أن من تولد من أبوين احدهما حر والآخر عبد فالولد كما لو كان كل منهما حرا . وما قاله الامام هو شرح وبيان لقول الرسول الاعظم (ص) : كلكم من آدم ، وآدم من تراب . وكفى بالله شاهدا ودليلا « ان أكرمكم عند الله اتقاكم » .

تعدد الزوجات :

سؤال ثانٍ : لقد اباح الاسلام تعدد الزوجات وهو ، كما قيل ، يتنافى مع الفطرة ؟

وهذا السؤال قديم ومكرور . واجيب عنه بان الاسلام أباح التعدد ولم يفرضه ، وحدده باربع ، ولو حرمه وسد بابه لارتفع عدد المواليد غير الشرعيين اضعافا مذهلة . وفي كتاب الاسلام يتحدى ان النشرة الاحصائية للامم المتحدة سنة ١٩٥٩ تقول : ان نسبة الاطفال غير الشرعيين في البلاد الاسلامية أقل من واحد بالمئة ، وترتفع في غيرها الى ستين بالمئة ، وقد بلغت في « بناما » ٧٥٪ .

هذا ، الى ان الشرائع والاديان قبل الاسلام أباحت التعدد بلا قيد ، ولم تحدده بأربع ، بل تركت الامر الى مشيئة الرجل ، وكان عند كل من

داوود وابنه سليمان العشرات من الزوجات . واعترفت الكنيسة لشرلمان الملك بعدة ابناء من عدة نساء . وأباح مارتن لوثر زعيم البروتستانت تعدد الزوجات حيث لا نص في المسيحية يحرمه (١) .

حول آية تعدد الزوجات :

وتسأل : لا ريب في سلامة هذا الجواب وصوابه ، ولكن الآية ٣ من سورة النساء قد ربطت بين الخوف من الزواج باليتامى وبين اباحة تعدد الزوجات مع انه لا صلة اطلاقاً بين الامرين ــ كما هو الظاهر ــ ؟

ونجيب بسرعة وايجاز ان هذه الآية نزلت لمناسبة خاصة ، وهي ان الصحابة كان اذا حضر احدهم الموت اوصى أخاه الصحابي بأيتامه الذكور والاناث ، وكان النبي (ص) يشدد كثيرا على الاوصياء في حق اليتامى .. والاوصياء بدورهم يخافون اشد الخوف من التقصير في معاملتهم حتى انهم تورعوا عن الزواج باليتيمات بعد بلوغهن خوفاً من التقصير وعدم العدل في حقوقهن .. فنزلت الآية : « وان خفتم ان لا تقسطوا » الخ . فالسبب الموجب لذكر اليتامى في هذه الآية هو خوف الصحابة من عدم العدل والقسط اذا تزوجوا باليتيمات . ويدل على ذلك قوله تعالى في الآية السابقة بلا فاصل : « وآتوا اليتامى أموالهم .. ولا تأكلوا اموالهم ».

وعليه يكون معنى الآية : يا أيها الصحابة او الاوصياء او الناس ان خفتم من عدم العدل والقسط حال زواجكم من يتيمات فدعوهن وتزوجوا من غيرهن مثنى وثلاث ورباع ، ولكن على اساس العدل ايضا .. فالعدل والقسط مطلوب منكم وانتم ملزمون به على كل حال ، ولا مفر منه اطلاقا سواء أتزوجتم اليتيمات أم غيرهن ، وسواء أشركتم في

---

(١) اسلام بلا مذاهب ص ٨٦ طبعة رابعة .

الزواج ام وحدتم .. واذن فلا وجه ولا معنى لخوفكم من عدم القسط والعدل حال زواجكم من اليتيمات دون غيرهن ، لا مبرر اطلاقا ما دام العدل واجبا في شتى الحالات .

الفطرة والقوانين العصرية :

والآن ، ونحن نتكلم عن الاسلام والفطرة ، نشير الى بعض القوانين العصرية ، وكيف اطلق المشرعون او بعضهم في هذا العصر ، اطلقوا العنان للشهوات ، وأبدعوا في الانحلال والتحرر من كل خلق وفضيلة تماما كما ابدع العلماء في الميدان العلمي !.. واليك بعض الامثلة : نشرت الصحف العربية نقلا عن صحف الغرب ما يلي :

أباحت الكنيسة الانكليزية اللواط بشرط ان يكون المفعول قادراً على ان يبارز الفاعل مبارزة الند للند . واقر مجلس العموم البريطاني هذه الفاحشة النكراء وصاغها بقانون ، فابتهج الشعب لذلك اي ابتهاج ، وأقام الاحتفالات العامة ، ومارس فيها علناً عمليات اللواط .

وفي مجلة روز اليوسف المصرية تاريخ ٦ آب سنة ١٩٧٣ كلمة بعنوان لماذا عادوا الى الله ؟ جاء فيها « العودة الى الله هي آخر شعارات الشباب في الغرب .. وجاء ذلك من ردود الفعل للانحلال وانتشار الفساد ومنه وصل عدد نوادي اللواط في لندن ١٧٦٥٠ ، وفي الولايات المتحدة الى ١٤٥٠٠ ، وفي باقي اوروبا الى ١٦٧٣٠ » .

وكل هذه النوادي اللوطية ينص القانون على شرعيتها !.. وفي كل آن تصدر الهيئات التشريعية قوانين من هذا النوع في البلاد القوية المتقدمة التي يشد الرحال الى جامعاتها شبابنا المسلم ، ينهل منها العلم والاخلاق والثقافة !.

وأيضاً نشرت الصحف ان المانيا الغربية اصدرت قانونا يبيح تبادل الزوجات بين المتزوجين ، وثانيا يبيح اللواط ، وثالثا يسمح ببيع الصور العارية .. هذا ، الى قوانين تقرر وتصحح الوصية الى القطط والكلاب، وحصر الميراث بالولد الاكبر ، والاتجار بالبغاء ، والتفرقة العنصرية ، والاحتكار والاستغلال ، وحرق الانتاج كي ترتفع الاسعار الى السماء ، وان مات الفقراء جوعاً وسغباً .. الى غير ذلك من الجرائم التي تصاغ بقوانين دولية .

وهكذا كل شريعة تأتي من الارض واهل الارض .. انما تعبر عن مصلحة من شرعها ، وتدعم طبقته ومن هو على شاكلته عاملا كان او رباً للعمل ... ومن هنا انتشر الفساد ، وعمت المشكلات ، وتراكم الاشياء الذي عبر عنه الجيل « بالهيبيز » والمخدرات والاغتيال وخطف الطائرات، وبصور شتى .. حتى ولو وجد مشرع يتوخى خدمة الانسان والصالح العام فانه لا يتنزه عن الوقوع في الخطأ مهما حرص وتحفظ .

لهذا السبب وغيره من الاسباب تنادي برفض الشرائع الوضعية اللوطية والاستغلالية والعمالية ، لانها رجس واثم ، وندعو للرجوع الى الشريعة الالهية الفطرية التي فطر الله الناس عليها . وهي مبذولة لكل من أراد الصلاح والاصلاح ، وقد آمن بها عقل الملايين من العلماء المنصفين ، ووجدان الكثير من الاخيار الطيبين قديما وحديثا ، آمنوا بها ، وضحوا من أجلها ، لانها قوة للعلم ضد الجهل ، وللعدل ضد العدوان ، وثورة الفقراء ضد المستغلين ، وسلاح الضعفاء ضد الاقوياء ..

لا نجاح بلا تخطيط

الاسلام والتخطيط :

أشرنا فيما تقدم الى ان تعاليم الاسلام وقيمه تستجيب لمطالب الحياة وتطورها ، وعرضنـــا مجموعة من الامثلة على ذلك . ونشير هنا الى ان النجاح العظيم الذي حققه الاسلام لا يستند الى قيمه وحدها ، او الى خلق نبيه الكريم فقط ، او اعجاز القرآن وكفى ، ولا الى هذه العناصر مجتمعة ومستقلة عن التخطيط والظروف الاجتماعية ، وان كان لتعاليم الاسلام وقيمه أبلغ الاثر في انارة البصائر والعقول وهدايتها الى معرفة الحق والخير ، ولكن كلمة العقل مجرد نصح وارشاد ، كما ان معرفة الحق والخير تصطدم بالهوى والغرض .

ان العامل الحاسم لنجاح الاسلام هو التخطيط المحكم الدقيق ــ بالاضافة الى قيمه الحية الغنية ــ التخطيط لعلاقة العبد بربه ، والفرد بمجتمعه ، ولجهاد العدو وردعه عن العدوان ، وللحكم العادل ، وللتربية والثقافة ، وللقضاء وفصل الخصومات ، والتأديب والعقوبات ، والاسرة والتجارة .. وغير ذلك مما يحتاج اليه الناس في شؤونهم الخاصة والعامة وعلاقة بعضهم مع بعض .. وكل ذلك مدون ومفصل في كتب الفقـــه الاسلامي والتفسير والحديث وغيرها .

والذي يهمنا في هذا الفصل هو التخطيط الذي رسمه النبي (ص)

لنجاح دعوته ورسالته بكل ما تنطوي عليه ، وذلل به الصعوبات والعقبات التي اعترضت سبيله وقاسى منها الكثير ، يهمنا ان نعرف هذا التخطيط النبوي لا لمجرد العلم بقول النبي او فعله او تقريره ، ولا لنعتز بـه وتتفاخر في الخطب وغير الخطب ونقول : الاسلام سبق الاجيال والامم الى الاكتشافات والتخطيطات .. كلا ، ان التفاخر بالماضي لا يجدينا كثيرا ولا قليلا ما دمنا في الدرك الاسفل من الانهيار . وانما نهتم بهذا التخطيط بالخصوص لنعتبر وتتخذ منه درسا ينهض بنا الـى درجة المسؤوليـة ، ويدفعنا الى السير مع القافلة .

ويتلخص هذا التخطيط الالهي المحمدي بالصبر على الاذى في سبيل العقيدة ، وعدم الرد على أي نوع من الاستفزاز قبل اعـداد العـدة ، وبالرد والمجابهة اذا تهيأت اسباب المعركة . وفيما يلي التفصيل :

الصبر على الاذى :

نشأ الاسلام ضعيفا في مكة ، فتظاهرت عليه قوى الشرك ، ولاقى النبي (ص) ومن اتبعه ألواناً من التنكيل والاضطهاد ، فقال سبحانه لنبيه الكريم : « فاصبر ان العاقبة للمتقين ــ ٤٩ هود » اي اصمد على ما انت برغم الاذى ، ولا تعترف بالهزيمة ، ولك عاقبة الدار . وعلى اساس هذا التوجيه الالهي رسم النبي (ص) الخط العريض في هذه المرحلة المكية ، وهو الصبر على الاذى في سبيل الاسلام مع الثقة بالنصر في النهاية ، وترك المجابهة مع قـوى البغي والعدوان ، لان مجابهة القوة قبل اعداد العدة عملية انتحارية . وقديما قيل : « من لم يصبر على كلمة سمـع كلمات » . وقد تنهال عليه الضربات ويفقد الحياة .

وليس من شك ان الصمود وعدم الاعتراف بالهزيمة مهما تـكن الخسائر مع الايمان بالنصر وان طال الزمن ــ هو نوع من الجهاد المنتج

المنمر ، بخاصة في مجابهة الحرب النفسية . ولك ان تسمي هذا النوع بالمقاومة الروحية .. وقد آمن غاندي بهذا التخطيط المحمدي ، واهتم به أي اهتمام بعد ان عرف حقيقته ونتيجته ، وعلى اساسه ارسل في الهنود صرخة اللاعنف مع الثبات على مقاطعة الانكليز ، والايمان بحسن العاقبة، فاستجابوا له ، وكان النصر التاريخي المعروف .

وما أبعد المسافة والشبه بين صبر الصحابة على الاذى في ابان نشأة الاسلام وظهوره ، وبين صبر المسلمين اليوم على الخسف والهوان ؟ كان صبر الصحابة رسوخاً للعقيدة ، واثباتاً للشخصية ، ومقاومة روحية حيث لا طاقة مادية عدة وعدداً . أما مسلمو اليوم فيبلغ عددهم ألف مليون (١) كما قيل وثروتهم تفوق التصور بخاصة النفط العربي الذي تتكدس اثمانه في بنوك الولايات المتحدة وغيرها ، ثم تحول الى احدث الاسلحة واكثرها تطورا .. وتنقل الى اسرائيل قاعدة الاستعمار ، فتنقض بها على العرب . تنفذ خططها العدوانية ، واهدافها التوسعية ، وتحمي احتكارات الغرب وشركات السلب والنهب .

القوة الرادعة :

صبر المسلمون على الاذى في مكة ١٣ عاما ، وهذه المدة هي المرحلة الاولى للاسلام ، وبلغ الايذاء والبلاء ذروته على النبي والصحابة بموت عمه ابي طالب .. وكانت المدينة قد استجابت لدعوة النبي (ص) وفتحت له ابوابها فهاجر اليها والذين اتبعوه وآمنوا به ، وهناك ابتدأت المرحلة الثانية والحياة الجديدة ، فقد ملك الاسلام بهذه الهجرة القوة الرادعة والقدرة على دفاع المعتدين ، وجاء الاذن من الله بالدفاع والقتال في هذه

---

(١) كما جاء في مجلة المصور تاريخ ٩-٨-١٩٧٣ ص ٥ .

الآية الكريمة : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ــ ٣٩ الحج » . وقال المفكر الفرنسي روجيه جارودي : « قد أكسبت هذه الآية رنيناً جديداً في الموقف التاريخي للنضال الوطني العظيم للشعب العربي ، وخلقت أفضل الابطال والشهداء المستعدين للموت في حرب عادلة » من محاضرة ألقاها في القاهرة ، ونشرتها مجلة الطليعة في عدد يناير سنة ١٩٧٠ .

أذن سبحانه لنبيه الكريم بقتال المعتدين ، فخطط النبي لهذا الجهاد والقتال بالمؤاخاة أولا بين المهاجرين من مكة والانصار في المدينة ، ثم عمل على تصفية النزاع بين الأوس والخزرج ، وألغى ما كان بينهم من خصومة تولدت من حروب جاهلية ، وانطلق بهم اجمعين من خلال هذه الوحدة ــ الى ساحة القتال تحت لواء واحد وقائد واحد ، وحوّل الصراع الداخلي الى مجابهة العدو الخارجي المشترك .

هكذا فعل محمد (ص) ومن هنا بدأ جهاده وقتاله . وهكذا فعلت الثورات التحررية او الكثير منها في الشرق والغرب ، تحالف اليمين واليسار ، العمال والفلاحون والتجار والمثقفون والموظفون ، وساروا ــ على ما بينهم من تناقضات وانقسامات ــ في طريق واحد الى هدف واحد . وعلى قادة العرب والمسلمين ان يعتبروا بسنة النبي العظيم (ص) وينطلقوا من حيث انطلق ، ويقفوا في وجه العدو المشترك وقفة واحده في صف واحد ، ان كانوا مخلصين كما يزعمون .

أبداً لا علاج ولا حل لمشكلاتنا وأدوائنا الا التعاون وتوحيد القوى والعناصر ، فهو الاساس ، وهو حجر الزاوية في الحرب والسلم ، ولكل تقدم في اي ميدان من ميادين الحياة . ولا شيء وراء الشتات والشقاق

الا التخلف وذهاب الريح . كما أنذرنا سبحانه بقوله : « ولا تنازعـوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ــ ٤٦ الانفال» . ومعنى هذا ان الوحدة القومية والجبهة الوطنية ، وكل تكتل لغاية انسانية هو عقيدة قرآنية واجتماعية ، تذوب فيهـا نزعات الاستغـلال الفردي وتتكامل المصالح وتتلاحـم أوامر المشاركة .

غزو الاسلام من الخارج والداخل

تعدد الفرق والمذاهب :

واجه المسلمون القدامى بعد النبي الكريم(ص) العديد من المشكلات ومن أهمها تعدد الفرق والمذاهب ، وما جرى بينها من قتال وصراع ، ثم تقسيم الخلافة الاسلامية الى ثلاث : الاولى في بغداد ، والثانية في القاهرة ، والثالثة في الاندلس ، ثم تمزيق كل واحدة الى سلطنات وامارات .. وكان لذلك أسوأ الاثر على الاسلام والمسلمين .. وليس هذا التعدد بالشيء الغريب على أهل الاديان والعقائد والاحزاب ، فالمسيحيون طوائف ، والماركسيون اقسام ، والقوميون اصناف .. وهكذا بقية الفئات والحركات السياسية والفلسفية ، بل والثورية .

ورغم هذه الانقسامات المذهبية بين المسلمين فقد كان الشعور بالمسؤولية عن الاسلام عميق الجذور في نفوس الجميع ، يضحون بالنفس والنفيس لاعلاء شأنه وكلمته ، وهذا هو الخيط الذي كان يربط المذاهب والفرق الاسلامية ، بالاضافة الى الشهادتين . ومن هنا صمد الاسلام للاحداث ، وانتشر في شرق الارض وغربها ، وأرغم الفاتحين الغزاة على اعتناقه كالتتار . وكانوا وثنيين .

الاستعمار الغربي :

واجه العالم الاسلامي الكثير من الصعاب ، ولكن بقي للاسلام شيء

من القوة والهيبة، لعمق الاحساس بالمسؤولية عنه في نفوس كافة المسلمين. كما أشرنا ، حتى جاء الاستعمار الغربي الجماعي في القرن الثامن والتاسع عشر والعشرين ، وادرك ان العالم الاسلامي لا يقف بدينه عند حدود العبادة في الجامع ، كما هو شأن العالم المسيحي ، بل يعتمد على الاسلام في تربية الخلق والضمير ، وفي المعاملات والاحوال الشخصية ودور القضاء ، ومناهج التعليم حتى ان العلم كان يكاد يعني آنذاك دراسة العقائد والفقه والتفسير ... وايضا لم يكن للدولة ميدان غير ميدان الدين. وبكلمة كان الاسلام يحتل مكان الصدارة في شتى مظاهر الحياة .

ويعني هذا رفض البغي والاستغلال ، وان الثورة على من يحاول السيادة والوصاية على المسلمين — دين وايمان بنص السنّة والقرآن ، ولا يسوغ تجاهلها والاستهانة بها مهما تكن الظروف والاحوال .. ومن هنا كان أقوى المسلمين ديناً ، واكثرهم بالاسلام علما — اشد الناس قسوة على الظالمين ، واعظمهم صبرا على جهادهم وقتالهم .

ادرك الاستعمار الغربي هذه الحقيقة ، فخطط وأحكم خطة المؤامرة على الاسلام والمسلمين ، وسحق مقدساتهم وآمالهم ، وابتدأ بتمزيق بلادهم الى اشلاء ، واقام الحدود والسدود بين كل بلد وبلد ... حتى البلد الواحد أقام فيه أمراء ومشايخ ، كما فعل الانكليز بالخليج ، والفرنسيون بسوريا ، وكوّن مثقفين خائنين ، وطبقات وفئات وأحزابا تحت شعارات خادعة كاذبة ، وشجع الاقطاع والعملاء ، واوقع الفرقة والعداء بين القوى الوطنية والثورية .. الى كثير من المحن والفتن ، وأخطرها مجتمعة الكيان الصهيوني الذي أرست نواته انكلترا ، وتعهدتها بالنمو الولايات المتحدة الامريكية .

ثم استبعد الاستعمار الغربي الاسلام عن ميادين الحياة ، فألغى

تدريس الدين والتاريخ الاسلامي من مناهج التعليم ، واقصى الشريعة الاسلامية عن القوانين ودور القضاء وعن الاقتصاد ، وعمل على اضعاف اللغة العربية ، لغة القرآن والسنة النبوية ، ونشر الالحاد والفساد ، والتحرر من القيم والاخلاق بين الشباب المسلم تحدياً للاسلام ، وامعانا في اذلال المسلمين . ومن هنا ركز السيد الافغاني دعوته على مجابهة الاستعمار الذي استولى آنذاك على الكثير من البلاد الاسلامية ، وكان السيد بهذا ابعد نظرا من اي مصلح ومفكر في عهده ، لان الاستعمار أصل الداء والبلاء .

وكافح العرب والمسلمون ضد الاستعمار ، وقاوموه بكل سبيل ، وضحوا بالكثير من النفوس والاموال ، ولكن كان الجهاد غير متعادل في عالم تسوده الدول الاستعمارية العظمى .. وأخيراً رحل الاستعمار بجيوشه من البلاد العربية والاسلامية بعد أن ترك العقبات في طريق الدولة الاسلامية الواحدة ، والدولة العربية الشاملة ، ورحب المنحرفون وارباب المصالح بهذه الحواجز المفتعلة واعتبروها أصيلة وطبيعية لا تقبل البديل والتحويل لانها تتيح لهم فرصة النفوذ والاستغلال .

التعاون ضد العدو المشترك :

وتسأل : ان النظرة الصحيحة الى الواقع تؤكد ان العوامل مواتية لوحدة العمل والتعاون برغم الفواصل والدول المتعددة المفتعلة التي خلفها الاستعمار ، ودان بها أرباب المصالح ــ واذن فلماذا لا يتعاون المسلمون في ما يعود عليهم وعلى الاسلام بالخير ؟ كما اتفق العرب فيما بينهم بعد حرب تشرين الاول ١٩٧٣ لدرء الاحتلال الصهيوني والعدوان الامريكي .. وليس من الضروري لمثل هذا التعاون ان يكون جميع المسلمين او كل العرب من دولة واحدة ، فبالامس القريب اتفق الروس

والامريكان على المصالح المتبادلة ، ومن قبل اجتمعت الجيوش الشيوعيه والرأسمالية تحت راية واحدة للقضاء على هتلر قبل ان يبتلع الاثنتين .

وقبل الجواب نمهد بأن التعاون مع أية جهة او فئة لخدمة الانسان وردع العدوان هو مبدأ الهي انساني ، فلقد تعاون النبي الكريم (ص) مع النجاشي المسيحي على حماية المستضعفين من بغي الطغاة ، وأيضا استعان بصفوان بن أمية قبل اسلامه على حرب هوازن ، واشتهر قوله : « ان الله ينصر هذا الدين بقوم لا خلاق لهم » . واستعان المسلمون في اقامة الحضارة الاسلامية بغـير المسلمين ، فنقلوا وترجموا عن غيرهم العلوم والفنون بأقلام غير اسلامية .. ان العلم او الفن لا يتجنس بدين او عنصر ، ومن خصائصه العموم والشمول ، ومن هنا وجب تقديس العلم حتى ولو جاء من الصين ــ غير الاسلامية ــ .

وعليه فالامم المتحدة ، ومحكمة العدل الدولية ، وهيئة اليونسكو ، واتحاد البريد الدولي ، والمنظمات الفنية ، والنقابات المهنية ، كل اولاء وما اليها تقرها جميع الاديان والعقائد والمبادىء ما دامت تهدف الى خدمة الانسان ومنفعته .

هذا هو حكم التعاون على وجه العموم . أما تعاون المسلمين فيما بينهم فهو فرض بحكم الكتاب والسنة ، وله العديد من المظاهر ، وقــد ذكرها الرسول الاعظم (ص) في اكثر من حديث ، ومن ذلــك قوله : « المسلم أخو المسلم ، يديم نصحه، ويحسن نصرته، ولا يسلمه ولايخذله، ويحب له من الخير ما يحب لنفسه ، ويكره له من الشر ما يكره لنفسه ».

وعلى هذا الاساس كان حكام المسلمين يعاملون اي مسلم يدخل بلادهم معاملة المواطن الاصيل في جميع الحقوق والواجبات بصرف النظر عن بلده وجنسه ، ولغته ، فلا يُسأل عن الاذن والجواز ، ولا يمنع من

الاقامة والتجارة ، فكان المسلم الهندي والتركي والعربي والفارسي ينتقل بملء ارادته حيث شاء من البلاد الاسلامية ودولها ، ويتمتع بجميع الحقوق السياسية والمدنية ، وايضا عليه واجبات متساوية مع المواطن الاصيل ، وللحاكم أن يجبره على حمل السلاح والدفاع عن الرعايا المسلمين ما دام في بلدهم .

وبكلمة : ان الدين أوسع من القوميات وسائر الاتجاهات ، بخاصة الاسلام ، لانه انساني عالمي : « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ــ ٢٨ سبأ » .

اما الدولة أو الوحدة العربية فهي تامة الاسباب والعوامل من كل وجه ، فالارض واللغة والمصالح واحدة ، والتاريخ والتراث والاصل والاقتصاد واحد ، وكل مسائل الحياة العربية وشؤونها يجمعها رابط واحد . وفوق ذلك كله الكيان الصهيوني الاسرائيلي في فلسطين الذي هو شوكة دامية في قلب كل عربي ومسلم ، فاذا لم توحدهم هذه الكارثة العاصفة القاصفة فلا شيء يوحدهم على الاطلاق .

وبعد هذا التمهيد نجيب عن السؤال السابق : لماذا لا يتعاون المسلمون والعرب الخ ، نجيب بأن مقومات التعاون والتضامن موجودة ، كما أشرنا ، وهو في صالح الجميع ، والقوى الوطنية المخلصة تدركه وتسعى له سعيها ، وبخاصة في البلاد العربية .. ولكن هذه القوى تصطدم بقوى محلية مضادة عميت أو تعامت عن رؤية الواقع ، وحاولت جاهدة وبكل سبيل ان تشيع اليأس والشك في نفوس العرب والمسلمين ، وتحطم ثقتهم بقوتهم وبكل قوة في الارض والسماء الا بقوى البغي والاستعمار وحدها .. ومن ثم يتعين ارضاؤها بأي ثمن .

وكلنا يعلم ان الولايات المتحدة فقدت صوابها في فيتنام ، ولم تحقق

الاسلحة المتقدمة ، والجيوش النظامية ، والاساطيل الضخمة ــ شيئا من أهدافها ، لان ارادة الانسان ــ اذا صدق فيها ــ اقوى من كل سلاح حتى التفجيرات النووية .. والانسان واحد بطبيعته اينما كان ويكون . والذين يشيعون اليأس في النفوس ، ويستهينون بالانسان وارادته هم السبب الاول والاخير لكل مشكلة وهزيمة ، وهم الطابور الخامس الذي يعمل جاهدا على تفريق الصفوف ، وتعميق الاحساس بالعجز عن مجابهة العدو ، وشل أية حركة تهدف الى التحرر والتقدم .

هنا تكمن محنة العرب والمسلمين ، تكمن في جهاز من الداخل يتلقى الوحي من الخارج ، وينفذه بأمانة وبراعة .. وقد لاقى العالم الاسلامي والعربي من هذا الجهاز العميل ــ ما أرهق حياته ، وقضى او كاد على حقوقه ومقدساته .. وعلينا ان نذكر هذا الجهاز قبل ان نذكر امريكا واسرائيل ، وان نعرف كل واحد من افراده ، وتتخلص منهم جميعا ، ونعمل على تصفيتهم .

واذا لم نفعل فسوف نظل أذلاء نتسول العون من روسيا وامريكا ، والعطف من العالم ، والقرارات من المجتمع الدولي التي تتراكم في سلة المهملات . أبدا لا احد يجلب لنا نفعا ، او يدفع عنا ضرا ما دمنا نحن لم نصنع لانفسنا شيئا ، ولا يمكن ان نفعل ونصنع اي شيء ما دام فينا عميل ومأجور نتجاهله ونسكت عن خيانته ، فكيف اذا صفقنا له وحملناه على الاكتاف ؟

علامات المخلص والخائن :

وتسأل : بأي شيء نميز الجهاز الذي يغزونا من الداخل ، ويمهد للغازي من الخارج ؟ وما هي علامته الفارقة مع العلم بأن كل واحد من أفراد هذا الجهاز مغلف بعلاف خادع ماكر ؟ فهذا يتستر باليسار

والاشتراكية ، وذلك بالوطنية والقومية ، وثالث بالدين والانسانيه . الى كثير من ألوان التدليس والتلبيس .

الجـواب :

لكل من المخلص والخائن علامات تدل عليه . ومن علامات المخلص أن يصبر ويتحمل المتاعب القاسية في سبيل مبدئه وعقيدته ، وان يؤثر الحرمان وأنوان التنكيل والتعذيب على الدنيا بكاملها مع التنازل عما يدين ويعتقد . وقد وضع النبي الكريم (ص) المقياس الصحيح لكل مؤمن مخلص ، وهو قوله : « والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على ان أرجع عن هذا الامر ما رجعت » . ولما يئس منه الاشرار ، وأصيبوا بخيبة الامل تألبوا عليه ، وراحوا يؤذونه بصنوف الاذى ، وشنوا عليه حرب الدعايات ، وأطلقوا الاشاعات .

واليوم يقوم الاستعمار وأذنابه بنفس الدور ، فينفخون للاضاليل والاكاذيب في الابواق الاذاعية والصحية ضد كل طيب ومخلص، ويحاولون ان يتصدوا له بالضغط في كل شأن من شؤونه .

واذا عرفت علامات الطيب المخلص فقد عرفت علامات العميل الخائن « وبضدها تتبين الاشياء » كما قال المتنبي ، تغدق عليه الصحف المأجورة المديح وصفات المعصوم ، وتدق له الاجراس المشبوهة وتهلل ، وتفتح له صناديق السفارات والشركات ، وترحب به الدوائر الرسمية التي لها مخطط معين .

والى ذلك تشير الآية ١٢٠ من سورة البقرة : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » . وبالاولى الاستعمار وأذنابه . والخطاب في الآية لمحمد (ص) ومعناها منطوقاً ومفهوما ان درجة المرضي

عنه عند أعداء الدين تقاس بمدى التبعية ومقدارها ، فكلما اغرق المرضي عنه في البعد عن محمد (ص) وشريعته ، وأوغل في الملة المضادة وأطاع أوامرها ـ ارتفعت درجة الرضا عنه ، وازداد دق الاجراس له والثناء عليه !. وهنيئاً لمن يحظى بسخط اعداء رسول الله ومبادئه وتعاليمه ، لان هذا السخط شهادة بالاخلاص وحسن السلوك ، وعلو القدر عند الله سبحانه . وكفى به ولياً .

نوع الاتفاق والتضامن :

منذ ربع قرن وُجدت الجامعة العربية الحكومية .. وفي ظلها تراكمت الويلات على العرب !ـ وكفى بالدولة الصهيونية وبالا ونكالا .. ثم وُجد حلف بغداد ، وخصصت دوله الاسلامية نصف ميزانيتها لضرب الحركات الوطنية ، والنصف الآخر لبناء السجون والمعتقلات ، وعاشت شعوبها في البؤس والفقر !.. والان ماذا يراد بالدعوة الى الاتفاق والتضامن بين دول الاسلام ـ من جهة ، وبين الدول العربية من جهة ثانية ؟ . هل يراد تكوين حلف بغداد جديد ، وجامعة عربية جديدة ؟

الجـواب :

نحن لا نيأس ، وان عظم الخطب ، كيف واليأس امضى سلاح بيد العدو ، وأقوى عوامل الضعف والعجز ؟. وهل نيأس وقد رأينا الكثير من الشعوب تنهض من تحت الهدم والركام ، وتسير في الطليعة ؟ ونبخس أنفسنا والانسانية حين نتكلم بلغة العقم واليأس . واذن فالخلاص ممكن وقريب ، اذ لا وجود للحتمية في الشؤون الانسانية ، والشرط الاساسي لخلاصنا مما نحن فيه ان نهتدي الى الطريق اي الى الاتفاق الذي يقضي على مطامع الطامعين ، لا الى اي اتفاق يكون ، حتى ولو على غرار حلف بغداد أو حلف السنتو .

وحدد بعض الكاتبين الاتفاق المطلوب « بانشاء مجلس اسلامي يهدف الى مساهمة المسلمين في رفع مستوى الانسان » كما في جريدة « الجمهورية » تاريخ ٣ ــ ٨ ــ ١٩٧٣ . وقال آخر : بل يجب « انشاء جامعة عربية شعبية تقوّم المعوج من الجامعة العربية الحكومية » كما في مجلة « المصور » تاريخ ١٧ ــ ٨ ــ ١٩٧٣ .. وكل من هذا وذاك فكرة مجردة ، وكلام خال من التفصيل والعناصر .

وخير ما قرأت في هذا الباب مشروع قدمه الدكتور عبد العزيز كامل في الملتقى الاسلامي المنعقد بالجزائر في الشهر السابع من سنة ١٩٧٣ . ويتألف من امرين :

الاول : انشاء جهاز عسكري من قيادات جميع الدول الاسلامية يضع في دستوره أن العدوان على أية دولة اسلامية يعد عدوانا على جميع الدول الاسلامية التي يجب عليها عندئذ ان تتضافر على رد هذا العدوان بكل ما تملك من قوة ومن رباط الخيل اي الدبابات والطائرات والصواريخ » .

الثاني : « انشاء جهاز اقتصادي تموله جميع الدول والشعوب والمجتمعات الاسلامية ، مهمته اقامة سوق مشتركة على صورة أوسع من السوق الاوروبية المشتركة بحيث يحقق التكامل الاقتصادي والتطور الزراعي والصناعي والتكنولوجي بين الدول الاسلامية الى ابعد مدى . واستغلال رؤوس الاموال الاسلامية داخل دول هذه السوق بدلا من تكديسها في بنوك الخارج او تحويلها للاستثمار في الدول الاخرى» (١) .

وليست هذه الفكرة مجرد خيال ، ولا هي بعيدة المنال ، بل هي

---

(١) عن المصور المصرية تاريخ ١٠-٨-١٩٧ .

محددة وواضحة ، وممكنة وضرورية ، تحمي الجميع من العدوان ، وفي الوقت نفسه تمهد لهم الطريق الى الرخاء ورفع مستوى الحياة .

وبعد ، فان نتيجة التجربة التي نؤمن بها هي ان مجرد المظاهر والشعائر الدينية لا تجمع بين المسلمين ، ولا تعبر عن وحدتهم وتجعلهم أمة واحدة حتى ولو اختفت الفوارق الطائفية والمذهبية من بينهم ، وانما الجامع حقا وواقعا هو ان يهتموا بالاسلام ، ويدافعوا عنه ، ويضحوا من أجله بكل غال وثمين ، كما فعل الصحابة والتابعون لهم باحسان ، ومتى تحقق هذا الاهتمام وهذه التضحية كانوا جميعا أمة واحدة على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم .

وأحسب اني لا اخطىء القصد اذا قلت ان المراد بالعبادة في قوله تعالى : « ان هذه أمتكم أمة واحدة وانا ربكم فاعبدون ــ ٩٢ الانبياء » المراد بـ « فاعبدون » الاهتمام بدين الله ونصرته واعزازه ، وانه لا تقوى ولا عبادة الا مع هذا الاهتمام .

الدفاع عن الدين
في المؤتمرات الاسلاميـة والمسيحيـه

النجــــاح :

الفلاح الناجح هو الذي يحصد ما زرع ، والتاجر الناجح من ربحت تجارته ، والتلميذ الناجح من نال الشهادة بعد الامتحان .. وكل من واجه موقفا عصبيا وصمد له وبحث عن اسبابه وعالجها بحكمة ورويـــــة ـ بتجاوزه بنجاح . والدعاة الى الدين يواجهون اليوم اعراض الجيل ء٬ه وعنهم . ولقد حاولوا البحث عن الاسباب وعلاجها ، فعقدت المؤتمرات الاسلامية ، والمؤتمرات المسيحية لهذه الغاية ، وما اليها .

تتبعت في الصحف أخبار هذه وتلك ، فوجدت المسيحيين يقابلون مشكلة العصر بفكر العصر ، اما المسلمون فيخطبون في مؤتمراتهم بحرارة ولكن بعبارات جاهزة وكليشات ثابتة لا تغني من جــوع .. وفيما يلي نعرض ــ على سبيل المثال ــ مؤتمرين فقط : احدهما أسلامي والآخر مسيحي ، لان المقام لا يتســع للمزيد ، وللقارىء ان يستنتج منهمـا كما يشاء .

المؤتمر المسيحي :

جاء في مجلة « روز اليوسف » تاريخ ١٢ ــ ٦ ــ ١٩٧٢ : عقــد

في شيلي خلال الشهر الماضي مؤتمر ضم اكثر من ٤٠٠ مندوب يمثلــون ٢٨ دولة بعضهم بروتستانت ، والبعض الآخر كاثوليك ، ومنهم المبشر ورجل اللاهوت والراهبة .. واعلن المجتمعون ان الاجنحة المتحررة في الكنيسة أحسوا بأن المستضعفين من أتباعها أوشكوا ان يتخلوا عنهـا . وينضموا الى الجماعات الثورية ، ورجال حرب العصابات ، لانها تقف الى جانبهم ، بل وتضحي من أجلهم بحياتها ، كما فعل جيفارا .

ثم اتفق المشتركون في المؤتمر على ضرورة التحليـــل الاجتماعي والاقتصادي لتحويل المجتمع بالطرق السلمية الى ما يحقق سبل العيش والحياة للجميع ، ويقضي على الاستغلال والفقر وكبت الحريات عـلى اساس الايمان بالله واليوم الآخر ، لا على النظرية الفلسفية الماركسية .

الانبياء والمستضعفون :

وهذا الاسلوب لا يصطدم مع دين الله الذي يستهدف العدالــة الاجتماعية وخير البشرية ، بل هو منه في الصميم .. وكل الانبياء وقفوا الى جانب الفقراء والمستضعفين ، وانتصفوا لهم من الطغاة المترفين الذين أطلقوا العنان لغريزة التملك والسيطرة بالظـلم والغش والحرب التي اعلنوها على كل نبي ومصلح وناطق بكلمة الحرية والعدالة ، كما قــال سبحانه : « وما أرسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما ارسلتم به كافرون ٣٤ ـ سبأ » . وليس من شك ان الشيوعية لو كانت معروفة في عهد الانبياء لاتهم بها المترفون كل نبي ووصي .

وفي فصل « الاسلام والحياة » أشرنا الى انه تعالى عرّف البسطاء بذاته القدسية عن طريق التذكير بنعمه ، كقوله : « أرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ـ ٦٤ الواقعة » . وقوله : « فليعبدوا رب

هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » . فربط العبادة بجانب اقتصادي بحت .

وقلت في مكان آخر ، وأنا أتحدث عن الدين والانسان : ان علماء الطبيعة المسيحيين يعقدون المؤتمرات ، ويتدارسون وضع العلم في خدمة الدين ، ويعطون الخبرة العلمـية لرجال دينهم كي يحولوها الى عظات ومؤلفات دينية .

المؤتمر الاسلامي :

جاء في جريدة « الاخبار المصرية » تاريخ ٨ ــ ٩ ــ ١٩٧٢ : يبدأ غداً المؤتمر الاسلامي السابع في القاهرة ، ويشترك فيه مئة من كبار علماء المسلمين . ومن ابحاثهم : المجتمع المثالي في الاسلام ، وكيف يتكـون المسلم ؟ والجدل القرآني ، والتأمينات .. الى امثال ذلك . وفي المصور تاريخ ١٧ ــ ٨ ــ ١٩٧٣ ان أحد الشعراء ألقى في الملتقى الاسلامي السابع في الجزائر ثلاث قصائد ، وألقى شاعر آخر العديد من قصائد اليـاذة الجزائر ! ولا ادري : أهذا ملتقى اسلامي أم سوق عكاظ ؟

وفي مجلة « الهلال » المصرية ــ اكتوبر تشرين الاول ١٩٧٣ ــ كلمة بعنوان « كيف نرقى بالتشريع المعاصر الى روح الشريعة الاسلاميـة » للسيـد الرئيس الرسمـي للمجلس الاسلامـي قالهـا فـي المؤتمـر السابـع المنعقـد في مدينـة تيـزي اوزو بالجزائـر يوليـو تمـوز ١٩٧٣ . واكـد فيهـا على امرين : و لااناقشـه في شيء ان اراد التعبير عن رأيه الخاص ، أما اذا كان قد تكلم في المؤتمر باسم الشيعة الامامية فمن واجبي ــ كعالم ديني مسؤول من علمائهم ــ ان اكشف عن الحقيقة فيما يعتقدون ، تأدية لحق الامانة .

الامر الاول من الامرين قوله : الغيب هو الاساس للدين ــ بوجه

التعميم ـ حتى الاجتهاد موضوعه غيب وانتماء الى السماء . وفي ذلك يقول من جملة ما يقول : « الغيبية في اساس الحكم الديني هي سبب القداسة والخلود والاخلاص ... وان الاجتهاد نظرة الى الارض ضمن الاطار الغيبي المطلق السماوي للحكم .. الاجتهاد انتماء الى السماء » ! .

يا سبحان الله .. أهذه هي فلسفة الشريعة الاسلامية ؟.. مطلق وغيب .. واجتهاد سماوي .. وقداسة وخلود ؟ ولماذا هذه التمائم والطلاسم ؟ والاسلام سهل يسير « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون ـ ٣٠ الروم » .

ان قضايا الشريعة الاسلامية على أنواع ، منها ما يدل عليه العقل بمعونة الحس كوجود الله سبحانه الذي دلت عليه آثار قدرته وعجائب حكمته . قال سبحانه : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ـ ٥٣ فصلت » . ولا اثر للغيب في اثبات اصل وجوده تعالى ، لان نفس الشيء لا يكون برهانا على صحته .

ومن هنا اتفق الشيعة الامامية على ان النظر لمعرفة وجود الله يجب بالعقل لا بالسمع ، وان كل آية او رواية وردت في هذا الباب فهي ارشاد وتوكيد لحكم العقل ، لا انشاء وتأسيس ... وكيف يكون الاجتهاد انتماء الى السماء والغيب موضوعا للرأي والنظر ، وهو لله وحده : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ـ ٥٩ الانعام » .. « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا الا من ارتضى من رسول ـ ٢٦ الجن » .

ومنها ـ أي قضايا الاسلام ـ ما يعود نفعه علينا في الحياة الدنيا كالمعاملات التي تنظم علاقة الناس بعضهم مع بعض . وهذا النوع أيضاً

لا أثر فيه للغيب لاننا نعيشه ونمارسه بالفعل ، وموقف الدين منه موقف المهذب للسلوك لا موقف الموجد والمبدع .

ومنها غيب محض وهو الذي لا يدرك بالحس ولا يكشف العقل وجوده من الافعال والآثار ، وانما يعتمد وجوب الايمان به على الوحي مباشرة وعلى العقل بالواسطة كحساب القبر ووجود الجن والملائكة وهذا النوع هو الذي دعانا القرآن الى الايمان به عن طريق الوحي فقط لانه لا يعرف الا عن هذا الطريق .

واذن فطابع الغيبية لا يعم جميع قضايا الاسلام ، والا كان الاسلام في معزل عن العلم والعقل والحياة ، كيف وهو دين العلم والحياة ؟ والرسول الأعظم (ص) قد رسم الخط العريض للاسلام بهذا الحديث : « اصل ديني العقل » والقرآن الكريم طالبنا في العديد من آياته بالتفكير والاعتماد على العلم ، وربط دعوة الله والرسول بالحياة الطيبة ، كما في الآية ٢٤ من سورة الانفال : « استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم »

وبعد ، فان القيم الاسلامية ليست غيبية ، ولا معاني مجردة كمثل افلاطون ، وانما هي ذات آثار ايجابية تقاس بما ينتفع به الفرد والجماعة .

اما الامر الثاني الذي اهتم به السيد في كلمته المنشورة بمجلة « الهلال » فهو الذي اكده بقوله :

«يمكن تطوير صور الزواج وشروط الطلاق وادخال تعديلات واسعة في قانون الاحوال الشخصية ، فالزواج اقترح الاسلام له صورة اصلية هي المتعارفة بين المسلمين ويمكن وضع صورة جديدة من خلال وضع شروط ضمن العقد تحد من استرسال الرجل في الطلاق وعند الامتناع عن الطلاق .. فاذا ذكر في عداد الشروط ان الزوج اذا أراد ان يطلق

دون مبرر صحيح فعليه ان ينفق على المطلقة ما دامت غير متزوجة ، وعليه أن يدفع مبلغا كبيرا » .

ولا أدري : لماذا اختار التطوير والتوسعة في الاحوال الشخصية بالخصوص ، وفي الزواج والطلاق بصـورة أخص ؟.. مع ان ميـدان الاجتهاد في غيرهما من العقود والموجبات اوسع بكثير ، كالبيع والايجار بل والوقف والتماثيل ، كما أشرنا في فصل « الفقهـاء والتجديـد » . واستثنينا الزواج والطلاق لان ألفاظهما عندنا نحن الشيعة الامامية لا يجوز فيها التعديل والتبديل تماما كألفاظ القرآن الكريم ، والشروط فيهما محدودة في نطاق أضيق من نطاق غيرهما من الموجبات والعقود .

ونفس السيد المتكلم يؤمن بهذه الحقيقة حيث أعلنها بقوله : «اقترح الاسلام للزواج صورة أصلية هي المتعارفة لدى المسلمين » .. ولكنه بعد هذا الايمان والاعتراف قال بلا فاصل ولا تحفظ : « ويمكن وضع صورة جديدة للزواج من خلال وضع شروط ضمن العقد » .

ونتساءل اذا اقترح الاسلام للزواج صورة معينة وأصلية فكيـف يسوغ أن نبتدع له صورة جديدة حتى ولو كانت من خلال شروط ؟ وهل معنى هذا في واقعه الا : قال الاسلام وأقول بضده ؟ وكيف نؤمن بالاسلام ثم ننكر الالتزام بما يقترحه من أشياء أصلية ؟ والعاقبة لمن اتقى .

وأخيرا من حق كل مسلم أن يسأل رجـال المؤتمر الاسلامي في الجزائر وغيرها : لماذا لم يبحثوا الطرق السلمية التي تيسر العيش والحياة للجميع ، وتقضي على المظالم المتراكمة في هذا العصر ــ كما فعل المؤتمر المسيحي ــ بالاضافة الى ما اهتموا به من ابحاث وقصائد ؟ وهل يأبى الاسلام الكفاح ضد الظلم ، أو لا يليق هذا بمقام كبار العلماء ، لانـه

رجس من عمل السياسة ، او هناك سر يقبح التصريح به ؟ ان العلماء والحكام وأرباب المال ، الكبار منهم والصغار — لا يستطيعون ان يفعلوا شيئا الا اذا تعاونوا مع الغالبية العظمى التي تتكون من الفقراء والمساكين وعملوا يدا واحدة من اجل المساواة بين الجميع في الحقوق والواجبات.

حول المؤتمر السابع لعلماء المسلمين في القاهرة :

نشرتُ بهذا العنوان كلمة في جريدة « النهار البيروتية » تاريخ ١٥ — ٩ — ١٩٧٢ ، ولكنها كانت صرخة في واد انسجاما مع المؤتمرات الاسلامية ، وهذا نصها :

للمرة السابعة ينعقد المؤتمر الاسلامي في القاهرة . واذا عطفنا هذه السبع على اخواتها في السعودية وليبيا والمغرب والجزائر لرأينا نموا مستمرا وسريعا في هذا الميدان . ولكن — يا للاسف — اذا التمسنا الثمرات والنتائج العملية لهذه التحركات مجتمعة وجدناها تماما كضم صفر الى صفر ، لا يخرج منه اي شيء ايجابي .

والنتيجة العملية التي يترقبها كل عربي مسلم من هذا المؤتمر وامثاله هو ان يرى بادرة خير ، وبارقة أمل في أن أمنه وزمامه وجيشه المخلص المجاهد في يد القادة الاكفاء ، لا في يد الضعفاء والاتباع ، وان مصيره ومستقبله في ارادة شعبه وامته لا في ارادة موسكو وواشنطن ، او مجلس الامن او الخمسة الكبار . ان العدو يستهتر بجيوشنا ودولنا ويقابلها بخشونة وازدراء . فهل يرضى العلماء المسلمون ان تستهتر الفئة الباغية بهم ايضا ، وتسخر منهم ومن تجمعاتهم وقراراتهم ؟

اننا نتساءل لماذا لا يصدر علماء المؤتمر نداء يحرمون فيه البضائع والسلع الامريكية شراء واستعمالا ، كما فعل غاندي من قبل في مقاطعته

السلبية ضد الانكليز ؟ وهل صاحب « العنزة » اكثر اخلاصا لوطنه وامته من علماء المسلمين لدينهم ووطنهم ؟ وهل يجهل علماء المؤتمر ان الولايات المتحدة هي أساس الداء والبلاء ، وان نداءهم هذا له وزنه وأثره ، وخصوصا اذا بذلوا سعيهم لكي يوقع النداء ايضا كل عالم في كل قطر ، وتطوعوا لتنفيذه والعمل به زرافات ووحدانا .

ومما يوجع ويفجع أن اسرائيل تشدد وتكرر عدوانها على سوريا ولبنان ، وتقتل الابرياء والنساء والاطفال في الوقت الذي يعقد المؤتمر السابع لعلماء المسلمين في بلد قناة السويس ، وبالقرب من جيوش العدو المرابطة على ضفة القناة .

هذا وعلماء المسلمين في شغل شاغل « بالبحث عن المجتمع المثالي والجدل القرآني ، والتأمينات ، وصندوق الادخار ... » الى آخر ما جاء في الجريدة .

أبهذا يا أصحاب الفضيلة تغيظون اسرائيل ، وتنتقمون من الولايات المتحدة ، وتنقذوننا من اليأس والقنوط والذل والهوان ؟ وهل هذا هو واجب العلماء الوحيد الآن فقط لا غير يا حملة القرآن ؟

وكنت قد أرسلت برقية الى المؤتمر الخامس ، ناشدت فيها الرئيس والاعضاء ان يتدارسوا المقاطعة السلبية للسلع الامريكية ... ولكنهم غضوا الابصار ، وختموا على الآذان .. اللهم رد علينا غربتنا ، وعرفنا بمن يسمع ويبصر من علمائنا ، ويزهر ويثمر من حكامنا .. انك حميد منان .

حوار مسيحي شيوعي :

ومن الخير ان نشير بهذه المناسبة الى ما يلي :

« جان دانييلو » متبحر في علم اللاهوت المسيحي ، وكان نائبا

ووزيرا في فرنسا ، ومطرانا ايضا ، وفي سنة ١٩٦٩ رسمه البابا كردينالا . و « روجيه جارودي » فيلسوف ماركسي ، وايضا كان نائبا في فرنسا وعضوا في الحزب الشيوعي الفرنسي ، ومديرا لمركز الدراسات والابحاث الماركسية وبروفسورا في جامعة « بواتي » . وجلس الاثنان وجها لوجه للحوار والمناظرة حول الدين والانسان ، وكان ذلك في باريس ، وعرض هذا الحوار التلفزيون الفرنسي ، ثم التلفزيون اللبناني .

ونشرت جريدة « النهار » في الملحق الاسبوعي بتاريخ ١٠ ــ ١ ــ ٧١ • ونلخصه هنا بشيء من التصرف في الشكل دون المضمون بقصد التوضيح . وتجدر الاشارة الى ان الحزب الشيوعي فصل جارودي من عضوية الحزب بعد هذا الحوار بلا فاصل .

قال الكردينال : ان تعاسة الانسانية وكآبتها كبيرة في هذا العصر ، وانا مع كل كفاح ضد كل ما لا يتحمل ، ولكن هذا الكفاح بعض ما يجب على الانسان ، وعليه واجب آخر نحو خالقه .

قال الفيلسوف الماركسي : ان في عالم اليوم معارك ، واضرابات نقابية ، وحركات طلابية ضد الظلم والاستغلال ، لذلك أعتبر ان العالم سيىء ، ويجب ان يتغير .

قال الكردينال : يجب أن لا نحصر الحياة في اتجاه واحد ، بل نسير في اتجاهين : الاول الكفاح من اجل العدالة والسلام . والثاني لقاء الانسان مع الله . علينا ان نؤمن بحرية الانسان وتحريره ، ولكن الحرية اذا خرجت عن اطار القيم تؤدي الى مأساة العالم ، ومن هنا كان طغيان المال والفساد في الغرب ، والطغيان الجماعي على الفرد وحريته في العالم الشيوعي .

قال الماركسي : كأنك ترى ان المسيحي لا يكون مسيحيا حقا الا اذا دافع عن الرأسمالية ، وانه اذا حاربها ورفضها يخرج عن دينه ومسيحيته ! ان الانتاج يزيد ويتضاعف ، وراتب العامل والموظف يبقى كما هو ، والامراض تنتشر في بيئة الفقر ، ولا سبب الا النظام الرأسمالي . ان الحرية تبدأ مع الراتب واوقات العمل . ثم قال جارودي : الرأسمالية يجب رفضها من الاساس ، أما الشيوعية ففيها عيوب يمكن الخلاص منها.

قال الكردينال : أما أنا فعلى العكس، أرفض الشيوعية من الاساس، لانها ملحدة ، ونظريتها الاقتصادية غير منسجمة مع الواقع ، اما الرأسمالية ففيها عيوب يجب التخلص منها . ثم قال الكردينال : يعجبني من ماركس قوله : « لا تستطيع ان تكون حرا طالما الضعيف يستغله القوي ، فالحرية اما ان تكون للجميع ، واما ان لا تكون » . ولكن الحرية جماعية كانت أو فردية ما هي بشيء الا مع الايمان بالله ، ومن هنا فالحضارة الشيوعية غير انسانية ، لانها لا تؤمن بالله .

ونعطف على قول الكردينال : الايمان بالله وعدله حقا وواقعا يلزمه حتما الايمان بالانسان وخدمة الانسان ، ويستحيل الجمع بين الايمان بعدله تعالى واباحة الاعتداء على الانسان وهدر حقوقه وكرامته .. ولو ان الشيوعيين انطلقوا من الايمان بالله الى خدمة الكادحين لوجدوا الجوامع والكنائس تحارب معهم في جبهة واحدة من أجل العمال والبائسين بدلا من ان تعلن الحرب عليهم لاجل الكفر والالحاد .. ومعنى هذا ان الشيوعية اساءت الى نفسها والى الكادحين من حيث ارادت لهم النفع والخير .

وبعد ، فلا جديد في هذا الحوار ، ولكنه نموذج من النماذج العليا في اسلوب المناظرة الحكيم الهادىء، فلقد تصافح الرأيان وتبادلا الاحترام

على ما بينهما من اختلاف .. أبداً لا غلظة ولااستهانة بالرأي المخالف تماما كرفيقي سفر يتقاسمان الحديث والتجارب التي مرت بكل منهما ، ولهذه الغاية عرضنا هذا الحوار ، عسى ان ننتفع به ، وتتسع صدورنا لمن يجادل في الله واليوم الآخر ، كما هو شأن العلماء الذين يستهدفون حل المشكلات وفصل الخصومات .. وهكذا أدبنا القرآن الكريم :

« وجادلهم بالتي هي احسن ان ربك اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين ــ ١٢٥ النحل » .

الأخلاق عند الامام علي

لعلي شيعة من كل دين :

قال لي الطبيب المخترع الشهير ابراهيم داغر : كيف انت وعلي بن ابي طالب ؟.. ولا بدع ان يحب علياً والحديث عنه اريحي موهوب كالطبيب داغر الذي يشعر بالسعادة من اعماقه حين يرى الملهوفين والمتألمين يتمتعون بثمار موهبته وعبقريته ، ولا يقيس سعادته بما يمتلك من رصيد في البنوك والمصارف .

وهكذا يحب علياً ، ويلتقي مع شيعته في الولاء له ــ كل من يسخو بالعطاء لاخيه الانسان من نفسه او علمه او ماله من اي دين كان ويكون .. فينصر مظلوما ، او يشفي عليلا ، او يغيث محتاجا لوجه الله لا يبتغي جزاء ولا شكورا تماما كما فعل علي بن ابي طالب .

سألني الدكتور المشهور هذا السؤال ، وكنت آنذاك اشرح نهج البلاغة (1) قلت له : ان كان علي بشراً فما نحن من البشر في شيء ، وان كنا نحن بشرا فهو فوقنا من غير شك .. ولا يعني هذا انه اله او نصف اله . فمن الجائز ان يكون مخلوقا فريدا في عالمه .

---

(1) صدر في اربعة مجلدات اول صيف ١٩٧٣ باسم « في ظلال نهج البلاغة » .

أجل ، ان علياً بشر مثلنا ، له عقل ودين وعاطفة وغرائز ، ولكن الغريزة فينا قد تتجاوز الحدود ، وتعرضنا الى الجموح والشذوذ ، والعاطفة قد تقودنا الى الطغيان والانانية الباغية .. اما الدين والعقل فوظيفة كل منهما تنحصر في التشريع والنصح والارشاد ، ولا اثر اطلاقا من حيث العمل للحكمة والنصيحة عند الغالبية العظمى من الناس الا اذا وافقت الهوى والغرض ، وعندئذ تكون تماما كالحجر الى جنب الانسان، فاذا اصطدم الدين او العقل مع المصلحة العاجلة الزائلة انزلناه عن عرشه ، وعدلنا به عن وظيفته ، واتخذناه ذريعة للتدليس والتمويه ، واداة لتدبير المكر والخداع واحكام المؤامرات والحيل التي نبلغ بها ما نريد .

هذا هو شأن افراد البشر : بواعث وزواجر من الداخل ، يتغلب عنصر الشر منها على عنصر الخير .. وايضا عوامل ومؤثرات من الخارج نستجيب لها من حيث نريد او لا نريد . ومن هنا نادى جماعة بالتحرر كلية من الدين والقيم ، والانطلاق مع العاطفة والغرائز بلا صراع ونزاع من الداخل ، وبحصر العقل في مجال العلم والكشف .

ولا تناقض وصراع بين عقل الامام وعاطفته ، ولا بين دينه وغرائزه، لا شيء الا الوئام والانسجام ، بل لا كثرة وتعدد ، فعاطفته هي دينه ، وغرائزه هي عقله . وعلى حد قول اديب كبير : « الدنيا عند علي هي الدين ، والدين هو الدنيا » ومعنى هذا ان الامام لا يضطر الى كبح عواطفه وقمع شهواته اذا هي مالت الى الشر ومخالفة الدين ، لان هذا الغرض يستحيل في حقه ، وايضا معنى هذا ان الدين عند علي ليس مجرد فكر ونظر ، بل عزما وتنفيذا .

اما الظروف والاوضاع الخارجية فعلي فوقها ، يؤثر بها ولا يتأثر ، ويغيرها ولا يتغير ... شيء آخر يفترق الامام به عن غيره ، وهو شغله الشاغل عن نفسه وذويه بهموم المنكوبين واحزانهم .

هذي بعض الفروق بين علي ومعظم الناس . وكفى بها دليلا على انهم ليسوا من عالمه ، ولا هو من عالمهم في شيء .

الناس معادن :

قد ترى اخوين لام واب نشآ في حجر واحد ، وتخرجا من مدرسة واحدة ، ومع ذلك يسمو احدهما بذكائه وموهبته الى منزلة العباقرة والمبدعين ، ويهبط الآخر بقصوره وبلادته الى مرتبة البهائم .. فما هو السر يا ترى ؟ وهل يعود الى التفاوت في شخصية الفرد وصفاته النفسية والعقلية ، او الى تركيب الجسم والدماغ ؟

ولكن الرياضي العالمي اينشتين أوصى بأن يتولى اهل الاختصاص تشريح دماغه بعد موته ليروا : ان كان يختلف عن ادمغة الآخرين ، ولما فعلوا لم يجدوا أي فرق بينه وبين سواه من الادمغة .. واذن فالعبقري نتاج شخصيته وما في نفسه من قوى ، لا نتاج جسمه وشكله ، او بيئته ومجتمعه ، بل قد يقضي المجتمع والبيئة على الذكاء والموهبة ، والعبقري او الموهوب لو القي في الصحراء الجرداء لأمكن ان يأتي بشيء يعجز عنه وهو في مجتمع جاهل متخلف .

أحكام الاخلاق والعادات :

موضوع الحديث في هذا الفصل يدل عليه عنوانه « الاخلاق عند الامام » . ولكن كثيرا ما يحدث الخلط والاشتباه بين العادات ومبادىء الاخلاق حتى ان بعض الفلاسفة أنكروا ان تكون الاخلاق قيمة حقيقية، وقالوا : لا وجود لها في سلوك الانسان وتصرفاته بأي نحو من الانحاء ، لانها تختلف من فرد الى فرد ، ومن مجتمع الى مجتمع ، ومن هنا لم يكن للاخلاق مقاييس ومعايير ! ولو انهم ميزوا بين مبادىء الاخلاق وبين العادات لنجوا من هذه الغلطة والورطة .

وعلى أية حال فان العادة تختلف عن مبادىء الاخلاق من وجوه منها:

١ ــ ان المبدأ الخلقي كالصدق والعدل ــ عام وثابت يصلح لكل مجتمع ، وفي كل زمان ومكان ، لا يتعدد او يتجزأ ، وانما التعدد في التطبيق والافهام ، اما الخط العريض فواحد .. والعادة قد تختص بالفرد ولا تعني أحدا سواه كالتدخين وهواية نوع من الالعاب ، او تختص بفئة او قبيلة أو طائفة أو شعب بأكمله كالمجاملات في الافراح والاتراح ، وغير ذلك .

٢ ــ ان العادة مصدرها الشعور والانفعال ، او الدين والوراثة ، او العرف والبيئة ، وما الى هذه . اما الاخلاق فلا ترتبط بشيء من ذلك ، فان كثيرا من الناس يلتزمون الاستقامة في سلوكهم لا لشيء الا لانها خير وحسنة في طبيعتها ، ويأبون ان يربطوا تصرفاتهم بأي شيء آخر .

٣ ــ ان احكام الاخلاق كلها صالحة نافعة ، لانها تهدف الى كمال الفرد وخير المجتمع ، اما التقاليد والعادات فمنها الضار والنافع ، ومنها ما وجوده كعدمه .. ومن سار مع التقاليد بلا روية وتمييز بين ما يضر وينفع وما يجوز ولا يجوز فهو محاسب ومسؤول ، لان مجرد العادة لا تبرر الخطيئة وتجعل السيىء حسنا ، قال سبحانه : « واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا او لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ــ ١٧٠ البقرة » . ومعنى هذا ان الاقتداء بالعقلاء المهتدين خير وفضيلة . وقال الامام بعد ان نهى عن التعصب : « فليكن تعصبكم لمكارم الخصال ومحامد الافعال » .

وبهذا يتبين معنا ان التقليد والعادة لا يتصفان في ذاتهما بخير او شر ، بل يتبعان طبيعة الفعل المعتاد ، او من اقتدي به ، ان خيراً فخير ،

وان شرا فشر ... واكثر الناس مقلدون حتى علماء الطبيعة ، واحد منهم يجرب ويدون تجربته العلمية ليتلقاها من جاء بعده من العلماء وكذلك الاطباء . وعلم التاريخ كله تقليد الا المؤرخ الذي رأى وشاهد ، وكذلك علم الحديث الا الذي سمع من المعصوم مباشرة وبلا واسطة .

من الذي صنع الاخلاق :

ذهبت مجموعة من الفلاسفة الى انه لا شيء من افعال الانسان ينطوي في واقعه على خير او شر حتى ولو كان الفعل احياء الناس ، او قتلهم جميعا عن قصد وتصميم ، اما قول القائل : هذا الفعل شر وذاك خير فانه يدل على ذوقه الشخصي وشعوره الخاص تماما كما لو قال : هذا النوع من التبغ ألذ من ذاك .

واستدلوا على فلسفتهم هذه بأنهم ما رأوا للخير او الشر لونا ، ولا سمعوا له صوتا ، أو شموا له ريحا ، أو ذاقوا له طعما ، او لمسوه بيد (1) .

ونسأل هؤلاء الفلاسفة : هل فلسفتكم هذه نتيجة التفكير والروية ، او هي مجرد ذوق وشعور تماما كالشعور بالاخلاق عندكم ، فان اخترتم الاولى ـ كما هو الحق لان التفكير العقلي يتمثل بالاقوال والافعال لا بالاصوات والالوان ـ قلنا في جوابكم : كذلك قيم الاخلاق تظهر علنا وعلى السطح في الآثار والثمار ، وان اخترتم الثانية فمجرد الشعور والانفعال لا يحتج به على شيء باعترافكم .

وقال الفيلسوف الالماني نيتشه : لا عين للاخلاق في الواقع ولا اثر

---

(1) انظر كتاب خرافة الميتافيزيقا للدكتور زكي نجيب محمود ، فصل نسبية الخير والجمال .

وانما هي من صنع الضعفاء للحد من سيطرة الاقوياء عليهم .. ضاق المعذبون في الارض من استعلاء المترفين وسطوتهم فابتدعوا كلمة العدالة والمساواة والرحمة والشفقة والحب والعطف وعذاب الاشرار يوم القيامة، ابتدع الضعفاء هذه الالفاظ عسى ان يكفوا شر الاقوياء ، ويأمنوا غائلتهم ، ويقضوا على ما لهم من تفوق وامتياز .

وقال ماركس : العكس هو الصحيح ، لان الذين اخترعوا القيم الاخلاقية هم الاقوياء يخدرون بها الضعفاء ، فكلمة الوداعة والاستكانة والمسالمة والصبر والزهد واحتقار المادة ـ صنعها الطغاة حرصا على الوضع والنظام الذي يكفل لهم السيطرة والاستغلال ، والتفوق والامتياز على الضعفاء .

ويلاحظ ان كلا من نيتشه وماركس يثبت وجود الاخلاق في الواقع من حيث يريد نفيها وانكارها دون ان يحس ويشعر ، فنيتشه يمجد القوة في الاقوياء ويعتبرهم الممتازين بطبيعتهم ـ كما هو المعروف عنه ـ وماركس يندد بالاقوياء واستغلالهم للضعفاء .. وهذا في واقعه اعتراف منهما بوجود الاخلاق وتوكيد ـ بلا قصد ـ انها غير مصنوعة ، وان اختلفا في التفسير والرؤية عند التطبيق ، ورآها نيتشه سلاحا بيد الضعفاء ضد الاقوياء ، ورآها ماركس افيونا من حقل الاقوياء لتخدير الضعفاء .

وقال الأشاعرة ، اتباع ابي حسن الاشعري : لا خير ولا شر في طبيعة الافعال أيا كان نوعها ، وانما يكون الفعل شرا اذا نهى الله عنه ، ويكون خيرا اذا أمر به ، ولو نهى عما امر لتحول المأمور به الى شر ، أو أمر بما نهى لتحول المنهي عنه الى خير . وبكلمة : ان احكام الله وشريعته هي التي صنعت الاخلاق .

الحياة عند الامام قيم واخلاق :

نظر نيتشه الى صبر من صبر على الضيم من الضعفاء فازدرى الضعف ومجّد القوة وقال : الاخلاق من صنع الضعفاء . ونظر ماركس في استغلال الغني للفقير فندد بالغني ، وأغرى الفقير بالثورة عليه وقال: الاخلاق من صنع الاقوياء . ونفى الاشاعرة الاخلاق عن طبيعة الحياة وحصروها بوحي السماء .. اما الامام فنظر الى الاخلاق من حيث هي بصرف النظر عن الذين يتلاعبون بها ويستخدمونها في اغراضهم واهوائهم واعتبرها ــ كما هي في واقعها ــ قيما ثابتة في طبيعة الاقوال والافعال ، كالصدق في القول ، والاخلاص في العمل ، والعدل في الحكم ، والجهاد في سبيل تحرير الضعيف من ضعفه ، وردع الباغي عن غيه .

ويقول الامام في ذلك فيما يقول : « العدل سائس عام يضع الامور في مواضعها .. والتقوى نجاة من كل هلكة » ، ويدخل في مضمون التقوى الصدق والاخلاص والامانة والجهاد وغير ذلك من الفضائل . وقال في تحديد العلاقة بين الناس جميعا : « احبب لغيرك ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لها ، ولا تظلم كما لا تحب ان تظلم .. كن للظالم خصما ، وللمظلوم عونا .. بئس الزاد الى المعاد العدوان على العباد » . ومعنى هذا ان قدرة الانسان وحريته وارادته يحدها القانون الخلقي في كل ما يصدر عنه من اعمال .

وقال عن علاقة الفقراء بالاغنياء : « ان الله سبحانه فرض في أموال الاغنياء اقوات الفقراء ، فما جاع فقير الا بما متع به غني ، والله سائلهم عن ذلك .. لو كان المال لي لسويت بينهم ، فكيف وانما المال مال الله .. ما احسن تواضع الاغنياء للفقراء طلبا لما عند الله ، واحسن منه تيه الفقراء على الاغنياء اتكالا على الله » .

كل هذا وما اليه من كلام الامام يدل دلالة قاطعة على ان الاخلاق قيم ثابتة لا تستقيم الحياة بدونها .. والتجارب تثبت ذلك وتعززه ، فلا نعرف أمة بالغة ما بلغت من الانحطاط عاشت بلا اخـلاق .. وما انزل سبحانه الكتب وارسل الرسل الا ليرشدوا الى الاخلاق الكريمة ، ويهدوا الى حياة افضل . قال عز من قائل : « ان الله يأمر بالعدل والاحسـان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ــ ٩٠ النحل » . وليس من شك ان وجود المأمور به والمنهي عنه متقدم على الامر والنهي تقدم الموضوع على الحكم .

وقال ، جلت كلمته : « ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقـوم ــ ٩ الاسراء » . ومعنى هذا ان الانسان قادر على العمل لحياة اصلح وافضل، والله سبحانه يأمره بذلك ، ويهديه سواء السبيل الى الحياة الطيبة بشتى نواحيها . والحياة الافضل امنية لكل انسان ، وقوامها العدل والقضاء على البغي .. ومع هذا قال من قال : العدل والبغي كلام فارغ يركب منه الاقوياء دواء مخدرا للضعفاء ، او يجدل منه الضعفاء قيودا للاقوياء !

والخلاصة ان مبادىء الاخلاق عند الامام لا يتوقف وجودها على الشعور والانفعالات ، ولا الآراء والمعتقدات ، ولا الاديان والقوانـين والعادات ، بل هي الاصل والاساس لذلك كله وسابقة عليه في الوجود ؛ ومن ادركها فعليه ان يلتزم بها ، ومن جهلها أرشد اليها ، ومن عاندها أدّب بما يستحق . ومن اقوال الامام : « اني اقاتل رجلين : رجلا ادعى ما ليس له ، وآخر منع الذي عليه » .

مفهوم الخير عند الامام :

لم يحدد الامام ــ فيما نعلم ــ مفهوم الخير تحديدا عاما يشمـل جميع أنواعه وافراده ، وينظمها في مقياس واحد ، وانما تكلم عن الخير في

كثير من المظاهر والوقائع ، ومنها نعرف وجهة نظره الى معنى الخير وموقفه منه . قال من جملة ما قال : « خير القول ما نفع .. ليس الخير ان يكثر مالك وولدك ، ولكن ان يكثر علمك ، ولا خير في علم لا ينفع .. خير البلاد ما حملك .. من انكر المنكر بيده ولسانه وقلبه فذلك المستكمل لخصال الخير .. من كفارات الذنوب العظام اغاثة الملهوف . والتنفيس عن المكروب » .

وقال في نهج البلاغة رواية عن النبي (ص) : « صلاح ذات البين افضل من عامة الصلاة والصيام » ونفهم من هذه الاقوال ونظائرها ان كل ما يحقق مصلحة للجماعة او الفرد في حدود حلال الله وحرامه ، او يدفع ضررا عن الفرد او الجماعة ــ فهو خير ، وان كل ما يلحق ضررا بالانسان فهو شر . ولم نذكر ما قاله الامام في الشر لان الاشياء تعرف بأضدادها كما تعرف بأمثالها . قيل للامام : صف لنا العاقل . فقال : هو الذي يضع الشيء في مواضعه . قيل له : فصف لنا الجاهل . قال : قد فعلت .

وقال احد الفلاسفة في تفسير قول الامام ، « قيمة كل امرىء ما يحسنه » : مراد الامام انه لا فرق بين العلماء في القدر والقيمة من حيث الفكرة والمعرفة ، وانما المهم ان يخرج العالم بعلمه وعمله من حدود المنفعة الخاصة الى المصلحة العامة . وهذا التفسير يلتقي مع هدف الامام من غير شك .

وكل من شارك في المصالح الانسانية جمعاء ، وتمتعت الاجيال بثمار جهوده وموهبته دون فرق بين ناس وناس وشرق وغرب كجهود اديسون الذي اعطانا الكهرباء ــ فهو من هذه الجهة يلتقي مع علي بن ابي طالب وعيسى ومحمد مؤمنا كان ام كافرا . قال الامام : « لن يفوز بالخير الا عامله ، ولا يجزى جزاء الشر الا فاعله » . وهذا تعبير ثان عن قوله

تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ــ ٧ الزلزلة » . وقال سبحانه : « هل جزاء الاحسان الا الاحسان ــ ٦٠ الرحمن » . ونقل صاحب مجمع البيان عن الامام الصادق ، حفيد الامام علي ، انه قال : « جرت هذه الآية في الكافر والمؤمن والبر والفاجر » .

ومن فكر بهمومه وحدها ، ولم ترتجف مشاعره لبكاء الاطفال المشردين ، وأنين الضحايا والمعذبين فهو ابعد الناس عن الله وانبيائه واوليائه حتى ولو ركع وسجد ، وسبح وتهجد .

الغاية والواسطة عند الامام :

كل من آمن ويؤمن بأن الغاية الفردية تبرر الواسطة فهو كافر بالدين والانسانية ومبادئها .. وما عرف التاريخ أحدا أكثر التزاما بالمبادىء والمثل العليا من الامام علي بن ابي طالب ، قيل له بعد وفاة الرسول الاعظم (ص) : مالك لا تثور على من اغتصب حقك في الخلافة ؟ فقال : « والله لأسلمن ما سلمت امور المسلمين ، ولم يكن فيها جور الا علي خاصة التماسا لأجر الله وفضله ، وزهدا فيما تنافستموه من زخرفة وزبرجة» . وقيل له : لو حابيت بهذا المال بعض الرؤوس لينقادوا اليك . فقال : « أتأمروني أن اطلب النصر بالجور .. لو كان المال لي لسويت بينهم فكيف والمال مال الله ؟ » .

وقال : « ما ظفر من ظفر الاثم به ، والغالب بالشر مغلوب .. ما على الانسان من غضاضة في أن يكون مظلوما ما لم يكن شاكا في دينه ، ولا مرتابا بيقينه » .

أبداً لا هوادة في الحق عند علي ، ولا مبرر لتحريفه والانحراف عنه

مهما كانت الغايات والنتائج .. قال الاستاذ احمد عباس صالح في كتاب « اليمين واليسار في الاسلام » : لو كان علي اقل التزاما بمثالية الانسانية لكسب جولته .. ولكن يستحيل ان يتوسل علي باساليب تتنافى مع المثل العليا .. ولو فعل ما بقيت الجذوة الانسانية مشتعلة وكامنة في النفوس .

من يستطيـــع ؟

وتقول : يستطيع الامام بشخصيته وعظمته ان يكون المثل الاعلى لكل مبدأ خلقي ، ولكنه يطلب من الآخرين ان يكونوا على طرازه !.. وهذا تكليف بما لايطاق ، او به اشبه .

الجــواب :

ابدا ما طلب الامام من احد أو حاول ان يكون غيره على طرازه ، وانما طلب من كل انسان ان ينشد لنفسه ولغيره المزيد من اسباب الخير والحياة في حدود ظروفه وطاقته ، ولا يتوسل الى مآربه بالشر والخداع، فيحقق غايته الشخصية على حساب الدين والمبادىء .. وفي الرسالة ٤٤ من رسائل نهج البلاغة قال الامام لاصحابه من جملة ما قال : « ان امامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه ، ومن طعمه بقرصيه ، ألا وانكم لا تقدرون على ذلك ، ولكن أعينوني بورع واجتهاد ، وعفة وسداد » .

والورع والعفة ان تكتفي بحلال الله عن حرامه ، وبطاعته عـــن معصيته ، وبفضله عمن سواه . ولبس بعض اصحاب الامام العباءة ، وتخلى عن الدنيا . فقال له الامام : يا عدي نفسه ! لقد استهان بك الخبيث ــ اي الشيطان ــ أما رحمت اهلك وولدك . أترى الله أحل لك الطيبات ، وهو يكره أن تأخذها ! انت أهون على الله من ذلك . وفي الخطبة ١١٢ من خطب النهج : « وما احل لكم اكثر مما حرم عليكم ، فذروا ما قل لمـــا كثر ، وما ضاق لما اتسع » .

الفقهاء والتجديد

الدين والفقه والشريعة الاسلامية :

هذه ثلاث كلمات ينبغي تحديد مفاهيمها ، وبيان الفرق فيما بينها.. ولكلمة الدين في العرف وقواميس اللغة معان عديدة ، اما في علمه تعالى فلها معنى واحد حدده بقوله ، عز من قائل : « ان الدين عند الله الاسلام ـ آية ١٩ آل عمران » . والفقه في اللغة الفهم ، وفي اصطلاح الفقهاء مجموعة الاحكام الشرعية العملية ، ووصف الشرعية يشير الى ان مصدر هذه الاحكام قول الشارع أو فعله او تقريره ، وبوصف العملية خرجت العقائد ، لانها من شؤون القلب .. واذا وصفت انسانا بانه فقيه دخل في مفهوم الفقه العلم بالاحكام العملية عن ادلتها التفصيلية .

والشريعة الاسلامية تعم وتشمل الاحكام الالهية بكاملها ، وتنقسم هذه الاحكام ـ من حيث موضوعها ـ الى ثلاثة اقسام : عقيدة وعبادات ومعاملات ، ونريد بكلمة المعاملات هنا كل الحقوق والالتزامات ما عدا العقيدة والعبادة والارث والزواج والطلاق ، لان هذه الامور الثلاثة بالعبادة أشبه ، ويدور حديثنا في هذا الفصل حول امكان التغيير في المعاملات فقط .

العقيدة والعبادة :

وموضوع العقيدة حقيقة ثابتة في ذاتها ، ولا يناط وجودها بأمر او

اقتناع ، فالله وصفاته ، واليوم الآخر وجزاؤه ، ومحمد ورسالته كل ذلك تشهد له اعلام الوجود ، والشارع يؤكد هذا الوجود ويوجب الايمان به، لانه حق وصدق ، كما قال سبحانه مخاطبا نبيه الكريم : « ويستنبئونك أحق هو قل اي وربي انه لحق وما انتم بمعجزين ــ ٥٣ يونس » . وفي الآية ٢٣ من الذاريات : « فورب السموات والارض انه لحق مثل ما انكم تنطقون » .

وعليه فلا تغيير وتجديد وتقليم وتطعيم في العقيدة مهما طال الزمن واختلفت الظروف ، لان طبيعة الموضوع تأبى ذلك وترفضه . كيف وهل للذات القدسيةاحوال، وللجنة والنار زوال، ولرسالة الانبياء من حيث هي نسخ" ورفع ؟ قال سبحانه : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ــ ١٣ الشورى » والمراد بكلمة الدين هنا خصوص العقيدة التي اوحى الله بها الى جميع أنبيائه .

أما العبادة فعلى العكس أي لا عين لها ولا اثر في الخارج ، وانما يناط وجودها بأمر الشارع ، فهو مصدرها ، وبه قوامها ، ومن هنا انعقد اجماع الفقهاء على ان العبادة من الامور التوقيفية ، وان الاصل فيها المنع حتى يثبت الاذن من الشرع ، ومن تعبد لله في شيء على انه حكمه تعالى بلا اذن منه فقد احدث في الدين وابدع . قال سبحانه : « ام لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ــ ٢١ الشورى » . والمراد بكلمة الدين هنا العقيدة والعبادة معا .. واذن فلا تغيير ولا تجديد ايضا في العبادة بعد ان حددت خطوطها بصورة حتمية ونهائية .

المعاملات ليست من صنع الشارع :

أما المعاملات بالمعنى المتقدم فليس للشارع فيها حقيقة شرعية كالعبادة،

ولا هي ثابتة راسخة في نفسها كموضوع العقيدة ، وانما هي عادات وقواعد عرفية اصطلح الناس عليها ، والتزموا بها في التعاون والتعامل كالبيع والشراء والرهن والايجار ، ونحوه .. والشارع اقر بعضها كما هي وألغى بعضا من الاساس ، وقلم او طعم البعض الآخر في نطاق المصلحة وحدود الله وحرامه .

فموقف رسول الله (ص) من المعاملات تماما كموقف اي مشرع وضعي في هذا الزمان وفي كل زمان ، يصوغ مواد القانون والنظام مما يراه سليما ونافعا من عادات الناس وتقاليدهم ، ويدع منها ما يراه ضارا او لا جدوى منه ، وبهذا تتحول العادة الى نص قانوني ينفذ بالقوه .. والفرق بين الرسول (ص) والمشرع الوضعي ان الرسول معصوم عن الخطأ والخطيئة فيما يقره او يلغيه او يعدله من المعاملات ، اما المشرع الوضعي فغير منزه عن الهوى والخطأ .. والحقائق التالية خير شاهد على ان المعاملات ليست من صنع الشارع ، وهي :

١ ــ ان المعاملات بشتى انواعها كانت موجودة قبل الشرع والشارع، وما هو بالموجد لها والمنشىء باسم الوحي والدين ، كما هو الشأن في العبادات .

٢ ــ اعتمد الفقهاء على العرف ، واعتبروه أصلا ومصدرا لاثبات العديد من الحقوق في نواح شتى من المعاملات . ومن ذلك على سبيل المثال : اذا سكت المؤجر والمستأجر عند العقد عن شرط متفق عليه بين الناس ، ثم تخاصما فيه ــ فصل الحاكم الشرعي بينهما على اساس العرف والعادة .

٣ ــ اتفاق المحققين من الفقهاء على ان كل معاملة تجري بين اثنين

او أكثر فهي جائزة نافذة حتى يرد المنع عنها صراحة او ضمنا ، ذلك بأن تحلل حراما ، او تحرم حلالا .

٤ ــ من استقرأ وتتبع أقوال الفقهاء يجد انهم في اكثر مسائل العبادات يستدلون على احكامها بالنص مباشرة ، لا بالاستنباط من المبادىء العامة ، او بالاجماع على قضية خاصة ، اما في ابواب المعاملات فيستمدون معظم الاحكام من اصول عامة وقواعد كلية ، مثل لا ضرر ولا غرر ، ولا تجارة الا عن تراض ، ومثل اوفوا بالعقود ، وما على المحسنين من سبيل ، وعلى اليد ما اخذت ، والخراج بالضمان ، والاهم مقدم على المهم ، وما يضمن بصحيحه يضمن بفاسده ، وغير ذلك .

ومعنى هذا ان احكام المعاملات ليست من صنع الشارع كي يجب التعبد بها ، بل هي آراء ونظريات شخصية تجوز مخالفتها والعمل بضدها ، وعليه فان التغيير والتجديد ممكن في المعاملات بالخصوص ، بل يجب تبعا لمصلحة الحياة وتطورها في كل مجتمع . وبهذا نجد تفسير القول الشائع : « ان الشريعة الاسلامية تصلح لكل زمان ومكان » أي ان مبادىء التشريع في المعاملات تفسح المجال لكل اجتهاد يستجيب لحاجات الناس في كل عصر ومصر . وفيما يلي نعرض بعض الامثلة التي يمكن للفقيه المجتهد ان يجدد فيها ، ويخالف من سبقه من الفقهاء .

مشكلة استبدال الوقف :

ينقسم الوقف الى ذري وخيري ، والاول وقف على الاولاد والاحفاد ، والثاني على وجه معين من اوجه البر ، او على كل وجه من الخير والاحسان .. وكثيرا ما تدعو المصلحة ان يستبدل بعقار الوقف عقار آخر أعود وأنفع ، ولكن الفقهاء او معظمهم منعوا من ذلك الا اذا تعذر الانتفاع به كلية ، او كان لقلته لا يغني شيئا ، لان التأبيد والدوام من

مقومات الوقف ، ولانه فك ملك ، ولا بيع واستبدال الا في ملك ، وفوق هذا وذاك النص القائل : الوقف صدقة لا تباع ولا توهب ولا تورث .

ويلاحظ ان الشرط الاساسي في العين الموقوفة ان تكون لها الاهليه الكافية للتملك والتمليك والنقل والاستبدال ، وبغير هذا الوصف لا يصح وقفها بحال ... وصفة الوقف طارئة لا تغير شيئا من طبيعة العين وتنفي عنها أهلية التملك والاستبدال ، وانما تحصر منفعة العين بالجهة الموقوف عليها ، وعليه فيسوغ ان يستبدل بعقار الوقف الخيري عقار آخر اذا لم يكن الاستبدال مقصودا لذاته ، بل لمصلحة الجهة الموقوف عليها ، وهذه العملية لا تغير شيئا من جوهر الوقف ، بل على العكس ، تؤكده وتجعله أجدى واقوى واكثر التحاما مع غرض الواقف وروح النص . اما قولهم: « فك ملك » فهو من الرجم بالغيب .

مشكلة اخلاء العين المستاجرة :

تنص بعض القوانين على انه لا يجوز للمؤجر ان يطلب من المستأجر اخلاء المكان كالدار والحانوت بعد انتهاء المدة المتفق عليها ، وان امد الايجار يمتد بالشروط السابقة بعد انقضاء الامد المعلوم ، شاء المؤجر أم أبى .

ويرى الفقهاء او معظمهم ان هذا القانون يخالف الشريعة الاسلامية لحديث « الناس مسلطون على اموالهم » . وفي رأينا ان المؤجر اذا أقدم مختارا على الايجار ، وهو على علم بهذا القانون فعليه ان يلتزم به ، لانه شرط ضمني أو بمنزلته ، اما الجهل بأمد الايجار في مثل هذه الحال فهو مغتفر عند العرف ، والمعروف عرفا كالمشروط شرعا حتى يثبت العكس .

وان كان المؤجر جاهلا بالقانون ينظر : هل يتضرر المستأجر باخلاء المكان أم لا ؟ فان لم يتضرر باخلائه فعليه أن يخليه دون تأخير ، وان كان المستأجر يتضرر باخلاء المكان فعلى المؤجر ان يمهل المستأجر حتى يجد المكان المناسب شريطة أن يبذل الجهد في البحث والتنقيب عن مكان له . وحديث « الناس مسلطون على اموالهم » محكوم بقاعدة لا ضرر الا اذا تضرر المؤجر بمنعه عن التصرف في ملكه ... على التفصيل في تعارض الضررين المدون في كتب الفقه واصوله .

مشكلة التماثيل :

قال الفقهاء : التصوير المجسم بالنحت لذوي الأرواح – حرام . لقول الامام (ع) : من مثل مثالا فقد خرج عن الاسلام .

الجـواب :

يختلف حكم التماثيل بحسب ما يراد من صنعهـا وايجادها ، فهي حرام وصانعها خارج عن الاسلام اذا كان من قصده وهدفه أن يرمز التمثال الى الخالق الذي ليس كمثله شيء ، أو أراد به ان يقربه الى الله زلفى كأصنام الجاهلية ، أو أراد صانع التمثال ان يتشبه بالله وينافسه في خلقه ، وما الى ذلك من الحالات التي تؤدي الى الشرك والوقوع في فخه ، وبهذا ينبغي ان تفسر الرواية القائلة : « من مثل مثالا فقد خرج عن الاسلام » لان التمثيل بمجرده ومن حيـث هو لا يوجـب الكفر والخروج عن الدين باتفاق الفقهاء .

وعليه يكون عمل التماثيل جائز حتى ذوات الارواح اذا قصد بها مجرد الزينة والجمال والمتعة بالمنظر الحسن ، او تخليد الذكر ، او التعبير عن مظهر من مظاهر الحياة ، او الاشـــارة الى مجد البلاد وتاريخهـا

وحضارتها ، قال سبحانه : « يعملون له ــ أي لنبي الله سليمان ــ ما يشاء من محاريب وتماثيل ــ ١٣ سبأ » وقال الشيخ الانصاري في كتاب المكاسب : « لو دعت الحاجة الى عمل شيء يكون شبيهاً بشيء من خلق الله ولو كان حيواناً فلا بأس قطعاً » .

واذن فلا مصدر لفتوى الفقهاء بالتحريم الا الاحتياط والخوف من الوقوع في فخ الوثنية • ونحن نشك في كل اجماع ينعقد في مورد الاحتياط ، اذ من الجائز ان يكون هو السبب للاتفاق . وهذا الجواز والاحتمال كاف لسقوط الاجماع عن الحجية والاعتبار .. هذا ، الى ان ما من أحد في هذا العصر ــ باستثناء الكنائس ــ يقدس التماثيل على انها آلهة أو شبيهة بالآلهة .

الكهرباء ومصباح الزيت :

الفقهاء المعاصرون يعرفون النصوص ، وأيضاً يعرفون أن التغيير والتبديل كثيراً ما يكون في الافراد والمصاديق دون المفاهيم والعناوين ، انهم يعرفون ذلك ويعيشونه بالفعل ، لأنهم يستضيئون في بيوتهم بالكهرباء ــ مثلا ــ ومع هذا يتدارسون : هل تجوز انارة مصباح فيه زيت متنجس ؟ يبحثون ذلك بحكم العادة ، وبوازع لا شعوري يدفع بهم مع كل قديم الى حد ينسون معه ان الاسلاف ما تعرضوا لهذه الواقعة في كتبهم ودروسهم الا لانهم عاشوها ، ومارسوا مصباح الزيت الذي ذهب مع الأمس الدابر .

مثل ثان : كانت الصيغة الكلامية عند القدامى ذات أثر وخطر ، ولم تكن مجرد أداة للعلم والثقافة ، بل كانت هي بالذات علماً وثقافة ، ومن أجل هذا كتبوا المقامات ، ونظموا المعلقات ، وأيضاً من أجل هذا اهتم فقهاؤهم في العقد وصيغته ، وسودوا الصفحات في الاوصاف التي

ينبغي ـ على شرطهم ـ أن تتوافر في عقد البيع ونحوه .. وجاء آخرون من بعدهم يقدسون كل قديم ، فنظروا الى العقد الكلامي على انه غاية في نفسه ، وأطالوا وأطنبوا في الاقوال والمناقشات ، ولسان حالهم يقول : « انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون » ! ولو استرسلت في ضرب الأمثلة لاستغرقت مجلداً ضخماً .

كل شيء تأثر وتجاوب مع عصره وبيئته الا علومنا ومدارسنا وكتبنا ورسائلنا فانها تدور في فلك الأقدمين ، ولا تتعداه ، مع علم اليقين بأن آفاق الاسلام وشرع الاسلام أشمل وأوسع مما هو مدون في كتب السلف والخلف .

وبعد ، فلا موضوع للعلوم الدينية الا الشؤون الدنيوية ، والجهل بهذه الشؤون يستدعي الجهل بالدين وشؤونه بطبيعة الحال .

العلم وسيلة :

والحق أن عندنا رجالا كرسوا حياتهم كلها للفقه واصوله ، وأبدوا نشاطاً بالغاً ، ووقفوا في الصف الاول في النقض والابرام ، وعبقرية الجدال والكلام !... ولكن تعال معي لنستمع الى اقوال الناس ، ونتظر الى حياتهم وتصرفاتهم ، ثم نقارن بينها وبين ما يقول ويفكر كثير من فقهائنا فهل تظن اننا سنجد أثراً لجهودهم واجتهادهم في أقوال الناس وأفعالم ، أليس العلم خادماً للانسان ؟ وأية جدوى من فكرة لا تتجاوز الرؤوس والاوراق ، ولا تتحول الى تطبيق وعمل ؟

وقد يقول قائل : وأي ذنب للعلماء والفقهاء اذا تجافى الناس عن الدين ، وتنكروا للاخلاق وقيمها ؟ وهل تريد منهم ان يقفلوا المعاهد ، ويقيموا على الدين التعازي والمآتم ؟.. هذا ، الى ان العديد من المسلمين

يحيون شعيرة الصلاة والصيام ، ويحجون الى بيت الله الحرام ، ومنهم من يؤتي الزكاة ، ويدفع الحق المعلوم للمرجع عن رضا وطيب نفس .

الجواب :

لست بصدد أي شيء تضمنه هذا السؤال ، والذي اريده وأعنيه أن يعالج فقهاؤنا مشكلة الانسان في عصره ، كعلاقة العامل برب العمل ، والمستأجر بالمؤجر ، والمدين بالدائن ، وسطو اللصوص على جهود المؤلف والمخترع ، وما الى ذلك من علاقة الفرد بمجتمعه ، والاحداث اليومية التي تضغط على حياته وتفكيره وانفعاله ، ان يعالج الفقهاء المعاصرون المشكلات المستحدثة التي تعم بها البلوى في ضوء القوانين الحديثة التي تطبق وتنفذ بقوة السلاح ، وعلى أساس الرؤية السليمة لشريعة الاسلام ونصوصه ، وان يهيلوا التراب على كل قضية تحدث عنها الأقدمون ما دامت لا تمس حياتنا بسبب .

ان العلم والدين موصولان بالعمل ، واي فكر او قول لا يهدي الى خير ، ولا ينطوي على نتيجة عملية ، ولا يسأل الله عنه غداً — فما هو من العلم والدين في شيء .. وكل قول وادراك وعمل صادف الواقع فهو حق وصدق سواء أكان عن علم ، أم احتياط ، او عن تقليد ، او لا ذا ولا ذاك .

هذه دكتاتورية :

قال معظم الفقهاء : ان عمل الجاهل مجز وصحيح اذا وافق المطلوب منه ، وان ترك سؤال أهل الذكر .. وأيضاً قال جماعة من المجتهدين : ان العدالة ليست شرطاً في الوصي ولا فيمن ينوب عن الميت في أي عمل كان ، وان الثقة بالوفاء والامانة كافية وافية . وهذا حق وصواب ، لان

المقصود الاول اداء المطلوب على وجهه وعدم الاخلال به ، اما العلم وغير العلم فوسيلة لا غاية .

ولكنهم نقضوا في مكان آخر ما ابرموه هنا حيث قالوا لا يجوز لغير الحاكم الشرعي ان يصلح مال القاصر أو الغائب او الوقف ، ويدفع الضرر عنه مع عدم وجود الولي الخاص الا باذن الولي العام — اي الحاكم الشرعي — ان امكن الرجوع اليه .

ولماذا هذه الدكتاتورية ؟ مع الفرض ان عمل المحتسب قد حقق الغاية والمصلحة كما امر الله ، أما أدلة الرجوع الى الحاكم في الامور العامة فنحن على علم اليقين ان الغرض منها التثبت من وجود المطلوب على وجهه ، وقد وجد كذلك .

وقال بعض المراجع في هذا العصر : يجب اذن الحاكم الشرعي في سهم الامام وانفاقه ، وان الاحوط الاذن من المقلَّد والمرجع خاصة . وقد يكون لهذا القول وجه من الاستحسان ، لان المرجع يقوم بدور الجابي والموزع في آن واحد ، يأخذ المال من اهل الثراء والمترفين ، ويوزعه على ابناء الحوزة العلمية والبائسين .. ولولا هذه الوساطة الامينة لما كان للدين وعلومه هيئة ولا حوزة .. ولكن هل هذا الاستحسان من الأدلة الاربعة ؟

المجتهد :

وبعد ، فقد ذكر الفقهاء للمجتهد شروطاً أشرت اليها في كتاب أصول الاثبات ، وفقه الامام جعفر الصادق ، وغيرهما مما كتبت ونشرت ، والآن وبعد ان عدت الى هذا الموضوع بأسلوب جديد — اعطف على ما سبق الشرط التالي :

كل شيء فينا وحولنا يتحرك ويتغير ، أردنا ذلك أم لم نرد ، ثرنا أ- استسلمنا ، وعلى كل فرد أن يتحمل مسؤولية هذه الحياة المتطورة المتغيرة حسب ظروفه وكفاءته ، واذا كانت القدرة على استخراج الحكم من الأدلة الاربعة كافية وافية في مجتهد الامس حيث كانت الحياة على وفاق ووئام مع الشرع الاسلامي وأحكامه ونصوصه — فان مجتهد اليوم يجب — بالاضافة الى هذا الشرط — ان يتوفر له الوعي الديني المستنير المنفتح ، والوعي الزمني لمجرى الحوادث وحقائق الحياة من حوله ، وان يتخلى عن الوهم ان الاسلام قادر على مقاومة كل تهديد لمجرد ما فيه من مزايا وخصائص . وان يكون ذا فكر مبدع وخلاق ، وان يتحرر من القيود والتقاليد التي لا يفرضها عقل ولا دين لكي يستطيع ان يوائم بين النصوص ومقتضيات العصر ، وان يقتبس من القوانين الحديثة ما يخدم الحياة ، وتسمح به شريعة الاسلام السهلة السمحة التي تروي بمعينها الفياض كل ارض في كل مجتمع لولا الحواجز والعقبات •

وبعد ، فان المجتهد المطلق حقاً وواقعاً في عصرنا هو الذي يخلق ويبدع على أساس المصلحة في حدود المبادىء العامة ، اما « الظاهري » المغلق على عقله ودنياه فيستحيل الاجتهاد في حقه ، حتى ولو حفظ آيات الاحكام واحاديثها والمتون وشروحها ، وثنيت له الوسادة ، والف مئة كتاب ورسالة .

السلف ومبدأ الاعتراف بالواقع

المعروف عن فلسفة الألماني « نيتشه » أن القوة هي الحق والحقيقة الاولى ، وان ما عداها هراء وهباء سواء أكان دينا أم قانونا أم اخلاقا وان كل ما يصدر عن الانسان القوي فهو خير ، وكل ما يصدر عن الضعيف فهو شر ، وان الضعفاء يجب أن يفنوا !.. ومن وصاياه : عليكم بالانتصار لا السلام .. ومن حكمه : الشفقة فضيلة المومس .. ونيتشه هو القائل : « لو كان خالق الكون موجوداً لكنت انا هو ، وبما اني لم أخلق الكون فاذن لا عين للخالق ولا اثر ! » ودان هتلر بفلسفة نيتشه فهلك واهلك .

وهذه الفلسفة « النازية » هي المصدر لمبدأ الاعتراف بالواقع ، او انهما يصدران معاً عن شريعة الغاب والناب .. ولا غرابة ان تتعلق الصهيونية بأذيال هذه الفلسفة الدموية ، وهذا المبدأ السفاح لتبرر به عدوانها واغتصابها .. وموضع الدهشة والغرابة ان يؤمن بعض السلف من شيوخ المذاهب الاربعة الاسلامية ، أن يؤمنوا ويدينوا بمبدأ الاعتراف بالواقع ، ويبنوا عليه اصولا وأحكاماً ينسبونها الى دين الاسلام وشريعة القرآن !.. وليس أكثر من الشواهد على ذلك :

« منها » ما جاء في كتاب : الاحكام السلطانية ، للقاضي الفراء — ت ٤٥٨ هـ — ص ٧ طبعة ١٣٥٦ هـ ، وهذا نصه بالحرف الواحد :

« من غلب بالسيف حتى صار خليفة ، وسمي أمير المؤمنين فلا يحل لمن يؤمن بالله واليوم الآخر ان يبيت ولا يراه اماماً براً كان أم فاجرا .. قال ابن عمر : نحن مع من غلب » اي حتى ولو كان فاجرا جائرا .. وعليه اذا اغتصب قوي بيت ضعيف وجب ان نعامل الغالب الغاصب معاملة المالك الأصيل !.

و « منها » ما جاء في كتاب « المغني » لابن قدامة ــ ت ٦٢٠ هـ ــ ج ٨ ص ١٠٧ الطبعة الثالثة سنة ١٣٦٧ هـ بعنوان قتال أهل البغي ، وهذا نصه الحرفي : « لو خرج رجل على الامام فقهره وغلب الناس بسيفه حتى أقروا له وأذعنوا بطاعته وتابعوه ــ صار اماماً يحرم قتاله والخروج عليه ، فان عبد الملك بن مروان خرج على ابن الزبير فقتله واستولى على البلاد وأهلها حتى بايعوه طوعاً أو كرهاً ، فصار اماماً يحرم الخروج عليه » أي ان مقياس الامامة وصحتها ان تذعن الناس للأقوى ولو بالكره والقهر ! ولماذا ؟ لان عبد الملك قام حكمه على سفك الدماء !

و « منها » ما جاء في كتاب المواقف « للايجي » ــ ت ٧٥٦ هـ ــ ج ٨ ص ٣٥٢ طبعة سنة ١٣٢٥ هـ : « الواحد والاثنان من أهل الحل والعقد كاف في ثبوت الامامة ، لان الصحابة اكتفوا بعقد عمر لأبي بكر ، وعبد الرحمن بن عوف لعثمان » . وفي ص ٣٥١ : « قال الامامية والاسماعيلية : يجب ان يكون الامام معصوماً . ويبطل قولهم ان ابا بكر لا تجب عصمته اتفاقا » . وصادر الامامية هذا القول بمثله وقالوا : « ان ابا بكر ليس اماماً في منطق الحق ، لانه ليس بمعصوم » . وكلتا الحجتين من شرع واحد ، وقسمة المصادرة عادلة بينهما تماما كالمصادرة في مسألة البيضة والدجاجة ، فمن يدعي أن البيضة أصل يرد بأن الدجاجة هي الاصل ، والعكس بالعكس .

و « منها » ما جاء في كتاب « اصول الدين » لعبد القادر التميمي

ت ٤٢٩ هـ ـ ص ٢٩٢ طبعة ١٣٤٦ هـ : « قال ابو الحسن الاشعري : يجب ان يكون الامام افضل أهل زمانه .. ولهذا قال في الخلفاء الاربعة : « أفضلهم ابو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي » فالثلاثة الاولون كلهم حتى عثمان أفضل من علي ، لانهم سبقوه الى الخلافة ، ولو ان ابا لؤلؤة سبق الاربعة الى الخلافة لكان أفضلهم جميعا . أما قول النبي (ص) : « علي خير البشر » (١) فمتروك ولا يجوز العمل به اطلاقاً ، لانه لم يسبق ابابكر الخلافة ، ولو سبقه لكان هذا الحديث في أعلى مراتب الصحة .

وننتهي من هذه الاقوال وامثالها الى ان الحق الثابت بالعقل والوحي لا يجب ان يحترم ويتبع الا بمقدار نصيبه من الوجود والتأثير ، وان الباطل اذا تغلب وقهر يجب ان يقدس ويعمل به ! وهذا هو بالذات مبدأ الاعتراف بالواقع مهما كان ويكون ، وهذه بعينها فلسفة النازية الالمانية والبرجماتية الامريكية القائلة : « لا حق ولا عــدل الا ما يكون وسيلة الى منفعة شخصية ، وان أهلكت الحرث والنسل » . وعلى هذا الاساس صدر الحكم بأن من سبق علياً الى الخلافة أحق منه وأفضل . وايضا على أساسه تقوّل من تقوّل على شيعة علي بغير علم !.. ولك كل الحــق ــ أيها القارىء ــ ان لا تصدقني فيما قلت ونقلت ، وترجع بنفسك الى المصادر ، وتتأملها بامعان .

واذا أردت التوسع فارجع الى كتابي « فلسفة التوحيد والولاية » فصل « حول التسنن والتشيع » .. فقد أمضيت السنين الطوال في دراسة العقيدة الاسلامية وأدلتها وفلسفتها مطالعة وتدريسا وتأليفا، وبالخصوص الامامة والولاية ، وبصورة أخص ولاية اهل البيت ، فانتهيــت الى ان

---

(١) قرات هذا الحديث في كتاب التهذيب لابن حجر العسقــلاني ج ٩ ص ٤١٩ طبعة ٣٢٦ ؛ ونقله صاحب كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة عن ستة مصادر للسنة معرقم المجلد والصفحة وتاريخ الطبع .

أقوى دليل على ولايتهم هو الوقوف على أقوال من أنكرها ، وفهم حقيقة هذه الاقوال وما تنطوي عليه من تناقضات ، وما يلزمها من مستحيلات .

وتسأل : وأية جدوى من هذا البحث وأمثاله ؟ وما هي العلاقة بينه وبين دنيا الناس اليوم ، ومجرى حياتهم العملية ؟ وسبق ان قلت : لا خير في شيء ينبو عن حياة الناس ؟

الجـواب :

ان بعض المذاهب الاسلامية قام ونشأ على اساس الاعتراف بالامر الواقع كما اثبتّ وأوضحت ، وعليه ترتكز اليوم عقيدة ملايين مـــن المسلمين وعلمائهم في هذا العصر يستمدون منه الأدلـة والبراهـين ، ويقيمون له المدارس والمعاهد ، وبعضهم يؤلف الكتب وينشر المقالات في تكفير أية طائفة اسلامية لا تدين بهذا المبدأ .. ولا أغالي اذا قلت : ان طغيان هذا المبدأ على بعض المذاهب هــو الذي فرّق كلمة المسلمـين ، وجعلهم شيعاً وأحزاباً .. وبعد هذا يقال : لا علاقة لبحثي بالحياة وبالعقول والاتجاهات ؟ وهل من شيء ألزم وأوجب من تشخيص الداء الذي هو السبب لرسوبنا وتخلفنا ؟

وبعد ، فليس كل ما قاله السلف حقاً وصواباً ، ولا هو بصالح لكل مجتمع وفي كل عصر ، وعلينا أن نراجعه ونتأمله بصرف النظر عن قائله ، وأن لا ننطلق منه على انه حقائق علمية ومبادىء دينية مسلـمة ، فان السلف والخلف أمام الدين والعلم سواء .. فنقبل منه ما نراه خيراً لنا ، ونرفض ما نراه شراً علينا ... ولا سبيل اطلاقاً الى قوة الاسلام والمسلمين الا بالتحرر من التقليد والتعصب .

الانسان والقرد

نظرية داروين والملحدون :

في سنة ١٨٧٤ نشر داروين كتابه « سلالة الانسان » فشاعت النظرية القائلة : الانسان من سلالة القرود .. وفرح الملحدون بما سمعوا لا حباً بالعلم بل كرهاً وعناداً ، كما قال المثل : « لا حباً بمعاوية بل كرهاً لعلي » . ومع الأيام تبين للعلماء ان هذه النظرية لا تعتمد على أساس سوى التكهن والتخمين . وقبل الاشارة الى بعض ما قيل أو يمكن ان يقال حول النظرية الداروينية أمهد بما يلي :

العلماء ونظرية الخطأ :

قد يُظن ان علماء الطبيعة لا يخطئون في أحكامهم لانهم يعتمدون على المشاهدة والتجربة ، وعلى اجهزة بلغت الغاية من الضبط والدقة .. ولكن علماء الطبيعة أنفسهم اعترفوا بنظرية الخطأ وشمولها ، وصرحوا بأن أحكامهم كلها او جلها على سبيل التقريب لا على سبيل اليقين ، وانهم يتوقعون الخطأ فيما يرون ويقولون ، ويتقبلون النقد برحابة صدر .

وتاريخ العلوم الطبيعية زاخر بالافكار والنظريات الخاطئة عن الطبيعة وأشيائها . وعلى سبيل المثال اكرر قول « برتراند راسل » : « كانت الفكرة القديمة عن المادة مرتبطة بفكرة العنصر ، وهذه بدورها

مرتبطة بفكرة الزمان الذي يشمل الكون كله في آن واحد ، وهي فكرة بددتها النظرية النسبية » حتى النظرية النسبية عارضها علماء الطبيعة . وبعضهم استاذ او بمنزلة الاستاذ أينشتين ، وآخرون كانوا زملاء له في المدرسة .

وأيضاً سيطر الاعتقاد في الاوساط العلمية بأن القمر كان جزءاً من الأرض ، ثم انفصل عنها ، وفرح بذلك بعض المؤمنين وقالوا : « ان هذا الاتجاه العلمي الحديث قد أعلنه القرآن منذ قرون » وأولوا به آية من آياته ، وبعد صعود الانسان الى القمر رفضت الدراسات العلمية هـذا التفسير ، وقالت : ان الارض والقمر تكوّنا منفصلين .. وقد تأتي الايام بنظرية ثالثة .

التطور على أنواع :

تستعمل كلمة التطور في مجالات واتجاهات : منها الاتجـاه العلمي والفلسفي والفني والديني أيضا، وذلك اذا تغيرت الآراء والمعتقدات السابقة ، وقامت على أنقاضها عقائد وفلسفات جديدة ، ومنها حياة المجتمع كتطورها من الاعتماد على اليد الى الاعتماد على آلة البخار ، ومنها الى الكهرباء ، الى الذرة . وايضا قد تعلق كلمة التطور على تحويل الشيء من حال الى اخرى في حدود حقيقته وهويته كالنواة تصير شجرة والنطفة تصبح حيوانا ، فان النواة شجرة بالقوة ، والنطفة حيوان بالامكان ، ولا جدال في شيء من ذلك ، وانما الكلام في تطور الكائنات الحية من نوع الى نوع ثان يختلف عن الاول ذاتا وحقيقة ، كتطور الزواحف الى طيور ــ مثلا ــ أو الضفدع الى عصفور .

الاسلام ونظرية التطور :

ولا شيء في نصوص الاسلام يصطدم مع نظرية التطور من حيث

هي ، وبشتى أنواع التطور حتى تطور الكائنات الحية من نوع الى نوع ـ ما عدا الانسان كما يأتي ـ .

ومن زعم انالاسلام يناهضنظرية التطور فهو جاهل به وبنصوصه. ومن قال : ان جميع عمليات التطور تستند الى الصدفة او المادة وحدها ، ولا تنتهي الى قدرته تعالى وارادته بطريق او بآخر ـ فما هو من الاسلام في شيء .. ومثله في المروق ـ الا لشبهة ـ من زعم ان الانسان في أصله ونسبه ينتهي الى قرد ، لان القرآ الكريم نص بوضوح على ان الانسان الاول لم يكن حيواناً أعجم أبكم ، ثم ارتقى الى ما هو عليه الآن ، بل وُجد منذ اللحظة الاولى بصورته وعقله مسؤولا عن اقواله وافعاله . وعليها يحاسب ويكافأ بما يستحق .

النصوص :

قال تعالى : « وعلّم آدم الاسماء كلها ـ ٣١ البقرة » .. « ان الله اصطفى آدم ـ ٣٣ آل عمران » . وقال « ولقد عهدنا الى آدم ـ ١١٥ طه » .. « يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة ـ ٣٥ البقرة ». وهو ، جلت حكمته ، لا يصطفي القردة والحيوانات البكماء الرعناء ، ولا يعهد اليها بدينه وأماناته ، ويسكنها جنة الخلد والنعيم .. أجل ، في كتاب الله آيتان تدلان بوضوح على ان الانسان الاسرائيلي انقلب خنزيراً وقرداً . قال سبحانه : « وجعل منهم القردة والخنازير ـ ٦٠ المائدة » . وقال : « فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ـ ٦٥ البقرة » . واذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون .

الصدفة والتطور :

وبعد هذا التمهيد نتساءل : لنفترض ان الانسان تطور في صورته

وهيئته فكيف تناسقت وتناسبت اعضاؤه وأجزاؤه ، وأخذ كل واحد منها مكانه اللائق به حتى جاء في أجمل صورة وأحسن تقويم ؟ فهل حدث ذلك نتيجة الصدفة العشواء (١) ؟ ثم ان متوسط الرأس في الانسان أضعاف ما هو عند القرد فكيف تطور الى هذه الضخامة ؟ ومن أين جاء العقل الى الانسان بعد تحوله من دنيا القرود ؟

واذا كان العقل غريزة اجتماعية تنبع من المجتمع ، وتتطور بحسبه كما قيل ـ فهل نبع أيضاً تكوين مخ الانسان وما فيه من خلايا وخطوط وأعصاب ، وهي تزيد عما في مخ القرد بالمليارات لا بالملايين كما قال أهل الاختصاص ـ هل نبع كل ذلك من البيئة والمجتمع ؟ ثم من أين جاء التفاوت في العقول والطاقات بين الافراد الذين عاشوا في مجتمع واحد وبيت واحد وتخرجوا من مدرسة واحدة ؟ اذن فلا بد ان يكون هناك قوة عليا أبدعت وأحكمت .

على سبيل المثال :

وعلى سبيل المثال : قرأت في جريدة الاخبار المصرية تاريخ ٧ ـ ٧ ـ ١٩٧٠ : « ان رجلا سوفيتيا ، اسمه يوسف بريكو دجكو ، له ذاكرة مذهلة يتحدى بها أعظم العقول الالكترونية في عمليات الحساب وسرعتها دون ان يعتمد على ورقة وقلم ، وقد اثار الحيرة والدهشة في الاوساط العلمية ، واجتمع العلماء من مختلف الجنسيات في موسكو . وأحضروا الرجل وأعظم العقول الالكترونية ، واستمرت المنافسة بين العقلين ساعتين ، وفاز العقل البشري على الالكتروني في عشرات

الصدفة تناقض العلم بطبيعتها ، لان الشرط الاساسي في العلم ان تكون نتيجته عامة تصاغ بهذه العبارة : « كلما كان حدث كذا » واين الصدفة من الكليات والقواعد العامة ؟!

العمليات : اما الالكتروني ففاز في عملية واحدة فقط بفارق دقيقة واحدة، لان المسألة الحسابية التي جرت فيها المباراة يحتاج حلها الى ساعات طويلة من جهود عشرات العقول البشرية » .

وايضاً قرأت في هذه الجريدة تاريخ ٩ ــ ١ ــ ١٩٧٣ : « تستطيع ذاكرة الانسان استيعاب حوالي مليون بليون من المعلومات المختلفة في آن واحد .. وقال عالم سوفيتي اسمه انوفيق : « في مخ الانسان ١٤ مليار خلية عصبية .. وان ردود أفعال المخ امام الاحداث تحتاج لشريط طوله عشرة ملايين كيلومتر » .

وليس اكثر من الدلائل في الانسان على وجود المبدع الجبار : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون ــ ٢١ الذاريات » اي ان الجهل المحض وعدم النظر والتأمل هو السبب الموجب للكفر والجحود .. ان عظمة الانسان لا تكمن في شكله وصورته ، ولا في عضلاته وقوته ، بل في تفكيره وذاكرته ، وتصرفه وحضارته ، باختراعه العقل الالكتروني ، وتحديه له ومنافسته .

ومن هنا علت صيحة الكثير من أعلام الطبيعة ضد النظرية الداروينية ، منهم الدكتور « باستون » الامريكي كما في كتاب « ملتقى السبيل » لاسماعيل مظهر ، و « ليزلي وايت » ، و « دارت » ، و « يلير هكسلي » وغيرهم كثير . (انظر مجلة « عالم الفكر » الكويتية العدد الرابع من المجلد الثالث) . وفي افتتاحية هذا العدد ان مجلة «تراث الانسانية » نشرت في المجلد ٩ العدد ١ سنة ١٩٧١ : ان داروين قال « موقفي حول هذا الموضوع ــ أي أصل الانسان ــ هو موقف اللاأدري ، ولا أستطيع أن ألقي بصيصاً على مثل هذه المشاكل العميقة » ومع هذا الاعتراف بالجهل من داروين نفسه فان بعض الشباب يصر على انه قرد في اصله ونسبه .

وليس من شك ان الحفريات قد كشفت عن انواع عديدة من الحيوانات المتخلفة كانت ثم انقرضت ، وبعضها من فصيلة القرود او شبيهة بها ، ولكن هل البقية الباقية من هياكلها تحمل الأدلة القاطعة على انها احدى الحلقات التي تسلسل منها الانسان ؟ أليس من القريب الجائز ان يكون ذاك المنقرض نوعاً مستقلا في ذاته وحقيقته ؟ وفي الحديث : كان قبل آدم الف آدم . واليه يومىء قوله تعالى حكاية عن ملائكته : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ـ ٣٠ البقرة » ولولا ان الملائكة على علم اليقين بأنه كان قبل آدمنا آدميون يفسدون ويسفكون الدماء ـ ما صح منهم هذا القول بحال .

الداروينية والكتب المدرسية :

وآخر شيء قرأته عن النظرية الداورينية ما نشرته جريدة الاخبار المصرية تاريخ ٢٣ ـ ٣ ـ ١٩٧٣ : « قرر المجلس التعليمي الحكومي بولاية كاليفورنيا الامريكية ان تشير جميع الكتب المدرسية للعلوم الى نظرية الارتقاء الداروينية بأنها نظرية افتراضية وليست حقيقية .. وقد أوردت هذا الخبر مجلة « الايكونوميست » الاسبوعية البريطانية في عددها الصادر في ١٠ مارس سنة ١٩٧٣ .. من الواضح ان هذا الاتجاه الجديد في الولاية الامريكية انتكاسة غير عادية لنظرية الارتقاء الداروينية وفي هذا عبرة لمن يتشدق بحتمية المادة ، ويتجرأ أن يسأل أين الله » ؟

ولا غرابة ان يغيّر علماء الغرب النص الخاص بنظرية داروين في كتبهم المدرسية الرسمية والأسفار العلمية ، ويستبدلوه بنص جديد يقول: « ان نظرية داروين افتراضية ، وليست حقيقية » .. أبدا لا غرابة بعد أن ثبت بمنطق العلم فساد النظرية وخطؤها ، وانما الدهشة والغرابة أن تنتكس هذه النظرية في الغرب ، ويبقى على ضلاله وايمانه بها من يتشيع

عندنا لكل غربي بلا تدبر وروية !. فان كانت اقوال الغربيين حجة لازمة — كما يزعم بعض شباب العصر — فهي حجتنا على من قال : اصل الانسان قرد ، وان لم تكن أقوالهم حجة وبرهاناً فلا يسوغ الاعتماد عليها نفياً واثباتاً . وغريبة الغرائب ان يجمع شاب مثقف بين الكفر بالله ، لانه ما رآه ، وبين الايمان بأن أصل الانسان قرد دون ان يرى انساناً خرج من بطن قردة ، او كلبا خرج من بطن خنزيرة او فأرة ولدت قطا ! وهكذا لم تعتمد نظرية القرد والانسان على تجربة او مشاهدة بل على تشبيهات وهمية .

وبعد ، فان الهدف الاساسي من كلمتي أمران : الاول أن يكون القارىء على علم بأن نظرية داروين عند العلماء الغربيين او الكثير منهم ان هي الا مجرد فرض وتخمين ، وليست حقيقة لا يرقى اليها الشك والريب. الامر الثاني ان انبه المؤمن الى ان نظرية التطور في بعض الكائنات الحية والجامدة — على تقدير صحتها — لا تصطدم اطلاقاً مع شيء من نصوص الاسلام الا في الانسان خاصة حيث ثبت كتاباً وسنّة (١) واجماعاً بل وبالضرورة الدينية — ان الانسان نوع مستقل بذاته عن سائر الانواع .. ومن قال : أصل الانسان قرد — بلا شبهة — فما هو من الاسلام في شيء.

ورب قائل : اذا صحت نظرية الارتقاء او كانت ممكنة من حيث هي فلا يسوغ استثناء الانسان منها ، لان القانون الطبيعي يعم ويشمل جميع أفراده .

---

(١) ومن السنة قول النبي (ص) : « خلق الله آدم على صورته » وضمير الغائب يعود الى آدم لانه الاقرب . والمعنى ان آدم وجد اول ما وجد على هذه الصورة الحسنة التي هو عليها الان بلا تغيير وتطوير ، وكأن النبي يرد بذلك على من يزعم غير ذلك .

الجـواب :

اولا : ان الكائنات منها حية نامية ، ومنها ميتة جامدة ، والحية قد تكون خلية واحدة ، وقد تتكون من ملايين الخلايا .. والجامدة قد تكون عنصراً واحداً ، وقد تتألف من عناصر عديدة . وما ادعى احد حتى داروين ان الارتقاء ضروري وحتم في كل الكائنات حتى الكائن الذي لا تتوافر فيه مؤهلات التطور .. واذن فأي مانع ان يكون هذا الانسان العجيب عـالماً مستقلا في حقيقته ، لم يتفرع عن نـوع ادنى ، ولا يتفرع عنه نوع اعلى ؟

ثانيا : ان الحقائق منها عقلية لا يمكن نقضها وتخلفها في نظر العقل مثل المساويين لثالث متساويان ، ومنها طبيعية نكتشفها من المشاهدة مثل تجمد الماء بالبرودة عند درجة معينة ، وهذه يمكن نقضها وتخلفها في نظر العقل بحيث لا يتجمد الماء عند هذه الدرجة .. ونظرية التطور على تقدير صحتها من الحقائق الطبيعية ، وليست من الحقائق العقلية ، وعليه فلا مانع من استثناء الانسان منها واستبعاده عنها .

الخلاصـة :

والخلاصة ان نظرية التطور والارتقاء لا تخضع للتجربة والمشاهدة، وأيضا لا يمكن اثباتها بالعقل والاستنباط من مقدمات بديهية واضحـة بذاتها ، او من حقيقة تنتهي الى هذه المقدمات .. والدليل الاول والاخير على هذه النظرية يتلخص في انه قد ثبت من الحفريات ان جسم الحيوان الاول كان غاية في البساطة ، وجسم الحيوان المتأخر ارقى وأعلى مـع وجود الشبه بين الجسمين في النظام الجسماني لكل منهما .

ونجيب بأن مجرد الاختلاف بين جسمين من جهة ، والاتفاق بينهما من جهة ثانية ــ لا يستدعي ان يكون أحدهما أصلا للآخر ، او يكونـا معاً فرعين عن أصل واحد .. فاذا رأيت رجلين متشابهين شكلا وطـولا

وعرضاً فان هذا التشابه لا يدل على انهما اخوان ، او ان احدهما والد للآخر .. أجل ، يجوز ذلك ، ويمكن ان يكون الحيوان الادنى المتقدم أصلا للحيوان الاعلى المتأخر ، ولا مانع منه من الوجهة الدينية ، ولكن الامكان شيء والوقوع شيء آخر ، ولا يصح القول به الا بدليل قاطع فأين هو ؟ وعلى فرض ثبوته في بعض الحيوانات او الحشرات فانه لم يثبت بالنسبة الى الانسان لا بالحس ولا بالعقل ولا بالوحي .

قيمة الانسان

في القرآن ونهج البلاغة

تمهيـد :

قد يكون الانسان موضوعاً للبحث من حيث طبيعته وخصائصه ، او من حيث وضعه وسلوكه ، او تاريخ وجوده على وجه الارض ، او من حيث منزلته وقيمته في نفسه .. ومن هذه الزاوية وحدها يتكلم عن الانسان في هذا الفصل ، لان قيمة الانسان هي الاساس لكل ما له من حقوق ، وما عليه من واجبات بشتى انواعها ، ولو أهدرنا قيمة الانسان وكرامته ، وافترضنا انه كسائر الكائنات ـ لما كان ثمة انسانية على الاطلاق ، وبالتالي فلا دين ولا شريعة ، ولا فن واخلاق ، ولا تاريخ وتراث ، ولا رابطة اجتماعية اطلاقاً .

ونقصر البحث في قيمة الانسان كما هي في القرآن الكريم ونهج البلاغة ، لان نصوصهما ـ فيما نعتقد ـ تعبر عن الشيء كما هو في عالمه وواقعه لا كما هو في حدس الحادسين ، ووهم الواهمين ، فلقد رأى البعض ان الانسان كائن مادي محض على شكل من أشكال المادة ، ورأى آخر انه ارفع واعلى .

في القرآن :

في كتاب الله تعالى نص على انه سبحانه كرّم بني آدم ، كالآية

٧٠ من سورة الاسراء ، ونص ثان يقول : « وسخر لكم ما في السموات والارض جميعاً ــ ١٣ الجاثية » . وآية ثالثة أمرت الملائكة بالسجود لآدم .. الى غير ذلك . وحتى لا يطول بنا الطريق نكتفي بالاشارة الى ما توحي به هذه الآية : « من قتل نفساً بغير نفس او فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ــ ٣٢ المائدة » ونستوحي من هذه الآية ما يلي :

١ ــ ان كل فرد من أفراد الانسان فيه جهة شمول وعموم تربط بين حياة الفرد وحياة الجماعة ، وشؤونه وشؤونها ، وان ما يصيبه يصيبها وبالعكس ، تماما كالاسرة الواحدة في البيت الواحد : من اعتدى على عضو منها فقد اعتدى عليها مجتمعة ، ومن أحسن اليه فقد احسن اليها كذلك ، او كالاعضاء من الجسم اذا أصيب عضو أصيب الجسم بكامله ، والى هذا يومىء قول النبي الكريم (ص) : كلكم راع ، وكل راع مسؤول عن رعيته .

٢ ــ يدل قوله سبحانه : « من قتل نفساً بغير نفس او فساد في الارض » ان الانسان أياً كان لونه ونسبه ، وملته ومذهبه ، ومقامه ومنصبه هو في حصن حصين ، وحمى محرم حتى ينتهك هو حرمة نفسه بيده ، ويعتدي على حق الآخرين ، وعندئذ تنتزع منه الحصانة ، ويتسلط عليه الحق ، فيؤدبه ويقتص منه .

في نهج البلاغة :

قال الامام (ع) في الرسالة ٤٤ من رسائل النهج : « لو شئت لاهتديت الطريق الى مصفى هذا العسل ولباب هذا القمح ، ونسائج هذا القز ، ولكن هيهات ان يغلبني هواي ويقودني جشعي الى تخير الاطعمة ، ولعل من بالحجاز او اليمامة من لا طمع له في القرص ، ولا عهد له في

الشبع ، أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى ، وأكباد حرى .. أأقنع من نفسي بأن يقال : هذا امير المؤمنين ولا اشاركهم في مكاره الدهر ، او أكون أسوة لهم في جشوبة العيش ؟ » .

وليس من شك ان الامام لا يتحدث بهذا عن الانسان وقيمته ، ولا ينبىء به على نفسه وزهده .. كيف ؟ وهو القائل : « أقبح الصدق ثناء المرء على نفسه » وانما اراد بذل النصح لعماله ان يحسنوا السيرة مع الرعية وان يكيفوا حياتهم مع حياة البائسين والمعوزين ، وقد خاطبهم في هذه الرسالة بقوله : « انكم لا تقدرون على ذلك ، ولكن أعينوني بورع واجتهاد ، وعفة وسداد » الا ان هذه النصيحة تنم عن رأيه في ان حياة الفرد ترتبط بحياة الجماعة ، وان الناس كلهم كالاسرة الواحدة او الجسم الواحد، وعليهم ان يتماسكوا ويتعاطفوا، وان يشعر كل منهم بآلام الآخر. ولا يحق له أن يبيت مبطاناً ، وحوله بطون غرثى وأكباد حرى .

وقال في الحكمة ٢٢٠ : بئس الزاد الى المعاد العدوان على العباد . وفي الخطبة ١١٤ : ان تكريم الانسان تكريم لله جلت عظمته . وهذا تفسير وتعبير ثان عن قوله تعالى : « ان تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ١٧ ــ التغابن » . وكل أقوال الامام وافعاله ترجمة صادقة ناطقة بمعاني القرآن وأهدافه بشهادة الرسول الاعظم (ص) الذي قال : « علي مع القرآن والقرآن مع علي » . جاء هذا الحديث في « مستدرك الصحيحين » ج ٣ ص ١٢٤ طبعة حيدر آباد سنة ١٣٢٤ هـ ، وفي « مجمع الزوائد » رواية عن الطبري ج ٩ ص ١٣٤ طبعة مكتبة القدسي سنة ١٣٥٢ هـ ، وفي « الصواعق المحرقة » ص ٧٥ طبعة مصر سنة ١٣١٢ هـ (انظر كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة) .

في روضة الكافي :

واوضح مما جاء في النهج عامة في هذا الباب ــ ما نقله الكليني

في « روضة الكافي » ج١ ص١٢٤ المطبعة الاسلامية بطهران سنة ١٣٨٢هـ:

« قسَّم الامام العطاء في ذات يوم ، فأعطى رجلا من الانصار ثلاثة دنانير ، وجاء بعده غلام اسود ، ، فأعطاه ثلاثة دنانير . فقال الانصاري : يا امير المؤمنين هذا غلام اعتقته بالامس تجعلني واياه سواء ؟ فقال الامام: ان آدم لم يلد عبداً ولا أمة ، ان الناس كلهم أحرار » .

هكذا يرى الامام « ان الناس كلهم أحرار » لان حرية الجميع ضرورية لازمة لحياة الجميع والسير بالانسانية على طريقها القويم ، طريق العدل والتقدم ، اما اختصاص الحرية لفئة دون فئة فينحرف بهـا الى الظلم والتخلف ، ويخلق لها أفدح الاضرار والاخطار .

لقد آمن الناس منذ القديم ان ولد آدم ينقسمون الى عبيد واحرار . واستمر هذا الايمان ـ بتأثير الظروف ـ آلاف السنين ، وما سجل التاريخ ، كما نعلم ، لفيلسوف أو مصلح « أبيض » ما سجل كلمة لاهبة غاضبة على هذا التقسيم قبل الامام علي بن ابي طالب . ولا بدع اذا سبق الامام زمانه بمئات السنين فانه « من رسول الله كالصنو من الصنو والذراع من العضد » . ولانه سبق زمانه بمئات السنين وقاسى ما قاساه من المشاق والمتاعب .

في التوراة والانجيل :

والديانة المسيحية تحترم الانسان وتصون دمه وماله وعرضه من العدوان ، وتأمر بالحب والمسالمة حتى للعدو المبغض ، كما جاء في انجيل متى الاصحاح ٥ الآية ٤٣ ، وانجيل لوقا الاصحاح ٦ الاية ٢٧ ، ولكن المسيحيين يؤمنون بتوراة اليهود تماما كما يؤمنون بالانجيل ، مع ان اله التوراة مرتبط بالشعب اليهودي وحده دون سائر الشعوب كما في سفر

التثنية الاصحاح ٧ الآية ٧ والاصحاح ١٠ الاية ١٦ في حين ان اله الانجيل للبشرية جمعاء ، وايضا اله التوراة ظـالم سفاح يأمر بقتـل النسـاء والاطفال وحرق القرى والمدن كما في سفر العدد الاصحاح ٣١ الآية ١٠ وسفر يشوع الاصحاح ٦ الاية ٢١ في حين ان اله الانجيل هو اله الحب والرحمة .

ولا ادري كيف تم الجمع بين الضدين ؟ ومن الذي ربط بـين المتنافرين ؟ وقرأت في مجلة « الفكر المعاصر » المصرية عدد كانون الثاني سنة ١٩٧١ : أن جماعة من الآباء المسيحيين في العصر المسيحي الاول نادوا بالفصل بين التوراة والانجيل ، بعد أن تم الربط بينهما في ظرف كانـت المسيحية مغلوبة على أمرها .

واصبح الآن من الواضح ان الصهيونية تحشد كل قواها وعلى كل مستوى لكي يكفر المسيحيون باله الحب والرحمة ، ويؤمنـوا برب الصهيونية الجائر الغادر .. ولا تنس ان الصهيونية حصلت في سنة ١٩٦٥ من مجمع الفاتيكان المسكوني على تبرئة اليهود من دم المسيح تحت ستار التعايش السلمي بين الأديان ، وان الكنيسة الشرقية عارضت هذه التبرئة بشدة على أساس انها تخالف النص الصريح الذي جاء في الانجيل .

ومن ذلك اليوم لم يعد الكاثوليك والبروتستانت يلعنون اليهود في صلواتهم كما كانوا يفعلون من قبل .

الفهرس

الموضوع	الصفحة

فلسفة التوحيد

فلسفة الولاية

الموضوع	الصفحة

معالم الفلسفة الاسلامية

الفصل الاول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الموضوع | الصفحة

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الموضوع الصفحة

الفصل الثاني عشر

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

المعـرفة

الفصل الخامس عشر

الفصل السادس عشر

المتصوفة

الفصل السابع عشر

الالهيات

الموضوع	الصفحة

الفصل الثامن عشر

الفصل التاسع عشر

الفصل العشرون

علم الله

الفصل الحادي والعشرون

الفصل الثاني والعشرون

الفصل الثالث والعشرون

الفصل الرابع والعشرون

الموضوع | الصفحة

الفصل الخامس والعشرون

الفصل السادس والعشرون

الفصل السابع والعشرون

الفصل الثامن والعشرون

الفصل التاسع والعشرون

الموضوع الصفحة

الفصل الثلاثون

الفصل الحادي والثلاثون

القسم الثاني ـ نظرات في التصوف والكرامات

الفصل الاول

الموضوع | الصفحة

الفصل الثاني

الافلاطونية الحديثة

الفصل الثالث

الفصل الرابع

التنسك

الفصل الخامس

الموضوع | الصفحة

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر
كرامات الاولياء

الموضوع الصفحة

الفصل الثالث عشر

فلسفة المبدأ والمعاد

الصفات القدسية

الموضوع	الصفحة

علي والفلسفة

الموضوع | الصفحة

في الالهيات

الانبياء

في الانسان

في الاخلاق

الموضوع الصفحة

من فقه الاخلاق

الموضوع | الصفحة

في الراعي والرعية

من عهد الامام للأشتر

الاسلام بنظرة عصرية

الموضوع الصفحة

الاسلام والحياة

الاسلام والفطرة

لا نجاح بلا تخطيط

غزو الاسلام من الخارج والداخل

الدفاع عن الدين في المؤتمرات الاسلامية والمسحية

الأخلاق عند الامام علي

الموضوع — الصفحة

الفقهاء والتجديد

الانسان والقرد

قيمة الانسان في القرآن ونهج البلاغة